

للصاحب كمال الدين
عمر بن أحمد بن أبي جرادة
المتوفى سنة ٦٦٠ هـ

حققه وقدم له
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء ٢-١




بسم الله الرحمن الرحیم

زبده الحلب من تاريخ حلب

كاتب:

كمال الدين عمر بن احمد بن ابى جراده حلبى (ابن العديم)

نشرت فى الطباعة:

دار الكتاب العربى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

زبده الحلب من تاريخ حلب

اشاره

سرشناسه : ابن عديم، عمر بن احمد، ۵۸۸-۶۶۰ق.

عنوان و نام پديدآور : زبده الحلب من تاريخ حلب/ کمال الدين عمربن احمدبن ابی جراده؛ حققه و قدم له سهيل زکار.

مشخصات نشر : بيروت: دار الکتاب العربی، ۱۴۱۸ ق.= ۱۹۹۷ م.= ۱۳۷۶ -

مشخصات ظاهری : ج.: نمونه.

وضعيت فهرست نويسی : برون سپاری.

يادداشت : عربی.

يادداشت : ج. ۲(چاپ اول: ۱۴۱۸ ق.= ۱۹۹۷ م.= ۱۳۷۶).

يادداشت : کتابنامه.

يادداشت : نمايه.

موضوع : حلب (سوريه) --تاريخ

موضوع : حلب (سوريه) -- اوضاع اجتماعی

شناسه افزوده : زکار، سهيل

رده بندی کنگره : DS۹۹/ح۸الف ۲۴ ۱۳۷۶

رده بندی ديويی : ۹۵۶/۹۱۳

شماره کتابشناسی ملی : م ۷۸-۲۶۸۰۷

ص: ۱

المجلد ۱

اشاره

[مقدمه المحقق]

بسم اللّه الرّحمن الرحيم

تقديم

تعدّ مدينه حلب من أعرق مدن بلاد الشام و أكثرها أهميه، و قد شغلت أعظم الأدوار فى تاريخ هذه البلاد فى الاسلام، و على محورها و محور دمشق دارت الأحداث الرئيسيه لتاريخ الشام الاسلامى، و منها استردت الشخصيه الشاميه الثقافيه ذاتها بعد ما لحق بها التدمير أثر سقوط الدوله الأمويه.

و صحيح أن الأدوار السياسيه و العسكريه لحلب عاليه جدا، لكن دورها الحضارى أكثر تميزا و تأثيرا و شموليه، و كان التاريخ بين أبرز الحقول الثقافيه التى أسهم فيها الحلبيون، و لا أعنى سكان المدينه فقط بل سكان الشام الشمالى، لأن حلب غدت منذ القرن الرابع للهجره/ العاشر للميلاد مركزا لإماره، غالبا ما امتدت حدودها جنوبا حتى بلده الرستن على العاصى.

و كان أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن المهذب المعرى، أهم مؤرخى القرن الخامس ه/ الحادى عشر م، هذا و لم أستطع الوقوف على ترجمه منفصله له، و لكن ابن العديم الذى نقل أجزاء كبيره جدا من تاريخه

فی کتابه بغیه الطلب، قد ذکره بین تلامیذ أبی العلاء المعری [ت ۴۴۹ ه/ ۱۰۵۷ م] و توحی النقول الطویله التی قام بها ابن العدیم بطبیعه کتابه، حیث یبدو أنه کان یتألف من تاریخ حولی عام رکز علی تدوین أخبار الأحداث التی وقعت فی معره النعمان و حلب، و تعلقت المعلومات المنقوله بتأسیس الدوله المرداسیه فی حلب من قبل صالح بن مرداس، ثم بحکم ثمال بن صالح بن مرداس و علاقاته بالخلافه الفاطمیه، و ببدایات استیلاء السلاجقه علی بلاد الشام بعد العراق، مع حمله السلطان ألب أرسلان ضد حلب.

و کان من معاصری ابن المهذب الطبیب المسیحی أبو الخیر المبارک بن شراره، و کان ابن شراره کاتبا بالاضافه إلی کونه طبیبا، و قد عاش فی مدینه حلب حتی أیام رضوان بن تتش (۱۰۹۵- ۱۱۱۳ م)، و قد هجر مدینته و ذهب أولا إلی أنطاکیه و من هناک إلی صور بسبب سوء معامله رضوان له و طغیانه، و فی صور توفی حوالی سنه ۴۹۰ ه/ ۱۰۹۶ م، و کتب المبارک تاریخا روی فیه بشکل أساسی الحوادث التی وقعت فی أیامه، لا سیما الوقائع التی شهدتها حلب، و کان من شهودها. و یبدو أن هذا التاریخ لم یرج کثیرا، و لذلک فقدت نسخه بعد وفاه مؤلفه بأمد قصیر، ذلک أن القفطی [ت ۶۴۶ ه/ ۱۲۴۸ م] قال إنه أخفق فی الحصول علی نسخه منه، و أنه تلقی من مصر نسخه سیئه و مختصره من هذا التاریخ، کان قد اختصرها مصری غیر معروف.

و من معاصری ابن شراره کان منصور بن تمیم بن الزنکل، الذی کان شاعرا من سرمین، شهد أحداث وفود الترکمان إلی الشام الشمالی، و دوّن بعضها لکن لا نعرف وفق أی منهج، و الذی نعرفه أن ابن العدیم نقل عنه بعض الأخبار فی کتابه بغیه الطلب فی تاریخ حلب.

و قام فی القرن السادس ه/ الثانی عشر/ م علی الأقل ثلاثه من الحلبیین بکتابه تواریخ خاصه بمدینه حلب و هم: حمدان بن عبد الرحیم الأثاربی [ت ١١٤٧ م] و علی بن عبد الله بن أبی جراده [ت ١٥٥١ م] و محمد بن علی العظیمی المتوفی حوالی سنه ١١٦١ م، و من المؤسف أنه لم یتعد ما وصلنا مما کتبه هؤلاء عن حلب بعض النقول الموجوده لدی ابن العدیم فی کتابه بغیه الطلب.

کان حمدان طبیبا و شاعرا، و قد امتلک ذخیره کبیره من معارف عصره، و قد خدم فی حقب متفاوته فی إداره کل من المسلمین فی حلب (أیام زنکی بشکل خاص) و إدارات الصلیبیین فی أنطاکیه و المناطق المحیطه بها، و قد سفر لزنکی حیث بعثه إلی الصلیبیین فی أنطاکیه و إلی مصر و دمشق و لربما إلی بغداد، و قابل فی القاهره الخلیفه الفاطمی الآمر [١١٠١- ١١٣٠ م] و لکن بعد ما برهن أنه شیعی إمامی، و أنه لم یکن من أفراد الاسماعیلیه الحشیشیه، و تمنحنا سیره حیاه حمدان بعض المعلومات المفیده حول حیاه کل من المسلمین و الصلیبیین فی الشام الشمالی، و حول العلاقات بینهما فی النصف الأول من القرن الثانی عشر.

أرخ حمـدان لقـدوم الفرنجه إلى بلاد الشام، كما و حمل واحـد من كتبه عنوان المفوف، و يرجح أنه أوقفه على تاريخ حلب، و اهتم فيه بشكل خاص بالأحداث التى وقعت بعد سنه ۴۹۰ ه/ ۱۰۹۶ م.

و كان من معاصرى حمدان على بن عبد اللّه بن أبى جراده، و كان مثله مثل حمدان شاعرا و عالى الثقافه، و أيضا أمامى العقيده، و قد كتب بالتاريخ كتابا دعاه «تاريخ ملوك حلب»، و عن هذا الكتاب نقل ابن العديم بعض المعلومات المتعلقه بسـقوط الاماره المرداسيه، و حول الأوضاع الداخليه فى مدينه حلب آنذاك.

و كان أيضا من معاصـرى حمدان و ابن أبى جراده محمد العظيمى، الذى كان بدوره شاعرا و معلم مدرسه، و قد كتب العظيمى عـده كتب بالتاريخ، أوقف واحدا منها على تاريخ حلب، و حمل واحد منها اسم «الموصل على الأصل المؤصل» و قد كتب هذا الكتاب على شـكل حوليات عامه لتاريـخ الاسـلام، و قـد وصـلنا ما يمكن عـده مختصـرا له، أو هو نفسه فى نسـخه خطيه وحيده (مكتبه بيازيد اسـتانبول رقم ۳۹۸، و نشـر محققا مؤخرا فى دمشق سـنه ۱۹۸۵ باسم تاريـخ حلب). و على الرغم من سـيطره طابع الاختصـار و العموميـات على هـذا الكتـاب، فـإنه يحتـوى فى أواخره على معلومـات ثمينه جـدا تتعلـق بحلب خلال أواخر القرن الحادى عشـر م، هـذا و نقل ابن العـديم فى كتابه بغيه الطلب من كتب العظيمى الأخرى موادا تتعلق بعصـر الـدوله المرداسـيه ثم بدايات الحكم السلجوقى لحلب.

و مع أن بعض مؤرخی القرن الثانی عشر م قد صنف کتبا تعالج تاریخ حلب فقط، فإن العدد الأکبر منهم قد تابع السیر علی مذاهب الأوائل فی کتابه حولیات عامه، و کان من بین هؤلاء یحیی بن علی التنوخی، و یعرف عاده بابن زریق، و قد ولد عام ١٠٥١ م فی معره النعمان، و لعله مات فی العقد الأول من القرن الثانی عشر.

و کتب ابن زریق تاریخا حولیا، أوقف أخباره بشکل أساسی علی الاحتلال السلجوقی لبلاد الشام، ثم علی الغزو الصلیبی، و عنه نقل ابن العدیم فی کتابه بغیه الطلب، و من خلال ابن العدیم تعرفنا علیه، لأن کتابه بحکم المفقود.

و کانت الأسره المنقذیه قد تأسست فی قلعه شیزر، حیث انتقلت إلیها من بلده کفر طاب، و فی شیزر أنجبت الأسره المنقذیه عددا من الفرسان و الشعراء و الکتاب، شهر منهم بشکل خاص أسامه بن مرشد [ت ١١٨٨ م]، و مع أسامه أسهم أثنان من أخوانه بکتابه التاریخ هما: علی و منقذ، فقد صنف منقذ تاریخا حولیا جعله ذیلا لتاریخ ابن المهذب المتقدم الذکر، و کتب أخوه علی أیضا تاریخا حولیا حمل اسمه، أما أسامه صاحب کتاب الاعتبار، فقد صنف عددا کبیرا من الکتب وصلنا بعضها لکن لم یصلنا ما کتبه بالتاریخ العام إلا من خلال النقول التی احتفظ بها ابن العدیم فی کتابه بغیه الطلب.

و مثلما نقل ابن العديم عن الأخوه الثلاثه من آل منقذ، نقل عن أبى غالب عبد الواحد ابن مسعود بن الحصين، الذى يرجح أنه كان من أهالى معره النعمان، و قد صنف تاريخا حوليا، و مثله كان من بين مؤرخى معره النعمان عبد القاهر بن علوى، و قد ذكره العماد الأصفهانى الكاتب، و بيّن أنه كان شاعرا، شغل منصب قاضى معره النعمان، و أنه قد لقيه فى مدينه حماه فى آذار ۱۱۷۶ م، و كتب ابن علوى كتابا بالتاريخ اسمه «نزهه الناظر و روضه الخاطر»، و كان هذا الكتاب أيضا بين مصادر بغيه الطلب لابن العديم.

و نقل ابن العديم عن مؤرخ حلبى آخر اسمه أبو منصور هبه الله بن سعد الله بن الجبرانى، و لا نعرف تاريخ ميلاد أو وفاه هذا المؤرخ، لكننا نعلم أن واحدا من أولاده و اسمه أحمد قد توفى سنه ۶۲۸ ه/ ۱۲۳۱ م.

مما تقدم عرضه بايجاز نعلم أن المؤرخين الذين أنجبتهم اماره حلب كثير عددهم خصب انتاجهم، و لقد تأوجت أعمال التدوين التاريخى فى الشام الشمالى فى القرن السابع للهجره/ الثالث عشر للميلاد، و أبرز الذين خلفوا لنا العديد من المؤلفات هم: ابن أبى طى ء (يحيى بن حميده- توفى سنه ۶۳۰ ه/ ۱۲۳۱ م)، و القفطى (على بن يوسف- توفى سنه ۶۴۶ ه/ ۱۲۴۸ م) ابن العديم (عمر بن أحمد- توفى سنه ۶۶۰ ه/ ۱۲۶۱- ۱۲۶۲ م) و ابن شداد (محمد بن على- توفى سنه ۶۸۴ ه/ ۱۲۸۵ م).

و يمكن أن نضيف إلى هؤلاء بهاء الدين بن شداد صاحب سيره صلاح الدين لأنه أمضى سنوات حياته الأخيره فى حلب.

و كـان القفطى، الـذى شـغل منصب الوزير بحلب، مصـنفا لعـدد من الكتب تتضـمن عـده موضوعـات منهـا واحـد حمـل عنوان «الاستئنـاس فى أخبار آل مرداس» لا نعرف نسـخه عنه، و فيما عـدا ما يوحيه عنوانه لا نعرف شـيئا عن محتوياته و لا الطريقه التى كتب بها.

و كتب ابن أبى طى ء عده كتب معظمها بحكم المفقود، و قد ذكر له حاجى خليفه كتابا اسمه «معادن الذهب» فى تاريخ حلب، كما و يرجـح أنه كتب سـيره لصـلاح الـدين الأيوبى، و أتى بتفاصـيل حوله لا نجـدها عنـد سواه، فقد كان والد هذا المؤرخ من زعماء الشـيعه الاماميه بحلب، و قد اضـطر إلى مغادره مدينته أيام نور الدين محمود بسـبب السـياسه الدينيه التى اتبعها و لضـغطه الشديـد على الشـيعه، و لـذلك جاءت أخبار ابن أبى طى ء مشايعه لصـلاح الـدين مضاده لنور الدين، و مع ذلك هى هامه جدا اعتمدها و استفاد منها كل من ابن العديم و أبو شامه فى الروضتين.

هـذا و كتب ابن شـداد كتاب الأعلاق الخطيره، و جل مواده عن حلب نقلها عن ابن العديم، و ابن العديم هو أعظم مؤرخ أنجبته بلاد الشـام فى تاريخهـا الاسـلامى كـان غزير الانتـاج موسوعى المعارف، و هو خير ممثل للحضاره العربيه و الثقافه الشاميه قبيل الاجتياح المغولى المدمر.

و ابن العديم هو الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن هبه الله ...

ابن أبى جراده، ولـد فى مـدينه حلب فى ذى الحجه سـنه ثمان و ثمانين و خمسـمائه للهجره و عند ما بلغ السابعه من عمره حمل إلى المكتب للدراسه، و هناك

ظهرت استعداداته مما بشر بنبوغه المبكر، و قد كان نحيف البنيه لذلک عنی به أبوه عنايه كبيره، فحدب على رعايه صحته، و سهر على تربيته و تعليمه، و نظرا لمنزله والده و لما تمتعت به أسرته من مكانه نال ابن العديم حظه وافيا من معارف عصره الدينيه و الدنيويه، و يروى بأن اباه حضه على اتقان قواعد الخط، ذلک أنه- أى الأب- كان ردى ء الخط، فأراد أن يجنب ابنه هذه الخله، و نجح فى هذا المجال نجاحا كبيرا جدا، و قد وصف ياقوت اتقان ابن العديم لقواعد الخط العربى بقوله: «و اما خطه فى التجويد و التحرير و الضبط و التقيد فسواد ابن مقله، و بدر ذو كمال عند على بن هلال»، و يؤكد شهاده ياقوت هذه المجلدات العشره من كتاب بغيه الطلب التى وصلتنا بخط ابن العديم، حيث نرى واحدا من المع النساخ فى تاريخ العربيه و أكثرهم ضبطا و براعه و أمانه و يقظه و درايه.

و فى باب العنايه فى إنشاء ابنه و تثقيفه صحب أحمد بن هبه الله ولده عمر فى رحلاته و أسفاره، حيث زار دمشق أكثر من مره كما زار بيت المقدس و رحل إلى العراق و الحجاز.

و عندما بلغ سن الشباب وجد ابن العديم السبل أمامه كلها مفتوحه لمستقبل لامع، و كان لمواهبه و ثقافته و أسرته الفضل الأكبر فى تحقيق نجاحاته، و هنا يحسن التوقف قليلا للتعرف إلى اسره ابن العديم، و ذلک قبل متابعه الحديث عن مراحل حياته:

يعرف الجد الأعلى للصاحب كمال الدين باسم ابن أبى جراده، و كان

صاحبا لأمیر المؤمنین علی بن أبی طالب، ینتسب إلی ربیعه من عقیل إحدی کبریات قبائل عامر بن صعصعه العدنانیه، و کان یقطن مدینه البصره، و فی هذه المدینه عاش أولاد آل أبی جراده و أحفادهم، و فی مطلع القرن الثالث للهجره قدم أحد أفراد أسره أبی جراده إلی الشام فی تجاره و کان اسمه موسی بن عیسی و حدث أنئذ أن ألم بالبصره طاعون، لهذا قرر موسی البقاء فی الشام، و استوطن مدینه حلب، و فی هذه المدینه التی کانت عاصمه شمال بلاد الشام، و مفتاح الطریق إلی العراق و بلاد المشرق الاسلامی مع آسیا الصغری و الأراضی البیزنطیه، فیها خلف موسی بن عیسی أسره نمت مع الأیام عددا و مکانه و ثروه و شهره، و تملکت هذه الأسره الأملاک، کما ساهمت فی جمیع میادین الحیاه فی حلب من سیاسه و علم و قضاء و اداره و تجاره و غیر ذلک، و بهذا غدت أسره آل أبی جراده من أبرز أسر حلب، و ظلت هکذا حتی حل بحلب الدمار علی أیدی جیوش هولاکو، کما ظلت محتفظه باسمها ذاته طوال تاریخها، إنما فی القرن الأخیر من حیاتها کسبت اسما اضافیا، أخذ رویدا یعم فی الاستعمال أکثر من الاسم الأصیل، لکنه لم یلغه و کان الاسم الجدید هو «العدیم»، و نحن لا نملک تعلیلا لسبب هذه التسمیه، فقد قال یاقوت: «سألته أولا لم سمیتم ببنی العدیم؟ فقال:

سألت جماعه من أهلی عن ذلک فلم یعرفوه و قال: هو اسم محدث لم یکن آبائی القدماء یعرفون بهذا».

و دانت أسره ابن أبی جراده بالتشیع حسب مذهب الامامیه، و ظلت هکذا حتی بدأ التشیع بالانحسار فی حلب، و ذلک منذ النصف الثانی للقرن

الخامس/ الحادی عشر، هـذا و ان کنا لا نعرف بالتحدیـد تاریـخ أخذ هذه الأسـره بمذاهب السـنه أمکننا أن نقدر ذلک، بحکم سقوط سـلطه الشـیعه فی حلب مع عصـر السـلطان السلجوقی الب ارسلان (و هو أمر بحثته بالتفصیل فی کتابی مدخل إلی تاریخ الحروب الصـلیبیه) و نظرا لعلاقات أسـره آل أبی جراده الخاصه مع سـلطات حلب، لابد أن الحال اقتضی المسایره و التحول إلی السنه، و لربما حسب المذهب الحنفی.

و فی عوده نحو سـیره الصاحب کمال الدین نجده یحدثنا بأن والده خطب له و زوجه مرتین، فقد اخفق فی الزواج الأول، لذلک طلق زوجته و تزوج ثـانیه بابنه الشـیخ الأجل بهاء الـدین أبی القاسم عبـد المجیـد بن الحسن بن عبـد الله- المعروف بالعجمی، و کان شـیخ أصـحاب الشافعی، و من أعظم أهل حلب منزله و قدرا و ثروه و مکانه سیاسیه و دینیه و اجتماعیه، و من زواجه الثانی رزق الصـاحب کمال الـدین أولاده، و لم یمت والـده حتی کان ابنه أحمـد طفلا یـدب علی الأرض، و یمکننا التعرف إلی هـذا الابـن من خلاـل استعراضـنا لکتاب بغیه الطلب حیث سـمع الکتاب علی أبیه و قام بعـد وفاه والـده باسـتدراک بعض المواد التی حالت المنیه بین والده و بین تدوینها فی کتابه، فمن المقرر أن ابن العدیم مات دون أن یقوم باعاده النظر فی مؤلفه «بغیه الطلب» و لم یقم بتـبییضه، و الـذی وصـلنا هـو مسـوده الکتـاب، إنمـا نظرا لـبراعه المؤلـف و حسن طریقته و جوده خطه، نری أن مکـانه الکتـاب و أهمیته هی هی، ذلک أن أهمیه الکتاب نابعه مما حواه من مواد تاریخیه نهلها ابن العـدیم من وثائق و مصـنفات غیبها الزمن عنا، فابن العدیم کان مصنفا ممتازا

و لم يكن «مؤرخا» حسب مصطلحات أيامنا هذه، فهو قد جمع فى كتابه المواد الاخباريه و نسقها، لكنه لم يحاول تعليلها و معالجتها كما يفعل الباحث فى التاريخ فى جامعات أيامنا هذه ...

و منذ أن بلغ الصاحب كمال الدين سن الشباب أخذ يشارك فى الحياه السياسيه و العلميه لمدينه حلب، فقد كان يحضر مجلس الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين- صاحب حلب- فيكرمه و يقربه و يقبل عليه أكثر من أقباله على غيره على الرغم من صغر سنه، و فى ذى الحجه سنه ست عشره و ستمائه ولى ابن العديم أول عمل رسمى، لقد ولى التدريس فى مدرسه شاذبخت، و كانت من أجل مدارس حلب و ارقاها، كل «هذا و حلب اعمر ما كانت بالعلماء و المشايخ، و الفضلاء الرواسخ، إلا أنه رئى أهلا لذلك دون غيره، و تصدر، و ألقى الدرس بجنان قوى، و لسان لوذعى، فأبهر العالم و أعجب الناس» و يبدو أنه تولى بعد هذه المدرسه التدريس بالمدرسه الحلاويه، التى كانت أجل مدارس حلب، و هى مدرسه ما زالت قائمه حتى الآن، تعلو واحدا من جدرانها لوحه حجريه كتبها ابن العديم بخطه.

و مع مرور الأيام علت مكانه ابن العديم، فسفر عن ملوك حلب إلى ملوك الدول المجاوره فى بلاد الشام و الجزيره و آسيه الصغرى، و إلى سلاطين القاهره و خلفاء بغداد، و كانت خزائن كتب و وثائق كل بلد زارها تحت تصرفه، فنهل منها ما لم ينهله سواه، و اودع جل ذلك فى كتابه بغيه الطلب، و من هذه الزاويه يمكن أن نرى أهميه هذا الكتاب، و من ناحيه أخرى يمكننا

أن نرى المدى الذى وصلت إليه خزائن المشرق العربى قبيل وقوع الطامه الكبرى على يد المغول بسنوات.

و فى كل مكان زاره ابن العديم كان يلقى الحفاوه من رجال السلطه، و كان فى الوقت نفسه يلتقى بالعلماء و شيوخ العصر فيأخذ عنهم، و لقد أودع ما أخذه عن علماء عصره، و ما رآه من أحداث أو شارك به، أودعه فى كتابه بغيه الطلب، حتى غدا هذا الكتاب أشبه بمنجم للمعلومات لا ينضب معينه.

و ظل نجم ابن العديم يصعد فى سماء السياسه فى حلب و سواها حتى وصل إلى مرتبه الوزير، و لكن مشاغل السياسه و الحياه العامه لم توقف العمل الفكرى و لم تعطله، و هكذا صنف ابن العديم عددا كبيرا من الكتب، غلب على معظمها سمه التاريخ، و لعل أشهر كتبه «كتاب زبده الحلب من تاريخ حلب» و «كتاب الانصاف و التحرى فى دفع الظلم و التجرى عن أبى العلاء المعرى» و كتابه بغيه الطلب الذى أشرنا إليه حتى الآن كثيرا، و قد طبع كتاب زبده الحلب فى أجزاء ثلاثه فى دمشق، و أعدت الآن تحقيقه، أما كتاب الانصاف فقد طبعت قطعه منه للمره الأولى بحلب ثم اعيد طبعها فى القاهره، و أقول قطعه ذلك أن الكتاب لم يصلنا كاملا بشكل مباشر.

و عندما قلت بشكل مباشر اردت أن أقول بأن الكتاب وصلنا بشكل غير مباشر، فقد روى لى منذ سنوات أن واحدا من أحفاد ابن العديم ممن عاش بعد جده فى القاهره، صنف كتابا حول القاضى الفاضل دعاه باسم

«سوق الفاضل فی ترجمه القاضی الفاضل»، و توجد من هذا الکتاب نسخه خطیه فی مکتبه شیخ الإسلام عارف حکمت بالمدینه المنوره، و قیل لی إن فی ثنایا الکتاب ورد فی احدی رسائل القاضـی الفاضل بیت شعر من شعر المعری، و اراد حفید ابن العدیم أن یعرف بالمعری، فقال: قال جدی فی کتابه الانصاف و التحری: و أثبت نص الکتاب بکماله، و یوجد هذا الکتاب مصورا علی شریط فی معهد المخطوطات التابع لجامعه الدول العربیه بالقاهره، و مضیت إلی المدینه المنوره للتأکد من هذا الخبر، فتیقنت من عدم دقته و ان حفید ابن العدیم نقل قلیلا من کتاب جده الانصاف و التحری.

و یعود سـبب انتقال ابن العدیم إلی القاهره، إلی تعرض مدینه حلب إلی الدمار سـنه ۶۵۷ ه علی یـد جیوش هولاکو، و کان ابن العـدیم غـادر مـدینته إلی دمشق، ثم منها إلی غزه فالقاهره، و یبـدو أنه عاد بعـد عین جالوت إلی دمشق، و ربما اراد التوجه إلی حلب، أو توجه إلیهـا فعلاـ لیعاین الـدمار الـذی لحقها، و فی أثناء ذلک عرض علیه هولاکو منصب قاضـی حلب، فرفض، و عاد إلی القاهره، حیث أمضی بقیه حیاته، و قد وافته منیته فی مصر فی العشرین من جمادی الأولی سنه ستمائه و ستین للهجره.

و کنت فی عـام ۱۹۸۸ قـد حققت الموجود من کتاب بغیه الطلب و نشـرته بـدمشق، و کنت من قبل قـد تعاملت مطولا مع کتاب «زبده الحلب من تاریخ حلب» الذی انتزعه ابن العدیم و اسـتخلصه من مواد کتاب «بغیه الطلب»، و جاء هذا التعامل لدی اعدادی لرساله الدکتوراه فی جامعه لندن عن اماره

حلب فی القرن الخامس ه/ الحادی عشر میلادی، و عندما بدأت بعملی باعداد اطروحتی کان المنشور من کتاب زبده الحلب الجزء الأول [نشر فی دمشق ١٩٥١] و الثانی [نشر فی دمشق ١٩٥۴] لذلک قمت بتصویر المتبقی من المخطوط من باریس [نشر الجزء الثالث فی دمشق ١٩۶٨].

لقد تولی المرحوم الدکتور سامی الدهان تحقیق کتاب زبده الحلب، و نشره فی/ ١٠۵۴/ ص وزعها علی ثلاثه أجزاء، و قدم لنشرته بمقدمه مسهبه عن حیاه ابن العدیم و عن مؤلفاته، و لا شک أنه بذل جهودا طیبه فی تحقیق الکتاب الزبده، لکن یؤخذ علی عمله الاطاله، لا بل الاسراف بالاطاله، فهو کان مغرما بالحواشی و باقحام العناوین، و أقحم العناوین فی نص الکتاب و کأنها منه، و لم یضعها بین حواصر للأمانه، و فی هذا العمل تدلیس و تزییف.

أما الحواشی فأکثر من تکرارها فضلا عن أنه اختلق بعضها بلا سبب، حتی أنه کان یدعی وجود طمس بالمخطوط، و من ثم اجتهاده بالقراءه و الضبط، هذا و أخفق الدکتور الدهان فی عده أماکن فی قراءه النص إلی حد أن «عین الجر» جاءت عنده «عبر الجسر».

و کان المرحوم الدهان قد وصف المخطوطات التی اعتمدها خاصه الأساسیه منها و هی مخطوطه المکتبه الوطنیه فی باریس (رقم ١۶۶۶- الرقم القدیم ٧٢٨ مخطوطات عربیه) و هی تقع فی ٢۶٨ ورقه بحجم ٢۵* ۵، ١٧ سم، و کتبت هذه النسخه «لإحدی عشره لیله خلت من ربیع

الآخر سنه ست و ستين و ستمائه» أى بعد وفاه ابن العديم بست سنوات، و قد اعتمد ناسخها على نسخه ابن العديم التى كتبها بخط يده.

و كنت قد اشتريت منذ أكثر من عامين بعض مصورات مكتبه المرحوم الدكتور الدهان من ذلك مصوره كتاب زبده الحلب، و على هذا اعتمدت المصوره نفسها التى اعتمدها.

و من المرجح أن ابن العديم انتزع مواد زبده الحلب من مواد بغيه الطلب لكن قبل اكماله لتصنيف كتاب البغيه، و لهذا نلاحظ وجود بعض الفوارق بين روايات الكتابين أحيانا حول الخبر نفسه، و صنف ابن العديم الزبده تلبيه لرغبه الملك العزيز بن الظاهر الأيوبى [٦١٣- ٦٣٤ ه] لكنه لم يقيد نفسه بتاريخ عهده، بل زاد عليه، و من المؤكد أنه لم يبيض كتابه بغيه الطلب، بل إن بعضهم يرى إنه لم يكمل تصنيفه.

و كتاب زبده الحلب يختلف فى منهجه عن كتاب البغيه، و هو يشبه من بعض الوجوه تاريخ دمشق لابن القلانسى، و كتب الحوليات، و لا شك أنه أهم مصدر فى بابه، ظهر فيه ابن العديم بمظهر المؤرخ الأصيل.

و انصب اهتمامى لدى تحقيقى لهذا المصدر الهام على ضبط النص و اخراج جميع الشوائب منه، و خففت من الحواشى قدر الامكان، لكن اضطررت لأسباب فنيه إلى اضافه بعض العناوين، فوضعت ما أضفته بين حاصرتين و نبهت على ذلك، و لعل مما ساعدنى فى عملى أننى أعمل فى تاريخ

حلب منـذ أكثر من ثلاـثين سـنه، و أننى حققت كتـاب بغيه الطلب، و توفر لى مصـادر جديـده، ثم إن اختصاصـى الأساسـى هو التاريخ الإسلامى.

و الله الموفق إلى السداد و الصلاه و السلام على نبينا محمد و على آله و صحبه أجمعين.

دمشق ۵ جمادى الأولى ۱۴۱۷ ه

۱۷ أيلول ۱۹۹۶ م

ص: ٢٣

الصفحه الأولى من زبده الحلب- نسخه باريس-

الصفحه الغلاف لمخطوط زبده الحلب- نسخه باريس-

ص: ٢٥

الصفحه الأخيره من مخطوط زبده الحلب- نسخه باريس-

الصفحه الأولى من الدرارى بخط ابن العديم

نموذج من خط ابن العديم بغيه الطلب

زبده الحلب من تاريخ حلب تأليف المولى الصاحب سفير الخرقه النبويه كمال الدين أبى حفص عمر بن أحمد بن هبه اللّه(١)

١- جاء على هـذه الصـفحه من مخطوط باريس: - قرى فى هذا الكتاب بطرس بن ديب الحلبى من طائفه الملكيه رحمه اللّه عليه و على أهله، و على قارى ء ذا الخط فى باريس فى بيت الوزير كولبيرت سنه ألف و ستميه و ثمانين مسيحيه. - رأيت بخيل صان سنـداس دارهى و لم نر قبله شـخص يحرس الخلاـ و مـا ذاك إلاـ النهر ضن النهر يعود طعامك مثل ما كان. رمت أمرءا فاحـذر عـداوته. من يزرع الشوك لا يحصـد به مـدو و إن أبدى مسالمه إذا رأى منك يوما فرصه و غيره. فى سـبع و عشـرين ليله بشـهر هلال شباط أتى فيها أن يكون فإنه صيام النصارى فاعلمن ذاك و ادرين.

[حلب فی قدیم الزمان]

اشاره

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم و ما توفیقی إلا باللّه الحمد للّه مقلّب الأمور. و مصرّف الدّهور. و مالک الأمیر و المأمور.

و الصّلاه علی نبیّه محمّد المصطفی الصّبور. الذی نسخ بدینه سائر الأدیان و قمع به کلّ کفور. و علی آله و أصحابه صلاه دائمه إلی یوم النّشور.

و بعد فإنّ بعض من یتعیّن علیّ امتثال أمره. و یجب علیّ الانقیاد إلی موالاته و برّه. التمس منّی تعلیق ما وقع إلیّ من ذکر أمراء حلب و ولاتها.

و ملوکها و رعاتها. فسارعت إلی تحصیل غرضه. و قمت من تلبیته بمفترضه.

و علّقت فی هذه الأوراق ذکر من ملکها من الولاه. و بعض من عثرت علیه من الوزراء و القضاه.

و أضفت إلی ذلک ذکر من بناها فی قدیم الزّمان. و معنی اسمها المختصّه هی به من بین سائر البلدان.

و رسمته: «بزبده الحلب من تاریخ حلب»؛ لأنّه منتزع من تاریخی الکبیر للشهباء. المرتّب علی الحروف و الأسماء.

و أرجو أن يكون وصل إليّ من ذلک ما لم يصل إلى سواى. و أن أبلغ من عفو اللّه و رحمته نهايه سؤلى و أقصى مناى. و باللّه أستهدى. و إلى فضله و كرمه أستعدى.

و أقول:

اسم حلب عربىّ لا شک فيه(۱). و كان لقبا لتل قلعتها(۲). و إنّما عرف بذلک لأن إبراهيم الخليل- صلوات اللّه عليه- كان إذا اشتمل من الأرض المقدّسه؛ ينتهى إلى هذا التلّ فيضع به أثقاله، و يبث رعاءه إلى نهر الفرات

۱- حلب مدينه عربيه موغله بالقدم، قامت على ضفه نهر قويق اليسرى، وسط منطقه زراعيه، تنتج الحبوب و الزيتون، فى موقع استراتيجى هام جدا، فقد شكلت صله وصل بين بلاد الشام و بلاد ما بين النهرين و الهضبه الايرانيه و البلدان الآسيويه الشرقيه، من جهه الشرق و آسيه الصغرى فأوربا الشرقيه من جهه الشمال، و شواطى ء البحر المتوسط من جهه الغرب. حافظت على اسمها دونما تبديل، فقد وردت فى نصوص مارى باسم حالاب، و خلاب و خالايا و حلبا، و فى النصوص المصريه القديمه خرب، و فى رسائل تل العمارنه حلب، و فى نصوص أوغاريت حلب، و فى النصوص الآراميه الصيغه نفسها، و وردت فى النصوص الحثيه باسم خلب و خالاب و حلباس، و سماها الهلنستيون بيروا، و استردت اسمها الأصيل بعد الفتح العربى، و تعاظمت مكانتها فكانت حاضره الشمال الشامى، و شغلت دوما أهم الأدوار السياسيه و الحضاريه و الاقتصاديه، و تميزت بتل قلعتها و بنشاط سكانها و عبقريتهم و امكاناتهم المتميزه.

۲- هناک اجتهادات جعلت إبراهيم الخليل من ايبلا، و هنا يمكن ربطه بتاريخ مدينه حلب، و لا نقيم وزنا للدعاوى الصهيونيه التوراتيه بشأن الانتماء إلى إبراهيم الخليل، فبنو اسرائيل اندثروا منذ عده آلاف من السنين، و ماورد بالتوراه من معلومات تاريخيه لم تثبته أعمال الكشف الأثرى، و الصهاينه الذين جاءوا من أوربا هم من أصل خزرى.

و إلى الجبل الأسود(١). و كان مقامه بهذا التلّ يحبس به بعض الرّعاء؛ و معهم الاغنام، و المعز، و البقر. و كان الضّعفاء إذا سمعوا بمقدمه أتوه من كلّ وجه، من بلاد الشمال. فيجتمعون مع من اتبعه من الأرض المقدسه، لينالوا من برّه؛ فكان يأمر الرّعاء بحلب ما معهم طرفى النّهار. و يأمر ولده و عبيده باتخاذ الطّعام فإذا فرغ له من ذلك أمر بحمله إلى الطرق المختلفه بازاء التلّ، فيتنادى الضّعفاء: «إنّ إبراهيم حلب»، فيتبادرون إليه.

فنقلت هذه اللّفظه كما نقل غيرها، فصارت اسما لتلّ القلعه. و لم يكن فى ذلك الوقت مدينه مبنّيه.

قيل: إنّ «بيت لاها»(٢) كان يقيم به أيضا إبراهيم- صلّى اللّه عليه- و رعاؤه تختلف إليه. و كان يفعل فيه أيضا، كما يفعل فى تلّ القلعه. لكنّ الاسم غلب على تلّ القلعه دون غيره.

١- « جبل دون اللكام من شرقيه، و يقال إن إبراهيم صلى اللّه عليه و سلم كان إذا أقام بحلب يبث رعاءه إليه ليرعوا غنمه فيه، و فيه أشجار كثيره غير مثمره» بغيه الطلب لابن العديم- تحقيقى ط. دمشق ١٩٨٨ ص ٤٣٨، و المراد هنا جبال الأمانوس.

٢- بهامش الأصل:« و بيت لاها هذا المشار إليه هو جبل اللكام، و يقال له بيت لاها الغربى و بيت لاها الشرقى هو ليلون، و يقال لكل منهما الغربى». و فى بغيه الطلب ص ٤٢٠ لدى الحديث عن جبل سمعان قال ابن العديم:« و فى وسط هذا الجبل جبل عال شاهق على الجبال التى حوله، يقال له بيت لاها، و هو بيت لاها الشرقى، لأن جبل اللكام يقال له بيت لاها الغربى، و معناه بالسريانيه بيت اللّه، و يقال إن إبراهيم عليه السلام لما هاجر إلى الشام، كان يرعى غنمه من أرض حلب إلى بيت لاها، و يقال لما حوله من الجبال جبل ليلون، و قيل فيه لولون».

و قیل: إنّ إبراهیم- صلی اللّه علیه- لمّا قطع الفرات من حرّان(۱) أقام ینتظر ابن أخیه «لوطا»، فی کثیر ممّن یتبعه فی سنه شدیده المحل. و کان الکنعانیون یأتون إبراهیم- علیه السلام- بأبنائهم فیهبونهم منه؛ و یتصدّق علیهم بأقواتهم من الطّعام، و الغنم. و صار إبراهیم- علیه السلام- إلی أرض حلب فاتخذ الرکایا، و کرا الأعین؛ و منها: عین إبراهیم- علیه السلام- و هی التی بنیت علیها مدینه حلب.

و کان للکنعانیین بتلّ القلعه فی رأسه بیت للصّنم؛ فصار إلیه ابراهیم- علیه السلام- فأخرج الصنم؛ و قال لمن حضره من الکنعانیین: أدعوا إلهکم هذا أن یکشف عنکم هذه الشّده. فقالوا: و هل هو إلا حجر؟ فقال لهم:

فإن أنا کشفت عنکم هذه الشّدّه، ما یکون جزائی؟ فقالوا له: نعبدک فقال لهم: بل تعبدون الّذی أعبد؛ فقالوا: نعم.

فجمعهم فی رأس التلّ؛ و دعا اللّه، فجاء الغیث. و ضرب إبراهیم- علیه السلام- برأس ظلّه حین أقلع الغیث. و توافت إلیه رعاؤه؛ فکان یأمر أصحابه بإصلاح الطّعام، و یضعه بین أوعیه اللّبن؛ و یأمر بعضهم فینادی:

«ألا- إنّ إبراهیم قد حلب فهلمّوا» فیأتون من کلّ وجه، فیطعمون، و یشربون، و یحملون ما بقی إلی بیوتهم. فکان الکنعانیون یخبرون عن مقام

۱- حران الآن قریه مهمله داخل الحدود الترکیه، قریبه من أطراف محافظه الرقه، و کانت دوما من أهم مدن بلاد الشام لاسیما فی الجوانب الفکریه و العقائدیه.

إبراهيم بما كان يفعله. و صار قولهم «حلب» بطول هذا الاستعمال لقبا لهذا التلّ؛ فلما عمرت المدينه تحته سميت باسمه.

و ذكر بعضهم: أنها إنما سميت «حلب» باسم من بناها، و هو:

حلب بن المهر بن حيص بن عمليق من العمالقه. و كانوا إخوه ثلاثه: بردعه، و حمص، و حلب؛ أولاد المهر. فكلّ منهم بنى مدينه سميت باسمه.

و كان اسم حلب باليونانيه «باروا» و قيل «بيرؤأا».

و ذكر ارسطاطاليس(۱) فى كتاب الكيان(۲): أنه لما خرج الاسكندر لقصد دارا الملك، و مقاتلته، كان ارسطاطاليس فى صحبته؛ فوصل إلى حلب- و هى تعرف بلسان اليونانيه «بيرؤأا»- فلما تحقّق أرسطوطاليس حال تربتها، و صحّه هوائها، استأذن الإسكندر فى المقام بها، و قال له: إنّ بى مرضا باطنا، و هواء هذه البلده موافق لشفائى. فأقام بها فزال مرضه.

و قيل: إنّ الذى بنى مدينه حلب أولا ملك من ملوك الموصل يقال له:

۱- لأرسطو ترجمه وافيه فى بغيه الطلب ص ۱۳۴۱- ۱۳۴۵.

۲- قال ابن العديم فى بغيه الطلب أثناء الحديث عن كتب أرسطو:« و أما الكتب التى فى العلوم الطبيعيه فمنها ما يتعلم منه الأمور التى تخص كل واحد من الطبائع، فالأمور التى يتعلم منها الأمور التى تعم جميع الطبائع و هو كتابه المسمى« بسمع الكيان» فهذا الكتاب يعرف بعدد المبادى ء لجميع الأشياء الطبيعيه، و بالأشياء التوالى للمبادى ء. و بالأشياء المشاكله للتوالى، فأما المبادى ء فالعنصر و الصوره، و أما التوالى فالزمان، و أما المشاكله للتوالى: فالخلاء، و الملاء، و ما لا نهايه له ...».

بلوكوس الموصلى(١). و يسميه اليونانيون: «سردينبلوس». و كان أول ملكه فى سنه ثلاثه آلاف و تسعمائه و تسع و ثمانين سنه لآدم- صلوات اللّه عليه- و ملك خمسا و أربعين سنه. و فى سنه تسع و عشرين من ملكه و هى سنه أربعه آلاف و ثمانى عشره سنه لآدم، ملكت ابنته «أطوسا» المسماه «سميرم»(٢) مع أبيها بلوكوس.

و ذكر أبو الرّيحان البيرونىّ(٣) فى كتاب القانون المسعودىّ، و قال: بنيت

١- نقل ابن شداد فى كتابه الأعلاق الخطيره- ط. دمشق ١٩٨٨ ق ١ ج ١ ص ۴٢:« قال كمال الدين ابن العديم: قرأت فى الكتاب الجامع للتاريخ، المتضمن ذكر مبدأ الدول، و منشأ الممالك، و مواليد الأنبياء، و أوقات بناء المدن، و ذكر الحوادث المشهوره، مما عنى بجمعه أبو نصر يحيى بن جرير الطبيب، التكريتى النصرانى، من عهد آدم إلى دوله بنى مروان، و نقلت ذلك من خطه قال: ذكر أن فى دوله المواصله أن بلوكوس الموصلى ملك خمسا و أربعين سنه، و أول ملكه فى سنه ثلاثه آلاف و تسعمائه و تسع و ثمانين لآدم عليه السلام، قال: كان فى سنه تسع و عشرين من ملكه، و هى سنه أربعه آلاف و ثمانى عشره لآدم ملكت أطوسا المسماه سميرم مع بلوكوس أبيها، و بلوكوس هذا هو الذى يسميه اليونانيون سردنيبلوس، و هو الذى بنى مدينه حلب».

٢- هى سميراميس، بطله أسطوره آشوريه انتشرت فى ايطاليا و بلاد الاغريق، قيل كانت أمها دير كيتوربه عسقلان التى كانت تجمع بين وجه امرأه جميله و جسم سمكه. انظر تفاصيل الاسطوره فى معجم الأساطير اليونانيه و الرومانيه لسهيل عثمان و عبد الرزاق الأصفر، ط. دمشق ١٩٨٢ ص ٢٩٣- ٢٩۴.

٣- البيرونى هو أبو الريحان محمد بن أحمد ٣۶٢- ۴۴١ ه/ ٩٧٣- ١٠۵٠] كان قد عاش فى البلاط الغزنوى، بعد سقوط الدوله السامانيه، و صنف بالعربيه فى الجغرافيه، و الفلك، و اللغه و الفلسفه، انظر كتابى مائه أوائل من تراثنا- ط. دمشق ١٩٨٩ ص ۴٩۶- ۴٩٩.

حلب فی أیام بلقورس(۱) من ملوک نینوی، و کان ملکه لمضی ثلاثه آلاف و تسعمائه و اثنتین و ستین سنه لآدم- علیه السلام- و مده مقامه فی الملک ثلاثون سنه.

و شاهدت علی ظهر کتاب عتیق من کتب الحلبیین بخطّ بعضهم:

رأیت فی القنطره الّتی علی باب أنطاکیه، من مدینه حلب، فی سنه عشرین و أربعمائه للهجره کتابه بالیونانیه، فسألت عنها، فحکی لی أبو عبد اللّه الحسین بن إبراهیم الحسینی الحرّانیّ- أیده اللّه- أنّ أبا أسامه الخطیب بحلب حکی له: أنّ أباه حدّثه: أنه حضر مع أبی الصّقر القبیصی، و معهما رجل یقرأ بالیونانیه، فنسخوا هذه الکتابه و أنفذ إلیّ نسختها فی رقعه و هی:

«بنیت هذه المدینه، بناها صاحب الموصل، و الطّالع العقرب و المشتری فیه، و عطارد یلیه، و للّه الحمد کثیرا».

و هذا یدل علی ما ذکرناه، و هو أن بلوکوس الموصلی هو الذی عمرها.

و کان قبل الاسکندر.

و ذکر یحیی بن جریر التکریتی(۲) فی کتاب له ضمّنه أوقات بناء المدن،

۱- نقل ابن شداد ابن العدیم قوله:« و بلقوریس هذا هو بلوکوس الذی قدمنا ذکره، غیر أن هذه الأسماء الأعجمیه لا یکاد المسمون لها یتفقون فیها علی صوره واحده لاختلاف ألسنتهم». الأعلاق الخطیره ق ۱ ج ۱ ص ۴۴.

۲- أبو نصر یحیی بن جریر التکریتی، شهر بصناعه الطب، توفی بعد سنه ۴۷۲ ه، و صنف عده کتب. عیون الأنباء فی طبقات الأطباء لابن أبی أصیبعه- ط. القاهره ۱۳۰۰ ه ج ۱ ص ۲۴۳.

ما یـدل علی أن حلب بعـد بناء بلوکوس خربت، و جـدد عمارتها غیره، بعد موت الاسـکندر فانه قال بعد ذکر دوله الاسـکندر و موته باثنتی عشره سنه:

«بنی سلوقوس(۱) اللاـذقیه، و سـلوقیه، و أفامیه، و باروّا و هی حلب، و اداسا و هی الرّها؛ و کمّل بناء أنطاکیه و زخرفها و سـمّاها علی اسم ولده انطیوخوس و هی أنطاکیه، و کان شـرع فی بنائها قبله أنطیغنوس فی السنه السادسه من موت الاسکندر. و ذکر أنه بناها علی نهر أورنطس و سماها: «انطوغینا».

و قال: «کان الملک الأول علی سوریا، و بابل، «سلوقوس نیقطور»(۲) و هو سریانی؛ و ملک فی السنه الثالثه عشره لبطلمیوس ابن لاغوس، بعد موت الاسکندر؛ و ألزم الیهود أن یقیموا فی المدن التی بناها و قرّر علیهم الجزیه».

و سوریا هی الشام الأولی و هی: حلب و ما حولها من البلاد(۳)- علی

۱- الاشاره هنا إلی سـلوقس الثانی کالینیکوس ملک سوریه و بابل ابن أنطیوخوس الثانی، خاض عـده حروب و توفی سـنه ۲۲۶ ق. م. الموسوعه العربیه المیسره.

۲- کان سلوقس نیکاتور ت ۲۸۰ ق. م] من أبرز قاده الاسـکندر المقدونی، أسـهم فی حروب خلفاء الاسکندر و ملک سوریه و بابـل، و تولی تأسـیس عـدد من المـدن، و سـعی إلی التشـبه بالاسـکندر، و بعـد وفاته خلفه أنطیوخوس الأول. الموسوعه العربیه المیسره.

۳- کانت بلاد الشام مقسمه فی عصور ما قبل الفتح العربی الاسلامی إلی عده مناطق إداریه هی:

ما ذکره بعض الرواه- و فی طرف بلد حلب، بناحیه الأحص، مدینه عظیمه، و بها آثار قدیمه، یقال لها سوریه و إلیها ینسب القلی السوریانی، فلعلّ الناحیه کلّها ینسب إلیها، و یطلق علیها اسمها، کما أطلق بعد ذلک علی جمیع الکوره اسم قنسرین.

و قال بعض المؤرّخین من المسیحیه: الذی ملک بعد الاسکندر بطلیموس الأریب(۱) و هو الذی بنی مدینه حلب، و سماها «أشمونیت»: و ذلک

۱- کان بطلیموس الأول(سوتر) المنقذ واحدا من کبار قاده الاسکندر الأکبر، أقیم عقب وفاته والیا علی مصر، عمل علی تفکیک عری الامبراطوریه المقدونیه، و أسس فی مصر حکم أسره البطالمه، اعتنی بالاسکندریه وود جعلها عاصمه الحضاره الاغریقیه، جعل عباده الاسکندر دیانه رسمیه و هی العباده التی تطورت إلی عباده أسره البطالمه، و حمل بعض ألقاب الفراعنه، أشرک ابنه بطلیموس معه بالحکم قبل وفاته، و کانت وفاته سنه ۲۸۳/ ۲۸۲ ق. م. الموسوعه العربیه المیسره.

أنه اختـار بنـاء المـدينه فی موضع، و أراد أن يكون بهـا المـاء، فخرج و دار حولهـا، حـتی رأی الأـعين الـتی «بحيلاـن»(۱)؛ فأمر المهنـدس أن يبنی عليهنّ بنـاء، و يحكمه، و أن يجريهنّ إلی المكـان الـذی هو مرسوم بمنزله الملـك. و جمع النـاس للعمـل فی عمـاره المـدينه، فـاحتفر فی وسـط المـدينه حفيره بثقهـا إلی النهر الـذی أجراه؛ و أمر بالقساطل أن تعمل فاختلّت، فاتخـذت من الحجاره؛ فتمّ ما أراد و بنی به بناء فی موضع الريحانيين يومنا هذا؛ و اتخذ عليه قصرا، و بنی المدينه.

و آخر ما بناه «باب أنطاكيه» ورّتب فيها ابنته «أشـمونيت»؛ و سـمّی المـدينه باسـمها و أضاف لها جندا و زوجّها «بإيلياوس»، أحد أبنـاء ملوكهم؛ و كان قائـد جيش الأريب؛ و صار إلی أنطاكيه؛ و ليست من بناء اليونان فإنّ رسـمّها قـديم؛ فتمم بناءها، و أضافها إلی إيلياوس زوج أشمونيت(۲).

و ملك الأريب تسعا و عشرين سنه. و ملك بعده ابنه بطليموس، و لقب باليونانيه: «محب أخته»(۳)؛ و كانت أخته أشمونيت نائبه عنه؛ فبقی فی

۱- حيلان: قريه بهضبه حلب، تبعد عنها ۸ كم نحو الشـمال، تصلها بحلب طريق مزفته، و هی تتبع اداريا قری مركز و منطقه جبل سمعان. المعجم الجغرافی للقطر العربی السوری.

۲- لم يهتم البطـالمه باعمـار الجزء الجنـوبی الـذی حكمـوه من سوريه، و علی عكسـهم كـانت الـدوله السـلوقيه، حيث يبـدو أن سلوقس قـام بالـدور الرئيسـی فی هـذا المجال، فإليه تنسب المـدن الأربع: أنطاكيه، و أفاميه، و سـلوقيا، و لاذقيه. مـدن بلاد الشام حين كانت ولايه رومانيه- ط. عمان ۱۹۸۷ ص ۳۶- ۴۱.

۳- وقعت حلب فی ظـل حكم البطـالمه و هم: بطليموس الثانی محب أخته(۳۰۸- ۲۴۶ ق. م) و قـد جاء بعد بطليموس، و حافظ علی اسـتقلال مصـر و خلفه بطليمـوس الثـالث الخير يورجـتيس] ۲۴۶- ۲۲۱ ق. م] و جـاء من بعـده بطليمـوس الرابع فيلوبـاتور] المحب لأبيه، و خلفه بطليموس الخامس ۲۰۳- ۱۸۰ ق. م] و جاء بعده بطليموس السادس فيلومنور]

الملک ستا و عشرین سنه. و ملک بعده ابنه بطلیموس الاورجاتیس [و لقّب بالیونانیه بالفاعل فبقی فی الملک أربعا و عشرین سنه. و ملک بعده بطلیموس فلیفاطر] و لقّب بالیونانیه محب أبیه، و أشمونیت و زوجها و ولدها یتولون حلب. و ملک بعده «بطلیموس محب أمه»(۱) و هو ابن أشمونیت و کان ینزل حلب، و عمّر علی صخرتها قلعه، و حصّنها، فخرج علیه فی آخر أیامه «انطیاخوس» ملک الروم؛ و استنجد علیه فلم یکن لمحب أمه به طاقه، فخرج عنها مع أمه، فأسرهما أنطیاخوس، و عذبهما، و استصفی أموالهما، و شرع فی هدم ما جدّدت أشمونیت من بناء حلب. فقیل له إنّ الذی یفعله لیس من عاده الملوک، فکفّ عن هدمها؛ و توّعد من یسکن بحلب، فصار الناس إلی غیرها. و عاد إلی أنطاکیه فاستحدث بها أبنیه لنفسه. فلذلک یزعم قوم أن أنطاکیه من بنائه، و لیس الأمر کذلک؛ و إنما له فیها مثل ما لبطلیموس الأریب من التتمیم. و یقال: إن أشمونیت و هی حلب تجاوزت عمارتها مارسمه الأریب، حتی صارت العماره إلی جمیع الجوانب. و قیل: إن أشمونیت نصبت حوالیها مائه ألف نصبه من الزیتون، و من التین مائه ألف نصبه و غیر ذلک من الأشجار الجبلیه الشامیه. و لم یبق بحلب موضع ینسب إلی أشمونیت غیر العین المعروفه بأشمونیت. و ماتت أشمونیت و ولدها فی أسر أنطیاخوس تحت العقاب.

۱- المحب لأمه ۱۸۰- ۱۴۵ ق. م] و کان فی السابعه من عمره، فتولت الوصایه علیه أمه کلیوبترا الأولی، و بعد وفاتها غزا أنطیوخوس الرابع ۱۷۰ ق. م] مصر. الموسوعه العربیه المیسره.

و قیل هو الذی بنی قنسرین، و أجری الماء إلیها فی قناه من عین المبارکه، و قیل: بناها غیره، و عرف انطیاخوس ببطلیموس الرابع.

و قیل: إنّ أشمونیت حال محاربتها أنطیاخوس أتتها نجده من مصر، فهزمته فصار إلی الشرق فمات.

ثم ملک حلب بعد أشمونیت «بطلیموس ابیفانیس»(۱) و هو قائد العسکر؛ و فی زمانه اشترت الیهود منه موضع القلعه المعروفه الیوم بقلعه الشریف فتحصّنوا بها؛ و کانوا یعینون الملک فی القتال و یحملون له الأموال.

ثم ملک بعده بطلیموس فیلو بطر(۲)، و هلک انطیاخوس فی أیامه. ثم ملک بعده جماعه من ملوک الیونان؛ إلی أن صار الملک إلی القیاصره ملوک الروم؛ فملک منهم عده ملوک إلی أن ملک أوغسطس قیصر بن مویوخس، فاستولی علی الدنیا، و قهر الملوک، و قصد مصر لیستولی علیها، فلما بلغ حلب و کان أمره قد عظم، قال: إنّ بطلیموس الأریب لم یرض أن ینزل منزلا لغیره. فسار إلی موضع مدینه قنسرین فأمر القواد أن یأمروا من قبلهم بتحویط منازلهم، و أخذ کلّ واحد ببناء ما حوّطه، فبنی قنسرین و سمّاها «مدینه العسکر»(۳). و نقل الأسواق من حلب إلیها، و لم یبق بحلب إلا من لا

۱- کذا، و بطلیموس أبیفانس هو الرابع ۲۰۳- ۱۸۰ ق. م] فی أیامه فقدت مصر امبراطوریتها. الموسوعه العربیه المیسره.

۲- هذا بطلیموس الرابع- المحب لأبیه، و سلفت الاشاره إلیه.

۳- تبعد بقایا قنسرین عن حلب ۷ کم و یضم الموقع تلا فیه بقایا مدینه مسوره، هذا و کان یطلق علی المنطقه ما بین العاصی و الفرات اسم خالدین Chalcidene و کانت قنسرین Chalcis حاضره هذه المنطقه .. A classical Dictionary ۱۸۶۶,London

حاجه للعسكر به. و كانت هذه أعظم من فعل انطياخوس. و قيل: إنه أمر أن ينفق على القناه إليها فأنفق نائبه مالا على القناه، و أجرى الماء فيها من عين المباركه، و ساقها إلى القناطر إلى قنسرين؛ و بنى بها ثلاث برك على شكل المثلث، و فايضها ينحدر إلى الأرضين التى تحتها.

و صار الملك بعده إلى جماعه من القياصره ملوك الروم. و صارت أنطاكيه دار الملك، و بها مقام ملوك الروم؛ و كانوا يدعونها مدينه اللّه، و مدينه الملك، و أم المدن، لأنّها أول بلد ظهر فيه دين النصرانيه(۱). و معظم سور مدينه حلب من بناء الروم.

و ملك منهم ملك يقال له: فوقاس(۲) فسفك الدماء، و تتبع حاشيه كسرى، فقتلهم؛ فتوجه كسرى أنو شروان إلى الشّام فافتتح حلب، و أنطاكيه، و منبج، و رمّ ما استهدم من سور مدينه حلب بالقرميد الكبار، و هو ظاهر فى سور المدينه الكبير، فيما بين بابى اليهود و الجنان. و جدّد كسرى بناء منبج و سمّاها منبه؛ و هو بالفارسيه: أنا اجود، فعرّبت فقيل منبج.

و استحسن أنطاكيه فلما عاد إلى العراق بنى مدينه على صورتها، و سماها ريد خسره، و هى التى تسمى روميه، و أدخل إليها سبى أنطاكيه، فقيل إنهم

۱- فى هذه العباره دقه كبيره، فبعد ما نجح بولس الرسول(شاول) فى مزج تعاليم السيد المسيح بالغنوصيه، بات اسم العقيده الجديده النصرانيه، و على هذا قال بولس لأتباعه فى أنطاكيه إثر نجاحه: أنتم آخر الجليليين و أول النصارى. انظر الموسوعه العربيه الميسره.

۲- وصل فوقاس إلى عرش الامبراطوريه البيزنطيه سنه ۶۰۲ م، إثر مقتل الامبراطور موريس، و قد عزل سنه ۶۱۰ م من قبل هرقل الذى قدم من قرطاج و نصب نفسه امبراطورا.

لم ينكروا من منـازلهم شيئا فـانطلقوا إليها إلا رجل اسكاف، كان على باب داره بأنطاكيه شـجره فرصاد(۱)، فلم يرهـا على بابه ذلك؛ فتحيّر ساعه؛ ثم دخل الدار، فوجدها مثل داره.

و لمـا عـاد كسـرى عن الشـام، قام هرقل بن فوق بن مروقس و جمع بطارقه الروم، و أولى المراتب؛ و ذكر لهم سوء آثار فوقاس ملك الروم؛ و غلبه الفرس على ملكهم بسوء تـدبيره، و إقـدامه على الدماء؛ و دعاهم إلى قتله فقتلوه؛ و وقع اختيارهم على هرقل فملّكوه.

و فى أول سـنه من ملكه كانت هجره نبيّنا محمّد- صـلى اللّه عليه و سلّم- من مكه إلى المدينه(۲)؛ و استولى على حلب، و على جميع البلاد، التى استولى عليها أنو شروان و كان جلّ مقامه بأنطاكيه.

فلما افتتح المسلمون أجناد الشام(۳)، و كانت وقعه اليرموك، و قتل

۱- الفرصاد شجر التوت، و توسع ابن العديم فى كتابه بغيه الطلب فى هذا الباب انظر ج ۱ ص ۶۵، ۹۱- ۹۲، ۱۰۶- ۱۰۷.

۲- اعتلى هرقل العرش فى بيزنطه سـنه ۶۱۰ م، و يقابل سـنه الهجره الأولى سنه ۶۲۲ م. انظر الدوله البيزنطيه فى عصـر الامبراطور هرقل تأليف د. ليلى عبد الجواد اسماعيل- ط. القاهره ۱۹۸۵ ص ۶۱- ۷۴.

۳- أشـرت من قبـل إلى تقسـيمات بلاـد الشـام اداريا قبل الفتـح العربى الاسـلامى، و بعـد الفتـح قام العرب باعاده النظر فى هـذا التقسـيم فى ضوء تبدل الجغرافيه السياسيه لبلاد الشام. فهذه البلاد باتت جزءا من دوله الخلافه التى مركزها الآن المدينه المنوره. و لم تعد تتبع روما الغربيه أو الشـرقيه بل تعاديها. لذلك قسم العرب البلاد أولا إلى أربعه أجناد هى: جند دمشق، و جند حمص، و جنـد الأردن، و جند فلسـطين، و فى العصـر الأموى أيام يزيد بن معاويه قسم جند حمص إلى قسـمين هما: جند حمص و جند قنسـرين.- و جنـد دمشق، حاضـرته دمشق، و فيه من الكور: بعلبك قاعـده البقاع، و حوران و مـدينته بصـرى، و البثنيه و مـدينتها أذرعـات، و الجولاـن و مـدينته بانيـاس، و كوره الشـراه و مـدينتها أذرح و منـاطق أخرى، على رأسـها المنـاطق الساحليه لعرقه و طرابلس و جبيل و بيروت و صـيدا. و كانت الغالبيه العظمى لسـكان جنـد دمشق من العرب من قبائل أصل يمانى. و جند حمص كان يضم وسط بلاد الشام مع الشـمال. من أهم مدنه حماه و شـيزر و أفاميا، و تدمر و معره النعمان، و حلب و الباره، و قنسرين و أنطاكيه، مع اللاذقيه و جبله و بانياس و أنطرطوس على الساحل، و كانت تنوخ و طى ء تسـكن هـذه المناطق قبل الفتح و انضاف إليهـا بعـد الفتـح القبائـل اليمـانيه التى شـاركت فى اليرموك و بقيه المعارك. جنـد الأردن و قصـبته مـدينه طبريه على شاطى ء البحيره التى حملت الاـسم نفسه. و من مـدن هـذا الجنـد فى الـداخل بيسـان و فحـل و جرش، و فى الساحل صور و عكا. و جند فلسـطين و قاعدته مدينه اللد و من مدن هذا الجند القدس و عمواس و نابلس و سبسـطيه و بيت جبرين. و بات لكل جند خراجه و نواه اداره مستقله و وال و حاميه. فقد تمركزت غالبيه القوات التابعه لجند فلسطين فى عمواس. و آثر كبار الصحابه سكنى هذه المدينه لوقوعها على مقربه من بيت المقدس. مختصـر كتاب البلدان لابن الفقيه: ۱۰۲- ۱۰۵ كتاب البلدان لليعقوبى: ۲۲۵- ۲۲۷. المسالـك و الممالـك لاـبن خرداذبه: ۷۵- ۷۶- الأعلاـق الخطيره قسم دمشـق: ۴۱. معجم البلـدان مـواد: عرقه. صـيدا، بيروت، طرابلس. الأنس الجليل: ۲۶۶.

المسـلمون فيها معظم الرّوم، و أمير المسلمين عليهم أبو عبيده بن الجرّاج- رضى اللّه عنه- انتقل هرقل من أنطاكيه، و عبر الفرات إلى «الرها»؛ و جعل بقنّسرين ميناس الملك،- و كان أكبر ملوك الروم بعد هرقل.

فسار أبو عبيده بعد فراغه من اليرموك إلى حمص ففتحها؛ ثم بعث خالد بن الوليد على مقدمته إلى قنّسـرين؛ فلما نزل بالحاضـر زحف لهم الروم؛

و ثـار أهـل الحاضـر بخالـد بن الوليـد، و عليهم «مينـاس»- و هو رأس الرّوم و أعظمهم فيهم بعـد هرقـل- فالتقّوا بالحاضـر؛ فقتل «ميناس» و من معه مقتله لم يقتلوا مثلها. و مات الروّم على دمه حتى لم يبق منهم أحد.

و أما أهل الحاضـر فكانوا من تنوخ، منذ أول ماتنخوا بالشّام، و نزلوه و هم فى بيوت الشـعر؛ ثم ابتنوا المنازل؛ فأرسلوا إلى خالد: أنّهم عرب؛ و انهم لم يكن من رأيهم حربه؛ فقتل منهم، و ترک الباقين.

فـدعاهم أبو عبيده بعد ذلک إلى الإسـلام فأسـلم بعضـهم، و بقى البعض على النصـرانيه؛ فصالحهم على الجزيه. و كان أكثر من أقام على النصرانيه بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعه(۱).

و يقال: إنّ جماعه من أهل ذلک الحاضر أسلموا فى خلافه المهدىّ، فكتب على أيديهم بالخضره: قنّسرين.

ثم إنّ خالدا سار فنزل على قنّسرين، فقاتله أهل قنّسـرين، ثم لجؤوا إلى حصنهم، فتحصنوا فيه، فقال: «إنكم لو كنتم فى السحاب لحملنا اللّه عليكم أو لأنزلكم إلينا» ثم إنهم نظروا فى أمرهم، و ذكروا ما لقى أهل حمص فطلبوا منه الصلح؛ فصالحوه على صلح حمص، فأبى إلا على إخراب المدينه فأخربها.

۱- لمزيـد من التفاصـيل- انظر البلـدان للبلاذرى- تحقيقى- ص ۱۷۰- ۱۷۲. مغـازى ابن حـبيش- تحقيقى- ص ۲۲۵- ۲۲۶. و مفيد أن نشير إلى أن نظام الحواضر فى بلاد الشام قد اندثر الآن، اللهم إلا فى مدينه حماه حيث ما يزال الجزء العلوى- الشمالى- منها يعرف باسم الحاضر، و تتركز علاقات هذا الجزء مع أهل الباديه.

و كـان صـلح حمص على دينار و طعام على كل جريب(۱) أيسـروا أو أعسـروا. و غلب المسـلمون على جميع أرضها و قراها؛ و ذلك فى سنه ست عشره للهجره.

فتح حلب

فتح حلب(۲)

ثم إنّ خالدا- رضـى اللّه عنه- سار إلى حلب، فتحصن منه أهل حلب. و جاء أبو عبيده- رضـى اللّه عنه- حتى نزل عليهم؛ فطلبوا إلى المسلمين الصلح و الأمان، فقبل منهم أبو عبيده و صالحهم، و كتب لهم أمانا(۳).

و دخل المسـلمون حلب من «باب أنطاكيه»(۴) و حفّوا حولهم بـالتراس داخل الباب؛ فبنى ذلك المكان مسـجدا، و هو المسـجد المعروف بالغضائرى، داخل باب أنطاكيه، و يعرف الآن بمسجد شعيب(۵).

و لما توّجه أبو عبيده إلى حلب بلغه أن أهل قنّسرين قد نقضوا فرد

۱- الجريب: مكيال قدر أربعه أقفزه، و قيل هو من الأرض ما يساوى ثلاثه آلاف و ستمائه ذراع، أو عشره آلاف ذراع. القاموس.

۲- نقل هذا العنوان من هامش الأصل.

۳- لمزيد من التفاصيل انظر بغيه الطلب ج ۱ ص ۵۶۹- ۵۸۷.

۴- عدد ابن العديم فى بغيته أبواب حلب بعدما وصف أسوارها ج ۱ ص ۵۵- ۵۷.

۵- اسـمه الآـن جـامع النوته فى محله العقبه، لم يبق من بنائه الأول إلا الجهه الغربيه لرواق. الآثار الاسـلاميه و التاريخيه فى حلب لمحمد أسعد طلس، ط. دمشق ۱۹۵۶ ص ۶۳- ۶۴.

إليهم السمط بن الأسود الكندى، فحصرهم ثم فتحها، فوجد فيها بقرا و غنما؛ فقسم بعضها فيمن حضر، و جعل الباقى فى المغنم.

و كان حاضر قنّسرين [لطى ء] قديما نزلوه بعد حرب الفساد التى كانت بينهم حين نزل الجبلين(۱) من نزل منهم؛ فلما ورد أبو عبيده عليهم أسلم بعضهم، و صولح كثير منهم على الجزيه؛ ثم أسلموا بعد ذلك بيسير إلا من شذّ منهم.

و كان بقرب مدينه حلب حاضر حلب يجمع أصنافا من العرب من تنوخ و غيرهم؛ فصالحهم أبو عبيده على الجزيه، ثم إنهم أسلموا بعد ذلك؛ و جرت بينهم و بين أهل حلب حرب أجلاهم فيها أهل حلب، فانتقلوا إلى قنّسرين(۲).

و كانت قنّسرين و حلب إذ ذاك مضافتين إلى حمص فأفردهما يزيد بن معاويه فى أيّامه. و قيل: أفردهما معاويه أبوه.

و لما بلغ عمر بن الخطاب- رضى اللّه عنه- ما فعل خالد فى فتح قنسرين و حلب، قال: أمّر خالد نفسه؛ يرحم اللّه أبا بكر، هو كان أعلم بالرجال منّى. يعنى أنّ خالدا كان أمير المسلمين من جهه أبى بكر- رضى اللّه عنه- على الشام؛ فلما ولىّ عمر عزله وولّى أبا عبيده(۳).

۱- الاشاره هنا إلى جبلى طى ء: أجأ و سلمى انظرهما فى معجم البلدان لياقوت.

۲- انظر بغيه الطلب ج ۱ ص ۵۶۲- ۵۶۴.

۳- لمزيد من التفاصيل انظر بغيه الطلب ج ۱ ص ۵۷۳- ۵۸۲.

ثم ولاه عمر- رضى اللّه عنه- على قنّسرين فأدرب خالد و عياض بن غنم أول مدربه كانت فى الإسلام، سنه ست عشره(۱).

و رجع خالد، فأتته الاماره من عمر- رضى اللّه عنه- على قنّسرين، فأقام خالد أميرا، تحت يد أبى عبيده عليها، إلى أن أغزى هرقل أهل مصر فى البحر؛ و خرج على أبى عبيده فى عساكر الروم، و أبو عبيده بحمص بعد رجوعه من فتح حلب.

فاستمدّ أبو عبيده خالدا فأمدّه بمن معه؛ و لم يخلف أحدا، فكفر أهل قنّسرين بعده؛ و بايعوا هرقل و كان أكفر من هناك تنوخ.

و اشتور المسلمون فأجمعوا على الخندقه و الكتاب إلى عمر- رضى اللّه عنه- بذلك. و أشار خالد بالمناجزه فخالفوه، و خندقوا. و كتبوا إلى عمر- رضى اللّه عنه- و استصرخوه.

و جاء الرّوم بمددهم؛ فنزلوا على المسلمين؛ و حصروهم. و بلغت أمداد الجزيره ثلاثين ألفا، سوى أمداد قنّسرين، من تنوخ و غيرهم؛ فنالوا من المسلمين كل منال.

و كتب عمر- رضى اللّه عنه- إلى سعد بن أبى وقاص يخبره بذلك؛ و يأمره أن يبثّ المسلمين فى الجزيره، ليشغلهم عن أهل حمص. و أمدّه عمر-

---

۱- روى ابن العديم فى بغيته ج ۱ ص ۵۶۹- ۵۷۲. أن أول من أدرب إلى الأراضى البيزنطيه كل من ميسره بن مسروق العبسى و الاشتر النخعى.

رضی اللّه عنه- بالقعقاع بن عمرو، فتوغلوا فی الجزیره؛ فبلغ الروم؛ فتقوضوا عن حمص إلی مدائنهم.

و ندم أهل قنّسرین و راسلوا خالدا، فأرسل إلیهم: «لو أن الامر إلیّ ما بالیت بکم، کثرتم أم قللتم؛ لکنّی فی سلطان غیری؛ فإن کنتم صادقین، فانفشوا کما نفش أهل الجزیره». فساموا سائر تنوخ ذلک، فأجابوا؛ و أرسلوا إلی خالد: «إنّ ذلک إلیک، فإن شئت فعلنا و إن شئت أن تخرج علینا فنهزم بالرّوم». فقال: «بل أقیموا؛ فإذا خرجنا، فانهزموا بهم».

فلما علم أبو عبیده و المسلمون بذلک قالوا: «اخرج بنا»! و خالد ساکت، فقال أبو عبیده: «مالک یا خالد، لا تتکلم» فقال: «قد عرفت الذی علیه رأیی، فلم تسمع من کلامی». قال: «فتکلم فإنی أسمع منک، و أطیع». فأشار بلقائهم.

فخرج المسلمون و التقوهم، فانهزم أهل قنّسرین، و الروم معهم فاحتوی المسلمون علی الروم، فلم یفلت منهم أحد(۱).

و ما زال خالد علی إماره قنّسرین حتی أدرب خالد و عیاض، سنه سبع عشره، بعد رجوعهما من الجابیه(۲)، مرجع عمر إلی المدینه، فأصابا أموالا عظیمه.

۱- لمزید من التفاصیل انظر بغیه الطلب ج ۱ ص ۵۷۶- ۵۷۸.

۲- یقع تل الجابیه علی مقربه من بلده نوی فی حوران- سوریه.

و قفل خالـد سالما، غانما، و بلغ الناس ما أصابوا تلك الصائفه؛ و قسم خالد فيها ما أصاب لنفسه؛ فانتجعه رجال من أهل الآفاق، و كان الأشعث بن قيس ممن انتجع خالدا بقنسرين، فأجازه بعشره آلاف درهم.

و كـان عمر لاـ يخفى عليه شـى ء فى عمله؛ فكتب إليه من العراق بخروج من خرج منها، و من الشام بجائزه من أجيز فيها. فـدعا البريـد، و كتب معه إلى أبى عبيـده: أن يقيم خالـدا، و يعقله بعمـامته، و ينزع عنه قلنسوته. حتى يعلمكم من أين أجاز الأشـعث؟ أمن ماله؟ أم من إصابه أصابها؟ فان زعم أنّها من إصابه أصابها فقد أقرّ بخيانه؛ و إن زعم أنّها من ماله، فقد أسرف.

و اعزله على كل حال، و اضمم إليك عمله.

فكتب أبو عبيـده إلى خالـد فقـدم عليه؛ ثم جمع الناس؛ و جلس لهم على المنبر، فقام البريـد فقال: «يا خالـد، أمن مالك أجزت بعشره آلاف، أم من إصابه»؟ فلم يتكلم حتى أكثر عليه، و أبو عبيده ساكت لا يقول شيئا.

فقام بلال إليه فقال: «إنّ أمير المؤمنين أمر فيك بكذا و كذا». ثم تناول عمامته، فنقضـها، لا يمنعه سمعا و طاعه. و وضع قلنسوته، ثم أقـامه فعقله بعمامته، ثم قال: «ما تقول أمن مالك أم من إصابه»؟ قال: «لابل من مالى» فأطلقه، و أعاد قلنسوته، ثم عمّمه بيـده. ثم قال: «نسمع و نطيع لولاتنا، و نفخم و نحترم موالينا».

و أقام خالـد متحيرا، لا يدرى أمعزول أم غير معزول. و جعل أبو عبيده يكرمه و يزيده تفخيما و لا يخبره؛ حتى إذا طال على عمر أن يقدم ظن الذى قد كان. فكتب إليه بالوصول.

فأتى خالـد أبا عبيده فقال: «رحمک اللّه ما أردت إلى ما صـنعت؟ کتمتنى سـرّا کنت أحب أن أعلمه قبل اليوم». فقال أبو عبيده: «إنى و اللّه ما کنت لأروعک ما وجدت من ذلک بدّا؛ و قد علمت أن ذلک يروعک».

قـال: فرجـع خالـد إلى قنسـرين، فخطب أهـل عمله، و ودعهم. و قـال خالـد: «إنّ عمر ولاـنى الشـام حتّى إذا ألقى بوانيه و صـار بثنيّه(۱) و عسلا عزلنى، و استعمل غيرى».

و تحمّـل و أقبـل إلى حمص فخطبهـم، و ودعهم. و سـار إلى المـدينه حـتى قـدم على عمر فشـکاه؛ و قـال: «لقـد شـکوتک إلى المسـلمين و باللّه إنّک فى أمرى غير مجمل يا عمر». فقال عمر: «من أين هذا الثّراء؟ فقال: «من الأنفال و السّـهمان». فقال: «مازاد على الستين ألفا فلک». فشاطره على ما فى يـده و قوّم عروضه، فخرجت عليه عشـرون ألفا؛ فأدخلها بيت المال، ثم قال: «يا خالد! و اللّه إنّک لعلىّ الکريم، و إنّک إلىّ الحبيب؛ و لن تعاتبنى بعد اليوم على شى ء». ثم إنّه عوّضه بعد ذلک عما أخذه منه(۲).

و استعمل أبو عبيده على قنسرين حبيب بن مسلمه بن مالک.

۱- بهـامش الأصـل: البثنيه: الحنطه التى تنبت فى البثنيه و هى السـهل. و جـاء فى النهايه لابن الأثير: فى حـديث خالـد: فلما ألقى الشام بوانيه عزلنى و اسـتعمل غيرى؛ أى خيره و ما فيه من السـعه و النعمه، و البوانى فى الأصل: أضلاع الصدر، و قيل الأکتاف و القوائم، الواحده بانيه.

۲- لخالد بن الوليد ترجمه وافيه فى کتاب بغيه الطلب لابن العديم، منها استخلص ما أورده هنا من معلومات ص ۳۱۲۰- ۳۱۷۳.

و أما هرقل فانه تأخر من الرّها إلى سميساط؛ و فصل عنها إلى القسطنطينيه؛ فلما فصل علا على شرف؛ و التفت؛ و نظر نحو سوريه، و قال: «عليك السّلام يا سوريه سلام لا اجتماع بعده؛ و لا يعود إليك رومىّ أبدا إلاّ خائفا، حتى يولد المولود المشئوم؛ و يا ليته لا يولد، ما أحلى فعله و أمرّ عاقبته على الروم.

و طعن(۱) أبو عبيده- رضى اللّه عنه- سنه ثمانى عشره؛ فاستخلف على عمله عياض بن غنم، و هو ابن عمه و خاله؛ و كان جوادا مشهورا بالجود، فقال عمر: «إنى لم أكن مغيرا أمرا قضاه أبو عبيده».

و مات عياض سنه عشرين، فأمّر عمر- رضى اللّه عنه- على حمص و قنسرين سعيد بن عامر بن حذيم الجمحى و مات سنه عشرين. فأمّر عمر مكانه عمير بن سعد بن عبيد الأنصارى على حمص و قنسرين.

و مات عمر- رضى اللّه عنه- مقتولا فى ذى الحجه سنه ثلاث و عشرين؛ و عمير بن سعد على حمص و قنسرين؛ و معاويه على دمشق و السواحل و أنطاكيه. فمرض عمير فى إماره عثمان مرضا طال به، فاستعفى عثمان؛ و استأذنه فى الرجوع إلى أهله، فأذن له.

۱- حدث فى سنه ۱۸ ه طاعون عرف باسم طاعون عمواس، و عمواس بلده قرب القدس، سكن فيها عدد كبير من الصحابه، و المسلمين و قيل كان عدد الذين ماتوا من المسلمين يتجاوز الخمسه و العشرين ألفا من أبرزهم: أبو عبيده عامر بن الجراح، و شرحبيل بن حسنه، و معاذ بن جبل. طبقات ابن سعد ج ۷ ص ۳۸۷. الأنس الجليل ص ۳۶۶.

و ضمّ حمص و قنسرين إلى معاويه سنه ست و عشرين؛ فاجتمع ولايه الشام جميعه على معاويه لسنتين من خلافه عثمان؛ فولى معاويه حبيب بن مسلمه بن مالک الفهرى على قنسرين، و كان يسمى حبيب الروم لكثره غزوه لهم.

و مات عثمان- رضى اللّه عنه- مقتولا فى ذى الحجه سنه خمس و ثلاثين، و الشام مع معاويه؛ و حبيب على قنسرين، من تحت يده.

فجرى بين على- عليه السلام- و بين معاويه اختلاف إلى أن سار كلّ منهما إلى صاحبه؛ و التقيا بصفّين(۱)؛ و ذلک بعد سنه و شهر من خلافه علىّ، فى سنه سبع و ثلاثين.

و كان علىّ فى تسعين ألفا و معاويه فى مائه ألف و عشرين ألفا(۲)، و قتل بها من أصحاب على خمسه و عشرون ألفا، و من أصحاب معاويه خمسه و أربعون ألفا. و كان مقامهما بصفّين مائه يوم و عشره أيام. و كانت الوقائع تسعين وقعه؛ ثم اتفقا على التحكيم؛ و التقى الحكمان أبو موسى و عمرو بن العاص بأذرح(۳) فى شهر رمضان سنه ثمان و ثلاثين.

۱- المرجح أن موقع صفين هو موقع أبى هريره، القريب من الرقه حاليا.

۲- أخبار صفين مجموعه بشكل ملحمى مفصل فى كتاب صفين لنصر بن مزاحم المنقرى، و فى الفتوح لابن الأعثم الكوفى و غيره من المصادر المبكره، و استخلص ابن العديم جمله من الروايات المتنوعه أودعها فى الجزء الأول من بغيه الطلب ص ۲۷۹- ۳۲۰.

۳- أذرح معروفه الآن بالمملكه الأردنيه.

و مـات علىّ- كرم اللّه وجهه- مقتولاـ بـالكوفه، فى سـنه أربعين، و معـاويه متغلب على الشـام جميعه، فصالـح الحسن بن علىّ- عليهمـا السـلام- و بويع بالخلافه، فى ربيع الأول سـنه إحـدى و أربعين؛ فمصـرّ معاويه قنسـرين، و أفردها عن حمص، و قيل إنّما فعل ذلك ابنه يزيد. و صار الذكر فى ولايه قنسـرين، و وظّف معاويه الخراج على قنسرين أربعمائه ألف و خمسين ألف دينار، و حلب للخلفـاء من بنى أميه لمقـامهم بالشـام، و كـون الولاـه فى أيـامهم بمنزله الشـرط، لاـ يسـتقلون بالأـمور و الحروب؛ و ولاـه الصوائف ترد كل عام مع الجيوش الاسلاميه إلى دابق(۱).

و أقـام جمـاعه منهـم بنـواحى حلـب، فـإن سـليمان بن عبـد الملـك رابـط بـدابق إلى أن مـات. و أقـام [عمر(۲) بـن عبـد العزيز بخناصره(۳) إلى أن مات].

۱- دابق الآـن قريه فى هضـبه حلب تتبع نـاحيه صوران، منطقه أعزاز، محـافظه حلب، فيها تل أثرى فى شـمال القريه، تنتشـر عليه الكسـر الفخاريه، أقيم عليه ضريح الخليفه الأموى سليمان بن عبد الملك، و قربها جرت المعركه الفاصله بين السلطان المملوكى قانصوه الغورى و السلطان العثمانى سليم الأول. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

۲- فقد من الأصل- كما هو مرجح- ورقه جرى اسـتدراك ما رجح أنها حوته، اعتمادا على ما جاء فى مصادر التاريخ الاسلامى العامه مع كتاب الأعلاق الخطيره لابن شداد، و الجزء الأول من اعلام النبلاء للطباخ.

۳- هى الآن خناصـر، بلده فى الأطراف الجنوبيه لهضـبه حلب، مركز لناحيه خناصـر، تتبع منطقه السفيره، محافظه حلب، تبعد عن السفيره ۴۵ كم، و هى قائمه عند نهايه السفح الجنوبى لجبل الأحص، فيها آثار ظاهر منها السور و القلعه. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

[و لم يزل حبيب بن مسلمه مع معاويه فى حروبه، و قد وجهه إلى أرمينيه و اليا، فمات بها سنه اثنتين و أربعين. و استعمل معاويه عبد الرحمن بن خالد بن الوليد على غزو الروم؛ و لشده بأسه خافه معاويه، و خشى منه؛ و أمر ابن أثال النصرانى أن يحتال فى قتله. و ضمن له أن يضع عنه خراجه ماعاش؛ و أن يوليه خراج حمص. فلما قدم عبد الرحمن من الروم دسّ إليه ابن أثال شربه مسمومه مع بعض مماليكه فشربها، فمات بحمص سنه ست و أربعين.

و قاد مالك بن عبد اللّه الخثعمى الصوائف أربعين سنه. و سير معاويه جيشا كثيفا إلى بلاد الروم، و جعل عليهم سفيان بن عوف و أمر يزيد ابنه بالغزاه معهم، فتثاقل، و اعتلّ، فأمسك عنه أبوه. فأصاب الناس فى غزاتهم جوع و مرض شديد، و ذلك فى سنه اثنتين و خمسين.

و شتا بأرض الروم بعده عبد الرحمن ابن أم الحكم الثقفى و غزا المسلمون الصائفه فى سنه أربع و خمسين كذلك، و فتحوا قرب القسطنيطينيه.

فلما مات معاويه سنه ستين، و ولى ابنه يزيد أمرهم بالعود منها فعادوا.

و مات يزيد بن معاويه بحوارين(۱) من أرض الشام فى سنه أربع و ستين. و بويع بعده معاويه ابنه بالخلافه فى الشام و لكنه لم يمكث إلا أربعين يوما حتى خلع نفسه، ثم هلك.

۱- حوارين قريه فى هضبه حمص الجنوبيه الشرقيه، تتبع ناحيه مهين، منطقه مركز المحافظه- محافظه حمص، تتصل بحمص بطريق مزفته هى طريق حمص القريتين، فيها آثار من العصور التدمريه، و البيزنطيه و الاسلاميه، المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

و بویع بعده مروان بن الحکم، و ذلک فی سنه أربع و ستین.

و تحارب مروان و الضحّاک بمرج راهط(۱) عشرین لیله، و اقتتلوا قتالا شدیدا، فقتل الضحّاک، قتله دحیه بن عبد اللّه، و قتل معه ثمانون رجلا من أشراف أهل الشام. و کانت الوقعه فی المحرم سنه خمس و ستین.

و لما بلغت الهزیمه زفر بن الحارث الکلابیّ بقنسرین هرب منها فلحق بقرقیسیا(۲). و استوثق الشام لمروان و استعمل عماله علیها. و لما مات مروان سنه خمس و ستین قام ابنه عبد الملک فی الیوم الذی مات فیه.

و أقام عبد الملک بدمشق بعد رجوعه من قنسرین ما شاء اللّه أن یقیم، ثم سار یرید قرقیسیا، و بها زفر بن الحارث الکلابی، ثم قفل إلی دمشق فدبر لعمرو بن سعید فقتله. و استعمل عبد الملک أخاه محمدا علی الجزیره و أرمینیه فغزا منها، و أثخن العدو، و ذلک فی سنه ثلاث و سبعین.

و أعاد الکره فی سنه خمس و سبعین حین خرجت الروم من قبل مرعش. و بعد سنتین غزا الصائفه الولید بن عبد الملک، و ظل علی الولایه إلی أن مات عبد الملک فی شوال سنه ست و ثمانین.

۱- کان الضحاک بن قیس الفهری قد بایع عبد اللّه بن الزبیر، و تزعم القیسیه فی الشام، و بالمقابل قامت القبائل الیمانیه بزعامه حسان بن بحدل الکلبی بعقد مؤتمر الجابیه، حیث بویع فیه مروان بن الحکم، و اثر ذلک کانت معرکه مرج راهط، شرقی بلده جوبر، خارج دمشق، و فی هذه المعرکه هزم الضحاک بن قیس، وترسخت بیعه مروان.

۲- هی البصیره حالیا(البوسرایا) حیث یلتقی الخابور بالفرات فی سوریه.

و ولی ابنه الولید بن عبد الملک و محمد بن مروان علی ولایته فما زال کذلک إلی أن عزله الولید بن عبد الملک فی سنه تسعین. و ولی مکانه أخاه مسلمه بن عبد الملک.

فدخل مسلمه حرّان و کان محمد بن مروان یتعمم للخطبه؛ فأتاه آت فقال: هذا مسلمه علی المنبر یخطب! فقال محمد: هکذا تکون الساعه بغته! و ارتعدت یده، فسقطت المرآه من یده؛ فقام ابنه إلی السیف فقال: مه یابنی؛ ولانی أخی و ولاه أخوه.

و کان أکثر مقام مسلمه بالناعوره، و بنی فیها قصرا بالحجر الأسود الصلد، و حصنا بقی منه برج إلی زماننا هذا(۱).

و کان عبد الملک بن مروان یقول للولید: کأننی- لو قد متّ- بک قد عزلت أخی و ولّیت أخاک.

و مات الولید بن عبد الملک فی سنه ست و تسعین.

و ولی سلیمان بن عبد الملک فسیّر أخاه مسلمه غازیا إلی القسطنطینیه و استخلف مسلمه علی عمله خلیفه؛ و رابط فیها سلیمان بمرج دابق إلی أن مات به سنه تسع و تسعین.

و ولی عمر بن عبد العزیز بن مروان، فکان أکثر مقامه بخناصره الأحصّ. و ولی من قبله علی قنسرین هلال بن عبد الأعلی. ثم ولی أیضا علیها الولید بن هشام المعیطی علی الجند، و الفرات بن مسلم علی خراجها.

۱- لمزید من المعلومات حول الناعوره انظر بغیه الطلب ج ۱ ص ۶۴.

و توفى عمر بدير سمعان(۱) من أرض معره النّعمان، يوم الجمعه لخمس بقين من رجب سنه إحدى و مائه.

و ولى يزيـد بن عبد الملک، و الوليد على قنسـرين؛ و كان مرائيا سأل عمر أن ينقص رزقه تقربا إليه؛ فعلم أنه إنما أراد أن يتزيّن عنده بذلک؛ فحطّ رزقه. و كتب إلى يزيد، و هو ولى عهده: «إنّ الوليد بن هشام كتب إلىّ كتابا أكثر ظنى أنه تزّين بما ليس هو عليه، فأنا أقسم عليک إن حدث و أفضى هذا الأمر إليک فسألک أن تردّ رزقه، و ذكر أنى نقصته فلا يظفر منک بهذا».

فلما استخلف يزيد كتب الوليد إليه: «إنّ عمر نقصنى و ظلمنى» فغضب يزيد، و عزله، و أغرمه كل رزق جرى عليه فى ولايه عمر و يزيد كلها؛ فلم يل له عملا حتى هلک.

و مات يزيد بن عبد الملک بالبقاء(۲) فى شعبان سنه خمس و مائه [فاستخلف هشام بن عبد الملک](۳).

و ولى على قنسرين و عملها خال أخيه سليمان و هو الوليـد بن القعقاع بن خليـد العبسـىّ و قيل إنّه ولّى عبـد الملک بن القعقاع على قنّسرين؛ و إليهم ينسب حيار بنى عبس(۴)، و إلى أبيهم ينسب القعقاعيه قريه من بلد الفايا(۵).

۱- على مقربه من معره النعمان أعيد ترميمه حديثا.

۲- كانت البلقاء كوره من أعمال دمشق، قصبتها عمان. معجم البلدان.

۳- زيد ما بين الحاصرتين لاستقامه السياق.

۴- هى أشهر باسم حيار بنى القعقاع، و كانت أيضا تعرف باسم كوره قنسرين الثانيه. بغيه الطلب ج ۱ ص ۱۲۵.

۵- الفايه كوره بين منبج و حلب كبيره. معجم البلدان.

و توفی هشام سنه خمس و عشرین و مائه.

و ولی الولید بن یزید بن عبد الملک، و کانت بینه و بین بنی القعقاع وحشه، فهرب الولید بن القعقاع و غیره من بنی أبیه من الولید، فعاذوا بقبر یزید بن عبد الملک. فولی الولید علی قنّسرین یزید بن عمر بن هبیره؛ و بعث إلی الولید بن القعقاع، فأخذه من جوار قبر أبیه؛ و دفعه إلی یزید بن عمر بن هبیره، و هو علی قنسرین، فعذبه و أهله. فمات الولید بن القعقاع فی العذاب.

و خرج یزید بن الولید علی الولید بن یزید، فقتله فی «البخراء»(۱) فی جمادی الآخره سنه ست و عشرین و مائه. و وثب علی عامله بدمشق فأخذه، و سیّر أخاه مسرور بن الولید، و ولاه قنّسرین؛ و قیل بل ولی قنسرین أخوه بشر بن الولید. و بویع یزید، و مات فی ذی الحجه من هذه السنه.

و بویع ابراهیم بن الولید؛ و خلع فی شهر ربیع الأول، سنه سبع و عشرین و مائه.

فولی مروان بن محمد بن مروان بن الحکم، و کان بحرّان(۲)، فسار منها

۱- البخراء: مدینه أثریه فی البادیه، ناحیه مرکز و منطقه تدمر. محافظه حمص تقع إلی الجنوب من مدینه تدمر، و علی بعد ۲۵ کم، اشتق اسمها من البخر، و هی الرائحه النتنه الصادره عن الینابیع الکبریتیه، أثارها تدل علی أنها کانت مدینه محصنه أبعادها ۲۰۰* ۱۶۰ م، یحیط بها سور من الحجاره المنحوته بعرض ۳ م، مدعم بأبراج نصف دائریه، یتجه بابها نحو الجنوب الشرقی، و یحیط به برجان مستدیران و فی وسطها باحه ذات أعمده، تیجانها کورنثیه، بناها التدمریون، و اتخذوها محطه رئیسه للقوافل. المعجم الجغرافی للقطر العربی السوری.

۲- حران الآن قریه مهمله داخل الحدود الترکیه مع محافظه الرقه السوریه.

فی سنه سبع و عشرین و مائه. و نزل بحلب؛ و قبض علی مسرور بن الولید الوالی بحلب، و علی أخیه بشر، بعد أن لقیهما فهزمهما و قتلهما بحلب. و کان معهما ابراهیم بن عبد الحمید بن عبد الرحمن، فقتله أیضا.

و استتب أمر مروان. و خرج علی مروان سلیمان بن هشام بن عبد الملک فالتقاه مروان بن محمد بخساف(۱) فاستباح عسکره فی سنه ثمان و عشرین و مائه.

و کان الحکم و عثمان ابنا الولید بن یزید حبسا بقلعه قنسرین؛ و کان یزید بن الولید حبسهما؛ فنهض عبد العزیز بن الحجاج و یزید بن خالد القسری؛ فقتلاهما و قتلا معهما یوسف بن عمر الثقفی بقنسرین؛ و أخذا بعد ذلک فقتلهما مروان و صلبهما.

۱- بریه خساف: المنطقه القائمه بین بالس- مسکنه حالیا- و حلب، و بین بالس و بین انقضاء بریه خساف خمسه عشر میلا. بغیه الطلب ج ۱ ص ۶۳- ۶۴.

[ابتداء دوله العباسیین]

و بویع أبو العباس السفاح(۱)، فی شهر ربیع الآخر من سنه اثنتین و ثلاثین و مائه، بالکوفه، فسیّر عبد اللّه بن علی بن عبد اللّه بن العبّاس، فی جمع عظیم، للقاء مروان بن محمد؛ و کان مروان فی جیوش کثیفه، فالتقیا بالزّاب(۲) من أرض الموصل، فی جمادی الآخره من سنه اثنتین و ثلاثین و مائه.

فهزم مروان و استولی علی عسکره؛ و سار مروان منهزما حتی عبر الفرات من جسر منبج(۳) فأحرقه.

فلما مرّ علی قنّسرین و ثبت به طی و تنوخ، و اقتطعوا مؤخره عسکره و نهبوه، و قد کان تعصّب علیهم؛ و جفاهم أیام دولته، و قتل منهم جماعه.

و تبعه عبد اللّه بن علیّ؛ و سار خلفه، حتی أتی منبج، فنزلها. و بعث إلیه أهل حلب بالبیعه مع أبی أمیّه التغلبی.

۱- بهامش الأصل بخط مخالف: ابتداء دوله العباسیین سنه ۱۳۲. و منه استعیر عنوان هذه الصفحه.

۲- الزاب الأعلی نهر بین الموصل و إربل. معجم البلدان.

۳- جسر منبج: مدینه صغیره لها زرع سقی و مباخس، و ماؤها من الفرات، حصینه، و زروعها سقی، نزهه ذات میاه و أشجار، و هی قریبه من الفرات. بغیه الطلب ج ۱ ص ۱۰۸.

و قدم علیه أخوه عبد الصّمد بن علیّ؛ فقلّده حلب و قنسرین. و سار عبد اللّه و عبد الصّمد أخوه معه إلیها، فبایعه أبو الورد مجزأه بن الکوثر بن زفر بن الحارث الکلابی- و کان من أصحاب مروان- و دخل فیما دخل فیه الناس من الطاعه.

و سار عبد اللّه إلی دمشق، ثم بلغ خلفه إلی نهر أبی فطرس(۱)، و أتبعه بأخیه صالح، حتّی بلغ إلی الدیار المصریه، خلف مروان بن محمد، فأدرکه ببوصیر(۲) فقتله؛ ثم عاد إلی دمشق بعده.

و ذکر ابن الکلبی: و قدم بالس قائد من قوّاد عبد اللّه بن علیّ، فی مائه و خمسین فارسا؛ و تقدّم إلی الناعوره فعبث بولد مسلمه بن عبد الملک و نسائهم- و کانوا مجاورین أبا الورد بحصن مسلمه بالناعوره و ببالس- فشکا بعضهم ذلک إلی أبی الورد الکلابی، فخرج من مزرعته خساف فی عده من أهل بیته؛ و خالف و بیّض؛ و جاء إلی الناعوره، و القائد المذکور نازل بحصن مسلمه بها؛ فقاتله حتی قتله و من معه؛ و أظهر الخلع و التبییض(۳)؛ و دعا أهل حلب و قنسرین إلی ذلک فأجابوه.

فبلغ ذلک عبد اللّه بن علی، و هو بدمشق؛ فوجه أخاه عبد الصّمد بن علیّ، فی زهاء عشره آلاف فارس، و معه ذؤیب بن الأشعث علی حرسه،

۱- خارج مدینه الرمله فی فلسطین.

۲- بوصیر قوریدس من کوره الأشمونین فی مصر. معجم البلدان.

۳- کان شعار بنی أمیه البیاض، و معروف أن العباسیین اتخذوا السواد شعارا.

و المخارق بن عفّان على شرطه؛ فسار أبو الورد إليه، و جعل مقدّم جيشه و صاحبه أبا محمد بن عبد اللّه بن يزيد بن معاويه بن أبى سفيان؛ و أبو الورد مدبر الجيش، و لقيهم فهزم عبد الصّمد و من معه.

فلما قدم عبد الصّمد على أخيه عبد اللّه أقبل عبد اللّه بن علىّ بعسكره لقتال أبى محمد و أبى الورد، و معه حميد بن قحطبه، فالتقوا فى سنه اثنتين و ثلاثين و مائه، فى آخر يوم من السنه؛ و اقتتلوا بمرج الأجم(۱)، و ثبت لهم عبد اللّه و حميد فهزموهم. و قتل أبو الورد(۲). و أمّن عبد اللّه بن علىّ أهل حلب و قنّسرين و سوّدوا و بايعوا. ثم انصرف راجعا إلى دمشق فأقام بها شهرا.

فبلغه أنّ العباس بن محمد بن عبد اللّه بن يزيد بن معاويه بن أبى سفيان السفيانى قد لبس الحمره، و خالف، و أظهر المعصيه بحلب؛ فارتحل نحوه حتى وصل إلى حمص، فبلغه أنّ أبا جعفر المنصور- و كان يومئذ يلى الجزيره، و أرمينيه، و أذربيجان- وجّه مقاتل بن حكيم العكّى من الرقّه، فى خيل عظيمه لقتال السفيانىّ؛ و أنّ العكى قد نزل منبج، فسار عبد اللّه مسرعا حتى نزل مرج الأجم، فبلغه أنّ العكّى واقع السفيانىّ و هزمه، و استباح عسكره، و افتتح حلب عنوه، و جمع الغنائم، و سار بها إلى أبى جعفر و هو بحرّان.

۱- فى بغيه الطلب ص ۳۹۲۷« فاقتتلوا بمرج الأخرم من ناحيه قنسرين».

۲- لأبى محمد السفيانى- زياد بن عبد اللّه الأسوار ترجمه وافيه فى بغيه الطلب ۳۹۲۷- ۳۹۳۲، فيها تفاصيل ما أوجزه ابن العديم هنا.

فارتحل عبد اللّه إلى دابق، و شتا بها، ثم نزل سميساط(۱)، و حصر فيها اسحاق بن مسلم العقيليّ، حتى سلّمها؛ و دخل فى الطاعه.

ثم قدم أبان بن معاويه بن هشام بن عبد الملك، فى أربعه آلاف من نخبه من كان مع اسحاق بن مسلم. فسيّر إليه حميد بن قحطبه، فهزم أبانا، و دخل سميساط، فسار إليها عبد اللّه، و نازلها حتى افتتحها عنوه.

و كتب إليه أبو العباس يأمره بالمسير إلى الناعوره، و أن يترك القتال؛ و يرفع السّيف عن الناس، و ذلك فى النصف من رمضان سنه ثلاث و ثلاثين و مائه.

و هرب أبو محمد و من معه من الكلبيه إلى تدمر ثم خرج إلى الحجاز، فظفر به و قتل(۲). و كتب إليه السفّاح أن يغزو بلاد الروم، فأتى دابق، فعسكر بها، و جمع، و توجّه إلى بلاد الرّوم.

فلمّا وصل دلوك(۳) يريد الإدراب، كتب إليه عامله بحلب يخبره بوفاه

۱- سميساط: بلده على شاطى ء الفرات الغربى فى طرف بلاد الروم. معجم البلدان.

۲- قتل قرب أحد خارج المدينه المنوره. انظر ترجمته فى بغيه الطلب السالفه الذكر. و جاء بهامش الأصل بخط مخالف: و ذكر ابن الكلبى أن عبيد اللّه بن العباس بن يزيد من بنى حجر بن وهب بن ربيعه بن معاويه بن الحارث بن ثور بن مرتع الكندى ولى قنسرين لأبى السفاح، و أنه ولى بعد ذلك أرمينيه لأبى جعفر و بها مات.

۳- عرفها ابن العديم، و أوضح أن الرشيد كان قد أفردها مع غيرها و جعلها من العواصم، و شغلت المدينه هذه دورا فى الحروب الصليبيه حتى حررها نور الدين محمود بن زنكى، و إثر ذلك خربت المدينه و القلعه، و بقيت قريه مضافه إلى عين تاب. بغيه الطلب ج ۱ ص ۲۶۱.

السفاح و بيعه المنصور؛ فرجع من دلوك، و أتى حرّان، و دعا إلى نفسه، و زعم أنّ السّفاح جعله ولىّ عهده.

و غلب على حلب، و قنّسرين، و ديار ربيعه و مضر، و سائر الشّام. و لم يبايع المنصور. و بايعه حميد بن قحطبه و قوّاده الذين كانوا معه. و ولّى على حلب زفر بن عاصم بن عبد اللّه بن يزيد الهلالى أبا عبد اللّه، فى سنه سبع و ثلاثين و مائه.

فسيّر المنصور أبا مسلم الخراسانىّ صاحب الدعوه لقتال عبد اللّه بن على؛ فسيّر عبد اللّه حميد بن قحطبه، و كتب له كتابا إلى زفر بن عاصم إلى حلب، و فيه: «إذا ورد عليك حميد فاضرب عنقه»(۱). فعلم حميد بذلك؛ فهرب إلى أبى مسلم الخراسانى، خوفا من عبد اللّه.

ثم سار أبو مسلم إلى عبد اللّه بن علىّ، فالتقيا، و انهزم عبد اللّه و عبد الصمد أخوه معه؛ فسار أبو مسلم خلفه فوصل إلى الرقه؛ و أخذ منها أموال عبد اللّه، و تبعه إلى رصافه هشام(۲) فانهزم عبد اللّه إلى البصره، و توارى عند أخيه سليمان بن علىّ، فأخذ له أمانا من المنصور؛ و سيّره إليه، فحبسه إلى أن سقط عليه الحبس، فمات(۳).

۱- لحميد ترجمه جيده فى كتاب بغيه الطلب ۲۹۷۳- ۲۹۷۵ فيها تفاصيل ما أوجزه ابن العديم هنا.

۲- ماتزال بقايا رصافه هشام قائمه خارج مدينه الرصافه التى تبعد عن الرقه قرابه العشرين ميلا.

۳- وجدت فى كتاب المقفى للمقريزى ترجمه وافيه لعبد اللّه بن على نشرتها مع تراجم أخرى ملحقه بكتاب تاريخ الخلفاء للوثابى، بيروت ۱۹۹۵.

و قبض أبو مسلم على عبد الصّمد بن علىّ، بالرّصافه، و أخذ أمواله، و سيّره إلى المنصور، فأمّنه و أطلقه.

و ورد كتاب المنصور على أبى مسلم بولايه الشّام جميعه، و حلب، و قنّسرين، و أمره أن يقيم له فى بلاده نوّابا، ففعل أبو مسلم ذلك.

و سار إلى المنصور، فالتقاه فى الطريق يقطين بن موسى، و قد بعثه المنصور إليه لاحصاء جميع ما وجدوا فى عسكر عبد اللّه بن علىّ. فغضب أبو مسلم و قال: «أنكون أمناء فى الدماء و خونه فى الأموال؟» ثم أقبل و هو مجمع على خلاف المنصور(۱). فاستوحش المنصور منه، و قتله فى سنه تسع و ثلاثين و مائه.

و لما عاد أبو مسلم من الشّام ولى المنصور حلب و قنسرين و حمص صالح بن علىّ بن عبد اللّه بن العبّاس سنه سبع و ثلاثين و مائه؛ فنزل حلب، و ابتنى بها خارج المدينه قصرا بقريه يقال لها بطياس(۲) بالقرب من النيرب؛

۱- أخبار أبى مسلم الخراسانى منتشره فى مختلف المصادر المبكره مثل أنساب الأشراف للبلاذرى، و تاريخ الطبرى، و غرر السير للمرعشى، و لأبى مسلم ترجمه متميزه فى تاريخ دمشق لابن عساكر تحت اسم عبد الرحمن بن مسلم.

۲- فى بغيه الطلب ج ۱ ص ۵۲۸- ۵۲۹: و ابتنى صالح بن على بن عبد اللّه بن عباس« قصره المعروف ببطياس، و كان على الرابيه المشرفه على النيرب من جهه الغرب و الشمال، و كان عن يسار المتوجه من حلب إلى النيرب، و موضع اصطبله عن يمين المتوجه، و الطريق بينهما، و دثر القصر، و لم يبق منه إلا الآثار، و يجد الناس فى موضعه شيئا من الفسيفساء و كسور الرخام» و ما يزال موقع النيرب يحمل الاسم نفسه خارج حلب.

و آثاره باقیه إلی الآن. و معظم أولاده ولدوا ببطیاس. و قد ذکرها البحتریّ و غیره فی أشعارهم.

و أغزی الصائفه مع ابنه الفضل فی سنه تسع و ثلاثین و مائه بأهل الشام، و هی أول صائفه غزیت فی خلافه بنی العباس. و کانت انقطعت الصوائف فی أیام بنی أمیه قبل ذلک بسنین.

و ظهر فی سنه إحدی و أربعین و مائه قوم یقال لهم الراوندیه(۱)، خرجوا بحلب و حرّان. و کانوا یقولون قولا ـ عظیما. و زعموا أنهم بمنزله الملائکه.

و صعدوا تلا بحلب، فیما قالوا؛ و لبسوا ثیابا من حریر؛ و طاروا منه فتکدوا(۲) و هلکوا. و دام صالح فی ولایه حلب إلی أن مات فی سنه اثنتین و خمسین و مائه.

و رأیت فلوسا عتیقه، فتتبعت ما علیها مکتوب فإذا أحد الجانبین مکتوب علیه: «ضرب هذا الفلس بمدینه حلب سنه ست و أربعین و مائه».

و علی الجانب الآخر: «مما أمر به الأمیر صالح بن علیّ أکرمه اللّه».

و لما مات صالح بن علیّ تولّی حلب و قنسرین بعده ولده الفضل بن صالح، و اختار له «العقبه»(۳) بحلب، فسکنها و أقام بحلب والیا مدّه. ثم ولی المنصور بعده موسی بن سلیمان الخراسانی. و مات المنصور سنه ثمان و خمسین،

۱- قالوا بتألیه الخلیفه المنصور، خرجوا فی أیامه فی بغداد و أبیدوا.

۲- أی لحق بهم الأذی. القاموس.

۳- عرفت قدیما باسم عقبه بنی المنذر، و سمیت عقبه لارتفاعها عن المدینه. الآثار الاسلامیه و التاریخیه فی حلب ص ۵۴- ۵۵.

و موسی علی قنسرین و حلب. و رأیت فلوسا عتیقه فقرأت علیها: «ضرب هذا الفلس بقنسرین سنه سبع و خمسین و مائه». و علی الجانب الآخر: «مما أمر به الأمیر موسی مولی أمیر المؤمنین».

و لما ولی المهدی خرج عبد السلام بن هاشم الخارجی بالجزیره، و کثر أتباعه فلقیه جماعه من قواد المهدی، فهزمهم؛ فبعث المهدی إلیه جنودا کثیره، فهرب منهم إلی قنسرین، فلحقوه فقتلوه بها فی سنه اثنتین و ستین و مائه؛ و کان مقدم الجیش شبیبا(۱).

و عزم المهدی علی الغزو فخرج حتی وافی حلب فی سنه ثلاث و ستین و مائه، و التقاه العباس بن محمد إلی الجزیره؛ و أقام له النزل فی عمله، و اجتاز معه علی حصن مسلمه بالناعوره، فقال له العباس: «یا أمیر المؤمنین إنّ لمسلمه فی أعناقنا منّه». کان محمد بن علی مرّ به فأعطاه أربعه آلاف دینار، و قال له: «یابن عم، هذه ألفان لدینک و ألفان لمعونتک، فإذا نفدت فلا تحتشمنا». فقال المهدی: «أحضروا من ههنا من ولد مسلمه و موالیه»؛ فأمر لهم بعشرین ألف دینار و أمر أن تجری علیهم الأرزاق.

ثم قال: «یا أبا الفضل کافینا مسلمه و قضینا حقه؟» قال العباس:

«نعم، وزدت».

و نزل المهدی بقصر بطیاس ظاهر حلب. و ولی المهدی حین قدم

۱- شبیب بن واج المروروذی، و تفاصیل ثوره عبد السلام بن هاشم الیشکری فی سنه ستین و مائه موجوده فی تاریخ خلیفه بن خیاط- ط. دمشق ۱۹۶۸ ج ۲ ص ۷۰۰- ۷۰۴.

قنسرين و حلب و الجزيره على بن سليمان بن على بن عبد اللّه بن العباس حربا و خراجا و صلاه.

ثـم إن المهـدى عرض العسـكر بحلب و أغزى ابنه هـارون بلاد الروم و سيّر محتسب حلب عبـد الجبـار فأحضـر له جمـاعه من الزنادقه فقتلهم بحلب.

و ولى حلب و الشام جميعه ابنه هارون. و أمر كاتبه يحيى بن خالـد أن يتولى ذلك كله بتدبيره؛ و كانت توليته فى سـنه ثلاث و ستين و مائه

و لما بويع الهادى أقر أخاه و يحيى على حالهما.

فلما أفضـى الأمر إلى الرشيد ولّى حلب و قنّسرين عبد الملك بن صالح بن على بن عبد اللّه، فأقام بمنبج، و ابتنى بها قصرا لنفسه و بستانا إلى جانبه، و يعرف البستان يومنا هذا ببستان القصر، و كانت ولايته سنه خمس و سبعين؛ ثم صرفه لأمر عتب عليه فيه.

ثم ولاها الرشيد موسى بن عيسى سنه ست و سبعين و مائه. و مرّ الرشيد على عبد الملك بمنبج فأدخله منزله بها. فقال له الرشيد: «هـذا منزلـك». قـال «هو لـك ولى بـك». قـال: «فكيف هو؟». قـال: «دون منـازل أهلى و فوق منـازل الناس». قال: «فكيف طيب منبج؟». قال: «عذبه الماء، عذبه الهواء، قليله الادواء». قال: «فكيف ليلها؟». قال: «سحر كله!».

و هـاجت الفتنه بالشام بين النزاريه و اليمانيه، فولى الرشـيد موسـى بن يحيى بن خالـد فى هـذه السـنه الشّام جميعه، فأقام به حتى أصلح بينهم.

ثم ولاها الرشيد جعفر بن يحيى بن خالد بن برمک سنه ثمان و سبعين؛

و توجّه إليها سنه ثمانين، و استخلف عليها عيسى بن العكى.

ثم إنّ الرشيد ولى حلب و قنّسرين اسماعيل بن صالح بن علىّ لما عزله عن مصر سنه اثنتين و ثمانين و مائه؛ و أقطعه ما كان له بحلب فى سوقها و هى الحوانيت التى بين باب أنطاكيه إلى رأس الدلبه(۱) و عزله و ولاه دمشق.

ثم ولى الرشيد بعده عبد الملك بن صالح بن على ثانيه، فسعى به ابنه عبد الرحمن إلى الرشيد، و أوهمه أنه يطمع فى الخلافه فاستشعر منه، و قبض عليه فى سنه سبع و ثمانين و مائه.

و ولّى على حلب و قنسرين ابنه القاسم بن هارون، و أغزاه الروم و وهبه للّه تعالى فى سنه سبع و ثمانين و مائه.

و رابط القاسم بدابق هذه السنه و التى بعدها. و قيل: إنّ الرشيد لما غضب على عبد الملك بن صالح ولى أخاه عبد اللّه بن صالح ثم عزله سنه ثمان و ثمانين و ولى القاسم بن هارون ابنه. و قيل: إن أحمد بن اسحاق بن اسماعيل بن على بن عبد اللّه بن العباس ولى قنسرين للرشيد، و قد كان ولى له مصر، و عزله عنها سنه تسع و ثمانين؛ فلا أتحقق ولايته فى أى سنه كانت.

و قد ذكر بعضهم: أن عبد اللّه بن صالح توفى ببغداد فى أيام المنصور.

و قال بعضهم: إنه توفى بسلميه فى سنه ست و ثمانين. فعلى هذا يكون الذى ولاه الرشيد ابن ابنه عبد اللّه بن صالح بن عبد اللّه بن صالح؛ و اللّه أعلم.

۱- ترجم ابن العديم لاسماعيل بن صالح فى بغيه الطلب ص ۱۶۴۸- ۱۶۵۵، و ذكر ما أقطعه الرشيد فى حلب و زاد:« و قدرها قدر جليل جسيم».

ثم إنّ الرشـيد ولّى حلب و قنّسـرين خزيمه بن خازم بن خزيمه، من قبل ابنه القاسم بن الرشـيد، فى سنه ثلاث و تسعين و مائه. و لم يزل القاسم بن الرشـيد فى ولايه حلب و قنسرين حتى مات أبوه الرشيد فى سنه ثلاث و تسعين و مائه فى جمادى الآخره فأقره أخوه الأمين عليها؛ و جعل معه قمامه بن أبى زيد؛ و ولى خزيمه بن خازم الجزيره.

ثم إن محمدا الأمين عزل أخاه القاسم بن الرشيد عن حلب و قنسرين و العواصم و سائر الأعمال التى ولاه أبوه سنه أربع و تسعين و مائه؛ و وليّها خزيمه بن خازم فى هذه السنه.

ثـم ولّى الأـمين حلب و قنسـرين و الجزيره عبـد الملـك بن صالـح بن علىّ؛ فخرج إليهـا، و اجتمعت إليه العرب فى سـنه ست و تسعين و مائه(۱). و هذه الولايه الثالثه لعبد الملك. و كان الأمين قد أخرجه من حبس أبيه حين مات سـنه ثلاث و تسعين و مائه فى ذى القعده.

و اسـتمر عبد الملك فى هذه الولايه إلى أن مات فى سنه ست و تسعين و مائه بالرقه؛ و دفن فى دار من دور الإماره. و كان يرى للأـمين مـا فعله به. فلمـا خلع الأمين حلف عبـد الملك إن مات الأمين لا يعطى المأمون طاعه؛ فمات قبل الأمين فبقيت فى نفس المأمون إلى أن خرج إلى الغزاه؛ و وجد قبر عبد

۱- بهامش الأصل: و خرج أبو العميطر على بن عبـد اللّه بن يزيـد بن معاويه السـفيانى ... بالخلافه فى ذى الحجه سنه ... و بايعه أهـل قنسـرين، و خرج إبراهيم بن اسـحق بن قضـاعه الثويـبى من بنى الفصـيص فى جمـاعه من أصـحابه، ثم هرب أبو العميطر و استخفى». انظر بغيه الطلب ج ۱ ص ۵۶۳- ۵۶۵.

الملک فی دار الإماره فأرسل إلی ابن لعبد الملک: «حول أباک من داری» فنبشت عظامه و حوّل.

ثم ولی خزیمه بن خزیمه حلب و قنسرین فی سنه سبع و تسعین و مائه.

و قیل إن الولید بن طریف ولی حلب و قنسرین بعد عبد الملک بن صالح؛ و بعده و رقاء عبد عبد الملک ثم بعده یزید بن مزید، ثم استأمن إلی طاهر بن الحسین.

فلما قتل الأمین و بویع المأمون ولی حلب و الشام جمیعه طاهر بن الحسین؛ و جعل إلیه حرب نصر بن شبث فتحصن بکیسوم(۱) فقصده طاهر فلم یظفر به ولقیه، فکسر طاهر و عاد مفلولا؛ و ذلک فی سنه ثمان و تسعین و مائه.

ثم أضاف إلیه ولایه مصر و إفریقیه فی سنه أربع و مائتین.

ثم ولاه خراسان سنه ست. و ولی ابنه عبد اللّه مصر و الشام جمیعه؛ و أمره بمحاربه نصر بن شبث فی سنه ست و مائتین.

و توفی طاهر بخراسان سنه سبع و مائتین؛ فأضاف المأمون ولایته إلی ابنه عبد اللّه مع الشام. فسار عبد اللّه بن طاهر إلی الشام من الرقه و احتوی علی الشام جمیعه. و هدم سور معره النعمان. و هدم معظم الحصون الصغار مثل

۱- کانت کیسوم مدینه کبیره قدیمه، و ولایه واسعه عظیمه، و کان حصنها حصینا و بناؤها قویا رکینا، و بینها و بین الحدث سبعه فراسخ. بغیه الطلب ج ۱ ص ۲۶۵.

حصن الكفر و حصن حناك(۱) و غير ذلك. و نزل بكيسوم و بها نصر بن شبث فحصره إلى أن ظفر به، و خرج إليه بأمان. و خرّب حصن كيسوم بعد وقائع كثيره جرت بينه و بين نصر بن شبث؛ و سار إلى مصر؛ و ذلك كله فى سنه تسع و مائتين.

و لما فتح مصر فى سنه إحدى عشره و مائتين كتب المأمون إليه:

أخى أنت و مولاى و من أشكر نعماه

فما أحببت من أمرفإنى الدهر أهواه

و ما تكره من شى ءفانى لست أرضاه

لك الله على ذاك لك الله لك الله

و دامت ولايه عبد اللّه بن طاهر إلى سنه ثلاث عشره و مائتين؛ و وجهه المأمون إلى خراسان، و عزله عن الشام؛ و ولى ابنه العباس بن المأمون حلب و قنسرين و العواصم و الثغور؛ و أمر له بخمسمائه ألف دينار فى سنه ثلاث عشره و مائتين.

ثم ولاها المأمون إسحاق بن ابراهيم بن مصعب بن زريق و عزل ابنه العباس فى سنه أربع عشره و مائتين. ثم إنّ المأمون عزل اسحاق بن ابراهيم فى هذه السنه و ولاه مصر، و أعاد ابنه العباس إليها ثانيه.

ثم ولى المأمون حلب و قنسرين ورقه الطريفى، و أظنه مع العباس

۱- لعله أراد بالكفر، بلده كفر طاب، علما بأنه يوجد على مقربه من خربه حناك قريه اسمها كفر رومه، تبعد عنها ۳ كم. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

و كانت لورقه حركه أيام الفتنه.

فلما قـدم المأمون حلب للغزاه و نزل بـدابق، فى سـنه خمس عشـره و مائتين، لقيه عيسـى بن على بن صالح الهاشـمى فقال له: «يا أمير المؤمنين أيلينا أعداؤنا فى أيام الفتنه و فى أيامك؟» فقال: «لا و لا كرامه». فصرف ورقه.

و ولى عيسـى بن على بن صالح نيابه عن ولده العباس فيما أرى، فوجد عنده من الكفايه و الضبط و حسن السيره ما أراد فقدّمه و كبر عنده و أحبه.

و كان المأمون كلما غزا الصائفه لقيه عيسى بن على بالرقه و لا يزال معه حتى يدخل الثغور، ثم يرد عيسى إلى عمله.

و ولى المأمون فى سـنه خمس عشره و مائيين قضاء حلب عبيد بن جناد بن أعين مولى بنى كلاب، فامتنع من ذلك، فهدده على الامتناع فأجاب.

ثم ولى المأمون عبيد اللّه بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح لما غزا الصائفه فى سنه ثمان عشره و مائتين العواصم.

و فيهـا مات المأمون و إنما وليها عبيـد اللّه عن العباس بن المأمون فى غالب ظنى فان العباس ولى حلب و قنسـرين و الجزيره من سنه أربع عشره و مائتين إلى أن توفى أبوه المأمون بالبذندون من أرض طرسوس[1].

۱- للمأمون ترجمه وافيه فى المقفى للمقريزى ألحقتها بكتاب تاريـخ الخلفاء للوثابى، و البذنـدون قريه بينها و بين طرسوس يوم، ثم نقل إلى طرسوس و دفن فيها، و أودع ابن العديم ماده رائعه عن طرسوس. بغيه الطلب ج ۱ ص ۱۷۵- ۲۰۴.

و بویع أبو اسحاق المعتصم فأقر العباس بن المأمون علی ولایته، و کان الجند قد شغبوا و طلبوا العباس و نادوه باسم الخلافه؛ فأرسل المعتصم إلیه، و أحضره فبایعه؛ و خرج إلی الناس و قال لهم: «ما هذا الحب البارد قد بایعت عمی» فسکنوا.

و سار المعتصم إلی بغداد و العباس معه؛ فلما توجه المعتصم إلی الغزاه و مرّ بحلب، فی سنه ثلاث و عشرین و مائتین، و دخل إلی بلاد الروم اجتمع به بعض الجند و وبّخه علی ما فعل من إعطاء المعتصم الخلافه، و حسّن له تدارک الأمر، فاستمال جماعه من القواد و عزموا أن یقبضوا علی المعتصم و هو داخل إلی الغزاه فلم یمکنهم العباس و قال: «لا أفسد علی الناس غزاتهم».

فنمی الخبر إلی المعتصم فقبض علی العباس، و علی من ساعده علی ذلک، و هو عائد من الغزاه، فلما وصل إلی منبج سأل العباس الطعام و کان جائعا فقدم إلیه طعام کثیر فأکل. فلمّا طلب الماء منع و أدرج فی مسح(۱) فمات بمنبج فی ذی القعده، من سنه ثلاث و عشرین و مائتین؛ و صلی علیه بعض إخوته و دفن بمنبج.

و ولی المعتصم حلب و قنسرین حربها و خراجها و ضیاعها عبید اللّه بن عبد العزیز بن الفضل بن صالح بن علیّ الهاشمی؛ ثم إنه ولی أشناس الترکی الشام جمیعه و الجزیره و مصر، و توّجه و ألبسه و شاحین بالجوهر فی سنه خمس و عشرین و مائتین.

۱- المسح: الکساء من شعر. المعجم الوسیط.

و نظر فی صلات المعتصم لأشناس فوجد مبلغها أربعین ألف ألف درهم. و أظن أنه بقی فی ولایته إلی أن مات سنه ثلاثین و مائتین فی أیام الواثق.

و ولی الواثق عبید اللّه بن عبد العزیز بن الفضل بن صالح الهاشمی حلب و قنسرین حربها و خراجها و ضیاعها؛ و أظنه کان متولیا فی أیام المعتصم من جهه أشناس، فأقره الواثق علی ولایته.

و ولّی الواثق قنسرین و حلب و العواصم، بعد عبید اللّه، محمد بن صالح بن عبد اللّه بن صالح فکانت سیرته غیر محموده. و کان أحمر أشقر، فلقّب: «سمّاقه» لشده حمرته. و یقال: إنه أول من أظهر البرطیل بالشام، و أوقع علیه هذا الاسم؛ و کان لا یعرف قبل ذلک إلا الرّشوه علی غیر إکراه.

و کان أکثر الناس سکوتا و أطولهم صمتا؛ لا یکاد یسمع له کلام إلا فی أمر یأمر به، أو قول یجیب عنه.

و کان قاضی حلب فی أیامه أبا سعید عبید بن جناد الحلبی، توفی سنه إحدی و ثلاثین و مائتین؛ و کان المأمون ولاه قضاء حلب. و له یقول عمرو بن هوبر الکلبی فی قصیده یغضّ منه؛ أولها:

لا در درّ زمانک المتنکس الجاعل الأذناب فوق الأرؤس

ما أنت إلا نقمه فی نعمهأو أصل شوک فی حدیقه نرجس

یا قبله ذهبت ضیاعا فی یدضرب الإله بنانها بالنقرس

من سرّ أبطح مکه آباؤه وجدوده و کأنّه من قبرس

و هذا عمرو بن هوبر كان من معراثا البريديه من ضياع معرّه النعمان و ولى فى أيام المتوكل معرّه مصرين و قتل بها(۱).

و كان الواثق قد ولى الثغور و العواصم دون حلب و أعمالها أحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبه، و أمره بحضور الفداء مع خاقان و صاحب الروم ميخائيل، فأمضى الفداء سنه إحدى و ثلاثين و مائتين.

ثم إنه غزا شاتيا فأصاب الناس شده فوجد الواثق عليه بسبب ذلک، و عزله و ولاها نصر بن حمزه الخزاعى.

و ولّى الشارباميان، فى أول أيام المتوكل على حلب و قنسرين و العواصم، و البين أنا ذاكرهما. و كان الشارباميان أحد قواد المتوكل و كان خصيصا عنده. فإما أن يكون المتوكل ولاه جند قنسرين و العواصم أو أنه كان السلطان فى أيام المتوكل فكان أمر الولايه إليه. فاننى قرأت فى كتاب نسب بنى صالح بن على قال: و ولى الشارباميان جند قنسرين و العواصم علىّ بن اسماعيل بن صالح بن على، أبا طالب؛ و إنما أراد أن يتزين به عند المتوكل فامتنع من قبول ولايته؛ فأعلمه إن لم يفعل كتب فيه إلى الخليفه فقبلها؛ و أقام على ولايه جند قنسرين و العواصم، حتى مات. فكانت أيامه أحسن أيام و سيرته أجمل سيره. و كان علىّ بن اسماعيل إذا خرج إلى العواصم استخلف ابنه محمد بن على على قنسرين و حلب فلا يفقد الناس من أبيه

۱- ما يزال هناک أکثر من معراثا على مقربه من معره النعمان، هذا و أفرد ابن العديم بابين لکل من معره النعمان و معره مصرين. ج ۱ ص ۱۲۷- ۱۳۵.

شیئا، قال: ولی الشاربامیان جند قنسرین و العواصم عیسی بن عبید اللّه بن الفضل بن صالح بن علی الهاشمی.

قال: و ولی المتوکل طاهر بن محمد بن اسماعیل بن صالح علی المظالم بجند قنسرین و العواصم، و النظر فی أمور العمال؛ و جاءته الولایه منه فألفاه الرسول فی مرضه الذی مات فیه، و جعل المتوکل ولایه عهده إلی ابنه محمد المنتصر؛ و ولاه قنسرین، و العواصم، و الثغور و دیار مضر، و دیار ربیعه، و الموصل، و غیر ذلک فی سنه خمس و ثلاثین و مائتین؛ فاستمر فی الولایه إلی أن قتل أباه و کانت الولاه من قبله.

و فی أیام ولایته حلب فی سنه اثنتین و أربعین و مائتین وقع طائر أبیض دون الرخمه(۱) و فوق الغراب علی دلبه بحلب لسبع مضین من رمضان، فصاح: «یا معشر الناس، اللّه اللّه» حتی صاح أربعین صوتا. ثم طار؛ و جاء من الغد فصاح أربعین صوتا. و کتب صاحب البرید بذلک و أشهد خمسمائه انسان سمعوه. و لا یبعد عندی أن تکون الدّلبه التی ینسب إلیها رأس الدلبه(۲).

و سمع فی هذه السنه أصوات هائله من السماء، و زلزلت نیسابور،

۱- الرخم(الشوح) طائر یشبه النسر فی الخلقه، کانت له مکانه دوائیه منها أن یطلی بمرارته لسم الحیه و غیرها، و التبخیر یجفف لحمه مخلوطا بخردل سبع مرات یحل المعقود عن النساء ... القاموس.

۲- بهامش الأصل: مقال الطائر. غریبه، إن اللّه علی کل شی ء قدیر.

و تقلعت جبال من أصولها، و نبع الماء من تحتها، و وصلت الزلزله إلى الشام و الثغور.

و أظن أن نائب المنتصر فى جند قنسرين فى حياه المتوكل كان بغا الكبير؛ فلمّا قتل المتوكل قدم بغا عليه. و سيّر المنتصر و صيفا إلى الثغر الشامى، فأقام به إلى أن مات.

و ولى المستعين فى سنه خمسين و مائتين قنّسرين و حلب و حمص موسى بن بغا؛ و توجه إليها حين عاث أهل حمص على الفضل بن قارن. ثم ولى حلب و العواصم أبو تمام ميمون بن سليمان حدقه بن عبد الملك بن صالح فى أيام المستعين، و كانت له حركه و بأس فى فتنه المستعين.

و عصى أهل حلب و أقاموا على الوفاء للمستعين ببيعتهم؛ فقدم عليهم أحمد المولد محاصرا لهم فلم يجيبوه إلى ما أراد من البيعه للمعتز. و كان السفير بينه و بينهم الحسين بن محمد صالح بن عبد اللّه بن صالح أبا عبيد اللّه الهاشمى.

فلما بايعوا بعد ذلك للمعتز و انقضى أمر المستعين ولاه أحمد المولد جند قنسرين و حلب، فى سنه اثنتين و خمسين و مائتين؛ فأقام مده يسيره؛ ثم انصرف إلى سلميه- أعنى الحسين بن محمد.

و ولى حلب و قنسرين و العواصم صالح بن عبيد اللّه بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح، فى فتنه المستعين؛ و كان له سعى و تقدم و رئاسه.

ثم ولى بعده، فيما أرى، أبو تمام ميمون بن سليمان بن عبد الملك بن صالح. و هذه ولايه ثانيه له؛ و مات بالرقه، ثم ولى بعده ثانيه صالح بن عبيد اللّه بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح الهاشمى و انقضت ولايه بنى صالح الهاشميين.

ثم ولى حلب و قنسرين فى أيام المعتز أبو الساج داود اذ فى شهر ربيع الأول، سنه أربع و خمسين و مائتين، و بقى واليا إلى أن تغلب أحمد بن عيسى بن شيخ على الشامات فى أيام المهتدى.

فلما مات، و ولى المعتمد سيّر إلى ابن شيخ بولايه أرمينيه، على أن ينصرف عن الشام آمنا؛ فأجاب إلى ذلك؛ و رحل عنها فى سنه ست و خمسين و مائتين.

[عصر الدوله الطولونيه]

[عصر الدوله الطولونيه](۱)

و وليها أحمد بن طولون مع أنطاكيه و طرسوس و غيرها من البلاد و كان أحمد بن طولون شهما شجاعا عاقلا، و كان على مربطه أربعه آلاف حصان، و كانت نفقته فى كل يوم ألف دينار(۲).

فعقد المعتمد لأخيه أبى أحمد الملقب بالموفق على حلب و قنسرين و العواصم، فى شهر ربيع الأول سنه ثمان و خمسين و مائتين. ثم ولاه بغداد، و اليمن، و خراسان؛ ولى الشام لابنه جعفر؛ و جعل له ولايه العهد، و هو صبى؛ و جعل الأمر بعده لأخيه أبى أحمد.

فولى أبو أحمد الموفق «سيما الطويل» أحد قواد بنى العباس و مواليهم حلب و العواصم. فابتنى بظاهر مدينه حلب دارا حسنه، و عمل لها بستانا.

و هو الذى يعرف الآن «ببستان الدّار» ظاهر باب أنطاكيه. و بهذه الدّار سميت المحله التى بباب أنطاكيه «الدّارين»؛ إحدى الدارين هذه؛ و الدار الأخرى

۱- أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

۲- لأحمد بن طولون ترجمه وافيه فى بغيه الطلب ص ۸۲۶- ۸۳۵.

بناها قبله محمد بن عبد الملک بن صالح فعرفت المحله بالدّارین لذلک.

و إحدی الدارین تعرف بالسلیمانیه علی حافه نهر «قویق»؛ و حاضر السلیمانیه بها یعرف و هو حاضر حلب.

و جدّد سیما الطویل الجسر الذی علی نهر قویق قریبا من داره. و رکب علیه بابا أخذه من قصور بعض الهاشمیین بحلب یقال له: «قصر البنات».

و أظن أن «درب البنات» بحلب یعرف به؛ و أظن القصر یعرف بأم ولد کانت لعبد الرحمن بن عبد الملک بن صالح اسمها «بنات»؛ و هی أم ولده داود.

و سمی سیما الباب باب السلامه و هو الباب الذی ذکره الواسانی(۱) فی قصیدته المیمیه التی أولها:

یا ساکنی حلب العواصم جادها صوب الغمامه(۲)

و فی سیما الطویل یقول البحتری:

فردّت إلی سیما الطّویل أمورناو سیما الرّضا فی کلّ أمر یحاوله(۳)

فعصی أحمد بن طولون علی أبی أحمد الموفق، و أظهر خلعه و نزل إلی الشام، فانحاز سیما الطویل إلی أنطاکیه فحصره أحمد بن طولون بها فألقت

۱- الواسانی من شعراء یتیمه الدهر للثعالبی- ط. القاهره ۱۹۵۶ ج ۱ ص ۳۵۱.

۲- انظر بغیه الطلب ج ۱ ص ۵۷.

۳- لم ترد قصیده البحتری فی دیوانه المطبوع، و ذکر المرحوم سامی الدهان أنه رآها فی مخطوطه باریس من دیوان البحتری بالورقه ۳۱۱. و قال یمدح الموفق و یذکر ولایه سیما الطویل الشام: لقد وفق الله الموفق للذی أتاه و أعطی الشام ما کان یأمله أضاف إلی سیما الطویل أمورناو سیما الرضا فی کل أمر یحاوله

علیه امرأه حجرا و قیل قوفا(۱) فقتلته. و قیل بل قتله عسکر ابن طولون، و کان ذلک فی سنه أربع و ستین أو سنه خمس و ستین و مائتین.

و استولی أحمد بن طولون علی حلب و الشام جمیعه منابذا لأبی أحمد الموفق؛ و کان قاضی حلب فی أیامه عبید اللّه بن محمد بن عبد العزیز بن عبد اللّه أبو بکر القاضی العمری. و دام علی قضائها إلی أن مات أحمد.

و کان سیما حین صارت له حلب قد قصد جماعه من الأشراف [من] بنی صالح بن علی بالأذی، و استولی علی أملاکهم، و أودع بعضهم السجن.

فلما ولی أحمد بن طولون قال صالح بن محمد بن اسماعیل بن صالح بن علی الهاشمی الحلبی، یمدحه و یشکره، و یذکر ظفره بسیما بقصیده یقول فیها:

و قد لبستنا من قذا الجور ذلهو دار بنا کید الأعادی فأحدقا

و حکّم فینا عاندا فجرت له أفاعیل غرّ تترک اللب أخلقا

إلی أن أتیحت بابن طولون رحمهأشار إلی معصوصب فتفرّقا

فدتک بنو العباس من ناصر لهاأنار به قصد السبیل فأشرقا

بنیت لهم مجدا تلیدا بناؤه فلم نر بنیانا أعزّ و أوثقا

منحتهم صفو الوداد و لم یکن سواک لیعطی الودّ صفوا مزوّقا

تجوز منک العبد لما قصدته و أسکن أشراف الأقاوم مطبقا

بلا تره أسدوا إلیه و إنّمایجازی الفتی یوما علی ما تحققا

۱- القفه و القف: ما ارتفع من متون الأرض و صلبت حجارته. و القف حجاره غاص بعضها ببعض مترادف بعضها إلی بعض حمر لا یخالطها من اللین و السهوله شی ء. اللسان.

و هيهات ما ينجيه لو أنّ دونه ثمانين سورا فى ثمانين خندقا

ثم إنّ أحمد بن طولون توجه إلى مصر، و ولى مملوكه لؤلؤ حلب فى سنه ست و ستين؛ فخرج بكار الصالحى من ولد عبد الملك بن صالح، بنواحى حلب بينها و بين سلميه؛ و دعا إلى أبى أحمد الموفق فى سنه ثمان و ستين؛ فحاربه ابن العباس الكلابى فهزم الكلابى؛ و وجه إليه لؤلؤ قائدا يقال له أبو ذر، فرجع و ليس معه كبير أحد. ثم. إن لؤلؤ ظفر به فقبض عليه.

ثم إن لؤلؤ الطولونى خالف مولاه أحمد بحلب، و عصى عليه فى سنه تسع و ستين؛ و كاتب أبا أحمد الموفق فى المسير إليه فأجابه إلى ذلك. و قطع لؤلؤ الدعاء لمولاه أحمد فى مدنه جميعها: حلب، و قنسرين، و حمص، و ديار مضر؛ و ترك أهل الثغور الدعاء لابن طولون؛ و أخرجوا نائبه منها و هموا بقبضه، فهرب. فنزل أحمد بن طولون من مصر فى مائه ألف فقبض على حرم لؤلؤ و باع ولده و أخذ ما قدر عليه مما كان له؛ و هرب لؤلؤ منه و لحق بأبى أحمد طلحه بن المتوكل و هو على محاربه العلوى البصرى عميد الزنج.

و لؤلؤ هو الذى قتل علوى البصره فى سنه تسع و ستين و مائتين. و بقى لؤلؤ ببغداد إلى أن قبض عليه الموفّق؛ و قيّده فى سنه ثلاث و سبعين و مائتين، فوجد له أربعمائه ألف دينار. فذكر لؤلؤ الطولونى أنه لا يعرف لنفسه ذنبا إلا كثره ماله و أثاثه.

و لمّا انحدر لؤلؤ من الرقه كان معه من السفن و الخزائن زهاء ثلاثمائه خزانه.

و لما هرب لؤلؤ من مولاه إلى العراق فى جمادى الأولى من السنه، اجتاز ببالس، و بها محمد بن العبّاس بن سعيد الكلابى أبو موسى، و أخوه سعيد فأسرهما.

ثم إن ابن طولون وصل إلى الثغور، فأغلقوها فى وجهه، فعاد إلى أنطاكيه و مرض. فولى على حلب عبد اللّه بن الفتح، و صعد إلى مصر مريضا، فمات سنه سبعين و مائتين.

و ولى ابنه أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون؛ فولى فى حلب أبا موسى محمد بن العباس بن سعيد الكلابى، فى سنه إحدى و سبعين و مائتين.

و نزل أبو الجيش من مصر إلى حلب، و كاتب أبا أحمد بن المتوكل بأن يولى حلب و مصر و سائر البلاد التى فى يده، و يدعى له على منابرها، فلم يجبه إلى ذلك، فاستوحش من الموفق.

و ولى فى حلب القائد أحمد بن ذو غباش؛ و صعد إلى مصر فوصل إلى حلب اسحاق بن كنداج(۱)، و كان يلى ديار ربيعه؛ و محمد بن أبى الساج، و كان يلى ديار مضر، فولاه الموفق حلب و أعمالها؛ و كتبا إلى العراق يطلبان نجده تصل إليهما، فان ابن جبغويه و غيره من قواد ابن طولون بشيزر.

فسيّر الموفق ابنه ابا العباس أحمد بن طلحه، و كان قد جعل إليه ولايه عهده، فوصل إلى حلب فى ربيع الآخر من سنه إحدى و سبعين

۱- لخمارويه ترجمه مفيده فى بغيه الطلب ص ۳۳۸۲- ۳۳۸۶، و فى هذه الترجمه« اسحق بن كنداجيق».

و مـائتين، و كان فيها محمـد بن ديوداذ بن أبى الساج، المعروف بالأفشـين حينئـذ واليا؛ و سار إلى قنسـرين، و هى يومئـذ لأخى الفصيص التنوخى و هى عامره و حاضر طى ء لطى ء و عليها أيضا سور، و قلعتها عامره.

و سار إلى شـيزر، فكسر العسكر المقيم، و سار إلى أن تواقع المعتضد و خمارويه على الطواحين(۱)، بقرب الرمله؛ و كانت الغلبه أولاـ لأـبى العبـاس المعتضـد، فهرب خمـارويه بمن خفّ معه إلى مصـر، و نزل أبو العبـاس بخيمه خمـارويه، و هو لاـ يشك فى الظفر، فخرج كمين لخمارويه، فشدّوا عليهم و قاتلوهم؛ فانهزموا؛ و تفرق القوم(۲).

و رجع الأـمير أبو العبـاس إلى أن انتهى إلى أنطـاكيه؛ و كـان محمـد بن ديوداذ المعروف بالأفشـين بن أبى السـاج قـد فـارق أبا العباس لكلام أغلظ له فيه أبو العباس، فجاء قبل وقعه الطواحين، و استولى على حلب، و معه اسحاق بن كنداج.

و سـار أبو العبـاس من أنطـاكيه إلى طرسوس فأغلقها أهلها دونه، و منعوه من دخولها؛ فسار إلى مرعش، ثم إلى كيسوم، ثم إلى سميساط، و عبر الفرات، و نكب عن حلب لاستيلاء الأفشين عليها؛ و كان قد جرت بينهما وحشه.

و نزل خمارويه إلى حلب، فصالحه الأفشين و صار فى جملته؛ و دعا له

۱- فى أحواز بلده الرمله فى فلسطين.

۲- لمزيد من التفاصيل، انظر بغيه الطلب ص ۸۰۸- ۸۰۹، ۳۳۸۲.

على منابر أعماله، و حمل إليه خمارويه مائتى ألف دينار و نيفا و عشرين ألف دينار لوجوه أصحابه؛ و عشرين ألف دينار لكاتبه؛ و ذلك فى سنه ثلاث و سبعين و مائتين. و أعطاه ابن أبى الساج ولده رهينه على الوفاء بعهده؛ فراسل خمارويه أبا أحمد الموفق، و سأله الصلح فأجابه إلى ذلك؛ و ولاه مصر، و أجناد الشام، و قنسرين، و حلب، و العواصم، و الثغور.

و صعد أبو الجيش إلى مصر، و كان أبو الجيش قد أعطى ابن أبى الساج يوم دفع ولده إليه ما مبلغه ثلاثون ألف دينار، فقال ابن أبّا(١): «خدعكم محمد بن ديوداذ، إذ أعطاكم بوله يبول مثلّها فى كل ليله مرات، و أخذ منكم ثلاثين ألف دينار».

ثم إن ابن أبى الساج نكث عهده مع أبى الجيش، و عاث فى نواحى الأعمال التى له، فى ذى القعده من سنه أربع و سبعين و مائتين؛ فخرج إليه أبو الجيش، و التقيا بالثنيه(٢)، من أعمال دمشق فانهزم ابن أبى الساج و استبيح عسكره قتلا و أسرا، ففى ذلك يقول البحترى:

و قد تدلت جيوش النّصر منزلهعلى جيوش أبى الجيش بن طولونا

يوم «الثّنيه» إذ ثنّى بكرّته خمسين ألفا رجالا أو يزيدونا(٣)

١- هو أحمد بن أبا، و كان من قواد خمارويه. انظر تاريخ الطبرى ج ١٠ ص ٣٤(ط. دار المعارف، القاهره).

٢- ثنيه العقاب، اسمها الآن« التنايا» خارج دمشق على الطريق الواصل بين حمص و دمشق.

٣- لم ترد القصيده فى ديوان البحترى المطبوع، و ذكر المرحوم د. دهان أنه رآها فى مخطوطه ديوان البحترى المحفوظه فى باريس الورقه ٣٩٨، حيث جاء: و قال يمدح أبا الجيش خمارويه بن- أحمد بن طولون: يكاد عاذلنا فى الحب يغرينافما لجاجك فى لوم المحبينا

و کتب إلی ابن أبی الساج یوبخه، و یقول له: «کان یجب یا قلیل المروءه و الأمانه، أن نصنع برهنک ما أوجبه غدرک! معاذ اللّه أن تَزِرُ وازِرَهٌ وِزْرَ أُخْری(۱).

و رجع أبو الجیش إلی مصر فی سنه خمس و سبعین و مائتین. فعاد محمد بن دیوداذ، و عاث علیه فی أطراف بلاده، فقصده فانهزم بین یدیه؛ فوصل ابن طولون خلفه إلی الفرات. و هرب ابن أبی الساج؛ و لحق بأبی أحمد الموفّق، فانضم إلیه، فخلع علیه، و أخرجه معه إلی «الجبل»، و ذلک فی سنه ست و سبعین و مائتین. فولّی أبو الجیش علی حلب غلام أبیه طغج بن جف والد الإخشید أبی بکر محمد بن طغج.

و دعا یازمار والی الثغور لخمارویه بطرسوس و الثغور، و حمل إلیه خمارویه خمسین ألف دینار، و حمل إلیه قبل الدعاء له ثلاثین ألف دینار لینفقها فی سبیل اللّه و مائه و خمسین ثوبا و مائه و خمسین دابه و سلاحا کثیرا؛ و ذلک فی سنه سبع و سبعین و مائتین.

و رجع أبو الجیش إلی مصر، و مات المعتمد بعد ذلک فی سنه تسع و سبعین؛ فولی الخلافه أبو العباس أحمد بن طلحه المعتضد(۲) فبایعه أبو

۱- سوره الأنعام- الآیه: ۱۶۴.

۲- للمعتضد ترجمه وافیه فی بغیه الطلب ۸۰۸- ۸۲۶.

الجیش بن طولون و خطب له فی عمله. و سیّر إلیه هدیه سنیه مع الحسین بن الجصّاص(۱). و طلب منه أن یزوج ابنته من علیّ بن المعتضد، فقال المعتضد:

«بل أنا أتزوجها»، فتزوجها المعتضد و هی قطر الندی.

و قیل: إنه دخل معها مائه هاون ذهب فی جهازها، و ان المعتضد دخل خزانتها، و فیها من المنائر و الأباریق، و الطاسات، و غیر ذلک من الآنیه الذهب. فقال: «یا أهل مصر، ما أکثر صفرکم». فقال له بعض القوم:

یا أمیر المؤمنین، إنما هو ذهب».

و زفّت إلی المعتضد مع صاحب أبیها الحسین بن عبد اللّه بن الجصّاص. فقال المعتضد لأصحابه: «أکرموها بشمع العنبر»! فوجد فی خزانه الخلیفه أربع شمعات من عنبر، فی أربعه أتوار(۲) فضه.

فلما کان وقت العشاء، جاءت إلیه و قدّامها أربعمائه و صیفه، فی ید کل واحده منهن تور ذهب و فضه؛ و فیه شمعه عنبر. فقال المعتضد لأصحابه:

«أطفئوا شمعنا و استرونا».

و کانت إذا جاءت إلیه أکرمها بأن یطرح لها مخده. فجاءت إلیه یوما فلم یفعل ما کان یفعله بها. فقالت: «أعظم اللّه أجر أمیر المؤمنین» قال:

۱- الحسین بن عبد اللّه بن حسین بن منصور، أبو عبد اللّه الجوهری، المعروف بابن الجصاص، کان من أعیان تجار عصره، ذوی الثروه الواسعه و الیسار. له ترجمه وافیه فی المقفی للمقریزی- ط. بیروت ۱۹۸۹ ج ۳ ص ۵۲۰- ۵۳۴.

۲- آنیه صغیره توضع فیها الشمعه.

«فيمن؟». قالت: «فى عبده خمارويه»- تعنى أباها- فقال لها: «أو قد سمعت بموته؟» قالت: «لا و لكنى لمّا رأيتك قد تركت إكرامى علمت أنه قد مات أبى». و كان خبره قد وصل إلى المعتضد، فكتمه عنها. فعاد إلى إكرامه لها بطرح المخدّه فى كل الأوقات.

و قتل خمارويه بدمشق فى سنه [ثماني و] ثمانين و مائتين(١)، و حلب فى ولايه طغج بن جفّ من قبله.

و أظن أن قاضى حلب بعد أيام أحمد بن طولون حفص بن عمر قاضى حلب.

و ولى مكان خمارويه ولده جيش بن خمارويه(٢)، و طغج فى حلب على حاله.

و عزل القواد جيش بن خمارويه؛ و ولوا أخاه هارون بن خمارويه، فولى طغج بن جفّ حلب على حاله، و سيّر إلى المعتضد رسولا يطلب منه إجراءه على عاده أبيه فى البلاد التى كانت فى ولايته، فلم يفعل.

و سيّر رسولا إلى هارون، فاستنزله عن حلب و قنسرين، و العواصم، و سلّم لهارون مصر و بقيه الشام، و اتفق الصلح مع المعتضد و هارون على ذلك، فى جمادى الأولى من سنه ست و ثمانين و مائتين.

١- أضيف ما بين الحاصرتين من ترجمه خمارويه فى بغيه الطلب ص ٣٣٨٦.
٢- لجيش بن خمارويه ترجمه مفيده فى المقفى للمقريزى ج ٣ ص ١١٦- ١١٧.

و كان هارون قد ولى قضاء حلب و قنسرين أبا زرعه محمد بن عثمان الدمشقى، فقلد المعتضد حلب و قنسرين ولده أبا محمد على بن أحمد فى هذه السنه.

و ولى بحلب من قبل ابنه الحسن بن علىّ المعروف بكوره الخراسانى، و إليه تنسب دار كوره؛ التى داخل باب الجنان(۱) بحلب، و الحمام المجاوره لها. و قد خربت الآن و لم يبق لها أثر.

و كان كاتب على بن المعتضد يومئذ الحسين بن عمرو النصرانى، فقلده النظر فى هذه النواحى.

و سار المعتضد، فى سنه سبع و ثمانين و مائتين، خلف و صيف خادم ابن أبى الساج إلى الثغور إلى أن لحقه. فضم عمل الثغور أيضا إلى كوره، و عاد إلى أنطاكيه، و وصيف(۲) معه.

ثم رحل إلى حلب، فأقام بها يومين؛ و وجد لوصيف بعد أسره فى بستان بحلب مال كان دفنه و هو بها مع مولاه مبلغه سته و خمسون ألف دينار، فحمل إلى المعتضد؛ ثم رحل إلى بغداد، فمات فى شهر ربيع الآخر سنه تسع و ثمانين و مائتين.

و تولى الخلافه ولده أبو محمد، و لقب بالمكتفى؛ فصرف الحسن بن على

۱- سمى بذلك لأنه يخرج منه إلى البساتين التى لحلب، بغيه الطلب ج ۱ ص ۵۵.

۲- لمزيد من التفاصيل انظر ترجمه المعتضد فى بغيه الطلب ص ۸۱۸- ۸۱۹.

كوره عن ولايته؛ و ولى حلب أحمد بن سـهل البوشجانى(۱)، فى جمادى الآخره سـنه تسع و ثمانين و مائتين. ثم صرفه عنها سنه تسعين و مائتين.

و ولى حلب فى هـذه السـنه أبا الأغر خليفه بن المبارك السـلمى(۲)، و وجهه إليهـا لمحـاربه القرمطى صاحب الخال- لعنه اللّه- فإنه كان قد عاث فى البلاد؛ و غلب على حمص، و حماه، و معره النعمان، و سلميه. و قتل أهلها و سبى النساء و الأطفال.

فقدم أبو الأغر حلب فى عشـره آلاف فارس، فانفذ القرمطى سـريه إلى حلب، فخرج أبو الأغر إلى وادى بطنان(۳)، فلما استقر و افاه جيش القرمطى، يقدمه المطوّق غلامه و كبسهم، و قتل عامه أصحابه و خادما جليلا يقال له بدر القدامى(۴).

۱- كذا بالأصل، و لم يرد فى لباب الأنساب لابن الأثير البوشجانى بل البوشنجى، و النوشجانى.

۲- ترجم ابن العـديم فى بغيه الطلب لكـل من صـاحب الخـال و خليفه بن المبارك(أبو الأغر السـلمى) و سـلف لى نشـر هاتين الترجمتين فى كتابى الجامع فى أخبار القرامطه- ط. دمشق ۱۹۸۷ ج ۲ ص ۴۰۷- ۴۲۵.

۳- فى ترجمه أبى الأغر- الجـامع فى أخبار القرامطه ج ۲ ص ۴۲۴:« و للنصف من شـهر رمضان- سنه ۲۹۰ ه- مضى أبو الأغر إلى حلب، و نزل وادى بطنـان، قريبا من حلب، و نزل معه جميع أصـحابه، فنزع- فيما ذكـر- جماعه من أصـحابه ثيابهم، و دخلوا يتبردون بمائه، و كان يوما شديـد الحر، فبيناهم كـذلك إذ وافاهم جيش القرمطى المعروف بصاحب الشامه، مقـدمهم المعروف بـالمطوق، فكبسـهم على تلـك الحال، فقتل منهم خلقا كثيرا، و انتهب العسـكر، و أفلت أبو الأغر و جماعه من أصـحابه، فـدخل حلب، و أفلت معه مقدار ألف رجل، و كان فى عشره آلاف رجل ما بين فارس و راجل».

۴- رسم هذا الاسم بالأصل دونما ضبط أو نقط، و لم يرد ذكره فى ترجمتى أبى الأغر و صاحب الخال.

و سلم أبو الأغر فى ألف رجل، فصار إلى قريه من قرى حلب؛ و خرج إليه ابنه فى جماعه من الرجّاله و الأولياء، فدخل إلى حلب. و أقام القرامطه على مدينه حلب على سبيل المحاصره.

فلما كان يوم الجمعه، سلخ شهر رمضان من سنه تسعين و مائتين، تسرّع أهل مدينه حلب إلى الخروج للقاء القرامطه فمنعوا من ذلك، فكسروا قفل الباب، و خرجوا إلى القرامطه، فوقعت الحرب بين الفئتين؛ و رزق اللّه الحلبيين النصر عليهم. و خرج أبو الأغر فأعانهم فقتل من القرامطه خلق كثير.

و خرج أبو الأغرّ يوم السبت يوم عيد الفطر إلى المصلى، و عيد بأهل حلب، و خطب الخطيب؛ و عادت الرعيه على حال سلامه؛ و أشرف أبو الأغر على القرامطه، فلم يخرج منهم أحد إليه؛ ثم أنهم رحلوا إلى صاحبهم، فى سنه ثلاثمائه.

ثم إن المكتفى ولى حلب الحسين بن حمدان بن حمدون عم سيف الدوله، فعاثت عليه العرب من كلب و اليمن و أسد و غيرهم، فاجتمعوا بنواحى حلب، فخرج للقائهم، فى شهر رمضان من سنه أربع و تسعين و مائتين؛ فهزموه حتى بلغوا به باب حلب؛ و جرى بينه و بين القرامطه، فى هذه السنه وقعه كسرهم فيها و استأصلهم.

ثم إنه عزل عن حلب، و ولى عيسى غلام النوشرى؛ و كان المكتفى قد صار إلى الرقه فى سنه إحدى و تسعين و مائتين؛ و كان وجّه بمحمد بن

سلیمان صاحب الجیش إلی حلب و الشام فی عشرین ألف فارس و راجل، لمحاربه الطولونیه و القرامطه، و فتح مصر. فقدم محمد بن سلیمان حلب فی أواخر سنه تسعین، و الوالی بها علی الحرب عیسی غلام النوشری، فدخلها محمد فی أحسن تعبئه وزی؛ و أقام بها أیاما و طالب عمال الخراج بحمل المال؛ و قصده رؤساء بنی تمیم و بنی کلاب.

فأمر عیسی والی حلب أن یستخلف علی عمله و یشخص معه إلی مصر؛ فامتثل أمره، و استخلف علی حلب ولده، و أنفق فی جنده؛ و رحل فی آخر شوال معه. فلما وافی معره النعمان خلع علیه، و حمله، و ولاه بلده إلی حدود حماه؛ و لقیهم القرامطه بین تل منّس(۱) و کفر طاب(۲)، فی عشره آلاف فارس، فنصره اللّه علیهم، و انهزموا و قتل الرّجاله، و أسر أکثر الخیّاله(۳).

و صار محمد بن سلیمان إلی مصر، و افتتحها من ید الطولونیه، عند قتل هارون بن خمارویه؛ و استولی علی أموالها. ثم ضمّ إلی طغج بن جفّ الطولونی أربعه آلاف رجل، و ولاه حلب، و أخرجه عن مصر.

فلما صار إلی حلب وجد بها ابن الواثقی، و قد أنفذه السلطان إلی حلب لعرض جیوش الواردین من مصر، و ذلک فی سنه اثنتین و تسعین

۱- تل منس: قریه فی سهول ادلب، تابعه لمنطقه معره النعمان و تبعد عنها مسافه ۶ کم، و ذلک إلی الشرق منها، فی شمالها الشرقی تل أثری فیه آثار تعود إلی العصور الکلاسیکیه و ما تلاها. المعجم الجغرافی للقطر العربی السوری.

۲- تبعد خرائب کفر طاب نحو ۳ کم إلی الغرب من بلده خان شیخون.

۳- لمزید من التفاصیل انظر الجامع فی أخبار القرامطه ص ۴۰۸- ۴۲۲.

و مائتين. فعرض ابن الواثقى جيشه لما وصل إلى حلب، و أمره بالنفوذ إلى بغداد، فرحل حتى وافى مدينه السلام.

و كذلك ورد حلب جماعه من القواد الطولونيه، فعرضهم و توجهوا إلى بغداد. و وافى وصيف البكتمرى و ابن عيسى النوشرى صاحب حلب بغداد، يوم الاثنين لثلاث عشره ليله بقيت من شعبان سنه اثنتين و تسعين و مائتين، و معهما طغج، و أخوه، و ابن لطغج، فخلع عليهم و طوّق منهم البكتمرى و ابن عيسى النوشرى.

ثم شخص عيسى النوشرى عن مصر إلى حلب، لأنه كان واليها. فلما كان بعد شخوصه إليها بأيام، ورد كتاب العباس بن الحسن الوزير بتوليه عيسى النّوشرى مدينه مصر، و يؤمر محمد بن سليمان بالشخوص إلى طرسوس للغزو، فوجه محمد بن سليمان من لحق عيسى بالرمله فردّه؛ و ورد إلى عيسى كتاب من السلطان بذلك فعاد واليا على مصر.

و ولى المكتفى فى هذه السنه أبا الحسن ذكا بن عبد اللّه الأعور حلب؛ و دام بها إلى سنه اثنتين و ثلاثمائه. و كان كريما يهب و يعطى و إليه تنسب «دار ذكا» التى هى الآن دار الزكاه. و إلى جانبها دار حاجبه فيروز فانهدمت، و صارت تلا يعرف بتل فيروز؛ فنسفه السلطان الملك الظاهر- رحمه اللّه- فى أيامه؛ و ظهر فيه بقايا من الذخائر مثل الزئبق و غيره؛ و هو موضوع سوق الصّاغه الآن. و لأبى بكر الصنوبرىّ الشاعر فيه مدائح كثيره.

و عاد محمد بن سليمان إلى حلب، و وافاه مبارك القمّى بكتب يؤمر فيها

بتسليم الأموال، و ركب إليه ذكا الأعور صاحب حلب، و أبو الأغرّ و غيرهما.

فاختلط بهم و سار معهم إلى المدينه، فأدخلوه إلى الدار المعروفه بكوره، بباب الجنان، و وكلوا به فى الدار.

و شخص ذكا عن حلب لمحاربه ابن الخلنج(۱) مع أبى الأغر إلى مصر؛ و وجّه بمحمد بن سليمان مقبوضا إلى بغداد.

و توفى المكتفى سنه خمس و تسعين و مائتين؛ و ولى أخوه أبو الفضل المقتدر.

و عاثت بنو تميم فى بلد حلب، و أفسدت فسادا عظيما، و حاصروا ذكا بحلب، فكتب المقتدر إلى الحسين بن حمدان فى إنجاد ذكا بحلب، فأسرى من الرحبه(۲) حتى أناخ عليهم بخناصره، و أسر منهم جماعه، و انصرف و لم يجتمع بذكا. ففى ذلك يقول شاعر من أهل الشام:

أصلح ما بين تميم و ذكاأبلج يشكى بالرماح من شكا

يدلّ بالجيش إذا ما سلكاكأنّه سليكه بن السّلكا(۳)

و كان وزير ذكا و كاتبه أبا الحسن محمد بن عمر بن يحيى النفرى

۱- كذا بالأصل و فى ولاه مصر للكندى- ط. بيروت ۱۹۰۸ ص ۲۵۸- ۲۹۷« ابن الخليج».

۲- ما تزال بقاياها قائمه على مقربه من الميادين، و تعرف باسم الرحيبه.

۳- من الشعراء الصعاليك فى الجاهليه، نشر ديوانه مع دراسه عنه فى بيروت ۱۹۹۴.

الكاتب؛ و إليه ينسب حمّام النفرى، و هى الآن داثره. و داره هى المدرسه النوريه؛ و مدحه الصنوبرى.

ثم إن المقتدر عزل ذكا عن حلب، و ولاه دمشق ثم مصر إلى أن مات.

و قيل إنّ المقتدر ولّى حلب مولاه تكين الخادم أبا منصور ثم عزله عنها.

و الصحيح أنه ولّى الشام و مصر مؤنس المظفر الخادم نيابه عن ابنه أبى العباس، فقدم إلى حلب و صعد إلى مصر.

و ولى مؤنس ذكا الأعور دمشق و مصر، و عزله عن حلب؛ و ولى الأمير أبا العباس أحمد بن كيغلغ حلب سنه اثنتين و ثلاثمائه. و كان على قضاء حلب سنه تسعين محمد بن محمد الجدوعى.

ثم ولى القضاء بحلب و قنسرين محمد بن أبى موسى عيسى الضرير الفقيه، فى سنه سبع و تسعين و مائتين. و شخص إلى عمله لأربع عشره ليله خلت من شهر ربيع الآخر.

ثم صرف محمد بن عيسى عن قضاء حلب و قنسرين، فى سنه ثلاثمائه بأبى حفيص عمر بن الحسن بن نصر الحلبى القاضى. و كانت داره بسوق السرّاجين. و عزل أبو حفيص عن القضاء فى حلب سنه اثنتين و ثلاثمائه. و وليها أبو عبد اللّه محمد بن عبده بن حرب.

و توفى عمر بن الحسن القاضى سنه سبع و ثلاثمائه؛ و كان محمد بن عبده بن حرب قاضيا بها سنه خمس و ثلاثمائه.

ثم تولى قضاء حلب و حمص ابراهيم بن جعفر بن جابر أبو اسحاق الفقيه، فى سنه ست و ثلاثمائه. و ولى الخراج من قبل المكتفى بحلب الحسن بن الحسن بن رجاء بن أبى الضحّاك. و توفى بحلب فى جمادى الأولى سنه إحدى و ثلاثمائه فجاءه.

و ولى الخراج بعده على بن أحمد بن بسطام و الانفاق عبد اللّه بن محمد بن سهل. ثم توفى سنه اثنتين و ثلاثمائه؛ و تولى مكانه محمد بن الحسن بن على الناظرى.

و كان أبو العباس بن كيغلغ أديبا؛ شاعرا، جوادا، و هو الذى مدحه المتنبى بقوله:

كم قتيل كما قتلت شهيد(۱)

و من شعر الأمير أحمد بن كيغلغ قوله:

قلت له، و الجفون قرحى:قد أقرح الدمع مايليها

ما لى فى لوعتى شبيه قال: و أبصرت لى شبيها

ثم ولّى مؤنس المظفر حلب أبا قابوس محمود بن حبك الخراسانى؛ و كان جبارا، قاسيا، منحرفا عن أهل البيت. و قيل: هو محمود بن حمل، فدام واليا بها إلى سنه اثنتى عشره و ثلاثمائه.

و كان مؤنس المظفر بالشام، فاستدعى إلى بغداد لقتال القرمطى، فسار

۱- ديوان المتنبى- ط. بيروت ۱۹۶۹ ص ۷۱.

إليها؛ و ولى حلب وصيف البكتمرى الخادم سنه اثنتى عشره و ثلاثمائه. ثم عزله عنها سنه ست عشره و ثلاثمائه.

و وليها فى هذه السنه هلال بن بدر أبو الفتح، غلام المعتضد؛ و كان أمير دمشق قبل ذلك؛ ثم عزل عن حلب؛ و ولى قطربّل(۱) و سامرّا فى سنه سبع عشره، فوليها فى هذه السنه وصيف البكتمرى ثانيه.

و مات بحلب على ولايته يوم الثلاثاء لثمان خلون من ذى الحجه من سنه سبع عشره و ثلاثمائه.

و كان كاتبه عبد اللّه والد أبى العباس أحمد بن عبد اللّه الشامر المعروف بابن كاتب(۲) البكتمرى، فوليها الأمير أحمد بن كيغلغ ثانيه إلى ثمانى عشره و ثلاثمائه.

ثم ولّى مؤنس المظفر غلامه طريف بن عبد اللّه السبكرىّ الخادم، فى سنه تسع عشره و ثلاثمائه، و كان ظريفا شهما شجاعا، و حاصر بنى الفصيص فى حصونهم باللاذقيه و غيرها، فحاربوه حربا شديدا حتى نفد جميع ما كان عندهم من القوت و الماء، فنزلوا على الأمان فوفّى لهم، و أكرمهم؛ و دخلوا معه حلب مكرمين معظمين، فأضيفت إليه حمص مع حلب.

۱- قطربل: اسم قريه بين بغداد و عكبرا. معجم البلدان.

۲- لعله أبو الفتح البكتمرى الذى ترجم له الثعالبى فى يتيمه الدهر- ط. القاهره ۱۹۵۶ ج ۱ ص ۱۲۰- ۱۲۲.

ثم إن القاهر(۱) قبض على مولاه مؤنس المظفر، و تولى طريف قبضه، و أحضره إلى القاهر فى سنه إحدى و عشرين و ثلاثمائه، فرأى له ذلك.

و ولى القاهر بشرى الخادم دمشق و حلب؛ و سار إلى حلب ثم إلى حمص، فكسره ابن طغج و أسره، و خنقه. و وصل أبو العباس بن كيغلغ إلى حلب فاتفق مع محمد بن طغج و حالفه.

و ولى الخلافه الراضى بعد القاهر(۲). و كان الراضى قد خاف على بدر الخرشنى من الحجريه أن يفتكوا به؛ فقلده حلب و أعمالها؛ و هى بيد طريف سنه أربع و عشرين؛ و أمره بالمسير من يومه. فسار و بلغ طريف، فأنفذ صاحبا له إلى ابن مقله؛ و بذل له عشرين ألف دينار ليجدد له العهد، و أن لا يصرف من حلب. و وصل الخرشنى فدافعه طريف، رجاء أن يقضى ابن مقله و طره، فزحف بدر الخرشنى، و التقى طريف فى أرض حلب، فانهزم طريف من بين يديه.

و تسلم بدر حلب، و أقام بها مده يسيره، ثم كوتب من الحضره بالانصراف فرجع إلى الحضره، و قلد طريف حلب مره ثالثه؛ فقلد طريف السبكرى من جهته حلب و العواصم فأقام بها إلى سنه أربع و عشرين و ثلاثمائه.

و كان قاضى حلب عبيد اللّه بن عبد الرحمن ابن أخى الإمام.

۱- حكم القاهر من سنه ۳۲۰ ه/ ۹۳۲ م إلى ۳۲۲ ه/ ۹۳۴ م.

۲- حكم الخليفه الراضى من سنه ۳۲۲ ه/ ۹۳۴ م إلى ۳۲۹ ه/ ۹۴۰ م.

ثم ولى حلب أبو العباس أحمد بن سعيد بن العباس الكلابى؛ و مدحه أبو بكر الصنوبرى؛ و كان بها نائبا عن أبى بكر الإخشيذ محمد بن طغج بن جفّ- فى غالب ظنى- فان الأخشيذ استولى على الشام إلى سنه ثمان و عشرين و ثلاثمائه.

و فى ولايه أبى العباس الكلابى، وردت بنو كلاب إلى الشام من أرض نجد، و أغارت على معره النعمان، فخرج إليهم والى المعره معاذ بن سعيد بجنده، و تبعهم إلى البراغيثى، فعطفوا عليه، و أسروه و أكثر جنده. و أقام فيهم مده يعذبونه، فخرج إليهم أبو العباس أحمد بن سعيد الكلابى والى حلب، فخلصه منهم. و كان ورودهم فى سنه خمس و عشرين و ثلاثمائه(١).

ثم إن الراضى قدم الموصل، و كان أبو بكر محمد بن رائق ببغداد(٢)، و بينه و بين بجكم وحشه؛ فأنفذ الراضى أبا الحسين عمر بن محمد القاضى إلى أبى بكر محمد بن رائق يخيّره فى أحد البلدين: واسط، أو حلب و أعمالها؛ فاختار حلب؛ و أراد بذلك البعد عن بجكم، فأجابه الراضى إلى ذلك، و خلع عليه أبو جعفر و أبو الفضل ابنا الراضى و عقدا له.

و جعل بجكم يحثّ الراضى على الوصول إلى بغداد، و يتأسف على خروج ابن رائق منها ليشفى غيظه؛ فقال له الراضى: «هذا لا يصلح؛ و هذا رجل قد أمنته، و قلدته ناحيه من النواحى، فسمع و أطاع و ما أمكّنك منه».

١- لمزيد من التفاصيل انظر ترجمه أحمد بن سعيد الكلابى فى بغيه الطلب ص ٧٦٠- ٧٦١. و جاء فى هذه الترجمه أن معاذ بن سعيد لاحق كلاب« إلى مكان يعرف بمرج البراغيث».

٢- لابن رائق ترجمه جيده فى المقفى للمقريزى ج ٥ ص ٦٥٤- ٦٥٩.

فخرج أبو بكر بن رائق فى شهر ربيع الآخر من سنه سبع و عشرين و ثلاثمائه. و قيل: دخل حلب فى سنه ثمان و عشرين و ثلاثمائه. و سار عنها إلى قتال الأخشيذ محمد بن طغج بن جف(۱) الفرغانى؛ و ولى فى حلب نيابه عنه خاصه محمد بن يزداذ.

و جرت بين أبى بكر بن رائق و الإخشيذ وقعه انهزم فيها الإخشيذ؛ و سلّم دمشق إلى ابن رائق، و اقتصر على الرمله و مصر.

ثم وقع بينهما وقعه أخرى فى الجفار(۲)، أسر فيها أبو الفتح مزاحم بن محمد بن رائق، فرجع فى عده يسيره حتى يخلّص ابنه، فقتل أبو نصر بن طغج؛ فكفنه ابن رائق؛ و جعله فى تابوت؛ و أنفذه إلى أخيه الإخشيذ مع ابنه مزاحم؛ و قال: «ما أردت قتل أخيك؛ و هذا ولدى قد أنفذته إليك لتقيده به». فخلع الإخشيذ عليه؛ و أعطاه مالا كثيرا، ورده. و ذلك فى سنه تسع و عشرين و ثلاثمائه.

ثم أن أبا بكر محمد بن طغج الإخشيذ سيّر كافورا الخادم من مصر، و معه عسكر و فى مقدمته أبو المظفر مساور بن محمد الرومى، أحد قواد الإخشيذ؛ فوصل إلى حلب؛ فالتقى كافور و محمد بن يزداذ الوالى بحلب

۱- لابن طغج ترجمه واسعه فى كتاب المقفى للمقريزى ج ۵ ص ۷۴۵- ۷۵۲.
۲- فى روايه المقريزى أن المعركه وقعت باللجون، و اللجون عند ياقوت بلد بالأردن على عشرين ميلا من طبريه، و جاء عند ياقوت أيضا: الجفار: أرض من مسيره سبعه أيام بين فلسطين و مصر.

من قبل ابن رائق، فكسره كافور، و أسره، و أخذ منه حلب؛ و ولّى بها مساور بن محمد الرومى؛ و عاد كافور إلى مصر.

و هذا أبو المظفر مساور بن محمد الرّومى مدحه المتنبى بقوله:

أمساور أم قرن شمس هذاأم ليث غاب يقدم الأستاذا(۱)

يريد بالأستاذ: كافورا الخادم. و ذكر فيها كسره ابن يزداذ فقال:

هبك ابن يزداذ حطمت و صحبه أترى الورى أضحوا بنى يزداذا

و مساور هو صاحب الدار المعروفه بدار ابن الرومى بالزّجاجين بحلب، و تعرف أيضا بدار ابن مستفاد، و هى شرقى المدرسه العماديه التى جددها سليمان بن عبد الجبار بن أرتق بحلب، و هى المنسوبه إلى بنى العجمى(۲).

و أظن أن قاضى حلب فى هذا التاريخ كان أبا طاهر محمد بن محمد بن سفيان الدباس أو قبل هذا التاريخ.

ثم اتفق الإخشيذ و محمد بن رائق على أن يخلى له الإخشيذ حمص و حلب و يحمل إليه مالا؛ و زوج الإخشيذ ابنته بمزاحم بن أبى بكر بن رائق.

و قتل ناصر الدوله أبو محمد الحسن بن عبد اللّه بن حمدان أبا بكر بن رائق، فى رجب سنه ثلاثين و ثلاثمائه بين يدى المتقى يوم الاثنين لتسع بقين منه.

۱- ديوان المتنبى ص ۱۱۳.

۲- انظر الآثار الاسلاميه و التاريخيه فى حلب ص ۲۶۳.

و كان ابن رائق شهما مقداما سخيا جوادا، لكنه كان عظيم الكبر، مستبدا برأيه، منزوعا من التوفيق و العصمه و التسديد.

و كان أحمد بن على بن مقاتل بحلب من جهه أبى بكر بن رائق و معه ابنه مزاحم بن محمد بن رائق، فقلّد ناصر الدوله على بن خلف ديار مضر و الشام؛ و أنفذ معه عسكرا، و كاتب يانس المؤنسى أن يعاضده.

و كان يانس يلى ديار مضر من قبل ناصر الدوله فسار إلى «جسر منبج» و سار أحمد بن مقاتل و مزاحم إلى منبج، فالتقوا على شاطى ء الفرات.

و سيّر يانس كاتبه و نذيرا غلامه برساله إلى ابن مقاتل، فاعتقلهما و وقعت الحرب بين الفئتين؛ و لحق يانس جراح كادت تتلفه فعدل به إلى «قلعه نجم»(۱) ليشده. و نظر نذير غلامه و هو معتقل فى عسكر ابن مقاتل، على بغل إلى شاكرى(۲) ليانس معه جنيبه من خيله، فأخذ سيف الشاكرىّ، و ركب الجنيبه؛ و صار إلى ابن مقاتل فقتله و انهزم عسكره.

و أفاق يانس المؤنسى، فسار و على بن خلف متوجهين إلى حلب و تلاوم قواد ابن مقاتل على هزيمتهم؛ فعادوا إلى القتال فى وادى بطنان، فانهزموا ثانيه؛ و ملك على بن خلف و يانس المؤنسى حلب فى سنه ثلاثين و ثلاثمائه.

ثم إنّ على بن خلف سار منها إلى الإخشيذ محمد بن طغج، فاستوزره و علا أمره معه، إلى أن رآه يوما، و قد ركب فى أكثر الجيش بالمطارد و الزىّ؛

۱- قلعه حصينه قرب جسر منبج. معجم البلدان.

۲- الشاكرى: معرب جاكر، و هو الأجير أو التابع.

و محمـد جالس فی متنزه له، فأمر بالقبض علیه؛ فلم یزل محبوسا إلی أن مات محمد بن طغج. فأطلق و بقی یانس المؤنسـی والیا علی حلب فی سنه إحدی و ثلاثین و ثلاثمائه.

و کان یانس هذا مولی مؤنس المظفر الخادم، و تولی الموصل فی أیام القاهر، و کان یلی دیار مضر من قبل ناصر الدوله إلی أن کان من أمره ما ذکرناه. فاستأمن إلی الأخشیذ، و دعا له علی المنابر بعمله.

و اتفق ناصـر الدوله بن حمدان و توزون، فی سنه اثنتین و ثلاثین و ثلاثمائه، علی أن تکون الأعمال من مدینه الموصل إلی آخر أعمال الشام لناصـر الدوله؛ و أعمال السن(۱) إلی البصـره لتوزون و مـا یفتحه من وراء ذلـک؛ و أن لا یعرض أحـد منهما لعمل الآخر.

فولی ناصـر الدوله حلب و دیار مضـر و العواصم أبا بکر محمد بن علی بن مقاتل صاحب ابن رائق فی شـهر ربیع الأول من سـنه اثنتین [و ثلاثین] و ثلاثمائه، و وافق ناصر الدوله أبا محمد بن حمدان علی أن یؤدی إلیه إذا دخل حلب خمسین ألف دینار.

فتوجّه أبو بکر من الموصل و معه جماعه من القواد، و لم یصل إلیها؛ فوقع بین الأمیر سیف الدوله بن حمدان و بین ابن عمه أبی عبد اللّه الحسین بن سعید بن حمدان کلام بالموصل و أراد القبض علیه.

۱- السن: مدینه علی دجله فوق تکریت. معجم البلدان.

فقلد ناصر الدوله أبا عبد اللّه الحسين بن سعيد بن حمدان، أخا الأمير أبى فراس، حلب و أعمالها، و ديار مضر، و العواصم، و كلّما يفتحه من الشام، فتوجه فى أول شهر رجب سنه اثنتين و ثلاثين و ثلاثمائه، و دخل الرقه بالسيف لأن أهلها حاربوه مع أميرها محمد بن حبيب البلزمى، فأسره و سلمه، و أحرق قطعه من البلد و قبض على رؤساء أهله، و صادرهم.

و توجه إلى حلب و معه أبو بكر محمد بن على بن مقاتل، و بحلب يانس المؤنسى و أحمد بن العباس الكلابى، فهربا من بين يديه من حلب، و تبعهما إلى معره النعمان ثم إلى حمص.

و هرب أمير حمص اسحاق بن كيغلغ بين يديه، و ملك هذه البلاد و دانت له العرب، ثم عاد إلى حلب، و أقام بها إلى أن وافى الأخشيذ أبو بكر محمد بن طغج بن جفّ الفرغانى.

و إنما لقب بالأخشيذ لأن ملك فرغانه يتسمى بذلك؛ و كان أبوه من أهل فرغانه.

و قدمها الإخشيذى فى ذى الحجه من سنه اثنتين و ثلاثين و ثلاثمائه. و لما دنا الإخشيذ من حلب انصرف الحسين بن حمدان عنها لضعفه عن محاربته إلى الرقه.

و كان ابن مقاتل مع ابن حمدان بحلب؛ فلما أحس بقرب الأخشيذ منها و تعويل ابن حمدان على الانصراف استتر فى مناره المسجد الجامع إلى أن انصرف ابن حمدان.

و دخل الاخشيذ فظهر له ابن مقاتل، و استأمن إليه، و قلده الاخشيذ أعمال الخراج و الضياع بمصر.

و أما الحسين بن سعيد، فإنّه لما وصل إلى الرقه وجد المتقى للّه بها هاربا من توزون التركى و قد تغلب على بغداد، و سيف الدوله أبو الحسن على بن عبد اللّه بن حمدان مع المتقى بالرقه؛ و قد فارق أخاه ناصر الدوله لكلام جرى بينهما، فلم يأذن المتقى لأبى عبد اللّه الحسين فى دخول الرقه، و أغلقت أبوابها دونه؛ و وقعت المباينه بينه و بين ابن عمه سيف الدوله؛ و سفر بينهما فى الصلح، فتمّ، و مضى إلى حران و منها إلى الموصل.

و قدم الاخشيذ عند حصوله بحلب مقدمته إلى بالس(۱)، و سار بعدها بعد أن سيّر المتقى أبا الحسن أحمد بن عبد اللّه بن اسحاق الخرقى يسأل الإخشيذ أن يسير إليه ليجتمع معه بالرقه، و يجدد العهد به، و يستعين به على نصرته، و يقتبس من رأيه.

فلما وصل أبو الحسن إلى حلب تلقاه الإخشيذ، و أكرمه؛ و أظهر السرور و الثقه بقرب المتقى، و أنفذ من وقته مالا مع أحمد بن سعيد الكلابى إلى المتقى، و سار خلفه حتى نزل و بينه و بين المتقى الفرات، فراسله المتقى بالخرقى، و بوزيره أبى الحسين بن مقله؛ فعبر إليه يوم الخميس لثلاث عشره ليله خلت من المحرم سنه ثلاث و ثلاثين و ثلاثمائه.

۱- هى مسكنه الآن فى سوريه على الطريق الذى يصل حلب بالرقه.

و وقف بین یدی المتقی للّه؛ ثم رکب المتقی للّه فمشی بین یدیه؛ و أمره أن یرکب فلم یفعل؛ و حمل إلیه هدایا و مالا کثیرا، و حمل إلی الوزیر أبی الحسین بن مقله عشرین ألف دینار؛ و لم یدع أحدا من أصحاب المتقی و حواشیه و کتابه إلا برّه و وصله.

و اجتهد بالمتقی للّه أن یسیر معه إلی الشام و مصر؛ فأبی. فأشار علیه بالمقام مکانه، و ضمن له أن یمدّه بالأموال فلم یفعل(۱)، إلی أن کاتبه توزون، و خدعه، و قبض علیه و بایع المستکفی.

و کتب المتقی عهدا للإخشید بالشامات و مصر علی أن الولایه له و لأبی القاسم أنوجور ابنه إلی ثلاثین سنه.

و کتب الإخشید فی هذه السفره إلی عبده کافور الخادم إلی مصر و قال له: «و مما یجب أن تقف- علیه- أطال اللّه بقاءک- أنّی لقیت أمیر المؤمنین بشاطی ء الفرات فأکرمنی، و حبانی(۲)، و قال: کیف أنت یا أبا بکر أعزّک اللّه»، فرحا بأنّه کناه، و الخلیفه لا یکنی أحدا.

۱- فی ترجمه الاخشید فی المقفی ج ۵ ص ۷۵۰:« و اجتهد المتقی أن یسیر معه إلی مصر، فأشار علیه بالمقام مکانه و لا یرجع إلی بغداد، و أشار علی ابن مقله أن یسیر معه إلی مصر لیحکمه فی جمیع البلاد فلم یجبه، فخوفه من طوزون فلم یوافقه».
۲- کذا بالأصل و یرجع أنها تصحیف:« و کنانی» فقد جاء فی ترجمه الاخشید فی المقفی ج ۵ ص ۷۵۰، أن الاخشید التقی المتقی بالرقه« فلما قدم علیه بالرقه وقف بین یدیه و مشی عند رکوبه، فأمره المتقی بالرکوب فلم یفعل، فألح علیه المتقی، و أکرمه و کناه و کنی ابنه و جعله خلیفه له»، یضاف إلی هذا أن سیاق الخبر یؤکد التصحیف.

[عصر الدوله الحمدانيه]

اشاره

[عصر الدوله الحمدانيه][(۱)]

و عاد الإخشيذ من الرقه إلى حلب و سار إلى مصر. و ولى بحلب من قبله أبا الفتح عثمان بن سعيد بن العباس بن الوليد الكلابى، و ولى أخاه أنطاكيه. فحسد أبا الفتح إخوته الكلابيون، و راسلوا سيف الدوله بن حمدان ليسلموا إليه حلب، و قد كان طلب سيف الدوله من أخيه ناصر الدوله ولايه، فقال له ناصر الدوله: «الشام أمامك؛ و ما فيه أحد يمنعك منه».

و عرف سيف الدوله اختلاف الكلابيين، و ضعف أبى الفتح عن مقاومته، فسار إلى حلب؛ فلما وصل إلى الفرات خرج إخوه أبى الفتح عثمان بن سعيد بأجمعهم للقاء سيف الدوله؛ فرأى أبو الفتح أنه مغلوب إن جلس عنهم، و علم حسدهم[(۲)] له، فخرج معهم.

۱- أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

۲- أفرد ابن العديم فى آخر الجزء الأول من بغيه الطلب بابا للحديث عن قبائل كلاب التى قطنت ديار حلب، ولدى بحثى فى تاريخ الدوله المرداسيه أدركت أن كلاب عانت دوما من التمزق و الصراعات الداخليه.

فلما قطع سيف الدوله الفرات، أكرم أبا الفتح دون إخوته، و أركبه معه فى العماريه(١)؛ و جعل سيف الدوله يسأله عن كل قريه يجتاز بها:

ما اسمها؟ فيقول أبو الفتح: هذه الفلانيه! حتى عبروا بقريه يقال لها «ابرم» و هى قريه قريبه من الفايا(٢). فقال له سيف الدوله: «ما اسم هـذه القريه؟» قال أبو الفتح: «أبرم». فظن سيف الدوله أنه قد أكرهه بالسؤال. فقال له أبرم من الإبرام. فسكت سيف الدوله عن سؤاله. فلما عبروا بقرى كثيره، و لم يسأله عنها علم أبو الفتح بسكوت سيف الدوله. فقال له أبو الفتح: «سيدى يا سيف الدوله، و حقّ رأسك، إنّ القريه التى عبرنا عليها اسمها ابرم، و اسأل عنها غيرى». فعجب سيف الدوله من ذكائه. فلما وصل حلب أجلسه معه على السرير.

و دخل سيف الدوله حلب، يوم الاثنين لثمان خلون من شهر ربيع الأول، من سنه ثلاث و ثلاثين و ثلاثمائه.

و كان القاضى بها أحمد بن محمد بن ماثل، فعزله و ولّى أبا حصين على بن عبد الملك بن بدر بن الهيثم الرقى؛ و كان ظالما، فكان إذا مات إنسان أخذ تركته لسيف الدوله. و قال: «كلّ من هلك فلسيف الدوله ما ترك، و على أبى حصين الدّرك»(٣).

١- العماريه هودج يجلس فيه.

٢- الفايا: كوره بين منبج و حلب كبيره، و هى من أعمال منبج فى جهه قبلتها قرب وادى بطنان، و لها قرى عامره، فيها بساتين و مياه جاريه. معجم البلدان.

٣- بهامش الأصل:« هـذه حكايه عجيبه من قاض ظالم يقول: كل من هلك فلسيف الدوله- ما ترك، و على أبى حصين الدرك. بئس ما قال هذا القاضى من المقاله القبيحه، و بئس ما فعله من الفضيحه».

ثم إنّ الإخشيذ سيّر عسكرا إلى حلب مع كافور و يانس المؤنسى(١)؛ و كان الأمير سيف الدوله غازيا بأرض الروم قد هتك بلد الصفصاف(٢) و عربسوس(٣) فغنم؛ و رجع فسار لطيته إلى الإخشيذيه، فلقيهم بالرّستن.

فحمل سيف الدوله على كافور، فانهزم و ازدحم أصحابه فى جسر الرّستن، فوقع فى النهر منهم جماعه.

و رفع سيف الدوله السيف، فأمر غلمانه أن لا يقتلوا أحدا منهم.

و قال: «الدم لى و المال لكم». فأسر منهم نحو أربعه آلاف من الأمراء و غيرهم، و احتوى على جميع سواده.

و مضى كافور هاربا إلى حمص، و سار منها إلى دمشق؛ و كتب إلى الإخشيذ يعلمه بهزيمته؛ و أطلق سيف الدوله الأسارى جميعهم؛ فمضوا و شكروا فعله.

و رحل سيف الدوله بعد هزيمتهم إلى دمشق، و دخلها فى شهر رمضان

١- فى المقفى ج ٥ ص ٧٥١:« فبعث- الاخشيذ- فاتك و كافور بالجيوش إلى الشام، ثم خرج يوم السبت لخمس خلون من شعبان سنه ثلاث و ثلاثين يريد محاربه سيف الدوله».

٢- الصفصاف: كوره من ثغور المصيصه. معجم البلدان، و من أجل المصيصه انظر بغيه الطلب ج ١ ص ١٥٣- ١٦٥.

٣- هى مدينه أفسوس فى تركيه، و كان من الرائج أنها مدينه أهل الكهف. انظر ما جاء حولها فى بغيه الطلب ج ١ ص ٣٣٠- ٣٣٤.

سنه ثلاث و ثلاثين، و أقام بها. و كاتبه الإخشيذ يلتمس منه الموادعه، و الاقتصار على ما فى يده؛ فلم يفعل.

و خرج سيف الدوله إلى الأعراب؛ فلما عاد منعه أهل دمشق من دخولها. فبلغ الإخشيذ ذلك فسار من الرمله؛ و توجه يطلب سيف الدوله؛ فلما وصل طبريه عاد سيف الدوله إلى حلب بغير حرب، لأن أكثر أصحابه و عسكره استأمنوا إلى الإخشيذ. فاتبعه الإخشيذ إلى أن نزل معره النعمان فى جيش عظيم؛ فجمع سيف الدوله، و لقيه بأرض قنسرين، فى شوال من سنه ثلاث و ثلاثين و ثلاثمائه.

و كان الإخشيذ قد جعل مطارده و بوقاته فى المقدمه، و انتقى من عسكره نحو عشره آلاف؛ و سمّاهم الصابريه فوقف بهم فى الساقه.

فحمل سيف الدوله على مقدمه الإخشيذ فهزمها، و قصد قبته و خيمه؛ و هو يظنه فى المقدمه؛ فحمل الإخشيذ و معه الصابريه فاستخلص سواده. و لم يقتل من العسكرين غير معاذ بن سعيد والى معره النعمان، من قبل الإخشيذ؛ فإنه حمل على سيف الدوله ليأسره، فضربه سيف الدوله بمستوفى(۱) كان معه فقتله.

و هرب سيف الدوله فلم يتبعه أحد من عسكر الإخشيذ و سار على حاله إلى الجزيره فدخل الرقه. و قيل: إنه أراد دخول حلب فمنعه أهلها.

۱- المستوفى: عمود حديد، طوله ذراعين، مربع الشكل، له مقابض مدوره.

و دخل الإخشيذ حلب، و أفسد أصحابه فى جميع النواحى، و قطعت الأشجار التى كانت فى ظاهر حلب و كانت عظيمه جدا. و قيل: إنها كانت من أكثر المدن شجرا. و أشعار الصنوبرى تدل على ذلك.

و نزل عسكر الاخشيذ على الناس بحلب؛ و بالغوا فى أذى الناس لميلهم إلى سيف الدوله.

و عاد الإخشيذ إلى دمشق بعد أن ترددت الرسل بينه و بين سيف الدوله، و استقر الأمر على أن أفرج الإخشيذ له عن حلب و حمص و أنطاكيه.

و قرّر عن دمشق مالا يحمله إليه فى كل سنه.

و تزوج سيف الدوله بابنه أخى الإخشيذ عبيد اللّه بن طغج(۱)؛ و انتظم هذا الأمر على يد الحسن بن طاهر العلوى(۲) و سفارته، فى شهر ربيع الأول، سنه أربع و ثلاثين و ثلاثمائه.

۱- فى المقفى ج ۵ ص ۷۵۱:« و عاد الاخشيذ إلى دمشق، فسار سيف الدوله إلى حلب و ملكها، و بعث إلى الاخشيذ و هو فى دمشق، فاصطلحا على مال يحمله للاخشيذ فى كل سنه، و زوجه الاخشيذ بابنه أخيه».

۲- ترجم ابن العديم للحسن بن طاهر فى بغيه الطلب ج ۵ ص ۲۴۰۸- ۲۴۱۳ و نقل عن ابن زولاق أنه بعدما هزم الاخشيذ سيف الدوله عاد:« الأمير سيف الدوله عسكر مواجها للاخشيذ، فاختار الاخشيذ المسالمه، و راسله بالحسن بن طاهر على مال يحمله إليه، و أن يكون لسيف الدوله من خرشنه إلى حمص، و زوجه ابنته فاطمه، و كان الولى الحسن بن طاهر بتوكيل الاخشيذ، فسر سيف الدوله بذلك، و عقد النكاح، و نثر سيف الدوله فى مضربه على الحاضرين ثلاثين ألف دينار، و نثر خارج المضرب أربعمائه ألف درهم. و حمل إلى الحسن بن طاهر مالا كثيرا و خلعا و حملانا».

فسار الإخشيذ إلى دمشق و عاد سيف الدوله إلى حلب؛ و توفى الإخشيذ بدمشق فى ذى الحجه، من سنه أربع و ثلاثين، و قيل: فى المحرم من سنه خمس و ثلاثين و ثلاثمائه.

و ملك بعده ابنه أبو القاسم أنوجور؛ و استولى على التدبير أبو المسلك كافور الخادم.

و كان سيف الدوله، فيما ذكر، قد عمل على تخليه الشام. فلما مات الإخشيذ سار كافور بعساكر مولاه إلى مصر من دمشق، و كان قد استولى على مصر رجل مغربى(۱)، فحاربه كافور، و ظفر به.

و خلت دمشق من العساكر، فطمع فيها سيف الدوله، و سار إليها فملكها؛ و استأمن إليه يانس المؤنسى فى قطعه من الجيش.

و أقام سيف الدوله بدمشق، وجبى خراجها؛ ثم أتته والدته «نعم» أمّ سيف الدوله إلى دمشق؛ و سار سيف الدوله إلى طبريه.

۱- ترجم المقريزى فى المقفى ج ۲ ص ۳۱۳- ۳۱۹ لأونوجور، أنه عندما مات الإخشيذ بدمشق كان أونوجور بمصر، و قد لحق به كافور فيما بعد، فخلت الشام من جيوش الاخشيذ فاستغل الفرصه هذه سيف الدوله فاستولى على دمشق و سار إلى طبريه، فما كان من أونوجور إلا أن« ندب العساكر إلى الشام، و عليها أبو المظفر- عم أونوجور- و كافور فسارا فى جمع عظيم و معهما الوزير أبو على الحسين بن محمد بن على الماذرائى إلى الشام، و قاتلا ابن حمدان، و دخلا دمشق» و فى أثناء غياب الجيش بالشام ورد الخبر بخلاف غلبون بن سعيد المغربى متولى اخميم و خروجه عن الطاعه، فندب لقتاله شادن الصقلبى فانهزم منه ... فأخرج إليه عسكر آخر، ثم خرج أونوجور فلقيه فانهزم منه، و ملك غلبون دار الاماره ... ثم عاد أونوجور فانهزم غلبون، و لحق بالصعيد، فخرجت إليه العساكر، و أحضر رأسه».

و كان سيف الدوله فى بعض الأيام يساير الشريف العقيقى بدمشق، فى الغوطه بظاهر البلد، فقال سيف الدوله للعقيقى: «ما تصلح هـذه الغوطه تكون إلاـ لرجل واحـد»، فقال له الشـريف العقيقى: «هى لأقوام كثير». فقال له سـيف الـدوله: «لئن أخـذتها القوانين ليتبرأن أهلها منها». فأسرّها الشريف فى نفسه، و أعلم أهل دمشق بذلك.

و جعل سـيف الدوله يطالب أهل دمشق بودائع الإخشـيذ و أسبابه؛ فكاتبوا كافورا فخرج فى العساكر المصريه، و معه أنوجور بن الإخشيذ.

فخرج سـيف الدوله إلى اللّجون، و أقام أياما قريبا من عسـكر الإخشـيذ ب «أكساك»(۱)، فتفرق عسـكر سيف الدوله فى الضياع لطلب العلوفه، فعلم بـه الإخشـيذيه، فزحفـوا إليه. و ركب سـيف الـدوله يتشـرف، فرآهم زاحفين فى تعبئه، فعـاد إلى عسـكره فأخرجهم، و نشبت الحرب فقتل من أصحابه خلق و أسر كذلك.

و انهزم سـيف الـدوله إلى دمشق فأخـذ والـدته، و من كان بها من أهله و أسـبابه؛ و سار من حيث لم يعلم أهل دمشق بالوقعه؛ و كان ذلك فى جمادى الآخره من سنه خمس و ثلاثين.

و جاء سيف الدوله إلى حمص؛ و جمع جمعا لم يجتمع له قط مثله، من بنى

۱- تبعد أكساك عن الناصـره سته كم فى اتجاه الجنوب الشرقى. و يجاورها من الشرق جبل الطور. معجم بلدان فلسطين لمحمد شراب.

عقیل، و بنی نمیر، و بنی کلب، و بنی کلاب؛ و خرج من حمص. و خرجت عساکر ابن طغج من دمشق، فالتقوا «بمرج عذراء» و کانت الوقعه أولاـ لسیف الدوله ثم آخرها علیه، فانهزم، و ملکوا سواده؛ و تقطع أصحابه فی ذلک البلد، فهلکوا؛ و تبعوه إلی حلب، فعبر إلی الرّقه، و انحاز یانس المؤنسی من عساکر سیف الدوله إلی أنطاکیه(۱).

و وصل ابن الإخشید حلب، فی ذی الحجه من سنه خمس و ثلاثین و ثلاثمائه. فأقام بها و سیف الدوله فی الرّقه فراسل أنوجور یانس المؤنسی و هو بأنطاکیه، و ضمن هو و کافور لیانس أن یجعلاه بحلب فی مقابله سیف الدوله، و ضمن لهما یانس بأن یقوم فی وجه سیف الدوله بحلب، و أن یعطیهم ولده رهینه علی ذلک فأجابوه.

و انصرف کافور و أنوجور بالعسکر عن حلب إلی القبله، و أتاها یانس فتسلمها. و قیل: إنّ الإخشیذیه عادوا.

و أقام سیف الدوله بحلب، فخالف علیه یانس و الساجیه، و أرادوا القبض علیه، فهرب و کتابه، و أصحابه، إلی الرّقه. و ملک یانس حلب.

و لم یقم یانس بحلب إلا شهرا، حتی أسری إلیه سیف الدوله إلی حلب، فی شهر ربیع الآخر، سنه ست و ثلاثین و ثلاثمائه؛ فکبسه، فانهزم یانس إلی سرمین(۲) یرید الإخشیذ. فأنفذ سیف الدوله فی طلبه سریه مع

۱- انظر المقفی للمقریزی ج ۲ ص ۳۱۶.

۲- سرمین الآن قریه تتبع ناحیه قری مرکز و منطقه أدلب، تبعد عن ادلب ۹ کم إلی الجنوب الشرقی. المعجم الجغرافی للقطر العربی السوری.

ابراهيم بن البارد العقيلى، فأدركته عند ذاذيخ(۱)؛ فانهزم، و خلّى عياله، و سواده، و أولاده. و انهزم إلى أخيه بميّافارقين.

و كان ابن البارد قد وصل إلى سيف الدوله، فى سنه خمس و ثلاثين؛ و كان فى خدمه أخيه ناصر الدوله، ففارقه، و قدم على سيف الدوله.

ثم إنّ الرّسل ترددت بين سيف الدوله و ابن الإخشيذ و تجدّد الصلح بينهما على القاعده التى كانت بينه و بين أبيه، دون المال المحمول عن دمشق.

و عمر سيف الدوله داره بالحلبه(۲)، و قلّد أبا فراس ابن عمه منبج، و ما حولها من القلاع. و استقرت ولايه سيف الدوله لحلب من سنه ست و ثلاثين و ثلاثمائه. و هذه هى الولايه الثالثه.

و جرى بينه و بين الروم وقائع أكثرها له و بعضها عليه.

فمنها: أنه فتح حصن برزويه(۳) فى سنه سبع و ثلاثين و ثلاثمائه من ابن اخت أبى الحجر الكردى(۴). و وقع بينه و بين الروم وقعه فكانت الغلبه للروم

۱- ذكر ياقوت قريه ذا ذيخ و عدها من قرى سرمين.

۲- من المعتقد أن موقع الحلبه، و كان خارج حلب، حيث الآن مركز انطلاق السيارات إلى المحافظات.

۳- وصف ابن العديم حصن برزويه و ذكر أنه كان يعرف فى أيامه باسم حصن برزيه. بغيه الطلب ج ۱ ص ۳۲۸- ۳۲۹، و برزيه الآن قلعه فى السفوح الشرقيه لجبال اللاذقيه، حملت قديما اسم ليزياس، على بعد ۳ كم شرق مضيق سلمى، مساحتها ثلاثه هكتارات، يحيط بها سور محصن بعشره أبراج مربعه أو مستطيله، و ظلت مقطونه حتى القرن الرابع عشر م. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

۴- فى تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى- ط. طرابلس ۱۹۹۰ ص ۷۷،« و فيه يومئذ أبو تغلب الكردى».

و ملكوا مرعش و نهبوا طرسوس. و سار إلى ميّافارقين، و استخلف على حلب ابن أخيه محمد بن ناصر الدوله؛ و خرج لاون الدمستق إلى «بوقا»(۱) من عمل أنطاكيه. و خرج إليه محمد(۲) فكسره الدمستق، و قتل من عسكره خلقا، فى سنه ثمان و ثلاثين و ثلاثمائه.

و منها: أنه غزا، سنه تسع و ثلاثين و ثلاثمائه، و معه خلق عظيم، فظفر فيها، و غنم غنيمه كثيره. فلما رجع إلى درب الجوزات(۳)، و فارقه أهل الثغور، فاجتمع الروم فى الدّرب على سيف الدوله، فقتل خلق عظيم من المسلمين؛ و أسر كذلك.

و ما سلم إلا سيف الدوله على ظهر فرسه، و عرفوه فطلبوه، و لزّوه إلى جبل عظيم، و تحته واد، فخاف أن يأسروه إن وقف أو رجع، فضرب فرسه بالمهماز، و قبله الوادى، لكى يقتل نفسه، و لا يأسروه فوقع الفرس قائما(۴).

و خرج سيف الدوله سالما. و سميّت هذه الغزاه غزاه المصيبه(۵)، و أخذ

۱- بوقا حصن إلى الشمال من أنطاكيه. معجم البلدان. بغيه الطلب ج ۱ ص ۲۲۹.

۲- محمد بن ناصر الدوله الحمدانى. تاريخ يحيى بن سعيد ص ۷۸.

۳- حصن الجوزات بينه و بين طرسوس ثمانيه فراسخ و هو بين البذندون و طرسوس، و هو حصن مذكور موصوف بالقوه. بغيه الطلب ج ۱ ص ۲۱۲- ۳۱۳.

۴- كانت أسس الاستراتيجيه البيزنطيه فى حروب الامبراطوريه مع سيف الدوله هى السماح له بقطع الممرات الصعبه فى الجبال، و التحرش به فى الداخل و اشغاله حتى تتمكن قوات البند من الرجاله من الانتشار بالممرات الجبليه و إقامه كمائن، و فى طريق العوده كانت هذه القوات تعمل على حصر قوات سيف الدوله فى الممرات و ابادتها، هذا و تمركز فى الجبال دوما قوات للانذار البيزنطى استخدمت المرايا العاكسه و النيران و شارات الدخان.

۵- من المرجح أن تاريخ يحيى بن سعيد هو مصدر ابن العديم، انظر ص ۷۸- ۷۹.

له من الآلات، و الأموال، ما لا يحصى حتى أنه ذكر أنه هلك منه من عرض ما كان معه فى صحبته خمسه آلاف ورقه بخط أبى عبيد اللّه بن مقله- رحمه اللّه- و كان منقطعا إلى بنى حمدان، و كان قد بلغ سيف الدوله إلى سمندو(١) و أحرق صارخه(٢) و خرشنه(٣).

و منها: أنّ سيف الدوله بنى مرعش فى سنه إحدى و أربعين و ثلاثمائه، و أتاه الدمستق بعساكر الروم ليمنعه منها فأوقع به سيف الدوله الوقعه العظيمه المشهوره(٤).

و منها: أنّ سيف الدوله دخل بلد الروم، فى سنه اثنتين و أربعين و ثلاثمائه، و أغار على زبطره(٥) و التقاه قسطنطين بن بردس و الدّمستق على درب موزار(٦) و قتل من الفريقين خلق. ثمّ تم سيف الدوله إلى الفرات، و عبره، و قصد بطن هنزيط(٧)، و دخل سيف الدوله سميساط(٨)، فخرج الدمستق إلى

١- سمندو: بلد فى وسط بلاد الروم فى شمالى طريق مرعش إلى قيصريه. معجم البلدان.

٢- ذكر ياقوت صارخه و أن سيف الدوله غزاها سنه ٣٣٩ ه.

٣- خرشنه بلد قرب ملطيه بين سيواس و قيصريه. معجم البلدان.

٤- أفرد ابن العديم فى بغيه الطلب بابا لذكر مرعش، و ذكر هذه الوقعه التى قال فيها المتنبى: أتى مرعشا يستقرب البعد مقبلاو أدبر إذ أقبلت يستبعد القربا

٥- زبطره: بلده قريبه من الحدث، بينها و بين الحدث ثمانيه عشر فرسخا. بغيه الطلب ج ١ ص ٢٤٧- ٢٤٨.

٦- على مقربه من ملطيه. تاريخ يحيى بن سعيد ص ٨٣. معجم البلدان.

٧- من ثغور الروم، ورد ذكره فى شعرى المتنبى و أبى فراس. معجم البلدان.

٨- مدينه صغيره على الفرات و لها قلعه حصينه. بغيه الطلب ج ١ ص ٢٥٨- ٢٥٩.

ناحیه الشام؛ فرجع سیف الدوله، فلحقّه وراء مرعش، فأوقع به، و هزم جیشه، و قتل لاون البطریق فی الحرب، و أسر قسطنطین ولد الدمستق، و حمّله الإبریق إلی بیت الماء؛ و کان أمرد، فخرج فوجده قائما یبکی، و لم یزل عنده حتی مات من عله اعتلها(۱).

و کان الدمستق استتر فی تلک الوقعه فی القناه و دخل فترهب، و لبس المسوح؛ ففی ذلک یقول المتنبی:

فلو کان ینجی من «علیّ» ترهب ترهّبت الأملاک مثنی و موحدا(۲)

و قال أبو العباس أحمد بن محمّد النامی(۳):

لکنّه طلب التّرهّب خیفهممّن له تتقاصر الأعمار

فمکان قائم سیفه عکّازه و مکان ما یتمنطق الزّنّار

۱- نقل ابن العدیم فی بغیه الطلب ص ۲۵۳۲ عن« تاریخ أبی اسحق ابراهیم بن حبیب السقطی صاحب کتاب الردیف فی حوادث سنه اثنتین و خمسین و ثلاثمائه فی ذکر من توفی فیها قال: و فیها، أو فی سنه ثلاث و خمسین مات أبو العشائر الحسین بن علی بن الحسین بن حمدان ببلد الروم فی أسره مسموما، و کان السبب فی سمه أن ملک الطاغیه بلغه أن علی بن حمدان فسق بابن قسطنطین، کان فی أسره فأنفذوا من بلد الروم من سمه فهلک، و سمّوا هم أبا العشائر بن حمدان حنقا لما جری من قتلهم ابن قسطنطین». و جاء فی الأعلاق الخطیره لابن شداد- ط. دمشق ۱۹۹۱ ج ۱ ق ۲ ص ۳۱۲ عن ابن أبی طی الحلبی:« أن قسطنطین المأسور کان فی غایه الحسن، فبذل أبوه فیه ثمانمائه ألف دینار، و ثلاثه آلاف أسیر، فاشتط سیف الدوله، فسیر الدمستق إلی عطار کان بحلب، نصرانیا، و أمره أن یسقی ولده سما ففعل فمات، وعدت هذه من غلطات سیف الدوله».

۲- دیوان المتنبی ص ۹۴.

۳- أبو العباس أحمد بن محمد الدارمی، المعروف بالنامی، کان من خواص سیف الدوله، و عدّ بالمرتبه التالیه للمتنبی. یتیمه الدهر ج ۱ ص ۲۴۱- ۲۴۹.

و بنى سيف الدوله الحدث(١)، و قصده الدمستق بردس، فاقتتلا سحابه يومهما. و كان النصر للمسلمين، و ذلك فى سنه ثلاث و أربعين، و أسر صهر الدمستق على ابنته اعورجرم(٢)، بعد أن سلمها أهلها إلى الدمستق.

و منها: أن سيف الدوله غزا سنه خمس و أربعين بطن هنزيط و نزل شاطى ء أرسناس(٣)، و كبس يانس ابن شمشقيق(۴) على تل بطريق(۵) فهزمه و فتحها.

و قتل فى هذه الوقعه رومانوس بن البلنطس صهر ابن شمشقيق، و أسر ابن قلموط(۶)، و انثنى سيف الدوله قافلا إلى درب الخياطين(٧)، فوجد عليه

١- و تعرف بالحدث الحمراء لحمره أرضها، و هى مدينه كثيره الماء و الزروع. بغيه الطلب ج ١ ص ٢٣٩.

٢- فى بغيه الطلب ج ١ ص ٢۴٢:« و كان أسر قودس- أى Theodose الأعور بطريق سمندو و ابن ابنه الدمستق» انظر أيضا. . ٢٠- Cambridge Medieval History ,Vol ۴، PP, PartiI ٧١٩

٣- هو نهر« مرادصو» اليوم، و يعد من فروع الفرات، و قال عنه ياقوت.« نهر ببلاد الروم يوصف ببروده مائه».

۴- يوحنا تذمسيس، و كان من أصل أرمنى، و هو بالأرمنيهGemezkig و معناه« قصير القامه» أعلن امبراطورا سنه ٩۶٩ م و استمر حتى سنه ٩٧۶ م. أوربا العصور الوسطى لعاشور- ط. القاهره ١٩۶۶ ص ۴٢٣.

۵- يقع تل بطريق على الطرف الغربى للفرات، بينه و بين الفرات ثلاثه فراسخ. معجم البلدان.

۶- انظر نخب تاريخيه و أدبيه جامعه لأخبار الأمير سيف الدوله الحمدانى، لموريس كنار- ط. الجزائر ١٩٣۴ ص ٣٧٨.

٧- حدده كنار ص ١١۶ بأنه قريب من آمد.

كذو بن الدمستق فأوقع به و هزمه.

و خلف ابن عمه أبا العشائر الحسين بن عليّ على عماره عرنداس فقصده ليون بن الدمستق فهزمه، و أسره، و حمله إلى قسطنطينيه، فمات بها(۱).

و غزا فى هذه السنه فى جمادى الآخره مع أهل الثغور و خرب مواضع من بلاد الروم مثل خرشنه و صارخه. و أسر الرست بن البلنطس؛ و أسر لاون بن الاسطراطيغوس، و ابن غذال بطريق مقدونيه؛ و هرب الدمستق و بركيل بطريق الخالديات؛ فلما قفل سيف الدوله فكّ قيود الأسارى، و خلع عليهم، و أحسن إليهم(۲).

و فى جمادى الأولى من سنه ست و أربعين كاتب الروم جماعه من غلمان سيف الدوله بالقبض عليه، و حمله إلى الدمستق عند شخوصه لمحاربته؛ و بذل لهم مالا عظيما على ذلك. فخرج سيف الدوله عن حلب و قد عزموا على ذلك، فصار بعض الفراشين إلى ابن كيغلغ فأخبره بما عزموا عليه؛ فأعلم سيف الدوله، فجمع الأعراب و الدّيلم؛ و قتل منهم مائه و ثمانون غلاما، و قبض على زهاء مائتى غلام، فقطع أيديهم و أرجلهم و ألسنتهم، و هرب بعضهم.

و عاد إلى حلب و قتل من بها من الأسرى، و كانوا زهاء أربعمائه أسير؛

۱- لأبى العشائر ترجمه جيده فى بغيه الطلب ص ۲۵۲۷- ۲۵۳۲، فيها تفاصيل ما أوجز هنا.

۲- انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص ۸۷.

و ضيّق على ابن الدمستق، و زاد فى قيده، و صيّره فى حجره معه فى داره، و أحسن إلى ذلك الفراش، و قلّد ابن كيغلغ أعمالا، و تنكر على سائر غلمانه.

و منها: أن يانس بن شمشقيق خرج إلى ديار بكر، و نزل على حصن اليمانى(۱). و عرف سيف الدوه خبره، فسيّر إليه نجا الكاسكى فى عشره آلاف فارس، فالتقاه فانهزم نجا، و قتل من أصحابه خمسه آلاف فارس؛ و أسر مقدار ثلاثه آلاف راجل؛ و استولى على سواد نجا كله.

و سار ابن شمشقيق و البراكموس(۲) إلى حصن سميساط، و فتحاه؛ ثم سارا إلى رعبان(۳)، و حصراها؛ و سار سيف الدوله إليهما، و لقيهما؛ فاستظهر الروم عليه استظهارا كثيرا.

و عاد سيف الدوله منهزما و تبعه الروم و قتلوا، و سبوا من عشيرته و قواده ما يكثر عدده؛ و ذلك فى سنه سبع و أربعين و ثلاثمائه(۴).

و فى هذه السنه قدم ناصر الدوله الحسين بن عبد اللّه بن حمدان(۵) أخو

۱- انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص ۸۸. حيث قال:« و نزل على حصن يقال له اليمانى من عمل آمد».

۲- Basile parakimaumene الابن الطبيعى للامبراطور رومانوس الثانى(۹۵۹- ۹۶۳ م) و الذى سيكون الامبراطور باسيل الثانى سفاح البلغار ۹۷۶- ۱۰۲۵ م].

۳- رعبان مدينه صغيره، قديمه البناء، و لها قلعه حسنه، بينها و بين الحدث سبعه فراسخ. بغيه الطلب ج ۱ ص ۲۵۹- ۲۶۰.

۴- لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص ۸۸- ۸۹.

۵- لناصر الدوله ترجمه فى بغيه الطلب ص ۲۴۳۳- ۲۴۳۷.

سيف الـدوله مسـتنجدا بأخيه سـيف الـدوله إلى حلب و معه جميع أولاده عنـدما قصد معز الدوله الموصل. و تلقاه سـيف الدوله على أربع فراسخ من حلب، و لما رآه ترجل له. و أنفق سـيف الدوله عليه و على حاشيته؛ و قدم لهم من الثياب الفاخره و الجوهر ما قيمته ثلاثمائه ألف دينار.

و كان يجلس ناصـر الـدوله على السرير؛ و يجلس سـيف الـدوله دونه. و لما دخل دار سـيف الـدوله و جلس على السـرير؛ جاء سيف الـدوله لينزع خفه من رجله؛ فمـدّهما إليه، فنزعهما بيـده. و صـعب على سـيف الـدوله لأنه قدّر أنه إذا خفض له نفسه إلى ذلـك رفعه عنه، فلم يفعـل ذلـك إظهارا لمن حضـر أنه و إن ارتفعت حاله، فهو كالولـد و التبع. و كان يعامله بأشـياء نحو ذلك قبيحه كثيره فيحتملها على دخن. و تحمل عنه سيف الدوله لمعز الدوله مائتى ألفا من الدراهم حتى انصرف عنه(١).

و فى هذه السـنه مات قسطنطين بن لاوى(٢) ملك الروم، و صـيّر نفقور بن الفقّاس دمسـتقا على حرب المغرب، و أخاه ليون بن الفقاس دمستقا على حرب المشرق؛ فتجهّز ليون إلى نواحى طرسوس(٣)، و سبى، و قتل، و فتح

١- لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص ٨٩- ٩٠. أخبار الدوله الحمدانيه لعلى ابن ظافر الأزدى- ط. دمشق ١٩٨٥ ص ١٨- ١٩.

٢- هو عند يحيى بن سعيد ص ٩١« ابن لاون».

٣- مـا تزال طرسوس تحمـل الاسم نفسه فى تركيه، و كانت أهم مـدن الثغور،« بها كان يقوم سوق الجهاد، و ينزلها الصالحون و العبّاد، و يقصدها الغزاه من سائر البلاد». اهتم بها ابن العديم و أودع كتابه بغيه الطلب موادا ثمينه عنها ج ١ ص ١٧٥- ٢٠۴.

الهارونیّه(۱)، و سار إلی دیار بکر.

و توجّه إلیه سیف الدوله فرحل الدمستق راجعا إلی الشام؛ و قتل من أهله عددا متوافرا، و أخرب حصونا کثیره من حصون المسلمین؛ و أسر محمد بن ناصر الدوله.

و منها: غزوه مغاره الکحل(۲): غزا سیف الدوله فی سنه ثمان و قیل تسع و أربعین و ثلاثمائه بلاد الروم، فقتل، و سبی. و عاد غانما یرید درب مغاره الکحل؛ فوجد لیون بن الفقاس الدّمستق قد سبقه إلیه، فتحاربوا؛ فغلب سیف الدوله. و ارتجع الروم ما کان أخذه المسلمون؛ و أخذوا خزانه سیف الدوله و کراعه و قتل فیها خلق کثیر.

و أسر أبو فراس الحارث بن سعید بن حمدان و ترک بخرشنه. و أسر علی بن منقذ بن نصر الکنانی فلم یؤخذ له خبر. و أسر مطر بن البلدی، و قاضی حلب أبو حصین الرقی، و قتلا. و قیل: إنّ أبا حصین قتل فی المعرکه فداسه سیف الدوله بحصانه، و قال: «لا رضی اللّه عنک، فإنّک کنت تفتح لی أبواب الظلم». و قیل: إنهم لما أخذوا الطرق علی سیف الدوله و ثب به حصانه عشرین ذراعا. و قیل: أربعین؛ فنجا فی نفر قلیل.

و ولی سیف الدوله، بعد قتل أبی حصین، أحمد بن محمد بن ماثل

۱- الهارونیه حصن صغیر غربی جبل اللکام، بناه هارون الرشید. بغیه الطلب ج ۱ ص ۲۱۹.

۲- فی تاریخ یحیی بن سعید ص ۹۴« مغاره الکجک» و یستدل من روایته أن هذا الموقع کان علی مقربه من المصیصه.

قضاء حلب، و كان قد عزله بأبی حصین حین ملک. و ذلک أنه لما قدم حلب خرج للقائه أبو طاهر بن ماثل فترجل له أهل حلب، و لم یترجل القاضی لأحد، فأغتاظ سیف الدوله و عزله.

ثم قدم سیف الدوله من بعض غزواته فترجل له ابن ماثل مع الناس.

فقال له: «ما الذی منعک أولا، و حملک ثانیا؟». فقال له: «تلک المره لقیتک و أنا قاضی المسلمین، و هذه الدفعه لقیتک، و أنا أحد رعایاک». فاستحسن منه ذلک.

فلما قتل أبو حصین أعاده إلی القضاء. و ولّی سیف الدوله أیضا قضاء حلب أبا جعفر أحمد بن اسحاق بن محمد بن یزید بن الحلبی المعروف بالجرد، و کان حنفی المذهب.

و نقل الملک رومانوس إلی حرب المشرق نقفور بن الفقاس الدمستق؛ فسار إلیه رشیق النسیمی أمیر طرسوس فی حمیّه من المسلمین؛ فبرز إلیه نقفور فقاتله؛ و انهزم رشیق و قتل من المسلمین زهاء تسعه آلاف رجل(١).

و عاد نقفور فضایق عین زربه(٢) و فتحها بالأمان فی ذی القعده سنه خمسین و ثلاثمائه؛ و هدم سورها فانهزم أهلها إلی طرسوس. و فتح حصن دلوک، و مرعش، و رعبان، فی سنه إحدی و خمسین و ثلاثمائه(٣).

١- لرشیق النسیمی ترجمه غنیه بالمعلومات فی بغیه الطلب ص ٣۶۵۶- ٣۶۵٨.

٢- مدینه من الثغور الشامیه، بینها و بین المصیصه ثمانیه عشر میلا. بغیه الطلب ج ١ ص ١۶٧.

٣- لمزید من التفاصیل انظر تاریخ یحیی بن سعید ص ٩۶- ٩٧.

ثم إنّ نقفور بن الفقاس الدمستق و يانس بن شمشقيق قصدا مدينه حلب فی هذه السنه، و سيف الدوله بها، و كانت موافاتهما كالكبسه. و قيل:

إنّ عده رجاله مائتا ألف فارس، و ثلاثون ألف راجل بالجواشن، و ثلاثون ألف صانع للهدم و تطريق الثلج، و أربعه آلاف بغل عليها حسك حديد يطرحه حول عسكره ليلا.

و لم يشعر سيف الدوله بخبرهم، حتى قربوا منه. فأنفذ إليهم سيف الدوله غلامه «نجا» فی جمهور عسكره، بعد أن أشار عليه ثقاته و نصحاؤه بأن لا يفارق عساكره. فأبی عليهم و مضی نجا بالعسكر إلى الأثارب(۱). ثم توجه منها داخلا إلى أنطاكيه فخالفه عسكر الروم؛ و وصل إلى دلوك؛ و رحل منها إلى تل حامد(۲)، ثم إلى تبّل(۳).

و اتصل خبره بسيف الدوله فعلم أنه لا يطيقه مع بعد جمهور العسكر عنه، فخرج إلى ظاهر حلب و جمع الحلبيين و قال لهم: «عساكر الروم تصل اليوم، و عسكری قد خالفها؛ و الصواب أن تغلقوا أبواب المدينه، و تحفظوها؛ و أمضی أنا ألتقی عسكری، و أعود إليكم و أكون من ظاهر البلد، و أنتم من باطنه، فلا يكون دون الظفر بالروم شی ء».

۱- تعرف الآن بالأتارب، و هی بلده و مركز ناحيه تتبع منطقه جبل سمعان و تبعد عن حلب ۳۰ كم نحو الجنوب الغربی. المعجم الجغرافی للقطر العربی السوری.

۲- تل حامد المذكور هنا واقع إلى الجنوب من دلوك. نخب تاريخيه لكنار ص ۳۸۴.

۳- تبل من قری عزاز و تبعد عنها ۸ كم. انظرها فی معجم البلدان.

فأبی عامه الحلبیین و غوغاؤهم، و قالوا: «لا تحرمنا أیها الأمیر، الجهاد؛ و قد کان فینا من یعجز عن المسیر إلی بلد الروم للغزو، و قد قربت علینا المسافه». فلما رأی امتناعهم علیه، قال لهم: «اثبتوا فإنّی معکم».

و کان سیف الدوله علی بانقوسا(۱)، و وردت عساکر الروم إلی الهزازه(۲)، فالتقوا فانهزم الحلبیون، و قتل و أسر منهم جماعه کثیره و قتل أبو داود بن حمدان، و أبو محمد الفیاضی کاتب سیف الدوله(۳)، و بشری الصغیر غلام سیف الدوله؛ و کان أسند الحرب ذلک الیوم إلیه، و جعله تحت لوائه.

و مات فی باب المدینه المعروف بباب الیهود(۴) ناس کثیر لفرط الزحمه.

و کان سیف الدوله راکبا علی فرس له یعرف بالفحّی؛ فانهزم مشرقا حتی بعد عن حلب. ثم انحرف إلی قنّسرین فبات بها.

و أقام الروم علی ظاهر البلده أربعه أیام محاصرین لها، فخرج شیوخ حلب إلی نقفور یسألونه أن یهب لهم البلد، فقال لهم: «تسلّمون إلیّ ابن

۱- بانقوسا الآن من أحیاء حلب، و قال عنها یاقوت: جبل فی ظاهر مدینه حلب.

۲- الهزازه الآن من أحیاء الشمال الغربی من حلب.

۳- له ترجمه فی یتیمه الدهر، حیث قال عنه الثعالبی: أبو محمد عبد اللّه بن عمرو بن محمد الفیاض، کاتب سیف الدوله و ندیمه، أخذ بطرفی النظم و النثر، و کان سیف الدوله لا یؤثر علیه فی السفاره إلی الحضره أحدا، لحسن عبارته و قوه بیانه، و نفاذه فی استغراق الأغراض، و تحصیل المراد. یتیمه الدهر ج ۱ ص ۱۱۷- ۱۱۹.

۴- هو الباب الشمالی لمدینه حلب، سمی بذلک لأن محال الیهود کانت من داخله، غیره السلطان الملک الظاهر غازی ابن صلاح الدین، و إثر ذلک« سمی الباب باب النصر، و محی عنه اسم باب الیهود» بغیه الطلب ج ۱ ص ۵۵.

حمدان». فحلفوا أن، ابن حمدان ما هوف البلد. فلما علم أن سیف الدوله غائب عنها طمع فیها و حاصرها.

و قیل: إنّ نقفور خرج إلیه شیوخ حلب باستدعاء منه لهم، یوم الاثنین الثانی و العشرین من ذی القعده من السنه. و کان نزوله علی المدینه، یوم السبت العشرین من ذی القعده. و جری بینه و بینهم خطاب آخره علی أن یؤمنهم، و یحملوا إلیه مالا، و یمکّنوا عسکره أن یدخل من باب و یخرج من آخر، و ینصرف عنهم عن مقدره. فقالوا له: «تمهلنا اللیله حتی نتشاور، و نخرج غدا بالجواب». ففعل، و مضوا، و تحدّثوا، و خرجوا بکره الثلاثاء إلیه، فأجابوه إلی ما طلب. فقال لهم نقفور: «أظنکم قد رتبتم مقاتلتکم فی أماکن مختفین بالسلاح حتی إذا دخل من أصحابی من یمکنکم أن تطبقوا علیه و تقتلوه فعلتم ذلک». فحلف له بعضهم من أهل الرأی الضعیف أنه ما بقی بالمدینه من یحمل سلاحا، و فیه بطش، فکشفهم نقفور عند ذلک، فعند ذلک قال لهم: «انصرفوا الیوم و اخرجوا إلیّ غدا»؛ فانصرفوا.

و قال نقفور لأصحابه: «قد علمتم أنه ما بقی عندهم من یدفع، فطوفوا اللیله بالأسوار و معکم الآله، فأی موضع رأیتموه ممکنا فتسوّروا إلیه، فانکم تملکون الموضع.

فطافوا، و کتموا أمرهم، و أبصروا أقصر سور فیها مما یلی المیدان بباب قنّسرین، فرکبوه، و تجمعوا علیه؛ و کان وقت السحر، و صاحوا، و دخلوا المدینه.

و قیل: إنّ أهل حلب قاتلوا من وراء السور، فقتل جماعه من الروم بالحجاره و المقالع؛ و سقطت ثلمه من السور علی قوم من أهل حلب فقتلتهم.

و طمع الروم فیها فأكبوا علیها، و دفعهم الحلبیون عنها؛ فلما جهنّم اللیل اجتمع علیها المسلمون، فبنوها، فأصبحوا و قد فرغت، فعلوا علیها و كبّروا؛ فبعد الروم عن المدینه إلی جبل جوشن(۱).

فمضی رجّاله الشرط و عوام الناس إلی منازل الناس، و خانات التجار، لینهبوها. فاشتغل شیوخ البلد عن حفظ السور، و لحقوا منازلهم. فرأی الروم السور خالیا فتجاسروا، و نصبوا السلالم علی السور، و هدموا بعض الأبدان، و دخلوا المدینه من جهه برج الغنم، لیله الثلاثاء لثمان بقین من ذی القعده من سنه إحدی و خمسین. و قیل: یوم الثلاثاء آخر ذی القعده، فی السحر.

و أخذ الدمستق منها خلقا من النساء و الأطفال؛ و قتل معظم الرجال، و لم یسلم منه إلاـ من اعتصم بالقلعه من العلویین، و الهاشمیین و الكتّاب، و أرباب الأموال. و لم یكن علی القلعه یومئذ سور عامر فإنها كانت.

قد تهدّمت، و بقی رسومها. فجعل المسلمون الأكف(۲) و البراذع بین أیدیهم.

و كانت بها جماعه من الدیلم الذین ینسب إلیهم درب الدّیلم(۳)

۱- جبل جوشن فی ظاهر حلب غربیها.
۲- جمع أكاف، أی البراذع.
۳- علی مقربه من باب الجامع الشرقی. الأعلاق الخطیره ج ۱، ق ۱، ص ۳۴۴.

بحلب، فزحف إليها ابن أخت الملك، فرماه ديلمیّ فقتله فطلبه من الناس فرموه برأسه، فقتل عند ذلك من الأسرى اثنى عشر ألف أسير. و قيل أكثر من ذلك، و قيل أقلّ؛ و اللّه أعلم.

و أقام نقفور بحلب ثمانيه أيام ينهب، و يقتل، و يسبى باطنا و ظاهرا.

و قيل: إنّه أخرب القصر الذى أنشأه سيف الدوله بالحلبه، و تناهى فى حسنه، و عمل له أسوارا، و أجرى نهر قويق فيه من تحت الخناقيه(۱)، يمر من الموضع المعروف بالسقايات حتى يدخل فى القصر من جانب، و يخرج من آخر، فيصب فى المكان المعروف بالفيض(۲)، و بنى حوله اصطبلا و مساكن لحاشيته.

و قيل: إنّ ملك الروم وجد فيه لسيف الدوله ثلاثمائه و تسعين بدره دراهم؛ و وجد له ألفا و أربعمائه بغل، فأخذها. و وجد له من خزائن السلاح ما لا يحصى كثره فقبض جميعها، و أحرق الدار فلم تعمر بعد ذلك؛ و آثارها إلى اليوم ظاهره.

و يقال: إنّ سيف الدوله رأى فى المنام أنّ حيّه قد تطوقت على داره فعظم عليه ذلك، فقال له بعض المفسرين: الحيّه فى النوم ماء. فأمر بحفر يحفر بين داره و بين قويق، حتى أدار الماء حول الدار.

و كان فى حمص رجل ضرير من أهل العلم يفسر المنامات، فدخل على

۱- من منتزهات حلب، و سلفت الاشاره إلى تحديد مكان قصر سيف الدوله فى أنه حيث مركز انطلاق السفريات إلى المحافظات.

۲- من منتزهات حلب. تاريخ حلب لابن الشحنه- ط. طوكيو ۱۹۹۰ ص ۲۴۵.

سیف الدوله فقال له کلاما معناه: أنّ الروم تحتوی علی دارک. فأمر به فدفع، و أخرج بعنف. و قضی اللّه سبحانه أنّ الروم خرجوا، ففتحوا حلب، و استولوا علی دار سیف الدوله، فذکر معبّر المنام أنه دخل علی سیف الدوله بعد ما کان من أمر الروم، فقال له: ما کان من أمر ذلک المنام الملعّن؟.

و کان المعتصمون بالقلعه و الروم بالمدینه تحت السماء لیس لهم ما یظلهم من الهواء و المطر، و یتسلّلون فی اللیل إلی منازلهم فإن وجدوا شیئامن قوت أو غیره أخذوه و انصرفوا.

ثم ان نقفور أحرق المسجد الجامع و أکثر الأسواق، و الدار التی لسیف الدوله، و أکثر دور المدینه. و خرج منها سائرا إلی القسطنطینیه بعد أن ضرب أعناق الأساری من الرجال، حین قتل ابن أخت الملک؛ و کانوا ألفا و مائتی رجل(۱).

و سار بما معه و لم یعرض لسواد حلب و القری التی حولها. و قال: «هذا البلد قد صار لنا، فلا تقصروا فی عمارته؛ فإنّا بعد قلیل نعود إلیکم».

و کان عده من سبی من الصبیان و الصبایا بضعه عشر ألف صبی و صبیه؛ و أخذهم معه.

و قیل: إنّ جامع حلب کان یضاهی جامع دمشق فی الزخرفه و الرخام و الفسیفساء- و هی الفص المذهب- إلی أن أحرقه الدمستق- لعنه اللّه- و إنّ

۱- تاریخ یحیی بن سعید ص ۹۷- ۹۹.

سلیمان بن عبد الملک اعتنی به کما اعتنی أخوه الولید بجامع دمشق(۱).

و سار الدمستق عنها، یوم الأربعاء مستهل ذی الحجه من سنه إحدی و خمسین و ثلاثمائه.

و اختلف فی السبب الذی أوجب رحیل نقفور عن حلب، فقیل: إنه ورد إلیه الخبر أن رومانوس الملک وقع من ظهر فرسه فی الصید بالقسطنطینیه، و انهم یطلبونه لیملکوه علیهم.

و قیل: سبب رحیله أن نجا عاد بجمهور العسکر إلی الأمیر سیف الدوله فاجتمع به. و جعل یواصل الغارات علی عسکر الروم، و تبلغ غاراته إلی السعدی(۲)؛ و أنه أخذ جماعه من متعلقه الروم. و استنجد سیف الدوله بأهل الشام، فسار نحوه ظالم بن السلال العقیلی(۳) فی أهل دمشق؛ و کان یلیها من قبل الإخشیذیه. فکان ذلک سببا لرحیله عن حلب.

و کان هذا نقفور بن الفقاس الدمستق، قد دوّخ بلاد الإسلام، و انتزع من أیدی المسلمین جمله من المدن، و الحصون، و المعاقل؛ فانتزع الهارونیه،

۱- نقل ابن شداد فی الأعلاق الخطیره ج ۱ ق ۱ ص ۱۰۳- ۱۰۵ عن ابن العدیم وصف المسجد الجامع فی حلب.

۲- من منتزهات حلب. ابن الشحنه ص ۲۴۵.

۳- یرجح أن المشار إلیه هنا هو ظالم بن موهوب العقیلی الذی ولی دمشق للفاطمین سنه ۳۶۰ ه، حیث یبدو أنه عمل من قبل مع الاخشیذیه ثم تعاون مع القرامطه. انظر تاریخ دمشق لابن القلانسی- تحقیقی- ط. دمشق ۱۹۸۳ ص ۹.

و عین زربه- کما ذکرناه- و کذلک دلوک، و أذنه(۱)، و غیر ذلک من الثغور.

و نزل علی أذنه فی ذی الحجه من سنه اثنتین و خمسین، و لقیه نفیر طرسوس فهزمهم و قتل منهم مقدار أربعه آلاف، و انهزم الباقون إلی تلّ بالقرب من أذنه؛ فأحاط الروم بهم و قاتلوهم و قتلوهم بأسرهم.

و هرب أهل أذنه إلی المصّیصه(۲) و حاصرها نقفور مده فلم یقدر علیها بعد أن نقب فی سورها نقوبا عده. و قلت المیره عندهم فانصرف، بعد أن أحرق ما حولها.

و ورد فی هذا الوقت إلی حلب انسان من أهل خراسان و معه عسکر لغزو الروم؛ فاتفق مع سیف الدوله علی أن یقصدا نقفور و کان سیف الدوله علیلا فحمل فی قبّه؛ فألفیاه و قد رحل عن المصّیصه.

و تفرقت جموع الخراسانی لشده الغلاء فی هذه السنه بحلب و الثغور؛ و عظم الغلاء و الوباء فی المصیصه و طرسوس حتی أکلوا المیته.

و عاد نقفور إلی المصیصه و فتحها بالسیف فی رجب سنه أربع و خمسین و ثلاثمائه. و فتح أیضا کفربیّا فی هذه السنه و مرعش. و فتح طرسوس من أیدی المسلمین فی شعبان سنه أربع و خمسین و ثلاثمائه(۳).

۱- هی أضنه الحالیه فی ترکیا، أفرد لها ابن العدیم بابا فی کتابه بغیه الطلب ج ۱ ص ۱۶۹- ۱۷۱.

۲- من مدن الثغور، تشتمل علی مدینتین بینهما نهر جیجان: مدینه المصیصه من الجانب الغربی من النهر، و مدینه کفربیا من الجانب الشرقی. بغیه الطلب ج ۱ ص ۱۵۳- ۱۶۱.

۳- الماده التی رواها ابن العدیم عن سقوط طرسوس و ثائقیه آخرها:« أن نقفور لما صالح أهل- طرسوس، و خرجوا منها و تسلمها صعد علی منبرها و قال: یا معشر الروم أین أنا؟ قالوا: علی منبر طرسوس، فقال: لا بل أنا علی منبر بیت المقدس، و هذه البلده التی کانت تمنعکم من بیت المقدس» و جعلت الروح الدینیه المتعصبه التی أظهرتها حملات نقفور و الذین تقدموه المؤرخین یطلقون علیها اسم صلیبیه القرن العاشر. بغیه الطلب ج ۱ ص ۱۹۴- ۱۹۷.

و كان المسلمون يخرجون فى كل سنه و يزرعون الزرع فيأتى بعساكره فيفسده.

فضعفت، و تخلّى ملوك الإسلام عن أهل الرباط بها؛ و كان فيها فيما ذكر أربعون ألف فارس، و فى عتبه بابها أثر الأسنّه إلى اليوم. فلما رأى أهلها ذلك راسلوا نقفور المذكور، فوصل إليهم، و أجابوه إلى التسليم. و قال لهم:

«إنّ كافورا الخادم قد أرسل إليكم غله عظيمه فى المراكب، فان اخترتم أن تأخذوها و أنصرف عنكم، فى هذه السنه، فعلت». فقالوا: لا. و اشترطوا عليه أن يأخذوا أموالهم. فأجابهم إلى ذلك إلا السلاح.

و نصب رمحين جعل على أحدهما مصحفا، و على الآخر صليبا. ثم قال لهم: «من اختار بلد الاسلام فليقف تحت المصحف؛ و من اختار بلد النصرانيه فليقف تحت الصليب». فخرج المسلمون فحزروا بمائه ألف ما بين رجل و أمرأه و صبى؛ و انحازوا إلى أنطاكيه.

و دخل نقفور إلى طرسوس، و صعد منبرها، و قال لمن حوله: «أين أنا؟» فقالوا: «على منبر طرسوس» فقال: «لا؛ و لكنّى على منبر بيت المقدس؛ و هذه كانت تمنعكم من ذلك».

و استولى بعد موت سيف الدوله فى سنه سبع و خمسين على كفر طاب، و شيزر، و حماه، و عرقه(۱)، و جبله، و معرّه النعمان، و معره مصرين، و تيزين(۲)، ثم فتح أنطاكيه فى سنه ثمان و خمسين؛ على ما نذكره بعد- إن شاء اللّه تعالى.

و صارت وقعاته للروم و النصارى كالنزه و الأعياد. و حكم فى البلاد حكم ملوك الروم. و لما رجع عن حلب سار إلى القسطنطينيه مغذا، فدخلها فى صفر سنه اثنتين و خمسين و ثلاثمائه؛ فوجد رومانوس قد مات و جلس فى الملك ولداه باسيل و قسطنطين و هما صبيان و والدتهما «تفانو»(۳) تدبرهما.

فلما وصل نقفور سلّموا الأمر إليه فدبّرهما مده. ثم رأى أنّ استيلاءه على الملك أصوب، و أبلغ فى الهيبه فلبس الخف الأحمر، و دعا لنفسه بالملك، و تحدّث مع البطريرك فى ذلك، فأشار عليه أن يتزوج تفانو أم الصبيّين، و أن يكون مشاركا لهما فى الملك؛ فاتقوا على ذلك و ألبسوه التاج.

ثم خافت على ولديها منه؛ فأعملت الحيله، و رتّبت مع يانس بن شمشقيق أن تتزوج به. وبات نقفور فى البلاط فى موضعه الذى جرت عادته به. فلما ثقل فى نومه أدخلت يانس و معه جماعه، و شكلت رجل نقفور. فلما

۱- عرقه: بلده فى شرقى طرابلس بينهما أربعه فراسخ. معجم البلدان.

۲- تيزين الآن خربه أثريه فى جبل باريشا تتبع منطقه حارم، محافظه أدلب، تشرف على سهل العمق، مهجوره منذ قرون طويله. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

۳- أرخ لهذه الأحداث و ما تلاها المؤرخ البيزنطى ميخائيل بزللوس Michael Psellus الذى ترجم كتابه إلى الانكليزيه و طبع تحت عنوان« أربعه عشر حاكم بيزنطى» لندن ۱۹۶۶.

دخل يانس قام نقفور من نومه ليأخذ السيف فلم يستطع فقتله. و لم يتزوّج بها يانس خوفا منها.

و نعود إلى بقيه أخبار سيف الدوله:

فإنه لما رحل الروم عن حلب، عاد إليها و دخلها فى ذى الحجه سنه إحدى و خمسين و ثلاثمائه. و عمر ما خرب منها؛ و جدّد عماره المسجد الجامع؛ و أقام سيف الدوله إلى سنه أربع و خمسين و ثلاثمائه.

و سار إلى ديار بكر بالبطارقه الذين كانوا فى أسره ليفادى بهم؛ و أخذهم نجا، و سار إلى ميافارقين فاستولى عليها.

فلما وصل سيف الدوله قال: «أرونى نجا»؛ فأروه أيّاه على برج، فوقف تحته، و قال: «يانجا» فقال: «لبيك يا مولانا» فقال: «انزل». فنزل فى الوقت، و خدمه على رسمه، و خلع عليه، و سلم إليه البلد و البطارقه. و قتل نجا، قتله غلام لسيف الدوله اسمه قبجاج بحضرته؛ و كان سيف الدوله عليلا، فأمر به فقتل قبجاج فى الحال.

و سار سيف الدوله بالبطارقه إلى الفداء، ففدى بهم أبا فراس ابن عمه، و جماعه من أهله، و غلامه «رقطاش»، و من كان بقى من شيوخ الحمصيين و الحلبيين. و لما لم يبق معه من أسرى الروم أحد اشترى بقيه المسلمين من العدوّ كل رجل باثنين و سبعين دينارا؛ حتى نفد ما كان معه من المال. فاشترى الباقين و رهن عليهم بدنته الجوهر المعدومه المثل و كاتبه أبا

القاسم الحسین بن علی المغربی جد الوزیر(۱)، و بقی فی أیدی الروم إلی أن مات سیف الدوله، فحمل بقیه المال و خلّص ابن المغربی.

و لما توجّه سیف الدوله إلی الفداء ولّی فی حلب غلامه و حاجبه قرغویه الحاجب فی سنه أربع و خمسین، فخرج علی أعمال سیف الدوله مروان العقیلی، و کان من مستأمنه القرامطه.

و کان مروان مع سیف الدوله حین توجّه إلی آمد. و أقام سیف الدوله بکل ما یحتاج إلیه عسکره، و أنفذ إلیه ملک الروم هدیه سنّیه، فقتل مروان القرمطیّ رجلا من أصحاب الرسول، فتلافی سیف الدوله ذلک؛ و سیّر إلی ملک الروم هدیّه سنّیه؛ و أفرد دیه المقتول؛ و اعتذر أن مروان فعل ذلک علی سکر، فرد الهدیه و التمس إیفاد القاتل، لیقیده به أو یصفح عنه؛ فلم یفعل؛ و انتقضت الهدنه؛ و کان ذلک فی سنه ثمان و ثلاثین و ثلاثمائه. و ولّی بعد ذلک مروان السواحل.

فلما توجّه سیف الدوله إلی الفداء سار إلی ناحیه حلب، فأنفذ إلیه قرغویه غلاما له اسمه بدر فالتقیا غربی کفر طاب؛ فأخذه مروان أسیرا؛ و قتله صبرا؛ و کسر العسکر و ملک حلب. و کتب إلی سیف الدوله بأنه من قبله، فسکن إلی ذلک، و أخذ مروان فی ظلم الناس بحلب، و مصادرتهم.

فلم تطل مدته؛ و توفی سنه أربع و خمسین و ثلاثمائه، من ضربه ضربه بها بدر

۱- ترجم ابن العدیم للحسین بن علی بن محمد المغربی، و رجح أنه توفی فی حیاه سیف الدوله، و أن ابنه علی حل محله. بغیه الطلب ۲۵۳۲، ۲۷۰۲- ۲۷۰۶.

حین التقیا بلتّ(۱) فی وجهه. و عاد الحاجب قرغویه إلی خلافه سیف الدوله.

و کان بأنطاکیه رجل یقال له الحسن بن الأهوازی یضمن المستغلات لسیف الدوله، فاجتمع برجل من وجوه أهل الثغر یقال له رشیق النسیمی- و کان من القواد المقیمین بطرسوس- فاندفع إلی أنطاکیه حین أخذ الروم طرسوس، و تولی تدبیر رشیق و أطمعه فی أن سیف الدوله لا یعود إلی الشام.

فطمع و اتفق مع ملک الروم علی أن یکون فی حیزه، و یحمل إلیه عن أنطاکیه فی کل سنه ستمائه ألف درهم.

و کان بأنطاکیه من قبل سیف الدوله تنج(۲) الیمکی أو الثملی؛ فسار رشیق(۳) نحوه، فوثب أهل أنطاکیه علی تنج؛ فأخرجوه؛ و سلموا البلد إلی رشیق. فأطمع ابن الأهوازی رشیقا بملک حلب، لعلمه بضعف سیف الدوله، و اشتغاله بالفداء. و عمل له ابن الأهوازی کتابا ذکر أنه من الخلیفه ببغداد، بتقلیده أعمال سیف الدوله، فقری ء علی منبر أنطاکیه.

و اجتمع لابن الأهوازی جمله من مال المستغلّ، و طالب قوما بودائع ذکر أنها عندهم، و استخدم بتلک الأموال فرسانا و رجاله؛ و استأمن إلیه دزبر بن أونیم الدیلمی(۴) و جماعه من الدیلم الذین کانوا مع الحاجب قرغویه بحلب.

۱- اللتب بالفارسیه: عمود، مطرقه، هراوه، فأس.

۲- هو فی تاریخ یحیی بن سعید« فتح» ص ۱۰۸.

۳- لرشیق ترجمه مفیده المعلومات فی بغیه الطلب ص ۳۶۵۶- ۳۶۵۸.

۴- لدزبر بن أونیم ترجمه غنیه فی بغیه الطلب ص ۳۴۹۵- ۳۴۹۶.

فحصل مع رشيق نحو خمسه آلاف رجل، فسيّر إليه الحاجب غلامه يمن فى عسكر. فخرج إليه رشيق من أنطاكيه، و التقوا بأرتاح(۱)؛ فاستأمن يمن إلى رشيق؛ و مضى عسكره إلى حلب، و توجّه رشيق إلى حلب، و نازل حلب، و زحف على باب اليهود، فخرج إليه بشاره الخادم فى جماعه؛ فقاتل إلى الظهر؛ و انهزم بشاره و دخل من باب اليهود؛ و دخلت خيل رشيق خلفه.

و استولى رشيق على المدينه فى اليوم الأول من ذى القعده سنه أربع و خمسين و ثلاثمائه. و نادوا بالأمان للرعيه؛ و قرأوا كتابا مختلقا عن الخليفه بتقليد رشيق أعمال سيف الدوله؛ و أقام رشيق يقاتل القلعه ثلاثه أشهر و عشره أيام. و فتح باب الفرج(۲)؛ و نزل غلمان الحاجب من القلعه فحملوا على أصحاب رشيق، فهزموهم، و أخرجوهم من المدينه. فركب رشيق و دخل من باب أنطاكيه، فبلغ إلى القلانسيين؛ و خرج من باب قنّسرين، و مضى إلى باب العراق. فنزل غلمان الحاجب، و خرجوا من باب الفرج و هو الباب الصغير.

و وقع القتال بينهم و بين أصحاب رشيق، فطعن ابن يزيد الشيبانى(۳)

۱- أرتاح: حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب. معجم البلدان.

۲- قال ابن العديم:« و كان لحلب باب يقال له باب الفرج إلى جانب حمام القصر، كان إلى جانبه القصر المشهور الذى يلى قلعه حلب، فخربه الملك الظاهر» بغيه الطلب ج ۱ ص ۵۷.

۳- هو فى بغيه الطلب ص ۳۶۵۷« أبو يزيد الشيبانى»« و قيل إن أبا يزيد طعن رشيقا فوقع إلى الأرض، و ضربه حسنش الديلمى و احتز رأسه عبد اللّه التغلبى».

رشيقا فرماه؛ و كان ممن استأمن من عسكر سيف الدوله إلى رشيق؛ و أخذ رأسه، و مضى به إلى الحاجب قرغويه، و عاد الحاجب إلى حالته فى خلافه الأمير سيف الدوله.

و عاد عسكر رشيق إلى أنطاكيه فرأسوا عليهم دزبر بن أونيم الديلمى، و عقدوا له الإماره، و استوزر أبا على بن الأهوازى، و قبل كل من وصل إليه من العرب و العجم.

و سار إليه الحاجب قرغويه إلى أنطاكيه، فأوقع به دزبر، و نهب سواده، و انهزم قرغويه و قد استأمن أكثر أصحابه إلى دزبر، فتحصّن بقلعه حلب، و تبعه دزبر فملكها فى جمادى الأولى من سنه خمس و خمسين و ثلاثمائه.

و أقام بها و ابن الأهوازى بعسكره فى حاضر قنّسرين، و جمع إليه بنى كلاب، وجبى الخراج من بلد حلب و حمص؛ و فوّض إلى القضاه، و الولاه، و الشيوخ، و العمال الأعمال و الولايات.

و جاء سيف الدوله فدخل حلب و عسكره ضعيف فبات بها و خرج إلى دزبر و ابن الأهوازى. و كان سيف الدوله قد فلج و بطل شقه الأيسر فالتقوا شرقى حلب ب «سبعين»(۱).

فغدرت بنو كلاب بدزبر و ابن الأهوازى حين نظروا إلى سيف الدوله؛

۱- اسمها الآن تل سبعين، و هى قريبه من سبخه الجبول. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى. و انظر أيضا بغيه الطلب ص ۱۹۵۶- ۱۹۵۷.

و استأمنوا إليه، فآمنهم؛ و وضع السيف فى عسكر دزبر وضع محنق مغيظ؛ فقتل جمعا كثيرا، و أسر خلقا، فقتلهم صبرا. و كان فيهم جماعه ممن اشتراه بماله من الروم، فسبقوه إلى الشام، و قبضوا الرزق من ابن الأهوازى، و جعلوا يقاتلونه، فما أبقى على أحد منهم. و حصل دزبر و ابن الأهوازى فى أسره. فأما دزبر فقتله ليومه؛ و أما ابن الأهوازى فاستبقاه أياما ثم قتله.

ثم إنّ سيف الدوله قويت علّته بالفالج، و كان بشيزر، فوصل إلى حلب فأقام بها يومين أو ثلاثه. و توفى يوم الجمعه العاشر من صفر من سنه ست و خمسين و ثلاثمائه(۱). و قيل: توفى بعسر البول و حمل تابوته إلى ميافارقين فدفن بها فى تربته.

و كان على قضاء حلب إذ ذاك- فى غالب ظنى- أبو جعفر أحمد بن اسحاق بن محمد بن يزيد الحنفى، بعد أحمد بن محمد بن ماثل.

و ينسب إلى سيف الدوله أشعار كثيره، لا يصح منها له غير بيتين، ذكر أبو القاسم الحسين بن على المغربى كاتبه- و هو جدّ الوزير أبى القاسم المغربى- أنهما لسيف الدوله. و لم يعرف له غيرهما. و كتب بهما إلى أخيه ناصر الدوله و قد مدّ يده إلى شى ء من بلاده المجاوره له، من ديار بكر، و كانت فى يد أخيه:

لست أجفو و إن جفيت و لا أترك حقا علىّ فى كل حال

۱- بهامش الأصل: وفات سيف الدوله سنه ۳۵۶، ۹۵۶.

إنمّا أنت والد و الأب الجفافى يجازى بالصبر و الإحتمال

و وزر لسيف الدوله أبو اسحاق القراريطى(۱)؛ ثم صرفه و ولى وزارته أبا عبد اللّه محمد بن سليمان بن فهد؛ ثم غلب على أمره أبو الحسين على بن الحسين المغربى أبو الوزير أبى القاسم و وزر له.

۱- هو محمد بن أحمد بن ابراهيم الاسكافى الكاتب، وزر لمحمد بن رائق، ثم وزر للمتقى للّه مرتين، و صودر، و صار إلى الشام، و كتب لسيف الدوله، و كان ظلوما غشوما، عاش ستا و سبعين سنه» و توفى سنه سبع و خمسين و ثلاثمائه. العبر للذهبى- ط. الكويت ۱۹۸۴ ج ۲ ص ۳۱۵.

[عهد سعد الدوله]

[عهد سعد الدوله](۱)

و قام بالأمر بحلب الحاجب قرغويه غلام سيف الدوله، من قبل ابن سيف الدوله؛ فبقى بها إلى أن مضى غلمان سيف الدوله إلى ميّافارقين، فأحضروا ابنه: سعد الدوله أبا المعالى شريف بن على بن عبد اللّه بن حمدان، و كان مع والدته أم الحسن ابنه أبى العلاء سعيد بن حمدان بها.

فدخل حلب، يوم الاثنين لعشر بقين من شهر ربيع الأوّل، من سنه ست و خمسين و ثلاثمائه؛ و زيّنت له المدينه؛ و عقدت له القباب؛ و جلس على سرير أبيه، و جلس الحاجب قرغويه على كرسىّ، و المدّبر لدولته وزيره أبو اسحاق محمد بن عبد اللّه بن شهرام كاتب أبيه.

و قبض أبو تغلب بن ناصر الدوله بن عبد اللّه بن حمدان على أبيه ناصر الدوله، فى هذه السنه(۲)؛ فامتعض حمدان بن ناصر الدوله لذلك و عصى على

۱- أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

۲- اعتقله بقلعه الموصل حتى توفى« يوم الجمعه الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنه سبع و خمسين و ثلاثمائه» و قد تجاوز الثمانين. بغيه الطلب من ۲۴۳۶- ۲۴۳۷.

أخيه بالرقه و الرّحبه(۱).

فسار أبو تغلب إليه إلى الرقه، و حصره فيها إلى أن صالحه على أن يقتصر على الرّحبه، و يسلم إليه الرّقه و الرافقه. و كتب لأبى تغلب توقيع بتقليده أعمال ناصر الدّوله و سيف الدّوله من المطيع، و هو بالرّقه.

و كان قرغويه قد جاء إلى خدمته، و هو يحاصر أخاه؛ فلما صالح أخاه قدم حلب جريده، وزار ابن عمه سعد الدوله، و عاد إلى الموصل.

۱- لم تكن هذه محاوله التمرد الوحيده فى صفوف الحمدانيين فقد روى المقريزى فى ترجمته لبشاره الاخشيدى مايلى: «فلما مات سيف الدوله بن حمدان بحلب سار بتابوته إلى ديار بكر بشاره الخادم، و تقى، فى جمادى الأولى سنه ست و خمسين و ثلاثمائه، و كان بينهما منافره، فأذاع تقى عن بشاره أنه كاتب حمدان بن ناصر الدوله، و كان قد غلب على الرقه عند وفاه عمه سيف الدوله، و حثه على أخذ حلب، و كتب تقى إلى قرغويه القائم بضبط حلب نيابه عن سعد الدوله أبى المعالى شريف ابن سيف الدوله، فقبض قرغويه على أسباب بشاره بحلب. فلما بلغ ذلك بشاره داخل تقى و وانسه، فأنس به، و صفى بنيته له، و أطلعه على أنه يريد ديار بكر ليعمل على أبى المعالى شريف ابن مولاه، و يقبض عليه، و يملك التدبير، و ضمن لبشاره أنه يسلم له ميافارقين، فأظهر له بشاره القبول، و سار بمسيره إلى قريب من ميافارقين، فكتب بشاره مع من يثق به إلى أبى المعالى يحذره الخروج إلى لقاء تابوت أبيه، و يعرفه ما عزم عليه تقى. فلما قرب تقى كتب إليه بخبر التابوت و أن يخرج لتلقيه، فأظهر أبو المعالى عله و امتنع عن الركوب، و أخرج كل من فى البلد لتلقيه، و ضرب تقى مضاربه و لم يدخل المدينه، و وكل بأبوابها الرجال، فطلع بشاره على السور، و غلق الأبواب، و خاطب أصحابه عن الأمير أبى المعالى بكل جميل، فانقلبوا عن تقى، و بطل مادبره، و سلمه إلى بشاره فقتله». الموسوعه الشاميه فى تاريخ الحروب الصليبيه- ط. دمشق ۱۹۹۵ ج ۱ ص ۳۰۰.

و أقام سعد الدوله إلى أن تجدّد بينه و بين ابن عمه أبى فراس الحارث بن سعيد بن حمدان- و هو خاله- وحشه و كان بحمص.

فتوجّه سعد الدوله إليه، فانحاز إلى «صدد»(۱)، و نزل سعد الدوله بسلميه، و جمع بنى كلاب و غيرهم.

و قدّم الحاجب قرغويه و بنى كلاب على مقدّمته، مع قطعه من غلمان أبيه، فتقدّموا إلى صدد. فخرج إليهم أبو فراس و ناوشهم، و استأمن أصحابه؛ و اختلط أبو فراس بمن استأمن، فأمر قرغويه بعض غلمانه بالتّركيه بقتله، فضربه بلت مضرّس، فسقط؛ و نزل فاحتز رأسه؛ و حمله إلى سعد الدوله.

و بقيت جثته مطروحه بالبريه، حتى كفّنه رجل من الأعراب، و ذلك فى شهر ربيع من سنه سبع و خمسين و ثلاثمائه. و لطمت أمّه سخيّه حتى قلعت عينها عليه؛ و كانت أم ولد.

و خرج فى هذه السّنه فاثور(۲) للرّوم فى خمسه آلآف فارس و راجل؛ فصار إلى نواحى حلب؛ فواقعه قرغويه بعسكر حلب، فأسر قرغويه، ثم أفلت، و انهزم أصحابه؛ و أسر الرّوم جماعه من غلمان سيف الدّوله.

ثم إنّ نقفور ملك الروم خرج إلى معره النّعمان ففتحها، و أخرب

۱- صدد الآن مركز ناحيه تتبع حمص و تبعد عنها ۶۰ كم باتجاه الجنوب الشرقى، تكثر فيها الكنائس الأثريه، فى وسطها تل أثرى. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

۲- الفاثور: الجماعه فى الثغر يذهبون خلف العدو فى الطلب. القاموس.

جامعها و أكثر دورها؛ و كذلك فعل بمعرّه مصرين؛ و لكنه أمّن أهلها من القتل، و كانوا ألفا و مائتى نفس، و أسرهم، و سيّرهم إلى بلد الروم.

و سار إلى كفرطاب و شيزر، و أحرق جامعها؛ ثم إلى حماه ففعل كذلك؛ ثم إلى حمص، و أسر من كان صار إلى تلك الناحيه من الجفله.

و وصل إلى عرقه ففتحها و أسر أهلها؛ ثم نفذ إلى طرابلس و كان أهلها قد أحرقوا ربضها، فانصرف إلى جبله ففتحها؛ و منها إلى اللاذقيّه؛ فانحدر إليه أبو الحسين على بن إبراهيم بن يوسف الفصيص. فوافقه على رهائن تدفع إليه منها، و انتسب له فعرف نقفور سلفه، و جعله سردغوس(۱). و سلّم أهل اللاذقيه.

و انتهى إلى أنطاكيه، و فى يده من السبى مائه ألف رأس، و لم يكن يأخذ إلا الصبيان و الصّبايا و الشباب؛ فأما الكهول و المشايخ و العجائز فمنهم من قتله و منهم من تركه. و قيل بأنه فتح فى هذه الخرجه ثمانيه عشر منبرا. و أما القرى فلا يحصى عدد ما أخرب منها و أحرق؛ و نزل بالقرب من أنطاكيه، فلم يقاتلهم، و لم يراسلهم بشى ء.

و بنى حصن بغراس(۲) مقابل أنطاكيه و رتّب فيه ميخائيل البرجى، و أمر أصحاب الأطراف بطاعته.

۱- أى ستراتيغوس، و هو الحاكم العسكرى للمدينه.

۲- من أشهر القلاع و أكثرها حصانه، تقع على الطريق المؤديه إلى مضيق بيلان فالاسكندرونه. بغيه الطلب ج ۱ ص ۱۵۱- ۱۵۲. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

و تحدّث الناس أنه يريد أن ينازل أنطاكيه طول الشتاء، و ينفذ إلى حلب أيضا من ينازلها. فأشار الحاجب قرغويه على سعد الدوله أن يخرج من حلب، و لا يتحاصر فيها؛ فخرج إلى بالس فسيّر إليه قرغويه، و قال له:

«امض إلى والدتک، فإنّ أهل حلب لا يريدونک، و لا يترکونک تعود إليهم».

و حالف قرغويه أهل حلب على سعد الدّوله؛ و تقرّب إليهم بعماره القلعه و تحصينها، و عماره أسوار البلده و تقويتها؛ فيئس سعد الدوله من حلب؛ و مضى أکثر أصحابه إلى أبى تغلب بن ناصر الدّوله.

و قطع قرغويه الدعاء لسعد الدّوله، فعمل على قصد حرّان و المقام بها؛ فمنعه أهلها منها، و راسلهم، و وعدهم بالجميل فلم يستجيبوا له؛ فسألهم أن يتزوّد منها يومين، فأذنوا له فى ذلک. فمضى إلى والدته إلى ميّافارقين، و حرّان شاغره يدبّرها أهلها، و يخطبون لأبى المعالى سعد الدوله.

و لما قرب أبو المعالى من ميّافارقين بلغ والدته أن غلمانه و کتّابه عملوا على القبض عليها و حملها إلى القلعه، کما فعل أبو تغلب بناصر الدوله؛ فطردت الکتّاب، و أغلقت أبواب المدينه فى وجه ابنها ثلاثه أيّام حتى استوثقت منه؛ و فتحت له.

و حين علم ملک الروم بتقويه قرغويه لحلب دخل بلاده.

و أما قرغويه فاستولى على حلب فى المحرّم من سنه ثمان و خمسين و ثلاثمائه؛ و أمّر غلامّه بکجور؛ و شارکه فى الأمر؛ و دعى لهما على المنابر فى عمله. و کتب اسم بکجور على السّکه. و کان يخاطب قرغويه بالحاجب، و غلامه بکجور بالأمير.

و حصـل زهير غلاـم سـيف الـدّوله بمعرّه النّعمان، و كان و اليها؛ و انضاف إليه جماعه من غلمان سـيف الـدّوله. فأقاموا الـدّعوه بالمعرّه لسعد الدوله؛ و كاتبوا مولاهم سعد الدوله أبا المعالى و استدعوه إلى الشّام؛ فسار و نزل منبج؛ فاجتمعوا معه. و نزلوا على حلب فى شهر رمضان من سنه ثمان و خمسين و ثلاثمائه؛ و حاصروا قرغويه و بكجور. و جرت بينهم حروب يطول ذكرها.

و كتب قرغويه إلى الرّوم، فاستدعى بطريقـا كان فى أطراف بلـد الرّوم لنجـدته، و هو خادم كان لنقفور و يعرف بالطربازى(۱)؛ فسـار نحوه، ثم عـدل إلى أنطـاكيه، و ذلـك أنّ ملـك الروم لمـا نزل ببوقـا، و معه السبى و الغنائم- على ما ذكرناه- توافق هو و أهلهـا، و كـانوا نصـارى فى أن ينتقلوا إلى أنطاكيه، و يظهروا أنّهم إنّما انتقلوا خوفا من الرّوم، حتى إذا حصـلوا بها، و صار الرّوم إلى أنطاكيه وافقوهم على فتحها. ففعلوا ذلك و وافقوا نصارى أنطاكيه، و كاتبوا الطّربازى حين خرج بأن أنطاكيه خاليه، و ليس بها سلطان.

و كان أهلها من المسـلمين قد ضـيّعوا سورها، و أهملوا حراسـتها؛ فجاء الروم إليها مع الطربازى و يانس بن شمشقيق، فى أربعين ألفـا. فأحـاطوا بأنطـاكيه؛ و أهـل بوقا على أعلى السور فى جانب منه، فنزلوا و أخلوا السّور، فصـعده الرّوم و ملكوا البلـد، و ذلك لثلاث عشره ليله خلت من ذى الحجه من سنه ثمان و خمسين.

۱- هو فى تاريخ يحيى بن سعيد ص ۱۳۵« بطرس الاصطراطوبودرج»- الستراتيجوس.

و دخل الرّوم فأحرقوا و أسروا و كانت ليله الميلاد. فلمّا طلع الروم على جبلها، جعلوا يأخذون الحارس فيقولون له: «كبّر و هلّل»؛ فمن لم يفعل قتلوه؛ فكان الحرّاس يهلّلون و يكبّرون، و الناس لا يعلمون بما هم فيه، حتّى ملكوا جميع أبرجتها، و صاحوا صيحه واحده، فمن طلب باب الجنان قتل أو أسر.

و اجتمع جماعه إلى باب البحر فبردوا القفل فسلموا، و خرجوا و بنوا قلعه فى جبلها، و جعلوا الجامع صيره للخنازير(۱)؛ ثم ان البطرك جعله بستانا.

ثم إنّ الطّربازى سار إلى حلب، منجدا لقرغويه و بكجور، و أبو المعالى محاصر لهما؛ فانحاز أبو المعالى شريف عن حلب إلى خناصره، ثم إلى معرّه النّعمان.

فطمع الرّوم بحلب فنازلوها؛ و هجموا المدينه من شماليها، و حصروا القلعه.

فهادنهم قرغويه على حمل الجزيه، عن كل صغير و كبير من سكّان المواضع التى وقعت الهدنه عليها، دينار، قيمته ستّه عشر درهما إسلاميّه؛ و أن يحمل إليهم، فى كل سنه عن البلاد التى وقعت الهدنه(۲) عليها سبعمائه ألف درهم.

۱- الصيره: الحظيره.

۲- فى تاريخ يحيى بن سعيد ص ۱۳۵:« و ترددت المراسلات بينه و بين أهلها إلى أن تقرر الأمر- على صلح و هدنه مؤبده، و مال يحمل فى كل سنه إلى ملك الروم عن حلب و حمص و جميع أعمالها من المدن و القرى، و هى ثلاثه قناطير ذهب عن حق الأرض، و سبعه قناطير ذهب عن خراج هذه الأعمال، و عن كل رجل حالم دينار واحد فى السنه، سوى ذوى العاهات، و أن يكون لملك الروم صاحبا مقيما بحلب يستخرج أعشار الامتعه الوارده إليها من البلاد، و يرفعه إلى الملك».

و البلاد: حمص، و جوسيه(۱)، و سلميه، و حماه، و شيزر، و كفرطاب، و أفاميه، و معره النّعمان، و حلب و جبل السّمّاق(۲)، و معرّه مصرين، و قنّسرين، و الأثارب إلى طرف البلاط(۳) الذى يلى الأثارب و هو الرصيف، إلى إرحاب(۴)، إلى باسوفان(۵)، إلى كيمار(۶)، إلى برصايا(۷)، إلى المرج الذى هو قريب عزاز؛ و يمين الحدّ كلّه لحلب؛ و الباقى للرّوم.

۱- اسمها الآن جوسيه الخراب، تقع قرب الحدود اللبنانيه، و هى تابعه لمنطقه القصير- محافظه حمص، تبعد عن القصير ۱۱ كم إلى الجنوب. و تبعد عن حمص ۳۸ كم إلى الجنوب الغربى منها. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

۲- هو جبل الأربعين الآن.

۳- الطريق الرومانى المرصوف، و يوجد الآن مزرعه فى منطقه حارم اسمها البلاط. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

۴- إرحاب قريه فى جبل سمعان، تتبع ناحيه داره عزه، و تتصل بها بطريق مزفته طولها ۹ كم. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

۵- على مقربه من دير سمعان.

۶- تقع كيمار على بعد ۱۲ كم من باسوفان.

۷- جبل برصايا:« جبل عال شامخ شمالى عزار، يشرف على بلد عزاز و كوره الأرتيق، و هو من أبهى البقاع منظرا، و أرقها هواء». و اسم هذا الجبل الآن برصه، و يقع على بعد ۵ كم شمال مدينه أعزاز، يمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى بطول ۵ كم و عرض أقصى ۵، ۳ كم. بغيه الطلب ج ۱ ص ۴۳۷. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

و من برصایا یمیل إلی الشّرق، و یتصل وادی أبی سلیمان إلی فج سنیاب(۱)، إلی نافوذا، إلی أوانا، إلی تلّ حامد(۲)؛ إلی یمین السّاجور، إلی مسیل الماء إلی أن یمضی و یختلط بالفرات.

و شرطوا أن الأمیر علی المسلمین قرغویه؛ و الأمر بعده لبکجور؛ و بعدهما ینصب ملک الروم أمیرا یختاره من سکّان حلب. و لیس للمسلمین أن ینصبوا أحدا، و لا یؤخذ من نصرانی جزیه فی هذه الأعمال، إلا إذا کان له بها مسکن أو ضیعه.

و إن ورد عسکر إسلامیّ یرید غزو الروم منعه قرغویه، و قال له:

«امض من غیر بلادنا، و لا تدخل الهدنه». فإن لم یسمع أمیر ذلک الجیش قاتله، و منعه؛ و إن عجز عن دفعه کاتب ملک الروم و الطربازی لینفذ إلیه من یدفعه.

و متی وقف المسلمون علی حال عسکر کبیر کتبوا إلی الملک و إلی رئیس العسکر، و أعلموهما به لینظروا فی أمرهما.

و إن عزم الملک أو رئیس العسکر علی الغزاه إلی بلد الاسلام، تلقّاه

۱- تحدث ابن العدیم عن مخارج نهر قویق فقال:« و المخرج الآخر یجتمع من عیون ماء من سنیاب» و قال یاقوت: و سألت عن سنیاب« بحلب فقالوا: لا نعرف هذا الاسم، انما مخرجه من شناذر، قریه علی سته أمیال من دابق». بغیه الطلب ج ۱ ص ۳۴۷. معجم البلدان- ماده قویق.

۲- تل حامد: حصن فی ثغور المصیصه، و یرجح أن« حامد» تصحیف« خالد» و تل خالد من القلاع الهامه القریبه من حلب. معجم البلدان.

بكجور إلى المكـان الـذى يؤمر بتلقيه إليه؛ و أن يشيّعه فى أعمـال الهـدنه؛ و لاـ يهرب من فى الضّـياع ليبتاع العسـكر الرّومى ما يحتاجون إليه، سوى التبن؛ فانه يؤخذ منهم على رسم العساكر بغير شى ء.

و يتقدم الأمير بخدمه العساكر الرّوميّه إلى الحدّ؛ فإذا خرجت من الحدّ عاد الأمير إلى عمله؛ و إن غزا الروم غير ملّه الإسـلام سار إليه الأمير بعسكره، و غزوا معه كما يأمر.

و أىّ مسلم دخل فى دين النصرانيّه فلا سبيل للمسلمين عليه؛ و من دخل من النّصارى فى ملّه الإسلام فلا سبيل للرّوم عليه.

و متى هرب عبد مسلم أو نصرانى، ذكرا كان أو أنثى، من غير الأعمال المذكوره إليها، لا يستره المسلمون، و يظهرونه، و يعطى صاحبه ثمنه: عن الرّجل ستّه و ثلاثون دينارا؛ و عن المرأه عشرون دينارا روميه؛ و عن الصبىّ و الصبيّه خمسّه عشر دينارا؛ فان لم يكن له ما يشتريه أخذ الأمير من مولاه ثلاثه دنانير؛ و سلّمه إليه. فإن كان الهارب معمدا فليس للمسـلمين أن يمسكوه؛ بل يأخذ الأمير حقّه من مولاه؛ و يسلّمه إليه.

و إن سرق سارق من بلاد الرّوم، و أخفى هاربا أنفذه الأمير إلى رئيس العسكر الرومىّ ليؤدّبه.

و إن دخل رومىّ إلى بلد الإسلام فلا يمنع من حاكى.

و إن دخل من بلد الإسلام جاسوس إلى بلد الروم أخذ، و حبس.

و لا يخرب المسلمون حصنا؛ و لا يحدثوا حصنا؛ فإن خرب شى ء

أعادوه. و لا يقبل المسلمون أميرا مسلما؛ و لا يكاتبوا أحدا غير الحاجب و بكجور. فإن توفّيا لم يكن لهم أن يقبلوا أميرا من بلاد الإسلام؛ و لا يلتمسوا من المسلمين معونه؛ بل ينصب لهم من يختاره من بلاد الهدنه.

و ينصب لهم الملك بعد وفاه الحاجب و بكجور قاضيا منهم، يجرى أحكامهم على رسمهم.

و للرّوم أن يعمروا الكنائس الخربه فى هذه الأعمال، و يسافر البطارقه و الأساقفه إليها، و يكرمهم المسلمون.

و إنّ العشر الذى يؤخذ من بلد الرّوم، يجلس عشّار الملك مع عشّار قرغويه و بكجور فمهما كان من التجاره من الذهب، و الفضه، و الديباج الروميّ، و القزّ غير معمول، و الأحجار، و الجوهر، و اللؤلؤ، و السندس عشّره عشّار الملك. و الثياب، و الكتّان، و المزبون(۱)، و البهائم، و غير ذلك من التجارات يعشّره عشّار الحاجب و بكجور بعده؛ و بعدّهما يعشّر ذلك كلّه عشّار الملك.

و متى جاءت قافله من الرّوم، تقصد حلب، يكتب الزروار(۲) المقيم فى الطرف إلى الأمير؛ و يخبره بذلك لينفذ من يتسلّمها، و يوصلها إلى حلب. و إن

۱- ثوب على تقطيع البيت كالحجله. القاموس.

۲- تحدث ابن الحوقل عن المراتب فى القسطنطينيه فقال:« ثم الدمستق من بعده، ثم البطارقه و هم اثنا عشر رجلا لا ينقصون و لا يزيدون بوجه، و إذا هلك أحدهم قام مقامه من يصلح له، ثم الزراوره و هم كثره لا يحصون كالقواد اللاحقين بالأمراء، ثم الطرامخه» صوره الأرض- . بيروت، دار مكتب الحياه ص ۱۷۸.

قطع الطريق عليها بعد ذلک، فعلى الأمير أن يعطيهم ما ذهب. و كذلک إن قطع على القافله أعراب أو مسلمون فى بلد الأمير، فعلى الأمير غرامه ذلک.

و حلف على ذلک جماعه من شيوخ البلد مع الحاجب و بکجور؛ و سلم إليهم رهينه من أهل حلب: أبو الحسن بن أبى أسامه؛ و كسرى بن كسور؛ و ابن أخت ابن أبى عيسى، و أخو أبى الحسن الخشّاب، و أبو الحسن بن أبى طالب، و أبو الطّيب الهاشمىّ، و أبو الفرج العطّار، و يمن غلام قرغويه. و كان المتوسّط فى هذه الهدنه رجل هاشمىّ من أهل حلب يقال له طاهر.

و عادت الروم عن حلب؛ و بقى الحاجب قرغويه فى ولايتها، و التدبير إليه و إلى غلامه بکجور؛ و ذلک فى صفر من سنه تسع و خمسين و ثلاثمائه.

و أقام سعد الدوله أبو المعالى بمعرّه النّعمان ثلاث سنين؛ و راسله الحاجب و بکجور و مشايخ حلب، فى سنه ثمان و خمسين، على أن يؤدى إلى الروم قسطا من مال الهدنه، و كان القيّم بأمر أبى المعالى و عسكره رقطاش غلام سيف الدوله؛ و كان قد نزل إليه من حصن برزويه؛ و حمل إليه غلّه عظيمه و علوفه و طعاما؛ و وسّع على عسكره بعد الضّائقه.

و لم يؤدّ سعد الدوله ما هو مقرّر من مال الهدنه على البلاد التى فى يده، فخرج الروم و هجموا حمص على غفله.

و قيل: إن سعد الدوله استولى على حلب فى سنه ثلاث و ستين، و وصله فى شهر ربيع الأول رسول العزيز و أبو القاسم أحمد بن إبراهيم الرسى من مصر؛ فأقام الدعوه له بحلب فى هذه السنه؛ و أرسل معه إلى مصر فى

جواب الرساله قاضی حلب؛ و أظنه ابن الخشاب الهاشمی.

و وصل إلیه بکجور من حلب و هو بحمص؛ فخلع علیه أبو المعالی؛ و ولاه حلبّ؛ و أقیمت له الدعوه فیها و فی سائر عملها؛ فوافق بکجور و غلمان سیف الدوله علی القبض علی مولاه قرغویه و قصد أبی المعالی، و قلعه من حمص؛ فقبض علیه. و سار أبو المعالی إلی حلب.

و قیل: دام الأمر بحلب مردودا إلی قرغویه و بکجور، فأحبّ الأمیر أبو الفوارس بکجور الحاجبیّ الکاسکّی التفرد بالأمر دون مولاه؛ و حدّث نفسه بالقبض علیه، فقبض علیه و غدر به، فی ذی الحجه من سنه أربع و ستین و ثلاثمائه. و استولی علی حلب، و انفرد بالأمر، و جعل الحاجب محبوسا بقلعه حلب.

کان سعد الدوله إذ ذاک بحمص، فحین علم بذلک طمع بحلب، فتوجّه إلیها و معه بنو کلاب، بعد أن أقطعهم بحمص الاقطاع المعروف بالحمصیّ؛ فنزل بهم علی معرّه النعمان، و بها زهیر الحمدّانی، و قد استولی علیها، و عصی علی مولاه؛ ففتح باب حناک(۱)؛ و دخلوا منه فقاتلهم زهیر، و أخرجهم. ثم أحرقوا باب حمص؛ فخرج زهیر مسلما نفسه بعد أن حلف له کبار الحمدانیّه انّهم لا یمکنوا أبا المعالی منه. فلمّا حصل معه غدر به فتغیّرت

۱- نسبه إلی بلده اسمها حناک؛ هی الآن خربه أثریه فی جبل الزاویه، تابعه لمنطقه معره النعمان. المعجم الجغرافی للقطر العربی السوری.

وجوه الحمدانيّه؛ فأمرهم بنهب الحصن فنهبوا ما فيه؛ و أنفذ زهيرا إلى حصن أفاميه؛ فقتل هناك.

و سار أبو المعالى؛ و نزل بهم على باب حلب؛ و حاصرها مده فاستنجد بكجور بالرّوم؛ و ضمن لهم تسليم حلب و أموالا كثيره؛ فتخلّوا عنه. و كان نقفور- لعنه اللّه- قد قتل على ما شرحناه.

و جدّ سعد الدوله فى حصارها و القتال، فسلم إليه بعض أهل البلد المرتبين فى مراكز البلد برج باب الجنان؛ و رميت أبواب الحديد، و فتحها بالسيف فلم يرق فيها دما و أمن أهلها.

و انهزم بكجور إلى القلعه فاستعصى بها، و ذلك فى رجب من سنه خمس و ستين و ثلاثمائه.

ثم أقام سعد الدوله يحاصر القلعه مده حتى نفد ما فيها من القوت؛ فسلّمها بكجور إليه، فى شهر ربيع الآخر من سنه سبع و ستين و ثلاثمائه.

و ولّى سعد الدوله بكجور حمص و جندها؛ و كان تقرير أمر بكجور بين سعد الدّوله و بينه، على يد أبى الحسن علىّ بن الحسين بن المغربى الكاتب، والد الوزير أبى القاسم.

و استقر أمر سعد الدّوله بحلب؛ و جدّد الحلبيون عماره المسجد الجامع بحلب؛ و زادوا فى عماره الأسوار فى سنه سبع و ستين.

و غيّر سعد الدّوله الأذان بحلب؛ و زاد فيه: «حىّ على خير العمل؛

محمّد و علیّ خیر البشر». و قیل: إنه فعل ذلک فی سنه تسع و ستین و ثلاثمائه، و قیل: سنه ثمان و خمسین.

و سیّر سعد الدّوله فی سنه سبع و ستین و ثلاثمائه الشریف أبا الحسن اسماعیل بن النّاصر الحسنیّ یهنی ء عضد الدّوله بدخوله مدینه السلام، و انهزام بختیار بین یدیه؛ فوجّه إلیه بتکنیه الطائع؛ و وصلته خلعه منه و لقب بسعد الدوله فلبس الخلعه.

و وصل معها خلع من عضد الدّوله أیضا؛ و خاطبه فی کتابه:

«بسیدی، و مولای، و عدتی» فمدحه أبو الحسن محمّد بن عیسی النّامی بقصیده أوّلها:

هوی فی القلب لا عجه دخیل

و کان أبو صالح بن نانا الملقّب بالسّدید قد وزر لسعد الدّوله، فانفصل عنه فی سنه إحدی و سبعین؛ و مضی إلی بغداد فاستوزر مکانه أبا الحسن بن المغربی.

و نزل فردس الفقاس الدمستق علی حلب، فی شهر جمادی الأولی من سنه إحدی و سبعین، و وقع الحرب علی باب الیهود فی الیوم الثانی من نزوله.

و طالب سعد الدّوله بمال الهدنه، و تردّدت المراسله بینهما، و استقرّ الأمر علی أن یحمل إلی الروم کلّ سنه أربعمائه ألف درهم فضّه، و رحل فی الیوم الخامس من وصوله.

و فی یوم الخمیس السّابع عشر من شهر ربیع الآخر من سنه ثلاث و سبعین و ثلاثمائه، نزل بردس الدمستق علی باب حلب فی خمسمائه ألف ما بین فارس و راجل؛ و کان قد ضمن لباسیل و قسطنطین ملکی الروم الأخوین أن یفتتح حلب، و ینقض سورها حجرا حجرا؛ و أنه یحمل سبیها إلی القسطنطینیّه.

و احتفل جمعا و حشد من المجانیق و العرّادات ما لا یحصی کثره. و أقام بالحدث أیّاما، یرهب الناس، و یهوّل علیهم؛ و سعد الدوله بحلب غیر محتفل به.

ثم إنّه أقبل و علی مقدمته ملک الجزریه تریثاویل(۱)؛ و علی میمنته و میسرته البطارقه فی الحدید السابغ؛ فارتاع النّاس لذلک؛ و بثّ سرایاه، و سعد الدّوله قد أمر الغلمان بلبس السلاح؛ فدام علی هذا ثلاثه أیام؛ ثم صفّ لقتال البلد؛ و سعد الدوله لا یخرج إلیه أحدا حتی استحکم طمعه.

ثم إنّه أمر غلمانه بالخروج إلیهم فی الیوم السابع، فحملوا حمله لم یر أشد منها؛ و قتلوا فیها ملک الجزریه تریثاویل؛ و کان عمده عسکرهم؛ فعند ذلک اشتدّ القتال.

و أمر سعد الدوله عسکره بالخروج إلیه، فالتقّوا فی المیدان فرجع عسکره أقبح رجوع، و علیه الکآبه؛ و سیّر سعد الدّوله جیشه خلفه حتّی بلغت عساکره أنطاکیه.

۱- کتب بهامش الأصل Taritaouil .

و كـان الجيش مع وزيره أبى الحسن علىّ بـن الحسـين بن المغربى؛ فافتتـح فى طريقه دير سـمعان عنـوه بالسـيف؛ و خرّب دير سمعان؛ و كان بنيه عظيمه و حصنا قويا؛ و قد ذكر ذلك الواسانىّ فى بعض شعره.

و قيل: إنّ الدمستق رأى فى نومه المسيح، و هو يقول له مهدّدا:

«لاـ تحاول أخـذ هـذه المـدينه، و فيها ذلك الساجـد على الترس». و أشار إلى موضـعه فى البرج الـذى بين باب قنّسرين، و برج الغنم، فى المسـجد المعروف بمشهد النّور. فلمّا أصبح ملك الرّوم سأل عنه فوجده ابن أبى نمير عبد الرزاق بن عبد السلام العابد الحلبىّ، و كان ذلك سببا لرحيله عن حلب(۱).

و قيل: إنّه صالح أهل حلب و رحل.

۱- قال ابن العديم فى بغيه الطلب ج ۱ ص ۴۶۱- ۴۶۲:« هذا مشهد النور إنما سمى بذلك لأنه رئى النور ينزل عليه مرارا، قال: و كـان ابن أبى نمير العابـد يتعبـد فيه، فـاتفق أن نزل ملـك الروم على حلب محاصـرا لها، فجاء الحلبيون إلى ابن أبى نمير العابـد، فقالوا: ادع اللّه لنا أيها الشيخ، قال: فسـجد على ترس كان عنده، و دعا اللّه تعالى، و سأله دفع العدو عن حلب، فرأى ملك الروم فى منامه تلك الليله قائلا يقول له: ارحل عن هـذه البلده، و إلا هلكت، أتنزل عليها و فيها الساجد على الترس فى ذلك البرج، و أشار إلى البرج الذى فيه مشهد النور- و هو بالقرب من باب قنسرين فى برج من أسوار حلب، فيما بين برج الغنم و باب قنسرين. فـانتبه ملـك الروم، و ذكر المنام لأصـحابه، و صالـح أهل حلب، و قال: لا أرحل حتى تعلمونى من كان الساجـد على الترس فى ذلك البرج، فكشفوا عنه فوجدوه ابن أبى نمير، و رحل ملك الروم عن حلب ... و هذا ابن أبى نمير هو أبو عبيد اللّه عبد الرزاق بن عبد السلام بن عبد الواحد بن أبى نمير العابد الأسدى».

و قيل: هذا كان فى نزول أرومانوس على تبّل، سنه إحدى و عشرين و أربعمائه.

و كـان ابن أبى نمير من الأوليـاء الزهّـاد و المحـدّثين العلمـاء؛ و توفى بحلب فى سـنه خمس و عشـرين و أربعمـائه؛ و قبره بباب قنّسرين.

و يحتمـل أن يكون فى سـنه إحـدى و سـبعين، حين نزل فردوس على حلب و رحـل عنها عن صـلح، فى سـنه اثنتين و سـبعين و ثلاثمائه؛ فطلب من العزيز أن يوليه دمشق؛ و كاتب العزيز(۱) فى إنفاذ عسكر ليأخذ له حلب؛ فأنفذ إليه عسكرا، فنزل على حلب إلى أن نزل الدمستق أنطاكيه؛ فخاف أن يكبسه، فرحل عنها.

و لمـا يئس الدمسـتق من حلب، و خـاف على نفسه أن يقتله ملـك الروم، خرج إلى جهه حمص، فهرب بكجـور من حمص إلى جوسـيه، فكاتب الدمسـتق أهل حمص بالأمان؛ و أظهر لهم أنّه يسير إلى دمشق، و أنّه مهادن لجميع أعمال سعد الدّوله، فاطمأنوا إلى ذلك؛ و أمرهم بإقامه الزاد و العلوفه.

و هجم حمص فى ربيع الآخر من سنه ثلاث و سبعين و ثلاثمائه؛ و أحرق الروم الجامع، و كثيرا من البلد.

و كان استوحش أبو المعالى من بكجور، فأمره أن يترك بلده و يمضى.

و صعد بكجور إلى دمشق فوليها فى هذه السنه- أعنى سنه ثلاث- من

۱- العزيز الفاطمى ثانى الخلفاء الفاطميين فى مصر ۳۶۵- ۳۸۶ ه/ ۹۷۵- ۹۹۶ م].

قبل المصـريين، و جار على أهل دمشق، و ظلّم، و جمع الأموال لنفسه، فجرد إليه عسـكر من مصر مع منير الخادم فى سنه ثمان و سبعين.

و كان بكجور يخاف من أهل دمشق لسوء سـيرته؛ فبعث بعض عسـكره؛ فكسره منير، فأرسل إليه بكجور و بذل له تسليم دمشق، و الإنصراف عنها؛ فأجابه إلى ذلك؛ فرحل عن دمشق متوجها إلى حوّارين، فى شهر رجب من سنه ثمان و سبعين.

و مضـى إلى الرقه؛ و أقام فيها الدعوه للمصريين(۱). و كان سـعد الدّوله قد انتمى إلى المصـريين؛ و أقام الدعوه لهم بحلب، فى سنه ستّ و سبعين و ثلاثمائه، و وصلته خلع العزيز أبى المنصور، فى شعبان من هذه السنه فلبسها.

و مات الأمير قرغويه بحلب فى سنه ثمانين و ثلاثمائه.

ثم إنّ بكجور قوى أمره و اسـتفحل؛ و أخذ إليه أبا الحسن علىّ بن الحسـين المغربىّ؛ و اسـتوزره لمباينه حصـلت بينه و بين سعد الدّوله. و عاث على أعمال سـعد الدّوله؛ و جمع إليه بنى كلاب؛ و استغوى بنى نمير؛ فبرز مضرب الأمير سعد الدوله، يوم السبت الثانى و العشرين من محرّم سنه إحدى و ثمانين، إلى ظاهر باب الجنان.

و سار يوم السّبت سلخ المحرّم، على أربع ساعات؛ و قد كان بكجور

۱- لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ دمشق لابن القلانسى ص ۵۰- ۵۴.

سار إلى بالس، و حاصر من كان بها فامتنعوا عليه؛ فقصده سعد الدّوله، و التقوا على النّاعوره، فى سلخ المحرّم من سنه إحدى و ثمانين و ثلاثمائه.

و هزم بكجور، و هرب، و اختفى عند رحا القديمى(١) على نهر قويق، و بثّ سعد الدّوله الناس خلفه، و ضمن لمن جاء به شيئا وافرا، فظفر به بعض الأعراب، و أتى به إلى سعد الدوله، فضرب عنقه صبرا بين يديه، ببندر النّاعوره، و صلبه على سبع ساعات من يوم الأحد مستهلّ صفر.

و رحل سعد الدّوله يوم الثلاثاء إلى بالس فوجد بكجور قد أخرب ربضها، فأقام بها أربعه أيّام.

و رحل حتّى أتى الرقه، و بها حرم بكجور و أمواله و أولاده، فتلقّاه أهل الرّقه بنسائهم، و رجالهم، و صبيانم، فأقام بها بقيّه يومه.

و نزل أهل الرقه، فاحتاطوا بحرم بكجور و أولاده، فآمنهم سعد الدوله، فى اليوم التّاسع من صفر، و تنجّزت أمورهم إلى يوم الخميس الثّانى عشر منه. و رضى عن أولاده، و اصطنعهم، و وهب لهم أموال بكجور، و حلف لهم على ذلك، فمدحه أبو الحسن محمد بن عيسى النّامى بقصيده أوّلها:

غرائز الجود طبع غير مقصودو لست عن كرم يرجى بمصدود

١- تفاصيل ما أوجزه ابن العديم هنا متوفر عند ابن القلانسى ص ۵٨- ۶۵، و عنده« و وافى بكجور إلى رحا تعرف بالقيريمى على فرسخ من حلب مما يلى قنسرين».

و لمّـا خرج أولاـد بكجور بأموالهم و آلاتهم استكثرها سعد الـدّوله، فقال له وزيره أبو الهيثم بن أبى حصـين: «أنت حلفت لهم على مال بكجور، و من أين لبكجور هذا المال؟ بل هذه أموالك». فغدر بهم، و نكث فى يمينه، و قبض مال بكجور إليه، و كان مقداره ثمانمائه ألف دينار، و صادر نواب بكجور، و استأصل أموالهم.

ثم عاد إلى حلب فأصابه الفالـج فى طريقه. و قيل: أصابه فى طريقه قولنـج فدخل إلى حلب، و عولج فبرى ء. ثم جامع جاريه له، فأصابه الفالج، و استدعى الطبيب، و طلب يده ليجسّ نبضه، فناوله اليسرى، فقال:

«اليمين» فقال: «ما أبقت اليمين يمين» يشير إلى غدره، و نكثه فى اليمين التى حلفها لأصحاب بكجور.

و كـان مبـدأ علّته لأـربع بقين من جمـادى الأـولى، و مـات ليله الأحـد لأـربع بقين من شـهر رمضان من سـنه إحـدى و ثمانين و ثلاثمائه و حمل فى تابوت إلى الرّقه، و دفن(۱) بها.

و كان قاضـى حلب فى أيامه أبا جعفر أحمد بن اسحاق قاضى أبيه؛ ثم ولى قضاءها رجل هاشمىّ يقال له ابن الخشاب؛ ثم ولى الشّـريف أبو علىّ الحسن بن محمد الحسـينى والد الشّريف أبى الغنائم النسّابه؛ و كان زاهدا عالما ولاه سعد الدّوله قضاء حلب و عزل ابن الخشّاب عنه فى سنه ثلاث و ستّين؛

۱- فى ابن القلانسى ص ۶۷:« و حمل تابوته و دفن فى المشهد ظاهرها» و المشهد هو للامام على كرم اللّه وجهه و بعض شهداء صفين، و هو بجوار ما يعرف الآن بباب بغداد فى مدينه الرقه.

و دام فی ولایته إلی تسع و سبعین و ثلاثمائه؛ و ولی بعده أبو محمد عبید اللّه بن محمد.

و کان العزیز أرسل إلی سعد الدوله یسأله إطلاق أولاد بکجور و تسییرهم إلی مصر فأهان الرسول، و لم یقبل الشفاعه، ورد علیه جواب متوعد متهدّد.

[عهد سعيد الدوله]

[عهد سعيد الدوله](١)

ثم إنّ غلمان سعد الدوله ملّكوا ابنه أبا الفضائل سعيدا؛ و لقبوه سعيد الدّوله؛ و نصبوه مكان أبيه فى يوم الأحد. و صار المدبّر له و صاحب جيشه من الغلمان الأمير أبو محمد لؤلؤ الكبير السيفى، فاستولى على الأمور و زوّج ابنته سعيد الدوله، فرفع المظالم و الرسوم المقرّره على الرعيّه من مال الهدنه. وردّ الخراج إلى رسمه الأوّل؛ وردّ على الحلبيين أملاكا كان اغتصبها أبوه و جدّه.

و طمع العزيز صاحب مصر فى حلب؛ فاستصغر سعيد الدوله بن سعد الدوله، فكتب إلى أمير الجيوش بنجوتكين التركى؛- و كان أمير الجيوش واليا بدمشق من قبل العزيز- و أمره بالمسير إلى حلب و فتحها، فنزل فى جيوش عظيمه، و مدّبر الجيش أبو الفضائل صالح بن علىّ الرّوذبارى.

فنزل على حلب فى سنه اثنتين و ثمانين و ثلاثمائه؛ و فتح حمص و حماه فى طريقه، و حصر حلب مده، فبذل له سعيد الدّوله أموالا كثيره على أن يرحل عنه و على أن يكون فى الطّاعه، و يقيم الدعوه، و يضرب السكّه باسم العزيز، و يكتب اسمه على البنود فى سائر أعماله.

١- أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

فامتنع من قبول ذلک و قاتل حلب ثلاثه و ثلاثین یوما، و ضجر أهل حلب فقالوا لابن حمدان: «إمّا أن تدبّر أمر البلد و إلا سلّمناه». فقال:

«اصبروا علیّ ثلاثه أیّام، فإنّ البرجی والی انطاکیه قد سار إلی نصرتی فی سبع صلبان»(۱). فبلغ ذلک بنجوتکین، فاستخلف بعض أصحابه و هم: بشاره القلعی، و ابن أبی رماده، و معضاد بن ظالم، فی عسکر معهم کبیر علی باب حلب.

و سار فالتقی البرجی عند جسر الحدید، و بنجوتکین فی خمسه و ثلاثین ألفا و الروم فی سبعین ألفا، فانهزم البرجی؛ و أخذ بنجوتکین سواده و قتل من أصحابه مقتله عظیمه، و أسر خلقا کثیرا(۲).

فانحاز ابن أخت البرجیّ إلی حصن عمّ(۳)، فسار بنجوتکین إلی «عمّ»، فقاتل حصنها، و فتحه بالسیف؛ و أسر منها ابن أخت البرجی، و والی الحصن، و ثلاثمائه بطریق، و حصل عنده ألفا فارس و غنم من «عمّ» مالا کثیرا، و أحرقها و ما حولها؛ و وجد فی «عمّ» عشره آلاف أسیر من المسلمین فخرجوا و قاتلوا بین یدیه.

و سار إلی أنطاکیه فاستاق من بلدها عشره آلآف جاموس، و من البقر

۱- الصلیب الرایه لحملها شاره الصلیب، و قصده هنا أنه توجه نحوه فی سبع قطع عسکریه.

۲- قدم ابن القلانسی ص ۷۰- ۷۱، تفاصیل زائده علی ما أوجزه ابن العدیم.

۳- عم الآن فی ترکیه و اسمها ینی شهر، و هی مزرعه تتبع قضاء الریحانیه لواء الاسکندرونه، تکثر فیها الینابیع التی تشکل برکه عم إلی الجنوب من مدینه الریحانیه ب ۳ کم. المعجم الجغرافی للقطر العربی السوری.

و المواشی عددا لا یحصی؛ و سار من ظاهر أنطاکیه فی بلاد الروم حتی بلغ مرعش؛ فقتل، و أسر، و غنم، و خرّب، و أحرق.

و عاد إلی عسکره علی باب حلب المعروف بباب الیهود، و قاتلها من جمیع نواحیها، و کان هذا فی جمادی الأولی و جمادی الآخره، فأقام علی حلب إلی انقضاء سنه اثنتین و ثمانین و ثلاثمائه، و عاد إلی دمشق.

ثم إنّه عاد، و خرج من دمشق فی سنه ثلاث و ثمانین و ثلاثمائه، و مدّبر الجیش أبو سهل منشا بن ابراهیم الیهودی القزّاز؛ فنزلوا شیزر و قاتلوها، و فتحوها، و أمّنوا سوسن الغلام الحمدانی- و کان والیا بها- و جمیع من کان معه.

و سار بنجوتکین إلی أفامیه، فتسلمها من نائب سعید الدوله ثم [سار] أمیر الجیوش بمن انتخبه من العسکر إلی أنطاکیه، فغنموا بقرا و غنما، و رماکا(۱) و جوامیس؛ و بلغوا نواحی بوقا، و قطعوا بغراس؛ و عاد العسکر إلی الرّوج(۲) ثم إلی أفامیه.

و سار إلی دمشق، و سیّر العزیز أبا الحسن علی بن الحسین بن المغربیّ الکاتب، الذی کان وزیرا لسعد الدوله أبی المعالی مره، و فارقه عن وحشه- و هو والد الوزیر أبی القاسم بن المغربی- فی المحرم من سنه أربع و ثمانین

۱- جمع رمکه و هی الفرس تتخذ للنسل.

۲- فی معجم البلدان: الروح: کوره من کور حلب المشهوره فی غربیها و بین المعره، و لها ذکر فی الأخبار». و أرجح أن یقال: فی جنوبی أنطاکیه بینها و بین أفامیه.

و ثلاثمائه، من مصر إلى بنجوتكين ليجعله مدبّر جيشه و الناظر فى أعمال الشام إن فتحت، لخبرته بتلك الناحيه. و سار معه عسكر كثير فوصل إلى دمشق.

و سار منها بنجوتكين و ابن المغربى فى ثلاثين ألف مقاتل، فوصلوا إلى ظاهر حلب فى شهر ربيع الآخر، و ضيّق عليها بالحصار، فاستنجد سعيد الدوله و لؤلؤ بالروم، فخرج البطريق البرجىّ والى أنطاكيه بعساكر الروم فنزل بالأرواج؛ على المقطعات على المخاض، و بثّ سراياه؛ و رتّب قوما يغيرون على أعمال حلب و يمنعون المتعلّفه.

و سار بنجوتكين فنزل مقابلهم، و سار عسكر حلب و فيهم الأمير رباح الحمدانىّ و كبار الحمدانيه، فنزلوا مع الرّوم على مخاضه أخرى؛ فقطع المغاربه الماء، و عبروا إليهم، و أنفذ بنجوتكين العرب مع قطعه من عسكره للقاء الحلبيين؛ فحين أشرفوا عليهم انهزموا عن المخاضه، و نهبتهم العرب.

فحين شاهد الروم ذلك انهزموا، و تخلّوا عن البرجى؛ و اضطروه إلى الهزيمه؛ و تبعهم المغاربه مع بنجوتكين فى يوم الجمعه لست خلت من شعبان سنه أربع و ثمانين و ثلاثمائه؛ فظفر بهم، و غنم الأموال و الرجال و الخيل التى لا تحصى؛ و قتل خلقا كثيرا، و أسر خلقا كثيرا من الروم، و سار فنزل على عزاز فأخذها.

ثم عاد إلى حصار حلب فبنى مدينه بازائها و شتى بها؛ و آثار العماره التى تظهر حول نهر قويق هى آثار تلك العمائر؛ و لم يزل على حلب إلى أن انقضت سنه أربع و ثمانين؛ و كان حصارهم حلب أحد عشر شهرا، و أكلوا الخيل و الحمير.

و أنفذ أبو الفضائل سعيد الدوله و لؤلؤ: أبا عليّ بن دريس إلى باسيل ملك الروم بالقسطنطينيه، يستنجدانه؛ و كانت له على حلب قطيعه تحمل إليه؛ و قالا له: «ما نريد منك قتالا دائما نريد أن تجفله».

فخرج باسيل فی ثلاثه عشر ألفا، و عسكر بنجوتكين لا خبر معهم لباسيل فسير باسيل جواسيس، و قال لهم: «امضوا إلى العسكر، و أعلموهم بی». و كانت دوابّ أمير الجيوش بمرج أفاميه، فی الربيع؛ فلما أخبر الجواسيس عسكر أمير الجيوس بوصول باسيل إلى العمق(۱)، ضرب جميع آلته بالنار، و رحل إلى قنّسرين، فصار هزيمه.

و جاء باسيل ملك الروم، فنزل موضعهم، فلم يمله؛ و كان قد خرج أبو الفضائل إلى ملك الروم؛ و شكره على ما فعل من رحيل بنجوتكين، و معه هديّه جليله القدر؛ فقبلها منه، ثم أعادها إلى حلب و وهب له القطيعه التی كانت له على حلب فی تلك السنه، فقال قسطنطين لأخيه الملك باسيل: «خذ حلب؛ و الشام ما يمتنع منك». فقال: «ما تسمع الملوك أنی خرجت أعين قوما فغدرت بهم». فقال له بعض أصحابه: «ليست حلب غاليه بغدره». فقال الملك: «بلى ولو أنها الدنيا»(۲).

۱- العمق سهل داخلی فی لواء اسكندرونه يقع بين جبال حلب و سمعان و حارم شرقا، و جبال الأمانوس أو اللكام غربا، و بين اللجه و وادی نهر الأسود شمالا، و هضبه القصير جنوبا، يبلغ أقصى امتداد له ۳۰ كم بين الشمال و الجنوب و ۲۵ كم بين الشرق و الغرب، كان يشغل مستنقع العمق منه مساحه ۲۲ ألف هكتار، و بحيره أنطاكيه ۱۰ آلاف هكتار، و يجری بالسهل عده أنهار. المعجم الجغرافی للقطر العربی السوری.

۲- كان الامبراطور باسيل الثانی عندما سمع بأخبار حصار حلب معسكر بعيدا عن القسطنطينيه- يحارب البلغار، فترك أرض المعركه، و حث الخطا نحو حلب بمن خف معه من قواته، فقطع مسافه ثلاثمائه فرسخ فی سته عشر يوما حتى وصل إلى حلب، حيث أخذ القوات الفاطميه على حين غره و أجبرها على رفع الحصار و الانسحاب ... انظر كتابی إماره حلب- ط. دمشق، دار الكتاب العربی ص ۳۷.

و كـان إذا خرج أبو الفضائـل إلى ملـك الروم أقـام لؤلؤ بحلب؛ و إذا خرج لؤلؤ أقـام أبو الفضائـل. و كـان قـد ضاق صـدر أبى الفضائل لطول الحصار، و أراد تسليم حلب إلى بنجوتكين.

فتوجّع لؤلؤ فركب إليه أبو الفضائل يعوده، فحجبه ساعه، فشقّ عليه، و انصرف مغضبا فلحقه لؤلؤ و قال له: «ما كنت عليلا، و إنّما أردت أن أعلمـك أنـك متى مضـيت إلى غير هـذا البلـد انك تحجب على أبواب الناس، و قـد شقّ عليك أنى حجبتك، و أنا عبدك، و البلد بلدك». فرجع إلى قول لؤلؤ.

و عصـى ربـاح السـيفىّ بالمعرّه على مولاه أبى الفضائل؛ فخرج إليه مع لؤلؤ فى سـنه ست و ثمانين، و انحاز إلى المغاربه، فخرج أبو الفضائل و لؤلؤ و حصراه مده، فورد بنجوتكين لنجدته فانهزما و دخلا حلب.

و خرج بسـيل إلى أفاميه بعد وقعه جرت للروم مع المغاربه فجمع عظام القتلى من الروم، و صلّى عليهم و دفنهم، و سار إلى شيزر ففتحها بالأمان من المغاربه، و ذلك فى سنه تسع و ثمانين و ثلاثمائه.

و سار ملك الروم إلى وادى حيران(۱)، فسبى منه خلقا عظيما من

۱- كـذا بالأصل و أرجـح أنها تصـحيف حيلان، هـذا و قال ياقوت: حيران: كأنه جمع حير، و هو مجتمع الماء، و اسم ماء ما بين سلميه و المؤتفكه، ذكره ابو الطيب المتنبى.

المسلمين؛ و خرج إليه أبو الفضائل من حلب إلى شيزر، فأكرمه و قال له:

«قد وهبت لک حلب». و وهب لأبى الفضائل فى جمله ما وهبه سطيل ذهب، و قال له: «اشرب بهذا».

و مات أبو الفضائل سعيد الدّوله، ليله السبت النصف من صفر سنه اثنتين و تسعين و ثلاثمائه، سقته جاريه سما، فمات. و قيل: إنّ لؤلؤ دسّ عليه ذلک و على ابنته زوجه أبى الفضائل، فماتا جميعا.

و كان قاضى حلب فى أيامه عبيد اللّه بن محمد بن أحمد القاضى أبا محمد.

و ملّک لؤلؤ السيفى ولديه:

أبا الحسن عليا و أبا المعالى شريفا ابنى سعيد الدوله. و استولى لؤلؤ على تدبير ملكهما، و ليس إليهما شى ء.

و خاف لؤلؤ على حصن كفر روما(۱)، و حصن عار، و حصن أروح، أن يقفز(۲) فيها، فهدمها جميعا سنه ثلاث و تسعين و ثلاثمائه.

و أحب لؤلؤ التفرد بالملک، فسيّر أبا الحسن و أبا المعالى ابنى سعيد الدوله عن حلب إلى مصر مع حرم سعد الدوله، فى سنه أربع و تسعين و ثلاثمائه. و حصل الأمر له ولولده مرتضى الدوله أبى نصر منصور بن لؤلؤ.

۱- كفر روما: من أشهر حصون منطقه معره النعمان، و كذلک كما يبدو الحصنين الآخرين. معجم البلدان.

۲- أى يستولى عليها خلسه أو بطريقه ما، و هذه طريقه للتعبير عرفها عصر ابن العديم.

و قبض لؤلؤ على أحمد بن الحسين الأصفر بخديعه خدعه بها؛ و ذلك أنه طلب أن يدخل إليه إلى حلب، و أوهمه أن يصير من قبله؛ فلما حصل عنده قبض عليه، و جعله فى القلعه مكرما، لأنه كان يهوّل به على الروم(۱).

و كان هذا الأصفر قد عبر من الجزيره إلى الشام مظهرا غزو الروم(۲)، فتبعه خلق عظيم، و كان يكون فى اليوم فى ثلاثين ألفا ثم يصير فى يوم آخر فى عشره آلاف و أكثر و أقل.

و نزل على شيزر و طال أمره فاشتكاه باسيل ملك الروم إلى الحاكم، فسيّر إليه والى دمشق فى عسكر عظيم فطرده عنها؛ و دام الأصفر معتقلا فى قلعه حلب إلى أن حصلت للمغاربه فى سنه ست و أربعمائه.

و توفى قاضى حلب أبو طاهر صالح بن جعفر بن عبد الوهاب بن أحمد الصالحى الهاشمى(۳)، مؤلف كتاب «الحنين إلى الأوطان»، فى سنه سبع و تسعين و ثلاثمائه. و كان فاضلا؛ و أظن أنّ ولايته القضاء كانت بعد أيام سعيد الدوله، بعد القاضى أبى محمد عبيد اللّه بن محمد بن أحمد.

۱- من أنواع المهدى المنتظر، و ظهر هذا بين قبائل حلب سنه ۳۹۴/ ۱۰۰۳ م و دعا إلى الجهاد ضد الروم، مما سبب اضطرابا فى الأراضى البيزنطيه، فأوعز الامبراطور باسيل الثانى إلى لؤلؤ بالقبض عليه فغرر به و تخلص منه. انظر كتابى اماره حلب ص ۳۶.

۲- كان هناك أصفر آخر نشط فى أراضى الجزيره و قد قبض عليه نصر الدوله ابن مروان حاكم ميافارقين. إماره حلب ص ۳۶.

۳- له ترجمه فى مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ج ۱۲ ص ۳۲.

و ولّى لؤلؤ قضاء حلب فى هذه السنه أبا الفضل عبد الواحد بن أحمد بن الفضل الهاشمى.

و توفى لؤلؤ الكبير بحلب فى سلخ ذى الحجه من سنه تسع و تسعين و ثلاثمائه. و قيل: ليله الأحد مستهل المحرّم سنه أربعمائه؛ و دفن بحلب، فى مسجده المعروف به، فيما بين باب اليهود و باب الجنان؛ و كانت داره القصر بباب الجنان؛ و له منها إلى المسجد سرب يدخل فيه إلى المسجد، فيصلى فيه.

و كان لؤلؤ يعرف بلؤلؤ الحجراجى(۱)؛ و يعرف بذلك لأنه كان مولى حجراج، أحد غلمان سيف الدوله؛ فأخذه منه و سمّاه لؤلؤ الكبير. و كان عاقلا، محبا للعدل، شهما؛ و ظهرت منه فى بعض غزوات سيف الدوله شهامه، فتقدّم على جماعه رفقته من السيفيه و السعديه.

۱- فى أخبار الدوله المنقطعه- الدوله الحمدانيه- ص ۵۷: لؤلؤ الحمدانى، لؤلؤ الجراحى.

[عهد منصور بن لؤلؤ]

[عهد منصور بن لؤلؤ](۱)

و تقرّرت إماره حلب بعده لابنه:

أبی نصر منصور بن لؤلؤ و لقّب مرتضی الدوله.

و کان ظالما عسوفا، فأبغضه الحلبیّون و هجوه هجوا کثیرا فمما قیل فیه:

لم تلقّب و إنّما قیل فألامرتضی الدّوله التی أنت فیها

و سیّر مرتضی الدوله ولدیه أبا الغنائم و أبا البرکات إلی الحاکم وافدین علیه، فأعطاهما مالا جسیما؛ و أقطعهما سبع ضیاع فی بلد فلسطین، و لقّب أباهما مرتضی الدوله، و کان ذلک قبل موت لؤلؤ بسنه(۲).

و کان لسعد الدوله بن سیف الدوله بحلب ولد یقال له أبو الهیجاء، و کان قد أوصی سعد الدوله لؤلؤا لما مات به؛ فلما أن ملک لؤلؤ خاف منه، و ضیّق علیه لؤلؤ و مرتضی الدوله؛ و کان قد صاهر ممهد الدّوله أبا منصور أحمد بن مروان صاحب دیار بکر علی ابنته؛ و أظن ذلک کان فی أیام أبیه.

۱- أضیف ما بین الحاصرتین للتوضیح.

۲- انظر کتابی إماره حلب ص ۳۹.

فخاف أبو الهيجاء من لؤلؤ و ابنه مرتضى الدوله، فتحدّث مع رجل نصرانى يعرف بملكونا كان تاجرا و بزّازا لمرتضى الدوله، فأخرجه من حلب هاربا، و التجأ إلى ملك الروم فلقبه الماخسطرس.

فلما كثر ظلم منصور و عسفه رغب الرعيه و بنو كلاب المتدبّرون ببلد حلب فى أبى الهيجاء بن سعد الدوله؛ و كاتبوا صهره ممهّد الدّوله ابن مروان فى مكاتبه باسيل ملك الروم فى إنفاذه إليهم.

فأنفذ إلى الملك يسأله تسيير أبى الهيجاء إليه ليتعاضدا على حلب، و يكون من قبله من حيث لا يكلفه إنجاده برجال و لا مال.

فأذن باسيل لأبى الهيجاء فى ذلك، فوصل إلى صهره بميّافارقين، فسيّر معه مائتى فارس و خزانه؛ و كاتب بنى كلاب بالانضمام إليه.

و سار قاصدا حلب فى سنه أربعمائه فخافه منصور، و رأى أن يستصلح بنى كلاب و يقطعهم عنه، لتضعف منّته؛ فراسلهم و وعدهم بإقطاعات سنيه؛ و حلف لهم أن يساهمهم أعمال حلب البرّانيّه.

و استنجد مرتضى الدوله بالحاكم، و شرط له أن يقيم بحلب واليا من قبله، فأنفذ إليه عسكر طرابلس مع القاضى علىّ بن عبد الواحد بن حيدره قاضى طرابلس، و أبى سعاده القائد والى طرابلس، فى عسكر كثيف فالتقوا بالنقره.

و تقاعد العرب عن أبى الهيجاء لما تقدّم من وعود مرتضى الدوله لهم،

فانهزم أبو الهيجاء راجعا إلى بلد الروم و نهبت خيامه و جميع ما كان معه.

ثم دخل إلى القسطنطينيه فأقام بها إلى أن مات(۱).

و كان الحاكم قد كتب لمنصور بن لؤلؤ فى شهر رمضان من سنه أربع و أربعمائه سجلا، و قرى ء فى القصر بالقاهره، بتمليكه حلب و أعمالها؛ و لقّب فيه بمرتضى الدوله.

و كان فى قلعه عزاز غلام من غلمان مرتضى الدوله فاتهمه فى أمر أبى الهيجاء، فطلب مرتضى الدوله منه النزول فلم يفعل، و خاف منه و قال:

«ما أسلّمها إلا إلى القاضى ابن حيدره» فسلمها إليه.

و كتب القاضى فيها كتابا إلى الحاكم، و سلّمها إلى مرتضى الدوله، فنقم عليه، و قتله بعد ذلك.

و أما أبو الهيجاء فأقام بالروم إلى أن مات.

و عاد قاضى طرابلس إلى منصور يطلب منه ما كان وعده به، فدافعه، فرجع إلى طرابلس خائبا ..

و كان أبو المعالى بن سعيد الدوله بمصر، فسيّره الحاكم بعساكر المغاربه إلى حلب، فوصل معرّه النّعمان فى سنه اثنتين و أربعمائه؛ و أرادت العرب الغدر به، و بيعه من مرتضى الدوله، لأنهم أغاروا. و ركب يريدهم، فأخذه مضى ء الدوله نصر اللّه بن نزّال وردّه إلى العسكر، و رجع فمات بمصر(۲).

۱- عالجت هذا الموضوع فى كتابى إماره حلب ص ۳۹- ۴۲.

۲- إماره حلب ص ۴۲.

[قيام الدوله المرداسيه]

اشاره

[قيام الدوله المرداسيه](۱)

و أما بنو كلاب فانهم طلبوا من مرتضى الدوله ما شرطه لهم من الإقطاع، فدافعهم عنه، فتسلطوا على بلد حلب، و عاثوا فيه، و أفسدوا، و رعوا الأشجار و قطعوها، و ضيّقوا على مرتضى الدوله، فشرع فى الاحتيال عليهم، و أظهر الرغبه فى استقامه الحال بينهم و بينه و طلبهم أن يدخلوا إليه ليحالفهم و يقطعهم و يحضروا طعامه، و اتخذ لهم طعاما.

فلما حصلوا بحلب مدّ لهم السماط و أكلوا و غلّقت أبواب المدينه، و قيّد الأمراء: و فيهم صالح بن مرداس، و فيهم أبو حامد و جامع ابنا زائده.

و جعل كبار الأمراء بالقلعه، و من دونهم بالهرى. و قتل منهم أكثر من ألف رجل، و ذلك لليلتين خلتا من ذى القعده من سنه اثنتين و أربعمائه(۲).

فجمع مقلّد بن زائده من كان من بنى كلاب خارج حلب، و أجفل بالبيوت، و نزل بهم كفر طاب و قاتلها، فرماه ديلمىّ اسمه بندار فقتله، فى

۱- أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

۲- يعد هذا الحادث مقدمه لنهايه الدوله الحمدانيه و اسبابها و بدايه لقيام الدوله المرداسيه. انظر المعالجه المفصله لهذه المسأله فى كتابى إماره حلب ص ۴۲- ۴۵.

أوائل سنه ثلاث و أربعمائه. و كان مرتضى الدوله قد أخرج أخويه أبا حامد و جامعا و غيرهما؛ و جعلهم فى حجره، و جعل فيها بسطا، و أكرمهم لأجل مقلّد. فلما جاءه خبر قتله أنفذ إليهم يعزّيهم به فقال بعضهم لبعض: «اليوم حبسنا».

و سيّر مرتضى الدّوله إلى صالح بن مرداس، و هو فى الحبس، و ألزمه بطلاق زوجته طرود، و كانت من أجمل أهل عصرها؛ فطلّقها، و تزوجها منصور، و هى أم عطيه بن صالح، و إليها ينسب مشهد طرود، خارج باب الجنان، فى طرف الحلبه. و به دفن عطيه ابنها؛ و مات أكثر المحبّسين بالقلعه فى الضرّ، و الهوان، و القله، و الجوع.

و كان مرتضى الدوله فى بعض الأوقات إذا شرب يعزم على قتل صالح، لحنقه عليه من طول لسانه، و شجاعته. فبلغ ذلك صالحا، فخاف على نفسه، و ركب الصعب فى تخليصها؛ و احتال حتى وصل إليه فى طعامه مبرد؛ فبرد حلقه قيده الواحده، و فكّها و صعبت الأخرى عليه، فشدّ القيد فى ساقه، و نقب حائط السجن؛ و خرج منه فى اللّيل؛ و تدلّى من القلعه إلى التلّ، و ألقى نفسه فوقع سالما ليله الجمعه مستهل المحرم سنه خمس و أربعمائه.

و استتر فى مغازه بجبل جوشن، و كثر الطلب له و البحث عنه، عند الصباح؛ فلم يوقف له على خبر، و لحق بالحّله؛ و اجتمعت إليه بنو كلاب؛ و قويت نفوسهم بخلاصه، و بعد سته أيام ظفر صالح بغلام لمنصور كان قد

أعطاه سيف صالح، فاستعاده منه و أيقن بالظفر، و تفاءل بذلك(۱).

و لما كان فی اليوم العاشر من صفر نزل صالح بتلّ حاصد(۲) من ضياع النقره يريد قسمتها، بعد أن جمع العرب و استصرخهم؛ و كان يعلم صالح محبه مرتضى الدوله لتل حاصد.

فحين علم منصور بنزول صالح على تلّ حاصد، رأى أن يعاجله قبل وصول المدد إليه، فجمع جنده، و حشد جميع من بحلب من الأوباش، و السّوقه، و النّصارى، و اليهود؛ و ألزمهم بالسّير معه إلى قتال صالح؛ فخرجوا ليله الخميس ثانی عشر صفر من سنه خمس و أربعمائه.

و بلغنی: أنّ مرتضى الدّوله لما وصل إلى جبرين(۳) تطيّر و قال: جبرنا؛ فلمّا وصل بوشلا(۴) قال: شللنا؛ فلمّا وصل تلّ حاصد قال: حصدنا.

و أصبح عليهم يوم شديد الحرّ فماطلهم صالح باللّقاء، إلى أن عطش العوام و جاعوا؛ و سيّر جاسوسا إلى العسكر فجاء و أخبره أنّ معظم عسكره

۱- المرجح أن هروب صالح تمّ على غير هذه الصوره، و أن الأمر دبّر مع متولی قلعه حلب أو سواه. انظر إماره حلب ص ۴۵.

۲- فی منطقه السفيره- محافظه حلب، قريه اسمها الآن تل حاصل واقعه شمال جبل الأحص، فلعلها هی التی عرفت من قبل باسم تل حاصد. المعجم الجغرافی للقطر العربی السوری.

۳- جبرين مزرعه قرب حلب تبعد عنها مسافه ۸ كم نحو الشرق. المعجم الجغرافی للقطر العربی السوری.

۴- فی منطقه أريحا- محافظه ادلب- معلم أثری اسمه« بشلله»، فلعله المقصود هنا، المعجم الجغرافی للقطر العربی السوری.

من اليهود، و النّصارى؛ و أنّه سمع يهوديا يقول لآخر بلغتهم: «والك حفيظه اطعزه و اتأخّر، و إيّاك يكون خلفه آخر يطعزك بمطعازه، يخعّب بيتك للدّواغيث»(۱).

فقوى طمع صالح فيهم، و حمل عليهم فكسرهم؛ و أسر مرتضى الدّوله و سالم بن مستفاد، أبا المرجّا(۲) الحمدانىّ، و خلقا غيرهما.

و قتل جمع كثير من العسكر و مقدار ألفى راجل من العوام؛ و آثار عظامهم إلى اليوم مدفونه فى أرجام حجاره شبيهه بالتلال، فيما بين تلّ حاصد و بوشلا.

و انهزم أبو الجيش و أبو سالم أخو مرتضى الدّوله؛ و قصد القلعه فضبطها أبو الجيش المفلول، و ضبط البلد أخوه أبو الجيش و أمّه.

و حدّث بنو كلاب أنّهم لم يروا و لم يسمعوا بأشجع من مرتضى الدّوله، و أنه لو لم يقف به الحصان ما وصلو إليه، و أنّه لما وقف به الحصان لم يقدم عليه أحد حتى جاءه صالح، فقال: «إلىّ يا مولانا». فرمى السّيف من يده؛ فلما رماه تقرّبوا منه؛ و أخذه صالح فقيّده بالقيد الذى كان فى رجله.

و كان بين هرب صالح و أسره مرتضى الدّوله أحد و أربعون يوما.

و رأى صالح أنّه لا قدره له على أخذ البلد لضبطه بأبى الجيش، فرأى

۱- اطعزه: اطعنه، اضربه، ادفعه. يخعب: يخرب. الدواغيث الدواويث جمع ديوث فيما أرجحه.

۲- لسالم بن مستفاد ترجمه فى بغيه الطلب ص ۴۱۶۱- ۴۱۶۳.

أن يوقع الصلح؛ فتراسلوا فى ذلک؛ و أشركوا أبا الجيش فى تقرير ذلک؛ فخرج مشايخ من أهل حلب من أبى الجيش فى حديث الصلح و تقريره.

فلما وصلوا إلى صالح سلّموا عليه غير هائبين له و لا مبجّلين، لقرب عهدهم برؤيته أسيرا حقيرا؛ و كلّموه بكلام جاف؛ و رادده فى شروط شرطها عليهم؛ فأحسّ منهم بذلک، فقال لهم: «قبل أن نتفرق بيننا أمر، اجتمعوا بأميركم، و شاوروه فيما تتحدثون به معى من الشروط».

قال: فقاموا، و دخلوا على مرتضى الدّوله، و فيهم الشاهدان اللّذان شهدا على صالح بطلاق طرود، فوجدوا مرتضى الدّوله على أقبح صوره مكشوف الرأس، على قطعه من كساء خلق، و القيد قد أثّر فى ساقيه فاحتقروه؛ و عظم صالح فى أعينهم؛ فهنأوه بالسّلامه؛ فقال: «سلامه العطب أصلح منها»؛ ثم قال: «إنّ الأمير صالح يطلب منّى طلاق طرود، فاشهدوا علىّ أنها طالق؛ و يطلب منّى تسليم حلب؛ و لست الآن مالكها، فدبّروا الأمر على حسب ما ترونه و يستصوبه أخى أبو الجيش، الذى هو الآن المستولى على القلعه و المدينه».

فلم يزالوا يتردّدون بينهما؛ و يدخلون إلى حلب، و يشاورون أبا الجيش إلى أن استقرّ الأمر مع صالح بعد التضرّع إليه و سؤاله باللّطف فى كلام خلاف ما بدأوه به على أن يطلق منصور؛ على أن يحمل إليه خمسين ألف دينار عينا؛ و مائه و عشرين رطلا بالحلبىّ فضه؛ و خمسمائه قطعه ثياب أصنافا مختلفه؛ و يطلق جميع من فى الحبوس من بنى كلاب و حرمهم؛ و أن يقاسمه

باطن حلب و ظاهرها شطرين؛ و يجعل ارتفاع ذلک نصفين؛ و أن يزوجه مرتضى الدوله بابنته.

فأجاب إلى ذلک و وقعت اليمين عليه؛ و أخرج إلى صالح أمه بجيلاء و زوجته أم الكرم ابنه رباح السّيفى، و أولاده منها: أبا الغنائم، و أبا على، و أبا الحسن، و أبا البركات، رهائن على المال.

و أطلق مرتضى الدّوله فدخل إلى حلب يوم السبت لسبع بقين من صفر سنه خمس و أربعمائه، فلمّا حمل المال إلى صالح، خلّى سبيل الرهائن؛ و باع كلّ واحد من العرب ما حصل فى يده من الغنيمه و الأسارى من الجند و غيرهم من الرعيّه المسلمين و أهل الذّمه لأهاليهم بما اتفق؛ و استغنى العرب و قويت شوكتهم.

و لما حصل منصور إلى حلب عاد إلى عادته الأولى فى الغدر، و منع صالحا ما صالحه عليه من ارتفاع البلاد و التزوّج بابنته؛ فضيّق صالح عليه، و حاربه، و منع الميره أن تدخل إليه حتى ضاقت على الرّعيّه فكرهوه(۱).

و انضاف إلى ذلک أنه وقعت التّهمه بين مرتضى الدّوله و بين غلامه فتح القلعى- و كان والى القلعه- فى العاشر من شهر رجب من سنه ست؛ فاتهمه بأنّه هو الذى هرّب صالحا، و تتابع لومه له، و قال: لولا قلّه تحفّظه و تضجيعه

۱- تطور الصراع بين صالح بن مرداس و منصور بن لؤلؤ، إلى درجه عرضه على الامبراطور البيزنطى باسيل الثانى. انظر اماره حلب من ۴۵- ۴۷.

فى الاحتياط على صالح لما هرب من السّجن؛ و هذه المحن كلّها بسببه.

و تواعده.

و عزم على أن يوّلى قلعه حلب صاحبا له يعرف بسرور، فأسرّ ذلك إليه؛ فنمّ الخبر من سرور إلى رجل يقال له ابن غانم صديق لفتح، فأطلعه على ذلك؛ فخاف فتح القلعىّ منه، فوافق المقيمين معه على العصيان؛ فأجابوه إلى ذلك.

و طلب نزوله فتعلّل، و أخذ حذره منه؛ ثم كاشفه بالعصيان؛ فصعدت إليه بجيلا والده مرتضى الدوله و عنّفته، فلم يصغ إلى قولها، فقالت له: «كيف تفعل هذا مع ابن سيدك؟»- لأنه كان مولى لؤلؤ السّيفى- فقال: «كما فعل هو و أبوه بأولاد سيّده»- يعنى بولدى سعد الدّوله أبى الفضائل و أبى الهيجاء-.

ثم أنفذ فتح إليه و قال له: «إمّا أن تخرج من حلب، و إلا سلمت القلعه إلى صالح». فبينا مرتضى الدوله فى قصره سنه ست و أربعمائه، إذ ضربت البوقات و الطبول على القلعه، و صاح من فيها: «الحاكم يا منصور؛ صالح يا منصور» فظنّ منصور أن صالحا قد حصل فى القلعه، ففتح باب الجنان؛ و هرب هو و أخوه و أولاده، و من تبعه من غلمانه إلى أنطاكيه؛ و أخذ معه ما قدر على حمله من المال.

فلما علم أهل حلب بخروجه قصدوا داره؛ فأخذوا منها من الذّهب و الفضّه و المراكب و الأثاث ثمانين ألفا من الدّنانير.

و أخذ فی جمله ما نهب له ثمانیه و عشرون ألفا من الدّفاتر المجلّده، و کانت مفهرسه بخطّه فی درج؛ و نهبوا دور إخوته و دور بعض النّصاری و الیهود(۱).

و وصل مرتضی الدّوله إلی أنطاکیه لخمس بقین من شهر رجب، فطالع قطبان(۲) أنطاکیه الملک باسیل بهرب منصور إلیه؛ فأنفذ إلیه یأمره باکرامه، و أن یواصله براتب و إقامه، و کذلک برزق أجناده و أصحابه؛ ففعل ذلک، و کان جملتهم سبعمائه رجل من فارس و راجل؛ و أن لا ینقصه فی المخاطبه و الکرامه من الرسم الذی کان یخاطبه به فی أیّام امارته، و أمر أن یلقّب بالماخسطرس.

و استدعی الملک إخوته و ابنیّه: أبا الغنائم، و أبا البرکات؛ فخلع علیهم؛ و أنفذ علی أیدیهم توقیعا باقطاع عدّه ضیاع له و لهم؛ و کان من جملتها شیح لیلون(۳)؛ فعمر مرتضی الدوله حصنها، و سکن فیه لیقرب علیه ما یحتاج إلی معرفته من أمور حلب.

أما مرتضی الدوله فانه عمر إلی أن قدم أرمانوس من القسطنطینیه؛ و نزل علی تبّل فی سنه إحدی و عشرین و أربعمائه، و کان معه إذ ذاک، و توفی بعد ذلک(۴).

۱- بهذه الواقعه انتهی حکم الدوله الحمدانیه فعلیا من حلب، و یعتقد أن للخلافه الفاطمیه دورها فی عصیان فتح علی منصور بن لؤلؤ. اماره حلب ص ۴۸- ۵۰.

۲- Catapan أی حاکم.

۳- هی فی بغیه الطلب ج ۱ ص ۲۳۳« شیخ اللون»، فی منطقه أنطاکیه.

۴- سترد أخبار حمله الامبراطور رومانوس الثالث علی حلب بعد مقتل صالح بن مرداس.

[الحكم الفاطمى لحلب]

[الحكم الفاطمى لحلب](۱)

و أما فتح القّلعى أبو نصر فإنه نادى بشعار الحاكم صاحب مصر؛ و صالح صالح بن مرداس على نصف الارتفاع ظاهرا و باطنا؛ و سلّم إليه حرم منصور و حرم إخوته و أولاده، ليسيّرهم إلى ابن لؤلؤ إلى أنطاكيه؛ و فى الجمله بنته التى وعده أن يزوّجه بها؛ فأخرجهم صالح إلى الحلّه و ضبط عنده بنته التى وعده بتزويجها منه؛ و دخل إليها و أنفذ إليه بقيّه الحرم.

و تسلّم صالح الأعمال و الضّياع التى تقرّر مع ابن لؤلؤ أن يدفعها إليه. و استدعى والى أفاميه أبا الحسن علىّ بن أحمد العجمىّ المعروف بالضّيف، فأنزله بالمدينه بالقصر بباب الجنّان، فى أوائل شعبان من سنه ست و أربعمائه.

و بقى «فتح» بالقلعه فأحسن «الضّيف» السيره؛ وردّ على الحلبيّين ما كان قد اغتصبه سيف الدوله و ولده من أملاكهم؛ و بالغ فى العدل(۲).

۱- أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

۲- كان صالح بن مرداس معاديا لسقوط حلب للفاطميين، و كذلك فعلت الامبراطوريه البيزنطيه، مما سيؤدى إلى تطورات سريعه تقود نحو تأسيس حكم الدوله المرداسيه. اماره حلب ص ۵۰- ۵۱.

و كاتب «فتح» الحاكم يخبره بما فعل، فوردت مكاتبه الحاكم إليه يتضّمن شكره على ما فعل، و لقّبه مبارك الدوله و سعيدها.

و كتب إلى أبى الحسن الضّيف يأمره بمعاضدته، و لقّبه سديد الدوله، و كتب إلى صالح بن مرداس يأمره بالاتفاق معهما، و لقّبه أسد الدوله.

و كتب لأهل حلب توقيعا باطلاق المكوس و المظالم، و الصفح عن الخراج؛ و هو عندى متوّج بعلامه الحاكم عليه: «الحمد للّه ربّ العالمين». و نسخته:

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

هذا من أمر الإمام الحاكم بأمر اللّه أمير المؤمنين لجميع أهل حلب و أعمالها ..

إنّه لمّا انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنتم فيه من الظلمه المدلهمّه، و قبيح ظفر(۱) من يتولّى أموركم فى المعاملات و زيادتهم عليكم فى الخراج و الجبايات، إضعافا لكم، و عدولا عن سنن الحقّ بكم، أمر- زاد اللّه أمره علوا و نفاذا- بإطلاق المؤن من داركوره و نظائرها؛ و الصّفح عن الواجب عليكم من مال الخراج لاستقبال سنه سبع و أربعمائه، لتعلموا أن ضياء الدّوله النّبويّه قد لمع و ظهر، و أنّ حندس الظلام قد انجاب و دثر».

و ذكر تمامه.

۱- كذا بالأصل، و أراها تصحيف« نظر».

و وصل من قبل الحاكم والى طرابلس مختار الدوله ابن نزال الكتامى؛ و والى صيدا مرهف الدّوله بجكم التركى؛ و كانوا جميعا فى البلد من قبل الحاكم.

ثم كتب الحاكم إلى حسّان بن المفرّج بن الجرّاح الطائى(۱) و عشيرته، و سنان بن عليان الكلبىّ و عشيرته(۲)، بالاحتياط على حفظ حلب، و أتبع ذلك بمكاتبه إلى «فتح»، يمنّيه و يعده الجميل إذا سلّم القلعه. فأجاب إلى تسليمها؛ و أخذ جميع ما كان بها من الذّخائر لمنصور من عين، و ورق، و متاع، و سلاح.

و كتب بولايه صور، فسلّم القلعه إلى الأمير عزيز الدوله أبى شجاع فاتك، فى شهر رمضان من سنه سبع و أربعمائه(۳). و كان الحاكم قد خلع عليه فى جمادى الأولى من سنه سبع و أربعمائه. و حمله على عده من الخيل بسروج محلاه بذهب مصفّحه؛ و قلّده سيفا و منطقه بمنطقه و سيّره إلى حلب.

و توجّه «فتح» إلى صور. و ولّى «الضّيف» بحلب فى سنه سبع

۱- لحسان بن المفرج ترجمه فى بغيه الطلب ص ۲۲۳۹- ۲۲۴۱.
۲- سترد بعد قليل أخبار الحلف الثلاثى فيما بين صالح بن مرداس و سنان بن عليان، و حسان بن المفرج ضد الخلافه الفاطميه.
۳- بهامش الأصل: مطلب:« و قد كان صالح راسل فتحا و أشار عليه أن يقيم بالقلعه و يكون هو خارج حلب و أن نتفق على إخراج المغاربه من حلب و الاجتماع على حفظها. فعلم أهل حلب بذلك فاجتمعوا تحت القلعه، و قالوا: ما نريد إلا المغاربه، و لا رغبه لنا فى الباديه. و صارت فتنه، فكتب الضيف إلى الحاكم يطلب منه أن يمده بالعساكر لتقوى يده على صالح؛ فسيّر إلى ولاه البلاد يأمرهم بالتوجه إليه ه.».

و أربعمائه، حين تولّى، القاضى أبا جعفر محمد بن أحمد السمنانى الحنفى القضاء بحلب.

و كان عزيز الدوله أرمنيا لبنجوتكين مولى العزيز صاحب مصر. و كان بنجوتكين شديد الشّغف به؛ و كان أديبا عاقلا، كريما، كبير الهمّه. فولاه الحاكم حلب و أعمالها؛ و لقّبه أمير الأمراء، عزيز الدوله، و تاج الملّه. و دخل حلب يوم الأحد الثانى من شهر رمضان من سنه سبع و أربعمائه.

و كان محبّا للأدب و الشّعر. و صنّف له أبو العلاء بن سليمان «رساله الصّاهل و الشّاحج» و «كتاب القائف».

و فيه يقول القائد أبو الخير المفضّل بن سعيد العزيزىّ شاعره يمدحه، و يذكر و قود قلعه حلب ليله الميلاد، و كان الغيم قد ستر النجوم:

ابق للمعروف و الأدب آمنا من صوله النّوب

يا عزيز الدّوله الملك المنتضى للمجد و الحسب

كيف يخشى الدّين حادثهو عزيز الدّين فى حلب

سدّ منه ثغرها بفتى لا يشوب الجدّ باللّعب

أضرم العنقاء قلعته فبدت فى منظر عجب

لزّت الأرض السّماء بهافثنت كشحا على وصب

و رمتها بالشرار كمارمت الغبراء بالشّهب

أوقدت تحت الغمام فمايلقها من مزنه يذب

سخنت حوض الحيا فهمى بجحيم عنه منسكب

لو تدوم النّار نشّفه حرّ ما يلقى فلم يصب

طلعت شمس النّهار بهاو الدّجى مسدوله الحجب

فلو أنّ النار لاحقهبالنّجوم الزّهر من كثب

حكت الشّماء غانيهحلّيت بالدّر و الذّهب

حاربتها الريح فاضطّرمت غضبه من شدّه الغضب

جاذبتها فى تغيّظهاشعلا محمرّه العذب

يا أمير الآمرين و يامستجار القصد و الطّلب

قد نفيت اللّيل عن حلب نفى مظلوم بلا سبب

و تركت الشّمس حائرهفى دجى الظّلماء لم تغب

و عزيز الدوله هذا، هو الذى جدّد القصر تحت قلعه حلب؛ و تناهى فى عمارته؛ و حمّام القصر كانت له، و جعله ملاصقا لسفح القلعه؛ و قصد بعمارته قربه إلى القلعه، خوفا مما جرى لمرتضى الدوله. و كان متّصلا بالقلعه و هو الذى أمر بعماره القناديل الفضّه للمسجد الجامع، و هى باقيه إلى الآن و اسمه عليها.

و كلّف عزيز الدوله أسد الدّوله صالح بن مرداس أن يحمل والدته إلى حلب، لتسكن الأنفس و يعلم العوامّ التئام الكلمه و التضافر على الأعداء، ففعل ذلك فى سنه ثمان و أربعمائه.

ثم إنّ عزيز الدوله تغيّر عليه الحاكم فعصى عليه، و ضرب الدينار و الدّرهم باسمه بحلب، و دعا لنفسه على المنبر، فأرسل الحاكم إلى الجيوش، و أمرها أن تتجهزّ إليه فى سنه إحدى عشره و أربعمائه.

فلما بلغ عزيز الدوله ذلك أرسل إلى باسيل ملك الرم يستدّعيه ليسلّم إليه حلب، فخرج باسيل الملك؛ فلمّا بلغ موضعا يعرف بمرج الدّيباج(۱)، بلغ عزيز الدوله وفاه الحاكم، فأرسل إلى باسيل يعلمه أنّه قد انتقض ما كان بينهما من الشرّط، و أنّه إن ظهر كان هو و بنو كلاب حربا له.

فعدل باسيل إلى مناز كرد(۲) فأخذها من الخزر، و كان الناس قد أجفلوا من ملك الرّوم إلى حلب؛ فكانت هذه الجفله تسمى جفله عزيز الدوله لأنها بسببه.

و لما اطمأن عزيز الدّوله بموت الحاكم، و وصلته من الظّاهر الخلع من مصر؛ و دخل غلام له يدعى تيزون، و كان هنديا؛ و كان يميل إليه؛ و دخل فى أوّل الليل عليه، و هو نائم فى المركز، و فى يده سيف مجرّد مستور فى كمّه ليقتله، فوجد صبيا من رفقته يغمزه فلما رآه الصبىّ حرّك مولاه ليوقظه، فبادر الهندى، و ضربّ عزيز الدوله فقتله، وثّنى بالصبىّ، و قتل الهندى. و ذلك كله لأربع ليال خلت من شهر ربيع الآخر، سنى ثلاث عشره و أربعمائه(۳).

و عمل شاعره المفضّل بن سعيد:

لحمامه المقضىّ ربّى عبده و لنحره المفرىّ حدّ حسامه

۱- واد عجيب المنظر نزه بين الجبال، بينه و بين المصيصه عشره أميال. معجم البلدان.

۲- بلد مشهور قرب خلاط، كان يعد فى أرمينيه، ليس بعيدا عن بحيره وان و فيه ستحصل المعركه الحاسمه بين السلطان ألب أرسلان و الامبراطور البيزنطى رومانوس دايجينس.

۳- عالجت ملابسات اغتيال عزيز الدوله فى كتابى إماره حلب ص ۵۲- ۵۴، و يبدو أنه كان للخلافه الفاطميه دورها الكبير.

و كـان الوالى بـالقلعه، من قبـل عزيز الـدوله، أبـا النجم بـدرا التركىّ مملوكا كان لبنجوتكين مولى عزيز الـدوله فاتك؛ و كانت بينهما فى أيام بنجوتكين صداقه و مودّه بحكم المرافقه(۱).

فلما تقدّم عزيز الدّوله قرّبه و اصطفاه، و ولاه القلعه بحلب من قبله.

و قيل: إنه مملوك لعزيز الـدّوله، و يعرف ببـدر الكبير. و قيل: إنّه هو الـذى حمل تيزون على قتل عزيز الـدّوله؛ فلما قتل اسـتولى على البلد، يوم الأحد العاشر من شهر ربيع الآخر سنه ثلاث عشره و أربعمائه، و لقّب وفىّ الدوله و أمينها.

و كان كاتب بدر رجلا يقال له ابن مدبّر إلى أن وردت العساكر المصريه من جهه الظّاهر؛ و زعيمها سديد الدوله على بن أحمد الضّيف؛ فتسلّم حلب من وفىّ الدّوله بدر.

و لما دخل الضّـيف على بـدر بكتاب الظّاهر، لطف به، و استرسل إليه، و طرح القيـد فى رجله، و قبض عليه، و انزله من القلعه، و تسلّمها منه، فسلّمها إلى صـفىّ الـدّوله أبى عبـد اللّه محمـد ابن وزير الوزراء أبى الحسن علىّ بن جعفر بن فلاـح الكتـامىّ، يوم الأربعاء الحادى عشر من شهر رجب سنه ثلاث عشره و أربعمائه.

و كان صـفىّ الـدوله هـذا شاعرا أديبا؛ و أبوه علىّ وزر للحاكم؛ و جدّه جعفر بن فلاح أحد قواد المصـريين؛ و وليت القلعه يمن الدّوله سعاده الخادم

۱- بهامش الأصل:« و أظن أن عزيز الـدوله ولىّ قضاء حلب فى أيامه أبا على أحمد بن أبى ابراهيم الشـريف الحسـينى، و أقطعه اللجينه و اللّه أعلم».

المعروف بالقلانسىّ، و كان خادما بلحيه بيضاء؛ و كان من أفاضل المسلمين؛ فيه الدّين و العلم؛ و جعل الظّاهر فى المدينه واليا، و فى القلعه واليا خوفا أن يبدو من والى حلب ما بدا من عزيز الدّوله فاتک.

و عزل صفىّ الدوله بن فلاح عن حلب، يوم الاثنين النصف من المحرّم سنه أربع عشره و أربعمائه.

و ولّى حلب الأمير سند الدوله أبو محمد الحسن بن محمد بن ثعبان الكتامى الجيملىّ، و كان و أهله من وجوه كتامه، و كان واليا بحصن أفاميه. و هو الذى كتب إليه أبو العلاء بن سليمان «الرساله السّندّيه» فى مجلّد واحد، و كان وزيره أبو سعيد مسبح.

و توّفى سند الدّوله بمرض ناله بحلب، يوم الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنه خمس عشره و أربعمائه.

و كان خبر مرضه قد وصل إلى الظّاهر، فكتب إلى أخيه سديد الملك أبى الحارث ثعبان بن محمد بن ثعبان إلى تنّيس(١)، و كان يليها، أن يسير واليا إلى حلب.

فخرج من تنّيس فى البحر إلى طرابلس، و سار من طرابلس جريده فورد إلى حلب، و قد توّفى أخوه. و كان وصوله إلى حلب، يوم الأحد السابع عشر من جمادى الأولى سنه خمس عشره و أربعمائه.

١- تنيس بلده ما بين الفرما و دمياط. معجم البلدان.

و كان قاضى حلب، فى سنه خمس عشره و أربعمائه، أبا أسامه عبد اللّه بن أحمد بن على بن أبى أسامه، نيابه عن ابن أبى العوّام قاضى مصر عن الظّاهر. و ولّى القلعه أبو الحارث موصوف الخادم الصقلابى الأبيض الحاكمىّ، من قبل الظّاهر؛ و كان شجاعا، عاقلا؛ و أقاما فيها واليين أحدهما بالمدينه، و الآخر بالقلعه، إلى أن حالف الأمير أبو علىّ صالح مرداس بن ادريس الكلابى سنان بن عليان الكلبىّ، و حسّان بن المفرّج بن الجرّاح الطائى على الظّاهر؛ و تحالفوا على احتواء الشّام، و تقاسموا البلاد. فتكون: فلسطين و ما برسمها لحسّان؛ و دمشق و ما ينسب إليها لسنان؛ و حلب و ما معها لصالح. فأنفذ الظّاهر إلى فلسطين أنوشتكين الدّزبرى(۱) واليا، فاجتمع الأمراء الثلاثه على حربه، فهزموه إلى عسقلان(۲).

و فتح حسّان الرمله بالسّيف، فى رجب سنه خمس عشره و أربعمائه.

و أحرق أكثرها، و نهبها، و سبى خلقا من النّساء و الصّبيان(۳).

۱- للدزبرى ترجمه فى المقفى للمقريزى ج ۲ ص ۳۰۲- ۳۰۶.

۲- مدينه فلسطينيه على ساحل البحر بين غزه و بيت جبرين. معجم البلدان.

۳- عالجت مسأله الحلف الثلاثى فى كتابى إماره حلب ص ۷۶- ۸۳.

[إماره صالح بن مرداس]

[إماره صالح بن مرداس](۱)

و سيّر صالح بن مرداس كاتبه أبا منصور سليمان بن طوق، فوصل إلى معرّه مصرين؛ و غلب عليها؛ و قبض واليها؛ و قيّده؛ و سار إلى حلب فى جماعه من العرب، لسبع بقين من رجب. فجرى بينه و بين سديد الملك ثعبان و موصوف الخادم، حرب فى أيام متفرّقه.

و سار صالح بن مرداس إلى حلب، فى جمع كثير؛ و نزلها يوم الأحد لسبع عشره ليله خلت من شهر رمضان من سنه خمس عشره و أربعمائه؛ على باب الجنان. وجاب الحلل يوم الاثنين؛ و حاصرها سته و خمسين يوما؛ فوقع خلف بين موصوف الخادم و بين أبى المرجّا سالم بن مستفاد غلام سيف الدّوله بن حمدان؛ و كان من كبار القوّاد بحلب؛ و داره بالزّجاجين، و حمامه أيضا، آثارها باقيه إلى وقتنا هذا.

فعزم موصوف على قتل سالم هذا؛ فجمع سالم جمعا، و فتح باب قنّسرين؛ و خرج إلى صالح، فأخذ منه الأمان لنفسه، و لجميع أهل المدينه.

و سلمت المدينه إليه، يوم السبت لثلاث عشره ليله خلت من ذى القعده.

۱- أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

و احتمى سديد الملك بن ثعبان فى القصر الملاصق للقلعه؛ و نصبت المنجنيقات و العرّادات عليه و عليها.

ثم إنّ صالحا رتّب أبا المرجّا سالم بن المستفاد، و كاتبه سليمان بن طوق على قتال القصر و القلعه بحلب.

و سار إلى فلسطين منجدا حسّان بن المفرّج على الدّزبرىّ، فإنه جمع، و عاد إليه فى جيش كثيف، فالتقى الجيشان فكسر الدّزبرىّ، و عاد مفلولا.

و أما قلعه حلب فإنّ الحلبيين نقبوها؛ و وصل النقب إلى بئرها المعين؛ و قلّ الماء فيها؛ و دام الحصار عليها سبعه أشهر.

و راسل من فى القلعه سالما و سليمان فى الصلح فى عاشر ربيع الآخر؛ فلم يجيباهم. و نصبوا الصّلبان ثلاثه أيام؛ و دعوا لملك الرّوم؛ و لعنوا الظّاهر؛ و نقر الناقوس؛ و قاتلوا القلعه، ثم نفروا يوم الجمعه ثانى عشر الشّهر، و حملوا المصاحف على أطراف الرّماح فى الأسواق؛ و نادوا النّفير و زحفوا.

فاستأمن جماعه من المغاربه الذين فى القلعه، فخلع عليهم، و طيف بهم فى المدينه. و بسطت ثياب الدّيباج و السّقلاطون(۱)؛ و بدر المال مقابل القلعه، و بذلت لمن ينزل إلى ابن مستفاد و سليمان مستأمنا.

۱- السقلاطون: نوع من النسيج مصنع من الحرير الموشى بالذهب.

فلمّا يئس أهل القلعه من النجـده نزل رجل أسود يعرف بأبى جمعه، و كان عريف المصامـده إلى المـدينه، و بقى أياما ينزل من القلعه و يصعد فأفسده سالم بن مستفاد و سليمان بن طوق.

فلمّـا جاء ليطلع القلعه فى بعض الأيّام تقـدّم موصـوف الخـادم والى القلعه بردّ البـاب فى وجهه؛ فصـاح إلى أصـحابه، فـالتفت المصامده و العبيد فى القلعه؛ و وقع الصوت إلى أهل حلب، فطلعوا إلى القلعه من كلّ مكان(۱).

و دخلها ابن طوق و ابن مسـتفاد، يوم الاربعاء مسـتهلّ جمادى الأولى سـنه ست عشـره و أربعمائه، و قدم صالح بن مرداس حلب عائدا من كسره الدزبرى. فدخلها يوم السبت ثامن شعبان من السنه، و قبض على موصوف الصقلبىّ و سديد الملك ثعبان، و أبى الفضل بن أبى أسامه.

فأما ثعبان ففدى نفسه بمال دفعه إلى صالح؛ و أمّا موصوف فضـرب رقبته صبرا بين يديه. و أمّا القاضى أبو الفضل بن أبى أسامه فدفنه حيّا فى القلعه.

و لمّا جـدّد الملك العزيز أبو المظفّر محمّد بن غازى- رحمه اللّه- الدار الكبرى التى ابتناها بقلعه حلب، و حفر أساسـها؛ وجدوا مطموره فيها رجل فى ساقيه لبنه حديد، و هو جالس فيها قد دفن حيّا و لم يبق إلا عظامه، و هو على هيئه القاعد فيها. و لا أشكّ فى أنّه ابن أبى أسامه المذكور؛ و اللّه أعلم.

۱- انظر بشأن سقوط حلب لصالح بن مرداس و دور بيزنطه فى ذلك كتابى إماره حلب ص ۷۷- ۸۰.

و ملك صالح فى هذه السنه: حمص، و بعلبكّ، و صيدا، و حصن ابن عكار بناحيه طرابلس. و كان فى يده الرّحبه، و منبج، و بالس، و رفنّيه(۱).

و كان، و هو محبوس بالقلعه عند مرتضى الدوله، قد رأى فى المنام كأنّ انسانا قد دخل عليه، فألبسّه قلنسوه ذهب، ففرّج اللّه عنه؛ و خرج من السّجن؛ و كان منه ما ذكرنا.

ثمّ إن الظّاهر سيّر عسكرا مع الدزبرىّ و ضمّ رافع بن أبى الليل إليه و قدّمه على الكلبيّين(۲)، و جهزّه إلى محاربه حسّان بن المفرّج الطّائى، لأنّه كان قد أخرب الشام، و عاث، و أفسد.

فلما علم حسّان بقربه استصرخ صالحا، فتوجّه نحوه؛ فرأى صالح ذلك الشّخص فى المنام بعينه، قد دخل عليه و انتزع من رأسه القلنسوه الذّهب؛ فتطير من ذلك.

و لما وصل إلى حسّان و نشبت الحرب بينهما و بين الدزبرى، و ذلك بالموضع المعروف بالأقحوانه(۳) على الأردنّ، طعن صالح فسقط عن فرسه،

۱- حلت محل رفنيه بلده بارين، التى يرسم اسمها الان« بعرين» و هى تتبع ناحيه عوج و تبعد عنها ۵، ۸ كم إلى الشمال، و تتبع عوج منطقه مصياف، و فى بعرين بقايا قلعتها التاريخيه الشهيره. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

۲- كان سنان بن عليان قد توفى، فتمزقت قبيله كلب، و تحالف رافع بن أبى الليل مع الدزبرى و صاهره، مما أخل بموازين القوى و أدى إلى انهيار الحلف الثلاثى. إماره حلب ص ۸۱- ۸۳.

۳- كانت على شاطى ء طبريه قرب عقبه أفيق. معجم البلدان.

طعنه طریف الفزاری، فرآه رافع بن أبی اللیل فعرفه، فأجهز علیه، و قطع رأسه، و بادر به الدّزبری.

و قیل: طعنه رجل یقال له ریحان. [و کان] أسد الدّوله صالح [علی](۱) فرس؛ فما زال یرمح حتی رماه، و جاءه رافع فأخذ رأسه؛ و کان مقتله لخمس بقین من شهر ربیع الآخر سنه عشرین و أربعمائه. و قیل: فی یوم الأربعاء ثامن جمادی الأولی من السّنه.

و کان قاضی حلب فی أیامه القاضی أبا یعلی عبد المنعم بن عبد الکریم بن سنان المعروف بالقاضی الأسود، بعد ابن أبی أسامه، ولی قضاءها سنه ست عشره، و استمرّ علی القضاء فی أیام ابنه شبل الدّوله.

و کان وزیر صالح تاذرس بن الحسن النصرانی، فأخذ فی الوقعه و صلب و کان هذا النصرانی متمکّنا عند صالح؛ و کان صاحب السّیف و القلم.

و قیل: إنّه کان یترجّل له- لعنه اللّه- الولاه و القضاه، فمن دونهم إلا القاضی أبا یعلی عبد المنعم بن عبد الکریم بن سنان قاضی حلب، و الشیخ أبا الحسن المهذّب بن علی بن المهذّب فانه أراد أن یترجّلا له فحلف أن لا یفعل.

۱- جاءت الجمله بالأصل مضطربه کما یلی« فرس أسد الدوله صالح، فما زال یرمح حتی» فأعید تقویمها.

و قیل: إنّ أهل «حاس»(۱)- قریه بمعرّه النّعمان- قتلوا حماه، و كان يقال له الخوری، و كان من أهل تلمنّس لأذّيته لهم؛ فحين سمع تاذرس بقتل حميه الخوری، خرج فی عسكر حلب؛ و طلب أهل «حاس» فی الجبال و الضّياع؛ و هرب القاتلون إلى أفاميه، فلحقهم، فسلّمهم إليه واليها.

فكتب إلى صالح يستأذنه فی قتلهم، فأذن له فقتلهم، و صلبهم، فلما أنزلوا عن الخشب ليصلّى عليهم و يدفنوا، صلّى عليهم خلق عظيم.

و قال الناس حينئذ، يكايدون النّصارى: «قد رأينا عليهم طيورا بيضا، و ما هی إلا الملائكه»، فبلغت هذه الكلمه تاذرس- لعنه اللّه- فنقمها على أهل المعرّه، و اعتدها ذنبا لهم.

فاتفق أن صاحت امرأه فی الجامع، يوم الجمعه، و ذكرت أنّ صاحب الماخور أراد أن يغصبها نفسها، فنفر كلّ من فی الجامع إلا القاضی و المشايخ؛ و هدموا الماخور، و أخذوا خشبه؛ و كان أسد الدّوله صالح فی صيدا، سنه سبع عشره و أربعمائه.

فلمّا توجّه إلى حلب، سنه ثمان عشره، لم يزل به تاذرس حتى اعتقل مشايخ المعرّه و أماثلها، فاعتقل منهم سبعين رجلا، و قطع عليهم ألف

۱- حاس: قريه فی جبل الزاويه، تتبع ناحيه كفرنبل، منطقه معره النعمان، محافظه ادلب، تبعد آثارها عن المعره ۹ كم إلى الجنوب الغربی منها. المعجم الجغرافی للقطر العربی السوری.

دينار. و قال له صالح حين لجّ عليه: «أأقتل المهذّب أو أبا المجد، بسبب ماخور! ما أفعل!».

و قـد بلغنى أنه دعى لهم فى آمـد و ميّافـارقين؛ فغلبه على رأيه، فبقوا فى الاعتقال فى الحصن، سـبعين يوما، إلى أن اجتاز صالح بالمعرّه؛ و استدعى أبا العلاء بن سليمان بظاهر المعرّه.

فلما حصل عنده بالمجلس قال له الشّيخ أبو العلاء، ساعيا فيهم:

«مولانا السّيد الأجل أسد الدوله و مقدّمها و ناصحها، كالنّهار الماتع، اشتدّ هجيره، و طاب أبرداه، و كالسّيف القاطع، لان صفحه، و خشن حدّاه، خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ(١) فقال صالح: «قد وهبتهم لك أيّها الشّيخ». و لم يعلم أبو العلاء بما قطع عليهم من المال فأخذ منهم. ثم قال أبو العلاء شعرا:

تغيّبت فى منزلى برههستير العيوب فقيد الحسد

فلمّا مضى العمر إلا الأقلّ و حمّ لروحى فراق الجسد

بعثت شفيعا إلى «صالح»و ذاک من القوم رأى فسد

فيسمع منّى سجع الحمام و أسمع منه زئير الأسد

فلا يعجبنّى هذا النّفاق فكم نفقت محنه ما كسد(٢)

١- سوره الأعراف- الآيه ١٧٧.

٢- لزوم مالا يلزم- ط. دمشق ١٩٨٦ ص ٥٣٤. إماره حلب ص ٢٠٩- ٢١١.

[إماره نصر بن صالح]

[إماره نصر بن صالح](۱)

و لمّا قتل صالح بن مرداس؛ ملک حلب بعده ابناه:

معز الدوله أبو علوان ثمال فی القلعه، و شبل الدوله نصر فی المدینه.

و أوقعا فی هذه السنه على قيبار(۲) بقطبان أنطاكيه ميخائيل الخادم. و كان قصد بلد حلب بغير أمر الملک و لاطفه ثمال و نصر؛ فلم يرجع عن قصد بلد حلب؛ فكبساه فی قيبار، و هو يقاتل حصنها؛ و قتل جماعه من الفريقين؛ و انهزم عسكر الرّوم يوم الخميس لليله بقيت من جمادى الآخره.

ثم استعطّفاه و استقامت الحال بينهم(۳)؛ و داما على ذلک إلى أن جرى بين معزّ الدّوله ثمال و بين زوجته كلام؛ فغضبت عليه؛ و خرجت إلى الحلّه بظاهر حلب؛ فأمر ثمال أن يصاغ لها لالكه(۴) من ذهب مرصّعه بالجواهر؛

۱- أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

۲- القيبار: حصن بين أنطاكيه و الثغور. معجم البلدان.

۳- إماره حلب ص ۸۸- ۸۹.

۴- لالک بالفارسيه: حذاء، عرف الديک، تاج. اكليل. المعجم الفارسی الكبير لابراهيم الدسوقی شتا. ط. القاهره- مكتبه مدبولی.

فلما استوت أخذها فى كمّه و خرج.

فحين علم نصر ركب و اجتاز تحت القلعه، كأنّه يريد الخروج من باب العراق، فى جماعه من أصحابه؛ و جذب سيفه لمّا قارب باب القلعه؛ و هجمها فلم يمانعه أحد من الأجناد لهيبته؛ و تبعه أصحابه مجرّدين سيوفهم؛ فجلس فى المركز و قال: «إنّ من قدّم أخى علىّ فقد أساء؛ لأنّنى أولى بمداراه الرّجال؛ و هو أولى بمداراه النّساء».

و من ذلك اليوم جعل لأبواب قلعه حلب سلسله تمنع الرّاكب الصعود فجاءه، و رسم أن لا يدخلها أحد متقلّدا سيفا، و لو أنّه أقرب النّاس مودّه إلى مالكها.

فتفرّد نصر بالأمر فى القلعه و البلد، و ذلك فى سنه إحدى و عشرين و أربعمائه. و كان وزيره أبا الفرج المؤمل بن يوسف الشمّاس، الذى ينسب إليه حمّام الشمّاس بحلب؛ فى الجلّوم(۱)؛ و كان نصرانيا و كان حسن التّدبير، محبّا لفعل الخير؛ و كان أخوه ناظرا فى البلد البرّانى، فعمره، و عمر المساجد البرّانيه.

فجمع أبو علوان ثمال بن صالح الأعراب؛ و عزم على منازله أخيه نصر؛ فسيّر نصر إلى ملك الرّوم أرمانوس- و كان قد هلك باسيل فى سنه

۱- من أحياء حلب القديمه، كان ينفذ إلى ظاهر المدينه بباب أنطاكيه غربا و باب قنسرين جنوبا. أحياء حلب و أسواقها لخير الدين الأسدى- ط. دمشق ۱۹۸۴ ص ۱۶۴- ۱۷۲.

خمس عشره، و ولی أرمانوس- يستدعيه إلى حلب فخرج على ما قيل فی ستّمائه ألف حتّى وصل إلى أنطاكيه.

فتوسّط مقدّمو العرب بين نصر و ثمال؛ و وفقوا بينهما على أن يكون لنصر حلب؛ و لثمال بالس و الرّحبه؛ فرجع نصر عمّا كان راسل به ملك الرّوم.

و أرسل ابن عمه مقلّد بن كامل بن مرداس إلى ملك الرّوم، يسأله أن لا يقصده، و يحمل إليه من القطيعه ما كان يحمله أولاد سيف الدوله إلى باسيل، فأبى و اعتقل مقلّد بن كامل عنده؛ فحين تحقّق رجوع نصر عن رأيه الأول جبن و ضعف عن منازله حلب.

و سار من أنطاكيه إلى قيبار فی بضعه عشر يوما؛ و كسرت سريه له عرب حلب؛ و كانوا قد طاردوا عسكر الرّوم، فاستظهر الرّوم عليهم، و كان معه ملك البلغر، و ملك الرّوس، و الأبخاز، و الخزر و الأرمن، و البجناك، و الأفرنج.

و نزل الملك بجيوشه على تبّل قريبا من الجبل، فی موضع بعيد عن الماء، و ضرب على عسكره خندقا؛ و كانت أمواله على سبعين جمّازه؛ و كان قدر موضع عسكره لمن يدور حوله مقدار يوم فی يوم للمجدّ الرّاكب على فرس.

و لقيه فی طريقه أبو علوان دفاع بن نبهان الكلابیّ فی خيل قليله؛ فنال من سراياه كلّ ما طلب؛ و أرسل الملك سريّه فيها صناديد عسكره إلى عزاز؛

فلقيتها بنو كلاب، فظفروا بها، و قتلوا بطارقها، و أسروا جماعه من أولاد الملوك الذين معهم، و جسرت عليهم بنو كلاب، فحاصروهم فى الموضع الذى نزلوا فيه.

و لقد أخبر بعض من شاهدهم أن مقثاوه كانت قريبه من العسكر بمقدار رميه سهم، و أن الرّوم لم يقطعوا منها قثّاءه واحده، خوفا من العرب أن تتخطّفهم.

و لمّا كسرت السريه التى أرسلها الملك أجمع رأيه على العود إلى بلاده، و اعتذر قائلا: «لولا عطش عسكرى لبلغت مرادى». و هجم نصر و العرب على سوق الملك فنهبوه؛ و تأخّر رحيل ملك الرّوم من منزلته ثلاثه أيام.

و أقبل شبل الدوله نصر فى تسعمائه و ثلاثه و عشرين فارسا، و قيل فى سبعمائه فارس؛ فحين أشرف على الرّوم ظنّوا أنّها كبسه؛ فانهزموا؛ و منح اللّه أكتافهم يوم الاثنين لسبع ليال خلت من شعبان سنه إحدى و عشرين.

و نزع ارمانوس الملك خفّه الأحمر لئلا يعرف؛ و لبس خفّا أسود- و لا يلبس الخفّ الأحمر عندهم إلا الملك- و هرب. و أخذ شبل الدّوله تاجه و بلاطه و لبّاده؛ و هرب فى أرمن كانوا معه حموه بالسّهام(۱).

و أخذ الرّوم الطريق إلى الجبل منهزمين و طلعوا فيه، و حصلوا فى بلد

۱- عالجت هذه الأحداث فى كتابى إماره حلب ص ۸۷- ۹۶، معتمدا على مختلف المصادر، لا سيما البيزنطيه منها.

قورس(۱)، و کان للرّوم. و لحق بعضـهم بعضا و لم يبق مع الملک إلا القليل. و قتل المسلمون من بطارقته و غيرهم ما لا يحصى، و أسـروا من أولاد الملوک و غيرهم كذلک، و اشـتغل النّاس بالنّهب، و أخذوا من الدّواب و الثياب و الديباج و الأمتعه و آلآت العسكر ما لا يوصف.

و ذكر أنّ طـائفه مـن بنى قطـن من نمير وردت عنـد الهزيمه؛ فأخـذت ثقـل الملـک نحـوا من ثلاثمـائه بغـل محمّله، حتّى أنّهم تقاسموا الدنانير الأرمانوسيّه بالقصعه؛ فحصل لكلّ واحد منهم ثمانى عشره حفنه.

و كـان ملـک الرّوم لمـا رحـل طرح النّـار فى المنجنيقـات و العرّادات و التّراس؛ و نهب النّـاس منهـا ما أبقته النّار، حتى أنّ أكثر سقوف بلد حلب جعلت التّراس عليها عوض الدفوف.

و قيل: إنّ الناس بحلب باتوا على السّور قبل الوقعه بيوم، و فيهم ابن نمير العابد، فبات يصـلّى على السّور، و سـجد فى آخر اللّيل، فنام و هو ساجد، فرأى فى منامه عليا- عليه السّلام- راكبا، و لباسه أخضر، و بيده رمح، و هو يقول له: «ارفع رأسک يا شيخ، فقد قضيت حاجتک». فانتبه بقوله فحكى للنّاس ذلک، فتباشروا به.

و حكى عن مرتضى الدّوله أنّه قال: «استدعانى أرمانوس فى آخر تلک

۱- لعل قورس المعروفه الآن باسم كويرى، و تبعد عن حلب مسافه ۳۳ كم. و كانت قورس كالمسلحه لأنطاكيه. بغيه الطلب ج ۱ ص ۲۶۳- ۲۶۴.

اللیله التی رأی ابن نمیر تلک الرؤیا فیها، فقال لی: لکم بحلب راهب.

فعلمت أنّه یعنی ابن نمیر، فقلت: نعم؛ فقال: صفه لی! فوصفته، و حلّیته.

فقال لی: رأیت هذا الرجل بعینه فی هذه السّاعه، و کأنی قد أشرفت علی سور هذه المدینه؛ و هو قائم علیه یومی إلیّ بید و یقول: ارجع، فما تصل إلی هذا البلد. و تکرّر ذلک، و لا أری أنه یتمّ فیه شی ء. فلمّا کان من غد کسرت السّریه التی أرسلها الملک إلی عزاز، ثم کانت الوقعه و الهزیمه بعد ذلک».

و قد ذکرنا عن ابن نمیر نحوا من هذه الحکایه، عند منازله ملک الروم حلب.

و حکی بعض الکتّاب بحلب: أنه کان فی خدمه وثّاب بن محمود بن نصر، عند تاج الدّوله تتش بن ألب أرسلان، و هو فی نوبتیه علی ظاهر حماه، فخلع علی وثاب فرجیّه و شقّ، و قال: «هذه مبارکه أخذها أبی السلطان ألب أرسلان من دیوخانس ملک الرّوم لمّا کسره»(۱).

قال: فاستدعی وثاب قحف مینا ظاهرا و باطنا، و قال: «هذا یا مولانا مبارک نشرب به لأن جدّی نصرا أخذه من الملک أرمانوس بناحیه عزاز».

فقال تاج الدوله: «یا وثّاب لم یکن بد من مساواتی فی الافتخار». فقال: «لا بل عرّفت مولانا کبر بیتی، و إنّنی له کبعض العبید الصّغار». فقال له بالترکی: «بل أنت أخی الکبیر». فقام وثاب؛ و قبّل الأرض قدّام السّریر، فزاد فی إقطاعه، و خلع و حمله علی مرکوبه.

۱- لما کسره فی معرکه منازکرد سنه ۴۶۳ ه.

و قيل: إنّ ثمالا و نصرا حقد عليهما ملك الرّوم ما جرى منهما على ميخائيل بناحيه قيبار، فخرج بنفسه، فسيّرا ابن عمهما مقلّد بن كامل يبذلان له الطاعه و الخدمه، و كان قد سيّر إليهما يسومهما تسليم حلب، و يقول إنّه يخاف أن تتم عليهما حيله فتخرج حلب من أيديهما؛ و عرض عليهما عوضا عنها ما اختاراه؛ فاعتقلا رسوله انتظارا لما يرد من جواب رسالتهما.

فبلغه ذلک فاعتقل مقلّد بن كامل، و خرج بنفسه؛ فأخرجا حرمهما من حلب إلى البرّيه خوفا منه، حتّى كان من أمره ما ذكرناه؛ و كان ثمال فى القلعه يحفظها، و نصر باشر القتال.

فلما عاد ملک الرّوم سار نصر و ثمال لاحضار حرمهما، فسبق نصر إليها، و استولى عليها، و عوّض ثمالا بوساطه من توسّط بينهما الرّحبه و بالس و منبج و أعمالها.

و خرج بعد هذه الكسره قطبان أنطاكيه الخادم المعروف بنقيطا- و تفسيره بالعربيه الدويک- فى خلق عظيم، فعاث فى البلد العربىّ، و أفسد، و فتح حصن المنيقه، و هجم رفتيّه، و سبى عشره آلاف من أهلها، و نقض أبرجه سورها فى سنه إحدى و عشرين؛ و فتح فى سنه اثنتين حصن بنى الأحمر، و حصن بنى غناج، و غير ذلک من الحصون و خربّها(۱).

۱- يرجح أن هذه الحصون وجدت ما بين منطقه القدموس امتدادا حتى سفوح منطقه جبله و طرطوس. انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص ۴۱۸- ۴۲۲، فالمنيقه سيكون من حصون الدعوه الاسماعيليه، و بدّل اسم بكسرائيل إلى بنى قحطان، و مرقيه تحمل الاسم نفسه أو اسم نبع حسان فى أحواز طرطوس إلى جانب منتجع الرمال الذهبيه.

فراسله شبل الدّوله و لاطفه إلى أن صالحه، و جعله سفيرا بينه و بين ملك الرّوم فى طلب الهدنه، فاستقرّ أن يحمل نصر فى كل سنه إلى ملك الرّوم دراهم خمسمائه ألف درهم، فى نجمين من السّنه، قيمتها ثمانيه آلاف مثقال ذهب.

و أطلق الملك مقلّد بن كامل بن مرداس رسول نصر، و أعطاه صليبا من ذهب مرصّعا أمانا لنصر، و وفاء بالشّرط.

و سيّر شبل الدوله نصر شيخ الدوله أبا الحسن بن الأيسر إلى الظاهر بمصر؛ و حمل إليه هديّه من جمله ما غنمه من الرّوم، من الثياب، و الصياغات، و الأوانى، و الألطاف الكثيره. و قاد فى صحبته نحو مائه و خمسين رأسا من الدواب، خيلا و بغالا، و وقع فعله عندهم أحسن موقع(۱).

و قام أبو الحسن الجرجرائى بتمهيد أمره.

و أقام ابن الأيسر إلى أن توفى الظّاهر، فخلع المستنصر على ابن الأيسر؛ و سيّر معه خلعا لنصر بن صالح، و لقّبه مختصّ الأمراء، خاصّه الإمامه، شمس الدّوله و مجدها، ذو العزيمتين.

و فى أيّام نصر اجتمع بجبل السّماق قوم يعرفون بالدّرزيّه منسوبون إلى رجل خيّاط أعجمىّ؛ و جاهروا بمذهبهم، و خرّبوا ما عندهم من المساجد، و دفعوا نبوه الأنبياء، و جحدوهم إلا الإمام الحاضر الذى يدعو إليه الدّرزى،

۱- عالجت هذه القضيه فى كتابى إماره حلب ص ۹۶- ۹۹.

و أحلّوا نكاح المحارم، و تفاقم أمرهم، و تحصنوا فی مغایر شاهقه علی العاصی، و انضوی إلیهم خلق من فلاحی حلب، و طمعوا بالاستیلاء علی البلاد.

فخرج إلیهم نقیطا قطبان أنطاکیه، و حاصرهم فی المغایر، و دخّن علیهم، و ساعده علی ذلک نصر بن صالح صاحب حلب، ثمّ التمسوا الأمان بعد اثنین و عشرین یوما، فأخرجوهم بالأمان؛ و قبضوا علی دعاتهم و قتلوهم؛ و ذلک فی شهر ربیع الأول من سنه ثلاث و عشرین و أربعمائه.

و فی هذه السّنه استوحش سالم بن مستفاد الحمدانیّ من شبل الدّوله نصر؛ و کان صالح بن مرداس قد ولاه رئاسه حلب بعد ما سلّمها إلیه، و قدّمه علی الأحداث، و أبقاه نصر بعده علی حاله إلی هذا التاریخ و استقرّ علیه أحداث حلب و رعاعها؛ و لبسوا السلاح؛ و عوّلوا علی محاربه القلعه.

و کان یتردّد بین سالم و بین شبل الدّوله کاتب نصرانی یعرف بتوما و کان یحرّف ما ینقله عن ابن مستفاد إلی نصر، و یزید فی التجنی، و یسوم شططا لا یمکن إجابته إلیه، و ذلک من غیر علم ابن مستفاد.

فلما رأی شبل الدّوله نصر کثره تعدیه حمل نفسه علی محاربته، و رکب إلیه؛ فلمّا رآه الحلبیّون دعوا له و انقلبوا إلیه، و قاتلوا دار ابن مستفاد، فطلب الأمان فحلف له أنه لا یجری له دما و حبسه بالقلعه، و نهبت داره؛ ثم خاف استبقاءه فقتله خنقا، لیخرج عن یمینه بأنه لم یجر له دما.

(۱)

۱- انظر إماره حلب ص ۹۸- ۹۹.

و تبيّن لنصر بعد قليل كذب ذلك النصرانىّ الكاتب، و ما كان يحرّفه فى رسالته فقبض عليه، و طالبه بمال؛ فلما استصفى ماله دخل عليه بعض أجناد القلعه فخنقه فى ذى القعده. و قيل ذى الحجه من سنه خمس و عشرين و أربعمائه.

و دام نصر بن صالح فى مملكه حلب إلى سنه تسع و عشرين و أربعمائه.

و قتل فى المصاف بينه و بين أمير الجيوش الدّزبرى.

و ذلك أن أمير الجيوش استقرّ بدمشق، بعد قتله صالح بن مرداس بالأقحوانه؛ فسعى جعفر بن كليد الكتامى والى حمص فى إفساد ما بين نصر بن صالح و أنوشتكين الدّزبرى. و كان عند أنوشتكين استعداد لذلك لقتله صالحا أباه؛ فشرع جعفر بن كليد يغرى أنوشتكين بنصر، و يحمله على أذاه حتى خرجا إلى الوحشه و المنافره.

فكاتب الدّزبرى ملك الروم، و استأذنه فى محاربه نصر، و استنقاذ حلب منه، و أن يؤدّى ما عليه من الحمل المقرّر إليه، فأذن له فى ذلك، فاستمال الدّزبرى جميع العرب من: الطائيّين، و الكلبيّين، و بعض الكلابيين، و سيّرهم إلى نصر بن صالح و معهم رافع بن أبى اللّيل. و من قبله من المغاربه، و اجتمع إليه علان بن حسّان بن الجرّاح الطائى.

و رحل الدّزبرى قاصدا حماه، و كان عسكره قد تقدّم إلى وادى الملوك، شرقىّ الرّستن؛ فحين عرف نصر بخروجهم جمع بنى عمّه و عسكره؛ و نزل تلا غربىّ سلميه، و التقوا فكسر نصر و أصحابه، و شرع فى جمع من قدر

علیه، و استنجد بشبیب بن وثّاب أخی زوجته.

و رحل الدّزبری عقیب الوقعه الأولی إلی حماه، فدخلها، و نهبها. ثم رحل منها فالتقوا عند تلّ فاس، غربی لطمین(۱)، فانهزم ثمال بن صالح.

و ثبت نصر فی خواصّ أصحابه، و قاتل قتالا شدیدا، فطعن و وقع، و احتزّ رأسه فی نصف شعبان. و قیل: لسبع عشره لیله بقیت منه، من سنه تسع و عشرین و أربعمائه.

و حمل رأسه إلی الدّزبریّ فحمله، و تأسّف علیه، و أظهر علیه حزنا، و أنفذ من تسلّم جثته فصلبت فی حماه علی الحصن، ثم أمر بانفاذ ثیاب، و طیب، و تکفین الجثّه فی تابوت، و دفنها فی المسجد؛ فنقلها مقلد بن کامل لمّا ملک حماه إلی قلعه حلب.

و قیل: إنّ الذی قتله ریحان الجوینی، و أجهز علیه هفتکین الترکی المعروف بالسروری. و تأمّل المنجّمون الوقت و الزمان الذی قتل فیه أبوه فکان بین قتله و قتل أبیه أربعه أیام، یرید من السنین الشمسیّه(۲).

۱- لطمین الآن احدی قری محافظه حماه، و تبعد عنها مسافه ۳۶ کم.

۲- انظر معالجه هذه المسأله فی کتابی إماره حلب ص ۹۹- ۱۰۱.

[عهد أنوشكتين الدزبرى]

[عهد أنوشكتين الدزبرى](۱)

و لما هرب ثمال بن صالح وصل إلى حلب، و معه شبيب بن وثّاب، فى يوم الثلاثاء سادس عشر شعبان؛ فملكها ثمال، و وعده مشايخها بالمعونه و النّصر، فخوّفه خليفه بن جابر الكعبى، و قال له: «ربّما خذلتك عشيرتك و قعد بك أهل البلد، و لم يمكنك الثبات و المقاومه، و لا الانصراف على حال السّلامه». و أراد بذلك غشّه لا نصحه.

و كان أمير الجيوش قد سيّر فى أثرهم إلى حلب عسكرا يقدمه طغان المظفّرى، فخاف ثمال من المقام بحلب، و ولّى بقلعه حلب مقلّد بن كامل بن مرداس، و بالمدينه خليفه بن جابر الكعبىّ.

و أطلق للتجّار ديونا كانت لهم على أخيه مقدارها ثلاثون ألفا ذهبا، ليستميل الناس بذلك إلى طاعته؛ و أخذ أولاد أخيه، و أخذ شبيب(۲) زوجه أخيه- أخته غلويّه المعروفه بالسيّده- و أخذا من المال و الآنيه الذّهب و الفضّه و الثّياب ما قدرا على حمله؛ و ساروا إلى الجزيره.

۱- أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

۲- شبيب بن وثاب النميرى، و أخته علويه بنت وثاب زوج نصر وام محمود بن نصر.

و قيل: إنّ السيّده أخذت من القلعه عند قتل نصر خمسين ألف دينار، و أخذ ثمال ثلاثين ألفا، و سار ثمال يستنجد بأخواله بنى خفاجه.

و وقعت الفتنه بحلب، و نهبت دار السّلطان، و أموال التجار. و كان رسول ملك الرّوم قد وصل إلى حلب فنهب العامّه متاعه و دوابّه.

و أما طغان فانّه لما وصل بالعسكر إلى حلب نزل على المدينه، فراسله خليفه بن جابر الكعبىّ و من وافقه من الحلبيّين فى تسليم البلد؛ فتسلّمه فى يوم السبت الرّابع من شهر رمضان.

و أنفذ رسولا إلى الدّزبرى يعلمه بذلك؛ فأغذّ السّير إلى حلب، و وصل إليها فى عده قليله، و اجتاز فى طريقه بمعرّه النّعمان، فالتقاه أهلها، فأكرمهم و سألهم عن أبى العلاء بن سليمان. و قال لهم: «لأسيرنّ فيكم بسيره العمرين». و اجتمع عنده بالمعرّه كثير من العرب، فخشى منهم، فأركب رجلا من أصحابه جملا، و نادى بمعرّه النّعمان و بظاهرها: «من لم يأخذ معه قوت ثلاثه أيّام فلا يلومنّ إلا نفسه». فلم يبق من العرب أحد حوله؛ و ظن كلّ منهم أنه يطلب حلّته.

و تمّ أمير الجيوش إلى حلب، فدخلها يوم الثلاثاء السابع من شهر رمضان، و القلعه مستعصيه على أصحابه فى يد سيف الدّوله مقلد بن كامل بن مرداس، و قد احتوى على الأموال التى بها، و استولى على جمهورها.

فتردّدت الرسل بينه و بين مقلّد حتى قرّر له عمّا فى القلعه ثمانين ألف دينار، و ثيابا، و فرشا، و آلات فضّه، مكرا و خديعه و أن يأخذ المقلّد الباقى،

و قنع الدّزبرى بذاك؛ و أفرج له عن نزوله و خروجه فسلّم مقلّد القلعه و صعد إليها أمير الجيوش، يوم الثلاثاء لثمان بقين و قيل لسبع بقين من شهر رمضان.

و أقام مقلّد يوما واحدا بعد نزوله من القلعه؛ و هرب بما معه من الأموال خوفا من غدر الدّزبرى به؛ و لحق بحلّته و بثمال بن صالح بالجزيره؛ و نادى الدّزبرى فى مدينه حلب بأن يخرج منها جميع الجند و الحواشى الذين كانوا يخدمون ابن صالح.

و اجتمع النّاس من سائر البلدان ليهنئوه بالفتح؛ و جلس للهناء فى القصر بباب الجنان؛ و عيّد عيد الفطر بحلب؛ فذكر أنّه لم ير بحلب عيد أحسن منه، لكثره ما أظهر فيه من العدّه و الآله؛ و أحسن إلى أهل حلب؛ و أمر بردّ ما كان صالح اغتصبه من أملاك الحلبيّين؛ و تزوج بنت منصور بن زغيب. و ولّى بقلعه حلب مملوكين له: أحدهما يقال له فاتك، و الآخر سبكتكين؛ و ولّى بالمدينه غلامه رضىّ الدّوله بنجوتكين.

ثمّ قصد بالس و منبج؛ فأخذهما. و رام أخذ الرّحبه فلم يقدر عليها.

و أقام بحلب إلى أن عيّد عيد الأضحى، و سار إلى دمشق. و مدحه ابن حيّوس بقصيده يذكر فيها قتل نصر، يقول فيها:

و لمّا طغى «نصر» أتحت له الرّدى و لم ينجه الجمع الكثير و لا الحشد

(۱) و بأخرى يذكر فيها فيها فتح حلب، أوّلها:

۱- ديوان ابن حيوس- ط. دمشق ۱۹۵۱ ج ۱ ص ۱۷۳.

هل بعد فتحك ذا لباغ مطمع للّه هذا العزم ماذا يصنع(۱)

و ولّى قضاء حلب أبا الوليد سليمان بن خلف الباجى سنه واحده(۲)؛ ثم وليه بعده القاضى أبو الحسن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبى جراده- جدّ جدّ أبى-(۳).

و مات شبيب بن وثّاب النميرى فى سنه إحدى(۴) و ثلاثين و أربعمائه.

و استولى أخواه مطاعن و قوام على ما كان فى يده من الجزيره؛ و كانت أخته السيّده علويّه- امرأه نصر- مقيمه بالرّافقه؛ فتحيّلت على غلام أخويها الوالى بالرافقه إلى أن أخرجته؛ و استولت على البلد، و تزوجت بثمال لتقيم هيبتها به، و يحفظ أمرها.

و وقع فى هذه السّنه وقعه بين عسكر الرّوم و عسكر حلب، فكسر عسكر أنطاكيه الحلبيّين؛ و عاد الدّمستق إلى أنطاكيه، و دخل طغان حلب، و حصل ثمال بن صالح فى الرّقه، و خشى الدّزبرى من قربه إلى حلب، فاشترى قلعه دوسر(۵) ليكون مطلا عليه. و راسل نصر بن مروان صاحب ميّافارقين فى أن يزوّج ابنته لابنه، فأجابه إلى ذلك، فاستوحش المصريّون منه

۱- ديوان ابن حيوس- ج ۱ ص ۳۳۷.
۲- لأن الباجى عاد إثر هذا إلى الأندلس.
۳- هذه هى المره الأولى التى دانت فيها جميع بلاد الشام للفاطميين انظر كتابى إماره حلب ص ۱۰۵- ۱۰۹.
۴- بهامش الأصل: بلغ مقابله و سماعا بخط المؤلف.
۵- هى قلعه جعبر القائمه الآن فى وسط بحيره سدّ الفرات فى سوريه.

لذلک، و أنفذ إلی مصر لیحضر زوجته و ابنته، فلم یطلقهما الوزیر.

و ثقل علی الوزیر الجرجرائی فتح الدّزبری حلب، لأنه لم یکن برأیه؛ و أنکر ذلک فقال الدّزبری: «قد خرف الوزیر»، و بسط لسانه فیه بالکلام القبیح، فکاتب ولاه الشّام بترک الانقیاد له؛ و کتب توقیعا عن المستنصر لثمال بن صالح بحلب؛ و شرط علیه أن یحمل جمیع ما بقلعتها من المال إلی المستنصر.

و کاتب أجناد دمشق، و أغراهم به فثاروا علیه، و أحدقوا به بقصر کان له فی ظاهر دمشق؛ فهرب من دمشق لیلا؛ و معه ثلاثمائه صبیّ من غلمانه الأتراک لیس لواحد منهم لحیه، و علی وسط کل واحد منهم ألف دینار؛ و أحدقت به بنو کلاب فلم یقدروا علیه.

و نزل بحصن المعره، ثم سار منها إلی حلب؛ و لقیه عسکره بها فی أراضی سرمین، فدخل حلب فی شهر ربیع الآخر من سنه ثلاث و ثلاثین و أربعمائه.

و شرع ثمال بن صالح فی جمع عشیرته، و حشد من أجابه من العرب و غیرهم لمنازله حلب؛ و طمع فی الدّزبری. فرأی بنفسه الذلّ لمّا لم یکن له طاقه بدفعهم، و زاد همّه و غمّه، حتّی مرض مرضا حادا؛ و مات بعد ثلاثه أیّام، یوم الأحد النصف من جمادی الأولی سنه ثلاث و ثلاثین و أربعمائه.

و دفن بحلب؛ ثم نقل منها إلی البیت المقدّس، فی سنه ثمان و أربعین

و أربعمائه(۱).

فدّبر البلد بعده مملوكه رضيّ الدوله بنجوتكين التّركيّ أبو منصور، بقيّه جمادى الأولى و ثمانيه و عشرين يوما من جمادى الآخره؛ فوصل معزّ الدّوله أبو علوان ثمال بن صالح بالتّوقيع الذى سيّره إليه المستنصر، فسلّم بنجوتكين و أهل المدينه إليه، لليلتين بقيتا من جمادى الآخره من سنه ثلاث و ثلاثين و أربعمائه، بعد أن نزل إليها و معه مقلّد ابن عمّه فى جماعه، و قاتلوها أيّاما، و استظهر الحلبيّون عليهم، فرحلوا إلى ناحيه قنّسرين.

و جرى بين الحلبيّين و المغاربه عربده، و قتل بينهم جماعه، و نهبت أهراء السّلطان، و طلع أصحاب الدّزبرى إلى القلعه خوفا على أنفسهم، فلم يمكنهم سبكتكين من دخولها، فنزلوا فى القصر تحت القلعه.

و استدعى الحلبيون ثمالا و مقلّدا. فورد مقلّد فى مقدّمته من قنّسرين، فتسلّمها يوم الاثنين لليلتين بقيتا من جمادى. و وصل ثمال يوم الثلاثاء، فدخلها و اجتمع إليه أحداثها. و اعتصم سبكتكين بالقلعه شهرا و سلّمها إليه.

و قيل: إنه بقى بها إلى النصف من صفر سنه أربع و ثلاثين و أربعمائه؛ و ان القلعيّين رموا على الحلبيّين، و أتوا على عدد كثير منهم، و أصلح الحلبيّون المنجنيقات، و قاتلو بها القصر الذى تحت القلعه، و نقبوه، و خربوا حيطانه مما يلى المدينه مع قطعه من سور المدينه من ناحيه باب العراق.

۱- بحث فى حقبه حكم الدزبرى من مختلف الجوانب فى كتابى إماره حلب ص ۱۰۹- ۱۱۱.

و ثبت سبکتکین علی الحصار مدّه سبعه أشهر، و استنصر الفریقان(۱) و نفد ما مع آل مرداس من المال، و وقع المرض فی القلعیّین فأفناهم، و أیس الباقون من نفوسهم فجنحوا إلی التّسلیم، و اصطلحوا علی شروط منها أن لا یعرض لأحد من القلعیّین بمساءه، و انتظم الأمر و سلّمها سبکتکین بجمیع ما فیها بعد أن أخذ لنفسه ثلاثین ألف دینار، و لورثه الدّزبری اثنین و ثلاثین ألف دینار.

۱- راسل ثمال الامبراطوریه البیزنطیه و طلب تأییدها. إماره حلب ص ۱۱۳

[إماره ثمال بن صالح]

[إماره ثمال بن صالح](۱)

و استقرّ ملک حلب:

لمعزّ الدّوله أبی العلوان ثمال بن صالح بن مرداس.

و وصله تشریف من المستنصر فی سنه ستّ و ثلاثین. و درّت الأرزاق فی أیامه علی النّاس، و أحسن السّیره معهم، و جاد بالعطاء.

و ظهر فی أیّامه ببعلبک رأس یحیی بن زکریّا فی حجر منقور فنقل إلی حمص ثم إلی حلب، فوضع بمقام ابراهیم- صلی اللّه علیه- بقلعه حلب فی سنه خمس و ثلاثین و أربعمائه.

و کان ثمال لمّا طاول حصار قلعه حلب قد رغب إلی تدورا ملکه الرّوم، و سیّر رسولا یلتمس نصرتها و إعانتها و انتماءه إلیها، فرتبت ثمالا ماخسطرس علی حلب، و مقلّد ابن عمه بسطرخس، و جعلت له واجب الماخسطریه عن حلب؛ و رتّبت صالح بن ثمال، و منیع بن مقلّد، و محمود بن نصر، و عطّیه و حسنا أخوی ثمال، بطارقه. و رتبت السّیده علویّه أم محمود بطریقه؛ و أطلقت لجماعتهم واجبات هذه المراتب؛ و سیّرت إلیهم هدایا کثیره؛

۱- أضیف ما بین الحاصرتین للتوضیح.

و شرطت على ثمال أن يحمل فى كلّ سنه ما كان يحمله أخوه نصر، على الشروط المشروطه عليه(۱).

و كـان المستنصر قـد وقّع لثمـال بحلب على أن يحمـل إليه جميع مـا بقلعتها من المال- على ما ذكرناه- فلمّا استولى ثمال على حلب حمـل إلى المستنصر من ذلـك مـائتى ألف دينـار؛ و أفرد برسم عمـاره القلعه و مساكنها و مصانعها خمسه و سبعين ألف دينار؛ و إقامه العوض عما استنفد من العدّه و هلك من أصحاب الأسلحه باستعمالها و الابتذال لها فى الحرب ثلاثين ألف دينار؛ و ما أخذه من آلات ذهب و فضّه و غيرها خمسه عشر ألف دينار.

فلمّا علم المستنصر بـذلك شقّ عليه ذلـك، و وقعت الوحشه بينه و بين معزّ الـدّوله ثمـال، فعصـى ثمـال على المستنصر، فسيّر المستنصر إليه إلى حلب الأمير ناصر الدّوله أبا محمد الحسن بن الحسين بن الحسن بن حمدان(۲)، و معه عبد العزيز بن حمدان، و شجاع الدّوله بن كليد.

و كان ناصـر الـدّوله بن حمـدان قـد ولّى دمشق من قبل المستنصر بعـد الـدّزبرى، فوصـلوا إلى حلب بعد أن فتحوا حماه و معرّه النّعمان، فى سنه تسع و ثلاثين و أربعمائه؛ فطاف بحلب و لم ينزل بها؛ فخرج أهل حلب لقتاله، فهزمهم و اختنق منهم فى الباب- على ما يقال- سبعه عشر ألف نفس.

۱- انظر إماره حلب ص ۱۱۳- ۱۱۴.

۲- هو الحسن بن الحسين بن الحسن بن عبـد اللّه بن حمدان، ناصـر الدوله بن ناصر الدوله. ترجم له ابن العديم فى بغيه الطلب ص ۲۳۲۹- ۲۳۳۳.

و عـاد ناصـر الـدّوله فنزل بصـلدى- قريـه قريبـه مـن حلب على نهر قويـق- فجـاءهم سـيل فى اللّيـل لم يسـمع بمثله، فغرق أكـثر المضارب، و أتلف الرجال، و أهلك الدّواب المشـبوحه، فانهزم ناصـر الدّوله عن حلب إلى دمشق، فقبض عليه الأمير منير الدّوله بها فى شهر رجب من سنه أربعين و أربعمائه، و سيّر إلى مصر(۱).

و كان معزّ الـدّوله ثمال قـد خاف من الحلبيّين أن يسـلموا البلـد إلى أبى محمـد بن حمـدان حين توجّه إلى حلب؛ فقبض أعيان الحلبيين- و منهم قاضـى حلب أبو الحسن بن أبى جراده- و اعتقلهم بـالقلعه سـنه أربعين، فلمّا كفى أمر ابن حمـدان أطلقهم فى سنه اثنتين و أربعين و أربعمائه.

و قتل معزّ الـدّوله منهم الشـريف أبا على محمـد بن محمد بن صالح المحبره بسـعايه ابن الأيسـر به، دون الباقين؛ فانّ ابن الأيسـر صعد إلى مصر رسولا فتحقّق براءه الباقين من تهمه تتطرق إليهم.

و وصل شجاع الدوله بن كليد والى حمص، فى سنه أربعين و أربعمائه عائثا على بلد حلب، فخرج إليه مقلّد بن كامل بن مرداس و أبو الوفاء حفاظ المعرّى، فى جمع من الكلابيين و رجّاله الحلبيّين و الفلاحين، فالتقوا بكفر طاب.

و مضى ابن كليد لينهزم، فلحقته بنو كلاب، فقتل فى هذه المرّه شجاع

۱- إماره حلب ص ۱۱۴- ۱۱۵.

الـدّوله بن كليد والى حمص؛ قتله جعفر بن كامل بن مرداس، و حمل رأسه إلى حلب. و كان المنجّم رأى أنّه يدخل إلى حلب، فدخلها قطعا، و انهزمت عساكره.

فسـار مقلّـد بن كامل إلى حماه ففتحها بعـد أن قاتل حصـنها أيّاما؛ ثم سار إلى حمص و وجـد ابن منزو قـد أتاها فى عسـكر من دمشق، فانهزم إلى باطن حمص، و قاتل قتالا عظيما فقلّ عليه الماء، فخرج ابن منزو إليهم بالأمان.

ثم إنّ المستنصر سيّر الأمير أبا الفضل رفق(۱) الخادم الى جيش كثيف إلى حلب، فى سـنه إحدى و أربعين، و قيل سنه اثنتين. و نزل على حلب على مشهد الجف، فقاتله الحلبيّون، فانكسر عليها و جرح و أخذ أسيرا، فمات فى قلعه حلب فى الأسر.

و سيّر معزّ الدّوله كلّ من بقى من أصحابه مأسورا إلى مصر؛ ففى ذلك يقول الأمير أبو الفتح بن أبى حصينه:

يا رفق رفقا ربّ فحل غرّه ذا المشرب الأهنى و هذا المطعم

حلب هى الدّنيا تلذّ و طعمهاطعمان شهد فى المذاق و علقم

قد رامها صيد الملوك فما انثنواإلا و نار فى الحشا تتضرّم(۲)

۱- لرفق الخادم ترجمه فى بغيه الطلب ص ۳۶۷۴- ۳۶۷۸.

۲- ديوان ابن أبى حصينه- ط. دمشق ۱۹۵۶، ج ۱ ص ۲۴۷.

و كـان رفق لّمـا نزل على حلب داهن عليه العرب الكلبيّون، فأشار عليه عسـكره أن يرحل عن حلب إلى صـلدع فلم يفعل؛ فأشـير عليه أن يقبض على أمراء طى ء و كلب فلم يفعل، فقيل له أن ينشـى ء سجلا عن السلطان بانّه قد أقطع الشام لمعزّ الدّوله، و يعود بهيبته فلم يفعـل؛ فلمّـا رآه أمراء العسـكر لاـ يلتفت إليهم، و لاـ يقبل مشورتهم، و وقع القتال، انهزم العرب فانهزم العسـكر معهم، فسيّر رفق إليهم و أمرهم بالعود فلم يلتفتوا.

و خرج من حلب خيـل يسـيره فشاهـدوا رحيـل العسـكر فظنـوا أنه حيله فـاتبعوهم، و غنمـوا منهم. و خرج من بحلب فلحقوا رفق الخادم، فى طرف جبل جوشن، و جرح ثلاث جراحات، و أخذ و الضّرب القوىّ برأسه، فمات فى القلعه و دفن فى مشهد الجفّ. و نهب من العسكر شى ء عظيم من الأموال و القماش و الدّواب(۱).

ثم أن معزّ الدّوله ثمالا اسـتمال المستنصـر بعد هذه الوقعه، و لاطفه، و حمل القسط إلى مصر على يد شيخ الدّوله علىّ بن أحمد بن الأيسـر، و سـيّر معه ولـده وثّـاب و زوجته علويّه بنت وثّاب المعروفه بالسـيّده، و سـيّر معه من مال القلعه أربعين ألف دينار، و هدايا، و ألطافا فاخره، و تحفا جليله.

فلمّا وصلت أكرمها المستنصر غايه الإكرام، و حضرت بين يديه،

۱- اسـتنجد ثمـال ببيزنطه، و اسـتجاب الاـمبراطور قسـطنطين التاسع إلى طلب ثمال، فبعث رسولا إلى القاهره يطلب ايقاف حمله رفق و يهدد بالتدخل لصالح ثمال. إماره حلب ص ۱۱۶- ۱۱۹.

فقبّلت الأرض، و قالت: «خصّک اللّه یا أمیر المؤمنین بأفضل تحیّه و سلام».

فردّ علیها أفضل ردّ؛ و سألها عمن خلّفته بالشام، فقالت: «فی نعیم و خیر إن أنعمت علیهم بأمان و ذمام، حسبما جرت به عاده هذا البیت المنیف من الإحسان و الإکرام».

فأعجبه منها سرعه جوابها و حسن توصّلها، و قال لها: «أنت المسمّاه بالسّیده» فقالت: «نعم، سیّده قومی و أمتک یا أمیر المؤمنین، صلوات اللّه علیک». فقال: «ما خیّب اللّه من فوّض تدبیر أمره إلیک فی هذه الرّساله». ثم أمرها أن تمل علی کاتبها تذکره لیوّقع لها بجمیع ما تقترحه توقیعا مفردا، و توقیعا بحلب و سائر أعمالها لمعزّ الدّوله.

و أمر لمعزّ الدّوله بتشریف و لجمیع بنی عمّه، و أفاض علیها ما غمرها و جمیع أصحابها و حاشیتها؛ و عادت بمقصودها(۱).

و لما وردت زوجه معزّ الدّوله إلی حلب سکن معزّ الدّوله إلی ذلک، و اطمأنّ، و نشر العدل، و طابت قلوب الرّعیّه. و ولی وزارته فی سنه اثنتین و أربعین و أربعمائه رجلا من أهل الرّحبه یقال له أبو الفضل ابراهیم بن عبد الکریم بن الأنباری، و لقّبه الثقه الکافی؛ و کان رجلا حسن السّیاسه.

و سیّر ثمال شیخ الدّوله علیّ بن أحمد بن الأیسر، فی سنه ثلاث و أربعین، رسولا إلی القسطنطینیه بالمال المقرّر علیه فی کلّ سنه، و بهدیه

۱- انظر إماره حلب ص ۱۱۹.

فشاهدوا من سداده و كمال مروءته ما أوجب لهم أن ميّزوه عن غيره من الرّسل، و أكرموه، و جعلوه بسطرخس فى مرتبه مقلّد بن كامل، و جعلوا مقلدا ما خسطرس فى مرتبه ثمال، و جعلوا ثمالا ابريدرس(۱)؛ و سيّروا إليه هديّه سنّيه عوضا عن هديّته.

و مات قاضى حلب أبو الحسن بن أبى جراده فى سنه خمس و أربعين، فولّى القضاء بحلب القاضى أبا محمد كسرى بن عبد الكريم بن كسرى و إليه ينسب آدر بنى كسرى(۲) بحلب.

ثم قدم الوزير فخر الدّوله أبو نصر محمّد بن محمّد بن جهير حلب فاستوزره معزّ الدّوله، و فوّض أموره جميعها إليه، فاستقامت، و تضاعف ارتفاعه، و ضبط أمواله، فحسد على مكانه، و قربه منه، فسعى به إلى معز الدّوله. و كان معز الدّوله له وفاء و ذمه فتبّهه على ما سعى به عليه، فاستأذنه فى المفارقه ففسح له فى ذلك، فسار من حلب سنه ستّ و أربعين و أربعمائه، و قصد ابن مروان.

فولّى معزّ الدّوله وزارته سديد الدّوله أبا القاسم هبه اللّه بن محمد بن

۱- Protoproedrus منصب رفيع أبدع فى القرن الحادى عشر للميلاد. انظر Cambridge ۲۲ P, ۲ P art, ۴ Vol, Medieval History.

۲- حيث قامت المدرسه الصلاحيه فى محله سويقه على، و أسست المدرسه من قبل الأمير المملوكى صلاح الدين يوسف بن الأسعد الدوادار ت ۷۴۵ ه]. الآثار الاسلاميه و التاريخيه بحلب ص ۲۲۸- ۲۲۹.

الرعبانی الرحبی إلی أن سلّم حلب إلی المستنصر؛ و سافر ابن الرعبانی إلی مصر، فولاه المستنصر وزاره مصر عشره أیّام، ثم عزله، ثم أعاده إلی الولایه فأقام فیها عشره أیام و انصرف.

و وصلت الخلع و التشریف من مصر لثمال، فی محرم سنه سبع و أربعین و أربعمائه، علی یدی أبی الغنائم صالح بن علی بن أبی شیبه، فمدحه أبو القاسم هبه اللّه بن فارس المؤدّب بقصیده أوّلها:

لا زال طوعا لأمرک الأمم و لا خلت من دیارک النّعم

و تنکّر معزّ الدّوله ثمال لثقته و أمینه شیخ الدّوله علیّ بن أحمد بن الأیسر، و قد ساء رأیه فیه، فصرفه عمّا کان یتولاه من أموره، و أقام مقامه سالما و مسلما ابنی علی بن تغلب. و استوحش ابن الأیسر من المقام بحلب خوفا علی نفسه فتسبّب فی أن سار إلی مصر.

و أرسل ثمال سالما إلی تدورا الملکه بهدّیه، و التمس منها الزیاده فی مرتبته، فقبلت هدیته، و عوضته عنها، و أجابته إلی ملتمسه، و جعلت سالما بسطرخس عوضا عن ابن الأیسر.

و اندفع البساسیری(۱) المتغلّب علی بغداد إلی الشام، فی سنه سبع و أربعین و أربعمائه، منهزما من طغرلبک؛ و حصل فی أرض الرّحبه، و وصل

۱- للبساسیری ترجمه فی بغیه الطلب ص ۱۳۴۷- ۱۳۵۷. کما و عالجت مسأله قیام هجره الغز و تأسیس السلطنه السلجوقیه و إثر ذلک ثوره البساسیری فی کتابی مدخل إلی تاریخ الحروب الصلیبیه- ط. دمشق ۱۹۷۳ ص ۱۳- ۱۲۴.

فى قل من الرّجال، فلقيه معزّ الدّوله ثمال و أكرمه و حمل إليه مالا عظيما.

و حدّث بعض العرب من بنى كلاب أنّهم لم يروا مثله فى الشجاعه و المكر و الحيله؛ و كان إذا ركب معزّ الدّوله قفز إليه، ليمسك له الرّكاب، و يصلح ثيابه فى السّرج، و همّت بنو كلاب بالقبض عليه فمنعهم معزّ الدّوله.

ثمّ ندم بعد ذلك فإنه تقدّم إلى بالس، و شتّى بشطّ الفرات؛ و اجتمعت إليه العرب و الأتراك، ففزع منه معزّ الدّوله؛ و كان قد عرض عليه معزّ الدوله أولا مفاتيح الرّحبه فلم يأخذها منه؛ ثم طلبها منه فى هذه الحاله ليجعل فيها ماله و أهله، فى سنه ثمان و أربعين، فسلّمها معز الدوله إليه.

و كان معزّ الدّوله كريما معطاء حليما. فمّها يحكى من كرمه: أنّ العرب اقترحوا عليه مضيره(۱)، فتقدّم إلى وكيله أن يطبخها لهم، و سأله: «كم ذبحت لأجلها؟» فقال: «سبعمائه و خمسين رأسا». فقال: «و اللّه لو أتممتها ألفا لوهبت لك ألف دينار».

استغنى أهل حلب فى أيّامه، حتى أنّ الأمير أبا الفتح بن أبى حصينه امتدحه بقصيده، شكا فيها كثره أولاده، و كان له أربعه عشر ولدا، قال فيها:

جنيت على نفسى بنفسى جنايهفأثقلت ظهرى بالذى شبّ من ظهرى

عداد الثّريّا مثل نصف عدادهم و من نسله ضعف الثّريّا متى يثرى

و أخشى اللّيالى الغادرات عليهم لأنّ اللّيالى غير مأمونه الغدر

۱- المضيره أن تطبخ اللحم باللبن.

ولی منک إقطاع قدیم و حادث تقلّبت فیه تحت ظلّک من عمری

و ما أنا بالممنوع منه و لا الّذی أخاف علیه منک حادثه تجری

و لکنّنی أبغیه ملکا مخلّداخلود القوافی الباقیات علی الدّهر(۱)

فأمر معزّ الدّوله بإحضار شـهود، أشـهدهم بتملیکه ضیعتین من أعمال حلب و منبج، مضافتین إلی ما کان له من الإقطاع؛ فأثری و حسنت حاله؛ و عمر بحلب دارا؛ و کتب علی روشنها(۲):

دار بنیناها و عشنا بهافی نعمه من آل مرداس

قوم محوا بؤسی و لم یترکواعلیّ للأیّام من باس

قل لبنی الدّنیا ألا هکذافلیفعل النّاس مع النّاس(۳)

فکتب معزّ الدّوله له دارا إلی جانب داره؛ و هی الآن لبعض الشـراف بحلب بالبلاط، تجاه المسـجد؛ و الدّار التی بناها إلی جانبها مقابل حمّام الواسانی(۴).

و ممّا یحکی عن معزّ الـدّوله: أنّ فرّاشا من جمله الحفـده صبّ یوما من الأیّام علی یـده ماء بإبریق کان فی یـده، فصادفت أنبوبه الإبریق بعض ثنّیته،

۱- دیوان ابن أبی حصینه ج ۱ ص ۳۵۱- ۳۵۲، و فیه أن القصیده قیلت فی مدح عطیه بن صالح.

۲- الروشن: الشرفه.

۳- دیوان ابن أبی حصینه ج ۱ ص ۳۶۰- ۳۶۱، و فیه أنه قالها فی مدح نصر بن صالح.

۴- کانت فی محله سویقه علی، و هی قد زالت تماما بعد فتح طریق إلی القلعه سـنه ۱۹۴۵. الآثار الاسلامیه و التاریخیه فی حلب ص ۱۷۶- ۱۷۷.

فکسرتها و سقطت فی الطّست، فهمّ به الغلمان فمنعهم، و أمر برفعها، و عفا عنه، فقال ابن أبی حصینه:

حلیم عن جرائمنا إلیه و حتّی عن ثنیّته انقلاعا(۱)

و لمّا اتسع الرّزق علی معزّ الدّوله، و لم یبق له عدوّ یقصده، اضطرب علیه بنو کلاب، و امتدّت أعینهم إلی ما فی یده، و استقلّوا ما کان یصل منه إلیهم، و أکثروا فی العنت له، و قالوا: «لولانا ما صرت إلی ما صرت إلیه، و ما أنت بأحقّ منّا بذلک، فینبغی أن تفرضه علی جمیعنا».

و أوجب الزیاده فی ذلک أنّ معزّ الدّوله فی سنه تسع و أربعین، سلم الرقه و الرافقه إلی منیع بن شبیب بن وثّاب النمیری، لأنّها کانت لأبیه و کانت عمّته السیّده زوجه معزّ الدّوله- و کانت قبله عند أخیه شبل الدّوله، فولدت له محمود بن نصر- و هی التی أخذتها من غلمان أبیها، علی ما ذکرناه؛ فأعادها إلی منیع؛ فکثر اشتطاط بنی کلاب و فسادهم.

فکاتب معزّ الدّوله المستنصر فی تسلیم حلب إلیه؛ و طلب أن یعوّضه عنها أماکن تبعد عن مواطن الکلبیّین، لیأمن شرّهم و تزول منّتهم عنه؛ فأجابه المستنصر إلی ذلک؛ و عوّضه عنها بیروت، و عکّا، و جبیل(۲).

و أنفذ المستنصر نوّابه فتسلّموها منه؛ و هم: مکین الدّوله أبو علیّ

۱- دیوان ابن أبی حصینه ج ۱ ص ۱۶۸.
۲- لم تکن الأمور بهذه البساطه، بل ارتبطت بحرکه البساسیری مع أسباب أخری، انظر إماره حلب ص ۱۲۰- ۱۲۴.

الحسّن بن علىّ بن ملهم بن دينـار العقيلى، و عين الـدّوله أبـو الحسن علىّ بن عقيـل، و القاضـى أبـو محمّـد عبـد اللّه بن عيـاض قاضى صور، تسلّموا البلد و القلعه، فى ذى القعده من سنه ثمان و أربعين و أربعمائه.

و قد كان أبو على بن ملهم مقيما برفنيه؛ فقلّد الحرب و الخراج بحلب.

و فى اللّيله التى سلّمها معزّ الدّوله إليهم احترق المركز الشرقى بالقلعه، و ولّوا فى قلعه حلب رجلا يعرف بركن الدّوله.

و صـعد معزّ الدّوله مع عين الدّوله و قاضـى صور إلى مصـر، فلقى من المستنصر من الكرامه و الحباء ما لم يلقه وافد منه و لا من آبائه؛ و جعل له كلّ يوم، إلى أن وصل إلى مصر، ثلاثمائه دينار، و أعطى ما لم يعط أحد من المال و الجوهر و الآله؛ و كان إذا ركب السلطان حجبه، و كان ذنب دابّته عند رأس دابّه السلطان.

و اعتلّ معزّ الدّوله بمصر، فركب السلطان، فوقف بباب داره حتّى خرج إليه و سأله عن حاله.

[إماره محمود بن نصر الأولى]

(۱) و أما ابن ملهم:

فإنّه أقام بحلّب، و عدل فى الرّعيّه، و أحسن السّيره، و بسط وجهه و يده لهم، و رخصت الأسعار فى أيّامه، و بنى كثيرا من أبرجه سور حلب؛ إلى أن تجمّعت بنو كلاب و امتدّت أطماعهم إلى حلب. و ذلک أن البساسیری كان من المنتمين إلى المصريّين، و دعا لهم ببغداد، فى سنه إحدى و خمسين و أربعمائه فعاد السلطان طغرلبک، و جمع جموعا عظيمه، و لقى البساسيرى فقتله، و كانت الرّحبه فى يده- على ما ذكرناه.

فسار الأمير أسد الدّوله أبو ذؤابه عطيّه بن صالح إلى الرّحبه، فأخذ جميع ما تركه البساسيرى بها، من السلاح الذى لم ير مثله، كثره وجوده، و أموالا جزيله كانت للبساسيرى؛ ثم ولى فيها بعض أصحابه(۲).

فطمع بنو كلاب حينئذ فى حلب، و قوى جأشهم، و قدموا عليهم:

۱- أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

۲- انظر إماره حلب ص ۱۲۴- ۱۲۵.

الأمير محمود بن نصر بن صالح.

لأنّ حلب كانت لأبيه شبل الدّوله؛ فسار إليها محمود ببنى كلاب، فى جمادى الأولى سنه اثنتين و خمسين و أربعمائه؛ و نزل عليها، و قاتلها، و أقام عليها سبعه أيّام، و معه منيع بن مقلّد بن كامل؛ ثم رحل عنها.

فطلب الأحداث من مكين الدّوله مالا ينفقه فيهم، فقال: «قد أخذتم واجبكم المقرّر على الكمال، و تسلّفتم أيضا؛ فلا تطمعوا فى وصول شى ء آخر إليكم». فعصى أحداث(۱) حلب عليه، و غدروا به، و أنفذوا إلى محمود بن نصر بن صالح فردّوه.

فلمّا قرب منهم محمود، و ثب أهل حلب على دار الشريف القاضى معتمد الدّوله يحيى بن يزيد بن يحيى الحسينى الزّيدى، و كان قاضى الشّام، و على دار رجل يعرف بالظّهير جلال الدّوله؛ و كانا مكرمين لأهل حلب؛ فنهبوا داريهما؛ و أخرجوهما راجلين، حفاه، مكشّفى الرؤوس إلى الضّياع العربيّه، و كان من جملتهم: كندى، و ابن الزغرى، و ابن عنتر، و ابن النّاقد.

و وصل محمود ببنى كلاب، فسلّموا إليه حلب يوم الاثنين مستهلّ جمادى الآخره سنه اثنتين و خمسين و أربعمائه؛ و انحاز مكين الدّوله بن ملهم

۱- عالجت مسأله أصل منظمه الأحداث، و تكوينها و أدوارها فى كتابى إماره حلب ص ۲۱۵- ۲۲۰.

إلى القلعه، و تحصّن بها، و أنفذ إلى مصر رسولا، فطلب النّجده و الإعانه، فوصل الأمير ناصر الدّوله أبو على الحسين ابن الأمير ناصر الدّوله الحسن بن الحسين بن حمدان- و هو ولد ناصر الدّوله الذى نازل حلب أوّلا فى أيّام معزّ الدّوله- و قدم فى عسكر ضخم فى جيوش المغاربه، حتى نزل حمص لنصره أصحاب القلعه؛ فسارت إليه بنو كلاب و بنو خفاجه، و كانوا جيرانا لهم بالظّعن، فى خلق كبير.

فرجع ناصر الدّوله بن حمدان إلى بعلبك، و همّت بنو كلاب باتّباعه، فأبى عليهم أسد الدّوله أبو ذؤابه عطيّه بن صالح بن مرداس، و انحاز عنهم فافترقوا، و رجعوا إلى قنّسرين.

و أقبل ناصر الدّوله حتى نزل أفاميه، و استدعى من قدر عليه من بنى كلاب، و استحلفهم أربعين يمينا، و خلع عليهم خلعا فاخره، و سار بعد أن استوثق منهم، فلمّا وصل إلى سرمين أجفلت بنو كلاب و محمود إلى الشّرق، و أجفل أحداث حلب منها؛ و حصلوا مع بنى كلاب، و ذلك ليله الاثنين السّابع من رجب من السنه.

و نزل مكين الدّوله ابن ملهم و أصحابه من القلعه، فنهبوا المدينه، و قتلوا من وجدوا من أحداثها، و عدّتهم أربعون رجلا و صلبوا فى محال حلب جماعه من القتلى، و نهبوا كلّ موضع جليل يعرفونه بالمدينه، و قياسر الوكلاء، و أموال التجار، و غير ذلك.

و وصل ناصر الدّوله أبو علىّ الحسين فنزل حلب، و أراد أن ينهبها، فقيل

له: «إنّ أصحاب مكين الدّوله قد سبقوك؛ و لم يبق لك و لأصحابك إلا الاسم بلا فائده» فامتنع من النّهب. و قال: لا بد من أهل المدينه أن يقسطوا لى خمسين ألف دينار، عوضا عن ترحيل محمود عنهم، فبذلوا له خدمه فلم يفعل، و قال: «أنا أمضى إلى الفنيدق و أقابل محمودا على فعله، و أعود أنتقم من الحلبيّين».

فسار عن حلب فى مقدار خمسه عشر ألف فارس، و محمود فى دون الألفين؛ و نزلوا على الفنيدق و هو المعروف الآن بتلّ السلطان(۱)؛ و انهزمت بنو كلب و بنو طى ء؛ و بقى العسكر وحده؛ و قلّ الماء عليهم، فكسروا. و أسر الدنين بن أبى كلب الجهبلى الكلابىّ ناصر الدّوله، و أمكنته الهزيمه فلم ير على نفسه أن يولى، و أسر كل مقدم كان فى عسكره.

و قتلت بنو كلاب أكثر عسكره، و غنموا كلما كان فى العسكر، و لم يسلم منهم إنسان بالجمله إلا عاريا.

و بعد ذلك علم محمود بن نصر بن صالح بأسر الأمير ناصر الدّوله، فاشتراه من الدنين بألفين و سبعمائه دينار؛ و قيل: بأقل من ذلك.

و أسر رجل يقال له جبر من بنى كلاب أخا ناصر الدّوله، فاشترى

۱- تل السلطان قريه تعرف أحيانا باسم المرج الأحمر، و هى واقعه فى سهول ادلب الشرقيه، و تتبع ناحيه أبى الظهور، و تبعد عنها مسافه ۷ كم إلى الشمال الغربى. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

أيضا بمال كثير، و كانت الكسره فى يوم الأربعاء سلخ شهر رجب سنه اثنتين و خمسين و أربعمائه(١).

و وصل وقت الكسره أسد الدّوله أبو ذؤابه عطيّه بن صالح بن مرداس إلى حلب، و تسلّم المدينه من المغاربه، يوم الخميس؛ و دار فيها ساعه، و نزل عند شافع بن عجل بن الصوفى فى داره، التى هى الآن مدرسه القاضى بهاء الدين بن شداد.

و قيل: إن [ابن] ملهم استدعاه، و سلّم المدينه، و فرّج اللّه عن أهل حلب(٢). و قدم الأمير محمود بن نصر إلى المدينه، فانهزم عطيّه منه آخر النّهار من يوم الخميس مستهلّ شعبان؛ و تسلّم محمود البلد يوم الجمعه الثانى من شعبان سنه اثنتين و خمسين و أربعمائه، و هذا من أغرب الاتفاقات أن يملك حلب ثلاثه من الملوك فى ثلاثه أيّام متتابعه.

و أيس مكين الدّوله بن ملهم و ركن الدّوله والى القلعه، من حلب و من نجده تصل إليهما من مصر بعد هذه الكسره فأنفذا من استحلف محمود بن

١- هناك بعض الشكوك حول تفاصيل هذه الروايه و التواريخ فيها، لأنه من غير المعقول أن نتصور أنه يمكن فى مده قدرها اثنان و ثلاثون يوما انجاز الأعمال التاليه: توجه رسول من حلب إلى القاهره حاملا طلب المساعده، استجابه القاهره بإصدار الأوامر إلى والى دمشق ليقوم بواجب التفريج عن حلب، قيام هذا الوالى باطاعه ما صدر إليه من أوامر بتشكيل جيش فيه ما بين عشره آلاف إلى خمسه عشر ألفا من العساكر و قيادته نحو حلب! من أجل معالجه هذه المسأله انظر إماره حلب ص ۱۲۶- ۱۲۹.
٢- يبدو أن عطيه جاء بناء على اتفاق مسبق. اماره حلب ص ۱۲۹.

نصر على شروط اشترطاها عليه، و سلّما إليه القلعه فى عاشر شعبان من هذه السنه، بعد أن أخذا أولاد بنى كلاب: ولد محمود بن نصر، و ولد شبل بن جامع، و ولد محمود بن زائده، و ولد منصور بن زغيب، و جعلاهم فى حصن أفاميه رهينه على أنفسهما و عسكرهما و أموالهما ثم سيّرهم مع الأمراء فى الرّوج إلى أفاميه سالمين؛ و أخذوا أولادهم الرهائن و رجعوا إلى حلب.

و أما ناصر الدّوله، فبقى فى أسر محمود إلى أن قدم البلد عمّه معزّ الدّوله، فاصطنعه منيع بن وثّاب؛ و خلّى سبيله فى سنه ثلاث و خمسين.

و سيّر محمود كل من كان فى أسره من الأمراء و القوّاد إلى مصر، بعد أن أحسن إليهم، و شلّت يد ناصر الدّوله فى وقعه الفنيدق، فلمّا وصل إلى مصر ولاه المستنصر دمشق، فقال أبو الحسن علىّ بن عبد العزيز الحلبى الفكيك فيه:

على حلب به حلبت دماءو حكّم فيكم الرّمح الأصمّ

و قد أرسلته والى دمشق يد شلا و أمر لا يتمّ

و فى ذلك يقول أبو نصر منصور بن تميم بن الزنكل السرمينى من قصيده، يذكر فيها مآثر بنى كلاب:

أليس هم ردّوا ابن حمدان عنوهعلى عقبه لا يتّقون العواقبا

أليس ابنه يوم الفنيدق قاده دنين أبى كلب و عرّاه سالبا

و لما أخذ محمود حلب من ابن ملهم، كان عمّه معزّ الدّوله بمصر، فصرفه المستنصر عن عكّا و بيروت و جبيل، و قال له: «إنّ هذه الأماكن

أخـذتها عوضـا عن حلب، و قـد عـادت إلى ابن أخيـك، فتمضـى إلى حلب و تسـتعيدها منه»، فقال: «إنّ نوّابكم فرّطوا فأعينونى بمال». فأعانوه على ذلك بمال، و سيّروه، و قرّروا ألقابه: «الأجلّ، الأعزّ، تاج الأمراء، عماد الملك، سيف الخلافه، عضد الإمامه، بهاء الدّوله العلويه، و زعيم جيوشها المستنصريّه، علم الدّين ذو الفخرين مصطفى أمير المؤمنين».

فعـاد معزّ الـدّوله إلى حلب، و جمع قوما من عشـيرته، بعـد أن كاتبهم حين وصل إلى حمص، فأجابوه، و لقيه أكثرهم بحمص و بعضـهم بحمـاه، فلمّا نزل معرّه النعمان، أقام بها ثمانيه أيّام، و ضـيّق العرب على النّاس، و كان ذلك فى قوّه الشّتاء، فنزلوا منازل النّاس.

و سـيّر محمود الشـيخ أبا محمّـد عبـد اللّه بن محمّـد الخفاجى رسولا إلى ملك الرّوم، يسـتنجده على عمّه و بقى عندهم إلى أن ملك ثمال حلب؛ و كتب الخفاجى إلى حلب القصيده المشهوره:

هذا كتابى عن كمال سلامه(۱)

و رحل ثمال، فنزل حلب محاصرا لابن أخيه محمود، فأغلق محمود باب حلب فى وجهه؛ و عمل قوم من الأحداث؛ و فتحوا لمعزّ الدّوله باب قنّسرين.

و دخل أصحابه إلى أن وصلوا درب البنات، فنزل محمود من القلعه،

۱- طبع ديوان ابن سـنان الخفاجى فى بيروت سنه ۱۳۱۶ ه و كانت نسـخه منه موجوده فى المكتبه الظاهريه، فقدت و لم أسـتطع الحصول على نسخه أخرى فى سوريه، علما أننى وقفت على نسخه موجوده فى مكتبه معهد الدراسات الشرقيه و الأفريقيه بلندن.

و عاد أخرجهم و لم يقتل منهم واحد، و قبض على من كان سبب ذلك من الأحداث و هم: ابن حيّون، و ابن المغازلى؛ و ذلك فى ذى الحجّه من سنه اثنتين و خمسين و أربعمائه.

و وصل منيع بن شبيب بن وثّاب إلى حلب لنصره محمود ببنى نمير، و حصل مع محمود بالقلعه، فرحل معزّ الدّوله عن حلب؛ و نزل منيع ببنى نمير مدّه عشرين يوما فى ضيافه محمود، و أشار على محمود باطلاق ناصر الدّوله بن حمدان ففعل، و خلع عليه، و قاد خيلا كثيره إليه، و سيّره إلى مصر.

و سار محمود إلى الحانوته(۱) ليجمع العرب على عمّه فعاد معزّ الدّوله ثانى يوم مسيره، و نزل على حلب، ثم رحل طالبا لمحمود فلقيه، و كسره، و انهزم محمود، و دخل حلب فى ثلاث فوارس آخر صفر؛ و أسر معزّ الدّوله أكثر عسكره، و الأحداث الذين كانوا معه، و هم: كندى، و صبح، و ابن الأقراصى، و الشّطيطى، و اللّباد. و استأمن منهم صبح إلى القلعه، فحبسه نائب محمود، و قيّده خيفه من حيله تتمّ عليه.

و قصد محمود حسام الدّوله منيع بن مقلّد، و قال له: «أنت كنت مساعدى و معاضدى فى كسر العسكر المصرى الواصل مع ناصر الدّوله و أوثر أيضا أن تساعدنى على عمّى» فاستمهله إلى غد ذلك اليوم، و رحل فى اللّيل

۱- الحانوته أو تل الحواصيد، قريه فى هضبه حلب تتبع منطقه جبل سمعان. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

طالبا معزّ الدّوله، و قال لنائبه: «تقول لمحمود: عمّك هو الشيخ الكبير، و العرب تأنف من معاضده الولد على الوالد، بل أنا برحيلى أصلح الأمر بينكما إن شاء اللّه».

فأمر محمود كاتبه أبا العلاء صاعد بن عيسى بن سمّان النّصرانىّ بأن يعمل شعرا، يذكره فيه بعهده، و يعتب عليه فى اطراح ودّه، فكتب إليه:

ألا أيهّا السّارى تخبّ برحله قصيره فضل النّسعتين إذا تسرى

تحمّل- هداك اللّه- عنّى رسالهإذا بلغت يوما شفيت بها صدرى

إلى معشر إن تنح نحوى سهامهم فأخطأ منها ما توغّل فى صدرى

و خصّ حسام الدّوله ابن مقلّدأخا الغاره الشّعواء و الكرم الدّثر

و من علقت كفّاى حبل وداده و ما خلت أن تغتاله نوب الدّهر

تذكّر- هداك اللّه- يوما أظلّنابه الموت فى ظل الرّدينيّه السّمر

لقد غالنى فى ودّك الدّهر بعد ماغدوت أراه و هو من أنفس الذّخر

و حاشا لذاك العهد من بعد ما غدانقى الحواشى أن يدنّس بالغدر

و أنت من القوم الّذين نفوسهم ترى الغدر بالإخوان ضربا من الكفر

سأصفيك ما صافيت يوما بحفظه و آمل ان ضيّعتنى عاجل النّصر

و أنت عليم أنّنى غير جازع إذا ما رمانى الدّهر بالنّوب الغبر

و إنّى إذا ما يدج ليل خطوبهاأصدعه بالسّيف عن فلق الفجر

و ما الموت إلا خطّه حمّ وقتهاو أكرمها ما كان فى طلب الفخر

أبى اللّه و الأصل الذى طاب فرعه إلى اليوم إعطاء القياد على قسر

و أخسر من تلقاه فی النّاس صفقهفتی عند مجد لا يريش و لا يبری

فلا تحتقر ذنبا جنيت على الوفاو لا تعتذر منه فما لک من عذر

فقال منيع بن مقلّد و أبو العلوان ثمال لّما وصلت هذه القصيده: «من أين لمحمود هذه الفصاحه؟ و من له بالشّعر؟». فقيل: «إن هذا شعر أبی العلاء بن سمان النّصرانی». فقال منيع بن المقلّد: «لقد ألبسنی هذا النّصرانی من العار طوقا لا يبلی، و لئن عشت لأقابلنّه بما يكون له أهلا».

و تردّدت الرّسل بين ثمال و محمود، فی تسليم حلب، و توّسط بينهما مشايخ العشيره، و قالوا: هذا بمنزله والدک، فتأخذ من الأعمال ماشئت.

فأجابهم محمود: بأنّ هذا صحيح، و لكنه ضيّع مملكتنا و إرثنا، و قد استعدتها بسيفی، و بذلت فيها مهجتی. فاعترف له معزّ الدوله بذلک؛ و ضمن له معيشه بخمسين ألف دينار، و ثلاثين ألف مكوک غلّه. و شهد مشايخ العشيره بها.

و عاد محمود إلى حلب فی آخر ربيع الأوّل و قد استقرّ الصلح بينهما يوم الأربعاء الرابع و العشرين من شهر ربيع الأول من سنه ثلاث و خمسين و أربعمائه. و فتحت أبواب البلد عند دخوله؛ ثم خرج إلى عمه(۱) إلى المخيم، و استركبه يوم الاثنين مستهل ربيع الآخر من سنه ثلاث و خمسين و أربعمائه، و داخله القلعه، و سلّمها إليه، و سار محمود ليحضر أهله من الحلّه.

۱- بالأصل« عمله» و هو تصحيف واضح.

و لما استقرّ معزّ الدّوله بالقلعه، نفى من الحلبيّين الأحداث العتق جماعه، و صلب منهم خمسه عشر رجلا. و كاتب المستنصر بظفره بحلب، فسيّر إليه الخلع مع ظفر المستفادى، و لأخيه و لأولاده، و لحسام الدّوله منيع بن مقلّد. و لما وصل ظفر رأى المصلّبين من الأحداث فسأل فيهم فدفنوا.

و لمّا ملك معزّ الدّوله حلب جاء أبو العلاء بن سمان ليسلّم عليه، فحمل عليه ليطعنه، فطرح نفسه من بغلته، و غيّب شخصه عنه، و سار إلى أنطاكيه، و صار بها أسقفا إلى أن مات.

و فسد ما بين منيع بن وثّاب و بين ثمال. و كان منيع بالرّحبه، فسيّر ثمال أخاه أسد الدّوله عطيّه بن صالح، فى شعبّان من سنه ثلاث و خمسين و أربعمائه، لدفع منيع عنها؛ فأخذها عطيّه، و أقام بها، و عصى على أخيه ثمال، و عاد محمود إلى حلب من الحلّه بأمه السيّده، و اجتمع بعمّه معزّ الدّوله، و سارت السيّده، و أصلحت ما بين أخيها منيع و بين زوجها معزّ الدّوله(۱).

و فى المحرّم من سنه أربع و خمسين و أربعمائه، عمر الرّوم حصن قسطون(۲) و حصن عين التمر(۳)، فسار معزّ الدّوله فى جمادى الأولى لغزوهم،

۱- اماره حلب ص ۱۳۰.

۲- قسطون قريه فى الجزء الشمالى من سهل الغاب عند أقدام السفح الغربى لجبل الزاويه، قربها تل أثرى يحمل الاسم نفسه. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

۳- لم أقف على عين تمر فى بلاد الشام، و تشير المصادر المتفرقه أن بيزنطه أرادت تحصين خط- الثغور بدليل الخبر فى أن ثمال بن صالح غزا البيزنطيين و افتتح أرتاح، و المثير للانتباه تغيير ثمال لموقفه من بيزنطه، و لعل أسباب ذلك تغير موازين القوى إثر ظهور الغز و شروعهم باجتياح الأراضى البيزنطيه، و ادراك ثمال بعد عودته من القاهره، أن الخلافه الفاطميه باتت عاجزه عن ممارسه أدنى تهديد ضد حلب. إماره حلب ص ۱۳۰- ۱۳۱.

ففتح حصن أرتاح، فراسلوه فی الصّلح، فأرسل إلیهم شافع بن الصّوفی یقول: «لا أجیب إلی الصّلح إلا علی أن تهدموا الحصنین المجدّدین، و أن یکون لیلون للمسلمین، لا علقه لهم فیه، و یحملون عن حصن أرتاح مالا و یردّه علیهم» فضمنوا ذلک.

فرحل فی الثّانی من جمادی الآخره، و دخل إلی حلب، و لم یف الرّوم إلا ببعض ما ضمنوا له من الشّروط.

و بلغ معزّ الدّوله أن قوما من أحداث حلب مضوا إلی أنطاکیه، و تحدّثوا مع والیها فی تسلیم معرّه مصرین، و التدرّج منها إلی غیرها، و قالوا له: «حزبنا فی حلب و أصحابنا تحت أوامرنا». فلمّا صحّ عند معزّ الدّوله ذلک، طلبهم و أحضر منهم قوما و قتلهم. و هم: ابن أبی الریحان، و ابن مطر، و ابن الشّاکری، و بهلول؛ و صلبهم، و ترک باقیهم؛ و ذلک فی شهر رمضان من سنه أربع و خمسین.

و کبس الرّوم فی شوّال مریمین(۱) العقبه، و أحرقوها، و نهبوها، و أدرکهم الأمیر منصور بن جابر، و الأمیر حارثه بن عبد اللّه؛ و ظفروا بالرّوم علی کثرتهم و قلّه المسلمین؛ فقتلوا من الرّوم مقدار ألف و خمسمائه.

۱- عدّ یاقوت مریمین من قری حلب المشهوره.

و سار معزّ الـدّوله، فی العشر الثّانی من شوّال، للغزو فنزل قیبار، و فتحها، و نهبها، و قتل الرجال، و سبی النساء و الصبیان. ثم مرض معزّ الـدّوله فی العشر الأوّل من ذی القعده، من سنه أربع و خمسین و أربعمائه؛ و اضطرب البلد، فبلغه ذلک، فاستدعی أخاه أبا ذؤابه عطیّه بن صالح؛ و وصیّ له بحلب، و ولاه الأمر.

و توفی یوم الخمیس لستّ بقین من ذی القعده سنه أربع و خمسین و أربعمائه. و دفن فی مقام ابراهیم الفوقانی بالقلعه، داخل الباب الغربی؛ و عمل علیه ضریح؛ و بقی إلی أیّام الملک رضوان(۱)؛ و قلع و بلّط علیه.

۱- رضوان بن تتش. سترد أخباره فی العصر السلجوقی.

[إماره عطيه بن صالح]

(۱) و جلس أخوه:

أسد الدّوله عطيّه بن صالح بن مرداس

فی منصبه یوم الجمعه، فبلغ ذلک محمود بن نصر بن صالح و هو فی حلّته فلم یرض بالوصیّه، و أرسل إلى عطیه یقول له: «إنّ معزّ الدّوله شرط على نفسه أن یردّ علیّ البلد عند موته لمّا تسلّمه منّی، و أنا أخذته بسیفی من المصریّین عن غلبه و قهر؛ و هو إرثی عن أبی». و عرف ذلک مشایخ العشیره و اجتمعوا على صحّه ما ذکره، و ساعدوه على منازله حلب، فکان فی کلّ وقت یقصدها و یرعى زرعها و یأخذ ما فی ضواحیها و یرحل عنها.

فجاء فی رجب من سنه خمس و خمسین و أربعمائه، و نزل بحلّته على عین سیلم(۲)، فخرج إلیه أسد الدّوله عطیّه فکسره، و نهب حلّته و انهزم محمود.

۱- أضیف ما بین الحاصرتین للتوضیح.

۲- وقعت عین سیلم على مسافه ثلاثه أمیال من حلب، و کانت العرب تنزلها. معجم البلدان.

ثم إنّه تجمع إليه شبل الدّوله بن جامع، و محمد بن زغيب، و غيرهما من بنى كلاب، و نزلوا على قنّسرين- و عطيه نازل على السعدى بباب حلب- فلم يقدروا على النّزول على حلب.

فسار إليهم سيف الدّوله منيع بن مقلّد بن كامل فقوى جأش محمود به لأنه كان ذا مال عظيم. و كان كريما يطعم العرب و يعلق على خيلهم، و يخلع و يهب، فلما حصل معهم نزلوا على حلب. و حاصروا حلب شهورا فضرب حجر المنجنيق منيع بن مقلد فقتله.

و قيل: إن رجلا حقيرا ضرب صدغه بمقلاع فيه حجر، فبقى أيّاما، و مات؛ و ذلك فى العشر الأول من شوّال سنه خمس و خمسين و أربعمائه.

و أوصى منيع بجميع ماله و ما يملكه لخاله أسد الدّوله أبى ذؤابه عطيّه الذى كان يحاربه. و كان إقطاعه يرتفع منه كل سنه ثمانون ألف دينار؛ و كان له فى حصن يقال له المجدّد، ثلاثمائه ألف دينار، و سلاح و آله بمال عظيم.

و كان أبو الحسن علىّ بن محمد بن عيسى العمرى الحلبى وزير منيع؛ و كان عطيه قد دعاه إلى خدمته فامتنع، فلما مات منيع عاد أبو الحسن العمرى إلى حلب فقبض عليه عطيه، و قتله لحقده على ما فعله من امتناعه من خدمته.

و لعله احتج بأنه حمل منيعا على حصار حلب مع محمود؛ و بعد أن قتله صلبه؛ و رثاه أبو محمد الخفاجى بأبياته التى يقول فيها:

و معذل جار علی غلوائه یروی حدیث نداه عن أعدائه

و استوزر عطیه أبا الحسن علیّ بن یوسف بن أبی الثریا الـذی داره الآن مدرسه ابن أبی عصـرون(۱) بحلب. ثم صالـح عطیه بن مرداس ابن أخیه محمودا؛ علی أن یـدفع لمحمود إقطاعا بخمسه و عشـرین ألف دینار؛ من ذلک: سـرمین و باقی الاقطاع فی بلد حلب من الأرتیق(۲)؛ و تحالفا علی ذلک و تمّماه.

و فی نصف جمادی الأولی سـنه ست و خمسـین و أربعمائه، سـلم ثابت بن معز الـدوله إلی ابن عمه محمود معره النعمان و کفر طاب و حماه، و کان فیها من قبل عمه.

و ذلـک أن بنی کلاـب تجمعوا بـأرض شـیزر: شـبل بن جـامع بن زائـده، و محمود بن زائـده، و منصور بن محمـد بن زغیب، و حسـین بن کامل بن حسین بن سلیمان بن الدوح، و جماعه معهم من سبیعه و ذؤیبه؛ و أجمع رأیهم علی الوثوب علی بلدان أسد الدوله عطیه.

فأخذوا حماه و کفر طاب؛ و أتوا إلی معرّه النعمان و فیها شـهم الدوله خلیفه بن جبهان، فأخذ منهم أمانا و سـلّمها، و ساروا حتّی نزلوا قریبا من

۱- ما تزال هذه المدرسه تحمل الاسم نفسه فی محله الفرافره فی حلب. الآثار الاسلامیه و التاریخیه فی حلب ص ۲۲۶- ۲۲۸.
۲- ذکر ابن العدیم فی بغیه الطلب ج ۱ ص ۴۳۷، هذه الکوره و قال إنه یشرف علیها و علی عزاز جبل برصایا.

حلب، فسار عطيه من حلب يكبس محمودا، و كان بتل خالد(١) فظفر به محمود، و عاد عطيه منهزما إلى حلب.

و نزل محمود ببنى كلاب على حلب، و منعوا منها الميره، و حصروها، و قاتلوها قتالا كثيرا، و أشرفت على أمر عظيم من الجوع و قله ما يدخلها.

و كان أسد الدوله عطيه قد أرزق أحداثها، فمنعوا باقى أهلها من التسليم.

فلما رأى أسد الدوله ضعف البلد صالح ابن أخيه محمودا. فكان لعطيه حلب و الرحبه و بالس و منبج و عزاز و قنسرين. و سلّم بعد ذلك ما كان فى يده غير هذه المواضع المذكوره إلى ابن أخيه محمود بن صالح، و وقع الصلح على ذلك.

و استدعى عطيه ابن خان و كان فى ديار بنى مروان مغاضبا لأبيه ملك الترك، و كانت الروم تمده بالخلع و الدنانير إكراما لأسد الدوله عطيه لأنه كان مهادنهم، فقدم ابن خان إلى عطيه فى ألف قوس فأكرمهم و أضافهم.

فلما حصل ابن خان على باب حلب- و كان هذا أول دخول الترك إلى الشام- تجمعت بنو كلاب إلى محمود بن نصر بن صالح؛ و قصدوا حلب فرأى محمود أنه لا طاقه لهم بالترك فانهزم.

و مشى السفراء بين محمود و بين عطيه، فانعقد الصلح بينهما على أن يأخذ عطيه: حلب و الرحبه و منبج و عزاز و بالس و أعمال ذلك؛ و يأخذ محمود

١- كتبت هذه الصفحه بخط مختلف، و الكلمه مطموسه و هذه أقرب قراءه لها، و تل خالد قلعه قرب حلب. معجم البلدان.

ابن أخيه من الأثارب قبله و اقطاعه الـذى كان قـديما و ما كان فى يده فى أيام معزّ الدّوله ثمال. و تمّ ذلك فى المحرّم من سـنه سبع و خمسين و أربعمائه.

و خرج عطيّه بالأـتراك و أحـداث حلب إلى الغزو، ففتـح كمنون، و سبى أهلهـا، و عـاد إلى حلب غانما. و دخل ابن خان حلب فخاف الحلبيون و عطيه منه؛ فأغرى بهم الأحـداث من أهل حلب فنهبوهم ليلا، فى صـفر من سـنه سـبع و خمسـين و أربعمائه، و قتلوا منهم جماعه، و نهبوا خيولهم و سلاحهم و ما قدروا عليه من رحلهم.

و ركب ابن خان منهزما- و كان ظاهر البلد- و صاح تحت القلعه:

«أليس قد غدرت بى و بأصحابى يا عطيه، و اللّه لأنزلك منها على أقبح قضيه».

و سـار إلى الشـرق فعبرت طـائفه منهم إلى الجزيره فنهبتهم بنو نمير، و رجع الباقون فصادفوا عسـكرا للروم فى بطريق لهم يعرف بالنحت، فلم يجدوا بدا من شق عسكر الروم، و كان فى عشرين ألفا ففتح لهم الروم طريقا بينهم ليطبقوا عليهم فعبروا سالمين.

و قتلوا من الروم خلقا عظيما، و كان السالم منهم نحوا من مائه و خمسـين رجلا، فركبت عليهم العرب بنو قريظ و ربيعه بن كعب و غيرهم، فأشار أمير منهم يقال له قمار على الملك أن يموت كريما، و لا يثق بالعرب فلم يفعل.

و التجأ إلى منصور بن جابر فغدر به بعد أن كان أعطاه مقنعه زوجته و مخصرته؛ و قتل قمار و جماعه.

و سلم ابن خان فى جماعه فلحق بمحمود، و نزل عليه و هو بسرمين؛

فأمنهم؛ و بعث بهم إلى معره النعمان. ثم أن محمودا سير ولـده إلى أنطاكيه رهينه، فوجّهوا قطعه منهم، و تلقّاه بالجنايب فى كلّ منزل بمراكبها، و جعلوا له كلّ يوم خمسـين دينارا، و خلعوا عليه و على أصـحابه خلعا سنيه، و وهبوا له فى جمله ما وهبوا دبوس ذهب وزنه ثلاثمائه مثقال.

و سـار محمود بمن جمعه من العرب، و معه ابن خـان التركى و من انضوى إليه من التركمان، إلى مرج دابق، فخرج عطيه إليهم، و جمع جموعا كثيره من العوفيين و غيرهم، و قصد محمودا و التركمان، فى يوم الخميس حادى عشـر جمادى الآخره سنه سبع و خمسين، فالتقوا، فانهزم عطيه إلى حلب، و تبعه محمود بمن معه.

و نزل على حلب محاصـرا لها و فيها عمه عطيه و جاءه ظفر المسـتفادى رسولا من المستنصـر، و هو محاصـر حلب، و لقبوه عظيم أمراء العرب عضـد الـدوله، سـيف الخلافه، ذو الفخرين؛ و كان يلّقب أولا عزّ الدّوله، و شمسـها؛ فبقى محاصـرا حلب مائه يوم و يومين.

ثم سـلّمها إليه عمه أسـد الـدّوله بن صالـح بعـد حصار شديد و جوع عظيم؛ و أخذ عمه عطيه الرحبه، و عزاز و منبج؛ و بالس، و جميع الضياع التى شرقى حلب و شماليها؛ و أخذ محمود حلب و قبليها؛ و اصطلحا صلحا خالصا ذلت به لهما العرب(۱).

۱- يعـد دخول ابن خـان حـدثا هامـا فى تاريـخ حلب و بلاـد الشـام، و قـد عـالجت هـذه المسـأله و تقصـيت ما ورد فى مختلف المصادر حول ابن خان هذا. إماره حلب ص ۱۳۳- ۱۳۶.

[إماره محمود بن نصر الثانيه]

(۱) و دخلها محمود بن نصر يوم السّبت النصف من شهر رمضان سنه سبع و خمسين و أربعمائه، و استقرت ألقابه: الأجلّ، شرف أمراء العرب، سيف الخلافه، معزّ الدّوله و فخرها، و عضدها، ناصر الملك، ذو الحسبين(۲).

و مضى عطيّه إلى الرّحبه و كانت ألقاب عطيّه خالصه الأمراء، عمده الإمامه، عضد الخلافه، أسد الدّوله و سيفها، ذو العزيمتين.

و أقطع محمود معرّه النّعمان الملك هرون بن خان ملك الترك؛ فدخل

۱- أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

۲- رأيت منذ سنوات فى قلعه حلب حجرا ملقى داخل مسجد حلب حجمها ۵۱* ۳۱ سم عليه نقش مؤلف من خمسه أسطر جاء يـه: - بسم الله الرحمن الرحيم(أمر بعمله الأـمير)- الأجـل تـاج الملـوك ناصـر الـدين شـر(ف) الأـمه ذو الحسـبين خـالصه أمير المؤمنين أبو سـلامه محمود بن نصـر بن صالح. سنه خمس و ستين و أربعمائه. و عرف محمود بذى الحسبين لأن أباه من كلاب و أمه من نمير.

المعرّه یوم الأربعاء السّابع عشر من شوال، سنه ثمان و خمسین و اربعمائه، و وصل معه إلیها من التّرک، و الدّیلم، و الکرد، و الأوج(۱) مقدار ألف رجل مع حاشیتهم فنزل بالمصلّی.

فما رؤی أعف منهم عن البساتین و الکروم و غیرها، و لم یکونوا یأخذون من أحد شیئا إلا بثمنه؛ و سقوا دوابّهم الماء بثمنه. و فزعت العرب منه فزعا عظیما؛ ثم استدعی إلی حلب و عوّض معرّه النّعمان.

و خرج محمود بن نصر بابن خان و التّرکمان، فی سنه تسع و خمسین، و معه بنو عوف من بنی أبی بکر بن کلاب، فنزل المعشیره(۲)- من بلد حماه- ثم أتی حماه؛ و وطیء جمیع العرب و أذلّها.

و کانت العرب تطلب فتنه تقع بینه و بین عمّه عطیّه بن صالح، و کان بحمص، فظنّت بنو کلاب أنّه یحاربه؛ فلم یفعل عطیّه، لمعرفته بغدر العرب به مره بعد أخری؛ و أراد أن لا ینهدم مجد آل مرداس.

و فی هذه السّنه سلّم حسین بن کامل بن الدّوح «حصن أسفونا»(۳) إلی نوّاب المصریّین، بعد أن نهب عسکر التّرک «حناک»(۴) و جمیع ضیاعه بالشّام.

۱- الأوج اسم أطلق علی المسلمین من سکان الثغور البیزنطیه الاسلامیه.

۲- لعل المعیشره هی العشارنه الحالیه إلی الغرب من شیزر علی العاصی.

۳- أسفونا الآن تل أثری فی جبل الزاویه، ناحیه کفر نبل، منطقه معره النعمان یقع شمال غرب قریه اسمها سفوهن. المعجم الجغرافی للقطر العربی السوری.

۴- حناک- کما سلف القول- خربه أثریه فی جبل الزاویه تتبع منطقه معره النعمان.

و وقع الوباء العظيم بحلب، حتّى أنه مات فى رجب من هذه السّنه زهاء عن أربعه آلاف فضلا عن سائر الشّهور.

و فيها طلعت طائفه كبيره من التّرك، فنزل بعضها على دلوك و تقدم منهم نحو ألف، فنهبوا بلد أنطاكيه عن آخره؛ و أخذوا نحو اربعين ألف جاموس. و قيل أكثر، حتى أنّ الجاموس كان يباع بدينار، و أكثره بدينارين و ثلاثه. و أما البقر، و الغنم و المعز، و الحمير، و الجوارى، فلم يقع على ذلك إحصاء من الكثره. و كانت الجاريه تباع بدينارين و الصبىّ بتطبيقه نعال للخيل.

و خرب بلد الرّوم خرابا لم يسمع بمثله؛ و بقيت الغلات فى البيادر ما لها من يرفعها منهم، حتّى كان الفلاحون و سائر العوامّ يمضى الواحد منهم و يأخذ ما يريد، فلا يجد من يدافعه عن ذاك؛ لإنّ الرّوم تحصّنوا فى الحصون و الجبال، و المغاير، و تركوا بيوتهم على حالها لم يأخذوا منها شيئا، لأنّ التّرك أتوهم على غفله، و كان ذلك فى شوال.

و كان مقدّمهم أفشين بن بكجى، و كان قد غضب عليه العادل ألب أرسلان بسبب خادم كان زعيم بعض عساكره، فقتله الأفشين. و قطع الفرات إلى بلد الرّوم، ثم خرج إلى أعمال حلب، و باع الغنائم التى كانت معه.

و نزل فى سنه ستين حول أنطاكيه؛ و ضاق الشىّ ء فيها حتى بلغت

الحنطه قفيزين(۱) بدينار. فلمّا لم يبق شـی ء دون فتحها أتته كتب العادل ألب أرسـلان من العراق بالرّضا عنه. و قيل إنّ أصحاب مؤونه السّوق بحلب حصل فی دفاترهم نحو سعبن ألف مملوك و مملوكه سوی ما بيع بغير مؤونه فی بلد الرّوم و سائر البلدان، و أخذ من أصحاب أنطاكيه مائه ألف دينار، و مثلها من ثياب الدّيباج و الآله و سار إلی العراق فی جمادی الآخره من السنه.

و فی هذه السّـنه سـلّم أمير من أمراء المغاربه يعرف بابن المرأه حصن أسـفونا إلی الأمير عزّ الدّوله محمود بن نصـر بن صالح. و تولّی ذلك الأمير سديد الملك أبو الحسن علیّ بن منقذ.

و فی يـوم الثّلاثـاء السّـابع و العشـرين من شـعبان، فتحت أرتـاح بالسّـيف؛ و نهب جميع مـا فيهـا و مـا فی حصـنها من الأمـوال و الـذّراری؛ و كـان فيهـا خلق عظيم من النّصـرانيه لأـنّ جميع من كان فی تلك المواضع منهم حصل بها لأنّها كانت الكرسیّ لهم هناك. و قتل من رجالها نحو ثلاثه آلاف رجل؛ و قد كان الملك ابن خان حاصرها زهاء خمسه أشهر.

و أتی عسـكر عظيم من عسـاكر الرّوم، فنزل علی بـاب أنطـاكيه ليصالـح الملـك ابن خـان عن أرتاح و غيرها من بلاهم؛ فلم يتمّ بينهم صلح. و إنّما كان غرض العسكر أن يدسّ إلی أنطاكيه غلّه حملت إلی السّويداء(۲) لتقويتها.

و كان فتح أرتاح فتحا عظيما لأنّ عملها قريب من أعمال الشّام، من

۱- القفيز: مكيال يساوی ثمانيه مكاكيك، و يسع المكوك صاعا و نصف الصاع.

۲- السويداء هی ميناء السويديه ميناء أنطاكيه علی البحر المتوسط.

الفرات إلى العاصى إلى أفاميه إلى باب أنطاكيه إلى الأثارب. و قيل بأنهم أحصوا إلى شهر رمضان من هذه السنه أنّه افتقد من الرّوم فى الدّرب إلى أفاميه بحساب قتلا و أسرا ثلاثمائه ألف نفر.

و خرج ملك الرّوم فى سنه إحدى و ستّين و أربعمائه إلى ديار الشام فأخذ كثيرا من أهل منبج، و هرب أهلها من حصنها فأخذه، و شحنه رجالا و غله و عدّه. و سار إلى عزاز فوقف عليها ساعه، و رجع جاولا، و سلّط اللّه عليه و على أصحابه الغلاء، و العلّه، و الوباء. فذكر ملك الرّوم للقاضى القضاعى رسول المصريّين أنّه مات له فى يوم واحد ثلاثه آلاف من خيله سوى عسكره.

و قيل: إنّ منبج بقيت فى بلد الرّوم سبع سنين، و هذا الملك هو يوجانس(۱). و لا يبعد عندى أنّه الذى عناه هرقل بقوله: «لا يعود إليك رومىّ إلا خائفا حتّى يولد المولود المشئوم، و يا ليته لا يولد».

و فى يوم السّبت أول شعبان من هذه السنه، جمع قطبان أنطاكيه و دوقسها المعروف بالنحت جموعا كثيره. و طلع إلى حصن أسفونا بعمله عملها عليه قوم يعرفونه ببنى ربيع من أهل جوزن ففتحوه، و قتلوا كثيرا من رجاله و كانوا ثمانين رجلا، و أسروا الباقين. و كان الوالى به رجلا من الأتراك يعرف بنادر.

۱- اسمه رومانوس الرابع، و معنى لقب ديوجانس: حامى الثغور أو الحدود، و سيقع فى أسر السلطان ألب أرسلان فى معركه منازكرد.

و بلغ الخبر إلى الأمير عزّ الدّوله محمود بن نصر بن صالح، و هو يسير فى الميدّان بظاهر مدينه حلب؛ فسار فى الوقت يوم الاثنين فى التّرک و العرب؛ و لم يدخل البلد، و اجتمع عليه خلق عظيم سمع من يحزرهم بخمسين ألفا؛ فحاصره سبعه أيام، و فتحه يوم السّبت، و قتل جميع رجاله، و كانوا ألفين و سبعمائه؛ و فى ذلک يقول أبو محمّد الخفاجى:

إن أظهرت لعلاک «أنطاکيه»حزنا فقد ضحکت على قطبانها

بعث البريد مخبّرا عن وثبهما کان أحوجه إلى کتمانها

لمّا أطلّ له لواؤک خافقاعرفت وجوه الذّل فى صلبانها

و فيه يقول أبو الفضل عبد الواحد بن محمّد الحلبىّ الربعى:

رددت على الاسلام شرخ شبابه و کادت عليه أن تقام المآتم

و ظنّ طغاه الرّوم منذ أغبّهم نزالک أنا حين ذاک نسالم

ثم إنّ محمودا هادن الرّوم فى هذه السّنه على أن اقترض منهم أربعه عشر ألف دينار، و على أن يجعل ولده «نصرا» رهنا عليها، و يهدم حصن أسفونا. فأخرج ثابت ابن عمّه معزّ الدّوله و شبل بن جامع، و جمعا النّاس من معرّه النّعمان و کفر طاب و أعمالهما؛ و خربا حصن أسفونا.

و وقعت فتنه بحلب بين الحلبيّين و الأتراک، و قتل من الأتراک نحو أربعين رجلا، و من الحلبيين عشره. و وصل فى سنه اثنتين و ستّين و أربعمائه صندق الترکى خارجا من بلد الرّوم، و معه عسکر عظيم؛ و دخل إلى بلد

حلب من الأرتيق إلى الجزر(۱) إلى بلد معرّه النّعمان و كفر طاب إلى حماه و حمص إلى رفنيه.

و شتوا فى هذه السّنه فنهبوا الضّياع و سبوا منها، و عاقبوا من وجد هناك، و فتحوا جباب الغلّه و مدافنها. و قطع القطائع الكثيره على مواضع امتنعت عليه.

و لقى أهل الشّام من عسكره شدّه عظيمه، و هو أوّل نهب و فساد جرى بالشّام من الأتراك. و لما انقضى زمن الشّتاء عاد إلى بلد الرّوم بعد أن أكرمه محمود بن نصر بتحف و هدايا حملها إليه.

ثمّ إنّ محمود بن نصر بن صالح راسل فى هذه السّنه السلطان العادل ألب أرسلان(۲)، و استقرّ الأمر بينهما فأجاب مشايخ البلد إلى ذلك فلبس المؤذّنون و الخطيب السّواد، و خطب للامام القائم، و بعده للسّلطان ألب أرسلان، و بعده لمحمود، و لقّب الأمير الأجلّ حسام الدّوله العبّاسيه، و زعيم جيوشها الشّاميّه تاج الملوك، ناصر الدّين شرف الأمّه ذو الحسبّين خالصه أمير المؤمنين.

و أمر ابن خان الأتراك بالوقوف على باب الجامع و قتل كلّ من يخرج ممتنعا من الصّلاه و سماع الخطبه؛ فسأله الشّيوخ ألا يفعل خوفا من وقوع

۱- الجزر كوره من كور حلب تقع بينها و بين أنطاكيه.

۲- للسلطان ألب أرسلان ترجمه واسعه فى بغيه الطلب كنت قد نشرتها فى ملاحق كتابى مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيه ص ۲۷۸- ۲۹۳.

فتنه. و أخـذت العامّه الحصـر التى فى الجامع، و قالوا: «هذه حصـر علىّ بن أبى طالب فليجى ء أبو بكر بحصـر حتى يصـلّى عليها النّاس». و كان ذلك يوم الجمعه التّاسع عشر من شوّال سنه اثنّتين و ستّين و أربعمائه.

و مدحه الشّيخ أبو محمّد بن سنان الخفاجىّ الحلبىّ بقصيده طويله، يقول فيها:

ما يصنع الحسب الكريم بعاجزيبنى له الشّرف الرّفيع و يهدم

على أن يخطب محمود بحلّب للإمـام القائم خليفه بغـداد و بعـده للسّـلطان العادل ألب أرسـلان و بعـده لنفسه؛ فوصل إليه نقيب النّقباء أبو الفوارس طراد بن على الزينبى لإقامه الدّعوه العبّاسيه، و معه الخلع من القائم بأمر اللّه و من السّلطان.

فجمع محمود أهل حلب و قال لهم: «قد ذهبت دوله المصريّين و هذه دوله جديده، و مملكه سديده و نحن تحت الخوف منهم، و هم يستحلّون دماءكم لأجل مذهبكم، و الرأى أن نقيم الخطبه خوفا من أن يجيئنا وقت لا ينفعنا فيه قول و لا بذل».

و كان ناصر الـدّوله بن حمدّان قد تغلّب على مصـر، و وقع بينه و بين جماعه من الأمراء بمصـر وحشه؛ فأنفذ إليه الفقيه أبا جعفر محمد بن أحمد البخارى المعروف بقاضـى حلب- و أظنّ ناصر الدّوله قلّده قضاء حلب حين وردها؛ و وقعت به وقعه الفنيدق، و السلطان ألب أرسلان حين حاصر حلب و هو معه فعرف بذلك- أرسله ابن حمدان رسولا إلى السلطان ألب أرسلان

یستدعی عساکره لیسلّم إلیه دیار مصر و یغیّر الدعوه؛ و ذلک فی سنه اثنتین و ستّین.

فلمّا ورد علیه الرسول إلی خراسان جهز العساکر العظیمه التی تملأ الفضاء، و وصل معها علی طریق دیار بکر، و نزل الرّها فی أوّل سنه ثلاث و ستّین، و أقام علیها نیّفا و ثلاثین یوما.

و سیّر الفقیه أبا جعفر قاضی حلب المذکور رسولا إلی محمود بن نصر بن نصر بن صالح یستدعیه إلی وطء بساطه و خدمته أسوه بمن وفد علیه من الملوک مثل: شرف الدّوله مسلم بن قریش، و ابن مروان، و ابن وثّاب، و ابن مزید، و أمیر التّرک و الدیّلم. فلم یجب محمود إلی ذلک، و خاف منه.

فسار عن الرّها إلی الشّام قاصدا محمود بن نصر، فقطع الفرات فی النّصف من شهر ربیع الآخر سنه ثلاث و ستّین و أربعمائه، من نهر الجوز(۱)؛ و نزل علی بعض المروج فأعجبه، فقال له الفقیه أبو جعفر قاضی حلب:

«یا مولانا أحمد اللّه تعالی علی هذه النّعمه؛ و هی أنّ هذا النهر لم یقطعه قطّ ترکیّ إلا مملوک. و أنت قد قطعته ملکا». فأحضر الأمراء و الأتراک و أمره بإعاده القول. قال: فأعدته، فحمد اللّه تعالی حمدا کثیرا.

و نزل بنقره بنی أسد إلی أرض قنّسرین إلی الفنیدق. و کان نقیب النقباء بحلب لم ینفصل عنها بعد إقامه الدّعوه، فسأله محمود أن یخرج إلی

۱- نهر الجوز: ناحیه ذات قری و بساتین و میاه بین حلب و البیره علی الفرات. معجم البلدان.

السّلطان، و يصلح أمره معه، فخرج مستفسرا و متوسّلا. و تلطّف الأمر، و أحسن السفاره. و خاطب السّلطان بأنّه قريب العهد بالخطبه للخليفه، و قد لبس تشريفه.

فقال السّلطان: «أى شى ء تساوى خطبته للخليفه و لبس تشريفه، مع ما سبق من شقّه العصا و خروجه عن الطّاعه!» و أبى قبول الشّفاعه فيه بدون وطء محمود بساطه.

فخاف محمود و لم يجب إلى ذلك، و تمادى الأمر نحو شهرين. و حصّن محمود حلب و جفّل الناس من سائر الشام إليها، و حصل الرّعب فى قلوبهم هيبه. لما اجتمع إليه من العساكر الجمه، و الجيوش الكثيفه الضخمه. و كان الأمر بخلاف ما ظنّ الناس؛ فإنّه لما أيس من خروج محمود إليه عاد من الفنيدق و كانت خيمته على ذلك التّلّ فعرف بتلّ السّلطان من ذلك اليوم.

و نزل على حلب فى آخر جمادى الآخره من السّنه، و كانت الخيام و العساكر من حلب إلى نقره بنى أسد، إلى عزاز، إلى الأثارب، متقاربه بعضها من بعض، و لم يتعرّض أحد من العسكر بمال أحد، و لا سبيت حرمه، و لا قاتل حصنا.

و بلغنى أنّ عسكره العظيم لم يأخذ عليقه تبن من فلاح إلا بثمنه، و أقام محاصرا حلب شهرا و يومين. و لم يقاتلها غير يوم واحد، و قصد المطاوله بالبلد بعد أن أشرف على الأخذ، و قال: «أخشى أن أفتح هذا الثغر بالسّيف

فیصیر إلی الرّوم». و نقب برج الغنم، و علّق(۱)، فظفر أهل حلب بمن دخل ذلک النّقب و أخذوا بعضهم، و وقع الرّدم علی الباقین.

و عصّب الحلبیون برج الغنم بشقه أطلس، و کان السلطان نازلا- بمیدان باب قنّسرین، فسأل عن ذلک فقیل: «هؤلاء الحلبیّون یقولون علی سبیل المزح: قد صدّع البرج رأسه من حجاره المنجنیق فقد عصّبوه». فغضب، و فرّق فی تلک اللیله ثمانین ألف فرده نشّاب خلنج(۲)، غیر ما رماه بقیّه العسکر.

و أصبح و أمر بالزّحف فجدّ النّاس فی قتال البلد، و حمل السّلطان بنفسه فی ذلک الیوم، فوقعت ید فرسه فی خسف کان هناک، و أصاب فی الحال رأس فرسه حجر المنجنیق فرکب غیره؛ و عاد، و صرف النّاس عن الحرب بعد أن أشرف البلد علی الأخذ إبقاء لحرمه البلد، و کان عسکره دائرا بالبلد من جمیع وجوهه.

ثم إنّ السّلطان راسل الأمراء من بنی کلاب و أحضرهم من البرّیّه، فوصلوا إلیه، و عوّل علی تقلید بعضهم و ترکه فی مقابله محمود و عوده لأجل ما بلغه من ظهور ملک الرّوم إلی بلاد أرمینیه عازما علی قصد خراسان.

و لمّا علم محمود بأنّ البلد قد أشرف علی الفتح، و علم بوصول الأمراء من بنی کلاب، و أنّه إن تم ذلک خرج الشّام من یده، فراسل السّلیمانیّ-

---

۱- أی حشی بالأخشاب لسند الثغره قبل اشعال النار فیها بغیه بغیه انهیار البرج.

۲- الخلنج حتی الآن بالدارجه: الجدید الذی لم یستخدم بعد.

و كان يتردّد إليه فى الرّساله- يعلمه أنّه قد عزم على وطء بساط السّلطان و خدمته خوفا مما أشرف عليه.

فخرج إلى السّلطان بنفسه، و معه والدته علويّه، المعروفه بالسّيده، فى أوّل شعبان؛ و أخذ مفاتيح البلد معه، فدخلا و العسكر سماطان بين يديه، فخدماه، و سلّما عليه، فأكرمهما، و أحسن اليهما، و قال للسيّده: «أنت السيّده؟» قالت: «سيده قومى»- و قد ذكرنا أنّه جرى لها ذلك مع المستنصر.

و أطلق له البلد، و شرّفه، و خلع عليه، و كتب له توقيعا بحلب، و تردّد خروج محمود إلى خدمته مرّه بعد أخرى؛ و قرّر معه السّلطان أن يخرج بعسكره، و يضيف إليه السّليمانى، و أن يتوجّها إلى بلاد دمشق و الأعمال المصريّه لفتحها ففعل ما أمره به، و عاد السّلطان إلى بلاده(۱).

و قيل: إنّه خلّف ابنه مع فوج من عساكره بكوره حلب، و قصد ملك الرّوم، و أسرع فى السّير لأنّه بلغه أنّ ملك الرّوم خرج فى جموع لا تحصى؛ و أنه وصل إلى قاليقلا- و هى أرزن(۲) الرّوم- فوصل السّلطان إلى أذربيجان حين بلغه أنّ ملك الرّوم قد أخذ على سمت خلاط، و كان السّلطان فى خواصّ جنده، و جموع عساكره بعيده عنه، و لم ير العود إلى بلاده؛ فسيّر وزيره نظام الملك و زوجته الخاتون إلى تبريز مع أثقاله.

۱- عالجت هذه الحوادث و بحثت فيها اعتمادا على مختلف المصادر فى كتابى اماره حب ص ۱۳۸- ۱۴۳.

۲- أرزن: مدينه قرب خلاط. معجم البلدان.

و بقی فی خمسه عشر ألف فارس من نخبه عسکره مع کل واحد فرسه و جنیبه؛ و الرّوم فی زهاء ثلاثمائه ألف أو یزیدون ما بین فارس و راجل، من جموع مختلفه من الرّوم، و الرّوس، و الخزر، و اللان، و الغزّ، و القفجق، و الکرج و الأبخاز، و الفرنج، و الأرمن. و فیهم خمسه آلاف جرخی(۱)؛ و فیهم ثلاثون ألف مقّدم ما بین دوقس، و قومص، و بطریق.

فرأی السّلطان أنّ الإمهال للحشد و الجمع مضرّ؛ فرکب فی نخبته و قال: أنا أحتسب نفسی عند اللّه؛ و هی إمّا السعاده بالشهاده، و إمّا النصر وَ لَیَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ یَنْصُرُهُ(۲). ثم سار مرتّبا جیشه قاصدا جموع الرّوم.

و کان ملک الرّوم قد قدم مقدّما فی عشرین ألف مدرع من شجعان عسکره، و معه صلیبهم الأعظم؛ فوصل إلی خلاط، فنهب و سبی، فخرج إلیه عسکر خلاط، و معه صندق الترکی الخارج إلی بلد حلب، فی سنه اثنتین و ستّین- علی ما قدّمنا ذکره- فکسره صندق؛ و أسره، و صادف ذلک وصول السّلطان، فأمر بجدع أنفه.

و عجّل إنفاذ الصّلب الذی کان فی صحبته إلی نظام الملک، و أمره بتعجیل إنفاذه إلی «دار السّلام» مبشّرا بالفتح؛ و تلاحق عسکر الرّوم، فنزلوا علی خلاط محاصرین لها؛ و نزل الملک علی منازکرد فسلّموها إلیه بالأمان خوفا

۱- الجرخ آله علیها قوس ثقیل یرمی السهام أو النفط.

۲- سوره الحج- الآیه: ۴۰.

من معرّه جيوشه إن استولوا عليهم؛ و ذلك فى يوم الثلاثاء رابع ذى القعده، سنه ثلاث و ستّين و أربعمائه.

فلما كان يوم الأربعاء سيّر أهل منازكرد، و خرج بنفسه ليشيعهم و هو فى جموعه و وافق ذلك وصول العسكر السّلطانى، و وقعت العين فى العين، فحمل المسلمون حمله رجل واحد، فردّوهم على أعقابهم. و شرع أهل منازكرد يتسلّلون من بينهم فقتل الرّوم بعضهم، و نجا الباقون، و ترك الرّوم طريقهم الذى كانوا سالكيه، و عاد ملكهم فنزل فى مضاربه بين خلاط و منازكرد؛ و باتوا ليلتهم على أعظم قلق و أشدّه.

فلمّا أصبحوا بكره الخميس وصل السلطان ألب أرسلان فى بقيّه عساكره، فنزل على النّهر، و ملك الرّوم على موضع يعرف بالرّهوه فى مائتى ألف فارس، و السّلطان فى خمسه عشر ألف؛ فأرسل السّلطان رسولا حمّله سؤالا و ضراعه، و مقصوده أن يكشف أمرهم، و يختبر حالهم و يقول لملك الرّوم: «إن كنت ترغب فى الهدنه اتممناها، و إن كنت تزهد فيها و كلنا الأمر إلى اللّه عزّ و جل».

فظنّ الرّومى أنّه إنّما أرسله عن ضروره فأبى و استكبر، و أجاب بأنّى سوف أجيب عن هذا الرأى بالرىّ؛ فغاظ السّلطان جوابه، و انقطعت المراسله بينهما.

و أقام الفريقان يوم الخميس على تعبئه الصّفوف، فقال أبو نصر محمد بن عبد الملك البخارىّ الحنفى فقيه السّلطان و إمامه: «أنت تقاتل عن

دين اللّه الذى وعد بإظهاره على الأديان، فالقهم يوم الجمعه بعد الزّوال، و النّاس يدعون لك على المنابر فى أقطار الأرض».

فلما أصبحوا يوم الجمعه ركب السّلطان بجموعه و ركب الرّوم فتواقفوا، فلمّا حان وقت الزّوال نزل السّلطان عن فرسه، و أحكم شدّ حزامه؛ و تضرّع بالدّعاء إلى اللّه تعالى، ثم ركب و فرّق أصحابه فرقا كلّ فرقه منهم لها كمين؛ ثمّ استقبل بوجهه الحرب.

و حمل ملك الرّوم بجمعه، فاستطرد المسلمون بين أيديهم، و استجرّوا الرّوم إلى أن صار الكمين من ورائهم؛ ثمّ خرج الكمين من خلفهم، و ردّ المسلمون فى وجوههم؛ فأنزل اللّه نصره؛ و كسرت الرّوم، و أسر الملك، و استولى المسلمون على عساكرهم، و غنموا ما لا يعدّ كثره و لا يحصى عددا و عدّه.

و قيد الملك أسيرا بين يدى السّلطان، فأقامه بين يديه. و معه بازى و كلب صيد.

و كانت مع الرّوم ثلاثه آلاف عجله تحمل الأثقال و المنجنيقات، و كان من جملتها منجنيق بثمانيه أسهم تحمله مائه عجله؛ و يمدّ فيه ألف و مائتا رجل، وزن حجره بالرّطل الكبير قنطار؛ و حمل العسكر من أموالهم ما قدروا عليه.

و سقطت قيمه المتاع و السّلاح و الكراع، حتى بيعت اثنتا عشره خوذه بسدس دينار؛ و لم يسلم من عسكر الرّوم إلا العسكر الذى كان محاصرا

خلاط، فلما بلغتهم الكسره رحلوا عن البلد جافلين؛ فاتبعهم المسلمون و تخطّفوا أطرافهم، فلم يلو أوّلهم على آخرهم.

فمن عجيب الاتفاق ما حكى: أنّه كان لسعد الدّوله كوهرائين مملوك أهداه لنظام الملك، فردّه عليه فجعل يرغبه فيه، فقال نظام الملك: «و ما ذا عسى أن يكون من هذا المملوك يأتينا بملك الروم أسيرا»، مستهزئا به.

ثمّ رحل السّلطان إلى أذربيجان، و الملك فى قيده، فأحضره السّلطان بين يديه، و سأله عن سبب خروجه و تعريضه نفسه و عسكره لهذا الأمر؛ فذكر أنه لم يرد إلا حلب، و كلّما جرى على كان محمود السبب فيه و الباعث عليه، فقال: «اصدقنى عما كنت عازما عليه أن لو ظفرت بى» فقال: «كنت أجعلك مع الكلاب فى ساجور».

فقال السّلطان: «ما الذى تؤثر أن يفعل بك؟» فقال: «انظر عاقبه فساد نيّتى و اختر لنفسك» فرقّ له قلب السّلطان، فمنّ عليه، و أطلقه، و أكرمه، و خلع عليه بعد أن شرط عليه أن لا يتعرّض لشى ء من بلاد الاسلام، و أن يطلق أسرى المسلمين كلهم، و سيّره إلى بلاده، و سيّر معه قطعه من العسكر توصله.

فلمّا انصرف ديوجانس إلى قسطنطينيه خلعوه من الملك، و لم يتمّ له ما أراد. و قيل: إنّه كحل، و مات بعد مدّه. و لم ينقل أنّه أسر للرّوم ملك فى الإسلام قبل هذا(۱).

۱- جمعت أخبار هذه المعركه الحاسمه من مختلف المصادر عربيه و غير عربيه، و من ثم قمت بدراستها بموضوعيه و تفصيل. انظر كتاب مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيه ص ۱۴۰- ۱۵۱.

و أمّا محمود بن نصر بن صالح فإنّه سار بعسكره بعد رحيل السّلطان عن حلب، و معه بنو كلاب و السّليمانى، فى شعبان من هذه السّنه، فنزلوا بالقرب من بعلبكّ قاصدين دمشق و بلادها- و بها يومئذ ابن منزو الكتامىّ- حسب ما تقدّم السلطان إليه، و أقام محمود ليتبينّ ما يفعل.

و كان عمّه عطيّه بن صالح قد صار مع الرّوم مستنجدا بهم على ابن أخيه محمود؛ و بعد أن قصد المصريّين فلم يحصل على شى ء منهم. فخرج عطيّه مع النحت دوقس أنطاكيه و عسكر الرّوم؛ فهجموا معه معرّه مصرين و أحرقوا بعضها، و قتلوا من قدروا عليه.

و بلغ الخبر محمودا و هو فى أرض بعلبكّ فعاد إلى حلب، و سار السليمانى ليلحق بالسّلطان ألب أرسلان؛ و اتصلت غارات الرّوم على الشّام، فاستنجد محمود «بقرلو التركىّ» و من معه من الأمراء بفلسطين، و هم: ابن أخى الملك ابن خان، و أتسز بن أوق(١) و إخوته. و كانوا أوّل من طلع من التّرك إلى بلاد فلسطين، و فتحوها، و أقاموا بها فنزلوا إلى محمود منجدين له، و أقاموا إلى أن تفرّق عسكر الرّوم.

و دخل عطيّه عمّ محمود إلى قسطنطينّيه، فسقط من سطح كان نائما

١- لأتسز بن أوق ترجمه فى المقفى للمقريزى كنت قد نشرتها فى كتابى مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيه ص ٢٦٥- ٢٦٨.

عليه و هو سكران؛ فمات سنه أربع و ستّين- و سار محمود إلى الرّحبه فأخذها- و حمل إلى حلب و دفن بها غربىّ باب الجنان، فى مشهد أمه طرود قبلى بستان النّقره، و صلى عليه ابن أخيه محمود. ثمّ عاد الأتراك بعد أن حمل إليهم محمود مالا و خيلا.

و فى سنه أربع و ستّين و أربعمائه، تغيّرت أخلاق محمود بعد رحيل السّلطان، و تنكّر لأصحابه؛ و تغيّر على وزيره أبى بشر النّصرانى؛ و كان هو الذى ساعده بماله حتى ملك حلب، و استجذب العرب إليه، و كان القائد أبو الحسن بن أبى الثريا- الذى كان وزير عطيّه- قد سعى به ليلى وزاره محمود، و طالبه بمال جليل.

و كان محمود قد رغب فى جمع المال، و غلب عليه حبّ الدنيا فذكر له أبو بشر أنه عاجز عن أداء ما طولب به، و أنّه ممّا لا تصل يده إليه و لا إلى بعضه. فأمر محمود بقتل ولد كان لأبى بشر و بقتل أخيه؛ فقتلا و قطع رأساهما، و علّقا فى عنقه؛ فسمع أبو بشر و هو يقول:

ويح دهرى ما أمرّه ما وفى خير بشرّه

و حلف أبو بشر أنه بعد ما فعله بابنه و أخيه لا يظهر له شيئا من ماله.

و قال: كلّ من عنده شى ء مودع فهو فى حلّ منه و سعه.

و ندم محمود على ما فعل، و أراد الرّجوع له؛ و أرسل إليه شافع ابن الصّوفى أن يقرّر عليه شيئا و يطلقه فامتنع.

و اتّفق أنّ محمودا اصطبح، و قدّم إليه طعام بعد سكره، فأنفذ منه لأبى بشر مع فرّاشه؛ فقام قائما و قبّل الأرض، و شكر و دعا. فعرف ابن أبى الثّريا، فركب، و لقى الفرّاش و دفع إليه مائه دينار؛ و سأله أن يقول لمحمود:

«إنّ هذا شيخ خرف لأنه لم يقبل طعام مولانا، و قال: كافأه اللّه و عجّل عليه». ففعل الفرّاش ذلك.

و دخل ابن أبى الثّريا عقيبه على محمود؛ و جاراه فى حديث لا يتعلّق بأبى بشر فلم يقبل عليه، و وجده مملوء القلب غيظا من جواب الفرّاش. فقال ابن أبى الثّريا: «اللّه لا يشغل لمولانا خاطرا، فما أراه منبسطا فى مجلسه و لا مصغيا إلى المملوك». فحدّثه بما قال الفرّاش، فقال يا مولانا: «لم تزل إليه محسنا و يقابلك بالإساءه فكيف يكون بعد ما جرى عليه و على ابنه و أخيه ما جرى؟

و أنا أدرى أنك تريد ماله؛ و قد تكرّر قوله أنّه لا يعطيك شيئا». قال محمود:

«هذا سيفى و خاتمى، خذهما و امض إليه فان لم يقرّ بشى ء فاقتله».

فقام ابن أبى الثّريّا من عنده بذلك، و اشتغل محمود بالشرب فلها عنه؛ و أحضر ابن أبى الثريا أبا بشر فلم يطالبه بمال بل قال له: «ما زلت تتجلّد حتّى صرت إلى هذه الحال». فقال: «يا قائد السّوء قد علمت أنّ هذا كلّه من سعيك؛ و الأجل لا مردّ له، و هذا موت الشّهداء؛ و لكن استعدّ لرجلك بحبل، فستموت ميته الكلاب، و تجرّ جيفتك إلى الخندق».

و قتل أبو بشر، و رمى وسط بئر بستان القصر. و صعد الوزير أبو نصر بن النحاس ثانى يوم قتل أبى بشر إلى خدمه محمود، فقال له سرّا:

«تمضـى إلى أبى بشـر لتقرير مـا عليه، و يطلق». فقـال: «يـا مولانـا أو ما قـد قتلته».؟ فأطرق محمود ساعه و قال: «تمّت علیّ و علیه الحیله، و یجب یا أبا نصر أن تکتم هذا الأمر».

قال أبو نصر: «فما حدّثت به إلا بعد موت محمود». و استقلّ ابن أبى الثريا بوزاره محمود.

و أمـا سديـد الملـك أبـو الحسـن بـن منقـذ فـإنّه استشـعر مـن تـاج الملـوك أن يقبضـه- و كـان أخـاه مـن الرّضـاعه- فـاجتمع باسباسلار(۱) أبى حرب- المعروف، بخريبه الفافـا- و كـان صـاحب سـرّ محمود و نـديمه، و كان لابن منقـذ إليه إحسان كثير و صنائع جمّه؛ فقال له: «قـد استشعرت من تاج الملوك فانظر ما تعمله معى». فقال: «تكلّفنى أن يقول الأمير أريد أقبض على فلان فأخبرك بذلك؛ لا واللّه، و لكن أنا أنفذ إليك مع عجوز عندى ألفى دينار؛ فإذا نفذت طلبتها منك فشأنك و نفسك».

فبقيت تلك الدّنانير عنده مدّه ثمّ نفّذ العجوز يطلبها، و كان قد أصـلح حاله للسّفر، فدفع إليها الدّنانير، و ركب من يومه، و خرج من حلب إلى كفر طاب فاستصحب منها ما أراد.

و سيّر حسـين بن كامـل بن الـدوخ إلى سديـد الملـك بن منقـذ يسـأله الاجتمـاع به فاجتمعـا؛ فقال له حسـين: «ايش رأيك فى الدّخول إلى حلب؟»

۱- الاسباسلار أو الاسفهلار فارسيه تعنى القائد.

فقال: «ما أقول لک شیئا لأنّ لک مالا عظیما، فإن أشرت علیک بترکه کنت ملوما عندک، و لکنّی أقول لک ما أعمل، و أنت تری رأیک. و اللّه لا نظرت محمودا أبدا»!.

و سار إلی طرابلس فکتب محمود إلی ابن عمار یأمره بالقبض علیه، و یبذل له ثلاثه آلاف درهم و رفنیه فلم یظفر به.

و سار ابن منقذ حتی وصل إلی طرابلس فی سنه خمس و ستّین، فلقی ابن عمّار و أخاه، فکاتبهما محمود فتنکّرا له.

و عزم ابن منقذ علی الطلوع إلی مصر، فاتفق موت أمین الدّوله ابن عمّار فشدّ ابن منقذ من جلال الملک علی بن عمار و عاضده بممالیکه و من طلع معه من أهل کفر طاب؛ فأخرجوا أخا أمین الدّوله؛ و تولّی جلال الملک؛ و عظم محلّ ابن منقذ عنده حتّی کان حکمه فی طرابلس مثله. و کاتبه محمود بتطییب قلبه، فلم یثق به، و لم یعد إلی حلب حتّی مات.

و قیل: إنّ ابن النحاس، کاتب محمود، کتب إلیه کتابا من نفسه یضمن له فیه الرّضا عن محمود، و کتب فی آخر: «إنّ شاء اللّه» و شدّد النّون من «إنّ»؛ ففطن ابن منقذ بأنه أراد قوله تعالی: إِنَّ الْمَلَأَ یَأْتَمِرُونَ بِکَ لِیَقْتُلُوکَ(۱) فکتب جوابه: «و کتب إنّا الخادم» و کسر الألف، و شدّد النّون من «إنّا»؛ ففطن ابن النّحّاس بأنّه أراد قوله تعالی: إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِیها(۲).

۱- سوره القصص- الآیه: ۲۰.

۲- سوره المائده- الآیه: ۲۳.

و أما محمود فإنه لما يئس من عود أبى الحسن بن منقذ قبض على أملاكه جميعها. و أمّا حسين بن الدّوخ فانه دخل إلى حلب فقتله محمود و لم يمهله.

و كان محمود قد خطر له أن يولى فى كلّ قلعه من قلاعه رجلا من أهل حلب، و تكون ذريته و أهله تحت يده، و طلب من الوزير ابن أبى الثريا أن يختار له من يوليه عزاز، فقال: «لا أجد لذلك إلا أبا محمد بن سنان الخفاجىّ». و كان أبو نصر ابن النحاس حاضرا، فصوّب الرأى فيه.

فأحضره محمود و ولاه بعد أن امتنع ثمّ أجاب.

ثمّ إنّه استوحش عليه فاستدعاه محمود عدّه دفعات إلى حلب، فتعلل عليه و لم يحضر، و كان أبو نصر بن النحّاس صديقه و كان كاتب محمود؛ فكان يكتب إليه و يحذّره.

فأمره فى بعض الأيّام أن يكتب إليه كتابا يتلطّفه و يأمره بالحضور و الكتاب عن أبى نصر؛ لأنّه كان يعلم ما بينهما من المودّه؛ و أمره أن يضمن له عن محمود كلّ خير؛ و أمره أن يكتب الكتاب بين يديه، و لم يقع له أن يلغز فيه شيئا.

قال أبو نصر: «فما قدرت أن أعمل فيه سوى أن شددت النّون من (إن شاء اللّه)؛ و تناهيت فى لفظ الكتاب، و قلت: لو عرفت ضدّ ما كتبت لما كنت بصوره من يغشّه». و أخذ محمود الكتاب و وقف عليه، و كرّر فيه نظره فرآه كافيا شافيا، فأمر بالصاقه و عنوانه؛ و دفعه لبعض أصحابه و وصّاه أن يقول:

«هذا كتاب دفعه إلىّ أبو نصر بداره». و سار الفرّاش.

فلما وقف أبو محمد عليه كرّر فيه نظره، و بقى متعجّبا منه، و يقول:

«أخى أبو نصر أعطاك الكتاب بداره أم بالديوان أم بالقلعه قدّام الأمير؟» فقال: «بل بداره» فقال: «ما هذا صحيح!» فحلف له فلم يصدقه إلى أن قال: «وقعت على المعنى». و كتب جوابه يذكر فيه شكر أبى نصر، و أنّه مهتمّ بالحضور عندد زوال حمّى جسمه. ثم إنّه كاتب أبا نصر خفيه، و أعلمه أنه عثر على المعنى فى تشديد «إنّ».

و قد ذكرنا أنه جرى له ذلك مع ابن منقذ فيحتمل أن يكون وقع ذلک معهما جميعا.

ثم إنّ محمودا أفكر و قال: «ما أعرف قتله إلاـ منك»؛ فقال: «كيف؟» قال: «تمضى إليه اليوم و معک ثلاثون فارسا يقفون لک فى بعض الطّريق، و تقدم منك إليه من يعلمه بوصولک و معک فى رانک هذه الخشكنانه(۱) و معک أنت خشكنان غيره؛ فإذا فعلت ذلک لا بدّ أن ينزل و يلتقيک من قلعه عزاز، و يعرض عليک الصعود و النّزول عنده، فقل له: أنا موجل و مستحلف أن لا أنزل على الأرض، و لاـ آكل لک طعاما؛ و طوّل الحديث معه إلى أن تعلم أنه قد جاع؛ ثم اذكر أنت الجوع و اخرج لک خشكنانه من الذى معک؛ ثم أخرج المسمومه فادفعها إليه، و كل أنت التى لک، و تحدّث معه و يكون حديثكما على فرسيكما و أنتما بمعزل من أصحابكما، و طوّل معه الحديث و لا تبرح حتّى يستوفى أكلها، و علامه صدقک موته؛ و إلا ضربت عنقک».

۱- من أنواع الخبز يصنع من الدقيق و الزبد و الفستق و السكر أو سواه.

قال أبو نصر بن النحاس: فنزل عليّ من ذلك أمر تمنيت الموت معه، فخرجت و أنا على غايه من الجزع و التأسّف كيف قضى اللّه ذلك على يدى، و جعلت دفعه أعوّل على الهرب؛ ثمّ إنّى أفكّر فى أولادى و أهلى، و إنّنى إن فعلت ذلك أهلكتهم لعلمى بظلم صاحبى؛ ثمّ إنّ الفرسان متوكّله بى.

فلمّا اجتمعت به فعلت ما ذكره لى، ثمّ ودّعته عند استيفاء أكل الخشكنانه، و رجعت من موضعى مبادرا؛ و أبعدت من أرض عزاز، و ركبت جنيبا كان معى، و جدّيت فى السّير خوفا من الطّلب.

و صعد أبو محمد إلى المركز، فوجد مغصا شديدا و رعده؛ ثمّ قال:

«قتلنى أخى أبو نصر اطلبوه». فركبت الخيل خلفه فلم تلحقه.

و وصل أبو نصر فاجتمع بمحمود، فعرّفه ما جرى. فلمّا كان من ذلك الغد وصل رسول من عزاز يستدعى الشّريف النقيب أبا المعالى الفضل بن موسى و ابنه سنان بن أبى محمّد الخفاجىّ، و جماعه من أهله. و ذكر الرسول أنه فى السّياق، فمنع محمود ولده من الخروج؛ و أمر الشّريف أن يتولّى القلعه إلى أن ينفذ إليها واليا؛ فولاها بعد خمسه أيام واحدا من أصحابه.

و توفى أبو محمد فى قلعه عزاز فى سنه ستّ و ستّين و أربعمائه؛ و قيل سنه أربع و ستّين- و هو الصّحيح- و حمل إلى حلب؛ و صلّى عليه الأمير محمود بن صالح؛ و قيل: إنه توفى سنه ثلاث و ستّين- و الأوّل أصحّ- و لمّا أحسّ بالموت عمل:

خف من أمنت و لا تركن إلى أحدفما نصحتك إلا بعد تجريب

إن كانت التّرک فيهم غير وافيهفما تزيد على غدر الأعاريب

تمسّكوا بوصايا اللّؤم بينهم و كاد أن يدرسوها فى المحاريب

و قيل: إنّه كان كتبها أبو محمد من عزاز إلى سديد الملک بن منقذ، و يذكر له فى كتابه أحواله و لجاج محمود فى طلبه، و تغيّر نيّته فيه، و خوفه من غائلته و ظلمه.

و فى سنه خمس و ستّين و أربعمائه- و قيل فى شوّال سنه أربع و ستّين- وفد أبو الفتيان بن حيّوس على محمود بن نصر بن صالح، و كان سديد الملک بن منقذ اجتمع به بطرابلس، و رأى نفور بنى عمّار منه لأجل ميله إلى الدّوله المصريّه، فأشار عليه أن يقصد محمودا بحلب، فقصده صحبه نصر بن سديد الملک بن منقذ، فأحضره محمود.

و كان قد جلس فى مجلسه و أمر باحضار الشّراب فشرب أقداحا، ثم قال: «ارفعوا الخمر فإنّ ابن حيّوس يحضرنى ممتدحا، و فى نفسى أن أهبه جائزه سنيّه فإن كان الشّراب فى مجلسى قيل وهبه و هو سكران» فرفع. و حضر الأمير أبو الفتيان فأنشده قصيدته الميميّه التى أوّلها:

قفوا فى القلى حيث انتهيتم تذمّماو لا تقتفوا من جار لمّا تحكّما

أرى كلّ معوجّ المودّه يصطفى لديكم، و يلقى حتفه من تقوّما

و هى قصيه طويله، أحسن فيها كلّ الإحسان، و ذكر إشاره ابن منقذ عليه بقصده فقال:

سأشكر رأيا منقذيا أحلّنى ذراك فقد أولى جميلا و أنعما(۱)

فوهب له ألف دينار ذهبا فى صينيّه فضّه، و جعلها له رسما عليه فى كل سنه.

و احتفر الخندق بحلب فجاءه أبو الفتيان فقال: «هذه أعمال يعجز عنها كسرى و ذو الأكتاف». فقال محمود: «ما كان الأمير أبو الحسن ينفذك حتّى سألته ذلك»(۲).

و اجتمع بباب محمود بن نصر جماعه من الشّعراء، فلم تصل إلى واحد منهم جائزه غير ابن حيّوس، فكتب إليه ابن الدّويده، المعروف بالقاق:

على بابك الميمون منا عصابهمفاليس فانظر فى أمور المفاليس

و قد قنعت منك العصابه كلّهابعشر الذى أعطيته لابن حيّوس

و ما بيننا هذا التّفاوت كلّه و لكن سعيد لا يقاس بمنحوس

فقال محمود: «و اللّه لو قال بمثل الّذى أعطيته لأعطيتهم مثله». ثمّ أمر لهم بالجائزه مائه دينار أو أكثر.

و قصد الرّوم ناحيه عزاز فى جموعهم، فخرج محمود إليهم فى عدّه قليله تناهز ألف فارس، فاندفع الرّوم بين أيديهم، و قصدوا أنطاكيه و احتموا بها فى سنه أربع و ستّين. و افتتح محمود قلعه السّن(۳) فى تاسع شهر ربيع الآخر سنه ستّ و ستّين.

۱- ديوان ابن حيوس ج ۲ ص ۵۹۸- ۶۰۶.

۲- الجمله مطموسه بالأصل و لعل هذه القراءه هى الصحيحه.

۳- قلعه قرب سميساط.

و مرض محمود بن نصر بن صالح بحلب فى جمادى الأولى من سنه سبع و ستّين و أربعمائه. و حدثت به قروح فى المعا كانت سبب منيّته.

و كان محمود فى أول ملكه حسن الأخلاق، ليّن الجانب، كريم النفس، عفيفا عن الفروج و الأموال، ثم تنكّر و زاد عليه حبّ الدّنيا، و جمع المال فلحقه من البخل ما لا يوصف.

[إماره نصر بن محمود]

[إماره نصر بن محمود](۱)

و أوصى بحلب لابنه شبيب- و كان أصغر أولاه- فلم ينفذ أصحابه وصيّته؛ و ملّكوا حلب ولده الأمير نصر بن محمود؛ و جدّه لأمّه الملك العزيز بن جلال الدّوله بن بويه؛ و أحصى ما وجد فى خزائن محمود فكانت قيمته من العين و المتاع و الآلات، و الثّياب، و المراكب ألف ألف و خمسمائه ألف دينار.

و أمن الناس فى أيام نصر. و كانت سيرته أصلح من سيره أبيه، و أحسن إلى أهل حلب؛ و أطلق من كان فى اعتقال أبيه من أحداثهم، و عمّ النّاس بجوده، و كان بحرا للمكارم إلا أنّه كان لا يستطيع أن يرى أحدا يأكل طعامه مع كرمه و جوده.

و دخل عليه أبو الفتيان بن حيّوس حين ولى حلب فأنشده القصيده التى أوّلها:

كفى الدّين عزّا ما قضاه لك الدّهرفمن كان ذا نذر فقد وجب النّذر

۱- أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

اعتذر فيها عن تأخّره عن سلفه فقال:

تباعدت عنكم حرفه لا زهادهو سرت إليكم حين مسّنى الضرّ

فجاد ابن نصر لى بألف تصرّمت و إنّى لأرجو أن سيخلفها نصر(۱)

فأطلق له نصر ألف دينار، و قال: «و حياتى، لو قال سيضعفها نصر لأضعفتها». و لم يزل يواصل ابن حيوس بالحباء و جزيل العطاء، و أنشده ابن حيّوس يوما بديها و قد خرج ينظر المدّ فى قويق:

أرى الأرض تثنى بالنّبات على الحياو لو تستطيع النّطق خصّتك بالحمد

بك افترّت الأيّام عن ناجذ الغنى و غرّد طير العيش فى الزّمن الرّغد

عهدنا مدود الأرض تأتى بحورهاو لم نر بحرا قطّ سار إلى مدّ(۲)

فأعطاه صله جزيله.

و جهّز نصر عساكره إلى منبج صحبه أحمد شاه(۳)، و كانت فى أيدى الروم؛ فحصرها مدّه؛ و أيس و اليها من نجده تأتيه، فسلّمها فى صفر من سنه ثمان و ستّين و أربعمائه، فقال فى ذلك ابن حيّوس من قصيده:

و طريده للدّهر أنت رددتهاقسرا فكنت السّيف يقطع مغمدا(۴)

و وصل فى سنه ثمان و ستّين و أربعمائه أتسز بن أوق التركى إلى أعمال

۱- ديوان ابن حيوس ج ۱ ص ۲۴۲- ۲۴۹.

۲- ديوان ابن حيوس ج ۱ ص ۱۹۷.

۳- لأحمد شاه ترجمه فى بغيه الطلب نشرتها فى ملاحق مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيه ص ۲۵۱- ۲۵۳.

۴- ديوان ابن حيوس ج ۱ ص ۲۰۵.

حلب القبليه؛ و نزل العاصى على الجلالى؛ و جفل أهل الشّام بين يديه- و كان قد سمّى نفسه الملك المعظّم- فنهب كلّ ما قدر عليه، و ملك رفنيه، و سلّمها إلى أخيه جاولى، و تردّدت سراياه فى جميع الشّام، و تمادى فساده.

و تردّدت الرّسل بينه و بين نصر بن محمود صاحب حلب، فلم يستقرّ بينهما أمر، و عاد إلى دمشق فتسلّمها(۱).

و اعتمد جاولى مدّه مقامه برفنيه إساءه المجاوره؛ و شنّ الغارات و الأذى فى الأعمال القبليه من عمل حلب؛ فجهزّ إليه نصر بن محمود عسكر حلب و مقدّمهم أحمد شاه التّركى، و ذكر أنه شيبانىّ فسار إليه، و التقوا بأرض حماه، فكسره جاولى و غنم عسكره.

و عاد أحمد شاه و نزل مذكين(۲) و جمع إليه من سلم من عسكره، فلما اجتمعوا عوّلوا على العوه إلى حلب، فقال لهم أحمد شاه: «ما بقى لنا وجه إلى حلب بعد هذه الكسره، فإن راجعتم الحرب و أظفرنا اللّه بهم كان الأمر لنا بحكم الظّفر، و إن أبيتم فأنا أسير إلى الفرات و أستدعى أهلى، فما لى وجه ألقى به نصر بن محمود؛ و إنما أعطى و منح و أكرم لمثل هذا الموقف».

فأجمعوا أمرهم على معاوده الحرب فأسرى من موضعه إلى عسكر جاولى، و كبسه، فاستثأر منهم؛ و نهب عسكره، و أسر منهم ما يزيد عن ثلاثمائه

۱- مر سقوط دمشق لأتسز بن أوق بعده مراحل، و قد آذى المدينه كثيرا و أنهكها. انظر مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيه ص ۱۵۷- ۱۶۵.

۲- لم أقف لهذا الموقع على ذكر فى المصادر المتوفره، و يبدو أنه فى أحواز رفنيه.

نفس؛ و سيّرهم فى الوثاق إلى حلب مشاه؛ و هرب جاولى إلى رفنيه؛ و سار بعد ذلك إلى أخيه بدمشق.

و كان نصر حين ملك حلب و استقر بها أمر بقتل وزير أبيه أبى الحسن علىّ بن أبى الثريا القائد، صاحب الدّار التى هى المدرسه العصرونيه؛ فقتل و كان راكبا تحت القلعه، و هو فى حشمه على بغلته، و عمل فى رجله حبل و جذبت جثّته من تحت القلعه إلى باب أنطاكيه، جزاء على ما فعله بأبى بشر، و صدق فأل أبى بشر فيه- على ما ذكرناه- و كان نصر قد اتّهمه بأنه أشار على أبيه أن يولى أخاه الأصغر شبيبا، و كذلك قتل نصر ناجيه بن علىّ أحد ولاه أبيه.

و استوزر نصر أبا نصر محمد بن الحسن التميمىّ المعروف بابن النّحاس الحلبىّ، و بقى وزيرا بعده لسابق أخيه إلى أن اعتقله، ثمّ أطلق.

و كان أبو نصر كاتبا لمحمود قبل وزارته.

و فى يوم عيد الفطر من سنه ثمان و ستّين و أربعمائه، عيّد نصر بن محمود، و هو فى أحسن زىّ، و كان الزمان ربيعا و الأرض نضره؛ و احتفل الناس فى عيدهم و تجمّلوا بأفخر ملابسهم؛ و دخل عليه ابن حيّوس فأنشده قصيده منها:

ضفت نعمتان خصّتاك و عمّتاحديثهما حتّى القيّامه يؤثر(۱)

۱- ديوان ابن حيوس ج ۱ ص ۲۶۹.

و قبض نصر على الأمير أحمد شاه التركىّ، و اعتقله فى القلعه؛ و جلس فشرب إلى العصر؛ و حمله السّكر على الخروج إلى الأتراك، و سكناهم فى الحاضر، و أراد أن ينهبهم، و حمل عليهم، فرماه تركىّ بسهم فى حلقه فقتله، و تبعه أصحابه فوجدوه قد مات؛ و ذلک يوم الأحد مستهلّ شوال من سنه ثمان و ستّين و أربعمائه. و كان نصر أهوج(۱).

۱- اماره حلب ص ۱۵۱.

[إماره سابق بن محمود]

[إماره سابق بن محمود](۱)

و زحفت الأتراك إلى البلد و كان والى القلعه رجلا يقال له ورد، و عنده الأمير سديد الملك أبو الحسن بن منقذ، و كان قد عاد من طرابلس إلى حلب فى أيّام نصر؛ و عندهما جماعه من الخواصّ؛ فلما علموا بذلك استدعوا أخاه سابق بن محمود(۲).

و حمل من العقبه(۳)، و كان ساكنا بها فى الدّار التى تنسب إلى عزيز الدّوله فاتك، و رفع إلى القلعه بحبل من السّور، و هو سكران، و نادوا بشعاره، و أطاعه الأجناد، و أشاروا عليه باطلاق أحمد شاه فأطلقه فى الحال، و خلع عليه.

فنزل أحمد شاه إلى العسكر بالحاضر فسكّن النائره(۴)، و أخمد الفتنه،

۱- أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

۲- لسابق ترجمه فى بغيه الطلب سلف لى نشرها فى ملاحق مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيه ص ۳۹۷- ۴۰۴.

۳- يقال لها عقبه بنى المنذر، و كانت من أشرف نواحى حلب و أفضلها. أحياء حلب و أسواقها للاسدى ص ۲۸۰.

۴- النائره: الفتنه.

و استقرّت قاعده سابق؛ و لقّب عزّ الملک أبو الفضائل، و دخل علیه ابن حیّوس فأنشده قصیده أولها:

علیّ لها أن أحفظ العهد و الودّاو إن لم یفد إلا القطیعه و الصدّا(۱)

فأطلق له سابق ألف دینار، و جعل له فی کل شهر ثلاثین دینارا، و کان سابق من متخلّفی بنی مرداس.

و لما ملک سابق اجتمعت بنو کلاب إلی أخیه وثّاب؛ و عوّلوا علی معونته علیه و أخذ حلب له من أخیه سابق و انضاف إلی وثّاب أخوه شبیب بن محمود، و مبارک بن شبل ابن خالهما، و عامّه بنی کلاب.

فلمّا تحقّق سابق ذلک استدعی أحمد شاه أمیر الأتراک، و کان فی ألف فارس و شاوره، فأنفذ أحمد شاه إلی رجل من الأتراک یعرف بابن دملاج- و اسمه محمّد بن دملاج- فی یوم الأربعاء مستهلّ ذی القعده، من سنه ثمان و ستّین.

و تحالفوا و خرجوا إلی وثّاب و بنی کلاب، فی یوم الخمیس مستهلّ ذی الحجه من سنه ثمان و ستین و أربعمائه، و کان بنو کلاب فی جمع عظیم ما اجتمعوا قط فی مثله. یقال إنّهم یقاربون سبعین ألف فارس و راجل، و کانوا قد عاثوا فی بلد حلب، و کانوا نزولا بقنّسرین، فعند معاینتهم الأتراک انهزموا من غیر قتال و خلّفوا حللهم و کلّ ما کانوا یملکونه و أهالیهم و أولادهم.

۱- دیوان ابن حیوس ج ۱ ص ۱۴۴.

فغنم أحمد شاه و أصحابه و محمّد بن دملاج و أصحابه كلّ ما كان لبنى كلاب. فيقال: إنهم أخذوا لهم مائه ألف جمل و أربعمائه ألف شاه، و سبوا من حرمهم الحرائر جماعه كبيره، و من إمائهم أكثر، و كل ما كان فى بيوتهم. و عفوا عن قتل عبيدهم المقاتله، و كانوا يزيدون عن عشره آلاف عبد مقاتل فلم يقتلوا أحدا منهم، و كان الذى غنمه التّرك من العرب فى ذلك اليوم ما لا يحصى كثره؛ و أسروا جماعه منهم.

و عاد أحمد شاه بالأسرى إلى حلب فتقدّم سابق بن محمود باطلاقهم، و أنزل أخته زوجه مبارك بن شبل فى دار، و أكرمها لأنّها كانت فيمن أخذ ذلك اليوم.

و بعد هذه الهزيمه بثلاثه عشر يوما دعا محمد بن دملاج التركى أحمد شاه، فخرج إليه، و كان نازلا شمالى حلب؛ فلما أكلوا و شربوا قبض محمّد بن دملاج على أحمد شاه و أسره؛ و كان فى نفر قليل فأقام فى أسره تسعه أيام.

(۱)

۱- اماره حلب ص ۱۵۲- ۱۵۳.

[التسلط التركمانی]

اشاره

[التسلط التركمانی](۱)

ثم إن سابق بن محمود اشترى أحمد شاه من محمّد بن دملاج بعشره آلاف دينار و عشرين فرسا، يوم السّبت الرابع و العشرين من ذى الحجه من السّنه.

فعند ذلک سار وثّاب بن محمود و مبارک بن شبل، و حامد بن زغيب، إلى السّلطان أبى الفتح ملک شاه بن ألب أرسلان؛ و حضروا عنده، و شکوا إليه حالهم، و سألوه أن يعينهم على سابق، و يكشف عنهم ما نزل بهم منه.

و أنكر السّلطان ذلک و وعدهم بما طابت به نفوسهم، و وقع لهم باقطاعهم فى الشّام؛ و أقطع الشّام لأخيه تاج الدوله تتش، و أمره بالمسير إلى الشّام فى أوائل سنه سبعين و أربعمائه.

و تقدّم السّلطان ملک شاه إلى أفشين بن بکجى، و صندق التركى، و محمّد بن دملاج، و ابن طوطو، و ابن بريق، و غيرهم، من أمراء التّرک بالكون مع تأج الدّوله و المسير فى خدمته.

۱- أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

فسار تاج الدّوله و معه وثّاب بن محمود، و مبارک بن شبل و حامد بن زغیب، حتّی وصل إلی دیار بکر، و تواصلت إلیه الأمداد مع المذکورین.

و کان أحمد شاه قد حصر أنطاکیه مدّه و معه عسکر حلب و اشتدّ الغلاء بها فی هذه السّنه، و استقرّت الحال علی خمسه آلاف دینار مقاطعه، فأخذها، و رحل عنها إلی حلب.

و لما قرب تاج الدّوله من الشّام هرب جماعه الأتراک المقیمین بحاضر حلب مع أحمد شاه إلی حصن الجسر- و کان ابن منقذ جدّد عمارته لیضایق به شیزر، و یقطع المادّه عنها من بلد الرّوم؛ و أذن له سابق بن محمود فی ذلک، فجدّد فی هذه السّنه- فترکوا أموالهم و أهالیهم بهذا الحصن، و عادوا إلی خدمتهم بحلب، و لم یأمنوا أهل حلب أن یترکوا حرمهم عندهم لما کانوا فعلوه بابن خان؛ و تغیّر الهواء بالجسر علیهم، فهلک عامّتهم بهذا الموضع.

و أما تاج الدوله تتش فإنه أقام بالمروج إلی أن وصلته بنو کلاب بالظّعن، و نزلوا حلب فی سنه إحدی و سبعین و أربعمائه.

و وصل شرف الدّوله أبو المکارم مسلم بن قریش فی عسکر کثیر بأمر ملکشاه، و نزل معه علی حلب معینا له، و حصروها ثلاثه أشهر و عشرین یوما؛ و کان نزوله علی حلب لثلاث خلون من ذی القعده من سنه إحدی و سبعین و أربعمائه. و کان القتال علیها متّصلا.

و قتل أحمد شاه مقدّم الأتراک بحلب بطعنه أصابته فی الحرب، و کان هوی شرف الدّوله أبی المکارم مع سابق، و کان یسیر إلیه فی الباطن بما یقوّی

نفسه، و كان ينكر على بنى كلاب خلطتهم بعسكر التّرك.

فاستأذن بنو كلاب تاج الدّوله فى رحيل الظعّون فأذن لهم فأحسّ شرف الدّوله أبو المكارم بتغيّر النّيه فيه، و تحقيق التهمه به من مراسله سابق و أهل حلب، فاستأذن تاج الدّوله فى الرّحيل، و رحل. و جعل عبور عسكره على باب حلب، و باع أصحابه أهل حلب كلّ ما كان فى العسكر عصبيه و تقويه لهم، و قوّى نفوسهم و نفس سابق.

و سار بعد أن قوى أهل حلب بما ابتاعوه من عسكره بعد الضّعف الشديد إلى بلاده؛ و أشار على مبارك و وثّاب و شبيب بالاحتياط على أنفسهم أو الهرب إلى حلب.

و لم يك بقى مع تاج الدّوله من بنى كلاب غيرهم فى نفر يسير، فكاتبهم سابق و تألفهم و قال لهم: «إنى إنّما أذبّ و أحامى عن بلادكم و عزّكم، و لو صار هذا البلد إلى تتش لزال ملك العرب و ذلّوا» و جرت أمور أوحشتهم من الأتراك؛ فهربوا إلى حلب بعد أن قتل أصحابهم قبل الهزيمه و بعدها، و صاروا إلى سابق.

و كتب سابق إلى الأمير أبى زائده محمد بن زائده قصيده من شعر وزيره أبى نصر بن النّحاس، يعرّفه ما هو فيه من الضّيق، و يسأله الإقبال عليه و القيام بمعونته؛ و يحذّره من التخلّف عنه، فيكون ذلك مسببا لزوال ملك العرب، و يعتب عليه فى التوقف عنه فيما كان جرى مع أحمد شاه التركىّ، و القصيده هى:

دعوت لكشف الخطب و الخطب معضل فلبّيتنى لمّا دعوت مجاوبا

و وفّيت بالعهد الذى كان بينناوفاء كريم لم يخن قطّ صاحبا

و ما زلت فرّاجا لكلّ ملمّهإذا المحرب الصّنديد ضجّع هائبا

فشمّر لها و انهض نهوض مشيّع له غمرات تستقلّ النّوائبا

و قل ل «كلاب»: بدّد اللّه شملكم أو يحكم ما تتّقون المعايبا!

أتستبدلون الذّلّ بالعزّ ملبساو تمسون أذنابا و كنتم ذوائبا

و ما زلتم الآساد تفترس العدى فما بالكم مع هؤلاء ثعالبا

ثبوا وثبه تشفى الصّدور من الصّداو لا تخجلوا أحسابنا و المناقبا

و لا بدّ من يوم نحكّم بينناو بين العدى فيه القنا و القواضبا

أرى الثّغر روحا أنتم جسد له إذا الرّوح زالت أصبح الجسم عاطبا

و قد ذدت عنه طالبا حفظ عزّكم إباء و لاقيت المنايا السّواغبا

و ها أنا لا أنفكّ أبذل، فی حمی حماكم مجدّا، مهجتی و الرّغائبا

أأدخر مالی عنكم و ذخائری إذا بتّ عن طرق المكارم عازبا

شكرت صنيع «ابن المسيّب» إذ أتی يجرّ مغاويرا تسدّ السّباسبا(۱)

و منها:

أيا راكبا يطوی الفلاه بجسرههملّعه(۲) لقّيت رشدك راكبا

ألا أبلغ «أبا الرّيّان» عنی ألوكهتزيح من الإيلاف ما كان واجبا

أخا شخصه لا يبرح الدّهر حاضراتمثّله عينی و إن كان غائبا

متی تجمع الأيّام بينی و بينه أشدّ عليه ما حييت الرّواجبا(۳)

۱- السباسب: المفازات.

۲- الجسر من الابل: العظيم و مؤنثها جسره، و الهملع السريع، و مؤنثها الهملعه.

۳- الرواجب: مفاصل أصول الأصابع.

و أهد إلى «شبل» سلامى و قل له:لك الخير دع ما قد تقدّم جانبا

فتلك حقود لو تكلّم صامت لجاء إليها الدّهر منهنّ تائبا

و قد أمكنتكم فرصه فانهضوا لهاعجالا و إلا أعوز الدرّ جالبا

فإنّى رأيت الموت أجمل بالفتى و أهون أن يلقى المنايا مجاوبا

و كان قد بلغ «سابقا» أنّ أميرا من أمراء خراسان يقال له تركمان التّركىّ قد توجّه منجدا لتاج الدّوله، و معه عسكر، فأخرج سابق منصور بن كامل الكلابى- أحد أمراء بنى كلاب- من حلب ليلا، و أعطاه كتابه إلى الأمير أبى زائده، و فيه هذه الأبيات؛ و معه بعض أصحاب سابق و معهم مال.

فلمّا وقف الأمير أبو زائده محمد بن زائده على هذه الأبيات، اتّفق مع منصور و نائب سابق، و جمعوا ما يزيد عن ألف فارس و خمسمائه راجل من بنى نمير، و قشير، و كلاب، و عقيل، و كلّ ذلك بتدبير الأمير شرف الدّوله أبى المكارم و مشورته.

و وفد بهم الأمير أبو زائده، و وصلوا إلى «وادى بطنان». و اتّفق وصول

المعروف بتركمان التّركى فى ألف فارس من الغزّ، و معه جمله من العدد لمحاصره حلب و معونه تتش.

و عبر تركمـان على طريق الفايـا، فسـار الأـمير أبو زائـده بمن معه من الجمع؛ و لقوا تركمـان فى أرض الفايا، فأوقعوا به و كبسوا عسكره، و قتلوه، و نهبوا ما كان فيه بأسره و جميع ما كان للتجّار الواصلين فى صحبته، و اتّصل هذا الخبر بتاج الدّوله و هو منازل حلب، فرحل عنها إلى الفرات، و توجّه نحو ديار بكر و شتى بها.

ثم عاد و قطع الفرات، و تسلّم منبج و حصن الفايا و حصن الدّير، و شحنها بالرّجال، و سار بالعسكر إلى حصن بزاعا(۱)، و كان صاحبه شبل بن جامع؛ و بعض رجال هـذا الحصن ممّن كانت له النكايه العظيمه فى عسكر تركمان، فقاتله تاج الـدّوله، و فتحه بالسّيف، و قتل كافّه من كان فيه، و نهبه و شحنه بالرّجال.

و رحـل إلى عزاز وقـد انضوى إلى قلعتها خلق عظيم، و منعهم الوالى بها من الصّعود إليها فالتجئوا إلى سـند القلعه بأقمشـتهم، و النّاس عليها؛ و أساء الوالى بها- و كان اسمه عيسى- التدبير و السياسه.

فزحف العسكر إلى القلعه؛ و قاتلها؛ و ضربها بالنار، فاحترقت أقمشه

۱- بزاعـا: بلـده من أعمـال حلب فى وادى بطنـان بين منبـج و حلب- معجم البلـدان. و تتبع بزاعه الآـن منطقه الباب، و تطل على وادى الذهب الذى يتجه من الشمال الشرقى نحو الجنوب الغربى نحو مملحه الجبول. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

الناس، و غلاتهم، و حرمهم، و أولادهم؛ و أشرفت على الأخذ. و خرج قوم من الحريق إلى عسكر تاج الدّوله فأمّنهم، و تقدّم إليهم بالعوده إلى ضياعهم.

و رحل الملك تاج الدّوله إلى جبرين قورسطايا(۱)؛ فأخذها و شحنها بالرّجال؛ فخرج الأمير أبو زائده محمد بن زائده من حلب في الليل؛ و وصل إلى ضيعه تعرف بكرمين(۲)، فوجد بها خمسين فارسا من الغزّ، فقتلوا أكثرهم، و غنموا كلّ ما كان معهم، و عادوا إلى حلب سالمين.

فأسرى تاج الدّوله فى الليل من جبرين عند ذلك فى جميع عسكره، و هم ملبسون مستعدّون، فصبّحوا حلب صباحا، و أغاروا عليها، فخرج عسكر حلب فالتقوا على الخنّاقيّه على باب حلب. ثم إنّ بعض عسكر حلب انهزموا لغير موجب؛ و هزم اللّه عسكر تتش بغير قتال.

و كان الأمير أبو زائده محمد بن زائده و ابن عمه شبل بن جامع بن زائده فى قدر خمسين فارسا مقابلهم، فحملوا عليه، و اتّفقت هزيمتهم، فقتلوا من الغزّ جماعه و غنموا.

و لو عاد عسكر حلب فى اثرهم ما كان أفلت منهم إلا من سبق به فرسه. و شاع لمحمّد بن زائده فى ذلك اليوم ذكر جميل.

۱- سلف بى القول: إن جبرين تبعد عن حلب مسافه ۸ كم نحو الشرق. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

۲- اسمها الآن كفر كرمين على مقربه من خان العسل الذى يبعد عن حلب ۱۰ كم باتجاه الجنوب الغربى. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

و تقدّم الأمير محمّد بن زائده إلى الشيخ أبى نصر منصور بن تميم المعروف بابن زنكل أن يجيب أبا الفضائل سابق بن محمود عن القصيده التى أنفذها إليه، و يعرّفه ما لبنى كلاب من الأيّام المعروفه، و يذكر هذه الوقائع، فعمل:

دعوت مجيبا ناصحا لک مخلصايرى ذاک فرضا لا محاله واجبا

فلبيّت لا مستنكفا جزعا و لاهدانا(۱) إذا خاض الكريهه هائبا

و منها:

و لمّا دعانى المدركىّ ابن صالح شققت، و لم أرهب؛ إليه الكرائبا

أسابق صرف الدّهر فى نصر «سابق»إلى «تركمان» التّرک أزجى النّجائبا

فلمّا التقيناهم غدا البعض سالبالأنفسهم، و البعض للمال ناهبا

فيا لک من يوم سعيد بيمنه عن الثّغر أضحى عسكر الضدّ هاربا

و كان يرى فى كفّه الشّام حاصلاو يوم «بزاعا» ردّ ما ظنّ خائبا

۱- الهدان: الأحمق، الوخم الثقيل فى الحرب.

و ليله «كرمين» تركنا كرامهم كضأن بها لاقت مع القدر قاصبا

و فى يوم «خنّاقيه» قد خنقتهم بعثير ذلّ ردّ ذا الشّرخ شائبا

عطفت لهم إذ خام من خام منهم بفتيان كالعقبان شامت توالبا(۱)

فللّه قومى الصّادرون لو انثنوامعى، أو فريق كنت للجمع ناكبا

فولّوا و قضبان المخافه فيهم مسابقه أرماحنا و القواضبا

فكم فارس منهم تركنا مجدّلايباشر ترب القاع منه التّرائبا

و إذ أيقنوا أن ليس للكسر جابرتولّوا و عن «جبرين» حثّوا الرّكائبا

و خلّوا بها كسبا حووه، و أبصرواسلامتهم منّا أجل مكاسبا

و أما تاج الدوله تتش فإنّه رحل من جبرين، و سار إلى دمشق فملكها؛ و تسلّمها من أتسز بن أوق التّركىّ(۲)، ثم فسح من عسكره أفشين التركىّ،

۱- التولب: ولد الحمار.

۲- انظر حول استيلاء تتش على دمشق كتابى مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيه ص ۱۶۴- ۱۶۵.

و معه أكثر العسكر؛ و عاد شمالا و نهب عسكره ضياعا فى أعمال بعلبكّ.

و وصل رفتيّه فى اليوم العاشر من جمادى الأولى، و فيها جماعه كثيره من التّجار و القوافل متوجّهين إلى طرابلس، فهجمها بغته؛ و قتل مّمن كان بها جماعه، و استباح أموالهم و حريمهم، و أقام بها عشره أيام.

ثم سار فنزل حصن الجسر، فأكرمه أبو الحسن بن منقذ فأعلمه بما عوّل عليه من نهب الشّام، فسأله فى بلده كفر طاب ألا يعترضها فأجابه.

و سار فنزل قسطون فجرى أمرها فى النهب و العقوبه مجرى رفتيّه، و أقام بها نيفا و عشرين يوما. ثم تنقّل و عسكره بالمنجنيقات على أبراج جبل السّمّاق(۱) و غيرها؛ حتى لم يبق بها موضع و لا برج إلا افتتحه و أهلكه؛ و استباح حريمهم و أولادهم، و استغرق أحوال أهل سرمين و المعرّه بالقطائع، و طلع إلى جبل بنى عليم(۲) فلم يتمّ له بها شى ء.

و سار فنزل ضياع معرّه النّعمان الشرقيه بالمنجنيقات، ففتح أبراجها و حصونها بالسّيف، و أخذ ما لا يمكن إحصاؤه، و غلب أهلها فهلك منهم خلق؛ و نزل تلّ منس، و قطع عليها خمسه آلاف دينار، و لم يتمكّن من أخذها.

و انتقل إلى عمل معرّه النعمان ففعل مثل ذلك؛ و سار إلى معرتارح(۳)-

---

۱- هو جبل الأربعين هذه الأيام.

۲- هو جبل الزاويه فوق بلده أريحا.

۳- معرتارح: من نواحى كفر طاب، فى شماليها. تاريخ معره النعمان لمحمد سليم الجندى- ط. دمشق ۱۹۹۴ ج ۱ ص ۲۰.

من بلد كفرطاب- فتحصّن أهلها فى أبراجها؛ و تعذّرت عليه فأحرقها، و هلك جميع من كان فيها.

و بلغ تاج الدّوله ذلك، و هو بدمشق، فأسرع السّير إلى أن وصل إلى ظاهر كفرطاب يطلب أرسلان تاش، فوجده قد رحل إلى بلاد الروم، فعاد إلى دمشق و سكن الناس فى طريقه.

و حين رجع أفشين من الشّام و لم يبق فى أعمال حلب ضيعه مسكونه من بلد المعره إلى حلب، توجه إلى بلد أنطاكيه فأخرب ما قدر عليه، و نهب و سبى ما وجده، و حمل إليه من أنطاكيه مال؛ و توجّه إلى الشرق بعد امتلاء صدره و صدر عسكره من النّهب.

و جرى من هذا الحادث بالشّام أمر لم يسمع بمثله، و تلف أهله بعد ذلك بالجوع. و وجد قوم قد قتلوا قوما و أكلوا لحومهم؛ و بيعت الحنطه سته أرطال بدينار و ما سوى ذلك بالنسبه.

و جلا من سلم من الشام إلى بلد شرف الدوله أبى المكارم مسلم بن قريش، فأحسن إليهم و تصدّق عليهم؛ و كان ذلك الاحسان منه أكبر الأسباب فى مملكته حلب.

و لمّا جرى هذا الحادث طمع شرف الدّوله فى الشّام؛ و كاتبه سابق بن محمود يبذل له التّسليم إليه؛ و وفدت عليه بنو كلاب بأسرها، فتوجّه إلى حلب، و نزل بالس(۱) يوم عيد النّحر من سنه اثنتين و سبعين و أربعمائه.

۱- هى بلده مسكنه الحاليه فى سوريه.

و نزل حلب فی السّادس عشر من ذی الحجه، سنه اثنتین و سبعین و أربعمائه فغلّقت أبوابها فی وجهه، و کان عند سابق أخواه شبیب و وثّاب بحلب، فلم یمکّناه من التّسلیم، فلم یقاتلها، و أهلها یحرصون علی التّسلیم إلیه لما هم فیه من الجوع و عدم القوت.

و کان مع شرف الدّوله فی عسکره غلّه کثیره و قوّه تجوز الحدّ، و تزید عن الوصف. و کان الرّئیس بحلب و نقیب الأحداث بها الشریف حسن بن هبه اللّه الهاشمیّ، المعروف بالحتیتی، و کان ولده أبو منصور قد خرج مع عسکر سابق لقتال بعض الأتراک المخالفین فی بیت لاها(۱) فأسروه؛ و بقی أسیرا فی الموضع مع خطلج أحد أصحاب أحمد شاه.

فلمّا وصل شرف الدّوله إلی حلب وفد التّرک کلّهم علیه؛ و تقرّبوا إلیه بولد الشّریف الحتیتی.

و قیل: إنّه طلبه منهم فلمّا حضر عنده خلع علیه، و أطلقه فدخل البلد، و أخذ معه جماعه من أصحابه، و فتح باب حلب، و نادی بشعار شرف الدّوله فی الیوم السادس و العشرین من ذی الحجه، من سنه اثنتین و سبعین و أربعمائه.

و تسلّمها، و دخل أصحابه إلیها، و قلع أبوابها جمیعها، و فتح باب

۱- یقال لبیت لاها الغربی جبل اللکام، و هو مسکن العباد و الزهاد، و فیه من الفواکه المباحه ما یقتاتون به، و هو یفصل بین الثغور الشامیه و الجزریه. و بغیه الطلب ج ۱ ص ۴۳۹.

أربعين(۱)- و كان مسدودا- و أحسن إلى كافّه أهلها، و خلع على أحداثهم، و تصدّق بمال كثير و غلّه.

و كان سديـد الملك بن منقـذ قـد وفـد على شـرف الـدّوله و نزل معه على حلب، و كان شـرف الدّوله قد عزم على الرّحيل من حلب لما حلّ بهم من الضجر و مصابره أهل حلب؛ و غلت الأسعار عندهم حتى صار الخبز ستّه أرطال بدينار.

و فرّ سديـد الملـك أبو الحسن بن منقـذ من سور القلعه، فاطلع إليه صـديق له من أهل الأدب، فقال له: «كيف أنتم» فقال: «طول جبّ» خوفا من تفسـير الكلمه. فعاد ابن منقـذ و هو يقلّب هـذا الكلام فصـحّ له أنّه قصـد بكلامه أنّهم قـد ضـعفوا. و أوجس أنّها كلمتان، و أنّ قوله: «طول» يريد به:

«مدا» و «جبّ» يريد به «بير» فقال «مدابير و اللّه». فأعلم شرف الدّوله بذلك فقوّى نفسه فملكها.

و لمّـا فتحت المـدينه انحـاز سـابق إلى القلعه، و أخواه شبيب و وثّاب فى القصـر، لضـيق القلعه؛ و شـرف الـدّوله محاصـر للقلعه بالمنجنيقـات و العسـاكر. و لم يبق بالشّـام و حصون جبل بهراء(۲)، و حمص، و فاميه شـيزر و من لم يفـد على السّـلطان إلا وفد عليه.

۱- وصف ابن العديم هذا الباب، و تحدث عن سبب تسميته. بغيه الطلب ج ۱ ص ۵۵- ۵۶.
۲- جبال اللاذقيه أو العلويين.

و دبّر شبيب و وثّاب، و هما فى القصر على سابق و قفزا فى القلعه، و صاح الأجناد بها: «شبيب يا منصور». و قبض سابق و حبس؛ و تسلّم شبيب ما كان بها من مال و سلاح.

ثم وقعت السّفاره بينهم و بين شرف الدّوله على أن أقطع شبيبا و وثّابا قلعتى عزاز و الأثارب و عدّه ضياع. و أقطع سابق بن محمود مواضع أخر فى أعمال الرّحبه، و أن يتزوج منيعه بنت محمود أخت سابق، و كان السّفير بينهم فى ذلك الأمير سديد الملك علىّ بن منقذ؛ و بتدبيره جرى ذلك.

و وافق ذلك أنّ غار الماء فى قلعه حلب؛ و نزل منها أولاد محمود و انقضت دوله آل مرداس.

و كان الوزير لسابق بن محمود الشّيخ أبا نصر محمد بن الحسن بن النّحّاس و عزله، و اعتقله مدّه ثمّ أطلقه.

و ولّى وزارته أبا منصور عيسى بن بطرس النّصرانىّ فامتنع؛ فألزم بها؛ و وزر له فى النّصف من شوّال سنه تسع و ستّين و أربعمائه(۱).

۱- إماره حلب ص ۱۶۱- ۱۶۴.

[إماره مسلم بن قريش العقيلى]

(١) و تسلّمها أبو المكارم فى شهر ربيع الآخر من سنه ثلاث و سبعين و أربعمائه، بعد حصار أربعه أشهر للقلعه. و قال ابن أبى حصينه يهنى ء شرف الدّوله بفتح القلعه:

لقد أطاعك فيها كلّ ممتنع خوف انتقامك حتّى غارت القلب(٢)

و لمّا ملك شرف الدّوله حلب أحسن إلى أهلها، و خفّف عنهم أثقالا كثيره، و صفح عن كلف كانت عليهم فى أيام بنى مرداس. و نقلت الغلات إلى حلب، فرخصت الأسعار بعد الغلاء الشّديد.

و فى يوم تسلّمه القلعه و دخوله إليها دخل بزوجته منيعه أخت سابق، فى اليوم و السّاعه، و هو اتّفاق لم يسمع بمثله، ففتح حصنين و قال فى ذلك أبو نصر بن الزّنكل يمدح شرف الدّوله:

فرعت أمنع حصن و افترعت به نعم الحصان ضحى من قبل يعتدل

و حزت بدر الدّجى شمس الضّحى فعلى مثليكما شرفا لم تسدل الكلل

١- أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

٢- ديوان ابن أبى حصينه ج ١ ص ٣٧٧.

و مدحه ابن حيّوس بالقصيده التى أولها:

ما أدرك الطّلبات مثل متمّم إن أقدمت أعداؤه لم يحجم

فلما وصل إلى قوله:

أنت الّذى نفق الثّناء بسوقه و جرى النّدى بعروقه قبل الدّم(۱)

اهتزّ شرف الدّوله و أمره بالجلوس، فأتّمها جالسا و أجازه بألفى دينار و قريه.

و قيل: أنّه لما مدحه ابن حيوس قال له أبو العزّ بن صدفه البغدادى وزير شرف الدّوله: «هذا رجل كبير السنّ و لم يبق من عمره إلا القليل، فأرى أن تعظم له الجائزه فتحصل على الذكر الجميل»؛ فأقطعه الموصل جائزه له.

فمات فى هذه السنه قبل أن يصل إليها و ترک مالا حزيلا فقيل لشرف الدوله: «هذا لا وارث له إلا بيت المال» فقال «و اللّه لا يدخل خزانتى مال قد جمعه من صلات الملوک انظروا له قرابه». فسألوا عن ذلک فوجوا له من ذوى الأرحام بنت أخ فأعطاها ماله جميعه و هى بنت أخيه أبى المکارم محمّد بن سلطان بن حيّوس.

و لما سفر ابن منقذ فى تسليم حلب و تسلّمها شرف الدّوله وعد ابن منقذ و عودا جميله، و منّاه أمانى حسنه و أکرمه غايه الاکرام.

۱- ديوان ابن حيوس ج ۲ ص ۵۶۹ مع فوارق.

و نقـل شـرف الـدّوله إلى الشّـام من الغلالـل ما ملأ الأهراء، و عاد بالرّفق على الناس؛ و كـذلك نقل إليها من سائر الحبوب و من البقر و الغنم و المعز و الدجاج شى ء كثير.

و عاش الناس فى أيامه و رخصت الأسعار بحسن تدبيره. و تسلّم حصن عزاز من واليها عيسى. و تسلّم حصن الأثارب بعد حصار و حرب؛ و كذلك الحصون التى كانت فى أيدى أصحاب تاج الدّوله من أعمال حلب التى افتتحها.

وصفت له جميع أعمال حلب، و قال لسديد الملك: «أمض فى دعه اللّه فأنا سائر إلى بلادى. و يجب أن تصلح حالك فأنا أصل و أبلغك كل ما تؤثره». و رجع إلى بلاده، و جعل أخاه علىّ بن قريش بحلب مع قطعه من عسكره بحلب.

و كاتب السّلطان أبا الفتح ملك شاه يعلمه بما جرى، و يسأله فى تقرير شى ء يحمله من الشّام فأجيب إلى ذلك.

و وصل أبو العزّ بن صـدقه البغـدادى وزير شـرف الدّوله إلى حلب لجمع أموالها فى سـنه أربع و سـبعين و أربعمائه؛ و عدل عما كان ابتدأ به من العدل و الاحسان، و صادر جماعه، و ضاعف الخراج.

و كان شـرف الدّوله بالقادسـيّه، فدخل الحمام و هى ملاصـقه لداره، فوثب عليه مملوكان برسم خدمته، فجعلا فى حلقه أنشوطه ليخنقاه، و انتظرا صاحبا لهما يدخل بسكّين؛ فصاح شرف الدّوله، فسمعت صياحه زوجته

خاتون أخت السّلطان ألب أرسلان، فخرجت إليه فانهزما عنه. و مرض من ذلک أیاما، و أخذا و قتلا.

و لمّا بلغ ذلک أبا العز بن صدقه البغدادی عاد من حلب إلى القادسيّه.

و کان سدید الملک ابن منقذ قد عمر قلعه الجسر(۱)، و قصد مضایقه شیزر و بها أسقف الباره(۲) و ضیّق علیه إلى أن راسله و اشتراها منه، و استحلفه على أشیاء اشترطها علیه(۳).

و لم یزل ابن منقذ یعده الجمیل و یتلطّف له إلى أن سلم إلیه حصن شیزر لیله الأحد النصف من شهر رجب من سنه أربع و سبعین و أربعمائه.

و وفى له ابن منقذ بکلّ ما عاهده علیه، فثقل ذلک على شرف الدّوله و حسد ابن منقذ على شیزر فسار عسکر حلب مع مؤیّد الدّوله علیّ بن قریش إلى شیزر، و نزلوا علیها فی یوم الجمعه خامس ذی الحجه سنه أربع و سبعین و أربعمائه، بعد مراسلات جرت فلم یجب ابن منقذ إلى ما التمس منه.

و کان علیّ بن قریش قد أخذ فی طریقه حصنا لابن منقذ یقال له أسفونا غربیّ کفر طاب، و کان ابن منقذ قد تأهب للحصار، و حمل من الجسر إلى شیزر ما یکفی لمن فیه مده طویله من سائر الأشیاء.

و حصره علیّ بن قریش مده إلى أن وصل شرف الدّوله بنفسه، فنزل

۱- على مقربه من شیزر.

۲- الباره الآن قریه فی وسط جبل الزاویه، تتبع منطقه أریحا- محافظه ادلب. المعجم الجغرافی للقطر العربی السوری.

۳- انظر کتابی مدخل إلى تاریخ الحروب الصلیبیه ص ۱۶۸- ۱۸۷.

على شيزر يوم الأربعاء سلخ المحرم من سنه خمس و سبعين و أربعمائه.

ثم رحل عنها إلى حمص يوم السبت ثالث صفر، و أقام عسكره على شيزر، فتطارح ابن منقذ عليه، و سيّر ابنه أبا العساكر و امرأته منصوره بنت المطوع و أخته رفيعه بنت منقذ إلى حمص؛ فدخلوا عليه، و حملوا إليه مالا، فأنفذ إلى عسكره، و رحّله عن شيزر فى الثامن و العشرين من صفر من السنه.

و لما وصل شرف الدّوله إلى حماه قبض على جميع الأتراك الذين بالشام و أخذ منهم الحصون التى كانت فى أيديهم، و هى: بيت لاها، و تل أعذى، و هاب، و كفرنبل(۱). و قبض على وثّاب و شبيب ابنى محمود، و أخذ منهما قلعه عزاز و الأثارب، و أطلقهما بعد ذلك، و حمل الأتراك، و حبسهم فى الرحبه فداموا بها إلى أن قتل.

و قبض شرف الدّوله على أكثر أقطاع بنى كلاب بالشام؛ و عاد إلى حلب؛ و قبض على حسن بن وثّاب النّميرى أمير بنى نمير، و كان قد حصره بسروج(۲) فى العام الخالى فسلّمها إليه بعد أن عوّضه عنها بنصيبين فاعتقله بحلب مده و قتله.

و فى نزوله على شيزر، و قتاله حصن الجسر، و فعل وزيره أبى العزّ، ابن

۱- ما تزال بعض هذه الأماكن تحتفظ بأسمائها فى منطقه معره النعمان.

۲- سروج الآن إلى الشمال من عين العرب على الحدود السوريه التركيه، و هى تابعه لمحافظه حلب. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

صدقه من المصادره، یقول أبو المعافی سالم بن المهذّب المعرّی[(۱)].

أمسلم لا سلمت من حادث الرّدی وزرت وزیرا ما شددت به أزرا

ربحت ولم تخسر بحرب ابن منقذمن اللّه و النّاس المذمّه و الوزرا

فمت کمدا «فالجسر» لست بجاسرعلیه؛ و عاین شیزرا أبدا شزرا

فبلغت الأبیات شرف الدّوله، فقال: «من یقول هذا فینا؟» قالوا:

«رجل من أهل المعرّه یقال له ابن المهذّب». قال: «ما لنا و له اکتبوا إلی الوالی بالمعرّه یکفّ عنه، و یحسن إلیه فربّما یکون قد جار علیه و أحوجه إلی أن قال ما قال».

و عاد شرف الدّوله إلی الجزیره، و قد جرت منه هذه الحوادث، و أجحف ببنی کلاب، فأجمع رأی وثّاب و شبیب ابنی محمود، و خلف ابن ملاعب الأشهبی صاحب حمص[(۲)]، و أبی الحسن بن منقذ، و منصور بن الدّوح علی مکاتبه الملک تاج الدّوله بدمشق، و شکوا أحوالهم، و عرضوا علیه خدمتهم، و أطمعوه فی الشّام.

فسار من دمشق إلی الشام و قصد ناحیه أنطاکیه و أقام علیها مدّه، و اتّصل به خبر شرف الدّوله و ما هو علیه من الجمع و التّأهّب، و اجتماع

۱- له ترجمه فی بغیه الطلب ص ۴۱۴۶- ۴۱۵۰، و کان شاعرا مجیدا، بینه و بین الأمراء بنی منقذ موده و اختلاط.

۲- شغل خلف بن ملاعب دورا هاما فی أحداث هذه المرحله، و فی أثناء نشاطات الحمله الصلیبیه الأولی، له ترجمه فی بغیه الطلب، کنت قد نشرتها فی ملاحق کتابی مدخل إلی تاریخ الحروب الصلیبیه ص ۳۸۰- ۳۸۵.

العرب إليه من بنى نمير، و عقيل، و الأكراد، و المولده، و بنى شيبان، للنّزول على دمشق، و المضايقه لها و الطمع فى تملّك دمشق؛ فعاد تاج الدّوله إلى دمشق. و خرج عسكر مع بعض أصحاب شرف الدّوله إلى أعمالها، و رتّبوا ولاتهم فيها و ساروا إلى حماه، و بها وثّاب بن محمود، فلقى عسكر شرف الدّوله و كبسه و قتل منه جماعه، و عاد من سلم منهم إلى حلب.

فنزل وثّاب بن محمود و منصور بن كامل بن الدّوح و ابن ملاعب و ابن منقذ على معرّه النّعمان، و قطعوا كثيرا من شجرها، و رعوا زرعها بالظعون، و قلبوه بالفدن، و قاتلوها أياما، و لم يمكنهم أهلها من فتحها خوفا منهم.

و بلغ شرف الدّوله ذلك كله، فسار و معه أكثر بنى كلاب و بنى نمير، و بعض بنى عقيل؛ و وصله بعض بنى طّى ء و كلب و عليم؛ و نزل فى بالس فى محرّم سنه ستّ و سبعين.

و سار إلى دمشق و حاصرها(۱)، و قاتل دمشق فى بعض الأيّام و خرج إليه عسكر دمشق، و حمل عليه حمله صادقه فانكشف عسكره و تضعضع، و عاد كل فريق إلى مكانه.

و عاد عسكر دمشق بحمله أخرى، فانهزمت العرب، و ثبت شرف الدّوله مكانه، و أشرف على الأسر، و تراجع إليه أصحابه؛ و كان قد ظنّ أنّ

۱- عالجت مسأله حصار دمشق من قبل مسلم بن قريش فى كتابى مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيه ص ۱۸۸- ۱۹۱.

العسكر المصرى ينجده فخاف أمير الجيوش من ميل العرب إليه فتثاقل عنه.

و ورد عليه من حرّان خبر أزعجه؛ و ذلك أنّه كان قد تسلّمها من يحيى بن الشّاطر أحد عبيد ابن وثّاب النّميرى، و كان يليها لعلّى بن وثّاب الطفل، و كان وثّاب يعدل فيهم و يرفق بهم، فولّى فيها جعفر العقيلى، فعدل عمّا كان وثّاب يسلكه من العدل، و أظهر مذهب التشيّع و الاعلان به؛ و كان يتولى الحكم بها القاضى ابن جلبه، فاتّفق مع أهل حرّان على العصيان على شرف الدّوله، و كاتبوا يحيى بن الشّاطر الّذى تسلّمها منه مسلم، فوصل إليهم و معه ابن عطيه النميرى و جماعه، و وثبوا على أصحاب شرف الدّوله فهربوا إلى الحصن، و قاتلهم ابن جلبه و من انضم إليه.

فسيّر الوالى جماعه إلى شرف الدّوله يعلمه بالحال، فبعضهم أخذ بالقرب من حرّان، و بعضهم أخذه أصحاب تاج الدّوله؛ فعرف تاج الدّوله الخبر قبل معرفه شرف الدوله فقويت نفسه.

و عرف شرف الدّوله ذلك و استضر عسكره بتواصل الغارات عليه عندما قويت نفس تاج الدّوله، و كان ذا مكر و خديعه، فرحل إلى مرج الصّفر(۱)، و أوهم أنه يسير مقتبلا لأمر عزم عليه، و قلق أهل دمشق لذلك.

ثم رحل مشرّقا فى البرّيّه على وادى بنى حصين و نزل شرقىّ حماه، و راسل ابن ملاعب، و طيّب نفسه إلى أن نزل فخلع عليه؛ و قرّر معه أن يكون بينه و بين تاج الدّوله ردءا يمنع من الأذيه فى بلاده، فأجابه إلى ذلك؛

۱- إلى الجنوب من دمشق فيما بين خان ذى النون و قريه شقحب.

و خلع علیه شرف الدوله و أكرمه و طيّب نفسه.

و سار شرف الدّوله إلى حرّان بعد أن أشرف الحصن على الأخذ، فقاتل حرّان، و نقب نقوبا فى سورها و ثلم ثلمتين، و أقام عليها شهرين؛ و مضى أبو بكر ابن القاضى ابن جلبه و يحيى بن الشّاطر.

و استنجدا بجماعه من الأتراك فسيّر ابن عمّه ثروان بن وهيب فكسرهم و أسر منهم خلقا عبر بهم على حرّان و سيّرهم إلى بلاده.

و هجم حرّان بالسّيف من الثلمتين و هم يقاتلون و لم تسكن الحرب حتى أعطى لؤلؤ الخادم الأمان، و أمن أبا بكر ابن القاضى و كان قد عاد إلى البلد، فحينئذ تفرّق النّاس.

و نهب عسكر شرف الدّوله البلد، و قطع عليهم ألف دينار، و قبض على خلق منهم، و قتل ابن جلبه و ولديه و ثلاثه و تسعين رجلا صبرا، و صلبهم، و صلب ابن جلبه أمامهم، و لم يف له بعهده، و ذلك كله فى سنه ستّ و سبعين(۱).

و وصل ابن جهير(۲) وزير القائم ليتسلّم ديار بكر و معه عسكر من ملك شاه- و كان ابن جهير قد وزر مرّه لثمال بن صالح، ثمّ وزر لابن مروان، ثمّ للقائم- فوصل ابن مروان إلى شرف الدّوله، و استنجده عليه فأنجده، فالتقوا

۱- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيه ص ۱۹۱- ۱۹۲.

۲- درست حياه فخر الدّوله محمد بن محمد بن جهير و نشاطاته فى الجزيره فى كتابى مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيه ص ۱۹۳- ۱۹۶.

على آمد، فكسرهم ابن جهير، و أخذ أموال شرف الدّوله، و أسر أصحابه، و أطلق من أسر من بنى عقيل.

ثم إنّ ابن جهير بثّ سراياه فى أعمال شرف الدّوله فعاثت فى بلاده، و نهبت؛ و ذلك فى سنه سبع و سبعين.

و وصله(۱) مـال من حلب فتقوّى به؛ و سار إلى الرّحبه و سيّر عمه مقبل بن بـدران(۲) رسولا إلى مصر يطلب معونتهم، و يبذل لهم الطاعه، و كاتب السّلطان ملك شاه يذكّره بخدمته و طاعته و يذكر ما فعله ابن جهير.

فلما عرف ملك شاه ذلك و انفاذه عمّه إلى مصر سار إلى الموصل و معه نظام الملك- و كان نظام الملك يميل إلى شرف الدّوله، و يشير بالإحسان إليه و الصفح عنه- و كاتب الوزير نظام الملك شرف الدّوله يشير عليه بالوفود على السّلطان، و وعده بما طابت به نفسه، فسار من الرّحبه إليه، و لقيه نظام الملك على مراحل من الموصل.

فترجّل شرف الدّوله و قبّل يده؛ و كان فى محفّه لمرض منعه من الرّكوب، فأمره بالرّكوب، و قال له: «ذهب خوفك و شرح صدرك، و حقّق أملك». و كان قد استصحب معه كلّ ما قدر عليه من بقايا ذخائره و أمواله و خيله عقيب هذه النّكبه العظيمه(۳).

۱- النكبه العظيمه هى أن مسلم بن قريش هزم من قبل ابن جهير هزيمه ساحقه، و هرب مسلم و التجأ إلى آمد، مما جعل ابن جهير يسرع باستدعاء السلطان ملكشاه، فسارع بالتحرك نحو الجزيره، لكن ابن قريش تدبر أمره مع أرتق قائد قوات ابن جهير، و خرج ناجيا بحياته من آمد، مما غير موازين القوى مجددا. مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيه ص ۱۹۴- ۱۹۵.

۲- الضمير عائد هنا إلى مسلم بن قريش.

۳- النكبه العظيمه هى أن مسلم بن قريش هزم من قبل ابن جهير هزيمه ساحقه، و هرب مسلم و التجأ إلى آمد، مما جعل ابن جهير يسرع باستدعاء السلطان ملكشاه، فسارع بالتحرك نحو الجزيره، لكن ابن قريش تدبر أمره مع أرتق قائد قوات ابن جهير، و خرج ناجيا بحياته من آمد، مما غير موازين القوى مجددا. مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيه ص ۱۹۴- ۱۹۵.

و دخل على السّلطان فأكرمه و أحسن إليه، و أجابه إلى كلّ ما طلبه؛ و سامحه بما كان بقى عليه من مقاطعه الشّام؛ و جدّد له التّوقيع بالبلاد الشّاميه و الجزريه و كلّ ما كان فى يده؛ و قرّر معه مسير ولده محمد و ان يكون فى عسكره، و كاتب أخاه تاج الدّوله أن لا يعرض لبلاده، و كان قد توجّه إليها، و سار أبو العزّ ابن صدقه إلى حلب لانجادها عليه، و بلغه خروج عسكر من مصر فرجع من لطمين.

و فى سنه سبع و سبعين و أربعمائه، شرع سليمان بن قطلمش فى العمل على أنطاكيه و الاجتهاد فى أخذها إلى أن تمّ له ما أراد.

فأسرى من نيقيه فى عسكره، و عبر الدّروب و أوهم أن الفلاردوس استدعاه، و أسرع السّير إلى أن وصل أنطاكيه ليلا، فقتل أهل ضيعه تعرف بالعمرانيّه جميعهم لئلا ينذروا به، و علقوا حبالا فى شرفات السّور بالرّماح، و طلعوا مما يلى باب فارس؛ و حين صار منهم على السّور جماعه نزلوا إلى باب فارس و فتحوه.

و دخل هو و عسكره من الباب و أغلقوه، و كانوا مائتين و ثمانين رجلا، و ذلك يوم الأحد العاشر من شعبان؛ و قيل يوم الجمعه الثامن، و لم يشعر بهم أهل البلد إلى الصبّاح.

و صاح الأتراك صيحه واحده فتوّهم أهل أنطاكيه أنه عسكر الفلاردوس حتى قاتلوهم فانهزموا و علموا أن البلد قد هجم فبعضهم هرب إلى القلعه و بعضهم رمى بنفسه من السّور فنجا.

و استقلّ سليمان عسكره فوصل إليه ابن منجاك فى ثلاثمائه فارس، و لم يزل عسكره يتواصل حتى قوى، فأمن النّاس و ردّهم إلى دورهم، و ردّ أكثر السّبى، و صلّى المسلمون يوم الجمعه خامس عشر شعبان فى القسيان(۱)، و أذّن فيه ذلك اليوم مائه و عشره من المؤذنين و خلق كثير من أهل الشّام.

و كان يوم فتحها أوّل يوم من كانون الأول؛ و كان فتح الرّوم لها أول ليله من كانون الثانى لثلاث عشره ليله خلت من ذى الحجه من سنه ثمان و خمسين و ثلاثمائه.

و وجد خطّ بعض المنجمين و هو ابن أخت الصّابى على ظهر كتاب عند القاضى أبى الفضل بن أبى جراده يقول: «ذكر المخبر عن أخذ مدينه أنطاكيه أنّ دخول العدو- يعنى الرّوم- إليها فى وقت كذا و كذا من اللّيل؛ فان صحّ قول المخبر فإنها تثبت فى أيدى الرّوم مائه و تسع عشره سنه».

و كان قد وقف على هذا الخطّ محمود بن نصر بن صالح؛ و قد ذكر فى مجلسه، و أظنّ ذلك حين نزل الأفشين التركىّ على أنطاكيه، و خاف محمود من أن يملك أنطاكيه فلم يتفق فتحها حينئذ، و كان الأمر كما ذكر المنجّم، ففتحها سليمان بن قطلمش عند تمام المدّه.

۱- القسيان: كاتدرائيه أنطاكيه.

و أقام سليمان بن قطلمش يحاصر قلعه أنطاكيه إلى الثانى عشر من شهر رمضان من السّنه و فتحها بالأمان ليقيها من القتل و السّبى، و نهب الترک من أنطاكيه ما يفوت الاحصاء و يزيد عن الوصف.

و سكنها سليمان بعسكره و فتح الحصون المجاوره لها، بعضها عن طوع و بعضها عن استدراج.

و صار لسليمان من نيقيه إلى طرابلس، و ملک الثّغور الشّاميه، و كان حسن السيره فى جنده و عسكره جوادا بماله، فمال إليه الناس لذلک. و لما فتح أنطاكيه أهدى إلى شرف الدّوله من الغنيمه هدّيه حسنه.

و لما استقرّ حال شرف الدّوله مع ملک شاه و اطمأن عاد إلى القادسيّه، و ناصف الجند فى أرزاقهم، و نقصها عليهم، فصار أكثرهم إلى سليمان، و تركوه فأقطعهم؛ و أحسن إليهم و سبّب لهم أرزاقا تكفيهم.

و كان جماعه من أصحاب بنى مرداس يخافون شرف الدّوله و هم متفرقون فى الشّام فصاروا إليه.

و كان من ضياع أنطاكيه و أعمالها مواضع عده تغلّب محمود و الأتراک عليها، و قبضوها من الرّوم لضعفهم، و صارت فى أعمال حلب، فقبضها سليمان و أقطعها و غيرها مما يجاور أعمال أنطاكيه.

و كان الشريف حسن الحتيتى رئيس حلب و غيره من أصحاب شرف الدّوله خافوا منه لمّا استقر حاله مع السّلطان أن يتمّ له الصلح مع ابن

قطلمش فیتفرغ لهم و یقبضـهم، و یستأصل أموالهم؛ فتوصّلوا إلی المفاسده بینهما بمن صار فی حلّته من أهل الشام لیشتغل عنهم شرف الدّوله.

و کـان لأبی المکـارم قطیعه علی أنطاکیه یحملها الروم إلیه فطمع بها من سـلیمان فلم یجبه إلی ذلک و قال: «تلک جزیه کانت علی الروم لتمسک عن جهادهم، و قـد قمت أنا بفریضه الجهاد، و صارت أنطاکیه للمسـلمین فکیف أؤدی عنها إلیک جزیه؟». ففسد ما بینهما لذلک.

و سار شبیب بن محمود و منصور بن الـدوح و جماعه من بنی کلاب إلی أنطاکیه، و حضـروا عنـد سـلیمان، و وعدهم و وعدوه بما لم یقبح من بعضـهم لبعض؛ و أخذوا قطعه من عسـکره؛ و خرجوا فعاثوا فی بلاد شرف الدّوله، ثم إنّهم خافوا منه فهربوا إلی أسفونا.

و تواصـلت غاراته علی بلد حلب و سـرمین و بزاعا و قبض شـرف الدّوله علی وزیره أبی العزّ بن صدقه و صادره و حبسه، و سیّر ابن الحلزون إلی حلب لیدبّر أمرها؛ فوصل إلی حلب، و راسل سلیمان فی الصّلح.

و قبض علی علیّ بن قریش بأمر أخیه شـرف الدّوله، و صادره علی عشـره آلاف دینار، و أخذ منه منبج لأنها کانت أقطاعه، فعند ذلک ازدادت وحشه الشّریف و غیره لما شاهدوه من فعله بأخیه. و کذا کانت سیرته فی أصحابه.

و بهذا الطریق فسد حاله؛ و أما رعیّته فکانوا معه علی أجمل حال و أحسنه.

و حیث تحقّق شرف الدّوله اختلال حلب و نواحیها بغارات سلیمان جمع

عسکره و انضاف إلیه بعض الأتراک، و وصل إلی عزاز فی صفر من سنه ثمان و سبعین و أربعمائه.

و أشیر علیه بـالنّزول علی حلب و مراسله سلیمان فی الصّلح، فامتنع و استدعی بنی کلاب فوصله منهم جماعه من أعیانهم و فرسانهم، و سار فنزل علی نهر عفرین بموضع یقال له قرزاحل(۱).

و وصل سلیمان من أنطاکیه فی أربعه آلاف فارس، و کان شرف الدّوله فی عدّه تزید عن سته آلاف لیس فیهم مناصح؛ و جاء شرف الدّوله بطیخ فنزل هو و بعض بنی عمه و أکلوا، فقال ابن عمه:

کلوا أکله من عاش یخبر أهله و من مات یلقی اللّه و هو بطین

فقال شرف الدّوله: «قتلنا فألک یابن العمّ».

و التقوا فی آخر نهار السّبت، لستّ بقین من صفر سنه ثمان و سبعین و أربعمائه، و الشّمس فی وجوه عسکر شرف الدّوله؛ و کان اللقاء بغته فی غیر وقت یظن فیه؛ فانهزم عسکر شرف الدّوله، و جاءته طعنه فقتل(۲). و لما طعن قال: «یا شام الشّؤم» و أتّهم بعض أصحابه بقتله. و کان القتل بین الفریقین قلیلا لأن أصحاب شرف الدّوله لم یثبتوا معه لقبح رأیهم فیه. و رحل سلیمان

۱- اسمها الآن قرزیحل، و هی قریه بجبل سمعان، تتبع منطقه عفرین، محافظه حلب، و تبعد عن عفرین ۷ کم، و هی إلی الجنوب الشرقی منها.

۲- ثبت مع مسلم فی القتال أحداث حلب فقط، و کانوا ستمائه، فقد أربعمائه منهم حیاتهم، و هم یحاولون تغطیه انسحاب ابن قریش. مدخل إلی تاریخ الحروب الصلیبیه ص ۱۹۹- ۲۰۱.

و نزل بظاهر حلب، و حمل شرف الدّوله، و طرحه على باب حلب فدفن هناك.

و انفرد الشريف أبو على الحسن بن هبه اللّه الهاشمى المعروف بالحتيتى بتدبير حلب و سالم بن مالك العقيلى بالقلعه(١).

و كان القاضى بحلب فى أيّام شرف الدّوله القاضى كسرى بن عبد الكريم بن كسرى و تولى قضاء حلب فى سنه اثنتين و أربعين و أربعمائه و مات فى أيام أبى المكارم مسلم بن قريش؛ فولى قضاءها أبو الفضل هبه اللّه بن أحمد بن أبى جراده- و هو ابن بنت كسرى المذكور، و ابن القاضى أبى الحسن المتقدم قبل كسرى- و كان أبو المكارم شرف الدّوله يخاطبه بابن العمّ لكونه عقيليا؛ و القاضى عقيلى. و من شعر أبى المكارم بن قريش:

إذا قرعت رجلى الرّكاب تزعزعت لها الشمّ و اهتزّ الصعيد إلى مصر

و من شعره أيضا:

الدّهر يومان ذا أمن و ذا خطرو الماء صنفان ذا صاف و ذا كدر(٢)

و أما سليمان بن قطلمش فإنّه حاصر حلب مدّه، ثم ترددّت الرّسل إلى أهل حلب فى التّسليم، فاستقرّت الحال بينهم على موادعه مده.

و سيّر سليمان بن قطلمش قطعه من عسكره لاتباع العرب الذين كانوا

١- لسالم بن مالك ترجمه فى بغيه الطلب كنت قد نشرتها فى ملاحق كتابى مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيه ص ٤٠٥- ٤٠٧، و هو مؤسس حكم الأسره العقيليه فى قلعه جعبر.

٢- بهامش الأصل: بلغ مقابله بخط المؤلف رحمه اللّه.

مع شرف الدّوله، فهربوا، و لحقهم شدّه عظيمه من دخول البريّه فى حزيران.

و توجّه سليمان إلى معرّه النعمان و كفر طاب، و تسلّمهما، ثمّ سار إلى شيزر، فقاتلها و قرّر أمرها على مال يحمل إليه، و أخذ لطمين، و شحنها بالرّجال، و عدل أصحابه بالشام عما عرف من سيره العرب.

و جرت بالمعرّه أسباب وصل لأجلها حسن بن طاهر وزير سليمان، فى النصف من جمادى الأولى، يطلب أصحابه فثارت فتنه بالبلد، و أخرجوه منه فخرج لوقته، و أصبح قاتل البلد، و قتل جماعه من أهله فى الحرب، و أمن الناحيه الغربيه، و أمن الباقى منها و قطع على أهل البلد عشره آلاف دينار.

و أما بلاد شرف الدّوله فملكها من بعده أخوه إبراهيم، ما خلا حلب؛ و كاتب من بحلب فى تسليمها إليه فلم يجيبوه.

و أما الشّريف حسن الحتيتى فإنّه كان متقدم الأحداث و رئيسهم، فعمر لنفسه فى صفر من سنه ثمان و سبعين قلعه الشّريف المنسوبه إليه، و بنى عليها سورا دائرا، و فصل بينها و بين المدينه بسور و خندق خوفا على نفسه أن يسلمه أهل حلب، و كانوا يبغضونه، و يكرهون ولايته عليهم.

و اتّفق الشّريف و سالم بن مالك صاحب القلعه الكبيره على أن كاتبا السّلطان ملكشاه يبذلان له تسليم حلب إليه، و يحثّانه على الوصول أو وصول نجده تدفع سليمان بن قطلمش.

و عمر سليمان بن قطلمش قلعه قنّسرين و تحول إليها و تزوج منيعه بنت محمود بن صالح زوجه مسلم بن قريش.

و نزل على حلب و طال انتظار الشّريف حسن لنجده تصله من السّلطان، فاجتمع بمبارک بن شبل أمير بنى كلاب، و اتفقا على أن سار مبارک بن شبل إلى تاج الدّوله تتش يستدعيه إلى حلب ليتسلّمها.

و عرفه ما استقرّ بينه و بين الشريف الحتيتى عن تسليمه حلب، و رغبه الكافه فى مملكته، ففرج بذلک و جمع العسكر، و خرج من دمشق فى المحّرم من سنه تسع و سبعين و أربعمائه إلى حلب، فحصر حصن سليمان بن قطلمش فى قنّسرين.

و وصل إلى تاج الدّوله جماعه من بنى كلاب، و رحل إلى النّاعوره و عوّل على مراسله الشريف حسن فان سلم إليه و إلّا عاد لحربه، فبادر سليمان و هو نازل فى عسكره على حلب، و عارضه فى طريقه على عين سيلم(۱)، و تراءى العسكران، فدبّر أرتق عسكر تاج الدّوله أحسن تدبير، و التقوا فانهزم عسكر سليمان.

و قتل سليمان، و أسر وزيره الحسن بن طاهر و خلق من عسكره فى يوم الأربعاء الثّامن عشر من صفر، فأطلق تاج الدّوله الوزير و من أسر، و غنم عسكره و العرب الذين معه جميع ما كان فى العسكر.

۱- بينها و بين حلب ثلاثه أميال. معجم البلدان.

و اختلف فی قتل سلیمان، فقیل: عارضه فارس من فرسان تاج الدّوله فرماه فی صدغه بسهم فقتله.

و قیل: بأنه لما یئس من النّصره نزل عن فرسه، و قتل نفسه بسکّین خفّه، و قیل: إنّ المصامده تتبّعت أسلاب القتلی فظفروا بدرع مرّصع بالیاقوت و العقیان النفیس.

و نمی الخبر إلی تاج الدّوله، فأحضره فقال: «هذا یشبه سلب الملوک»، و سار إلی الموضع و إذا به مختلط بدمه فقال: «یشبه أن یکون هذا». و قد کان قال لهم: «لا تبینوه لی حتی أریکموه من بین القتلی»، فقیل له: «و من أین علمت ذلک؟» فقال: «قدمه تشبه قدمی و أقدام بنی سلجوق تتشابه».

ثم قال بلسانه: «ظلمناکم، و أبعدناکم و نقتلکم!» ثم مسح عینیه و اغتمّ لقتله، و ترّحم علیه، و أحضر أکفانا نفیسه فکفّنه، و صلّی علیه، و حمله إلی حلب فدفنه إلی جانب مسلم بن قریش قبل أن ینقل مسلم إلی سرّ من رأی، و قیل: دفن معه فی قبر واحد.

و لما جری ما جری من قتل سلیمان و سار تاج الدّوله إلی حلب عدل الشّریف حسن الحتیتی عما کان اتّفق علیه مع مبارک بن شبل، و امتنع من تسلیم حلب إلی تاج الدّوله، و احتجّ بأنّ کتب ملکشاه وصلته بتجهیز العساکر إلیه.

فأقطع تاج الدّوله بلد حلب و أعمالها لعسكره إلّا ما كان لبعض العرب الّذين وفدوا عليه، فانّه أقرّه فى أيديهم؛ ثم رحل إلى مرج دابق(۱) و أقام أيّاما.

ثم عاد و نازل حلب؛ فعمد رجل من تجار حلب يعرف بابن البرعونى الحلبىّ، و راسل تاج الدّوله فى تسليم حلب إليه، و رفع بعض أصحابه بحبال إلى بعض أبراج السور، و ساعده قوم من الأحداث و نادوا بشعار تاج الدّوله فى ذلك الموضع، و تسامع الناس فنادوا بشعاره فى البلد جميعه، و ذلك فى ليله السّبت السّادس و العشرين من شهر ربيع الأوّل من السّنه.

فانهزم هبه اللّه أبو الشريف حسن من قلعه ابنه إلى القلعه الكبيره إلى سالم بن مالك(۲)، و بقى الشّريف حسن فى قلعته المجدّده، و معه فيها رجال من أحداث حلب، فخافوا على أهلهم بحلب، فخرجوا منها و بقى الشريف حسن فى قلعته فى نفر قليل، فطلب الأمان فأمّنه تاج الدّوله بوساطه ظهير الدّين أرتق.

و خرج إلى أرتق و صار عنده بماله و أهله، و سلّم القلعه إلى تاج الدّوله تتش، و سيّره أرتق إلى بيت المقدس بماله فأقام به.

و عصى سالم بن مالك بالقلعه الكبيره، و كان شرف الدّوله بن قريش

۱- دابق قريه قرب حلب من أعمال عزاز بينها و بين حلب أربعه فراسخ، عندها مرج معشب نزه كان ينزله بنو مروان، و به قبر سليمان بن عبد الملك. معجم البلدان.

۲- انظر ترجمه سالم فى بغيه الطلب ص ۴۱۵۷- ۴۱۵۹. و كنت قد نشرتها فى ملاحق كتابى مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيه ص ۴۰۵- ۴۰۷.

لما ولّاه فيها أوصاه أن لا يسلّمها إلّا إلى السلطان ملكشاه، فالتزم بوصيّته، و امتنع أن يسلّمها إلى تتش.

و أقام تتش بمدينه حلب إلى اليوم السّابع و العشرين من شهر ربيع الآخر، و أحسن إلى أهلها، و خلع على أحداثها، فوصله الخبر أنّ السلطان ملكشاه وصلت عساكره إلى نهر الجوز(۱) قاصدين مدينه حلب، فسار تاج الدّوله إلى دمشق، و ترك بعض أصحابه بقلعه الشريف و معه عدّه فى اليوم المذكور، و معه قوم من بياض حلب، فأقام نائبه أياما يسيره، ثم سار و لحقه فى دمشق.

و وصلت عساكر ملكشاه حلب مع برسق و بوزان و غيرهم، و نزل بعضهم إلى بلد الرّوم، و امتدوا فيما بينها و بين أنطاكيه؛ و وصل بعضهم إلى حلب، و سارع أهل حلب و سالم بن مالك و مبارك بن شبل إلى طاعه الواصل و خدمته.

ثم إنّ السلطان وصل بعدهم إلى الرّها فسلّمها إليه الفلاردوس(۲) و أسلم على يده، و سار منها إلى قلعه دوسر- و هى المعروفه بجعبر- فتسلّمها فى طريقه من جعبر بن سابق القشيرى، و قتله لما بلغه عنه من الفساد و قطع الطّريق.

۱- نهر الجوز جزء من نهر الفرات كان يعبر منه نحو الغرب. انظر بغيه الطلب ص ۱۹۷۴.

۲- هو فيلارتيوس براخاموس، كان بالأصل أرمنيا من قاده الإمبراطور رومانوس دايجينس، انظر كتاب« الرها المدينه المباركه» ترجمه عربيه، ط. حلب ۱۹۸۸ ص ۲۷۳.

و سار حتّى وصل حلب فى الثّالث و العشرين من شعبان من سنه تسع و سبعين و أربعمائه.

و تسلّم حلب و قلعتها و سائر قلاع الشّام، و عوّض سالم بن مالك عن قلعه حلب بقلعه دوسر، و أقطعه معها الرّقه و عدّه ضياع.

و توجّه السّلطان إلى أنطاكيه فتسلّمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قطلمش، و رتب بأنطاكيه يغى سيان بن ألب فى عسكر و استخدم حسن بن طاهر فى ديوانها، و تمّ إلى السّويديّه(۱)، و صلّى على البحر، و حمد اللّه على ما أنعم عليه ممّا تملكه من بحر المشرق إلى بحر المغرب.

و عاد إلى حلب، و رتّب بها الأمير قسيم الدّوله أقسنقر(۲) و معه عسكر، و استخدم بها تاج الرّؤساء ابن الخّلال فى جمع الأموال.

و وصل إليه الشّريف حسن الحتيتى و هو بحلب يلتمس العوده إلى حلب، و يذكر خدمته و ما جرى عليه، فتظلّم منه أهل حلب فلم يأذن له السّلطان فيما التمسه.

و كان هذا السّلطان من أعظم الناس هيبه و أكثر الملوك عدلا حتى أنّ أحدا لا يقول: إنّ أحدا من ذلك العالم العظيم من عسكره- و حزره أربعمائه

۱- ميناء مدينه أنطاكيه على شاطى ء البحر المتوسط.

۲- انظر ترجمته المنتزعه من بغيه الطلب فى ملاحق مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيه ص ۲۶۹- ۲۷۷.

ألف- أخذ لأحد من الرّعايا قسرا و ظلما ما يساوى درهما واحدا؛ حتى أنّ البازيار الّذى له اقتنص طائرين من الدّجاج من الأثارب(١) طعما للبزاه فى الطّريق، فعلم بذلك فعظم عليه حين رآه و هدّده حتى أعادها إلى صاحبها بعد عوده من أنطاكيه.

و خرج هذا السّلطان إلى ضياع معرّه النّعمان يتصيّد، و بات بضيعه بينه و بين المعرّه ثلاثه فراسخ، فابتاع منها أصحابه ما احتاجوه بأوفى ثمن؛ و وضع السّلطان فى هذه السّنه المكوس من جميع بلاده، و لم يبق من يستخرج مكسا فى مملكته.

و أقام السّلطان بحلب إلى أن عيّد بها عيد الفطر، و عاد منكفئا إلى الجزيره، و قد قرّر ولايه حلب، و ولّى بقلعتها نوحا التركى، و بلغه عصيان تكش(٢) بترمذ فسار السّلطان، و قطع ما بين حلب و نيسابور فى عشره أيّام، و عاد منكفئا إلى الجزيره و قد قرّر ولايه حلب لقسيم الدّوله أقسنقر التركى فى سنه تسع و سبعين و أربعمائه، و جعل معه أربعه آلاف فارس و مكّنه فيها.

و قيل إنّه مملوك لملكشاه، و قيل إنه لصيق و انّ اسم أبيه أل ترغان، و ولّى على جمع المال بحلب فى الديوان تاج الرؤساء أبا منصور بن الخّلال

١- الأثارب قلعه معروفه بين حلب و أنطاكيه، تبعد عن حلب ثلاثه فراسخ. معجم البلدان.

٢- هو أخو السلطان ملكشاه. انظر حول عصيانه الكامل لابن الأثير ط. القاهره مطبعه الإستقامه- ج ٨ ص ١٣٦.

الرحبىّ، و قال شاعر حلبىّ فيه و فى الوزير ابن النّحاس:

قد زنجر العيش على النّاس ما بين «خلّال» و «نحّاس»

فأحسن قسيم الدّوله فى حلب السّيره و أجمل السّياسه و أقام الهيبه، و أفنى قطّاع الطريق، و تتبع الذعّار فى كلّ موضع فاستأصل شأفتهم.

و عمرت حلب فى أيامه بسبب ذلك لورود التجار و الجلّابين إليها من كل مكان.

و حكى لى والدى- رحمه اللّه-: أنّه استأصل أرباب الفساد إلى حدّ بلغ به أن نادى فى قرى حلب و ضياعها أن لا يغلق أحد بابه، و أن يتركوا آلاتهم الّتى للحرث فى البقاع فى اللّيل و النّهار.

فخرج متصيّدا فمرّ على فلّاح و قد فرغ من عمله، و أخذ آله الحرث معه إلى منزله، فانفرد من عسكره، و قال له: «ألم تسمع مناداه قسيم الدّوله بأن لا يرفع أحد من أهل القرى شيئا من آله الحرث؟» فقال: «بلى و اللّه- حفظ اللّه قسيم الدّوله- و اللّه لقد أمنّا فى أيّامه من كل ذاعر و مفسد، و ما رفعت هذا خوفا عليها ممّن يأخذها، و إنّما ههنا دويبه يقال لها ابن آوى إذا تركنا هذه العدّه ههنا جاءت و أكلت هذه الجلود التى عليها».

فلما عاد قسيم الدوله أمر بالصيّادين و بثّهم فى أقطار بلد حلب لصيد بنات آوى حتى أفنوها من ضواحى حلب، و كان ذلك سببا لقلّتها فى بلد حلب إلى يومنا هذا، دون غيرها من البلاد.

و فی أیّام قسیم الدّوله جدّد عماره مناره حلب الموجوده فی زماننا هذا، و جددت فی سنه اثنتین و ثمانین و أربعمائه.

و جری خلف بین لطمین(۱) و بین نصر بن علیّ بن منقذ فی سنه إحدی و ثمانین، فخرج أقسنقر إلی شیزر، و قتل من أهلها مائه و ثلاثین رجلا، و عاد إلی حلب بعد أن نهب ربضها، و استقّرت الموادعه بینه و بین نصر صاحب شیزر.

و کان أقسنقر قد تزوّج خاتون دایه السّلطان ملکشاه(۲) و کانت جالسه معه فی بعض الأیّام فی داره بحلب، و فی یده سکّین فأومأ بها إلیها علی سبیل المداعبه و المزاح، فوقعت فی قلبها للقضاء المحتوم غیر متعمد لها؛ فماتت و حزن علیها حزنا شدیدا؛ و تأسّف لفقدها، و حملها فی تابوت لتدفن فی مقابر لها بالشّرق؛ و خرج من حلب لتودیع تابوتها فی مستهلّ جمادی الآخره.

و تسلّم أقسنقر حصن(۳) برزویه، فی شعبان سنه اثنتین و ثمانین و أربعمائه، من الأرمن- و هو آخر ما کان قد بقی فی أیدی الکفّار من أعمال أنطاکیه- و أقام فی یده تسعه أشهر، و هدمه فی ربیع الأوّل من سنه ثلاث و ثمانین.

۱- تتبع قریه لطمین ناحیه محرده فی محافظه حماه و تبعد عن حماه مسافه ۳۶ کم.

۲- فی ترجمه أقسنقر- مدخل ص ۲۶۹:« دایه السلطان ادریس بن طغان شاه، و حظی عند السلطان ملکشاه».

۳- حصن قرب السواحل الشامیه علی سن جبل شاهق. معجم البلدان.

و كتب ولاه الشّام إلى السلطان ملكشاه يشكون ما يلقونه من خلف بن ملاعب بحمص من قطع الطّريق و إخافه السّبيل، فكتب إلى قسيم الدّوله و يغى سيان و بوزان صاحب الرّها، فساروا فى عساكرهم، فحاصروها و ضايقوها ففتحوها؛ و أعطاها السّلطان تاج الدّوله تتش.

و نزل قسيم الدّوله على أفاميه، فأخذها من خلف بن ملاعب و سلّمها إلى نصر بن منقذ.

ثمّ إنّ السّلطان أمر بحمل ابن ملاعب فى قفص حديد إلى أصبهان، فحبسه إلى أن مات ملكشاه؛ و توجّه إلى مصر و عاد إلى الشّام، و احتال حتى ملك أفاميه بالحيله بعد ذلك.

و لما فتحت حمص تسلّمها قسيم الدّوله إلى أن ورد عليه أمر السّلطان بتسليمها إلى تتش(١).

و مات السّلطان ملكشاه ببغداد فى اللّيله السّادسه عشر من شوّال سنه خمس و ثمانين و أربعمائه، و كان أقسنقر قد خرج وافدا عليه، فلما بلغه الخبر عاد إلى حلب، و خطب لابنه محمود مدّه يسيره، ثم إنّه خطب بعد ذلك لتاج الدّوله تتش- على ما يذكر-(٢).

١- لخلف بن ملاعب ترجمه مفيده المعلومات فى كتاب بغيه الطلب، سلف و نشرتها فى ملاحق كتاب مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيه ص ٣٨٠- ٣٨٥.

٢- انظر تفاصيل هذا الموضوع فى كتابى مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيه ص ٢٢١- ٢٢٨.

و لما عاد إلی حلب قبض علی شبل بن جامع أمیر بنی کلاب و علی ولده مبارک، و اعتقلهما بالقلعه، و راسل تاج الدّوله قسیم الدّوله و یغی سیان و بوزان و جذبهم إلی طاعته، و الکون فی جملته لیسیروا معه إلی بلاد أخیه لیفتحها، و یأخذ المملکه فأجابوا إلی ذلک، و خطبوا له فی أعمالهم.

فسار فی أوّل سنه ستّ و ثمانین، و سار إلیه قسیم الدّوله و یغی سیان و بوزان، و وثق به أق سنقر، و فتح تاج الدّوله الرّحبه و نصیبین، فجمع ابراهیم بن قریش و تأهّب للقاء تاج الدّوله.

و التقی العسکران علی دارا(۱)، و عاد کلّ فریق إلی موضعه، فرکب الأمیر قسیم الدّوله فی خلق من العسکر، و حمل حتّی توسّط عسکر ابراهیم فلم یثبت العرب، و تبعه باقی العسکر، فقتل منهم ما یقارب عشره آلاف.

و أسر ابراهیم بن قریش و عمه مقبل و غیرهم. فقتلهم تاج الدّوله صبرا و سبیت الحرم، و قتل جماعه من نساء العرب نفوسهن.

و أمر تاج الدّوله بعد ذلک بجمع الأسری و وهبهم من محمّد بن شرف الدّوله- و کان قد صار فی جملته قبل الحرب- و أقطعه نصیبین(۲).

و عظمت هیبه تاج الدّوله بعد هذه الوقعه، و راسلته زوجه أخیه تحثّه

۱- دارا بلد فی لحف جبل بین نصیبین و ماردین. معجم البلدان.

۲- لمزید من التفاصیل، أنظر مدخل إلی تاریخ الحروب الصلیبیه ص ۲۲۲- ۲۲۳.

على الوصول؛ و استقرّ الحال على أن تتزوّجه؛ فسار عند ذلك بعد أن تسلّم من ابن جهير آمد و جزيره ابن عمر، حتى وصل إلى تبريز، ففسخ عنه قسيم الدّوله أق سنقر صاحب حلب و عماد الدّوله بوزان و سارا إلى بركيارق ليكونا فى خدمته- و كان بالقرب من الرىّ(۱).

و كان سبب نفار قسيم الدّوله و بوزان تقريب تاج الدّوله يغى سيان و ميله إليه؛ و قيل: لأنّه لم يولهما شيئا من البلاد الّتى افتتحها، فرجع تاج الدّوله إلى ديار بكر، و شحنها بالرّجال، و سار منها إلى سروج فأخذها و ولّى فيها بعض ثقاته.

و وصله الخبر بوصول أق سنقر و بوزان إلى باب السّلطان بركيارق، و إكرامه لهما، و أنّهما وجدا خاله مستوليا على أمره، فقتلاه و بعض الأمراء.

فانبسطت يد بركيارق، و استقامت أحواله، و خاطبه أق سنقر و بوزان أن يسير معهما إلى بلادهما حلب و الرّها و حرّان، لئلا يجرى عليهما حادث من تاج الدّوله عند عودته، و ضمنا له أن يكونا بينه و بين تاج الدّوله؛ فسار معهما إلى الرّحبه، و عقد بينهما و بين علىّ بن شرف الدّوله حلفا.

و سار علىّ بن قريش، و معه جماعه من بنى عقيل و قطعه من عسكر السّلطان بركيارق مع قسيم الدّوله؛ فأوصلوه إلى حلب، فدخلها فى شوّال من سنه ستّ و ثمانين و أربعمائه.

۱- الرى الآن ضاحيه لمدينه طهران.

و سار بوزان إلى بلاده، و عاد من كان معهما إلى السّلطان.

و أما تتش فانّه قطع الفرات و توجّه إلى أنطاكيه، و أقام بها مع يغى سيان مدّه، فغلت بها الأسعار، فسار إلى دمشق فى ذى القعده من هذه السّنه.

و كان وثّاب بن محمود مع نفر يسير من بنى كلاب، فأنفذ أق سنقر بعد مسير تتش إلى دمشق من أحرق حصن أسفونا و حصن(۱) القبّه، و قبض اقطاع وثّاب.

و فى سنه سبع و ثمانين، قبض على الوزير أبى نصر محمّد بن الحسن بن النحاس بسعايه المجنّ بركات الفوعى به إلى قسيم الدّوله. و لم يزل به إلى أن أمره بخنقه، و هو معتقل عنده، فخنقه فى هذه السّنه.

و فى شهر ربيع الأوّل من سنه سبع و ثمانين و أربعمائه، خرج تاج الدّوله تتش من دمشق، و معه خلق عظيم من العرب، و لقيه يغى سيان بعسكر أنطاكيه بالقرب من حماه و أقاموا هناك أياما؛ و زوّج ولده الملك رضوان من ابنه يغى سيان، و سيّره عائدا إلى دمشق.

و سار تاج الدّوله بعساكره فنزل تلمنس(۲)، و أقام بها أياما، فوصله الخبر بوصول كربوقا صاحب الموصل و بوزان صاحب الرّها، و يوسف بن

۱- قرب معره النعمان. معجم البلدان.

۲- تتبع تلمنس الآن منطقه معره النعمان فى محافظه أدلب السوريه و تبعد عن المعره مسافه ۶ كم و عن أدلب ۴۵ كم.

أبق صاحب الرّحبه، فی ألفین و خمسمائه فارس إلی حلب، لنجده أق سنقر، فعدل تاج الدّوله إلی الحانوته، و رحل إلی النّاعوره، و عوّل علی قصد الوادی(۱)، و أن یسیر منه إلی أعمال أنطاکیه؛ و أخذ العسکر دوابّ النقره و [أحرق] بعض زرعها(۲).

فخرج أق سنقر و من وصله من النّجده و جماعه کثیره مع شبل بن جامع و مبارک بن شبل من بنی کلاب- و کان قد أطلقهما من الاعتقال فی هذه السّنه- و محمّد بن زائده فی جماعته و جماعه من أحداث حلب و الدیّلم و الخراسانیّه؛ و عدّه عسکره تزید عن ستّه آلاف فارس و راجل، فی أحسن أهبه و أکمل عدّه.

و قصد عسکر الملک تاج الدّوله، یوم السبت تاسع جمادی الأولی من السّنه، و التقوا علی «سبعین»(۳)، و کان أوّل من قطع السواقی التی کانت بین العسکرین و برز للحرب أق سنقر، و رتّب مصاف عسکره.

و بقی عسکر بوزان و کربوقا لم یتمکن من قطع السواقی، فیختلطون بالعسکر، و لم یستنصح أق سنقر العرب الّذین معه؛ و خاف میلهم إلی تاج الدّوله، و کان عسکر تاج الدّوله فی مثل هذه العدّه من العرب و الرّجاله،

۱- وادی بزاعا. انظر مدخل إلی تاریخ الحروب الصلیبیه ص ۲۷۲.

۲- أضیف ما بین الحاصرتین من ترجمه آق سنقر. مدخل ص ۲۷۲.

۳- سبعین قریه قریبه من حلب. معجم البلدان.

و كان التّرك معه فی قلّه لأنّ أصحابه و خواصّه كانوا متفرقين فی البلاد التی افتتحها.

و حمل عسكر تاج الدّوله على عسكر أق سنقر فلم يثبت لحظه واحده، و انهزمت العرب و بوزان و كربوقا نحو حلب فدخلاها، و استأمن يوسف بن أبق إلى تاج الدّوله.

و أسر أق سنقر و جماعه من خواصه و وزيره أبو القاسم بن بديع، و أحضر بين يدى تاج الدّوله أسيرا، فقتله صبرا، و قال له تاج الدّوله: «لو ظفرت بی ما كنت صنعت؟» قال: «كنت أقتلك» فقال له: «فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم علیّ» فقتله.

و حكى وثّاب بن محمود قال: «جلس تاج الدّوله، و طلب قسيم الدّوله، فأحضر مكشوف الرّأس، مكتوفا، فقام تاج الدّوله، و كلّمه كلاما كثيرا، فلم يردّ عليه جوابا، فضربه بيده أطار رأسه».

و حمل رأسه إلى حلب والى دمشق، و دفن جسده فی القبّه التی على سطح جبل قرنبيا(١)، غربیّ المشهد الذی ابتناه بقرنبيا؛ ثم نقله ابنه زنكی لمّا فتح حلب إلى مدرسه الزجّاجين(٢)، و وقف شامر- قريه من بلد حلب- على من يقرأ على قبره.

١- مشهد قائم بين حلب و قريه النيرب. الآثار الاسلاميه فی حلب لأسعد طلس. ط. دمشق ١٩٥۶ ص ٢۴١.

٢- انظر حولها الآثار الاسلاميه ص ٩٠- ٩١ ذلک أنها درست.

و اختار قسیم الدّوله وقتا للخروج إلی اللّقاء، و هو وقت قران زحل للمرّیخ فی برج الأسد- و هو طالع بیت السّلطان بحلب- و کان موقنا بالظّفر، فخرج و أمرهم أن یلحقوه بالجبال لکتافهم بها، و کان تاج الدّوله قد عزم علی ما ذکرناه؛ و لم یکن مؤثرا لقاءه؛ فنصره اللّه تعالی کما شاء و أراد؛ لا راد لأمره، و لا معقّب لحکمه، و لا تأثیر لشی ء فی ملکوته.

و أسر شبل بن جامع أمیر بنی کلاب فوهبه تاج الدّوله لابن أخیه وثّاب بن محمود.

و عوّل بوزان و کربوقا علی الاعتصام بحلب، و انتظار النّجده من برکیارق؛ لأن کتاب الطّائر وصل إلی حلب یخبر بوصول النّجده إلی الموصل، و قرّروا مع الأحداث ذلک.

فوصل تاج الدّوله بعسکره إلی حلب، و تحیّر أهلها فیما یفعلونه، فبادر قوم من الأحداث ممّن لا یعرف و لا یذکر ففتحوا باب أنطاکیه.

و دخل وثّاب بن محمود فی مقدّمه أصحاب تاج الدّوله إلی حلب، و سکن البلد، فنزل الوالی بقلعه الشّریف، و سلّمها إلی تاج الدّوله فدخلها، و بات بها، فراسله نوح والی القلعه الکبیره، و سلّمها إلیه بعد أن توثّق منه، و طلع تاج الدّوله إلیها فی الحادی عشر من جمادی الأولی من السّنه(۱).

۱- ۴۸۷ ه/ ۱۰۹۴ م.

و قبض تاج الدّوله على بوزان فضرب رقبته صبرا، و أخذ كربوقا و اعتقله بحمص، و أقطع الشّام لعسكره، و أقطع معرّه النّعمان و اللّاذقيه ليغى سيان، و رتّب أبا القاسم بن بديع وزيرا بحلب.

و أقام ثلاثه أيّام ثمّ توجّه فقطع الفرات، و تسلّم حرّان، و سار إلى الرّها فتسلّمها، و قيل: بأنّ واليها امتنع من تسليمها إلّا بعلامه من بوزان، و أنّ بوزان كان محبوسا بحلب، فأنفذ إليه من قطع رأسه و رماهم به، فسلّموا الرّها إليه، و تسلّم ديار بكر.

و سار إلى ميّافارقين فقتل بنى جهير بعد أن قطع رؤوس أولادهم و علّقها فى رقابهم.

و عدل عن الموصل، و سار للقاء زوجه أخيه خاتون الجلاليّه لإتمام ما كان استقرّ بينهما فماتت فى الطريق.

و توجّه تاج الدّوله إلى الرّى، فوصله خلق كثير من التركمان و عساكر أخيه، و ملك كلّ بلده مرّ بها، و خطب له على منابر الإسلام: الشّام و الفرات، و بغداد.

و عند وصوله إلى همذان كتب إلى ولده الملك رضوان يستدعيه من دمشق فتوجّه إليه و معه بقيّه من تخلّف من أصحابه بالشّام.

و دخل تاج الدّوله الرّى و ملكها فى المحرّم سنه ثمان و ثمانين و أربعمائه، و خرج بركيارق من أصبهان، و التقوا على خمسه فراسخ من

الرّى فى يوم الأحد السّابع عشر من صفر، فانهزم عسكر تاج الدّوله تتش و استبيح و نهب، و قتل ذلك اليوم تاج الدّوله و خواصّه فى الحرب.

و قتل تاج الدّوله بعض أصحاب قسيم الدّوله بعد أن اصطنعه و قرّبه، ضربه بنشّابه فى ترقوته اليسرى فوقع؛ و قطع رأسه و طيف به العسكر، ثمّ حمل إلى بغداد فطيف به، و تفرّق من سلم منهم إلى مواضعهم.

و وصل الخبر إلى ولده الملك رضوان، و هو نازل على الفرات بعانه(۱) متوجها إلى والده، فقلق و خاف من وصول من يطلبه فحطّ خيمه فى الحال(۲).

و رحل مجدّا حتّى وصل حلب فى جماعه من غلمانه و حاشيته؛ و ترك باقى عسكره من ورائه، فسلم وزير أبيه أبو القاسم بن بديع إليه المدينه و القلعه؛ و صعد إليها؛ و أخذوا الأهبه لمن يقصدها.

و وصل إليه إلى حلب من الفلّ أخوه أبو نصر دقاق(۳) و جناح الدّوله حسين(۴)، فاستولى جناح الدّوله على تدبير ملك الملك رضوان؛ و كان تاج

۱- عانه بلد مشهور على الفرات بين الرقه و هيت يعد فى أعمال الجزيره. معجم البلدان.

۲- لرضوان ترجمه مطوله فى كتاب بغيه الطلب كنت قد نشرتها فى ملاحق كتابى- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبيه- ص ۳۸۷- ۳۹۶.

۳- لدقاق ترجمه فى تاريخ ابن عساكر، انظرها فى كتاب المدخل ص ۳۸۶.

۴- لجناح الدّوله حسين ترجمه فى بغيه الطلب كنت قد نشرتها فى ملاحق كتابى المدخل ص ۳۷۶- ۳۷۹.

الدّوله قد جعله مدبّرا له، و هو أتابكه فی حیاته، و جعل دقاق مع أتابک ظهیر الدین.

و لمّا افتتح دیار بکر سلّمها إلی ظهیر الدّین، و شمس الملوک دقاق معه، و لم یزل بها إلی أن سار إلی الرّیّ فسارا معه.

و عاد دقاق إلی حلب فأقام بها مـدّه یسـیره، و راسـله الأمیر ساوتکین الخادم- و کان نائب تاج الـدّوله بـدمشق فی حفظ القلعه و البلـد- [و قرّر] لـدقاق مملکه دمشق سـرّا، و خاف من أخیه رضوان(۱)، فخرج مـن حلـب و هرب إلی دمشـق من غیر أن یعلم به أحـد. و جـدّ فی السّـیر، و تبعه رضوان، و أنفـذ خلفه عدّه من الخیل ففاتهم، فدخل دمشق فسارع ساوتکین إلی طاعته، و صارت دمشق و بلادها بحکمه.

و قتل رضوان أخویه: أبا طالب و بهرام ابنی تتش، و کان أتابک طغتکین معتقلا عند السّلطان برکیارق، و قبض فی الوقعه فطلبوا منه کربوقا و الجماعه الـذین معه، و کانوا فی یـد رضوان فاتّفق رأیهم أن یسـیروا عضب الـدّوله أبق بن عبـد الرّزّاق إلی رضوان لاستخلاص کربوقا.

و کـان أبق أیضـا من جمله من قبض علیه من الجمـاعه الـذین کانوا مع تتش فخاطبوا السّـلطان فی إطلاقه و تسـییره فأجابهم إلی ذلک، و سیّره إلی حلب، فلمّا وصله أکرمه رضوان و أطلق کربوقا فی شعبان و سیّره مکرما.

۱- انظر لمزید من التفاصیل ترجمه رضوان- المدخل ص ۳۹۱- ۳۹۵.

فأطلق برکیارق أتابک طغتکین(۱) و جمیع من کـان فی اعتقـاله من خواصّ تاج الـدّوله، و وصل دمشق فابتهـج دقاق بوصوله و قویت نفسه؛ و ألقی تدبیر أموره إلیه، فقام فیها أحسن قیام.

فاستأذن عضب الـدّوله الملـک رضـوان فی الوصـول إلیه فـأذن له، و قرّر معه قرب العوده إلی حلب و ترک اقطـاعه بحلب علی حاله، فوصل دمشق و اختار المقام بها، و کتب إلی أصحابه بعزاز یأمرهم بتسلیمها إلی رضوان فسلّموها.

و لمّا وصـلت هذه الأخبار وثب أهل أفامیه علی حصنها فأخذوه من الأتراک، و قتلوا بعضهم، و کان تاج الدّوله قد أخذه من ابن منقذ، و سار جماعه من أهلها إلی مصر یستدعون والیا من قبلهم [لمیلهم](۲) إلی الإسماعیلیه و نفورهم من التّرک.

و وصل خلف بن ملاعب فی سنه تسع و ثمانین و أربعمائه و تسلمها، و عاد إلی الفساد و قطع الطریق، و قتل خلقا من أفامیه.

و أمّا الملک رضوان فإنّه خرج فی سـنه ثمان و ثمانین من حلب، و معه جناح الدّوله حسین، و وصله یغی سیان و یوسف بن أبق من أنطاکیه بعسکرهما، و توجهوا إلی الرّها، و معهم رهائن أهلها لیتسلمها الملک رضوان من المقیمین فیها من أصحاب والده.

۱- لطغتکین ترجمه قصیره فی تاریخ ابن عساکر، نشرتها فی ملاحق- المدخل ص ۴۰۸.

۲- أضیف ما بین الحاصرتین لاستقامه السیاق- أنظر ترجمه خلف بن ملاعب.

فلمّا نزلوا الرّها أراد يغى سيان و يوسف أن يقبضا جناح الدّوله و يتفرّدا بتدبير رضوان، فهرب منهما، و قطع الفرات، و وصل حلب، و تبعه رضوان، فدخل حلب، و هرب رهائن الرّها من العسكر و دخلوها، و عاد يغى سيان و يوسف بن أبق، و قد استوحش رضوان منهما.

و كتب رضوان إلى سكمان(۱)- و اقطاعه سروج(۲)- يستدعيه إلى حلب لمعونته، فسار و قطع الفرات فلقيه يوسف بن أبق فى عدّه وافره فخافه سكمان، فأظهر موافقته و صار معه.

و خاف جناح الدّوله من اجتماعهم، و كان عقيب وصول رضوان من الرّها قد سيّر جماعه من عسكر حلب إلى معرّه النّعمان مع عضب الدّوله لأخذها من يغى سيان.

و كاتب وثّاب بن محمود فوصل ببنى كلاب لمساعدته على أخذ المعرّه، فأخرجوا ابن يغى سيان و أصحابه منها، و تسلّموها.

و عاد عضب الدّوله و وثّاب، فلمّا وصلا حلب حدث ما ذكرناه من أمر سكمان و يوسف بن أبق، فخرج جناح الدّوله بالعسكر، فلقيه يوسف بالقرب من مرج دابق فهرب يوسف و نهبوا عسكره، و أعانهم على ذلك

۱- سكمان بن ارتق. انظر المدخل ص ۳۸۸. و من المفيد مقارنه ما جاء هنا بما جاء فى الترجمه لوجود بعض التعارض.

۲- سروج بلده قريبه من حران من ديار مضر. معجم البلدان.

سكمان، و دخل يوسف أنطاكيه. و عاد جناح الدّوله و سكمان و وثّاب و أبق إلى حلب.

و أقطع الملك رضوان معرّه النّعمان سكمان بن أرتق و أعمالها، ثم سار رضوان و سكمان لقصد دمشق و انتزاعها من أخيه دقاق، و ترك جناح الدوله بحلب.

فلمّا نزلا دمشق، وصل إليهما أن دقاق قبض على نجم الدين إيلغازى ابن أرتق، و اعتقله لتهمه وقعت به، فعاد الملك رضوان إلى حلب، و سار سكمان إلى بيت المقدس و تسلّمها من نواب أخيه و أقام بها.

و راسل يوسف بن أبق الملك رضوان و استأذنه فى الوصول إلى خدمته فأذن له، و وصل حلب و سكنها.

ثم خاف رضوان و حسين منه فتقدّما إلى بركات بن فارس رئيس حلب المعروف بالمجن(۱) بقتله، فهجم عليه و أصحابه فقتلوه و نهبوا داره و أخذوا رأسه، و سيّروه إلى بزاعا و منبج، فتسلموها من أصحابه، و قبضوا على اقطار أخيه و أصحابهما؛ و هربوا من حلب، و كان الملك قد توهّم منه الارتداد عن الاسلام.

ثم أنّ رضوان و جناح الدّوله خرجا فى سنه تسع و ثمانين إلى تلّ باشر؛ و شيح الدّير(۲)، و فتحاها بالسّيف من أصحاب يغى سيان، و أغارا على

۱- المجن الفوعى، مقدم أحداث حلب. انظر المدخل ص ۳۸۸- ۳۹۲.

۲- انظر بغيه الطلب ص ۳۲۱- ۳۲۲، ۴۷۴.

أعمال أنطاكيه، و عادا إلى حلب، و سارا فى أول شهر رمضان منها إلى دمشق.

فسار يغى سيان منجدا لدقاق فضعفت نفس رضوان و لم يتمكن من العوده، فسار إلى بيت المقدس، فتبعه دقاق و طغتكين و يغى سيان و أقاموا متحابسين مده.

و أشرف عسكر رضوان على التّلف فانفصل عنه جناح الدّوله، و هرب على طريق البريه إلى حلب، و تبعه الملك رضوان بعد مدّه و حصلا بجميع العساكر بحلب.

و عاد دقاق و طغتكين إلى دمشق و يغى سيان إلى أنطاكيه. و عاد سكمان بن أرتق من القدس على البريّه حتّى وصل حلب على البريه فى المحرّم من سنه تسعين و أربعمائه.

و اجتمع بجناح الدّوله و اتفقا على قصد بلاد يغى سيان فخرج دقاق و طغتكين، فوصلا حماه و عاث العسكر فى بلدها و وصلهما يغى سيان، و ساروا إلى كفر طاب فى الثّانى من ربيع الأوّل، فقاتلوها، و نهبوها، و قرّروا على أهلها مالا.

و هرب أصحاب سكمان من المعرّه فتسلّمها يغى سيان و قرّر عليها مالا، و تنقّل العسكر فى الجزر(۱) و غيرها من أعمال حلب، فاستنجد رضوان

۱- الجزر كوره من كور حلب وقعت بينها و بين أنطاكيه. معجم البلدان.

بسلیمان بن إیلغازی صاحب سمیساط(۱) فوصل بعسکر کثیر إلی حلب.

و جمع رضوان من قدر علیه من التّرک و العرب و أحداث حلب، و نزل عسکر دقاق بقنّسرین.

و نزل عسکر حلب بحاضر قنّسرین فاتّفق الأمر علی أن یجتمعوا علی نهر قویق و یتحدّثوا، فاجتمعوا و تحدّثوا، و النهر بینهم؛ فلم یتّفق الصّلح، فقال یغی سیان لسکمان: «هؤلاء الملوک یقتتلون علی ملکهم، أنت یا بیّاع اللّبن دخولک معهم لأی صفه؟» قال: «غدا تبصر ایش أنا».

فأصبحوا و التقوا یوم الاثنین خامس شهر ربیع الآخر من سنه تسعین و أربعمائه فأبلی سکمان بلاء حسنا.

و لم تزل الحرب بینهم إلی آخر النهار، فانهزم یغی سیان إلی أنطاکیه، و دقاق و طغتکین إلی دمشق؛ و أسر فی الحرب اصباوه(۲)، فاعتقل بحلب ثم أطلق، فهرب إلی دمشق و لم یقتل من العسکر إلّاالقلیل.

و قتل الفلّاحون فی الطّریق وقت الهزیمه من الأرمن الذین کانوا مع یغی سیان جماعه کثیره، و تغیّرت نیّه الملک رضوان علی جناح الدّوله حسین

۱- سمیساط مدینه علی شاطی ء الفرات، هی الآن فی ترکیا. معجم البلدان- الأعلاق الخطیره- قسم الجزیره- ص ۸۰۱.

۲- من أمراء الترکمان وقاده جیوشهم و هو عند ابن الأثیر فی الکامل: ۸/ ۲۲۸« أصبهبذ صباوو».

فهرب من حلب إلى حمص، و خرج من حلب ليلا- و معه زوجته أمّ الملك رضوان؛ و أقام بحمص لأنها كانت فى يده و حصّنها.

و وصل يغى سيان إلى حلب عقيب ذلك، و خدم رضوان، و دبّر أمره، و تزوّج رضوان ابنه يغى سيان خاتون جيجك(۱).

و عوّل رضوان على قصد جناح الدّوله بحمص، و قصد دقاق بدمشق، و وصله رسول الأفضل(۲) من مصر يدعوه إلى طاعه المستعلى و إقامه الدّعوه له، و على يده هديّه سنيّه من مصر، و وعده بأن يمدّه بالعساكر و الأموال.

فتقدم بالدّعوه للمصريين على سائر منابر الشّام التى فى يده، و دعا الخطيب أبو تراب حيدره بن أبى أسامه بحلب للمستعلى ثمّ للأفضل ثم لرضوان، فى يوم الجمعه السّابع عشر من شهر رمضان من هذه السّنه.

و كان قد ولّى الخطابه أبا تراب و عزل جدّ أبى غانم أبا محمّد بن هبه اللّه بن أبى جراده عن القضاء و الخطابه بحلب، لأن توليته كانت على قاعده أبيه من بغداد فى سنه ثمان و ثمانين و أربعمائه.

و كان أبوه القاضى أبو الفضل هبه اللّه قد مات فى هذه السّنه المذكوره، و هو على القضاء و الإمامه بحلب.

۱- انظر المدخل ص ۳۸۸.

۲- الأفضل بن بدر الجمالى أمير الجيوش المتحكم بالخلافه الفاطميه. انظر المدخل ص ۳۹۲.

و ولی رضوان قضاء حلب فی سنه تسعین القاضی فضل اللّه الزّوزنی العجمی الحنفی، و سیّره رسولا إلی مصر، و ناب عنه فی القضاء حال غیبته أبو الفضل أحمد بن أبی أسامه الحلبی، و دامت الدّعوه بحلب إلی رجب من سنه اثنتین و تسعین و أربعمائه. و قیل: لم تدم أکثر من أربع جمع(۱).

و أعادها رضوان للإمام المستظهر ثم للسّلطان برکیارق ثمّ لنفسه، و لم یصحّ له مما التمسه من المصریین شی ء.

و أعاد القضاء و الخطابه إلی جدّ أبی أبی غانم علی قاعدته الأولی، فی سنه خمس و تسعین و أربعمائه، حین قتل الزّوزنیّ، و کان خرج من بین یدی رضوان، فقتل فی بعض الدّروب؛ و کان أزری علی الباطنیّه و علی معتقدهم فقیل إنّهم قتلوه.

و لما سار رضوان و یغی سیان وصلا إلی شیزر متوجّهین إلی حمص لقصد(۲) حمص، فتواصلت الأخبار بوصول خلق من الفرنج قاصدین أنطاکیه، فقال یغی سیان: «عودنا إلی أنطاکیه و لقآء الفرنج أولی»، و قال سکمان: «مسیرنا إلی دیار بکر و أخذها من المتغلّبین علیها و نتقوی بها، و أنزل أهلی بها و نعود إلی حمص أولی»؛ و اختلفوا.

فسار الملک رضوان نحو حلب جفلا و کان معه وزیره أبو النّجم بن بدیع أخو وزیر أبیه تتش أبی القاسم، و کان قد ولّاه وزارته حین ملک

۱- انظر تاریخ دمشق لابن القلانسی ص ۲۱۷.

۲- فی تاریخ دمشق لابن القلانسی ص ۲۱۷« لمعاوده النزول علی دمشق» و هو الأقوم.

حلب، فاتهماه أنه هو الذى يفسد حال رضوان، فطلع إلى حصن شيزر، و أقام به عند ابن منقذ خشيه من يغى سيان و سكمان، فلما سارا عن شيزر سار إلى حلب و لحق بالملك رضوان بها.

و لما عاد رضوان مغاضبا ليغى سيان و سكمان عاد(۱) و الأمراء من شيزر إلى أنطاكيه، و بلغهم نزول الفرنج البلّانه و نهبها(۲).

و لما دخل يغى سيان أنطاكيه أخرج ولديه شمس الدّوله و محمدا، فسار أحدهما إلى دقاق و طغتكين يستنجدهما، و بثّ كتبه إلى جناح الدّوله و وثاب بن محمود و بنى كلاب، و سار محمّد ابنه إلى التركمان و كربوقا و أمراء الشرق و ملوكه، و سارت كتبه إلى جميع أمراء المسلمين.

و فى ثامن شهر رمضان، وصل من قبرس إلى ميناء اللاذقيه اثنتان و عشرون قطعه فى البحر، فهجموه و أخذوا منه جميع ما كان للتجّار؛ و نهبوا اللّاذقيه، و عادوا، و وصلت الفرنج إلى الشّام، و اعتبروا عسكرهم فكانوا ثلاثمائه ألف و عشرين ألف إنسان، لأنّهم وصلوا من جهه الشمال.

و فى اليوم الثّانى من شوّال نزلت عساكر الفرنج على بغراس(۳) و أغاروا على أعمال أنطاكيه، فعند ذلك عصى من كان فى الحصون و المعاقل المجاوره لأنطاكيه، و قتلوا من كان بها، و هرب من هرب منها.

۱- الضمير يعود هنا إلى يغى سيان. انظر ابن القلانسى ص ۲۱۸.

۲- انظر ابن القلانسى ص ۲۱۸.

۳- بغراس: مدينه فى لحف جبل اللكام بينها و بين أنطاكيه أربعه فراسخ، على يمين القاصد إلى أنطاكيه من حلب. معجم البلدان.

و فعل أهل أرتاح[۱] مثل ذلك و استدعوا المدد من الفرنج، و هذا كله لقبح سيره يغى سيان و ظلمه فى بلاده.

و نزل الفرنج على أنطاكيه لليلتين بقيتا من شوال من سنه تسعين و أربعمائه.

و خرج فى المحرّم من سنه إحدى و تسعين و أربعمائه نحو ثلاثين ألفا من الفرنج إلى أعمال المسلمين ببلد حلب، فأفسدوا و نهبوا و قتلوا من وجدوا.

و كان قد وصل الملك دقاق و أتابك و معهما جناح الدّوله، و نزلوا أرض شيزر، و معهم ابن يغى سيان و هم سائرون لانجاد أبيه، فبلغهم خبر هذه السريّه، فساروا إليها بقطعه من العسكر، فلقوهم فى أرض الباره[۲] فقتلوا منهم جماعه.

و عاد الفرنج إلى الروج[۳]، و عرجوا منه إلى معرّه مصرين[۴]، فقتلوا من وجدوا و كسروا منبرها، و حين عاد العسكر الدمشقى من الباره فارقهم ابن يغى سيان و وصل إلى حلب يستنجد بالملك رضوان، فأخذ عسكر حلب و سكمان، و دخل بهما إلى أنطاكيه فلقيهم من الفرنج دون عدّتهم، فانهزم

۱- أرتاح اسم حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب. معجم البلدان.

۲- بليده فى منطقه أريحا محافظه ادلب السوريه، كان بها حصن، ما زالت خرائبها شاهده على عظمه ماضيها، انظر معجم البلدان و انظر الخبر أيضا عند ابن القلانسى ص ۲۱۹.

۳- الروج من كور حلب المشهوره فى غربيها. معجم البلدان.

۴- معره مصرين من قرى محافظه ادلب و تتبع إداريا لها و تبعد عن ادلب مسافه ۱۰ كم.

عسكر المسلمين إلى حارم(۱) و ذلك فى آخر صفر، و تبعهم عسكر الفرنج إلى حارم فانهزموا إلى حلب، و غلب أهل حارم من الأرمن عليها.

و فى شهر ربيع الأول من السّنه وصل خلق من الأرمن إلى تل قبّاسين بناحيه الوادى فقتلوا من فيه، و خرج المسلمون الذين بالوادى و جماعه من الأتراك تبعوهم و قتلوا منهم جماعه، و التجأ الباقون إلى بعض الحصون الخربه، فأدركهم عسكر حلب فقاتلهم يومين، و أخذوهم فقتلوا بعضهم، و حمل الباقى أسرى إلى حلب فقتلوا، و كانوا يزيدون عن ألف و خمسمائه.

و لما نزل الفرنج- لعنهم اللّه- بأنطاكيه جعلوا بينهم و بين البلد خندقا لأجل غارات عسكر أنطاكيه عليهم و كثره الظّفر بهم، و لا يكاد يخرج عسكر أنطاكيه و يعود إلّا ظافرا.

و جعل يغى سيان النّاس على البعد و القرب، و كان حسن التّدبير فى سياسه العسكر.

و جمع كربوقا صاحب الموصل عسكرا عظيما، و قطع به الفرات، و وصل دقاق و طغتكين و جناح الدوله، و وصل سكمان بن أرتق، و فارق رضوان و سار مع دقاق.

و وصل وثّاب بن محمود و معه جماعه من العرب و وصلوا تل منس و قاتلوها لأنه بلغهم أنهم كاتبوا الفرنج و أطمعوهم فى الشّام، و قرّر عليهم

۱- حارم الآن من مناطق محافظه ادلب و تبعد عن ادلب مسافه ۵۳ كم.

دقاق مالا أخذ بعضه و رهائن على الباقى، و سيّرهم إلى دمشق.

و سار دقاق بالعساكر إلى مرج دابق، و اجتمع بكربوقا فيه فى آخر جمادى الآخره، و رحلوا منه نحو أنطاكيه.

فلما كان ليله الخميس أوّل ليله من رجب واطأ رجل يعرف بالزّرّاد من أهل أنطاكيه و غلمان له على برج كانوا يتولّون حفظه؛ و ذلك أن يغى سيان كان قد صادر هذا الزّرّاد و أخذ ماله و غلّته، فحمله الحنق على أن كاتب بيمند و قال له: «أنا فى البرج الفلانى، و أنا أسلّم إليك أنطاكيه إن أمنتنى و أعطيتنى كذا و كذا». فبذل له ما طلب، و كتم أمره عن باقى الفرنج.

و كان بعسكر الفرنج تسعه قوامص مقدّمين عليهم كندفرى، و أخوه القمص، و بيمند، و ابن اخته طنكريد و صنجيل و بغدوين و غيرهم، فجمعهم بيمند و قال لهم: «هذه أنطاكيه إن فتحناها لمن تكون؟» فاختلفوا، و كلّ طلبها لنفسه، فقال: «الصّواب أن يحاصرها كلّ رجل منا جمعه؛ فمن فتحت فى جمعته فهى له»، فرضوا بذلك.

فلما كانت نوبته دّلى لهم الزّرّاد- لعنه اللّه- حبلا فطلعوا من السّور، و تكاثروا، و رفع بعضهم بعضا و جاءوا إلى الحراس، فقتلوهم، و تسلّمه بيمند بن الانبرت(۱).

۱- معلومات ابن العديم هنا على درجه عاليه من الدقه، و الانبرت هو الامبراطور، أراد به والد بوهموند جويسكارد النورمندى، و هناك خلاف حول أصل و شخصيه الزراد. انظر وقارن وليم الصورى- تاريخ الحروب الصليبيه- ترجمتى- ط. بيروت ۱۹۹۰ ص ۲۷۹- ۳۳۲.

و طلع الفرنـج فی سـحره هـذه اللّیله إلی البلـد و صاح الصّائح من ناحیه الجبل، فتوهّم یغی سـیان أنّ القلعه قد أخذت فخرج من البلد فی جماعه منهزمین فلم یسلم منهم أحد.

و لمّا حصل بالقرب من أرمناز و معه خادم من غلمانه وقع عن ظهر فرسه، فحمله الخادم الـذی کان معه، و أرکبه، فلم یثبت علی ظهر الفرس، و عاد فسقط، و أدرکه الأرمن؛ فهرب الخادم عنه، و قتله الأرمن و حملوا رأسه إلی الفرنج.

و استشـهد فی ذلـک الیوم بأنطـاکیه مـا یفوت الإحصـاء و یجـاوز العـدد، و نهبت الأـموال و الآلاـت و السّـِلاح؛ و سبی من کان بأنطاکیه، و وصل هذا الخبر إلی عمّ و انّب(۱)، فهرب من کان بها من المسلمین و تسلمها الأرمن.

و بلغ الخبر إلی دقاق و کربوقا و من کان معهما، فرحلوا إلی أرتاح، و سار بعضـهم إلی جسـر الحدید(۲) و قتلوا من کان فیه من الفرنـج، و توجّهوا نحو أنطـاکیه، فعرفوا أنّ قلعتهـا بـاقیه فی أیـدی المسـلمین، فـأعلموا العسـاکر الإسـلامیه بـذلک، فوصـلوا إلی أنطاکیه سحره یوم الثلاثاء سادس رجب، فانهزم من کان بظاهر البلد من الفرنج إلیها.

۱- إنب: حصن من أعمال عزاز من نواحی حلب. و عم قریه غناء بین حلب و أنطاکیه. معجم البلدان.

۲- انظر ولیم الصوری ص ۳۳۳- ۳۳۶، و جسر الحدید کان مقاما علی العاصی انظر خریطه أنطاکیه ص ۱۲۴ من ولیم الصوری.

و نزل المسلمون بظاهرها ممّا يلى الجبل، و دخلوا البلد من ناحيه القلعه، و قاتلوا الفرنج فى جبل المدينه، و أشرف الفرنج على التّلف فبنوا سورا على بعض الجبل يمنع المسلمين من النزول إليهم، و أقاموا أيّاما، و عدم القوت عندهم.

و احتوى كربوقا على كثير ممّا كان فى قلعه أنطاكيه، و ولّى فيها أحمد بن مروان، و ترادفت رسل الملك رضوان فى أثناء ذلك إلى كربوقا، فتوهّم دقاق من ذلك، و خاف جناح الدّوله من أصحاب يوسف بن أبق و أخيه.

و جرت بين الأتراك و العرب الّذين مع وثّاب منافره عادوا لأجلها، و تفرّق كثير من التّركمان بتدبير الملك رضوان و رسالته.

و تخيّل بعض الأمراء من بعض ثم اجتمع رأيهم على التحوّل إلى المنازله فى السّهل بظاهر أنطاكيه، فنزلوا باب البحر، و جعل المسلمون بينهم و بين البلد خندقا.

و أكل الفرنج بأنطاكيه الميتات و الدّواب، فخرجوا من أنطاكيه يوم الاثنين السّادس و العشرين من شهر رجب.

فأشار وثّاب بن محمود أن يمنعوا من الخروج، و أشار بعض الأمراء أن لا يمكنوا من الخروج بأجمعهم و يقتلوا أوّلا فأوّلا، فلم يعرّج المسلمون على شى ء من ذلك لأنهم أيقنوا بالظّفر بالفرنج، و خرجوا بأجمعهم فى خلق عظيم.

و عاث التّركمان فى العسكر فانهزم، و توهّم الفرنج أن ذلك مكيده

فتوقفوا عن تبعهم، فكان ذلك سببا لسلامه من أراد اللّه سلامته؛ و لم يبق غير كربوقا و معه أكثر عسكره، فأحرق سرادقه و خيامه و انهزم نحو حلب.

و قتل من المطوعه و الغلمان و السّوقه خلق كثير، و لم يقتل مذكور، و نهب من المسلمين من الآلات و الخيام و الكراع و الغلّات ما لا يحصى، و من انقطع من العسكر نهبه الأرمن(١).

و عاد الفرنج إلى قلعه انطاكيه، و بها أحمد بن مروان، فراسله الفرنج و أمّنوه، و من كان معه، و سلّمها إليهم يوم الأحد الثّانى من شعبان من السّنه، و أنزلوه فى دار بأنطاكيه و أطلقوا أصحابه و سيّروا معهم من يوصلهم إلى أعمال حلب؛ فخرج الأرمن فأخذوا بعضهم و قتلوا بعضهم، و لم يسلم منهم إلّا القليل.

و لمّا وصل كربوقا إلى حلب خرج إليه الملك رضوان، و حمل له خياما و غيرها، و رحل عنها، و عاد عسكر دمشق إليها و تفرّقت العساكر.

و بعد أيّام من هذه الوقعه خرج جماعه من الفرنج فى شعبان، و زحفوا مع أهل تلمنس و جميع نصارى بلد المعرّه على المعرّه و قاتلوها، فوصلت قطعه من عسكر حلب إليهم، فالتقوا بين تلّ منس و المعرّه، فانهزم الفرنج و بقى الرّجاله منهم، فقتل منهم زائدا عن ألف رجل، و حملت رؤوسهم إلى معرّه النّعمان.

١- انظر يوميات صاحب أعمال الفرنجه فى كتابى الحروب الصليبيه- ط. دمشق ١٩٨٤ ص ٢٣٩- ٢٦١. وليم الصورى ص ٣٣٧- ٣٦٤.

و فی هذه السّنه- و هی سنه إحدی و تسعین- فی جمادی الأولی عزل الملک رضوان وزیره أبا النجم هبه اللّه بن محمد بن بدیع؛ و ولّی وزارته أبا الفضل هبه اللّه بن عبد القاهر بن الموصول. و کان أبو الفضل حسن السّیره جوادا کثیر المعروف و الصّدقات، و وافق ذلک شده الغلاء و الجوع بحلب، حتّی أکلوا المیتات، فأخرج غلّه کثیره، و تصدّق بها علی النّاس.

و قیل: إنّه کان یخرج فی کل سنه صدقه و برّا ثلاثه آلاف مکوک غلّه سوی ما یطلقه لمن یسأله معونته من الوفود و الضّیوف، و غیر ما یطلقه من العین و الورق و غیر ما کان یعتمد من افتکاک الأسری من المسلمین.

و فیها قتل الملک رضوان رئیس حلب برکات بن فارس الفوعی المعروف بالمجنّ، و کان هذا المجن أوّلا من جمله اللّصوص الشّطّار و قطّاع الطّریق الذعّار فاستتابه قسیم الدّوله أق سنقر، و ولّاه رئاسه حلب لشهامته و کفایته و معرفته بالمفسدین، و کان فی حال اللّصوصیه یصلّی العشاء الآخره بالفوعه(۱)، و یسری إلی حلب و یسرق منها شیئا و یخرج، و یصلّی الفجر بالفوعه فاذا اتهم بالسّرقه أحضر من یشهد له أنّه صلّی العشاء بالفوعه و الصبح فیبرئونه.

و استمرّ علی رئاسه حلب فی أیّام قسیم الدّوله و أیّام تاج الدّوله و بعده فی أیّام رضوان، و امتدّت یده و حکم علی القضاه و الوزراء و من دونهم، و هو الّذی قتل الوزیر أبا نصر بن النّحاس فی أیام قسیم الدّوله.

۱- الفوعه الآن من قری محافظه ادلب و تبعد عنها مسافه ۱۳ کم.

و بلغنی أنه حنق علیه بسبب حصر أراد شراءها فاشتراها المجنّ، فشقّ علی أبی نصر، فسیّرها المجنّ إلیه، فردّها علیه أبو نصر، و تکلّم فی حقّه بکلام قبیح فحنق بسببها علی ابن النّحاس، فاعتقله بعد ذلک عنده و خنقه.

و کان کثیر السّعایه فی قتل النّفوس و سفک الدّماء و أخذ الأموال و ارتکاب الظّلم، فعصی علی الملک رضوان، ثم ضعف و اختفی بعد أن حصر رضوان فی قلعه حلب فی سنه تسعین و أربعمائه.

فأمر رضوان منادیا نادی بالقلعه بأن الملک قد ولّی رئاسه حلب صاعد بن بدیع فانقلب الأحداث عنه لبغضهم إیّاه، و مضوا إلی صاعد فاختفی المجنّ، ثم ظهر علیه فعجل اللّه المکافأه له علی قبیح فعله.

و سلّط علیه الملک رضوان فسجنه فی ذی القعده من سنه تسعین و عذّبه عذابا شدیدا بأنواع شتی، و أراد بذلک أن یستصفی ماله. فممّا عذّبه به أنّه أحمی الطست حتّی صار کالنّار، و وضعه علی رأسه، و نفخ فی دبره بکیر الحدّاد، و ثقب کعابه، و ضرب فیها الرّزز و الحلق.

و لمّا وضع النّجار المثقب علی کعبه قطع الجلد و اللّحم و لم یدر المثقب، فلطمه المجنّ و قال: «ویلک لا تعرف! أحضر خشبه، وضعها علی الکعب». فأحضر خشبه و وضعها علی کعبه، فدار المثقب و نزل و نزل، و ثقب الکعب.

فلما فرغ قيل له: «كيف تجد طعم الحديد؟» فقال: «قولوا للحديد كيف يجد طعمى»، و لم يقرّ المجنّ مع هذا كلّه بدرهم واحد، و لم يحصل للملك رضوان من ماله إلّا ما أقرّ به غلام أو جاريه؛ و ذلك شى ء يسير، و استغنى جماعه من أهل حلب من ماله.

و لما طال الأمر على رضوان أشير عليه بقتله، فأخرج إلى ظاهر باب الفرج من نحو الشّرق، و معه ابنان له شابان مقتبلا الشباب، فقتلا قبله؛ و هو ينظر إليهما و لا يتكلم.

ثم قتل بعد ذلك فى سنه إحدى و تسعين، و سلّمت رئاسه حلب إلى صاعد بن بديع، و لما قدم المجنّ للقتل صاح بصوت عال: «يا معشر أهل حلب، من كان لى عنده مال، فهو فى حلّ منه».

و كان ابن بديع من أولاد الدّيلم الّذين كانوا فى أيّام سيف الدّوله، و ولد أبوه بحلب.

و فى سنه إحدى و تسعين و أربعمائه عصى عمر والى عزاز على الملك رضوان فخرج عسكر حلب و حصره، فاستنجد بالفرنج، فوصل صنجيل بعسكر كبير، فعاد عسكر حلب فنهب صنجيل ما قدر عليه و عاد إلى أنطاكيه، و أخذ ابن عمر رهينه، فمات عنده، فوقع الملك رضوان على عمر إلى أن أخذه من تلّ هراق(۱) فسلّم إليه عزاز و أقام عنده بحلب مدّه، ثم قتله.

۱- انظر حوله الأعلاق الخطيره لابن شداد- قسم حلب- ط. دمشق ۱۹۹۱ ج ۲ ص ۶۴.

و خرج صنجيل فى ذى الحجّه، و حصر الباره فقل الماء فأخذها بالأمان، و غدر بأهلها، و عاقب الرّجال و النّساء، و استصفى أموالهم و سبى بعضا و قتل بعضا، ثم خرج بقيّه الفرنج من أنطاكيه و الأرمن الّذين فى طاعتهم و النّصارى، و انضموا إليه، و وصلوا إلى معرّه النّعمان لليلتين بقيتا من ذى الحجه فى مائه ألف.

و حصروا معرّه النّعمان فى سنه اثنتين و تسعين، و قطعوا الأشجار، و استغاث أهلها بالملك رضوان و جناح الدوله فلم ينجدهم أحد.

و عمل الفرنج برجا من خشب يحكم على السّور و زحفوا إلى البلد، و قاتلوه من جميع نواحيه حتى لصق البرج بالسّور فكشفوه و أسندوا السّلالم إلى السّور و ثبت النّاس فى الحرب من الفجر إلى صلاه المغرب، و قتل على السّور و تحته خلق كثير، و دخلوا البلد بعد المغرب ليله الأحد الرّابع و العشرين من محرّم سنه اثنتين و تسعين و أربعمائه.

و دخل عسكر الفرنج جميعه إلى البلد، و انهزم بعض الناس إلى دور حصينه، و طلبوا الأمان من الفرنج فأمّنوهم، و قطعوا على كل دار قطيعه، و اقتسموا الدّور، و هجموها و ناموا فيها، و جعلوا يهدّئون النّاس حتى أصبح الصبح، فاخترطوا سيوفهم، و مالوا على النّاس، و قتلوا منهم خلقا؛ و سبوا النّساء و الصّبيان.

و قتل فيها أكثر من عشرين ألف رجل و امرأه و صبّى، و لم يسلم إلّا القليل ممّن كان فى شيزر و غيرها من بنى سليمان و بنى أبى حصين

و غيرهم، و قتلوا تحت العقوبه جمعا كثيرا، فاستخرجوا ذخائر النّاس، و منعوا النّاس من الماء، و باعوا منهم فهلك أكثر النّاس من العطش، و ملكوها ثلاثه و ثلاثين يوما بعد الهجمه، و لم يبقوا ذخيره بها إلّا استخرجوها.

و هدموا سور البلد و أحرقوا مساجده و دوره و كسروا المنابر(۱). و عاد بيمند إلى أنطاكيه و قمص الرّها إليها، و فى هذه السّنه فتحوا بيت المقدس و فعلوا فيها كما فعلوا بالمعرّه(۲).

و فى سنه ثلاث و تسعين، وصل مبارك بن شبل أمير بنى كلاب فى جمع كثير من العرب فخالف الملك رضوان، و رعوا زرع المعرّه، و كفر طاب، و حماه، و شيزر، و الجسر، و غير ذلك.

و خلت البلاد، و وقع الغلاء فى بلد حلب، و لم يزرع شى ء فى بلدها، و سلّط اللّه الوباء على العرب، فمات شبل و مبارك ولده، و اضمحلت دوله العرب.

و توّجه الملك رضوان فى سلخ رجب من هذه السّنه إلى الأثارب و أقام عليها أيّاما، و توّجه إلى «كلّا» فى الخامس و العشرين من شعبان لإخراج الفرنج منها، فاجتمع من كان فى الجزر و زردنا و سرمين من الفرنج

۱- انظر الحروب الصليبيه ص ۲۶۸- ۲۷۱.

۲- انظر الحروب الصليبيه ص ۲۷۸- ۲۸۲.

و التقوا؛ فانهزم رضوان، و استبيح عسكره، و قتل خلق كثير و أسر قريب من خمسمائه نفس و فيهم بعض الأمراء(۱).

و عاد الفرنج إلى الجزر و أخذوا برج كفر طاب(۲) و برج الحاضر، و صار لهم من كفر طاب إلى الحاضر، و من حلب غربا سوى تلّ منس فإنّ أصحاب جناح الدّوله كانوا بها.

و سار رضوان عقيب هذه النّكبه إلى حمص مستنجدا بجناح الدّوله فأجابه، و عاد إلى حلب و معه جناح الدّوله، و قد عاد الفرنج إلى أنطاكيه، فأقام جناح الدّوله بظاهر حلب أيّاما، فلم يلتفت إليه رضوان فعاد عنه إلى حمص.

و تجمع الفرنج بالجزر و سرمين و أعمال حلب و جمعوا العدد و الغلال لحصار حلب، و عولوا على حصارها في سنه خمس و تسعين، و قيل قبلها.

و وصل بيمند و طنكريد إلى قرب حلب فنزلوا المشرفه- من الجانب القبلى على نهر قويق- لما بلغهم من ضعف رضوان و تمزيق عسكره، و عزموا أن يبنوا مشهد الجفّ، و مشهد الدّكّه، و مشهد قرنبيا حصونا، و أن يقيموا على حلب و يستغلوا بلدها.

فأقاموا في تدبير ذلک يوما أو يومين فبلغهم خروج أنوشتكين

۱- انظر المدخل ص ۳۹۲.

۲- تبعد خرائب كفرطاب عن خان شيخون- الى الغرب منها- قرابه ۳ كم.

الدّانشمند، و أنه قد نازل بعض معاقل الفرنج، و هى ملطيه فعادوا للدّفع عنها.

فخرج الدّانشمند فلقى بيمند و جمعا من الفرنج بأرض مرعش فأسره، و قتل عسكره، و لم يفلت منهم أحد، فخيّب اللّه ظنّ الفرنج، و هربوا من أعمال حلب، و تركوا جميع ما كانوا أعدّوه، فخرج رضوان و أخذ الغلال التى جمعوها، و نزل سرمين.

و سار جناح الدّوله إلى أسفونا و به جماعه من الفرنج فهجمه و قتل جميع من فيه، و سار إلى سرمين فكبس عسكر الملك رضوان و نهبه؛ و انهزم رضوان و أكثر عسكره و أسر الوزير أبا الفضل بن الموصول و جماعه و حملهم إلى حمص.

و طلب الحكيم المنجّم الباطنى فلم يظفر به، و كان هذا الحكيم قد أفسد ما بينه و بين رضوان و استمال رضوان إلى الباطنيه جدّا، و ظهر مذهبهم فى حلب، و شايعهم رضوان و حفظ جانبهم، و صار لهم بحلب الجاه العظيم و القدره الزّائده، و صارت لهم دار الدّعوه بحلب فى أيامه، و كاتبه الملوك فى أمرهم، فلم يلتفت و لم يرجع عنهم؛ فوصل هذا الحكيم حلب سالما فى جمله من سلم فى هذه الوقعه.

و استغلّ جناح الدّوله سرمين و معرّه النّعمان و كفر طاب و حماه، و فدى الوزير ابن الموصول نفسه من جناح الدوله بأربعه آلاف دينار، و فدى أصحاب الملك نفوسهم أيضا بمال حملوه إليه.

و لم يبق فى أيدى المسلمين فى سنه خمس و تسعين إلّا حصن بسرفوث(۱)- من عمل بنى عليم- و تسلم دقاق الرّحبه فى سنه ست و تسعين و أربعمائه، و كان المقيم بها زوج آمنه بنت قيماز(۲)، و كان قيماز من أصحاب كربوقا فمات، و كانت الرّحبه له، و كان جناح الدّوله قد خرج إليها فوجد الأمر قد فات، فعاد و نزل النّقره و خرج إليه رضوان إلى النقره و اصطلحا، و أخذه معه إلى ظاهر حلب، و ضرب له خياما، و أقام فى ضيافته عشره أيام، و لم يصف قلب أحد منهما لصاحبه.

و سار جناح الدّوله إلى حمص فسيّر الحكيم المنجّم الباطنى ثلاثه أعجام من الباطنّيه فاغتالوه، و قد نزل يوم الجمعه الثانى و العشرين من شهر رجب، لصلاه الجمعه فقتلوه، و قتلوا بعض أصحابه و قتلوا، و قيل: إنّ ذلک كان بأمر رضوان و رضاه.

و بقى المنجّم الباطنى بعده أربعه و عشرين يوما و مات، و قام بعده بأمر الدّعوه الباطنيّه بحلب رفيقه أبو طاهر الصّائغ العجمىّ.

و وصل صنجيل الفرنجى و نزل حمص بعد قتل جناح الدّوله بثلاثه أيّام، فسيّرت زوجته خاتون أم الملک رضوان تستدعيه لتسلم إليه حمص و يدفع الفرنج، فكره المقدّمون ذلک، و خافوا منه لسوء رأيه فيهم، و سيّروا

۱- انظر الأعلاق الخطيره- قسم حلب- ج ۲ ص ۱۳۸.

۲- انظر ابن القلانسى ص ۲۲۹.

إلى نواب دقاق إلى دمشق، و كان دقاق بالرّحبه فسار أيتكين الحلبى من دمشق و دخلها و طلع القلعه.

و وصل رضوان إلى القبّه(۱) فبلغه الخبر و عاد و رحل صنجيل عنها بعد أن قرّر عليهم مالا، و وصل دقاق فتسلّم حمص و أحسن إلى أهلها و نقل أهل جناح الدّوله و أولاده إلى دمشق، و سلم حمص إلى طغتكين.

و سار والى عزاز و أغار على الجومه- و هى من عمل أنطاكيه- فخرج عسكر أنطاكيه و عسكر الرّها فنزلوا المسلميّه(۲)، و قتلوا بعض أهلها، و قطعوا على عدّه مواضع قطائع أخذوها، و أقاموا ببلد حلب أياما، و راسلوا الملك رضوان.

و استقر الحال على سبعه آلاف دينار و عشره رؤوس من الخيل، و يطلقون الأسرى ما خلا من أسروه على المسلميه من الأمراء، و ذلك فى سنه ستّ و تسعين.

ثم خرج الفرنج من تلّ باشر، و أغاروا على بلد حلب الشمالى و الشّرقى، و أحرقوه، و تكرر ذلك منهم، و نزلوا على حصن بسرفوث، و فتحوه بالأمان، و وصلوا إلى كفرلاثا(۳)، فكبسهم بنو عليم فانهزموا إلى بسرفوث.

۱- قبه ابن ملاعب« و هى حصن دثر فى طرف بلد حلب، بينها و بين سلميه». معجم البلدان.

۲- المسلميه من قرى منطقه جبل سمعان فى محافظه حلب و تبعد عن حلب مسافه ۱۵ كم.

۳- بلده من نواحى حلب بينهما يوم واحد. معجم البلدان.

و وقع بین الفرنج و بین سکمان و جکرمش وقعه عظیمه استظهر فیها المسلمون، و هلک الفرنج، و أسر القمص، و غنم المسلمون غنیمه عظیمه(۱).

و کان الملک رضوان قد سار إلی الفرات ینتظر ما یکون من خبر الفرنج، فلما وصله الخبر أنفذ إلی الجزر و غیره من أعمال حلب الّتی فی أیدی الفرنج، فأمرهم بالقبض علی من عندهم من الفرنج، فوثب أهل الفوعه و سرمین، و معرّه مصرین و غیرها، ففعلوا ذلک.

و طلب بعض الفرنج الأمان من رضوان فأمّنهم من القتل، و حملهم أسری، و لم یبق بأیدی الفرنج غیر الجبل و «هاب»(۲)، و حصون المعرّه، و کفر طاب، و صوران(۳).

فوصل شمس الخواص و فتح صوران، فهرب من کان بلطمین و کفر طاب و بلد المعرّه و الباره إلی أنطاکیه، و سلّموها إلی رضوان و أصحابه ما خلا «هاب».

و استرجع رضوان بالس(۴) و الفایا ممن کان بهما من أصحاب جناح الدّوله

۱- لمزید من التفاصیل انظر ابن القلانسی ص ۲۳۲.

۲- هاب قلعه عظیمه من العواصم. معجم البلدان.

۳- ما تزال تحمل هذا الاسم تبعد عن حماه مسافه ۱۸ کم إلی الشمال منها.

۴- اسمها الآن مسکنه تبعد عن حلب مسافه ۹۰ کم. و الفایا کوره بین منبج و حلب. معجم البلدان.

و جرى بحماه خلف؛ و خافوا من شمس الخواص، فكاتبوا رضوان، و سلّموها إليه و سلميه، فأمنت أعمال حلب و تراجع أهلها إليها و قوى جأش رضوان.

و اتّصلت غارات عسكر حلب إلى بلد أنطاكيه، و عرف بيمند ضعفه عن حفظ البلد، و أنّه لم يفلت من وقعه سكمان إلا فى نفر قليل، و خاف من المسلمين فصار إلى بلاده فى البحر يستنجد بمن يخرج بهم إلى البلاد، و استخلف ابن أخته طنكريد يدبّر أمر أنطاكيه و الرّها(١).

و مات الملك دقاق سنه سبع و تسعين فى رمضان، و أوصى بالملك لولد له صغير اسمه تتش(٢)، و جعل التدبير إلى أتابك طغتكين، فتوجّه الملك رضوان نحو دمشق، و حاصرها، و قرّر له الخطبه و السكّه، فلم تستتب أموره و عاد إلى حلب.

ثم إنّه خرج فى شهر رجب فى سنه ثمان و تسعين، و جمع خلقا كثيرا، و عزم على قصد طرابلس معونه لفخر الملك بن عمّار على الفرنج النّازلين عليه.

و كان الأرمن الذين فى حصن أرتاح قد سلّموه إلى الملك رضوان لجور الأفرنج، فخرج طنكريد من أنطاكيه لاستعاده أرتاح، و خرج جميع من فى

١- أنطاكيه نعم أما الرها فكانت دويله قائمه بذاتها لها حاكمها.

٢- انظر ترجمه دقاق منتزعه من تاريخ دمشق لابن عساكر. المدخل ص ٣٨٦.

أعماله من الفرنج معه، و نزل عليها، فتوجّه نحوه رضوان فى عساكره و جموعه و جميع من أمكنه من عمل حلب و الأحداث.

فلمّا تقاربا نشبت الحرب بين الفريقين فثبت راجل المسلمين و انهزمت الخيل، و وقع القتل فى الرجاله فلم يسلم منه إلّا من كتب اللّه سلامته، و وصل الفلّ إلى حلب، و قتل من المسلمين مقدار ثلاثه آلاف ما بين فارس و راجل، و هرب من بأرتاح من المسلمين.

و قصد الفرنج بلد حلب فأجفل أهله، و نهب من نهب و سبى من سبى، و ذلك فى الثالث من شعبان.

و اضطربت أحوال بلد حلب من ليلون إلى شيزر، و تبدّل الخوف بعد الأمن و السّكون، و هرب أهل الجزر و ليلون إلى حلب، فأدركهم خيل الفرنج فسبوا أكثرهم، و قتلوا جماعه.

و كانت هذه النّكبه على أعمال حلب أعظم من النّكبه الأولى على كلّا.

و نزل طنكريد على تلّ أعذى- من عمل ليلون- و أخذه و أخذ بقيّه الحصون الّتى فى عمل حلب. و لم يبق فى يد الملك رضوان من الأعمال القبليه إلّا حماه و من الغربيّه إلّا الأثارب، و الشّرقيه و الشّماليه فى يده، و هى غير آمنه.

و سيّر أبو طاهر الصّائغ الباطنى جماعه من الباطنيّه من أهل سرمين إلى خلف بن ملاعب بتدبير رجل يعرف بابن القنج السّرمينى، من دعاه الاسماعيليه، فقتلوه و وافقهم جماعه من أهل أفاميه، و نقبوا سور الحصن، و دخلوا منه، و طلع بعضهم إلى القلّه فأحسّ بهم، فخرج فطعنه أحدهم

بخشت(۱) فرمى بنفسه، فطعن أخرى فمات؛ و نادوا بشعار الملك رضوان.

و وصل أبو طاهر الصّائغ إلى الحصن عقيب ذلك و أقام به، و سار طنكريد إلى أفاميه، فقطع عليها مالا أخذه، و عاد فوصله مصبح بن خلف بن ملاعب و بعض أصحابه، فأطمعوه فى أفاميه، فعاد و نزلها، و حاصرها فتسلّمها فى الثّالث عشر من محرّم من سنه خمسمائه بالأمان.

و قتل ابن القنج السّرمينى بالعقوبه، و لم يف لأبى طاهر الصّائغ بالأمان، و حمله معه أسيرا فاشترى نفسه بمال، و دخل حلب.

و فى سنه إحدى و خمسمائه، عصى ختلغ بقلعه عزاز، و استقرّ أن يسلّمها إلى طنكريد، و يعوّضه عنها موضعا غيرها، فسار رضوان إليها فتسلم عزاز منه.

و بلغ رضوان، فى سنه إحدى و خمسمائه، ما ذكر به من مشايعه الباطنيّه، و أنّه لعن بذلك فى مجلس السّلطان محمّد بن ملكشاه، فأمر أبا الغنائم ابن أخى ابن القنج الباطنىّ الذى عمل فى قتل ابن ملاعب ما دبر الخروج من حلب فيمن معه، فانسلّ و خرج بجماعه من أصحابه بعد أن قتل أفراد منهم.

و فى سنه إحدى- و قيل: اثنتين- و خمسمائه اجتمع جاولى سقاوه و جوسلين الفرنجى، على حرب طنكريد صاحب أنطاكيه؛ و استنجد

۱- الخشت من أنواع النبل أو الخناجر.

طنكريد بالملك رضوان، فأمدّه بعسكر حلب و التقوا، فقتل من الفرنج جماعه.

و وصل إلى جاولى من أخبره أنّ الفرنـج يريدون الاجتماع عليه فمال على أصـحابه من الفرنج و قتل فيهم، و هرب بعد أن قتلهم عن آخرهم و هلك جميع رجاله طنكريد و أكثر خيله.

و عاد إلى أنطاكيه و عاد عسـكر حلب إلى رضوان، فتسلّم بالس من أصحاب جاولى، و خرج بيمند من بلاده و معه خلق عظيم، ثم عاد و توفى سنه أربع و خمسمائه، و كفى المسلمون شره.

و فى سـنه ثلاث و خمسـمائه، كاتب السّـلطان الأمير سـكمان القطبى صاحب أرمينيه و مودود صاحب الموصل، يأمرهما بالمسير إلى جهاد الفرنـج، فجمعا و سارا، و وصل إليهما نجم الدّين إيلغازى بن أرتق فى خلق كثير من التّركمان، فرحلوا إلى الرّها فنزلوا عليها و أحدقوا بها فى شوّال من هذه السّنه.

فـاتّفق الفرنـج كلّهم، و أزالوا مـا كـان بينهم من الشّـحناء، و كـان المسـلمون فى جمع عظيم، فتصـافى طنكريـد و بغـدوين و ابن صنجيـل بعـد النّفـار، و قصـدوا إنجـاد من بهـا من الفرنـج، و أحجمـوا عن العبور إلى الجـانب الجزرى لكـثره من به من عسـاكر المسلمين.

فاندفع المسلمون عن الرّها إلى حرّان ليعبر الفرنج و يتمكنوا منهم، و وصلهم عسكر دمشق.

فحین عبر الفرنج و بلغهم خبر المسلمین عادوا ناکصین علی الأعقاب إلی شاطی ء الفرات، فنهض المسلمون فی أثرهم، و أدرکتهم خیول الإسلام، و قد عبر الأجلاد منهم، فغنم المسلمون جلّ سوادهم و أکثر أثقالهم، و استباحوهم قتلا و أسرا و تغریقا فی الماء، و أقام المسلمون بإزائهم علی الفرات.

و لما عرف الملک رضوان هزیمه الفرنج عن الرّها خرج لیتسلّم أعمال حلب الّتی کانت فی أیدی الفرنج، و قاتل ما امتنع علیه منها، و أغار علی بلد أنطاکیه و غنم منها ما یجلّ قدره، و کان بینه و بینهم مهادنه نقضها.

و کاتب الفرنج رضوان یوهنون رأیه فی نقض الهدنه، فلمّا تحقّق سلامه طنکرید و عوده رجع إلی حلب.

و عاد الفرنج من الفرات فقصدوا بلد حلب من شرقیّها، فقتلوا من وجدوا، و سبوا أهل النّقره، و أخذوا ما قدروا علیه من المواشی.

و هرب النّاس نحو بالس، و عاد طنکرید، فنزل علی الأثارب(۱)، و طیّب قلوب الفلّاحین من المسلمین، و أمّنهم، و نصب علی الأثارب المناجیق و کبشا عظیما ینطح به شرفات الأسوار فیلقیها، فخرب أسوارها و کان یسمع نطحه من مسیره نصف فرسخ،

و بذل رضوان لطنکرید فی الموضع عشرین ألف دینار علی أن یرحل فامتنع، و قال: «قد خسرت ثلاثین ألف دینار، فان دفعتموها إلیّ و أطلقتم

۱- الأثارب من قری محافظه حلب- منطقه جبل سمعان.

كلّ عبد بحلب منذ ملكت أنطاكيه فأنا أرحل». فاستعظم ذلك و اتّكل على الحوادث.

و كان الّذى بقى فى القلعه مقدار مائه دينار، و أخذها الخازن على وسطه، و هرب إلى الفرنج، و هرب جماعه أخر من المسلمين إليهم فكتبوا إلى الملك رضوان كتابا على جناح طائر يخبرونه بما تجدّد من قوّه الحصار و قلّه النفقه و قتل الرّجال، و أرسلوا الطّائر فسقط فى عسكر الفرنج، فرماه أحدهم بنشّابه فقتله.

و حمل الكتاب إلى طنكريد، ففرح و قويت نفسه، و بذل رضوان المال المطلوب له على أن يكون أقساطا و يضع عليه رهائن فلم يفعل، و يئس من فى الأثارب من نجده تصل إليهم فسلّموها إلى طنكريد فى جمادى الآخره منها، و أمن أهلها و خرجوا منها.

ثم صالح رضوان على عشرين ألف دينار و عشره رؤوس من الخيل، و قبضها و عاد إلى أنطاكيه.

ثم عاد و خرج إلى الأثارب، و قد أدركت الغلّه، و ضعفت حلب بأخذ الأثارب ضعفا عظيما، و طلب من حلب المقاطعه التى قررها على حلب و أسرى من الأرمن كان رضوان أخذهم وقت إغارته على بلد أنطاكيه، و الفرنج على الفرات، فأعادهم إليه، و طلب بعض خيل الملك رضوان فأعطاه، و طلب حرم الفلّاحين المسلمين من الأثارب، و كانوا وقت نزول طنكريد على الأثارب حصلوا بحرمهم فى حلب فأخرجهنّ إليه.

و ضاق الأمر بأهل حلب، و مضى بعضهم إلى بغداد و استغاثوا فى أيام الجمع، و منعوا الخطباء من الخطبه مستصرخين بالعساكر الإسلاميه على الفرنج.

و قلّت المغلّات فى بلد حلب، فباع الملك رضوان فى يوم واحد ستّين خربه من بلد حلب لأهلها بالثّمن البخس، و طلب بذلك استمالتهم، و أن يلتزموا بالمقام بها بسبب أملاكهم، و هى ستّون خربه معروفه فى دواوين حلب إلى يومنا هذا، غير ما باعه فى غير ذلك اليوم من الأملاك(۱).

و لذلك يقال ان بيع الملك من أصحّ أملاك الحلبيين لأنّ المصلحه فى بيعها كانت ظاهره لاحتياج بيت المال إلى ثمنها، و لعماره حلب ببقاء أهلها فيها بسبب أملاكهم.

و لما استصرخ الحلبيّون العساكر الاسلاميه ببغداد و كسروا المنابر، جهّز السّلطان العساكر للذبّ عنهم، فكان أوّل من وصل مودود صاحب الموصل بعسكره إلى شبختان؛ ففتح تلّ قراد(۲) و عدّه حصون.

و وصل أحمديل الكرديّ فى عسكر ضخم و سكمان القطبى، و عبروا إلى الشّام فنزلوا تلّ باشر، و حصروها حتى أشرفت على الأخذ، و كان طنكريد قد أخذ حصن بكسرائيل(۳)، و توجّه مغيرا على بلد شيّزر و نازلها.

۱- أملاك بيت المال. المدخل ص ۳۸۹.

۲- تل قراد حصن فى بلاد الأرمن قرب شبختان. معجم البلدان.

۳- غير اسمه الآن إلى بنى قحطان، كان يقع أمام جبله. معجم البلدان.

و شرع فی عماره تلّ ابن معشر(۱) و ضرب اللّبن و حفر الجباب لیودع بها الغلّه، فلما بلغه نزول عساکر السّلطان محمّد علی تلّ باشر رحل عنها. و أمّا العساکر الإسلامیه النازله علی تلّ باشر فانّ سکمان مات علیها- و قیل: بعد الرّحیل عنها- و أشرف المسلمون علی أخذها فتطارح جوسلین الفرنجی صاحبها علی أحمدیل الکردی و حمل إلیه مالا، و طلب منه رحیل العسکر عنه فأجابه إلی ذلک.

و کتب الملک رضوان إلی مودود و أحمدیل و غیرهما: «إننی قد تلفت و أرید الخروج من حلب، فبادروا إلی الرّحیل»، فحسّن لهم أحمدیل الرّحیل عنها بعد أن أشرفوا علی أخذها، و رحلوا إلی حلب، فأغلق رضوان أبواب حلب فی وجوههم، و أخذ إلی القلعه رهائن عنده من أهلها لئلّا یسلّموها.

و رتّب قوما من الجند و الباطنیّه الّذین فی خدمته لحفظ السّور و منع الحلبیین من الصّعود الیه، و بقیت أبواب حلب مغلقه سبع عشره لیله.

و أقام النّاس ثلاث لیال ما یجدون شیئا یقتاتون به، فکثرت اللّصوص من الضّعفاء، و خاف الأعیان علی أنفسهم.

و ساء تدبیر الملک رضوان فأطلق العوامّ ألسنتهم بالسبّ له و تعییبه، و تحدثوا بذلک فیما بینهم، فاشتد خوفه من الرعیه ان یسلموا البلد، و ترک الرّکوب بینهم.

۱- هو العشارنه فی محافظه حماه فی منطقه الغاب.

و ضبر(۱) انسان من السّور فأمر به فضربت عنقه، و نزع رجل ثوبه و رماه إلى آخر فأمر به فألقى من السّور إلى أسفل، فعاث العسكر فيما بقى سالما ببلد حلب بعد نهب الفرنج له و سبيهم أهله.

و بثّ رضوان الحراميّه تتخطّف من ينفرد من العساكر فيأخذونه، فرحلوا إلى معرّه النّعمان فى آخر صفر من سنه خمس و خمسمائه، و أقاموا عليها أياما و وجدوا حولها ما ملأ صدورهم ممّا يحتاجون إليه من الغلّات و ما عجزوا عن حمله.

و كان أتابك طغتكين قد حصل معهم، فراسل رضوان بعضهم حتى أفسد ما بينه و بينهم، فظهر لأتابك منهم الوحشه، فصار فى جمله مودود صاحب الموصل، و ثبت له مودود، و وفى له.

و حمل لهم أتابك هدايا و تحفا من متاع مصر، و عرض عليهم المسير إلى طرابلس و المعونه لهم بالأموال، فلم يعرجوا؛ و سار أحمديل و برسق بن برسق و عسكر سكمان نحو الفرات، و بقى مودود مع أتابك، فرحلا من المعرّه إلى العاصى فنزلا على الجلالى.

فنزل الفرنج أفاميه: بغدوين و طنكريد و ابن صنجيل، و ساروا لقصد المسلمين، فخرج أبو العساكر بن منقذ من شيزر بعسكره و أهله؛ و اجتمعوا بمودود و أتابك و ساروا إليهم.

۱- أى قفز.

و نزلوا قبلى شيزر و الفرنج شمالىّ تلّ ابن معشر، و دارت خيول المسلمين حولهم و منعوهم الماء، و الأتراك حول الشرائع بالقسى تمنعهم الورد، فأصبحوا هاربين سائرين، يحمى بعضهم بعضا.

و وصل إلى حلب فى هذه السّنه فى شهر ربيع الأوّل من سنه خمس و خمسمائه، رجل فقيه تاجر كبير يقال له أبو حرب عيسى بن زيد بن محمد الخجندى، و معه خمسمائه جمل عليها أصناف التجارات، و كان شديدا على الباطنيّه أنفق أموالا جليله على من يقاتلهم، و كان قد صحبه من خراسان باطنىّ يقال له أحمد بن نصر الرّازى و كان أخوه قد قتله رجال الخجندى.

فدخل أحمد إلى حلب، و مضى(۱) إلى أبى طاهر الصّائغ العجمى رئيس الباطنيّه بحلب، و كان متمكّنا من رضوان، فصعد إلى رضوان، و أطمعه فى مال الفقيه أبى حرب، و أراه أنّه برى ء من التّهمه فى بابه، إذ هو معروف بعداوه الباطنيّه.

فطمع رضوان فى ماله و طار فرحا، و بعث غلمانا له يتوكّلوا به، و سيّر أبو طاهر الباطنىّ معه جماعه من أصحابه، فبينا أبو حرب الخجندى فى غلمان له يستعرض أحماله و حوله جماعه من مماليكه و خدمه إذ هجم عليه أحمد بن نصر الرّازى فى جماعه من أصحاب أبى طاهر الباطنىّ، فقال لغلمانه: «أليس هذا رفيقنا؟» فقالوا: «هو هو». فوقعوا عليه فقتلوه.

۱- فى ترجمه رضوان- المدخل ص ۳۹۰:« و استدل على أبى الفتح الصائغ رئيس الملاحده بها».

و قتل الجماعه الّذين معه من أصحاب أبى طاهر الباطنىّ العجمى بأسرهم، ثم قال أبو حرب: «الغياث باللّه من هذا الباطنىّ الغادر، أمنّا المخاوف و رآنا إلى أن جئنا إلى الأمنه، فبعث علينا من يقتلنا».

فأخبر رضوان بذلك فأبلس، و صار السّنه و الشيعه إلى هذا الرجل، و أظهروا إنكار ما تمّ عليه. و عبث أحداثهم بجماعه من أحداث الباطنيّه فقتلوهم، و لم يتجاسر رضوان على إنكار ذلك.

و كاتب الفقيه أبو حرب أتابك طغتكين و غيره من ملوك الاسلام فتوافت رسلهم إلى رضوان ينكرون عليه، فأنكر و حلف أنه لم يكن له فى هذا الرجل نيّه.

و خرج الرّجل عن حلب مع الرّسل فعاد إلى بلده، و مكث الناس يتحدّثون بما جرى على الرجل و نقص فى أعين الناس، فتوثّبوا على الباطنيّه من ذلك اليوم.

ثم إنّ رضوان حين ضعف أمره بحلب رأى أن يستميل طغتكين أتابك إليه و يستصلحه، فاستدعاه إلى حلب عندما أراد أن ينزل طنكريد على قلعه عزاز، و بذل له رضوان مقاطعه حلب عشرين ألف دينار و خيلا و غير ذلك، فامتنع طنكريد من ذلك، فوصل طغتكين أتابك، و تعاهدا على مساعده كلّ منهما لصاحبه بالمال و الرّجال.

و استقرّ الأمر على أن أقام طغتكين الدّعوه و السكّه لرضوان بدمشق، فلم يظهر منه بعد ذلك الوفاء بما تعاهدا عليه.

و مات طنكريد فى سنه ستّ و خمسمائه، و استخلف ابن اخته روجار و أدّى إليه رضوان ما كان يأخذه منه طنكريد و هو عشره آلاف دينار.

و وصل مودود إلى الشّام، و اتفق مع طغتكين على الجهاد، و طلب نجده من الملك رضوان فتأخّرت إلى أن اتّفق للمسلمين وقعه استظهروا فيها على الفرنج، و وصل عقيبها نجده للمسلمين من رضوان، دون المائه فارس، و خالف فيما كان قرّره و وعد به، فأنكر أتابك ذلك، و تقدّم بابطال الدّعوه و السكّه باسم رضوان من دمشق فى أوّل ربيع الأوّل من سنه سبع و خمسمائه.

و كان رضوان يحب المال، و لا تسمح نفسه باخراجه حتّى كان أمراؤه و كتّابه ينبزونه بأبى حبّه، و هو الّذى أفسد أحواله و أضعف أمره.

و مرض رضوان بحلب مرضا حادّا و توفى فى الثّامن و العشرين من جمادى الآخره سنه سبع و خمسمائه، و دفن بمشهد الملك، فاضّطرب أمر حلب لوفاته و تأسّف أصحابه لفقده، و قيل: إنّه خلّف فى خزانته من العين و الآلات و العروض و الأوانى ما يبلغ مقداره ستّمائه ألف دينار.

و ملك حلب بعده ابنه ألب أرسلان، و يعرف بالأخرس، و عمره ستّ عشره سنه، و أمّه بنت يغى سيان صاحب أنطاكيه، و كان فى كلامه حبسه و تمتمه فلذلك عرف بالأخرس، و كان متهورا قليل العقل، و وضع عن أهل حلب ما كان والده جدّده عليهم من الرّسوم و المكوس.

و قبض على أخويه ملك شاه و مبارك، و كان مبارك من جاريه و ملك

شاه من أمّه، فقتلهما، و كـذلك فعل أبوه رضوان بأخويه؛ فانظر إلى هـذه المقابله العجيبه، و قبض جماعه من خواصّ والده فقتل بعضهم، و أخذ أموال الآخرين.

و كـان المتولّى لتـدبير أموره خـادم لأبيه يقال له لؤلؤ اليايا، و هو الـذى أنشأ خانكاه(۱) البلاط بحلب، و كـان قبل وصوله إلى رضوان خادما لتاج الرّؤساء ابن الخلّال، فدبر أسوأ تدبير مع سوء تدبيره فى نفسه.

و كـان أمر البـاطنيّه قـد قوى بحلب فى أيّام أبيه، و تـابعهم خلق كثير على مـذهبهم طلبا لجاههم، و صار كلّ من أراد أن يحمى نفسه من قتل أو ضيم التجأ إليهم.

و كـان حسـام الـدّين بن دملاج وقت وفاه رضوان بحلب، فصاروا معه، و صار ابراهيم العجمى الـدّاعى من نوّابه فى حفظ القليعه بظاهر بالس.

فكتب السّلطان محمّد بن ملكشاه إلى ألب أرسلان و قال له: «كان والدك يخالفنى فى الباطنيّه، و أنت ولدى فأحبّ أن تقتلهم».

و شرع الرّئيس ابن بـديع متقـدّم الأحـداث فى الحديث مع ألب أرسـلان فى أمرهم، و قرّر الأمر معه على الإيقاع بهم، و النكايه فيهم، فساعده على ذلك.

۱- بقاياها فى سوق الصابون بحلب. انظر الآثار الإسلاميه و التاريخيه فى حلب ص ۲۵۱- ۲۵۳.

فقبض على أبى طاهر الصائغ و قتله، و قتل اسماعيل الدّاعى و أخا الحكيم المنجّم و الأعيان من أهل هذا المذهب بحلب، و قبض على زهاء مائتى نفس منهم.

و حبس بعضهم و استصفى أموالهم، و شفع فى بعضهم فمنهم من أطلق و منهم من رمى من أعلى القلعه، و منهم من قتل. و أفلت جماعه منهم فتفرّقوا فى البلاد، و هرب إبراهيم الدّاعى من القليعه إلى شيزر، و خرج حسام الدين بن دملاج عند القبض عليهم فمات فى الرقه.

و طلب الفرنج من ألب أرسلان المقاطعه التى لهم بحلب، فدفعها إليهم من ماله، و لم يكلّف أحدا من أهل حلب شيئا منها.

ثمّ إنّ ألب أرسلان رأى أن المملكه تحتاج إلى من يدبّرها أحسن تدبير، و أشار خدمه و أصحابه عليه بأن كاتب أتابك طغتكين أمير دمشق، و رغب فى استعطافه، و سأله الوصول إليه ليدبر حلب و العسكر، و ينظر فى مصالح دولته، فأجابه إلى ذلك، و رأى موافقته لكونه صبيا لا يخافه الكفّار و لا رأى له، فدعا له على منبر دمشق بعد الدّعوه للسّلطان و ضربت السّكه باسمه، و ذلك فى شهر رمضان.

و أوجبت الصّوره أن يخرج ألب أرسلان بنفسه فى خواصّه، و قصد أتابك إلى دمشق ليجتمع معه، و يؤكد الأمر بينه و بينه، فلقيه أتابك على مرحلتين، و أكرمه و وصل معه و أنزله بقلعه دمشق.

و بالغ فى إكرامه و خدمته و الوقوف على رأسه، و حمل إليه دست ذهب

و طيرا مرصّعا و عدّه قطع ثمينه، و عدّه من الخيل، و أكرم من كان فى صحبته(۱).

و أقام بدمشق أيّاما و سار فى أوّل شوّال عائدا إلى حلب، و معه أتابک و عسكره، فأقام عنده أياما و استخلص كمشتكين البعلبكى مقدّم عسكره، و كان قد أشار عليه بعض أصحابه بقبضه، و قبض جماعه من أعيان عسكره و قبض الوزير أبى الفضل بن الموصول، ففعل ذلک؛ فاستوهب أتابک منه كمشتكين فوهبه إيّاه.

و قبض على رئيس حلب صاعد بن بديع، و كان وجيها عند أبيه رضوان، فصادره بعد التّضييق عليه حتى ضرب نفسه فى السجن بسكين ليقتل نفسه، ثمّ أطلقه بعد أن قرّر عليه مالا، و أخرجه و أهله من حلب، فتوجّه إلى مالک بن سالم إلى قلعه جعبر.

و سلّم رئاسه حلب إلى ابراهيم الفراتى، فتمكّن و لقّب و نوّه باسمه، و إليه تنسب عرصه ابن الفراتى بالقرب من باب العراق بحلب، ثمّ رأى أتابک من سوء السيره و فساد التدّبير مع التقصير فى حقّه و الاعراض عن مشورته ما أنكره، فعاد من حلب إلى دمشق، و خرجت معه أمّ الملک رضوان هربا منه.

و ساءت سيره ألب أرسلان، و انهمک فى المعاصى و اغتصاب الحرم

۱- انظر تاريخ دمشق لابن القلانسى ص ۳۰۲- ۳۰۳. ترجمه ألب أرسلان المنتزعه من بغيه الطلب- فى ملاحق الجزء الأول من المدخل ص ۲۹۴- ۲۹۷.

و القتل(١)، و بلغنا أنّه خرج يوما إلى عين المباركه متنزها، و أخذ معه أربعين جاريه، و نصب خيمه، و وطئهنّ كلّهن.

و استولى لؤلؤ اليايا على الأمر، فصادر جماعه من المتصرّفين، و أعاد الوزاره إلى أبى الفضل بن الموصول، و جمع ألب أرسلان جماعه من الأمراء، و أدخلهم إلى موضع بالقلعه شبيه بالسّرداب لينظروه، فلمّا دخلوا اليه قال لهم: «ايش تقولون فى من يضرب رقابكم كلكم ههنا؟» فقالوا: «نحن مماليكك و بحكمك». و أخذوا ذلك منه بطريق المزاح، و تضرّعوا له حتى أخرجهم.

و كان فيهم مالك بن سالم صاحب قلعه جعبر فلمّا نزل سار عن حلب و تركها خوفا على نفسه.

و خاف منه لؤلؤ اليايا فقتله بفراشه بالمركز بقلعه حلب، فى شهر ربيع الآخر من سنه ثمان و خمسمائه، و ساعده على ذلك قراجا التركى و غيره.

و لزم لؤلؤ اليايا قلعه حلب و شمس الخواصّ فى العسكر، و نصب لؤلؤ أخا له صغيرا عمره ست سنين، و اسمه سلطان شاه بن رضوان، و تولّى لؤلؤ تدبير مملكته، و جرى على قاعدته فى سوء التّدبير.

و كاتب لؤلؤ و مقدّمو حلب أتابك طغتكين و غيره يستدعونهم إلى حلب لدفع الفرنج عنها، فلم يجب أحد منهم إلى ذلك.

١- الذى أبلغ ابن العديم هذا هو بدران بن حسين بن مالك بن سالم العقيلى. المدخل ص ٢٩٥.

و من العجائب أن يخطب الملوک لحلب فلا يوجد من يرغب فيها، و لا يمكنه ذبّ الفرنج عنها، و كان السبب فى ذلک أنّ المقدّمين كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هم فيه.

و قلّ الربيع ببلد حلب لاستيلاء الفرنج على أكثر بلدها و الخوف على باقيه، و قلّت الأموال و احتيج إليها لصرفها إلى الجند، فباع لؤلؤ قرى كثيره من بلد حلب، و كان المتولّى بيعها القاضى أبا غانم محمّد بن هبه اللّه بن أبى جراده قاضى حلب، و لؤلؤ يتولّى صرف أثمانها فى مصالح القلعه و الجند و البلد.

و قبض لؤلؤ على الوزير أبى الفضل بن الموصول، و استأصل ماله، و سار إلى القلعه فأقام عند مالک بن سالم، و استوزر أبا الرّجاء بن السّرطان الرحبى مدّه، ثم صادره و ضربه، و طلب أبا الفضل بن الموصول فأعاده إلى الوزاره بحلب.

و جاءت زلزله عظيمه ليله الأحد ثامن و عشرين من جمادى الآخره من سنه ثمان بحلب و حرّان و أنطاكيه و مرعش و الثّغور الشاميه، و سقط برج باب أنطاكيه الشّمالى و بعض دور العقبه و قتلت جماعه.

و خربت قلعه عزاز، و هرب واليها إلى حلب، و كان بينه و بين لؤلؤ مواحشه، فحين وصل إلى حلب قتله و أنفذ إليها من تداركها بالعماره و التّرميم، و خرب شى ء يسير فى قلعه حلب، و خرب أكثر قلعه الأثارب و زردنا.

و قيل: إنّ مؤذن مسجد عزاز كان حارسا بالقلعه، فحرس و نام على برج المسجد بالقلعه، فلما جاءت الزّلزله ألقته على كتف الخندق و هو نائم لم يعلم بها، فاجتاز به جماعه فظنّوه ميّتا، فأخذوا عنه اللّحاف فانتبه و سألهم فأخبروه بما جرى.

و صار شمس الخواصّ مقدّم عسكر حلب، و متولّى أقطاع الجند، و كانت سيرته إذ ذاك صالحه، و كان لؤلؤ فى أوّل أمره مقيما بقلعه حلب لا ينزل منها و يدبّر الأمور، فكتب إلى السّلطان على سبيل المغالطه يبذل له تسليم حلب و الخزائن التى خلّفها رضوان و ولده ألب أرسلان، و يطلب إنفاذ العساكر إليه.

فوصل برسق بن برسق مقدّم الجيوش و منكوبرس(۱) و غيرهم من أمراء السّلطان فى سنه تسع و خمسمائه، فتغيّرت نيّه لؤلؤ الخادم عمّا كان كتب به إلى السّلطان، و كتب إلى أتابك طغتكين يستصرخه و يستنجده، و وعده تسليم حلب اليه، و أن يعوّضه طغتكين من أعمال دمشق، فبادر إلى ذلك(۲).

و وصل حلب، و العساكر السّلطانيّه ببالس متوجّهين إلى حلب فرحلوا

۱- كذا بالأصل و جاء فى الكامل لابن الأثير ج ۸ ص ۲۷۱:« برسق بن برسق صاحب همذان و معه الأمير جيوش بك و الأمير كنتغدى».

۲- لم يذكر ابن القلانسى هذا الخبر لكن أكده ابن الأثير ج ۸ ص ۲۷۱ مع المزيد من التفاصيل الهامه.

منها إلى المعرّه، و وصلهم الخبر أنّ ذلك اليوم وصل أتابك إلى حلب فأعرضوا عن حلب، و ساروا إلى حماه فتسلّموها.

و تسلّموا رفنيه(۱) من أولاد على كرد، و سلّموها إلى خير خان بن قراجا، فخاف طغتكين من عساكر السلطان أن يقصد دمشق، فأخذ عسكر حلب، و شمس الخواص، و ايلغازى بن أرتق، و استنجد بصاحب أنطاكيه روجار و غيره من ملوك الفرنج و نزلوا أجمعين أفاميه.

و نزلت العساكر السّلطانيه أرض شيزر، و جعل أتابك يريّث الفرنج عن اللّقاء خوفا من الفرنج أن يكسروا العساكر السّلطانيه فيأخذوا الشّام جميعه، أو ينكسروا فتستولى العساكر السّلطانيه على ما فى يده.

و خاف الفرنج و ضاقت صدور أمراء عسكر السّلطان من المصابره، فرحلوا و نزلوا حصن الأكراد و أشرف على الأخذ، فاتّفق أتابك و الفرنج على عود كلّ قوم إلى بلادهم، ففعلوا ذلك.

و توّجه أتابك إلى دمشق، و عاد عسكر حلب و شمس الخواص إلى حلب، فقبض عليه لؤلؤ الخادم و اعتقله فعادت عساكر السّلطان حينئذ عن حصن الأكراد، و ساروا إلى كفر طاب، و حصروا حصنا كان الفرنج عمروه بجامعها و أحكموه، فأخذوه و قتلوا من فيه، و رحلوا إلى معرّه النّعمان.

۱- ما تزال بقايا رفنيه قائمه قرب بلده بعرين(بارين) على الطريق الذى يصل مصياف بحمص، هذا و ما أورده كل من ابن القلانسى ص ۳۰۶ و ابن الأثير ج ۸ ص ۲۷۲ بشأن رفنيه يحالف روايه ابن العديم هذه، و يوضح ابن الأثير أن الذى استولى عليه عسكر السلطان ثم آل إلى خير خان هو مدينه حماه، و هو الصحيح.

و أمن الترك و انتشروا فى أعمال المعرّه و اشتغلوا بالشّرب و النّهب و وقع التّحاسد فيما بينهم، و وصل رسول من بزاعا من جهه شمس الخواص يستدعيهم لتسليم بزاعا، و يقول إنّ شمس الخواص مقبوض عليه عند لؤلؤ الخادم، و لؤلؤ يكشف أخبار العساكر و يطالع بها الفرنج، و رحل برسق و جامدار صاحب الرّحبه نحو دانيث(۱) يطلبون حلب، فنزل جامدار فى بعض الضّياع.

و وصل برسق بالعسكر إلى دانيث بكره الثلاثاء العشرين من شهر ربيع الآخر، و الفرنج يعرفون أخبارهم ساعه فساعه، فوصلهم الفرنج؛ و قصدوا العسكر من ناحيه جبل السّماق، و العسكر على الحال التى ذكرناها من الانتشار و التفرّق، فلم يكن لهم بالفرنج طاقه، فانهزموا من دانيث إلى تلّ السّلطان(۲).

و استتر قوم فى الضّياع من العسكر فنهبهم الفلّاحون و أطلقوهم، و غنم أهل الضّياع ممّا طرحوه وقت هزيمتهم ما يفوت الإحصاء، و أخذ الكفّار من هذا ما يفوت الوصف، و غنموا من الكراع و السّلاح و الخيام و الدّوابّ و أصناف الآلات و الأمتعه ما لا يحصى، و لم يقتل مقدّم و لا مذكور.

۱- دانيث بلد من أعمال حلب بين حلب و كفر طاب. معجم البلدان.

۲- تل السلطان موضع بينه و بين حلب مرحله نحو دمشق، و فيه خان و منزل للقوافل و هو المعروف بالفنيدق. معجم البلدان. و يبعد تل السلطان عن ادلب ۴۷ كم.

و قتل من المسلمين نحو خمسمائه و أسر نحوها و اجتمع العسكر على تلّ السّلطان، و رحلوا إلى النّقره مخذولين مختلفين، و نزلوا النّقره؛ و كان أونبا(١) قد طلع أصحابه إلى حصن بزاعا، و كان قد تقدّم العسكر إليها، فلمّا بلغهم ذلك نزلوا و وصلوا إلى العسكر.

و توجّهت العساكر إلى السّلطان و إلى بلادهم، و وصل طغتكين من دمشق فتسلم رفنيه(٢) ممّن كانوا بها، و أطلق لؤلؤ شمس الخواص من الاعتقال، و سلّم إليه ما كان أقطعه من بزاعا و غيرها، فوصل إلى طغتكين فردّ عليه رفنيه، و عاد إلى دمشق و استصحبه معه.

و أما لؤلؤ الخادم فانّه صار بعد ملازمه القلعه ينزل منها فى الأحيان و يركب، فاتّفق أنّه خرج فى سنه عشر و خمسمائه بعسكر حلب و الكتاب إلى بالس، و هو فى صوره متصيّد، فلمّا وصل إلى تحت قلعه نادر قتله الجند(٣).

و اختلف فى خروجه، فقيل: إنّه كان حمل مالا ـ إلى قلعه دوسر، و أودعه عند ابن مالك فيها، و أراد ارتجاعه منه و العود إلى حلب، و كان السّلطان قد أقطع حلب و الرّحبه أق سنقر البرسقى(٤)، فواطأ جماعه من

١- كذا و عند ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٢« جيوش بك».

٢- يتوافق هذا مع ما أورده ابن القلانسى ص ٣٠٦ و ابن الأثير ص ٢٧٢.

٣- فى ترجمه ألب أرسلان بن تتش روى ابن العديم« فلما وصل إلى دير حافر»، و أورد ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٩ أنه قتل سنه ٥١١ ه و أعطى المزيد من التفاصيل، و من أجل قلعه نادر و هى قرب بالس انظر الأعلاق الخطيره- قسم حلب- ج ٢ ص ٢٥. هذا و دير حافر مركز ناحيه تابعه لمنطقه الباب فى محافظه حلب، و يبعد عن حلب مسافه ٥٠ كم.

٤- للبرسقى ترجمه جيده فى بغيه الطلب ص ١٩٦٣- ١٩٧٠.

أصحابه على أن أظهروا مفارقته، و خدموا لؤلؤا و صاروا من خواصه، و واطأهم على قتل لؤلؤ، و أمّل أنّهم إذا قتلوه تصحّ له أقطاع حلب فقتلوه.

و سار بعضهم إلى الرّحبه فأعلمه، فأسرع أق سنقر البرسقى المسير إلى حلب من الرّحبه، و انضاف بعض عسكره إلى بقيّه القوم الّذين قتلوه، و طمعوا فى أخذ حلب لأنفسهم، و ساروا إليها فسبقهم ياروقتاش الخادم- أحد خدم الملك رضوان- و دخل حلب.

و قيل: إنّ لؤلؤا كان قد خاف فأخذ أمواله، و خرج طالبا بلاد الشّرق للنجاه بأمواله، فلمّا وصل إلى قلعه نادر قال سنقر الجكرمشيّ: «تتركونه يقتل تاج الدّوله و يأخذ الأموال و يمضى!» و صاح بالتّركيه: «أرنب أرنب» فضربوه بالسهام فقتلوه.

و لمّا خرج عن حلب أقامت القلعه فى يد آمنه خاتون بنت رضوان يومين إلى أن وصل ياروقتاش(۱) الخادم مبادرا فدخل حلب و نزل بالقصر، و أخرج عسكر حلب، و أوقع بالّذين قتلوا لؤلؤا، و ارتجع ما كان أخذوه من عسكر حلب و انهزم بعض من كان فى النّوبه فالتقوا أق سنقر فى بالس فى أوّل محرّم سنه إحدى عشره و خمسمائه.

و لم يتسهّل للبرسقى ما أمّل و راسل أهل حلب و من بها فى التّسليم إليه فلم يجيبوه إلى ذلك.

۱- ياروقتاش هو شمس الخواص المتقدم ذكره، انظر ابن الأثير ج ۸ ص ۲۷۹.

و كـاتب ياروقتـاش الخـادم نجم الـدّين إيلغـازى بن أرتق ليصل من ماردين و يـدفع أق سـنقر، و كاتب روجار صاحب أنطاكيه أيضا فوصل إلى بلـد حلب، و أخذ ما قدر عليه من أعمال الشّـرقيه، فحينئذ أيس البرسـقىّ من حلب، و انصـرف من أرض بالس إلى حمص فأكرمه خير خان صاحبها، و سار معه إلى طغتكين إلى دمشق فأكرمه، و وعده بانجاده على حلب.

و هـادن ياروقتـاش صـاحب أنطـاكيه روجار، و حمل إليه مالا و سـلّم إليه حصن القبّه، و رتّب مسـير القوافل من حلب إلى القبله عليه، و أن يؤخذ المكس منهم له.

ثم إنّ ياروقتـاش طلع إلى قلعه حلب، و عزم على أن يعمل حيله يوقعها بالمقـدّمين و يملكها مثل لؤلؤ، فقبض عليه مقـدّمو القلعه بأمر بنات رضوان بعد تمام شهر من ولايته، و أخرجوه من حلب و ولّوا فى القلعه خادما من خدم رضوان.

و ردّ أمر سـلطان شاه و تقـدمه العسـكر و تـدبير الأمور إلى عارض الجيش العميـد أبى المعالى المحسن بن الملحّى، فدبّر الأمور وساسها، و ضعفت حلب و قلّ ارتفاعها و خربت أعمالها.

و وصـل إيلغـازى بن أرتق إلى حلب فـأنزلوه فى قلعه الشّـريف، و منعوه من القلعه الكـبيره، و اسـتولى على تـدبير الأـمور و تربيه سلطان شاه فى سنه إحدى عشره و خمسمائه، و سلّموا اليه بالس و القليعه.

و قبض على أبى المعالى بن الملحّى، و قصر ارتقاع حلب عما يحتاج إليه ايلغازى و التّركمان الـذين معه، و لم ينتظم له حال، و استوحش من أهل حلب و جنـدها فخرج عنها إلى ماردين، و بقيت بالس و القليعه فى يـده، و أخرج ابن الملحّى من الاعتقال و أعيد إلى تدبير الأمور.

و أفسـد الجند الّذين ببالس فى أعمال حلب فاستدعوا الفرنج، و خرج بعض عسكر حلب و معهم قطعه من الفرنج و حصروها، فوصل إيلغازى فى جمع من التركمان إليها، فعاد عسكر حلب و الفرنج عن بالس و باعها لابن مالك، و عاد إلى ماردين، و بقى تمرتاش ولده رهينه فى حلب.

و وصل فى هذه السّنه أتابك طغتكين و أق سنقر البرسقى إلى حلب، و راسل أهلها فى تسليمها فامتنعوا من إجابته، و قالوا: «ما نريد أحدا من الشّرق» و أنفذوا و استدعوا الفرنج من أنطاكيه لدفعه عنهم، فعاد أق سنقر إلى الرّحبه و أتابك إلى دمشق.

و اشتدّ الغلاء بأنطاكيه و حلب، لأن الزّرع عرق و لحقه هواء عند إدراكه أتلفه، و هرب الفلّاحون للخوف، و استدعى أهل حلب ابن قراجا من حمص، فرتّب الأمور بها، و حصّنها، و سار إلى حلب، و نزل فى القصر خوفا من إيلغازى لما كان بينهما(۱).

و خرج أتابك إلى حمص، و نهب أعمالها و شعّثها، و أقام عليها مدّه، و عاد إلى

۱- كان خير خان قد أسر إيلغازى سنه ثمان و خمسمائه و ذلك أثناء نزوله على حمص. انظر ابن القلانسى ص ۳۰۵.

دمشق لحركه الفرنـج، و خرجت قافله من حلب إلى دمشق فيها تجار و غيرهم، و حملوا ذخائرهم و أموالهم لما قـد أشـرف عليه أهل حلب، فلمّا وصـلوا إلى القبّه نزل الفرنـج إليهم، و أخـذوا منهم المكس، ثم عادوا و قبضوهم و ما معهم بأسـرهم، و رفعوهم إلى القبّه، و حملوا الرجال و النساء بعد ذلك إلى أفاميه، و معرّه النّعمان، و حبسوهم ليقرّوا عليهم مالا.

فراسـلهم أبو المعالى بن الملحى و رغّبهم فى البقاء على الهـدنه و أن لا ينقضوا العهد، و حمل إلى صاحب أنطاكيه مالا و هدّيه، فردّ عليهم الأحمال و الأثقال و غير ذلك، و لم يعدم منه شى ء.

و قوى طمع الفرنج فى حلب لعدم النجد و ضـعفها، و غدروا و نقضوا الهدنه، و أغاروا على بلد حلب، و أخذوا مالا لا يحصيه إلّا اللّه، فراسل أهل حلب أتابک طغتکين، فوعـدهم بالإنجاد، فكسـره جوسـلين و عساكر الفرنج، و راسـلوا صاحب الموصل و كان أمره مضطربا بعد عوده من بغداد.

و نزل الفرنج بعد عودهم من كسـره أتابک على عزاز، و ضايقوها و أشـرفت على الأخذ، و انقطعت قلوب أهل حلب إذ لم يكن بقى لحلب معونه إلّا من عزاز و بلدها، و بقيّه بلد حلب فى أيدى الفرنج، و الشـرقىّ خراب مجدب، و القوت فى حلب قليل جدا، و مكوک الحنطه بدينار، و كان إذ ذاک لا يبلغ نصف مكوک بمكّوک حلب الآن، و ما سوى ذلک مناسب له.

و يئس أهل حلب من نجده تصلهم من أحد من الملوک، فاتّفق رأيهم

على أن سيّروا الأعيان و المقدّمين إلى إيلغازى بن أرتق، و استدعوه ليدفع الفرنج عنهم و ظنّوا أنّه يصل فى عسكر يفرّج به عنهم، و ضمنوا له مالا يقسطونه على حلب يصرفه إلى العساكر.

فوصل فى جند يسير و المدبّر لحلب جماعه من الخدم؛ و القاضى أبو الفضل بن الخشّاب هو المرجوع إليه فى حفظ المدينه و النظر فى مصالحها؛ فامتنع عليه البلد، و اختلفت الآراء فى دخوله، فعاد فلحقه القاضى أبو الفضل بن الخشّاب و جماعه من المقدّمين، و تلطّفوا به و لم يزالوا به حتّى رجع.

و وصل إلى حلب، و دخلها، و تسلّم القلعه، و أخرج منها سائر الجند و أصحاب رضوان و أنزل سلطان شاه بن رضوان و بنات رضوان فى دار من دور حلب.

و قبض على جماعه ممّن كان يتعلّق بالخدم و يخدمهم، و أخذ منهم ما كان صار إليهم من مال رضوان و مال الخدم الّذين استولوا على حلب بعده.

و راسل الفرنج فى مال يحمله عن عزاز ليرحلوا عنها، فلم يلتفتوا لقوّه أطماعهم فى أمر الاسلام؛ و كان إيلغازى يعجز بحلب عن قوت الدّواب، و حلب على حدّ التّلف.

فلما عرف من بعزاز ذلك و يئسوا من دفع الفرنج سلّموها إلى الفرنج، و راسلهم من بحلب فى صلح يستأنفونه معهم، فأجابوا إلى ذلك لطفا من

اللّه بهم، على أن يسلّموا إلى الفرنج تلّ هراق و يؤدّون القطيعه المستقرّه على حلب عن أربعه أشهر، و هى ألف دينار، و يكون لهم من حلب شمالا و غربا.

و زرعوا أعمال عزاز و قوّوا فلاحها و عادوا إلى أنطاكيه و صار يدخل إلى حلب ما يتبلّغون به من القوت.

و سار إيلغازى إلى الشّرق ليجمع العساكر و يعود بها إلى حلب؛ و سارت الرّسل إلى ملوك الشّرق و التّركمان يستنجدونهم.

و كان ابن بديع رئيس حلب عند ابن مالك بقلعه دوسر، فنزل إلى إيلغازى ليطلب منه العود إلى حلب، فلمّا صار عند الزّورق ليقطع الماء إلى العسكر وثب عليه اثنان من الباطنيّه فضرباه عدّه سكاكين، و وقع ولداه عليهما فقتلاهما، و قتل ابن بديع و أحد ولديه و جرح الآخر، و حمل إلى القلعه فوثب آخر من الباطنيّه و قتله، و حمل الباطنى ليقتل فرمى بنفسه فى الماء و غرق. و توجّه إيلغازى إلى ماردين و معه أتابك، و راسلا من بعد و قرب من عساكر المسلمين و التّركمان، فجمعا عسكرا عظيما، و توجّه إيلغازى فى عسكر يزيد عن أربعين ألفا فى سنه ثلاث عشره و خمسمائه، و قطع الفرات من عبر بدايا و سنجه(۱).

و امتدت عساكره فى أرض تلّ باشر و تلّ خالد و ما يقاربهما، يقتل

۱- سنجه نهر يجرى بين حصن منصور و كيسوم و هما من ديار مضر، و على هذا النهر قنطره عظيمه. معجم البلدان.

و ينهب و يأسر، و غنموا كلّ ما قدروا عليه، و وصل من رسل حلب من يستحثّه على الوصول لتواصل غارات الفرنج من جهه الأثارب و اياس أهلها من أنفسهم، فسار إلى مرج دابق ثمّ إلى المسلميه، ثمّ إلى قنّسرين فى أواخر صفر من سنه ثلاث عشره و خمسمائه.

و سارت سراياه فى أعمال الرّوج و الفرنج يقتلون و يأسرون، و أخذوا حصن قسطون فى الرّوج، و جمع سرجال صاحب أنطاكيه الفرنج و الأرمن و غيرهم، و خرج إلى جسر الحديد، ثمّ رحلوا و نزلوا بالبلاط بين جبلين، ممايلى درب سرمدا، شمالى الأثارب، و ذلك فى يوم الجمعه التّاسع من شهر ربيع الأول.

و ضجر الأمراء من طول المقام، و إيلغازى ينتظر أتابك طغتكين ليصل إليه و يتفقا على ما يفعلانه، فاجتمعوا و حثّوا إيلغازى على مناجزه العدوّ فجدّد إيل غازى الأيمان على الأمراء و المقدّمين أن يناصحوا فى حربهم، و يصابروا فى قتال العدوّ، و أنّهم لا ينكلون و يبذلون مهجهم فى الجهاد، فحلفوا على ذلك بنفوس طيبه.

و سار المسلمون جرايد، و خلّفوا الخيام بقنّسرين، و ذلك فى يوم الجمعه السّادس عشر من شهر ربيع الأوّل، فباتوا قريبا من الفرنج و قد شرعوا فى عماره حصن مطلّ على تل عفرين و الفرنج يتوهّمون أن المسلمين ينازلون الأثارب أو زردنا، فما شعروا عند الصبح إلّا ورايات المسلمين قد أقبلت، و أحاطوا بهم من كل جانب.

و أقبل القاضى أبو الفضل بن الخشّاب يحرّض النّاس على القتال، و هو راكب على حجر(۱) و بيده رمح؛ فرآه بعض العسكر فازدراه و قال: «إنّما جئنا من بلادنا تبعا لهذا المعمّم!» فأقبل على الناس، و خطبهم خطبه بليغه استنهض فيها عزائمهم، و استرهف هممهم بين الصفّين، فأبكى النّاس و عظم فى أعينهم.

و دار طغان أرسلان بن دملاج من ورائهم و نزل فى خيامهم، و قتل من فيها و نهبها، و ألقى اللّه النصر على المسلمين، و صار من انهزم من الفرنج و قصد الخيام قتل.

و حمل التّرك بأسرهم حمله واحده من جميع الجهات صدقوهم فيها، و كانت السّهام كالجراد، و لكثره ما وقع فى الخيل و السّواد من السّهام عادت منهزمه و غلبت فرسانها، و طحنت الرّجاله و الأتباع و الغلمان بالسّهام، و أخذوهم بأسرهم أسرى.

و قتل سرجال فى الحرب، و فقد من المسلمين عشرون نفرا منهم سليمان بن مبارك بن شبل، و سلم من الفرنج مقدار عشرين نفرا لا غير، و انهزم جماعه من أعيانهم.

و قتل فى المعركه ما يقارب خمسه عشر ألفا من الفرنج، و كانت الوقعه يوم السبت وقت الظهر، فوصل البشير إلى حلب بالنّصر، و المصافّ قائم،

۱- الحجر: الأنثى من الخيل. القاموس.

و النّاس يصلّون صلاه الظهر بجامع حلب، سمعوا صيحه عظيمه بذلك من نحو الغرب، و لم يصل أحد من العسكر إلى نحو صلاه العصر.

و أحرق أهل القرى القتلى من الفرنج، فوجد فى رماد فارس واحد أربعون نصل نشّاب، و نزل إيلغازى فى خيمه سرجال، و حمل إليه المسلمون ما غنموه، فلم يأخذ منهم إلّا سلاحا يهديه لملوك الإسلام، و ردّ عليهم ما حملوه بأسره.

و لمّا حضر الأسرى بين يدى إيلغازى، كان فيهم رجل عظيم الخلقه مشتهرا بالقوّه، و أسره رجل ضعيف قصير قليل السّلاح، فلمّا حضر بين يدى إيلغازى قال له التركمان: «أما تستحى يأسرك مثل هذا الضّعيف و عليك مثل هذا الحديد؟» فقال: «و اللّه ما أخذنى هذا، و لا هو مولاى و إنّما أخذنى رجل عظيم أعظم منى و أقوى، و سلّمنى إلى هذا؛ و كان عليه ثوب أخضر و تحته فرس أخضر»(۱).

و تفرّقت عساكر المسلمين فى بلد أنطاكيه و السويديه و غيرهما يقتلون و يأسرون و ينهبون، و كانت البلاد مطمئنّه لم يبلغهم خبر هذه الوقعه، فأخذ المسلمون من السّبى و الغنائم و الدّواب ما يفوت الاحصاء. و لم يبق أحد من التّرك إلّا امتلأ صدره و يداه بالغنائم و السّبى.

و لقى بعض السّرايا بغدوين الرويس و ابن صنجيل فى خيلهما بالقرب من جبله، و قد توجها لنصره سرجال صاحب أنطاكيه، فأوقع بهم التّرك،

۱- أى أن آسره كان من الملائكه.

و قتلوا جماعه و غنموا ما قدروا عليه، و انهزم بغدوين و ابن صنجيل، و تعلّقوا بالجبال.

و رحل إيلغازى إلى أرتاح، و بادر بغدوين فدخل أنطاكيه، و سلّمت إليه أخته زوجه سرجال خزائنه و أمواله، و قبض على أموال القتلى و دورهم، و أخذها و زوّج نساء القتلى بمن بقى، و أثبت الخيل، و جمع و حشد و استولى على أنطاكيه، و لو سبقه إيلغازى إلى أنطاكيه لما امتنعت عليه.

و وصل أتابک إلى نجم الدّين بأرتاح، فعاد و نزل الأثارب، و هجم الرّبض و نهبه، و قتل من قدر عليه، و خرج أحداث من حلب و نهبوا حصنها فطلبوا الأمان فأمّنهم بعد أن استأخذت، و سيّرهم إلى مأمنهم.

و رحل منها إلى زردنا و كانوا قد حصّنوها و أحكموا عمارتها، و قاتلها فطلبوا الأمان فأمّنهم، و سيّرهم إلى أنطاكيه فلقيهم بعض التّركمان، فنهبوهم و قتلوا بعضهم و مضوا إلى أهلهم.

و كان صاحب زردنا لمّا بلغه منازلتها، حمل بغدوين و الفرنج على الخروج لاستنقاذها، و قد عرفوا تفرّق التّركمان بالغنائم و عودهم إلى أهلهم، و أن إيلغازى فى عدّه قليله، فبلغه ذلک فجدّ فى قتالها حتى أخذها- كما ذكرناه- و رتّب أصحابه بها، و توجّه بمن بقى معه و استصحب معه عسكر أتابک و طغان أرسلان بن دملاج جرايد إلى دانيث بعد أن ردّ الأثقال و الخيام إلى قنّسرين.

و وصل إلى دانيث فى يومه، فوجد الفرنج قد نزلوها يوم فتحه زردنا فى

مائتى خيمه و راجل كثير، و قيل إنّهم كانوا يزيـدون على أربعمائه فارس سوى الرّجاله، و ذلك فى رابع جمادى الأولى، و التقوا فحمل صاحب زردنا و أكثر خيل الفرنج على عسـكر دمشق و حمص و بعض التركمان، فكشفوهم و انهزموا بين أيديهم، و سار ليتدارك أمر زردنا، و يكبس الأثقال و الخيام فعرف أخذها و تسيير الأثقال إلى قنّسرين فعاد.

و حمـل بقيّه المسـلمين على بغـدوين و من كـان معه، فقتلوهم و ردّوهم على أعقابهم، فحينئـذ حمل إيلغازى و طغتكين و طغان أرسـلان فيمن بقى من الخواصّ على الفرنج، فكسـروهم و قتلوا أكثر الرّجاله و بعض الخيّاله، و تبعوهم إلى أن دخلوا إلى حصن هاب، و غنموا أكثر ما كان معهم.

و عاد نجم الـدّين و طغتكين و طغان أرسـلان إلى دانيث، فوجـدوا صاحب زردنا و الفرنـج قـد عادوا بعد أن هزموا من كان بين أيـديهم من المسـلمين و معرفه أخذ المسـلمين زردنا، فلقوهم و قتلوا منهم جماعه كثيره، و انهزم الباقون إلى هاب، و عاد الترك بالظّفر و الغنيمه.

و حين بلغ من بقنّسـرين مع الأثقال هزيمه من كان فى مقابله صاحب زردنا رحلوا إلى حلب، و انزعـج أهل حلب غايه الانزعاج، فوصلهم البشير بعد ساعتين بما بدّل غمهم سرورا و همّهم حبورا.

و كان البشـير من الفرنـج قـد مضـى إلى بلادهم و أخبر بكسـره صاحب زردنا للمسـلمين، فزيّنوا بلادهم، و أظهروا فيها الجذل و المسرّه فوصل ابن

صنجیل من الکسره بعد ذلک، فانقلب سرورهم حزنا و راحتهم تعبا و عناء.

و کان صاحب زردنا، و هو القومص الأبرص و اسمه رونارد(۱)، قد سقط عن فرسه، فأدرکه قوم من أهل جبل السمّاق من أهل مریمین(۲)، فقبضوه و حملوه إلی إیلغازی بظاهر حلب، فأنفذه إلی أتابک طغتکین، فقتله صبرا.

ثم دخل إیلغازی إلی حلب، و أحضر الأسری فأفرد أصحاب القلاع و المقدّمین و ابن بیمند صاحب أنطاکیه و رسول ملک الروم و نفرا یسیرا ممّن کان معه مال فأخذه و أطلقهم، و بقی من الأسری نیّف و ثلاثون رجلا بذلوا من المال ما رغب عنه، فقتلهم بأسرهم.

و توجّه من حلب إلی ماردین فی جمادی الأولی من سنه ثلاث عشره و خمسمائه، لیجمع من الترکمان من یعود به إلی بلد حلب، و کانت حلب ضعیفه عن مقامه فیها، فخرج الفرنج إلی بلد المعره، فسبوا جماعه، و أدرکهم جماعه من الترک فرجعوا(۳).

ثم خرج بغدوین من أنطاکیه فی عسکره و نزل علی زور، غربیّ الباره- و هو حصن کان لابن منقذ و سلّمه إلیهم- و لما جرت الوقعه الأولی

۱- رینوماسیور. انظر حوله ولیم الصوری ج ۱ ص ۵۸۲.
۲- مریمین من قری منطقه جسر الشغور محافظه أدلب و تبعد عن ادلب ۸۵ کم.
۳- قارن ولیم الصوری ج ۱ ص ۵۷۹- ۵۸۲.

على البلاط عاد و أخذه، فقاتله بغدوين، و أخذه في جمادى الأولى، و أطلق من كان فيه.

و رحل إلى كفر روما(١) فأخذ حصنها بالسّيف، و قتل جميع من كان فيه، و وصلوا إلى كفر طاب، و قد أحرق ابن منقذ حصنها، و أخذ رجاله منه خوفا منهم، فرمّموه، و رتّبوا رجالهم فيه، و ساروا إلى سرمين و معرّه مصرين فتسلّموها بالأمان، ثم نزلوا زردنا، و رحلوا عنها إلى أنطاكيه.

و مع هذا فغارات عسكر حلب متواصله على ما يقرب منهم، و تعود بالظّفر و الغنيمه.

و وصل جوسلين إلى بغدوين خاله وقت أخذه سرمين، فأقطعه الرّها و تلّ باشر، و سيّره إليهما، فأسرى إلى وادى بطنان دفعتين، و إلى ما يلى الفرات من جهه الشّام، و قتل و سبى ما يقارب ألف نفس، و أغار جوسلين على منبج و النّقره و أعمال حلب الشرقيه، و أخذ كلّ ما وجده من [دواب]، و أسر رجالا و نساء، و أسرى إلى الرّاوندان(٢) يتبع طائفه من التّركمان كانت قطعت الفرات، فاقتتلوا فانهزم الفرنج و قتل منهم جماعه.

و فى صفر من سنه أربع عشره و خمسمائه، وقعت مشاحنه بين والى الأثارب بلاق بن اسحاق صاحب نجم الدين إيلغازى و بين الفرنج فأسرى و معه جماعه من عسكر حلب إلى أنطاكيه، فلقيهم عسكر أنطاكيه

١- كفر روما قريه من قرى معره النعمان. معجم البلدان.

٢- الراوندان قلعه حصينه من نواحى حلب. معجم البلدان.

فکسرهم، و عاد فتبعه الفرنج و التقوا ما بین ترمانین[(۱)] و تلّ أعذی، من فرضه لیلون.

و وصل فی هذه السّنه إیلغازی بجمع کثیر من الترکمان، و قطع الفرات فی الخامس و العشرین من صفر، و توجّه إلی تلّ باشر، و أقام أیاما و لم یقاتلها، و رحل إلی عزاز یرید أخذها، و لم یمکّن أحدا من الترکمان من تشعیث ضیاعها، و رحل إلی أنطاکیه و أقام علیها یوما واحدا، و أقام فی أعمال الرّوم أیاما یسیره.

ثم خرج إلی قنسرین فتشوشّت قلوب الترکمان لأنهم أمّلوا من الغنائم مثل السّنه الخالیه، و لم یقاتل بهم حصنا، و لا غنموا شیئا، و باع الأسری الّذین أسرهم فی الوقعه الأولی، فعادوا إلی بلادهم، و بالغوا فی التشفّی من المسلمین و القتل و السّبی.

و جری من نجم الدین إساءه إلی بعض الترکمان علی شی ء أنکره علیهم، فبالغ فی هوانهم و حلق لحی بعضهم، و قطع أعصابهم، فتفرّق عسکره و بقی نفر یسیر متفرّقین فی أعمال حلب.

فطمع الفرنج و خرجوا إلی دانیث، فوصل طغتکین و عسکر دمشق، و اجتمعوا مع إیلغازی فی عسکر یقاوم الفرنج، فساروا إلی الفرنج، و هم فی ألف فارس و راجل کثیر، فدار التّرک حولهم فلم یخرج منهم أحد، و کرهوا

۱- ترمانین الآن أحدی قری منطقه حارم، محافظه ادلب، و تبعد عن ادلب مسافه ۷۶ کم.

أن يعودوا على أعقابهم فتكون هزيمه، فساروا نحو معرّه مصرين لا ينفرد منهم فارس و لا راجل.

و أشرف التّرك على أخذهم، و من خرج منهم قتل، و من وقفت دابّته تركها و أخذت، و لا يقدرون على الماء و هم على حاله الهلاك، و إيلغازى و طغتكين يردّان الناس عنهم بالعصا، فنزلوا بقرب معرّه مصرين، و عاد التّرك عنهم إلى حلب، و عادوا إلى أنطاكيه.(١)

و صالحهم إيلغازى إلى آخر سنه أربع عشره، على أنّ لهم المعرّه و كفرطاب و الجبل و الباره، و ضياعا من جبل السّمّاق برسم هاب، و ضياعا من ليلون برسم تل أعذى، و ضياعا من بلد عزاز برسم عزاز.

و سار نجم الدّين إيلغازى إلى ماردين ليجمع العساكر، و هدم إيلغازى زردنا فى شهر ربيع الأوّل، و كان أهل حلب قد شكوا إليه تجديد رسوم جدّدت عليهم فى أيّام رضوان، لم تجر بها عاده فى دوله العرب و لا دوله المصريّين و لا فى أيّام أق سنقر، فأمر بكشف مقدارها، فأخبر أنّها مبلغ اثنى عشر ألف دينار فى كلّ سنه، فرسم بحذفها، و وقّع لهم بذلك، و كتب لوحا بذلك، و سمّره على باب الجامع و ذلك فى هذه السنّه.

١- مزج ابن العديم هنا كما فعل قبله ابن القلانسى ص ٣٢٠، و ابن الأثير ج ٨ ص ٢٩٤، الروايات حول معركه دانيث لسنه ٥١٣ ه/ ١١١٩ م و معركه دانيث الثانيه لسنه ٥١٤ ه/ ١١٢٠ م التى انتصر فيها الفرنجه حسب روايه وليم الصورى ج ١ ص ٥٨٣- ٥٨٥.

و خرج الفرنـج فقبضوا على الفلّاحين الّذين تحت أيديهم فى هذه الأعمال من المسـلمين و عاقبوهم و صادروهم، و أخذوا منهم من الأموال و الغلّات ما تقوّوا به، و كانت الضّـياع الّتى فى أيدى المسلمين قد عمرت، و اطمأنوا بالصّلح، فغدر اللّعين جوسلين، و خرج فأغار على النّقره و الأحصّ، و احتـجّ بأنه أسـر له والى منبج أسـيرا، و أنّه كاتب فى ذلك فلم ينصف، و ذلك فى شوّال، و قتل و سبى و أحرق كل ما فى النّقره و الأحص؛ و نزل الوادى و عاث فيه.

ثم سار إلى تلّ باشـر، ثمّ عاد و حشـد و خرج و عمل كفعله الأول، و أخـذ فى غارته الأولى المشايخ و العجايز و الضـعفاء، فنزع عنهم ثيابهم و تركهم فى البرد عراه، فهلكوا بأجمعهم.

فأنفذ والى حلب إلى بغدوين فى ذلك، و قال: «إنّ نجم الدّين لم يترك هذه البلاد خاليه من العساكر إلّا ثقه بالصـلح» فقال: «ما لى على جوسلين يد». و تتابعت من جوسلين غارات متعدده.

ثم خرج الفرنـج من أنطاكيه عقيب ذلك، و أغاروا على بلد شـيزر و أخذوا ما لا يحصـى، و أسـروا جمعا، و طلبوا المقاطعه التى جرت عـادتهم قبـل الوقعه بأخـذها، فبـذل لهم ابن منقـذ ذلـك على أن يردّوا مـا أخـذوه، فلم يجيبوه إلى ذلك، فجعل لهم مالا حمله، و صالحهم إلى آخر السّنه.

و هرب ملك العرب دبيس بن صـدقه الأسـدىّ من المسترشـد و السـلطان محمود، فوصـل إلى قلعه جعبر، فـأكرمه نجم الـدّوله مالك، و أضافه، ثمّ

سار إلى إيلغازى إلى ماردين، و تزوّج ابنته فاشتدّ به و أجاره، و وصل معه الأموال العظيمه و النّعمه الوافره، و حمل إليه إيلغازى ما يفوت الإحصاء.

فاشتغل إيلغازى بدبيس عن العبور إلى الشّام، فخرب بلد حلب، و استولى الفرنج على معظمه، و أغار جوسلين إلى صفّين(۱)، و سبى العرب و التركمان، و نزل بزاعا و قاتلها، و أحرق بعض جدارها، و صونع على شى ء و دخل بلده.

ثم هجم الفرنج، فى صفر من سنه خمس عشره و خمسمائه، الأثارب، و قتلوا جماعه و أحرقوها و أسروا من لم يعتصم بالقلعه.

ثم إنّهم فى ربيع الآخر من السّنه، نزلوا نواز(۲)، و زحفوا إلى الأثارب ثانيه، و أحرقوا الدّور و الغلّه، و سار بغدوين، و أغار على حلب؛ و أخذ الناس و الدواب من حاضر حلب و من الفنادق، و أخذ ما يجلّ قدره من الماشيه، و أسر نحوا من خمسين أسيرا، و صاح الصائح فخرج نفر يسير من العسكر فظفروا بالفرنج و خلّصوا المواشى، و عاد الفرنج إلى أعمالهم.

و كان النائب بحلب شمس الدّوله سليمان بن نجم الدين إيلغازى، و كان إيلغازى قد ولّى رئاسه حلب، فى سنه أربع عشره فى رجب، مكى بن

۱- تتوافق هذه الروايه مع ما أراده باختصار ابن القلانسى ص ۳۲۳، لكن ابن الأثير تحدث فى ج ۸ ص ۲۸۹ عن نشاط جوسلين فى منطقه طبريه، و صفين هى منطقه أبى هريره قرب الرقه حاليا.

۲- قريه كبيره فى جبل السماق فى بلد حلب. معجم البلدان.

قرنـاص الحمویّ، و جعله بین یـدیه، فکتب إلی ولـده و نوّابه یأمرهم بصـلح الفرنـج علی ما یریـدون، فصالحوهم علی سـرمین و الجزر و لیلون و أعمال الشـمال علی أنها للفرنج، و ما حول حلب للفرنج منه النّصف، حتی أنّهم ناصفوهم فی رحی الغربیه(۱) و علی أن یهـدم تـلّ هراق بحیث لا ـ یبقی للفئتین فیه حکم، و طلبوا الأثـارب فأجـاب إیلغـازی إلی ذلـک، فامتنع من کان فیها من التّسلیم فبقیت فی أیدی المسلمین.

و کان الذی تولی الصـلح جوسـلین و جفری، و کان بغدوین فی القدس، فلما وصل رضـی بذلک، و شرع فی عماره دیر خراب قدیم، بالقرب من سرمدا(۲)، و حصّنه ثمّ أطلقه لصاحب الأثارب سیر ألان دمسخین.

و أمر إیلغازی ولده باخراب قلعه الشّـریف المجدّده بحلب و إخراج من کان فیها من جند رضوان، فأخرجهم شمس الدّوله و ابن قرناص بعذر الإغاره علی أعمال الفرنج، و أغلقت أبواب حلب فی وجوههم، و تولی الرئیس مکیّ بن قرناص خرابها فی جمادی الآخره.

و اسـتنجد الملک طغرل بإیلغازی بن أرتق علی الکرج و ملکهم داود، فسار إلیه فی عالم عظیم و معه دبیس بن صدقه، فکسرهم المسلمون، و دخلوا وراءهم فی الدّرب، فکرّ الکرج علیهم فی الدّرب، فانهزم المسلمون

۱- لعلها کانت قرب باب الجنان.

۲- سرمدا قریه تابعه لمنطقه حارم فی محافظه ادلب و تبعد عن ادلب مسافه ۶۴ کم.

و تبعهم الكرج قتلا و أسرا، و نهب لدبيس ما مقداره ثلاثمائه ألف دينار، و وصل مع نجم الدين إيلغازى إلى ماردين سالما(۱).

و أنفذ إيلغازى إلى ابنه سليمان بحلب يلتمس منه أشياء، فقبّح بذلك عنده، و قيل له أشياء أوجبت عصيانه على والده، فعصى و أخرج الملوك:

سلطان شاه و ابراهيم و غيرهما من حلب، فمضوا إلى قلعه جعبر، و مدّ يده فى مصادره أهل حلب و ظلمهم و الفساد.

و قيل: إن دبيس بن صدقه لما سار مع إيلغازى إلى الكرج سأل إيلغازى فى الطّريق أن يهب له حلب و أن يحمل إليه دبيس مائه ألف دينار يجمع بها التركمان و يعاضده حتى يفتح أنطاكيه، فأجابه إيلغازى إلى ذلك، و أخذ يده على ذلك.

فلما وقعت كسره الكرج بدا له من ذلك، فأنفذ إلى ولده سليمان، و كان خفيفا، و قال له: «أظهر أنك قد عصيت علىّ حتى يبطل ما بينى و بين دبيس». فحمله الجهل على أن عصى و نابذ أباه، و وافقه مكىّ بن قرناص و الحاجب ناصر، و هو شحنه حلب و غيرهما.

و قبض سليمان حجّاب أبيه فصفعهم و حلق لحاهم، و مدّ يده إلى أموال النّاس و ظلمهم، فطمع الفرنج و قرّبهم سليمان، فنزلوا زردنا و عمروها لابن صاحبها كليام بن الأبرص.

۱- أوسع التفاصيل حول هذه الواقعه عند ابن الأزرق الفارقى انظر الموسوعه الشاميه فى تاريخ الحروب الصليبيه ص ۵۲۳۰-۵۲۳۳.

ثم سار الفرنج إلى باب حلب، فكبسوا فى طريقهم حاضر طىّ ء و غيرها، فخرج إليهم الحاجب ناصر و العسكر فكسروهم و قتلوا منهم جماعه.

و خرج بغدوين فى جمادى الآخره، فنازل خناصره، و أخذها و خرّبها، و حمل باب حصنها إلى أنطاكيه، و نزل برج سينا ففعل به كذلك، و كذلك فعل بغيرهما من حصون النّقره و الأحصّ، و سبى و أحرق و نهب.

و عاد فنزل صلدع- على نهر قويق- و خرج إليه اتزز بن ترك طالبا منه الصّلح مع سليمان، فقال: «على شرط أن يعطينى سليمان الأثارب حتى أحفظه، و أنا أذبّ عنه و أقاتل دونه»، فقال له: «ما يجوز أن يسلّم ثغرا من ثغور حلب فى بدوّ مملكته، بل التمس غير هذا ممّا يمكن ليوافقك عليه» فقال له: «الأثارب لا يقدر صاحب حلب على حفظها، فانّى قد عمرت عليها الحصون بما دارت، و أنا أعلمكم أنّها اليوم تشبه فرسا لفارس قد عطبت يداها، و للفارس هرى شعير(۱)، يعلفها رجاء أن تبرأ و يكسب عليها، فنفد هرى الشّعير، و عطبت الفرس، و فاته الكسب». ثمّ رحل نحوها، فحصرها ثلاثه أيّام، و اتّصل به ما أوجب رحيله إلى أنطاكيه.

و لما بلغ إيلغازى إصرار ولده على العصيان ضاقت عليه الأرض، و أعمل فى الوصول إليه و أخذ حلب منه، فكاتبه أقوام و عرفوه أن ما بحلب من يدفعه عنها، فسار حتى وصل إلى قلعه جعبر فضعفت نفس ابنه سليمان

۱- الهرى بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان. القاموس.

عن العصيان على أبيه، فأنفذ إليه من استحلفه على الصّفح عنه و الاحسان إليه و إلى من حسّن له العصيان مثل ابن قرناص و ناصر الحاجب، و أكّد الأيمان على ذلك.

و دخل حلب فى أول شهر رمضان فخرج الناس للقائه، و دخل إلى القصر، و أحسن إلى أهل حلب، و سامحهم بشى ء من المكوس، و صرف الشّحنه الّذى كان يؤذى الناس فى البلد.

و قبض على الرّئيس مكى بن قرناص و على أهله، و شقّ لسانه و كحله و أخذ ما وجد له، و سلّم أخاه إلى من يعذّبه و يستصفى ماله.

و كحل ناصر الحاجب، فعنى به من تولّى أمره فسلمت إحدى عينيه، و عرقب طاهر بن الزائر، و كان من أعوان الرئيس مكى.

و أعاد الملوك أولاد رضوان من قلعه جعبر إلى حلب، و خطب بنت الملك رضوان، و تزوّج بها، و دخل بها بحلب، و ولّى رئاسه حلب سلمان بن عبد الرزّاق العجلانى البالسى، و ولّى ابن أخيه بدر الدّوله سليمان بن عبد الجبار نيابته فى حلب، و صالح الفرنج مدّه سنه كامله، و أعطاهم من الضياع ما كان فى أيديهم أيّام مملكتهم الأثارب و زردنا.

و سار فى محرّم من سنه ستّ عشره و خمسمائه إلى الشرق ليجمع العساكر، فمات وزيره بحلب أبو الفضل بن الموصول فى صفر و ولى الوزاره أبو الرجاء بن السرطان.

و عبر إيلغازى و بلك فى سابع عشر شهر ربيع الآخر الفرات- و كان بلك غازى ابن أخيه بهرام بن أرتق، و استدعاه من أعمال الرّوم و بيده عده قلاع بالقرب من ملطيه- و صحبتهما عدّه من التّركمان دون ما جرت عادته باستصحابه، فعزل أبا الرجاء بن السرطان عن الوزاره، و قبض عليه لسعايه سعى به إليه عليه.

و نزل إيلغازى زردنا، نزل عليها فى العشرين من جمادى الأولى، و حصرها أياما و أخذ حوشها، و كان صاحبها قد سمع حين عبر إيلغازى الفرات أنه ينزلها، فجمع أصحابه و استحلفهم على المصابره من وقت نزولهم على مدّه خمسه عشر يوما، و حلف هو لهم على أن ينجدهم، و مضى على أن يستجيش، فان جازت هذه المدّه و لم يصلهم فإنّه يبتاع دماءهم بكلّ ما يملكه، و قال لهم: «و اللّه لكم علىّ من الشاهدين، لئن لم يخلصكم إلا إسلامى إن قبله أسلمت على يديه لخلاصكم».

و خرج حتى وصل إلى بغدوين صاحب أنطاكيه، و هو بأكناف طرابلس فى حكومه بينه و بين صاحبها، فأخبره بعبور إيلغازى و بما بلغه من قصده زردنا، فقال: «مذ حلفنا له و حلف لنا ما نكثنا، و حفظنا بلده فى غيبته و نحن شيوخ، و ما أظنه يغدر، بل ربّما قصد طرابلس أو قصدنى فى القدس، لأننى ما صالحته إلّا على أنطاكيه و أعمالها، بل يجب أن تعود إلى أفاميه و كفرطاب و تكشف ما يتجدد». فعاد و كشف الأمر.

و سيّر إلى بغدوين فأعلمه بنزوله إلى زردنا، فصالح صاحب

طرابلس، و شرط عليه الوصول إليه. و وصل أنطاكيه، و استدعى جوسلين، و نصب المسلمون مجانيق أربعه على زردنا، و أخذوا الفصيل الأوّل، فوصل الفرنج بعد أربعه عشر يوما من منازله المسلمين لها، فنزلوا تحت الدّير.

و بلغ الخبر إيلغازى، فترك زردنا و توجّه نحوهم، فنزل نواز، و طلب أن يخرج الفرنج من المضيق إلى السّعه فلم يخرجوا، فرجل إلى تلّ السّلطان، و أتابك طغتكين فى صحبته، فخرج الفرنج فنزلوا على نواز و هجموا ربض الأثارب و أحرقوا البيدر و الجدار.

و دخل صاحبها يوسف بن ميرخان قلعتها، و نزلوا أبين، و رحلوا منها فنزلوا دانيث، و أقاموا عليها فلم يصلهم أحد، فعادوا إلى بلادهم، فعاد إيلغازى فنزل زردنا، و هجم الحوش الثّانى، و قتل جماعه من الفرنج.

فعاد الفرنج و نزلوا تحت الدّير، فرحل إيلغازى إلى نواز، و أقام ثلاثه أيام يزاحف الفرنج و هم لا يخرجون إلى الصّحراء، فاتّفق أن أكل إيلغازى لحم قديد كثيرا و جوزا أخضر و بطيخا و فواكه، فانتفخ جوفه و ضاق نفسه، و اشتدّ به الأمر، فرحل إلى حلب، و تزايد به المرض، فسار طغتكين إلى دمشق و بلك غازى إلى بلاده.

و دخل إيلغازى ليتداوى بحلب، فنزل القصر، و لم يخلص من علّته، و خرج عسكر حلب فى ألف فارس إلى نبل(۱) من عمل عزاز، و معهم

۱- نبل من قرى أعزاز فى محافظه حلب و تبعد عن حلب مسافه ۲۲ كم.

أمراء منهم دولت بن قتلمش، فنهبوا و عادوا؛ فوقع عليهم عند حربل(۱) كليام فى أربعين فارسا، فانهزم المسلمون و قتل منهم جماعه.

و فى شهر رجب من هذه السنه، ظفر بلك غازى باللّعين جوسلين و ابن خالته قلران(۲) بالقرب من سروج، فأسرهما و أسر ابن أخت طنكريد، و قد كان أسره فى وقعه ليلون، و اشترى نفسه بألف دينار و أسر ستّين فارسا.

و طلب جوسلين و قلران أن يسلّما ما بأيديهما من المعاقل فلم يفعلا، و قالا: «نحن و البلاد كالجمال و الحدج، متى عقر بعير حوّل رحله إلى آخر؛ و الذى بأيدينا قد صار بيد غيرنا». فأخذهما و مضى إلى بلده.

و وصل الفرنج بعد ذلك من تلّ باشر فى شعبان، و كبسوا تلّ قبّاسين(۳) فخرج النائب ببزاعا مع أهلها فالتقوا، و انهزم المسلمون و قتل منهم تسعون رجلا.

و أمّا إيلغازى فأقام أياما، و صلح من مرضه، و سار إلى ماردين، ثم خرج منها يريد ميّافارقين، فاشتدّ مرضه فى الطّريق، و توفّى بالقرب من ميّافارقين بقريه يقال لها «عجولين»، فى أول شهر رمضان من سنه ستّ عشره و خمسمائه.

۱- حربل من قرى منطقه أعزاز فى محافظه حلب و تبعد عن حلب مسافه ۲۰ كم.

۲- أو فى التفاصيل حول هذا الموضوع فى نص السريانى المجهول، انظر كتابى الحروب الصليبيه ص ۴۸۴- ۴۸۹.

۳- تل قباسين من قرى العواصم من أعمال حلب. معجم البلدان.

و ملك ابنه سليمان ميّافارقين، و ابنه تمرتاش ماردين، و ابن أخيه بدر الدّوله سليمان بن عبد الجبار بن أرتق حلب، و لما سمع صاحب أنطاكيه بوفاته حشد عسكره و جماعه من الأرمن، و نزل وادى بزاعا، و عاث فيه و أفسد ما قدر عليه، و حمل إليه أهل «الباب» من الوادى مالا و خدموه.

فرحل إلى بالس و قاتلها بالمنجنيقات، و قرّروا على بالس مع ابن مالك مالا يحمل إليه، فأسرف فى الطلب و كان ببالس جماعه من التركمان و من خيل حلب، فخرج أهلها و الخيل التى عندهم و اقتتلوا، فقتل من الفرنج جماعه من المقدّمين، و ظفر المسلمون أحسن ظفر.

فرحل بغدوين إلى الوادى و قد وصل [سليمان بن] إيلغازى فحصر البيره(۱) و تسلّم حصنها على أن يؤمّن أهلها على أنفسهم فأخذهم و سار بهم إلى أنطاكيه، و تتابعت غارات الفرنج حول حلب إلى آخر سنه ستّ عشره و خمسمائه.

و ولّى بدر الدّوله سليمان الوزاره بحلب أبا الرّجاء سعد اللّه بن هبه اللّه بن السّرطان، فى صفر، بعدما قبض عليه إيلغازى- كما تقدم ذكره-

و جدّد بدر الدّوله المدرسه الّتى بالزّجاجين بحلب، المعروفه ببنى

۱- البيره بلده فى تركيه الآن- اسمها بيره جك- على الفرات قرب سميساط. الأعلاق الخطيره- قسم الجزيره- ج ۲ ص ۷۶۹.

العجمی(۱)، بإشاره أبی طالب بن العجمی. و ذکر لی أنّه عزم علی أن یقفها علی الفرق الأربع، و نقل آلتها من کنیسه داثره کانت بالطّحّانین بحلب.

و فی العاشر من شهر صفر من سنه سبع عشره و خمسمائه، استقر الصّلح بین بدر الدّوله صاحب حلب و بین بغدوین صاحب أنطاکیه، و علی أن یسلّم بدر الدوله إلیه قلعه الأثارب فتسلموها، و صارت لصاحبها أولا سیر ألان دمسخین، و بقیت فی یده إلی أن مات، و کانت فی ید الحاجب جبریل بن برق، فعوّضه بدر الدّوله عنها شحنکیه حلب.

و فی یوم الأربعاء تاسع عشر صفر، سار بغدوین صاحب أنطاکیه لیقاتل نور الدّوله بلک بن بهرام بن أرتق، و کان محاصرا قلعه کرکر(۲)، فالتقیا علی موضع اسمه «اروش» بالقرب من قنطره سنجه، فکسره نور الدّوله بلک، و أسره، و قتل معظم عسکره و مقدّمیه و نهب [خیمه]، و فتح [کرکر] بعد جمعه؛ و کان فی دون عدّه الفرنج، و جعل بغدوین فی خرتبرت(۳) مع جوسلین و قلران.

ثمّ إنّ نور الدوله بلک عبر الفرات و نزل علی حلب و ضایقها، و نزل

۱- تسمی الآن مجامع أبی ذر فی محله الجبیله. الآثار الإسلامیه و التاریخیه فی حلب ص ۱۹۲.

۲- کرکر أو جرجر: حصن و بلده قرب ملطیه بین سمیساط و حصن زیاد(خرتبرت) غربی الفرات تولاها الخراب. اللؤلؤ المنثور ص ۵۱۸.

۳- و یعرف أیضا باسم حصن زیاد بأرض أرمینیه بین آمد و ملطیه. اللؤلؤ المنثور ص ۵۰۶. و من أجل الأسری انظر ولیم الصوری ص ۵۹۰- ۵۹۱. مع نص السریانی المجهول.

من قبليّها، ثم انتقل إلى بانقوسا(۱) و أقام أيّاما، و رحل إلى أرض النيرب، و جبرين(۲) و أمر بحرق الغلّه و أخذ الدّواب.

و مضى قطعه من عسكره إلى حدادين(۳)، فأخذ أحدهم عنزا، فرماه بعض فلّاحى الضيعه بسهم فقتله فحصرت مغارتها و أخذت بعد أن أمتنع أهلها من التسليم، فدخّنوا على المغاره فاختنق بها مائه و خمسون.

و خنق فى مغاره تلّ عبّود و تعجين جماعه و سبوا نساء عقر بوز(۴) و أولادها و باعوا بعضهم و استعبدوا بعضا و أخذ لاهل حلب جشير(۵) خيل ثلاثمائه رأس، و كان حريق الزرع من رهقات بلك و كان سببا للغلاء العظيم.

و فى صباح يوم الثلاثاء، غره جمادى الأولى من سنه سبع عشره و خمسمائه، تسلّم مدينه حلب سلّمها إليه مقلّد بن سقويق بالأمان و مفرّج بن الفضل، و نودى بشعار بلك من عدّه جهات، و كسر باب أنطاكيه، و أخربت ثلمه من غربى باب اليهود.

و فى يوم الجمعه رابع الشهر تسلّم القلعه و جلس بها بعدما نزل بدر الدّوله منها بيوم؛ و قرر حالها، و أخرج سلطان شاه بن رضوان، و سيّره إلى حرّان، و كان قد فتحها فى شهر ربيع الآخر خوفا منه.

۱- بانقوسا: جبل فى ظاهر حلب من جهه الشمال. معجم البلدان.

۲- جبرين: قريه على باب حلب. معجم البلدان.

۳- حدادين من قرى منطقه جبل سمعان فى محافظه حلب و تبعد عن حلب مسافه ۱۶ کم.

۴- عقربوز من قرى منطقه جبل سمعان فى محافظه حلب و تبعد عن حلب مسافه ۳۶ کم.

۵- الجشير: المواشى على أنواعها.

ثم أنّه سار إلى الباره و هجمها، و أسر الأسقف الّذى بها و قيّده، و وكّل به(۱)، و رحل إلى كفرطاب فغفل الموكّل به فهرب إلى كفرطاب، فعزم على قتال حصنها و استرجاع الأسقف فى يوم الثلاثاء الثانى عشره من جمادى الآخره.

فوصله من أخبره أن بغدوين الرّويس و جوسلين و قلران و ابن اخت طنكريد و ابن أخت بغدوين و غيرهم من الأسرى الّذين كانوا مسجونين بجب خرتبرت عاملوا قوما من أهل حصن خرتبرت فأطلقوهم، و وثبوا على الحصن فملكوه، و أخذوا كلّ ما كان لنور الدّوله فيه و كان جمله عظيمه، فقال جوسلين: «كنا قد أشرفنا على الهلاك و الآن فقد خلصنا، و الصواب أن نمضى و نحمل ما قدرنا عليه». فما سمحت نفس بغدوين بترك الحصن و الخروج منه(۲).

فاتّفق رأيهم على خروج جوسلين، و حلّفوه على أنّه لا يغيّر ثيابه و لا يأكل لحما و لا يشرب إلّا وقت القربان إلى أن يجمع جموع الفرنجه و يصل بهم إلى خرتبرت و يخلّصهم.

و أما بلك فإنّه سار حتّى نزل على خرتبرت ففتحه بالسّيف فى ثالث و عشرين من رجب، و قتل كل من كان به من أصحابه الّذين كفروا نعمته

۱- قارن و استفد من السريانى المجهول.

۲- مع نص السريانى المجهول انظر وليم الصورى ص ۵۹۱- ۵۹۵.

و من كان فيه من الفرنج، و لم يستبق سوى بغدوين الملك و قلران و ابن أخت بغدوين، و سيّرهم إلى حرّان و حبسهم بها.

و أما جوسلين فمضى إلى القدس، و استنجد بالفرنج، و وصلوا تلّ باشر، فسمعوا خبر فتح خرتبرت بالسّيف فسار إلى الوادى و قاتل بزاعا و أحرق بعض جدارها ثم أحرق الباب و قطع شجره، و أحرق ما سواه من الوادى.

ثم نزل حيلان(۱) ثم حلب من ناحيه «مشهد الجفّ» من الشمال؛ و خرّب المشاهد و البساتين، و كسر الناس عند «مشهد طرود» بالقرب من بستان النقره؛ و قتل و سبى مقدار عشرين نفرا.

ثمّ رحل و نزل الجانب الغربى فى البقعه السوداء، و خرب مشاهد الجانب القبلى و بساتينه، و نبش الضريح الذى ب «مشهد الدكّه»(۲) فلم يجد فيه شيئا فألقى فيه النار، و الحلبيّون فى كل يوم يقاتلونه أشدّ قتال، و يخسر معهم فى كلّ حركه.

ثم رحل يوم الثلاثاء مستهلّ شهر رمضان، و نزل السعدى(۳)، و قطع شجره، و افترقوا منه و سار كلّ إلى بلده، و وجد فى منازلهم التى نزلوها نيف و أربعون حصانا موتى، و نبش النّاس منهم موتى جماعه.

۱- حيلان: قريه قرب حلب تخرج منها عين فواره كثيره الماء سيقت إلى حلب. معجم البلدان.

۲- اسمه الآن الشيخ محسّن. الآثار الإسلاميه ص ۵۶- ۵۸.

۳- انظر الأعلاق الخطيره- قسم حلب- ج ۱ ص ۳۷۱- ۳۹۹.

فأمر القاضی ابن الخشّاب بموافقه من مقدّمی حلب أن تهدم محاریب الکنائس الّتی للنصاری بحلب، و أن یعمل لها محاریب إلی جهه القبله و تغیّر أبوابها، و تتّخذ مساجد: ففعل ذلک بکنیستهم العظمی، و سمّی مسجد السرّاجین(۱): و هو مدرسه الحلاویین الآن. و کنیسه الحدادین: و هی مدرسه الحدادین(۲) الآن؛ و کنیسه بدرب الحراف: و هی مکان مدرسه ابن المقدّم(۳). و لم یترک للنّصاری بحلب سوی کنیستین لا غیر، و هی الآن باقیه.

هذا کلّه و نور الدّوله بلک غائب عن مدینه حلب فی بلاده.

ثم إنّ جوسلین خرج فی تاسع عشر شهر رمضان إلی الوادی و النّقره و الأحصّ، و أخذ ما یزید عن خمسمائه فرس کانت فی العزیب(۴)، حتّی لم یبق بحلب من الخیّاله خمسون فارسا لهم خیل، و أخذ من الدّواب البقر و الغنم و الجمال ما لا یحصی، و قتل و سبی و خرب ما أمکنه و عاد إلی تل باشر.

و خرج سیر ألان فی عسکر أنطاکیه من الأثارب حتی وصل الحانوته(۵) و حلفا، و أخذ ما کان بقی من خیل فی العزیب فی الجانب القبلیّ، و ذلک مقدار ثلاثمائه فرس؛ و أخذ قافله کانت واصله من شیزر بغلّه.

۱- هو الآن المدرسه الحلویه. الآثار الإسلامیه ص ۵۲- ۶۲.

۲- انظر الأثار الإسلامیه ص ۲۵۲.

۳- هی فی محله الجلوم. انظر الآثار الإسلامیه ص ۶۷- ۶۸.

۴- العزیب من الإبل و الشاء التی عزب عن أهلها فی المرعی، و إبل عزیب لا تروح علی الحی. القاموس.

۵- الحانوته الآن اسمها تل الحواصید، و تبعد عن حلب مسافه ۶۰ کم.

ثم عبر جوسلين من الفرات إلى شبختان و أغار على تركمان و أكراد، فأخذ من الغنم و الخيل ما يزيد على عشره آلاف و سبى و قتل، و من سلم له فرس من عسكر حلب يخرجون مع الحراميّه و لا يقطعون الغارات على بلادهم، و يحضرون الأسارى مرّه بعد أخرى.

ثم أغار جوسلين على الجبّول، و ما حولها، و أخذ دوابّ كثيره و توجّه إلى دير حافر، فخنق أهلها بالدّخان فى المغاير، و فتح المقابر، و سلب الموتى أكفانهم.

و فى يوم الأربعاء سادس عشرين من ذى القعده، عبر بلك إلى الشّام و قبض على نائب بهرام داعى الباطنيه بحلب، و أمر بإخراجهم من حلب فباعوا أموالهم و رحالهم و خرجوا منها.

ثم إنّ الأمير نور الدّوله بلك جمع العساكر، و وصله أتابك طغتكين بعسكر دمشق و عسكر أق سنقر البرسقىّ، و عبروا حتى نزلوا على عزاز، و ضايقوها بالحصار، و أخذوا عليها نقوبا إلى أن سهل أمرها، فتجمّع الفرنج و قصدوا ترحيل المسلمين عنها فالتقى الجيشان، و هزم المسلمون، و تفرّقوا بعد قتل من قتل و أسر من أسر.

و عمّر بلك حصن الناعوره بالنّقره و حصن المغاره- على شطّ الفرات- و تزوّج بالخاتون فرخنده خاتون بنت رضوان، و عرّس بها فى ثالث و عشرين ذى الحجّه من سنه سبع عشره و خمسمائه.

و فى المحرّم من سنه ثمانى عشره و خمسمائه، تنكّر بلك على رئيس حلب

سلمان العجلانی و جعل علیها رجلا من أهل حرّان اسمه محمد بن سعدان، و یعرف بابن سعدانه، و کثر الأمن من الذّعّار و قطّاع الطریق عند قدوم بلک حلب؛ و أقام الهیبه العظیمه؛ و تقدّم بفتح أبواب حلب لیلا و نهارا، و حسم مادّه أرباب الفساد. و قال للحارس: «إنّ عدت سمعتک تصیح ضربت عنقک!».

و نقل بغدوین و من کان معه من حبس حرّان، فحبسه فی قلعه حلب.

و توّجه فی شهر صفر فرقه من أصحابه الأتراک إلی ناحیه عزاز فوقع بینهم و بین الفرنج وقعه عند مشحلا(۱)، و ظفر بهم الأتراک، و قتلوا منهم أربعین رجلا من الخیّاله و الرجّاله و أخذوا أسلابهم، و وصل الباقون عزاز و ما فیهم إلّا من جرح جراحا عدّه.

و انقطع المطر فی کانونین و نصف شباط، ثم تدارک فأخصب الزرع و استغلّ الناس، و کان بحلب غلاء شدید.

و فی صفر من سنه ثمانی عشره و خمسمائه، تنکّر نور الدوله بلک علی حسّان بن کمشتکین صاحب منبج لشی ء بلغه عنه، فأنفذ قطعه من عسکره مع ابن عمه تمرتاش بن إیلغازی بن أرتق، و تقدّم إلیهم أن یمروا علی منبج، و یطلبوا من حسّان أن یخرج معهم للإغاره علی تلّ باشر فإذا خرج

۱- مشحلا: قریه من نواحی اعزاز من أعمال حلب. معجم البلدان.

قبضوه، ففعلوا ذلک، و دخلوا منبج، و عصی علیهم الحصن و دخله عیسی أخو حسان.

و سیر حسان فحبس فی حصن بالو(۱) بعد أن عوقب و عرّی، و سحب علی الشوک فلم یسلّمها أخوه.

و کتب عیسی إلی جوسلین: «إن وصلتنی و کشفت عنی عسکر بلک سلّمت إلیک منبج». و قیل: إنه نادی بشعار جوسلین بمنبج، فمضی إلی بیت المقدس و طرابلس و جمیع بلاد الفرنج، و حشد ما یزید علی عشره آلاف فارس و راجل، و وصل نحو منبج لیرحل بلک عن منبج.

فسار إلیه بلک لمّا قرب من منبج، و التقیا یوم الاثنین ثامن عشر شهر ربیع الأوّل، و اقتتل العسکران، و انهزم الفرنج، و تبعهم المسلمون یقتلون و یأسرون إلی آخر النهار.

و حمل فیهم بلک ذلک الیوم خمسین حمله یفتک فیهم و یخرج سالما، یضرب بالسیوف و یطعن بالرماح و لا یکلم، و عاد إلی منبج فبات مصلّیا مبتهلا إلی اللّه تعالی لما جدده علی یده من الظفر بالفرنج.

و أصبح یوم الثلاثاء تاسع عشر ربیع الأول قتل کلّ أسیر أسره فی الوقعه، ثم زحف نحو الحصن لیختار موضعا ینصب فیه المنجنیق، و علیه بیضه و بیده ترس.

۱- بالو: قلعه حصینه و بلده من نواحی أرمینیه بین أرزن الروم و خلاط. معجم البلدان.

و كان قد عزم على أن يستخلف ابن عمه تمرتاش بن إيلغازى على حصار منبج، و يطلع منجدا لأهل صور، فإنّ الفرنج كانوا فى مضايقتها(۱)، و فى تلك المضايقه أخذوها، فبينا كان بلك قائما يأمر و ينهى إذ جاءه سهم من الحصن، و قيل: إنّه كان من يد عيسى فوقع فى ترقوته اليسرى فانتزعه و بصق عليه، و قال: «هذا قتل المسلمين كلهم»، و مات لوقته.

و قيل: بقى ساعات و قضى نحبه- رحمه اللّه- و حمل إلى حلب، و دفن بها قبلىّ مقام ابراهيم(۲)- عليه السّلام-.

و وصل حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى إلى حلب يوم الأربعاء العشرين من شهر ربيع الأوّل، و دخل القلعه و نصب علمه، و نادى الناس بشعاره.

و سار سليمان بن إيلغازى من ميّافارقين إلى خرتبرت و حصون بلك، و هى نيّف و خمسون موضعا فتسلّمها.

و سار داود بن سكمان، فأخذ حصن بالو و أطلق حسّان بن كمشتكين فعاد إلى منبج.

فأمّا تمرتاش فإنّه لمّا ملك حلب ألهاه الصّبى و اللعب عن التشمير و الجدّ و النظر فى أمور الملك، ففسدت الأحوال، و ضعف أمر المسلمين بذلك،

۱- انظر ابن القلانسى ص ۳۳۶- ۳۳۷.

۲- اسمه الآن مقام الصالحين. الآثار الإسلاميه ص ۵۲- ۵۳.

و استوزر أبا محمّد بن الموصول، ثم عزله و صادره فی رجب من سنه ثمانی عشره و استوزر أبا الرّجاء بن السّرطان، و ولی الرئاسه بحلب فضائل بن صاعد بن بدیع.

و سیّر إلی حرّان فحمل منها سلطان شاه بن رضوان، و کان بلک أسکنه بها؛ فاعتقله فی دار بقلعه ماردین و کان فیها طاقه فتدلّی منها بحبل و هرب إلی دارا، ثم رحل منها إلی حصن(۱) کیفا إلی داود بن سکمان.

و فی العشر الأواخر من ربیع الأول سار نائب جوسلین من الرها و أغار علی ناحیه شبختان و نهبها فسار إلیه نائب تمرتاش عمر الخاص و کان نائبه و ربیب أبیه إیلغازی و رکب خلفه فی ثلاثمائه فارس فلحقه علی مرج اکساس، فقاتله و هزمه و قتله، و قتل أکثر من کان معه من الفرنج، و عاد غانما، و أنفذ رؤوسهم و ما غنمه إلی تمرتاش إلی حلب.

و ولّاه تمرتاش شحنکیه حلب، و هو المدفون فی القبّه التی مقابل باب مشهد ابراهیم- علیه السلام- و اسمه مکتوب علی جهاتها الأربع.

و ولّی قلعه حلب رجلا یقال له عبد الکریم.

و فی غره جمادی الأولی من هذه السنه استقرّ الأمر بین الملک بغدوین صاحب أنطاکیه- و کان فی سجن بلک بحلب- و بین تمرتاش بن إیلغازی علی تسلیم الأثارب و زردنا و الجزر و کفرطاب، و علی تسلیم عزاز و ثمانین ألف دینار، و قدّم منها عشرین ألف دینار.

۱- بلده عظیمه مشرفه علی دجله بین آمد و جزیره ابن عمر. اللؤلؤ المنثور ص ۵۰۷.

و حلف على ذلک و على أن یخرج دبیس بن صدقه(۱) من النّاس، و کان قد وصل دبیس منهزما من المسترشد بعد أن کسره المسترشد، و قتل خلقا من عسکره فترک بلاده، و حمل ما قدر علیه من العین و العروض على ظهور المطایا؛ و وفد على ابن سالم بن مالک بن بدران إلى قلعه دوسر، و استجار به فأجاره، و غاضب المسترشد و السلطان محمودا فی أمره.

و کاتب دبیس قوما من أهل حلب؛ و أنفذ لهم جمله دنانیر، و سامهم تسلیمها إلیه، و کشف ذلک رئیسها فضائل بن صاعد بن بدیع، فأطلع على ذلک تمرتاش بن إیلغازی، فأخذهم و عذّبهم و شنق بعضهم، و صادر بعضا، و أحرق بعضا.

و کان المتوسّط حدیث بغدوین مع تمرتاش الأمیر أبو العساکر سلطان بن منقذ، و سیّر أولاده و أولاد إخوته رهنا عن بغدوین إلى حلب.

و فکّت قیود بغدوین و أحضر إلى مجلس تمرتاش، و تواکلا و تشاربا و خلع علیه قبآء ملکیا و قلنسوه ذهب و خفافا ورانا(۲)؛ و أعید علیه الحصان الذی کان أخذه منه بلک یوم أسره، فرکبه، و سار إلى شیزر یوم الأربعاء رابع جمادى، فبقى عند أبی العساکر حتى أحضر جماعه رهنا على الوفاء بما شرطه لتمرتاش و هم: ابنته، و ابن جوسلین، و غیرهما من أولاد الفرنج، و عدّتهم اثنا عشر نفرا، و حمل العشرین ألف دینار التی عجّلها.

۱- لدبیس ترجمه مفیده فی بغیه الطلب ص ۳۴۷۸- ۳۴۹۳.

۲- ما یشد حول الساق.

و قبض صاحب شيزر الرّهائن، و أطلق بغدوين من سجن شيزر، فى يوم الجمعه سابع عشر شهر رجب، فخرج- لعنه اللّه- و غدر بتمرتاش و أنفذ إليه يقول: «البطريك الذى لا يمكن خلافه سألنى عما بذلت، و ما الذى استقرّ، فحين سمع حديث عزاز و تسليم حصنها منّى أبى، و أمرنى بالدفع عنها و قال: إنّ خطيئتك تلزمنى، و لا أقدر على خلافه». فتردّدت الرسل بينهما فلم يستقرّ على قاعده.

و خالط دبيس جوسلين و بغدوين، و صافاهم و صافوه بوساطه الأمير مالك بن سالم صاحب قلعه جعبر، و اتّفق دبيس و الفرنج على قواعد تعاهدوا عليها منها أن تكون حلب لدبيس و الأموال و الأرواح للفرنج مع مواضع من بلد حلب تكون للفرنج؛ و تقدّم دبيس إلى مرج دابق فخرج إليه حسام الدّين تمرتاش فكسره.

و سار تمرتاش من حلب عندما علم بغدر الفرنج به إلى ماردين، فى الخامس و العشرين من شهر رجب، ليستنجد بأخيه سليمان بن إيلغازى و بجمع العساكر، و بقى بنو منقذ رهائن بقلعه حلب عند تمرتاش، و أولاد الفرنج رهائن عند أبى العساكر بن منقذ بشيزر.

و الرسل مع هذا تتردّد بين تمرتاش و بغدوين إلى أن عادت الرسل فى ثامن عشر شعبان مخبره بنقض الهدنه، و بخروج بغدوين إلى أرتاح قاصدا النزول على حلب.

و رحل بغدوين من أرتاح حتى نزل على نهر قويق و أفسد كلّ ما كان

عليه، ثمّ رحل فنزل على باب حلب، فى يوم الاثنين السادس و العشرين من شعبان، و هو السادس من تشرين الأوّل.

و خرج دبيس و جوسلين من تلّ باشر، و قصدا ناحيه الوادى، و أفسدا القطن و الدخن، و سائر ما كان به وقوّم ذلك بمائه ألف دينار، و رحلا و نزلا مع بغدوين على حلب، و وصل إليهم الملك سلطان شاه بن رضوان.

و نزل بغدوين مقدّم الفرنج من الجانب الغربى من حلب فى الحلبه، و نزل جوسلين على طريق عزاز و ما يجاوره يمنه و يسره. و نزل دبيس و سلطان شاه بن رضوان ممايلى جوسلين من الشّرق؛ و فى صحبه دبيس عيسى بن سالم بن مالك.

و نزل يغى سيان بن عبد الجبّار بن أرتق صاحب بالس ممايلى دبيس من الشّرق، و كانت عدّه الخيم ثلاثمائه: للفرنج مائتا خيمه، و للمسلمين مائه خيمه.

و أقاموا على حلب يزاحفونها، و قطعوا الشجر و خربوا مشاهد كثيره، و نبشوا قبور موتى المسلمين، و أخذوا توابيتهم إلى الخيم و جعلوها أوعيه لطعامهم، و سلبوا الأكفان، و عمدوا إلى من كان من الموتى لم تنقطع أوصاله، فربطوا فى أرجلهم الحبال، و سحبوهم مقابل المسلمين.

و جعلوا يقولون: «هذا نبيّكم محمد» و آخر يقول: «هذا عليّكم» و أخذوا مصحفا من بعض المشاهد بظاهر حلب و قالوا: «يا مسلم أبصر

كتابكم». و ثقبه الفرنجى بيده، و شدّه بخيطين، و عمله ثفرا(۱) لبرذونه؛ فظل البرذون يروث عليه، و كلّما أبصر الروث على المصحف صفّق بيديه و ضحك عجبا و زهوا.

و أقاموا كلّما ظفروا بمسلم قطعوا يديه و مذاكيره و دفعوه إلى المسلمين؛ و المسلمون يفعلون بمن يأسرونه من الفرنج كذلك.

و ربّما شنق المسلمون بعضهم، و يخرج الغزاه من باب العراق، و يسرقونهم من المخيم، و يقطعون عليهم الطّرق، و يقتلون و يأسرون.

و يصيح المسلمون على دبيس من الأسوار: «دبيس، يا نحيس». و الرسل تتردد بينهم فى الصّلح، و لا يستتب إلى أن ضاق الأمر بالمسلمين جدّا.

و كان بحلب بدر الدّوله سليمان بن عبد الجبّار و الحاجب عمر الخاص، و معهما مقدار خمسمائه فارس، و الذى يتولّى تدبيرها و هو فى مقام الرئاسه القاضى أبو الفضل بن الخشّاب، و تولّى حفظ المكان و بذل المال و الغلال.

فاتفقوا على أن سيّروا جدّ أبى قاضى حلب القاضى أبا غانم محمد بن هبه اللّه بن أبى جراده و نقيب الأشراف و أبا عبد اللّه بن الجلى فخرجوا ليلا، و مضوا إلى تمرتاش إلى ماردين مستصرخين إليه و مستغيثين به فوجدوه و قد مات أخوه سليمان بن إيلغازى صاحب ميافارقين فى شهر رمضان، و سار تمرتاش إلى بلاده ليملكها، و اشتغل بملك تلك البلاد عن حلب.

۱- الثفر: الجلده التى توضع تحت الذيل و يربط بها حلس الدابه.

و كانت الرسل مترddeه بينه و بين أق سنقر البرسقىّ صاحب الموصل فى اتّفاق الكلمه على قصد الفرنج و كشفهم عن حلب؛ فاشتغل بهذا الأمر عن هذا التقرير، و الحلبيون عنده يمنّيهم و يمطلهم.

و لما خرج الحلبيّون من حلب بلغ الفرنج ذلك فسيّروا خلفهم من يلحقهم، فلم يدركهم و أصبحوا فى صباح تلك اللّيله و صاحوا إلى أهل حلب: «أين قاضيكم؟ و أين شريفكم؟» فأسقط فى أيديهم إلى أن وصل منهم كتاب بخبر سلامتهم.

و بقى الحلبيّون عند تمرتاش يحثّونه على التّوجّه إلى حلب، و هو يعدهم و لا يفعل، و هم يقولون له: «نريد منك أن تصل بنفسك، و الحلبيون يكفونك أمرهم».

فضاق الأمر بالحلبيّين إلى حدّ أكلوا فيه الكلاب و الميتات، و قلّت الأقوات، و نفد ما عندهم، و فشا المرض فيهم، فكان المرضى يئنّون لشدّه المرض، فإذا ضرب البوق لزحف الفرنج قام المرضى كأنما أنشطوا من عقال، و زحفوا إلى الفرنج و ردّوهم إلى خيامهم، ثم يعودون إلى مضاجعهم.

فكتب جدّى أبو الفضل هبه اللّه بن القاضى أبى غانم كتابا إلى والده يخبره بما آل أمر حلب إليه من الجوع، و أكل الميتات، و المرض؛ فوقع كتابه فى يد تمرتاش فغضب و قال: «انظروا إلى هؤلاء يتجلّدون علىّ، و يقولون إذا وصلت فأهل حلب يكفونك أمرهم، و يغرّرون بى حتى أصل فى قلّه، و قد

بلغ بهم الضعف إلى هذه الحاله».

ثمّ أمر بالتّوكيل و التّضيق عليهم، فشرعوا فى إعمال الحيله و الهرب إلى أق سنقر البرسقىّ، ليستصرخوا به فاحتالوا على الموكّلين بهم، حتى ناموا و خرجوا هاربين، فأصبحوا بدارا(۱).

و ساروا حتى أتو الموصل، فوجدوا البرسقى مريضا مدنفا، و الناس قد منعوا من الدّخول عليه إلّا الأطبّاء، و الفرّوج يدقّ له لشدّه الضعف، و وصل إلى دبيس من أخبره بذلك، فضرب البشاره فى عسكره، و ارتفع عنده التكبير و التهليل، و نادى بعض أصحابه أهل حلب: قد مات من أمّلتم نصره، فكادت أنفس الحلبيّين تزهق.

و اسؤذن للحلبيّين على البرسقىّ فأذن لهم، فدخلوا إليه، و استغاثوا به، و ذكروا له ما أهل حلب فيه من الضرّ، فأكرمهم- رحمه اللّه- و قال لهم: «ترون ما أنا فيه الآن من المرض، و لكن قد جعلت للّه على نذرا إن عافانى من مرضى هذا لأبذلنّ جهدى فى أمركم، و الذبّ عن بلدكم، و قتال أعدائكم».

قال القاضى أبو غانم قاضى حلب: فما مضى ثلاثه أيام بعد ذلك حتى فارقته الحمى، فأخرج خيمته، و نادى فى العساكر بالتأهب للجهاد إلى حلب.

۱- مدينه الآن بتركيه هى فى لحف جبل بين نصيبين و ماردين. معجم البلدان.

و بقى أياما و عمل العسكر أشغاله و خرج- رحمه اللّه- فى عسكر قوىّ، فوصل إلى الرّحبه، و كاتب أتابك طغتكين صاحب دمشق، و صمصام الدّين خير خان بن قراجا صاحب حمص.

و رحل إلى بالس، و سار منها إلى حلب فوصلها يوم الخميس لثمان بقين من ذى الحجه من سنه ثمانى عشره.

و لما قرب من حلب رحل دبيس ناشرا أعلامه البيض إلى الفرنج عند قربه من حلب، و تحوّلوا إلى جبل جوشن كلّهم، و خرج الحلبيّون إلى خيامهم فنهبوها و نالوا منها ما أرادوا.

و خرج أهل حلب و التقوا قسيم الدوله عند وصوله، و سار نحو الفرنج فانهزموا بين يديه من جبل جوشن، و هو يسير وراءهم على مهل حتى أبعدوا عن البلد.

فأرسل الشالشيه(۱)، و أمرهم أن يردّوا العسكر، فجعل القاضى ابن الخشّاب يقول له: «يا مولانا لو ساق العسكر خلفهم أخذناهم، فانهم منهزمون و العسكر محيطه بهم». فقال له: «يا قاضى تعلم أنّ فى بلدكم ما يقوم بكم و بعسكرى لو قدّر علينا- و العياذ باللّه- كسره؟» فقال: «لا».

فقال: «ما يؤمننا أن يرجعوا علينا و يكسرونا، و يهلك المسلمون، و لكن قد كفى اللّه شرّهم و ندخل إلى البلد و نقوّيه و ننظر فى مصالحه، و نجمع لهم إن شاء اللّه، و نخرج إليهم بعد ذلک»(۲).

۱- حمله شارات و أعلام كانوا يقومون بوظيفه مراقبه أمن الجيش و نظامه.

۲- لمزيد من التفاصيل انظر ترجمه آق سنقر البرسقى فى بغيه الطلب ص ۱۹۶۳- ۱۹۷۰.

و رجع و دخل البلد و تسلّم قلعتها، و نظر فی مصالح البلد و قوّاه، و أزال الظلم و المکوس و عدل فیهم عدلا شاملا و أحسن إلیهم إحسانا کاملا.

و کتب لأهل حلب توقیعا باطلاق المظالم و المکوس، نسخته موجوده، بعدما کان الحلبیّون منوا به من الظّلم و المصادره من عبد الکریم والی القلعه، و عمر الخاص والی البلد، و تسلیطهما الجند و الأتراک علی مصادره الناس بحیث أنهم استصفوا أموالهم من الأکابر و الصدور و غیرهم فی حاله الحصار.

و أما الفرنج فانهم توجّهوا إلی الأثارب و دخلوا أنطاکیه.

و شرع النّاس فی الزّرع ببلد حلب فی الثّانی عشر من شباط و جعلوا یبلّوا الغلّه بالماء، و یزرعونها فنبتت و تدارکت علیها الأمطار فأخصبت، و جاءت الغلّه من أجود الغلال و أزکاها.

و أطلق البرسقیّ بنی منقذ من الاعتقال بقلعه حلب، و رحل إلی تلّ السّلطان فی سنه تسع عشره و خمسمائه، فی أواخر المحرّم، و أقام به ثلاثه أیام، و رحل إلی أن وصل إلی شیزر فی سابع صفر، و تسلّم أولاد الفرنج من ابن منقذ، و باعهم بثمانین ألف دینار حملت إلیه.

و أقام بأرض حماه أیاما حتی وصل إلیه أتابک طغتکین، فرحل فی عساکره التی لا تحدّ کثره، و نزل کفرطاب فسلّمت إلیه یوم الجمعه ثالث شهر ربیع الآخر، و سلّمها إلی صمصام الدین خیرخان بن قراجا، و کان قد

وصل إليه من حمص و التقاه بتلّ السلطان.

و سار إلى عزاز و قاتلها، و نقبت قلعتها فقصدهم الفرنج، فالتقوا سادس عشر ربيع الآخر، و كسر البرسقى كسر عظيمه، و استشهد جماعه من المسلمين من السّوقه و العامه، و لم يقتل من الأمراء و المقدّمين أحد.

و وصل أق سنقر البرسقى سالما إلى حلب، و أقام على قنّسرين أياما، و تفرّقت العساكر إلى بلادهم، و وصل أمير حاجب صارم الدّين بابك بن طلماس، فولّاه البرسقى حلب و بلدها، و عزل عنها سوتكين واليا كان ولّاه.

و وقعت الهدنه بين البرسقىّ و الفرنج على أن يناصفهم فى جبل السّماق و غيره مما كان بأيدى الفرنج، و سار البرسقىّ إلى الموصل فلم يزل الفرنج يعلّلون الشحن و المقطعين بالمحال فى مغلّ ما وقعت الهدنه عليه إلى العشرين من شعبان من السّنه.

و سار بغدوين إلى بيت المقدس و الرسول خلفه يعلمه بأن الفرنج لا يمكنون أحدا من رفع شى ء من الضّيافى؛ و أخذ بعض متصرفى المسلمين بعض الارتفاع من بعض الأماكن و الهدنه على حالها، فتجمّع الفرنج و نزلوا رفنيه.

و خرج شمس الخواص صاحبها طالبا أق سنقر البرسقىّ مستصرخا به، و سلّمها إليهم ولده المستخلف فيها فى آخر صفر من سنه عشرين و خمسمائه، و قصدوا بلد حمص فشعّثوه.

فجمع البرسقیّ العساکر و حشد، و سار نحو الشّام لحربهم حتی وصل الرّقه فی أواخر شهر ربیع الآخر، و سار إلی أن نزل بالنّقره علی النّاعوره فی الشهر المذکور، و أقام به أیّاما و الفرنج یراسلونه، فراسله جوسلین علی أن تکون الضّیاع ما بین عزاز و حلب مناصفه و أن یکون الحرب بینهما علی غیر ذلک، فاستقرّ هذا الأمر.

و کان بدر الدّوله سلیمان بن عبد الجبّار و شهریار بک ابن عمه، قد توجّها مع جماعه من الترکمان إلی المعرّه فأوقعوا بعسکر الفرنج، و قتل المسلمون منهم مائه و خمسین، و أسروا جفری بلنک، صاحب بسرفوث، من جبل بنی علیم، و أودع فی سجن حلب.

و کان قد سیّر البرسقیّ ولده عزّ الدین مسعودا منجدا لصاحب حمص، فاندفع الفرنج عنها فعاد عزّ الدین إلی والده، فترکه بحلب، و عزل بابکک عن ولایتها و ولّاها کافور الخادم إلی أن ینظر فیمن یولیه إیاها ولایه مستقله.

و رحل قسیم الدوله إلی الأثارب فی الثامن من جمادی الآخره من سنه عشرین، و سیّر بابک بن طلماس فی جماعه من العسکر و النقّابین إلی حصن الدیر المجدّد فوق سرمدا ففتحه سلما.

و قتل من الخیّاله بعد ذلک خمسون فارسا، و نهب العساکر الغلال و الفلاحین فی سائر البلد الذی وصلت الغارات إلیه، و رفعوا الغلّه جمیعها إلی حلب، و زحفوا إلی قلعه الأثارب، و خربوا الحوشین، و لم یتیسر فتحها.

و وصل بغدوین من القدس فی جموع الفرنج، و وصل إلیه جوسلین، و نزلوا عم[1] و أرتاح، و سیّروا إلی البرسقیّ: «ترحل عن هذا الموضع، و نتّفق علی ما کنّا علیه فی العام الخالی، و نعید رفنیه علیک»، فتجنّب الحرب، و خشی أن یتم علی المسلمین ما تمّ علی عزاز فصالحهم إلی أن فرّج الخناق عن الأثارب، و خرج صاحبها بماله و رجاله.

فغدر الفرنج و قالوا: «ما نصالح إلّا علی أن تکون الأماکن التی ناصفنا فیها فی العام الماضی لنا دون المسلمین». فامتنع من ذلک و أقام علی حلب أیاما و الرسل تتردد بینهم، فلما لم تتفق حال عاد أق سنقر، و نزل قنسرین، و رحل إلی سرمین، و امتدت العساکر إلی الفوعه و دانیث.

و نزل الفرنج علی حوش معرّه مصرین، فأقاموا کذلک إلی نصف رجب، و نفدت أزواد الفرنج، فعادوا إلی بلادهم، ثم عاد البرسقی و فی صحبته أتابک طغتکین، و کان وصل الیه و هو علی قنسرین فدخلوا من العسکر و نزلوا باب حلب.

و مرض أتابک فعملت له المحفّات، و أوصی إلی البرسقی، و توجه إلی دمشق، و سلّم البرسقی حلب و تدبیرها إلی ولده عزّ الدین مسعود، فدخل حلب، و أجمل السیره و تحلّی بفعل الخیر.

و سار أبوه إلی الموصل، فدخلها فی ذی القعده سنه عشرین

۱- عمّ: قریه غناء ذات عیون جاریه و أشجار متدانیه بین حلب و أنطاکیه- معجم البلدان.

و خمسمائه، و قصد الجامع بها ليصلّى فيه يوم الجمعه تاسع ذى القعده، و قصد المنبر، فلما قرب منه وثب عليه ثمانيه نفر فى زىّ الزّهاد، فاخترطوا خناجر و قصدوه و عليه درع من الحديد، و حوله جمع عظيم و هو متحفظ منهم، فسبقوا أصحابه إليه، فضربوه حتى أثخنوه و حمل جريحا فمات من يومه.

و قتل من كان وثب عليه من الباطنيّه غير شاب واحد كان من كفرناصح(۱)- ضيعه من عمل عزاز- فإنّه سلم، و كان له أم عجوز فلما سمعت بقتل البرسقى و قتل من وثب عليه و كانت قد علمت أنّ ابنها معهم فرحت و اكتحلت و جلست مسروره فوصلها ابنها بعد أيام سالما فأحزنها ذلك، و جزّت شعرها و سوّدت وجهها.

و قيل: إنّ البرسقى قتل بيده منهم ثلاثه، و كان البرسقى- رحمه اللّه- قد رأى تلك الليله فى منامه عدّه من الكلاب ثاروا به فقتل بعضها، و نال منه الباقون أذى شديدا، فقصّ رؤياه على أصحابه، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدّه أيام، فقال: «لا أترك الجمعه لشى ء أبدا»، و كان من عادته أن يحضر الجمعه مع العامه- رحمه اللّه- و كان وزير البرسقىّ المؤيد بن عبد الخالق، و كان قدم معه حلب حين قدمها.

و ملك عزّ الدين مسعود حلب عند ورود الخبر عليه بقتل أبيه فى سنه

۱- ما تزال كفر ناصح تحمل الاسم نفسه و هى فى منطقه جبل سمعان- محافظه حلب و تبعد عن حلب مسافه ۳۳ كم. انظر بغيه الطلب ۱۹۶۸- ۱۹۷۰ حيث المزيد من التفاصيل.

عشرين، و استوزر المؤيد وزير أبيه و ولّى فيها من قبله الأمير تومان.

و سار من حلب فى سنه إحدى و عشرين و خمسمائه إلى السلطان محمود و هو ببغداد، فسأله أن ينعم عليه ببلاد أبيه، فكتب له منشورا بـذلك، فوصل إلى الموصل و ملكها، ثم نزل إلى الرّحبه قاصـدا إلى الشام؛ و كان يظن أنّ قاتل أبيه قوم من أهل حماه، فأضمر للشّام و أهله شرّا عظيما.

و رجع عما كـان عليه من الأفعال المحموده و الإقبال على مجاهـده الفرنـج، و بلغ طغتكين عنه أنّه يقصـده، فتأهّب له فلمّا نزل بظاهر الرّحبه امتنع واليها من تسليمها، فحاصرها أيّاما فسلمها الوالى إليه، و نزل فوجده قد مات فجأه، و قيل: سقى سما فمات.

و ندم الوالى على تسـليم الرّحبه، و كان قد وصـلت قطعه من العسكر لتقويه حلب فمنعهم تومان من الدّخول إليها، فوقع الشرّ بينه و بين رئيس حلب فضائل بن بديع، و داخلهم إلى حلب.

فوصـل إلى حلب ختلغ أبه(۱) السّـلطانىّ غلام السّـلطان محمود، و معه توقيع مسـعود بن البرسـقى بحلب، كتبه قبـل وصوله إلى الرّحبه فلم يقبله تومان والى حلب فعاد ختلغ أبه إلى الرّحبه،- و قد جرى فيها ما ذكرناه من موت مسعود-.

فعاد ختلغ أبه على فوره إلى حلب فتسلّمها من يد تومان، آخر جمادى

۱- له ترجمه مفيده فى بغيه الطلب ص ۳۲۱۶- ۳۲۱۹.

الآخره، و صعد إلى قلعتها بطالع اختاره له المنجّمون، فأخذه الطّمع فى أموال النّاس، و صادر جماعه من أهل حلب، و اتّهمهم بودائع المجنّ الفوعى، رئيس حلب المقتول فى أيّام رضوان.

و قبض على شرف الدّين أبى طالب بن العجمى و عمّه أبى عبد اللّه، و اعتقلهما بحلب، و ثقب كعاب أبى طالب و صادره، فعاد فعله القبيح عليه بالبوار، و ضلّ رأى منجّمه فى ذلك الاختيار.

و قام أهل حلب عليه فحصروه، و قدّموا عليهم بدر الدّوله سليمان بن عبد الجبّار، و نادى أهل حلب بشعار بدر الدّوله، و ساعده على ذلك رئيس حلب فضائل بن صاعد بن بديع، و قبض على أصحاب ختلغ أبه، و ذلك فى الثانى من شوّال.

و قصد حلب فى تلك الحال ملك أنطاكيه و جوسلين فصانعوه على مال حتّى رحل(۱)؛ و ضايقوا القلعه و أحرقوا القصر، و دخل إليهم إلى المدينه الملك ابراهيم بن رضوان؛ و وصل اليهم حسّان صاحب منبج، و صاحب بزاعا؛ و دام الحصار إلى النّصف من ذى الحجّه.

و كان أتابك عماد الدّين زنكى بن قسيم الدّوله أق سنقر قد ملك الموصل بتواقيع السّلطان محمود، فسيّر إليه شهاب الدّين مالك بن سالم صاحب قلعه جعبر، و أعلمه بأحوال حلب و حصارها؛ فسيّر أتابك إليها

۱- انظر بغيه الطلب ص ۳۲۱۸.

عسكرا مع الأمير سنقر دراز و الأمير الحاجب صلاح الدّين حسن(۱).

و دخل الأمير صلاح الدّين فأصلح الحال، و وفّق بينهما على أن استدعيا أتابك زنكى من الموصل، فتوجّه بالجيوش إلى حلب، و قيل: إنّ بدر الدّوله و ختلغ سارا إليه.

۱- كذا بالأصل و هذه الروايه مشوشه صوابها ما رواه ابن العديم نفسه فى بغيه الطلب ص ۳۲۱۸- ۳۲۱۹:« نصف ذى الحجه وصل الأمير سنقر دراز و الأمير حسن قراقش و جماعه أمراء فى عسكر قوى إلى باب حلب و اتفق الأمر على يسير بدر الدوله و خطلبا إلى باب الموصل إلى المولى الاصفهسلار الملك عماد الدين قسيم الدوله زنكى بن قسيم الدوله آق سنقر إلى الموصل، فلمن ولى عاد إلى منصبه، و أقام بحلب الأمير حسن قراقش مع الأمير الحاجب صلاح الدين العمادى، فوصل إلى حلب، و أطلع إلى القلعه واليا من قبله، و رتب الأمور».

المجلد ۲

اشاره

ص: ٢٠٢

[عصر الدوله الأتابكيه]

[عماد الدين زنكى]

[عصر الدوله الأتابكيه](۱)

و قيل: إنّ ختلغ أبه لم يزل بالقلعه حتى وصل أتابک فنزل إليه.

و صعد أتابک إلى القلعه، يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخره، من سنه اثنتين و عشرين و خمسمائه، و ارتاد موضعا ينقل أباه قسيم الدّوله إليه و يدفنه به، و كان مدفونا بالقبّه التى على جبل قرنبيا، فعرض عليه بدر الدّوله نقل أبيه إلى المدرسه التى أنشأها بالزّجّاجين.

و قيل: إنّ أبا طالب بن العجمى طلب منه ذلک، فنقله و رفعه فى اللّيل من سور حلب، و دفنه فى البيت الشّمالى من المدرسه(۲)، و اتّخذه تربه لمن يموت من أولاده و وقف على المقرئين على تربه والده القريه المعروفه بشامر(۳).

۱- أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

۲- انظر الآثار الاسلاميه ص ۹۰- ۹۱.

۳- تبعد شامر عن مدينه حلب مسافه ۱۲ کم و هى من قرى منطقه جبل سمعان.

و أما الملک ابراهیم بن رضوان فإنّه هرب منه إلی نصیبین، و کانت فی أقطاعه إلی أن مات.

و أما ختلغ أبه فانه سلّمه إلی فضائل بن بدیع فکحله(۱) بداره، ثم قتله أتابک بعد ذلک.

و قیل: إنّ بدر الدّوله هرب منه عند ذلک؛ و هرب فضائل بن بدیع إلی قلعه ابن مالک خوفا من أتابک.

و ولّی أتابک رئاسه حلب الرئیس صفیّ الدّین أبا الحسن علی بن عبد الرّزّاق العجلانی البالسیّ، فسلک أجمل طریقه مع النّاس.

و خرج أتابک من حلب، و سار حتّی نزل أرض حماه، فوصله صمصام الدّین خیر خان بن قراجا، و تأكّدت بینهما مودّه لم تحمد عاقبتها- فیما نذکره بعد- و کذلک وصله سونج ابن تاج الملوک.

ثم سار أتابک(۲) بعد ذلک، فوطی ء بساط السّلطان، فی سنه ثلاث و عشرین و خمسمائه؛ و عاد بالتّواقیع السلطانیّه بملک الغرب کله، و دخل الموصل، ثم فتح قلعه السّنّ(۳)، و توّجه إلی حلب، و رعی عسکره زرع الرّها.

و عبر أتابک الفرات إلی حلب بتوقیع السّلطان محمود، و قد کان السلطان آثر أن تکون البلاد لدبیس، فقبّح المسترشد ذلک، و کاتب

۱- التکحیل هنا: امرار میل محمی علی الجفنین حتی یلتصقا.

۲- لزنکی ترجمه جیده فی بغیه الطلب ص ۳۸۴۵- ۳۸۵۷.

۳- السن مدینه علی دجله فوق تکریت عند مصب الزاب الأسفل. معجم البلدان.

السّلطان و قال له فيما قال: إنّ هذا أعان الفرنج على المسلمين و كثر سواد الكفار؛ فبطل هذا التدبير.

و استقرّ ملك أتابك بالموصل، و الجزيره، و الرّحبه، و حلب، و التوقيع له بجميع البلاد الشّاميّه و غيرها.

و تزوّج أتابك خاتون بنت الملك رضوان، و بنى بها فى دير الزّبيب(۱)؛ و كانت معه إلى أن فتح الخزانه بحلب، و اعتبر ما فيها، فرأى الكبر(۲) الّذى كان على أبيه أقسنقر، حين قتله تتش جدّها، و هو ملوّث بالدّم، فهجرها من ذلك اليوم.

و قيل: إنّه هدم المشهد الّذى على قبر رضوان، عند ذلك.

و دام أتابك مهاجرا لها إلى أن دخلت على القاضى أبى غانم قاضى حلب؛ و شكت حالها، فصعد إليه، و كان جبارا إلّا أنه ينقاد إلى الحقّ، و إذا خوّف باللّه خاف، فخرج ليركب، فلما ركب ذكر له القاضى ما ذكرته خاتون، فساق دابّته أتابك، و لم يردّ عليه جوابا، فجذب القاضى أبو غانم بلجام دابته، فوقفت، و قال له: «يا مولانا، هذا الشّرع لا ينبغى العدول عنه»، فقال له أتابك: «اشهد علىّ أنّها طالق»، فأرسل اللجام و قال: «أمّا السّاعه فنعم!».

۱- خارج مدينه حلب. بغيه الطلب ص ۳۸۵۲.

۲- الكبر: قباء محشو يتخذ للحرب. المعرب للجواليقى ص ۲۵۲. الحاشيه ۲.

و اسـتوحش الأمير سوار بن أيتكين من تاج الملوك بورى صاحب دمشق، و كان فى خدمته، فورد إلى حلب إلى خدمه أتابک، فى سـنه أربع و عشرين، فأكرمه و شرّفه، و خلع عليه، و أجرى له الإقطاعات الكثيره، و أعطاه ولايه حلب و أعمالها، و اعتمد عليه فى قتال الفرنج، و كان له بصـيره بالحرب و تدبير الأمور؛ و له وقعات كثيره مع الفرنج و مواقف مشـهوره أبان فيها عن شجاعه و إقدام، و صار له بسببها الهيبه فى قلوب الكفّار الأغتام.

و عزم أتابـک فى السّـنه على الجهـاد، و كتب إلى تاج الملوک بورى بن طغتكين صاحب دمشق، يلتمس منه المساعـده، فأجابه إلى ذلک و تحالفا على الصّفاء.

و كتب تاج الملوک إلى ولده بهاء الدين سونج بحماه، يأمره بالخروج بعسكره، و جهّز إليه من دمشق خمسمائه فارس، و جماعه من الأمراء مقدّمهم شـمس الخواص؛ فخرجوا حتّى وصـلوا إلى مخيّم أتابک على حلب، فأكرمهم و تلقّاهم، و أقاموا عنده ثلاثا، ثم أظهروا الغـاره على عزاز، و ركبوا و عطفوا على سونـج، و غـدر به و بأصـحابه، و نهب خيـامهم و أثقالهم و كراعهم، و هرب بعضهم، و قبض على سونج و الباقين، و حملهم إلى حلب، و اعتقلهم فيها.

و سـار من يومه إلى حمـاه فأخـذها يوم السّـبت ثـامن شوال، و أقام بها أياما، و طلبها خير خان بن قراجا صاحب حمص، و بـذل عليها مالا، فسلّمها إليه بكره الجمعه رابع عشر شوال، و ضربت بوقاته عليها، و خطب

له الخطيب على المنبر، فلمّا كان وقت العصر من ذلك اليوم قبض عليه و نهب خيامه و جميع ما فيها.

و سار فنزل حمص، فقاتلها أربعين يوما لم يظفر فيها بطائل غير الربض، و كان يربط خير خان على غراير التّبن، و يعاقبه و يعـذّبه أنواع العذاب، و انتقم اللّه منه ببعض ظلمه فى الدّنيا، و هو كان يحرّض أتابك على الغدر بسونج، فكأفأه اللّه(۱).

و هجم الشّتاء فعاد أتابك إلى حلب فى ذى الحجّه.

و ملكت أنطاكيه زوجه البيمند بنت بغدوين، و حالفت جماعه من الفرنج على قتال أبيها، و وقع بين الفرنج شرّ(۲).

و هجم المسـلمون ربض الأثارب، و ربض معرّه مصرين؛ فوصل بغدوين من البيت المقدّس، و أغار على أنطاكيه و أخذ قوما من أصحاب ابنته، فقطع أيديهم و أرجلهم.

و فتح قوم من السر جنديه(۳) باب أنطاكيه، فدخلها فى سنه خمس و عشرين، فطرحت ابنته نفسها عليه، فصفح عن ذنبها، و أخذ أنطاكيه، و وهبها جبله و اللّاذقيه، و عاد إلى القدس.

۱- انظر تاريخ ابن القلانسى ص ۳۶۱- ۳۶۲(حوادث سنه ۵۲۴ ه).

۲- انظر وليم الصورى ص ۶۵۸- ۶۶۰.

۳- غالبا ما كان السرجنديه من المشاه ذوى التسليح الثقيل و ممن كانت الكنيسه تتولى الإنفاق عليهم.

و توجّه أتابك إلى الموصل فى سنه خمس و عشرين و خمسمائه، و استصحب معه سونج بن تاج الملوك، و بعض المقدّمين، من عسكر دمشق؛ و ترك الباقين بحلب؛ و تردّدت المراسلات فى إطلاقهم، فلم يفعل؛ و التمس عنهم خمسين ألف دينار أجاب تاج الملوك إلى تحصيلها و حملها.

و وقع فى هذه السّنه وقعه بين جوسلين و سوار، بناحيه حلب الشماليّه، فكانت الغلبه لجوسلين؛ و قتل من المسلمين جماعه، و خرج سوار بعد ذلك فهجم ربض الأثارب و نهبه.

[دبيس بن صدقه عند زنكى]

و وصل دبيس فى هذه السنه منهزما من المسترشد، و كان قد كسره عسكر المسترشد فى هذه السّنه، فانهزم و خفى خبره عن كلّ أحد، فظهر بعد مدّه أنّه وصل إلى قلعه جعبر، و أودع ابن السلطان عند مالك صاحبها، و سار إلى جوسلين، و استند إلى الفرنج فلم ير ما يعجبه.

و كاتب تمرتاش ثم خاف من غدره، و أن يفادى به خير خان، فسار إلى بلد دمشق، فنزل ضالا على مكتوم بن حسّان.

و قيل: كان سائرا إلى صاحبه صرخد ليتزوّجها، فضلّ فى الطريق، و لم يكن معه دليل عارف بالمناهل.

و قيل: كان قاصدا حلّه مرى، فهلك أكثر أصحابه.

و حصل فى حلّه حسان كالمنقطع الوحيد فى نفر يسير من أصحابه،

فأنهض تاج الدّوله بوری العسکر إلیه حینما سمع به، فأسره، و وصلوا به إلی دمشق، لستّ خلون من شعبان سنه خمس و عشرین(۱)؛ و أنزله فی دار بقلعه دمشق، و أکرمه و أضافه، و حمل إلیه من الملبوس و المفروش ما یلیق به، و اعتقله اعتقال کرامه. و کاتب المسترشد فی أمره، فردّ علیه الجواب بالاحتیاط علیه إلی أن یصل من یحمله إلی بغداد.

فلمّا عرف أتابک زنکی ذلک، أنفذ رسوله إلی تاج الملوک یطلب تسلیم دبیس إلیه، و أن یطلق له الخمسین ألف دینار المقرّره عن ولده سونج و بقیّه العسکر، فأجاب إلی ذلک، و تقرّر الشّرط علیه.

و وصل أتابک زنکی إلی قریب قارا بسونج و المعتقلین؛ و توجّه أصحاب تاج الملوک بدبیس فتسلّمه زنکی، و حمله فی محفّه مقیّدا؛ و سلّم سونج بن تاج الملوک و جماعته إلی أصحابه.

و کان یظنّ دبیس أنّ أتابک زنکی یهلکه، فلمّا وصل إلی حلب أطلقه و أکرمه، و أنزله بحلب فی دار لاجین، و أعطاه مائه ألف دینار، و خلع علیه خلعا فاخره(۲).

و کان عرض لدبیس فی طریقه و هو مکبّل بالحدید شاعر امتدحه بأبیات، و لم یکن معه ما یجیزه، فکتب له فی رقعه هذین البیتین، و دفعهما

۱- مری بن ربیعه، و حسان بن مکتوم. انظر بغیه الطلب ص ۳۴۸۱- ۳۴۸۲. تاریخ ابن القلانسی ص ۳۶۶.

۲- انظر بغیه الطلب ص ۳۴۸۲.

إليه:

الجود فعلی و لکن ليس لی مال و کيف يصنع من بالفرض يحتال

فهاک خطّی إلی أيّام ميسرتی دينا علیّ فلی فی الغيب آمال

فجاءه الشّاعر بحلب، و قد خرج مسيّرا فی ميدان الحصا، فقال له:

«يا أمير لی عليک دين!» فقال: «و اللّه ما أعرف لأحد علیّ دينا»

فقال: «بلی، و شاهده منک»، و أخرج له خطّه؛ فلمّا وقف عليه قال: «إی و اللّه دين و أیّ دين!» و أمره أن يأتی إليه إذا نزل، فأتاه فأعطاه ألف دينار و الخلعه التی خلعها أتابک زنکی عليه، و کانت جبّه أطلس و عمامه شرب.

و حصل دبيس بعد ذلک عند السّلطان مسعود، فی سنه تسع و عشرين، حتی کسر مسعود المسترشد و أسره علی باب مراغه(۱).

و سيّر السّلطان إلی أتابک زنکی يستدعيه، فکتب إلی أتابک يعلمه و يحذّره من المجیء فامتنع، و کان السلطان قد سيّر دبيسا إلی الحلّه، و اطّلع بعد ذلک علی فعل دبيس، فردّه، و حذّره النّاس فلم يفعل فوصل، فلما وصل إلی الخيمه قام السّلطان عن السّرير، و قال: «هذا جزاء من يخون مولاه». و ضرب رأسه فأطاره، فبلغ ذلک زنکی فقال: «فديناه بالمال و فدانا بالرّوح».

۱- مراغه بلده مشهوره عظيمه و هی أعظم بلاد أذربيجان و أشهرها. معجم البلدان.

و وصل سدید الدّوله بن الأنباریّ کاتب الإنشاء للمسترشد إلی تاج الملوک، فی أواخر ذی القعده لتسلیم دبیس إلی من یحمله إلی بغداد، فوجد الأمر قد فات، فعاد فصادفته خیل أتابک زنکی بناحیه الرّحبه فأوقعوا به، و قبضوه، و نهبوا ما کان معه حتّی نهبوا القافله الّتی کانت معه، و قتل بعض غلمانه، و لقی شدّه عظیمه من الاعتقال إلی أن أطلق، و عاد إلی بغداد.

و فی سنه ست و عشرین و خمسمائه، فتح الملک کلیام رام حمدان(۱)، و سار أتابک و دبیس إلی بغداد، مباینین للمسترشد، و عزما علی أن یهجما بغداد، فبذل لهما الحلّه، و أن یدخل نائبهما بغداد، فأبیا فخرج إلیهما المسترشد بنفسه، و التقوا فی شعبان علی عقرقوف(۲) فکسرهما، و عاد أتابک زنکی إلی الموصل، و سار دبیس إلی السّلطان سنجر.

و وقع بین الفرنج، فی هذه السنه، فتن، و قتل بعضهم بعضا، و قتل صاحب زردنا، و نزل الترکمان علی بلد المعرّه و کفرطاب، و قسموا المغلّات، فاجتمع الفرنج و هزموهم عن البلد، و فتحوا حصن قبّه ابن ملاعب، و أسروا منه بنت سالم بن مالک و حریم ابن ملاعب، و خرّبوا الموضع.

و أوقع الأمیر سیف الدّین سوار بفرنج تلّ باشر، و قتل منهم خلقا کثیرا، و وثب قوم من أهل الجبل علی حصن القدموس، فأخذوه و سلّموه

۱- رام حمدان من قری ناحیه معرتمصرین، محافظه ادلب، و تبعد عن ادلب مسافه ۱۵ کم.
۲- عقرقوف قریه من نواحی دجیل، بینها و بین بغداد أربعه فراسخ.

إلى سيف الملك بن عمرون، فاشتراه أبو الفتح الدّاعى الباطنىّ منه.

و وصل صاحب القدس إلى أنطاكيه، و جمع و خرج إلى نواز، و سار إلى قنّسرين فى جموع الفرنج، و التقوا بعسكر حلب و سوار، و فى سنه ثمان و عشرين فى ربيع الأوّل، فكسروا المسلمين، و قتلوا أبا القاسم التركمانى، و كان شجاعا، و قتلوا القاضى أبا يعلى بن الخشّاب، و غيرهما.

و تحوّل الفرنج إلى النّقره، فصالحهم سوار و العسكر، فأوقعوا بسريّه منهم، فقتلوهم، و عادوا برؤوسهم و أسرى منهم، فسرّ النّاس بذلك بعد مساءتهم بالأمس.

و أغارت خيل الرّها من الفرنج ببلد الشّمال، و هى عابره إلى عساكر الفرنج، فأوقع بهم سوار و حسّان صاحب منبج و قتلوهم بأسرهم و حملوا الرؤوس و الأسرى إلى حلب(۱).

و فتح شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك حماه من يد نائب صلاح الدّين(۲)، و كان قد عزم على ذلك، فتحصّن و اليها، فانتهى ذلك إلى شمس الملوك، فخرج فى العشر الأواخر من شهر رمضان، و عزم على قصدها و النّاس بها غافلون.

و هجم يوم العيد على من فيها و زحف فى الحال فتحصّنوا منه، فعاد فى

۱- انظر ابن القلانسى ص ۳۷۴(حوادث سنه ۵۲۷ ه) مع الحواشى.

۲- صلاح الدين اليغيسيانى، من أكبر شخصيات دوله زنكى.

ذلک الیوم، و قد نکا أصحابه فی أهلها، ثمّ زحف علیها زحفا قویا، فانهزموا بین یدیه، و هجم البلد فطلبوا الأمان فأمّنهم، و حلّفه و الی القلعه علی أشیاء اقترحها، و أجابه إلیها و سلمها إلیه، فسلّمها إلی شمس الخواصّ.

و حصر المسترشد الموصل، و ثارت الحروب بین السّلاطین، فبلغ المسترشد ما أزعجه، فعاد عنها، فوصل حسام الدّین تمرتاش إلی خدمه أتابک زنکی، فسار معه إلی لقاء داود بن سکمان بن أرتق، فکسره أتابک بباب آمد، و انهزم داود و أسر ولده، و قتل جماعه من أصحابه، و ذلک فی یوم الجمعه سلخ جمادی الآخره.

و نزل علی آمد و حصرها، و قطع شجرها، فصانعه صاحبها بمال، فرحل عنها إلی قلعه الصّور ففتحها، و فتح البارعیّه، و جبل جور، و ذا القرنین، و وهب ذلک کلّه لحسام الدّین تمرتاش، و فتح طنزه فاستبقاها لنفسه(۱).

و تزوّج أتابک صاحبه خلاط ابنه سقمان القطبی.

و استولی أتابک علی العقر(۲) و شوش(۳) و غیر ذلک من قلاع الأکراد؛

۱- أتی ابن الأزرق الفارقی علی ذکر تفاصیل هذه الحوادث، انظر ص ۵۲۵۰ مع التعریف بالأماکن الجغرافیه.
۲- عقر الحمیدیه قلعه حصینه کانت للأکراد ببلاد الموصل- الأعلاق الخطیره- قسم الجزیره- ص ۸۱۱.
۳- عند ابن الأزرق« تل شیح» و وافقت روایه ابن العدیم هنا روایه ابن الأثیر ج ۸ ص ۳۴۳.

و أغار فی هذه السّنه سوار علی الجزر و حصن زردنا، و أوقع بالفرنج علی حارم، و شحن علی بلد المعرّتین، و عاد بالغنائم إلی حلب.

و استوزر زنکی فی هذه السّنه ضیاء الدین أبا سعد الکفرتوثی، و کان مشهورا بحسن الطّریقه و الکفایه و حبّ الخیر و المذهب الحمید، و قدم معه إلی حلب، و عزم علی قصد دمشق و مضایقتها.

و ذکر العظیمیّ فی تاریخه: «أنّه حصرها فی هذه السّنه مدّه(۱)، ثمّ رحل إلی حلب، ثمّ شرّق إلی الموصل».

و الصحیح: أنّه حصرها فی سنه تسع و عشرین و خمسمائه.

[مقتل اسماعیل بن بوری]

و ذلک أنّ صاحبها شمس الملوک أبا الفتح اسماعیل بن بوری، انهمک فی المعاصی و القبائح، و بالغ فی الظّلم، و أعرض عن مصالح الدّین و النظر فی أمور المسلمین، بعد اهتمامه أوّلا بذلک.

و استخدم بین یدیه رجلا کردیا- یعرف ببدران الکافر- جاءه من بلد حمص، و کان قلیل الدّین متنوّعا فی أبواب الظلم، لیس فی قلبه لأحد رحمه، فسلّطه علی ظلم المسلمین و مصادره المتصرّفین بأنواع قبیحه من الظّلم، و ظهر منه بخل عظیم و سفّت نفسه إلی تناول الدنایا و غیر ذلک من الأفعال الذّمیمه.

۱- أی سنه ۵۲۸ ه، انظر تاریخ حلب للعظیمی- ط. دمشق ۱۹۸۵ ص ۳۸۶، و عند ابن القلانسی ص ۳۹۰- ۳۹۲ بین حوادث السنه التالیه ۵۲۹ ه.

و عزم على مصادره كتّابه و حجّابه و أمرائه، فخاف منه أصحابه، و استشعروا منه، و وقعت الوحشه بينهم.

و عرف عزم أتابك زنكى على قصد دمشق، و أنه متى وصلها سلّمت إليه، فكاتب أتابك زنكى و حثّه على سرعه الوصول إليها ليسلّمها إليه طوعا، و شرط عليه أن يمكّنه من الانتقام من كلّ من يكرهه من المقدّمين و الأمراء و الأعيان، و كرّر المكاتبه إليه فى ذلك، و قال: «إن أهملت هذا الأمرر استدعيت الفرنج و سلّمت دمشق إليهم، و كان إثم المسلمين فى عنقك».

و شرع فى نقل أمواله و أحواله إلى صرخد: فظهر هذا الأمر لأصحابه، فأشفقوا من الهلاك و أعلموا والدته زمرّد خاتون بذلك، فقلقت له، و حسّنوا لها قتله، و تمليك أخيه شهاب الدّين محمود؛ فرجح ذلك فى نظرها، و عزمت عليه، فانتظرت وقت خلوته من غلمانه و سلاحيّته، و أدخلت عليه من أصحابها من قتله.

و أخرجته فألقى فى ناحيه من الدّار ليشاهده غلمانه و أصحابه فسرّوا بذلك، و ذلك فى يوم الأربعاء الرّابع عشر من شهر ربيع الآخره، سنه تسع و عشرين و خمسمائه.

و قيل: إنّه اتّهم يوسف بن فيروز حاجب أبيه بوالدته، فهرب منه إلى تدمر، فأراد قتل أمّه، فبلغها الخبر فقتلته خوفا منه، و أجلست والدته

مکانه أخاه شهاب الدّین محمود بن بوری[۱]، و حلف النّاس له. و توجّه أتابک زنکی من الموصل مجدّا لیتسلّم دمشق من شمس الملوک، فوصل إلی الرّقه و قال: «أشتهی أن أدخل الحمام». فأحضر صلاح الدّین مسیّب بن مالک صاحب الرّقه، و قال له: «أتابک یشتهی دخول الحمّام، و هذه خمسمائه دینار تسلّمها و اعمل له بها دعوه» فلم یشکّ فی ذلک، و دخلوها، فلما حصلوا بها أخذوها منه، و ذلک فی العشرین من شهر ربیع الآخر.

و بلغه ما جری بدمشق، فلم یقطع طمعه فیها، و سار فنزل العبیدیه[۲]، و راسل أهل دمشق، فلم یجیبوه إلی مطلوبه، و ردّوا علیه جوابا خشنا، یتضمّن أنّ الکلمه قد اتّفقت علی حفظ الدّوله و الذبّ عنها، فلم یحفل بذلک.

و سار إلی حماه فخرج إلیه شمس الخواص بعد أن توثّق منه بالأیمان، و رحل إلی دمشق، و سار إلیها، فنزل علی دمشق فی عسکر عظیم، و زحف علیها مرارا متعدّده، فلم یظفر فیها بطائل، و اشتدّ الغلاء فی العسکر، و عدموا القوت، و قفز جماعه من العسکر إلی دمشق، و وقعت المراسله فی حدیث الصلح، و کان قد وصل مع أتابک بعض أولاد السّلطان فطلب أن یخرج شهاب الدّین محمود لوطء بساط ولد السّلطان، فلم یفعل.

و اتّفق الأمر علی خروج أخیه تاج الملوک بهرام شاه، و اتّفق عند ذلک

۱- لمزید من التفاصیل انظر القلانسی ص ۳۸۷- ۳۹۰.

۲- فی ابن القلانسی ص ۳۹۱:« وخیم بأرض عذراء إلی أرض القصیر».

وصول بشر بن کریم بن بشر رسولا ـ من المسترشد إلی زنکی بخلع هیّئت له؛ و تقدّم إلیه بالرّحیل عن دمشق و الوصول إلی العراق، لیولّیه أمره و تدبیره، و أن یخطب للسّلطان ألب أرسلان داود بن محمود المقیم بالموصل- و کان قد وصل هاربا من بین یدی عمّه السّلطان مسعود- فأکرمه أتابک.

فدخل الرّسول و بهاء الدّین بن الشهرزوریّ إلی دمشق، و قرّرا هذه القاعده و أخمدا الفتنه، و أکّدا الأیمان؛ و خطب یوم الجمعه الثّامن و العشرین من جمادی الأولی بجامع دمشق بحضورهما، علی القاعده الّتی وصل فیها الرّسول(۱).

و عاد أتابک من دمشق، فلمّا وصل حماه قبض علی شمس الخواص صاحبها، و أنکر علیه أمرا ظهر منه، و شکا أهلها من نوّابه فتسلّمها منه، و أطلقه فهرب، وردّ حماه إلی صلاح الدّین و رحل من حماه.

و سار إلی بلد حلب، فنزل علی الأثارب، ففتحها أوّل رجب، ثمّ فتح زردنا، ثم تلّ أعذی، ثمّ فتح معرّه النّعمان، و منّ علی أهلها بأملاکهم، ثمّ فتح کفر طاب و نزل علی شیزر فخرج إلیه أبو المغیث بن منقذ نائبا عن أبیه، ثمّ نزل بارین(۲) و أظهر أنّه یحاصرها، ثمّ سار، و أهل حمص غارون، فشنّ علیهم الغاره، و استاق کلّ ما کان فی بلدها و نهبهم.

۱- لمزید من التفاصیل انظر ابن القلانسی ص ۳۹۲.

۲- تعرف الآن باسم بعرین و هی من قری منطقه مصیاف فی محافظه حماه و تبعد عن حماه مسافه ۴۲ کم.

و وصل ابن الفنش الفرنجى من بيت المقـدس و خرج فى جموع الفرنـج، فنزل قنّسـرين، فسار إليهم أتابک فأحسن التّـدبير، و ما زال بالمسلمين حولهم حتى عادوا إلى بلادهم.

[استيلاء زنكى على حماه]

و سار زنكى إلى حمص فأحرق زرعها، و قاتلها فى العشر الأواخر من شوّال، ثمّ سار إلى الموصل فى ذى القعده من هذه السّنه.

[مسير زنكى إلى بغداد]

و سار منها فى المحرّم من سـنه ثلاثين و خمسمائه إلى بغداد، و معه داود بن محمود بن ملكشاه الواصل إليه إلى الموصل، فأنزله فى دار السّلطنه ببغداد، و أتابک فى الجانب الغربىّ، و الخليفه إذ ذاک الرّاشد بعد قتل المسترشد.

فوصل السّـلطان مسعود إلى بغداد فحصـرهم بها فوقع الوباء فى عسكره، فسار إلى أرض واسط ليعبر إلى الجانب الغربىّ، فاغتنم أتابک غيبته، و سار إلى الموصل، و سار داود إلى مراغه.

و بلغ الخبر السّلطان مسعود فعاد، فهرب الرّاشد، و لحق أتابک بالموصل. و دخل مسعود بغداد، فبايع محمد المقتفى، و خطب له ببغداد و أعمال السّـلطان، و بقيت الخطبه بالشّام و الموصل على حالها إلى أن اتّفق أتابک زنكى و السّلطان مسعود و اصطلحا، و خطب بالشام و الموصل للمقتفى و لمسـعود. و فارق الرّاشـد إذ ذاک زنكى، و سار عن الموصل إلى خراسان فى سـنه إحـدى و ثلاثين(۱).

۱- عاصر ابن الأزرق الفارقى هذه الأحداث و مواده على درجه عاليه من الأهميه، انظر الموسوعه الشاميه ص ۵۲۲۶- ۵۲۴۹.

و سار سیف الدّین سوار فی سنه ثلاثین و خمسمائه فی جمع من التركمان یبلغ ثلاثه آلاف إلى بلد اللّاذقیّه، و أغار على الفرنج على غرّه و قلّه احتراز، فعادوا و معهم ما یزید على سبعه آلاف أسیر، ما بین رجل و امرأه و صبی و صبیّه و مائه ألف رأس من البقر و الغنم و الخیل و الحمیر، و الّذی نهبوه- على ما ذكر- مائه قریه و امتلأت حلب من الأسارى و الدّواب، و استغنى المسلمون بما حصل لهم من الغنائم.

و وصل أتابک زنكی من الموصل إلى حلب، فی رابع و عشرین من شهر رمضان سنه إحدى و ثلاثین، و سیّر صلاح الدّین فی مقدمته، فنزل حمص، و سار أتابک إلى حماه، و عیّد عید الفطر فی الطّریق، و أخذ من حلب معه خمسمائه راجل لحصار حمص.

و رحل أتابک من حماه إلى حمص فی شوال و بها أنر(۱) من قبل صاحب دمشق، فحصرها مدّه.

و خرج الفرنج نجده لحمص و غیله لزنكی، فرحل عن حمص،

[استیلاء زنكی على بارین]

و لقیهم تحت قلعه بارین، فكسرتهم طلائع زنكی مع سوار، فأفنوا عامّتهم قتلا و أسرا، و قتل أكثر من ألفین من الفرنج، و نجا القلیل منهم، فدخل إلى بارین مع ملكهم كندیاجور(۲) صاحب القدس؛ و أقام الحصار على بارین

۱- المعلومات لدى ابن القلانسی أوسع ص ۳۹۷- ۳۹۸، و سیكون لمعین الدین أنر دور السیاده فی دمشق حتى وفاته فبعد وفاته بقلیل سقطت- كما سنرى- لنور الدین محمود بن زنكی. انظر تاریخ ابن القلانسی ص ۴۱۵.

۲- هو فولک أوف آنجو. انظر تاریخ ولیم الصوری ص ۶۸۶- ۶۸۹.

بعشر مجانيق ليلا و نهارا، ثمّ تقرّر الصلح فی العشر الأواخر من ذی القعده علی التّسليم بعد خراب القلعه.

و خلع علی الملک و أطلق، و خرج الفرنج منها، و تسلّمها زنکی، و عاد إلی حلب.

و استقرّ الصلح بين أتابک و صاحب دمشق، و تزوّج أتابک خاتون بنت جناح الدّوله حسين، علی يد الإمام برهان الدّين البلخی، و دخل عليها بحلب فی هذه السّنه.

[وصول ملک الروم إلی انطاکيه]

و وصل فی هذه السّنه ملک الروم كاليانی(۱) من القسطنطينيه فی جموعه، و وصل إلی أنطاكيه فخالفه الفرنج- لطفا من اللّه تعالی- و أقام إلی أن وصلته مراكبه البحريّه بالأثقال و الميره و المال، فاعتمد لاون بن دوبال(۲) صاحب الثّغور فی حقّه فتحا عظيما.

و تخوّف أهل حلب منه فشرعوا فی تحصينها و حفر خنادقها، فعاد إلی بلاد لاون فافتتحها جميعها، فدخل إليه لاون متطارحا، فقال: «أنت بين الفرنج و الأتراک لا يصلح لک المقام»، فسيّره إلی القسطنطينيه، و أقام فی عين زربه و أذنه و الثّغور، مدّه الشتاء.

و كان فی عوده عن أنطاكيه إلی ناحيه بغراس(۳) فی الثّانی و العشرين من

۱- هو يوحنا بن ألكسيوس كومنين. انظر تاريخ وليم الصوری ص ۶۸۴- ۶۸۶.

۲- ملک دوله أرمينيه فی كليكيه.

۳- وصف ابن العديم كل من عين زربه و المصيصه و بغراس و مدن الثغور الأخری فی كتابه بغيه الطلب ص ۱۵۱- ۱۷۲.

ذی الحجه من سنه إحدی و ثلاثین، أنفذ رسوله إلی زنکی، و ظفر سوار بسریّه وافره العدد من عسکره، فقتل و أسر، و دخل بهم إلی حلب.

و وصل الرّسول إلی زنکی، و هو متوجّه إلی القبله فردّه و معه هدیه إلی ملک الروم: فهود و بزاه و صقور، علی ید الحاجب حسن، فعاد إلیه و معه رسول منه و أخبره بأنّه یحاصر بلاد لاون، فسار إلی حماه، و رحل إلی حمص فقاتلها.

ثم سار فی نصف المحرّم من سنه اثنتین و ثلاثین فنزل بعلبک، و أخذ منها مالاً و سار إلی ناحیه البقاع فملک حصن المجدل(۱) من أیدی الدمشقیین، و دخل فی طاعته ابراهیم بن طرغت والی بانیاس.

و شتی أتابک زنکی بأرض دمشق، و ورد علیه رسول الخلیفه المقتفی و السلطان مسعود بالتّشریف، ثمّ رحل أتابک عن دمشق فی شهر ربیع الآخر، و عاد إلی حماه، ثمّ رحل عنها إلی حمص، فخیّم علیها، و جرّد من حلب رجالا لحصارها، و جمع علیها جموعا کثیره، و هجم المدینه، و کسر أهلها و نال منهم منالا عظیما.

و نقض الفرنج الهدنه الّتی کانت بینهم و بین زنکی علی حلب، و أظهروا العناد، و قبضوا علی التّجار بأنطاکیه و السّفار من أهل حلب، فی جمادی الأولی من السّنه، بعد إحسانه إلیهم و اصطناعه لمقدّمیهم، حین

۱- فی تقویم البلدان ص ۲۳۰. و بالقرب من عین الجرضیعه تعرف بالمجدل و هی علی الطریق الآخذ من بعلبک علی وادی التیم. هذا و تعنی کلمه مجدل: حصن.

أظفره اللّه بهم، و انضافوا إلى ملك الرّوم كاليانى.

و ظهر ملك الرّوم بغته من طريق مدينه البلاط، يوم الخميس الكبير من صومهم؛ و نزل يوم الأحد يوم عيد النّصارى، و هو الحادى و العشرون من شهر رجب، على حصن بزاعا.

و انتشرت الخيل بغته فلطف اللّه بالمسلمين، فرأوا رجلا من كافر ترك(۱) و معه جماعه منهم، قد تاهوا عن عسكر الروم، و أظهروا أنّهم مستأمنه و أنذروا من بحلب بالرّوم.

فتحزّر النّاس و تحفّظوا، و كاتبوا أتابك زنكى بذلك، فوصله الخبر و هو على حمص، فسيّر فى الحال الأمير سيف الدّين سوار و الرّجاله الحلبيين و خمسمائه فارس، فى أربعه من الأمراء الاصفهسلاريّه(۲) منهم زين الدّين على كوچك، فقويت قلوب أهل حلب بهم، و وصلوا فى سابع و عشرين من رجب.

و أمّا الرّوم فإنّهم حصروا حصن بزاعا، و قاتلوه سبعه أيّام، فضعفت قلوب المسلمين، و كان الحصن فى يد امرأه فسلّموه إلى الرّوم بالأمان، بعد أن توثّقوا منهم بالعهود و الأيمان، فغدروا بهم، و أسروا من بزاعا سته آلاف مسلم أو يزيدون؛ و أقام الملك بالوادى يدخّن على مغاير الباب عشره أيّام، فهلكوا بالدخان.

۱- استخدمت بيزنطه أعدادا كبيره من العناصر التركيه الوثنيه بمثابه مرتزقه فى جيوشها.

۲- القاده الكبار.

ثم رحل فنزل یوم الأربعاء الخامس من شعبان، بأرض الناعوره، ثمّ رحل یوم الخمیس سادس شعبان، و معه ریمند صاحب أنطاکیه و ابن جوسلین، فنزل علی حلب و نصب خیمته من قبلیّها علی نهر قویق، و أرض السعدی، و قاتل حلب یوم الثّلاثاء من ناحیه برج الغنم(۱) و خرج إلیهم أحداث حلب، فقاتلوهم و ظهروا علیهم، و قتل من الرّوم مقدّم کبیر و رجعوا إلی خیمهم خائبین.

و رحل یوم الأربعاء ثامن شعبان مقتبلا إلی صلدی(۲) فخاف من بقلعه الأثارب من الجند المسلمین، فهربوا منها یوم الخمیس تاسع شعبان، و طرحوا النّار فی خزائنهم.

و عرف الرّوم ذلک فخفّت منهم سرّیه و جماعه من الفرنج، و معهم سبی بزاعا و الوادی، فملکوا القلعه، و ألجأوا السّبی إلی خنادقها و أحواشها، فهرب جماعه منهم إلی حلب، و أعلموا الأمیر سیف الدّین سوار بن أیتکین بذلک، و أنّ الروم انعزلوا عنها.

فنهض إلیهم سوار فی لمّه من العسکر، فصابحهم و قد انتشروا بعد طلوع الشّمس، فوقع علیهم و استخلص السّبی جمیعه إلّا الیسیر منهم، و أرکب الضّعفاء منهم خلف الخیّاله حتّی أنّه أخذ بنفسه جماعه من الصّبیان، و أرکبهم بین یدیه و من خلفه، و وصل بهم إلی حلب، و لم یبق من السّبی إلّا

۱- کان هذا البرج من أشد أبراج سور حلب مناعه.

۲- قریه قریبه من حلب علی نهر قویق.

القلیل، و وصل بهم إلی حلب فی یوم السّبت الحادی عشر من شعبان، فسرّ أهل حلب سرورا عظیما.

و کان أتابک قد رحل من حمص إلی حماه ثم رحل إلی سلمیه، و رحل ملک الرّوم إلی بلد معرّه النّعمان، و رحل عنها یوم الاثنین ثالث عشر شعبان إلی جهه شیزر، و نزلوا کفر طاب و رموها بالمجانیق، فسلّمها أهلها فی نصف شعبان.

و هرب أهل الجسر(۱)، و ترکوه خالیا فوصله الرّوم، و جلسوا فیه و رحلوا عنه إلی شیزر، یوم الخمیس سادس عشر شعبان، فوصلوها فی مائه ألف راکب و مائه ألف راجل، و معهم من الکراع و السّلاح ما لا یحصیه إلّا اللّه، فنزلوا الرّابیه المشرفه علی بلده شیزر، و أقاموا یومهم و یوم الجمعه إلی آخر النّهار.

و رکبوا و هجموا البلد، فقاتلهم النّاس و جرح أبو المرهف نصر بن منقذ، و مات فی رمضان من جرحه ذلک.

[حصار الروم لشیزر]

ثمّ انهزم الرّوم، و خرجوا، و نزل صاحب أنطاکیه فی مسجد سمّون، و جوسلین فی المصّلی، و رکب الملک یوم السّبت، و طلع إلی الجبل المقابل لقلعه شیزر المعروف بجریجس، و نصب علی القلعه ثمانیه عشر منجنیقا و أربع لعب تمنع النّاس من الماء.

۱- جسر شیزر و کان علیه موقع حصین غیر بعید عن شیزر نفسها.

و دام القتال عشره أيام، و لقى أهل قلعه شيزر بلاء عظيما، ثمّ اقتصروا فى القتال على المجانيق، و أقاموا إلى يوم السّبت تاسع شهر رمضان.

و بلغهم أنّ قرا أرسلان بن داود بن سكمان بن أرتق عبر الفرات فى جموع عظيمه تزيد عن خمسين ألفا من التّركمان و غيرهم، فأحرقوا آلات الحصار، و رحلوا عن شيزر، و تركوا مجانيق عظاما رفعها أتابك إلى قلعه حلب بعد رحيلهم، و ساروا بعد أن هجموا ربض شيزر دفعات عده، و يخرجهم المسلمون منها(۱).

فوصل صلاح الدّين من حماه يوم السّبت تاسع الشّهر، و بلغه أنّ الفرنج هربوا من كفرطاب فسار إليها، و ملكها، و وصل أتابك يوم الأحد عاشر الشّهر، و سار إلى الجسر يوم الاثنين، فوجد الفرنج قد هربوا منه نصف اللّيل و نزل أهله من «أبى قبيس»(۲)، فمنعوهم.

و دخل الرّوم مضيق أفاميه إلى أنطاكيه، و طلبها من الفرنج فلم يعطوه إيّاها، فرحل عنها إلى بلاده، و سيّر أتابك خلفهم سرّيه من العسكر تتخطّفهم. هذا كلّه و أتابک لم يستحضر قرا أرسلان بن داود، و لم يجتمع به؛ بل بعث إليه يأمره بالعود إلى أبيه، و أنّه مستغن عنه و انحاز عنهم فنزل

۱- لمزيد من المعلومات انظر ابن القلانسى ص ۴۱۵- ۴۱۸. وليم الصورى ص ۶۹۵- ۶۹۷.

۲- ما تزال قلعه أبى قبيس قائمه، و تبعد عن مدينه حماه مسافه ۵۴ كم.

أرض حمص، و كتب إلى شهاب الدّين محمود بن بورى يطلبها.

[زواج زنكى من زمرد خاتون]

و تردّدت الرّسل بينهم على أن يسلّم إلى أتابک حمص، و يعوّض أنر و اليها بارين، و اللكمه(۱) و الحصن الشرقىّ، و أن يتزوّج أتابک أمه زمرّد خاتون بنت جاولى، و يتزوّج محمود ابنه أتابک؛ و يسلّم أتابک حمص، و يسلّم الدمشقيون المواضع المذكوره.

و سارت زمرّد خاتون من دارها إلى عسكر زنكى مع أصحابه المندوبين لإيصالها إليه فى أواخر شهر رمضان سنه اثنتين و ثلاثين، و قد اجتمع عنده رسول الخليفه المقتفى، و ألبسه التّشريف الواصل إليه، و رسول السّلطان، و رسول مصر، و الرّوم، و دمشق.

و رحل أتابک عن حمص، و سار إلى حلب، ثمّ خرج منها إلى بزاعا و فتحها بالسّيف، يوم الثلاثاء تاسع عشر محرّم من سنه ثلاث و ثلاثين و خمسمائه؛ و قتل كلّ من كان بها على قبر شرف الدّوله مسلم بن قريش، و كان ضرب عليها بسهم فى عينه فمات.

و عاد منها إلى حلب، و سار إلى الأثارب، ففتحها، فى ثالث صفر.

[زلازل فى حلب]

و فى يوم الخميس ثالث عشر صفر، حدثت زلزله شديده ثمّ اتبعها أخرى، و تواصلت الزّلازل، فهرب النّاس من حلب إلى ظاهر البلد و خرجت الأحجار من الحيطان إلى الطّريق، و سمع النّاس دويا عظيما،

۱- اللكمه: حصن بالساحل قرب عرقه. معجم البلدان.

و انقلبت الأثارب فهلک فیها ستّمائه من المسلمین، و سلم الوالی و معه نفر یسیر، و هلک أکثر البلاد من شیح، و تلّ عمار(۱)، و تلّ خالد، و زردنا(۲)؛ و شوهدت الأرض تموج، و الأحجار علیها تضطّرب کالحنطه فی الغربال.

و انهدم فی حلب دور کثیره، و تشّعث السّور، و اضطّربت جدران القلعه، و سار أتابک مشرّقا فنزل القلعه فأخذها، و سار منها إلی القلعه(۳)، ثمّ إلی الموصل.

و تواترت الزّلازل إلی شوّال، و قیل: إنّ عدّتها کانت ثمانین زلزله.

و کان فی سنه اثنتین و ثلاثین قد عولّ أتابک علی قبض أملاک الحلبیین الّتی استحدثوها من أیّام رضوان إلی آخر أیّام إیلغازی، ثمّ قرر علیهم عشره آلاف دینار، فأدّوا من ذلک ألف دینار؛ و جاءت هذه الزّلازل، فهرب أتابک من القلعه إلی میدانها حافیا، و أطلق القطیعه.

و فی هذه السّنه، نهض سوار إلی الفرنج فغنم من بلادهم، و لحقوه فاستخلصوا ما غنم، و انهزم المسلمون فغنم الفرنج، و أخذوا منهم ألفا و مائتی فارس، و أسروا صاحب الکهف ابن عمرون، و کان قد سلّمها إلی الباطنیه(۴).

۱- تل عمار فی منطقه أعزاز محافظه حلب و یبعد عن حلب مسافه ۳۳ کم.

۲- زردنا فی جوار مدینه أدلب و تبعد عنها مسافه ۲۵ کم.

۳- عند العظیمی فی تاریخ حلب ص ۳۹۴:« و فتح دارا و رأس العین».

۴- الکهف إحدی قلاع الدعوه فی جبال بهراء.

و فى شهر رمضان منها، استحكم الفساد بين أتابك و تمرتاش، فنزل أتابك زنكى(۱) دارا، و حصرها و افتتحها فى شوّال، و أخذ رأس عين(۲) و جبل جور(۳) و ذا القرنين(۴) و مات سوتكين الكرجى بحّران، فأنفذ أتابك زنكى و أخذها.

[مقتل محمود بن بورى]

و قتل شهاب الدّين محمود بن تاج الملوک على فراشه، ليله الجمعه الثالثه و العشرين من شوّال من السنه، قتله البغش و يوسف الخادم، و فرّاش، و كان قد قرّبهم و اصطفاهم(۵).

و سير أنر إلى محمّد أخيه صاحب بعلبک، فأجلسه فى منصب أخيه و أخرج أخاه بهرام شاه فمضى إلى حلب و شرّق إلى أتابک زنکى.

و علمت والدته زمرّد خاتون، فأرسلت إلى زوجها زنكى، و هو بالموصل تستدعيه لطلب الثأر بولدها، و تحثّه على الوصول، فأقبل و فى مقدّمته الأمير الحاجب صلاح الدّين، فسار إلى حماه.

و وصل زنكى حتّى عبر الفرات، و نزل بالناعوره، و دخل حلب،

۱- دارا مدينه بين نصيبين و ماردين. معجم البلدان.

۲- رأس العين إحدى المدن السوريه على نهر الخابور مقابل الحدود التركيه.

۳- جبل جور أحد حصون ديار بكر قريب من أرمينيه. الأعلاق الخطيره- قسم الجزيره- ج ۲ ص ۷۷۶.

۴- حصن ذى القرنين حصن يقع تحته رأس دجله شمالى ميافا فارقين- الأعلاق الخطيره- قسم الجزيره- ج ۲ ص ۷۸۳.

۵- لمزيد من التفاصيل انظر ابن القلانسى ص ۴۲۱- ۴۲۲. مرآه الزمان ج ۱ ص ۱۷۱.

[زنكى يحاصر دمشق]

و رحل إلى حماه فى سابع ذى الحجه، و رحل إلى حمص، ثم إلى بعلبك، فحصرها أوّل محّرم من سنه أربع و ثلاثين و خمسمائه، و ضربها بالمجانيق إلى أن فتحها يوم الاثنين رابع عشر صفر.

و فتح القلعه يوم الخميس خامس و عشرين منه، و أقام بها إلى منتصف شهر ربيع الآخر، و كان قد حلف لأهل القلعه بالأيمان المغلّظه و المصحف و الطلاق، فلمّا نزلوا غدر بهم، و سلخ و اليها، و شنق الباقين، و كانوا سبعه و ثلاثين رجلا، و غدر بالنّساء، و أخذهم.

و سار فى نصف ربيع الآخر إلى دمشق لمضايقتها فنزل على داريّا، و زحف إلى البلد، و راسل محمّد بن بورى فى تسليمها، و أخذ بعلبك و حمص، و ما يقترح معهما عوضا عنها، و أراد إجابته إلى ذلك فمنعه أصحابه، و خوّفوه الغدر به، فمات محمّد بن بورى، فى ثامن شعبان، و نصب ولده عضب الدوله أبق مكانه.

و كاتب أنر الفرنج فى نجدته، و تسليم بانياس من ابراهيم بن طرغت إليهم، فتجمّعوا لذلك، فرحل أتابك عن دمشق، فى خامس شهر رمضان، للقاء الفرنج إن قربوا منه إلى ناحيه بصرى و صرخد من حوران، و أقام مدّه، ثم عاد إلى الغوطه فنزل عذراء و أحرق عده ضياع من الغوطه.

و وصل الفرنج فنزلوا بالميدان، فرحل أتابك إلى ناحيه حمص. و أسر ريمند صاحب أنطاكيه ابراهيم بن طرغت صاحب بانياس، و قتله، و نزل

معین الدّین أنر علیها فحصرها و تسلّمها، و سلّمها إلی الفرنج، و عادت خاتون إلی حلب فی عشرین من ربیع الأول.

و عاد أتابک إلی حلب فی الرّابع و العشرین من جمادی الأولی، و استقرّ الحال بین زنکی و أبق علی أن خطب زنکی بدمشق.

و مات قاضی حلب أبو غانم محمّد بن أبی جراده فی شهر ربیع الآخر من سنه أربع و ثلاثین و خمسمائه، فولّی أتابک قضاء حلب ولده أبا الفضل هبه اللّه بن محمد بن أبی جراده، و لمّا استحضره و ولّاه القضاء قال له: «هذا الأمر قد نزعته من عنقی، و قلّدتک إیّاه، فینبغی أن تتقی اللّه و أن تساوی بین الخصمین، هکذا»؛ و جمع بین أصابعه.

و کثر عیث التّرکمان و فسادهم، و امتدث أیدیهم إلی بلاد الفرنج، فأرسلوا رسولا إلی أتابک یشکونهم، فعاد الرّسول متنصّلا، فلقیه قوم من التّرکمان فقتلوه، فأغار الفرنج علی حلب، فأخذوا من العرب و التّرکمان ما لا یحصی.

و عاد أتابک فی سنه ستّ و ثلاثین علی الحلبیّین بالقطیعه الّتی کان قرّرها علی الأملاک، و أرسل إلیهم علیّ الفوتی العجمی، فعسف النّاس فی استخراج القطیعه، و أخرق بهم، و مات ابن شقاره بحلب، و صارت أملاکه إلی بیت المال فردّ علی النّاس ما کان وظّف علی أملاکه من القطیعه و أخذه منهم.

و أغار الفرنج فی سنه ست و ثلاثین و خمسمائه علی بلد سرمین، و أخربوا

و نهبوا، ثمّ تحوّلوا إلى جبل السّـمّاق، و كـذلك فعلوا بكفرطاب، و تفرّقوا فأغار علم الـدّين بن سـيف الـدّين سوار مع التّركمان إلى باب أنطاكيه، و عادوا بالغنائم و الوسيق العظيم.

و أغار لجه التركى و كان قـد نزح عن دمشق إلى خدمه زنكى على بلد الفرنج، فى جمادى، فساق و سبى و قتل، و ذكر أن عدّه المقتولين سبعمائه رجل.

و اتّفق فى هذه السّنه خلف شديد بين أتابك زنكى و قرا أرسلان بن داود بن سكمان بناحيه بهمرد(۱)، فالتقيا فكسره أتابک، و فتح بهمرد، و عاد إلى الجزيره، ثم إلى الموصل فشتّى بها.

و فى هذه السّنه تقرّر الصّلح بين أتابك و الأرتقيّه و وصل أولادهم إلى الخدمه ثمّ عادوا.

و فى خامس شعبان مات وزير أتابك ضـياء الـدّين بن الكفرتوثى و وزّر موضـعه أبا الرضا بن صـدقه، ثمّ عزله فى سـنه ثمان و ثلاثين.

و نهض سوار فى شـهر رمضـان إلى بلـد أنطاكيه، و عنـد الجسـر جمع عظيم و خيم مضـروبه من الفرنـج، فخاض التّركمان إليهم العاصـى، و كسـروا الجميع هناك، و قتلوا كلّ من كان بالخيم، و نهبوا و سـبوا، و عادوا إلى حلب بالوسـيق العظيم، و الأسـرى و الرؤوس.

۱- احدى قلاع ديار بكر. الأعلاق الخطيره- قسم الجزيره- ج ۲ ص ۸۲۰.

و فتح أتابک قلعه آشب المشهوره بالحصانه(۱) فی ثالث و عشرین من شهر رمضان من سنه سبع و ثلاثین.

و خرج ملک أنطاکیه إلی وادی بزاعا، فخرج سوار فردّهم إلی بلد الشّمال و اجتمع سوار و جوسلین بین العسکرین فاتّفق الصّلح بینهما.

و فی سنه ثمان و ثلاثین و خمسمائه، فتح أتابک قلعه انیرون(۲)، و بعدها قلعه حیزان(۳)، و ممّا کان أیضا بید الفرنج جملین، و الموزر(۴)، و تل موزن(۵)، و غیرهما.

و خرج عسکر حلب فظفروا بفرقه کبیره من التّجار و الأجناد و غیرهم خرجت من أنطاکیه ترید بلاد الفرنج، و معها مال کثیر و دوابّ و متاع، فأوقعوا بهم، و قتلوا جمیع الخیّاله من الفرنج الخارجین لحمایتهم، و أخذوا ما کان معهم، و عادوا إلی حلب، و ذلک فی جمادی الأولی من السّنه.

و فی یوم الأربعاء خامس و عشرین من ذی القعده، وقعت خیل ترکمان نهضت من بلد حلب، فأوقعت بخیل خارجه من باسوطا(۶)

۱- هدم عماد الدین هذه القلعه و عمر مکانها واحده جدیده حملت اسمه« العمادیه». معجم البلدان.

۲- من قلاع دیار بکر.

۳- بلده من دیار بکر قرب أسعرد. معجم البلدان.

۴- هما فی اقلیم نصیبین.

۵- بلد بین ماردین و الرها اسمها الیوم ویران شهر. اللؤلؤ المنثور ص ۵۰۵.

۶- باسوطا الآن فی منطقه عفرین محافظه حلب و تبعد عن حلب مسافه ۶۹ کم.

فقتلوهم، و أسروا صاحب باسوطا و جاءوا به إلى حلب، فسلّموه إلى سوار فقيّده.

و عزل أتابک وزيره جلال الدّين أبا الرّضا بالموصل، و استوزر أبا الغنائم حبشى بن محمّد الحلّى.

[فتح الرها]

و كان أتابک زنكى لا يزال يفكّر فى فتح الرّها، و نفسه فى كل حين تطالبه بذلک، إلى أن عرف أنّ جوسلين صاحبها قد خرج منها فى معظم عسكره، فى سنه تسع و ثلاثين و خمسمائه، لأمر اقتضاه، فسارع أتابک إلى النّزول عليها فى عسكر عظيم؛ و كاتب التّركمان بالوصول إليه، فوصل خلق عظيم.

و أحاط المسلمون بها من كلّ الجهات، و حالوا بينها و بين من يدخل إليها بميره أو غيرها، و نصب عليها المجانيق؛ و شرع الحلبيّون فنقبوا عدّه مواضع عرفوا أمرها إلى أن وصلوا تحت أساس أبراج السّور، فعلقوه بالأخشاب، و استأذنوا أتابک فى إطلاق النّار فيه، فدخل إلى النّقب نفسه و شاهده ثم أذن لهم، فألقوا النّار فيه، فوقع السّور فى الحال(۱).

و هجم المسلمون البلد، و ملكوه بالسّيف يوم السّبت سادس عشر جمادى الآخره، و شرعوا فى النّهب و القتل والأسر و السّبى، حتّى امتلأت أيديهم من الغنائم، ثمّ أمر أتابک برفع السّيف عن أهلها، و منع السّبى،

۱- كان النقابون يفتحون ثغره بأسفل السور تملأ أثناء العمل بالخشب ثم تحرق الأخشاب فينهار السور.

و ردّه من أيدى المسلمين، و أوصى بأهلها خيرا، و شرع فى عماره ما انهدم منها و ترميمه.

و كان جمال الـدّين أبو المعالى فضل اللّه بن ماهان رئيس حرّان هو الّذى يحثّ أتابك فى جميع الأوقات على أخذها، و يسـهّل عليه أمرها فوجد على عضاده محرابها مكتوب:

أصبحت صفرا من «بنى الأصفر»أختال بالأعلام و المنبر

دان من المعروف حال به ناء عن الفحشاء و المنكر

مطهّر الرّحب على أنّنى لو لا «جمال الدّين» لم أطهر

فبلغ ذلـك رئيس حران، فقـال: «امحوا جمـال الـدّين، و اكتبوا عمـاد الـدّين»، فبلغ ذلك زنكى، فقال: «صـدق الشّاعر لولاك ما طمعنا فيها»، و أمر عمّاله بتخفيف الوطأه عليهم فى الخراج، و أن يأخذوه على قدر مغلّاتها(۱).

ثمّ رحل إلى سروج ففتحها، و هرب الفرنج منها، ثمّ رحل فنزل على البيره، فى هذه السنه فحاصرها فى هذه السّنه.

[مقتل جفر بالموصل]

و جاءه الخبر من الموصل أن نصير الـدّين جقر نائبه بالموصل قتل، فخاف عليها، و ترک البيره بعـد أن قارب أخذها(۲)، و سار حتّى دخل

۱- لمزيد من المعلومات انظر بغيه الطلب ۳۸۵۰- ۳۸۵۱. و انظر ما جاء عند المؤرخ السريانى المجهول.

۲- لمزيد من التفاصيل انظر الباهر ص ۷۰- ۷۲.

الموصل، و أخذ فرخانشاه ابن السّلطان الّذى قتل جقر، و عزم على تملّك الموصل، فقتله بدم جقر، و ولّى الموصل مكانه الأمير زين الدّين على كوچك.

ثمّ شرع زنكى فى الجمع و الاحتشاد، و الاستكثار من عمل المجانيق، و آله الحرب، فى أوائل سنه أربعين و خمسائه؛ و يظهر للنّاس أنّ ذلك لقصد الجهاد، و بعض النّاس يقول: إنّه لقصد دمشق و منازلتها، و كان ببعلبكّ مجانيق فحملت إلى حمص، فى شعبان من هذه السّنه.

و قيل: إنّ عزمه انثنى عن الجهاد فى هذه السّنه، و أنّ جماعه من الأرمن بالرّها عاملوا عليها، و أرادوا الإيقاع بمن كان فيها من المسلمين و اطّلع على حالهم؛ و توجه أتابك من الموصل نحوها، و قوبل من عزم على الفساد بالقتل و الصلب.

و سار و نزل على قلعه جعبر بالمرج الشّرقى تحت القلعه، يوم الثلاثاء ثالث ذى الحجّه، فأقام عليها إلى ليله الأحد سادس شهر ربيع الآخر نصف اللّيل من سنه إحدى و أربعين و خمسمائه، فقتله يرنقش الخادم؛ كان تهدّده فى النّهار، فخاف منه فقتله فى اللّيل فى فراشه.

[مقتل زنكى]

و قيل: إنّه شرب و نام، فانتبه فوجد يرنقش الخادم و جماعه من غلمانه يشربون فضل شرابه، فتوعّدهم، و نام فأجمعوا على قتله، و جاء يرنقش إلى تحت القلعه، فنادى أهل القلعه: «شيلونى فقد قتلت أتابك». فقالوا له:

«اذهب إلى لعنه اللّه، فقد قتلت المسلمين كلّهم بقتله»(۱).

و قد كان أتابک ضايق القلعه، فقلّ الماء فيها جدّا، و الرّسل من صاحبها علىّ بن مالک تتردّد بينه و بين أتابک، فبذل علىّ بن مالک له ثلاثين ألف دينار ليرحل عنها، فأجابه إلى ذلک.

و نزل الرّسول، و قد جمع الذّهب حتّى قلع الحلق من آذان أخواته، و أحضر الرّسول، و قال لبعض خواصّه: «امض بفرسه و قرّبه إلى قدر اليخنى فإن شرب منه فأعلمنى». ففعل ذلک، فشرب الفرس مرقه اليخنى، فعلم أنّ الماء قد قلّ عندهم، فغالط الرّسول و دافعه، و لم يجبه إلى ملتمسه، فأسقط فى يد علىّ بن مالک.

و كان فى القلعه عنده بقره وحش، و قد أجهدها العطش، فصعدت فى درجه المئذنه حتّى علت عليها، و رفعت رأسها إلى السّماء، و صاحت صيحه عظيمه، فأرسل اللّه سحابه ظلّلت القلعه، و أمطروا حتى رووا، فتقدّم حسّان البعلبكىّ صاحب منبج إلى تحت القلعه، و نادى علىّ بن مالک، و قال له: «يا أمير علىّ، ايش بقى يخلّصک من أتابک» فقال له» «يا عاقل، يخلّصنى الذى خلصک من حبس بلک». يعنى حين قتل، بلک على منبج و خلص حسّان، فصدق فأله- و كان ما ذكرناه-.

و أخبرنى والدى- رحمه اللّه- أنّ حارس أتابک كان يحرسه فى اللّيله التى

۱- عزا وليم الصورى ص ۷۴۲ مقتل زنكى إلى مؤامره دبرها صاحب قلعه جعبر.

قتل فيها بهذين البيتين:

يا راقد اللّيل مسرورا بأوّله،إنّ الحوادث قد يطرقن أسحارا!

لا تأمننّ بليل طاب أوّله فربّ آخر ليل أجّج النّارا!

و كان أتابك جبارا عظيما ذا هيبه و سطوه، و قيل: إنّ الشاووش(۱) كان يصيح خارج باب العراق، و هو نازل من القلعه، و كان إذا ركب مشى العسكر خلفه كأنّهم بين حيطين مخافه أن يدوس العسكر شيئا من الزّرع، و لا يجسر أحد على هيبته أن يدوس عرقا منه، و لا يمشى فرسه فيه، و لا يجسر أحد من أجناده أن يأخذ لفلّاح علاقه تبن إلّا بثمنها أو بخط من الدّيوان إلى رئيس القريه؛ و إن تعدّى أحد صلبه.

و كان يقول: «ما يتّفق أن يكون أكثر من ظالم واحد»- يعنى نفسه- فعمرت البلاد فى أيّامه بعد خرابها و أمنت بعد خوفها، و كان لا يبقى على مفسد، و أوصى ولاته و عمّاله بأهل حرّان، و نهى عن الكلف و السّخر و التثقيل على الرّعيه، هذا ما حكاه أهل حرّان عنه.

و أما فلّاحو حلب فإنّهم يذكرون عنه ضدّ ذلك(۲).

۱- يكتب أيضا« الجاووش» و هو المنادى الذى يتولى استنفار العساكر لتخرج إلى القتال، و قرأنا فى النوادر السلطانيه لابن شداد ص ۶۶، ۱۰۸« فركب السلطان و صاح الجاووش فركب العسكر».

۲- كانوا يذكرون« أنه كان عليهم منه جور و ظلم فى أيام ولايته، و أكثر ما كان يذكر عنه من الظلم ما يلزم الناس به من جمع الرجاله للقتال و الحصار». بغيه الطلب: ۲۸۵۲.

و كانت الأسعار فى السّنه الّتى توّفى فيها رخيه جدّا، الحنطه ستّ مكاييک بدينار؛ و الشّعير أثنا عشر مكّوكا بدينار؛ و العدس أربع مكاييک بدينار؛ و الجلبان خمسه مكاييک بدينار؛ و القطن ستّون رطلا بدينار؛ و الدّينار هو الّذى جعله أتابک دينار الغلّه؛ و قدره خمسون قرطيسا برسا(۱) و ذلک لقلّه العالم.

[حلب أيام نور الدين محمود]

و لمّا قتل افترقت عساكره فأخذ عسكر حلب ولده نور الدّين أبا القاسم محمود بن زنكى، و طلبوا حلب فملّكوه إيّاها، و أخذ نور الدّين خاتمه من إصبعه قبل مسيره إلى حلب، و سار أجناد الموصل بسيف الدّين غازى إلى الموصل و ملكها.

و بقى أتابک وحده، فخرج أهل الرّافقه فغسّلوه بقحف جرّه، و دفنوه على باب مشهد علىّ- عليه السّلام- فى جوار الشّهّداء من الصّحابه- رضوان اللّه عليهم- و بنى بنوه عليه قبه، فهى باقيه إلى الآن(۲).

و ملک الملک العادل نور الدّين أبو القاسم محمود بن زنكى بن أق سنقر حلب، عند ذلک فى شهر ربيع الآخر يوم الثّلاثاء عاشر الشهر، سنه إحدى و أربعين و خمسمائه.

[استرداد الرها]

و وصل إليه صلاح الدّين الياغيسيانى يدبّر أموره و يقوم بحفظ دولته

۱- من أنواع الدراهم النحاسيه قد يوازى كل/ ۱۳/ منها درهما فضيا.

۲- انظر بغيه الطلب ص ۳۸۵۵- ۳۸۵۷. و زالت معالم القبه الآن، و كانت قرب ما يعرف الآن بباب بغداد، و دللت بعض الحفريات الأثريه على مكان القبر.

فحینئذ راسل جوسلین الفرنجی أهل الرّها و عامّتهم من الأرمن، و حملهم علی العصیان و تسلیم البلد، فأجابوه إلی ذلک، و واعدوهم یوما یصل إلیهم فیه.

و سار إلیها فملک البلد، و امتنعت القلعه فقاتلها، فبلغ الخبر إلی نور الدّین محمود بن زنکی، و هو بحلب، فسار إلیها فی عسکره، فخرج جوسلین هاربا إلی بلده.

و دخلها نور الدّین فنهبها و سبی أهلها، و خلت منهم، فلم یبق بها منهم إلّا القلیل(۱).

و أرسل نور الدّین من سبیها جاریه فی جمله ما أهداه إلی زین الدّین علی کوچک، نائب أبیه بالموصل، فلمّا رآها دخل إلیها، و خرج من عندها و قد اغتسل، و قال لمن عنده: «تعلمون ما جری لی یومنا هذا؟» قالوا:

«لا»، قال: «لمّا فتحنا الرّها مع الشّهید وقع بیدی من النّهب جاریه رائقه أعجبنی حسنها و مال قلبی إلیها، فلم یکن بأسرع من أن أمر الشّهید فنودی بردّ السّبی المنهوب، و کان مهیبا مخوفا، فرددتها و قلبی متعلّق بها، فلمّا کان الآن جاءتنی هدیّه نور الدّین و فیها عدّه جوار منهنّ تلک الجاریه، فوطئتها خوفا أن یقع مثل تلک الدّفعه».

و شرع نور الدّین- رحمه اللّه- فی صرف همّته إلی الجهاد، فدخل فی

۱- أوفی التفاصیل حول هذه الواقعه عند المؤرخ السریانی المجهول. الموسوعه الشامیه ص ۲۰۱۵- ۲۰۲۱.

سنه اثنتين و أربعين و خمسمائه، إلى بلد الفرنج؛ ففتح أرتاح بالسّيف، و نهبها و فتح حصن مابوله، و بسرفوث، و كفرلاثا و هاب(۱).

و كان الفرنج بعد قتل والده قد طمعوا و ظنّوا أنّهم يستردّون ما أخذه، فلمّا رأوا من نور الدّين الجدّ فى أول أمره، علموا بعد ما أمّلوه.

[حصار دمشق من الحمله الثانيه]

و خرج ملك الألمان و نزل على دمشق، فى سنه ثلاث و أربعين و خمسمائه، و سار لنجدتها سيف الدّين غازى من الموصل، و نور الدين محمود، فوصلا إلى حمص.

و توّجه نور الدّين إلى بعلبكّ، و اجتمع بمعين الدّين أنر بها، و رحل ملك الألمان عن دمشق، و كان صحبته ولد الفنش، و كان جده قد أخذ طرابلس من المسلمين، فأخذ ولد الفنش هذا حصن العريمه من الفرنج، و عزم على أخذ طرابلس من القمص، فأرسل القمص إلى نور الدين إلى بعلبكّ يقول له فى قصد حصن العريمه و أخذه من ولد الفنش.

فسار نور الدّين و معين الدّين أنر معه، و سيّرا إلى سيف الدّين غازى إلى حمص، يستنجدانه فأمدّهما بعسكر كثير مع الدّبيسى صاحب الجزيره، فنازلوا الحصن، و حصروه و به ولد الفنش.

فزحف المسلمون إليه مرارا، و نقب النقّابون السّور فطلب من به من الفرنج الأمان، فملكه المسلمون، و أخذوا كلّ من به من فارس و راجل،

۱- انظر الأعلاق الخطيره- قسم حلب- ج ۲ ص ۴۲۵.

و صبىّ، و امرأه، و فيهم ابن الفنش، و أخربوا الحصن، و عادوا إلى حمص(۱).

ثم عاد سيف الدين غازى إلى الموصل.

و تجمّع الفرنج ليقصدوا أعمال حلب، فخرج إليهم نور الدّين بعسكره و التقاهم بيغرى(۲)، و اقتتلوا قتالا شديدا، فانهزم الفرنج، و أسر منهم جماعه و قتل خلق، و لم ينج إلّا القليل.

و فى هذه الوقعه يقول الشّيخ أبو عبد اللّه القيسرانى من قصيده:

و كيف لا نثنى على عيشناالمحمود و السّلطان «محمود!»

و صارم الاسلام لا يثنى إلّا و شلو الكفر مقدود

مكارم لم تك موجودهإلّا و «نور الدّين» موجود(۳)

[تجديد المدارس و الرباطات فى حلب]

و شرع نور الدّين فى تجديد المدارس و الرّباطات بحلب، و جلب أهل العلم و الفقهاء إليها، فجدّد المدرسه المعروفه بالحلاويّين، فى سنه ثلاث و أربعين و خمسمائه، و استدعى برهان الدّين أبا الحسن على بن الحسن البلخى الحنفى و ولّاه تدريسها، فغيّر الأذان بحلب، و منع المؤذّنين من قولهم: «حىّ على خير العمل» و جلس تحت المناره و معه الفقهاء، و قال

۱- الحديث هنا عن حصار دمشق للمره الثانيه، الآن من قبل ما يعرف بالحمله الثانيه، مع ما تلته من أحداث. انظر وليم الصورى ص ۷۷۹- ۷۹۱.

۲- من عمل حارم ناحيه العمق، و لعلها المعروفه الآن باسم يغله فى محافظه ادلب- ناحيه كفر تخاريم.

۳- انظر القصيده بأكملها فى الروضتين لأبى شامه ج ۱ ص ۵۵- ۵۶.

لهم: «من لم يؤذّن الأذان المشروع فألقوه من المناره على رأسه»، فأذّنوا الأذان المشروع، و استمرّ الأمر من ذلک اليوم.

و جدّد المدرسه العصرونيّه على مذهب الشافعى، و ولّاها شرف الدّين بن أبى عصرون(۱)، و مدرسه النفرى، و ولّاها القطب النّيسابورى(۲)، و مسجد الغضائرى وقف عليه وقفا، و ولّاه الشيخ شعيب(۳)، و صار يعرف به.

و بقى برهان الدّين البلخى بحلب مدرسا بالحلاويّه إلى أن أخرجه مجد الدّين بن الدّايه، لوحشه وقعت بينهما، و وليها علاء الدّين عبد الرحمن بن محمود الغزنوى و مات و وليها ابنه محمود، ثمّ وليها الرّضى صاحب المحيط، ثمّ وليها علاء الدّين الكاسانى(۴).

و توفّى سيف الدّين غازى بن زنكى بالموصل فى سنه أربع و أربعين و ترک ولدا صغيرا، فربّاه عمّه نور الدين، و عطف عليه.

و اتّفق الوزير جمال الدّين و زين الدين على على أن ملّكوا قطب الدّين مودود بن زنكى الموصل، و كان نور الدّين أكبر منه، و كاتبه جماعه من الأمراء و طلبوه.

۱- انظر حولها الآثار الاسلاميه ص ۲۲۶- ۲۲۸.

۲- انظر حوله الأعلاق الخطيره- قسم حلب ج ۱ ص ۲۴۸- ۲۵۱.

۳- اسمه الآن جامع التوته، انظر حوله الآثار الاسلاميه ص ۶۳- ۶۴.

۴- تحدث ابن شداد عن هذه المدرسه و ترجم للذين درسوا فيها. الأعلاق الخطيره- قسم حلب- ج ۱ ص ۲۶۴- ۲۷۱.

[نور الدين يتسلم سنجار]

و فيمن كاتبه المقدّم عبد الملك والد شمس الدّين محمد، و كان بسنجار، فكتب إليه يستدعيه ليتسلّم سنجار.

فسار جريـده فى سـبعين فارسا من أمراء دولته فوصل سـنجار مجـدا، و نزل بظاهر البلد، و أرسل إلى المقدّم يعلمه بوصوله، فرآه الرّسول و قـد سار إلى الموصل، و ترك ولـده شـمس الدّين محمّدا بالقلعه، فسيّر من لحق أباه فى الطّريق، و أعلمه بوصول نور الدّين، فعاد إلى سنجار، و سلّمها إليه، و أرسل إلى قرا أرسلان صاحب الحصن(۱) يستدعيه لموجده كانت بينهما، فوصل إليه.

و لما سمع قطب الدّين و الوزير جمال الدّين، و زين الدّين بالموصل، جمعوا العساكر، و عزموا على قصد سنجار و ساروا إلى تلّ أعفر(۲)، فأشار الوزير جمال الـدّين بمـداراته، و قال: «إنّنا نحن قـد عظّمنا محلّه عند السّلطان، و جعلنا محلّنا دونه، و هو فيعظّمنا عند الفرنج، و يظهر أنّه تبع لنا، و يقول: إن كنتم كما نحبّ و إلّا سلّمت البلاد إلى صاحب الموصل، و حينئذ يفعل بكم و يصنع، فإن هزمناه طمع فينا السّلطان و يقول: إنّ الّذى كانوا يعظمونه، و يخوّفوننا به أضعف منهم، و قد هزموه، و إن هو

۱- حصن كيفا، و هو قلعه عظيمه مشرفه على دجله بين آمد و جزيره ابن عمر. الأعلاق الخطيره- قسم الجزيره- ج ۲ ص ۷۸۴.

۲- و يقال له تل يعفر و تلعفر، بلده بالعراق غربى الموصل على طريق سنجار. الأعلاق الخطيره- قسم الجزيره- ج ۲ ص ۱۷۷۳.

هزمنا طمع فيه الفرنج، و يقولون: إنّ الّذى كان يحتمى بهم أضعف منه، و بالجمله فهو ابن أتابک الكبير»؛ و أشار بالصّلح.

و سار إلى نور الدين بنفسه، فوفّق بينهما على أن يسلّم سنجار إلى قطب الدّين، و يتسلّم الرّحبه، و يستقلّ نور الدّين بالشّام جميعه، و قطب الدين بالجزيره ما خلا الرّها، فإنّها لنور الدين(۱).

و عاد نور الدّين إلى الشّام، و أخذ ما كان قد ادّخره أبوه أتابک من الخزائن، و كانت كثيره جدّا.

[معركه إنب و مقتل صاحب انطاكيه]

فغزا نور الدّين محمود بن زنكى بلد الفرنج من ناحيه أنطاكيه، و قصد حصن حارم و هو للفرنج، فحصره، و خرب ربضه، و نهب سواده، ثمّ رحل إلى حصن إنّب(۲) فحصره أيضا.

فاجتمع الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكيه و حارم، و تلک الأعمال، و ساروا إلى نور الدّين ليرحّلوه عن إنّب، فلقيهم يوم الأربعاء حادى و عشرين من صفر، سنه أربع و أربعين و خمسمائه، و اقتتلوا قتالا عظيما، و باشر نور الدين القتال ذلک اليوم، فانهزم الفرنج أقبح هزيمه، و قتل منهم جمع كثير، و أسر مثله.

۱- انظر الروضتين ج ۱ ص ۶۷- ۶۸.

۲- قال ياقوت:« إنب حصن من أعمال عزاز من نواحى حلب له ذكر»، و فى أيامنا هذه إنب قريه تتبع ناحيه محمبل- منطقه أريحا، محافظه ادلب، و يبعد عنها بقرابه كيلومتر واحد تل انب الأثرى، و يشرف هذا التل على كل من وادى الغاب و سهل الروج. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

و کـان ممّن قتل ذلک الیوم البرنس صاحب أنطاکیه، و کان من عظماء الفرنـج و أقویائهم. و یحکی عنه أنّه کان یأخـذ الرکاب الحدیـد بیـده، فیطبقه بیـده الواحـده؛ و أنّه مرّ یومـا و هو راکب حصانـا قویّا تحت قنطره فیها حلقه أو شـی ء ممّا یتعلّق به، فتعلّق بیدیه و ضمّ فخذیه علی الحصان فمنعه الحرکه.

فلما قتل البرنس ملک ابنه بیمند، و تزوّجت أمّه بابرنس آخر، لیدبّر البلد إلی أن یکبر(۱) ابنها، و أقام معها بأنطاکیه، فغزاهم نور الدّین غزوه ثانیه، فاجتمعوا و لقوه فهزمهم، و قتل منهم خلقا و أسـر کذلک، و أسـر البرنس الثّانی زوج أم بیمند، و استقلّ بیمند بأنطاکیه.

و فی ذلک یقول الشّیخ أبو عبد اللّه القیسرانیّ من قصیده أوّلها:

هذی العزائم لا ما تدّعی القضب و ذی المکارم لا ما قالت الکتب

صافحت یا «بن عماد الدّین» ذروتهابراحه للمساعی دونها تعب

أغرت سیوفک بالأفرنج راجفهفؤاد رومیه الکبری لها یجب

ضربت کبشهم منها بقاصمهأودی بها الصّلب و انحطّت بها الصّلب

طهّرت أرض الأعادی من دمائهم طهاره کلّ سیف عندها جنب(۲)

و قال ابن منیر فی ذلک:

صدم الصّلیب علی صلابه عوده فتفرّقت أیدی سبا خشباته

و سقی البرنس و قد تبرنس ذلّهبالرّوج ممّا قد جنت غدراته

۱- انظر ولیم الصوری ص ۷۸۹- ۷۹۳، ۸۰۴، ۸۱۴.

۲- انظر القصیده کامله فی الروضتین ج ۱ ص ۵۸- ۵۹.

تمشى القناه برأسه و هو الّذى نظمت مدار النيرّين قناته(۱)

و سار نور الدّين محمود إلى أفاميه، فى سنه خمس و أربعين، فالتجأ الفرنج إلى حصنها فقاتله، و اجتمع الفرنج و ساروا إليه ليرحّلوه عنه، فوجدوه قد ملكه و ملأه من الرّجال و الذّخائر، فسار فى طلبهم، فعدلوا عن طريقه، و دخلوا بلادهم.

[أسر جوسلين]

و جمع نور الدّين العساكر و سار إلى بلاد جوسلين الفرنجى ليملكها و كان جوسلين من أشجع الفرنج و أسدّهم رأيا، فجمع الفرنج و أكثر، و سار إلى نور الدّين و التقيا، فانهزم المسلمون و قتل منهم و أسر.

و كان سلاحدار نور الدّين ممّن أسر، فأخذ جوسلين سلاحه، فسيّره إلى الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونيه، و قال: «هذا سلاح زوج ابنتک» .. فعظم ذلک على نور الدّين، و هجر الرّاحه إلى أن يأخذ بثأره، و جعل يفكّر فى حيله يحتال بها على جوسلين، و علم أنّه إن قصده احتمى فى حصونه.

فأحضر أمراء التّركمان، و بذل لهم الرّغائب إن ظفروا بجوسلين، فجعلوا عليه العيون، فخرج إلى الصّيد فظفر به طائفه من التّركمان، فصانعهم على مال يؤدّيه إليهم، فأجابوه إلى إطلاقه إذا أحضر المال، و أرسل فى إحضاره.

۱- انظر القصيده بأكملها فى الروضتين ج ۱ ص ۶۰- ۶۲.

فمضـى بعض التّركمان إلى مجد الـدّين أبى بكر بن الدّايه، و كان ابن دايه نور الدّين، و استنابه فى حلب، و سلّم أمورها إليه، فأحسن الولايه فيها و التّدبير، فأعلم ذلک التّرکمانى ابن الـدايه بصوره الحال، فسيّر مجد الـدّين معه عسكرا، فكبسوا أولئک التّركمان، و أخذوا جوسلين أسيرا، و أحضروه إلى ابن الدّايه، فى محرم هذه السّنه(۱).

فسار نور الـدّين عند ذلک إلى قلاع جوسلين، ففتح عزاز بعد الحصار، فى ثامن عشر شهر ربيع الأوّل، سنه خمس و أربعين و خمسمائه، و فتح تلّ باشر، و تلّ خالد؛ و فتح عين تاب سنه خمسين(۲)؛ و فتح قورس(۳) و الرّاوندان(۴) و برج الرصاص(۵)، و حصن البيره و كفرسود(۶) و مرعش(۷) و نهر الجوز.

و تجمّع الفرنج و ساروا إليه و هو ببلاد جوسلين ليمنعوه عن فتحها، فى سنه سبع و أربعين و خمسمائه، فلمّا قربوا منه رجع إليهم، و لقيهم عند دلوک، فاقتتلوا فانهزم الفرنج، و قتل منهم و أسر كثير، و عاد إلى دلوک ففتحها(۸).

۱- انظر وليم الصورى ص ۷۹۳- ۷۹۴.

۲- انظر حولها بغيه الطلب ص ۳۲۳.

۳- انظر حولها الأعلاق الخطيره- قسم حلب- ج ۲ ص ۴۳۸- ۴۴۱.

۴- انظر حولها بغيه الطلب ص ۳۲۴.

۵- انظر الأعلاق الخطيره- قسم حلب- ج ۲ ص ۹۸- ۹۹.

۶- و يعرف أيضا باسم كفرسوت، قرب بهسنا. معجم البلدان.

۷- من أجل مرعش انظر بغيه الطلب ص ۲۳۵- ۲۳۸.

۸- من أجل دلوک انظر الأعلاق الخطيره- قسم حلب. ج ۲ ص ۴۳۵- ۴۳۷.

و أمّا تلّ باشر فإنّه تسلّمها منهم بعد فتحه دمشق، لأنهم لما علموا أنّه فتح دمشق، و أنّه يقصدهم و لا طاقه لهم به راسلوه، و بذلوا له تسلميها إليه، فسيّر إليهم الأمير حسّان صاحب منبج لقربها من منبج فتسلّمها منهم، و حصّنها.

و كان فتحه دمشق فی صفر سنه تسع و أربعين و خمسمائه، لأنّ الفرنج أخذوا عسقلان من المصريين فی سنه ثمان و أربعين، و لم يكن له طريق إلى إزعاجهم عنها لاعتراض دمشق بينه و بين عسقلان(۱).

و طمع الفرنج فی دمشق، و جعلوا عليها قطيعه يأخذونها منهم فی كلّ سنه، فخاف نور الدّين أن يملكها الفرنج، فاحتال فی أخذها لعلمه أنّ أخذها بالقهر يصعب لأنّه متى نازلها راسل صاحبها الفرنج مستنجدا بهم، و أعانوه خوفا من نور الدين أن يملكها فيقوى بها عليهم.

فراسل مجير الدين أبق بن محمد بن بورى صاحبها، و استماله و هاداه، و أظهر له المودّه، حتى وثق به، فكان يقول له فی بعض الأوقات:

«إنّ فلانا قد كاتبنی فی تسليم دمشق»- يعنی بعض أمراء مجير الدّين- فكان يبعد ذلك عنه، و يأخذ أقطاعه، فلما لم يبق عنده أحد من الأمراء قدّم أميرا يقال له عطاء بن حفاظ الخادم، و كان شجاعا و فوض إليه أمور دولته، فكان نور الدّين لا يتمكّن من أخذ دمشق منه، فقبض عليه مجير الدّين و قتله.

۱- انظر وليم الصورى ص ۸۰۸- ۸۱۴.

فسار نور الـدّین حینئذ إلی دمشق، و کان قد کاتب أهلها و استمالهم، و کان النّاس یمیلون إلیه، لما هو علیه من العدل و الدیّانه و الاحسان، فوعدوه بالتّسلیم إلیه.

[تسلم نور الدین دمشق]

فلمّا حصر دمشق أرسل مجیر الـدّین إلی الفرنج یبذل لهم الأموال و تسلیم قلعه بعلبکّ إلیهم، لینجدوه و یرحلوا نور الدّین عنه، فشرعوا فی جمع فارسهم و راجلهم لذلک.

فتسلّم نور الدّین دمشق، و خرج الفرنج و قد قضـی الأمر فعادوا خائبین، و سلّمها إلیه أهلها من باب شرقی، و التجأ مجیر الدّین إلی القلعه، فراسله و بـذل له عوضا عنهـا حمص، و غیرهـا؛ فسلّمها إلیه و سار إلی حمص، ثم إنّه راسل أهل دمشق، فعلم نور الدّین، فخاف منه، فأخذ منه حمص، و عوّضه ببالس، فلم یرض بذلک، و سار إلی بغداد فمات بها.

و سار نور الـدّین إلی حارم، و هی لبیمنـد صاحب أنطاکیه، و حصرها فی سنه إحدی و خمسین، و ضیّق علی أهلها، فتجمّع الفرنج و عزموا علی قصده فأرسل و الی حارم إلی الفرنج، و قال: «لا تلتقوه فإنّه إن هزمکم أخذ حارم و غیرها، و نحن فی قوّه و الرأی مطاولته»، فأرسلوا إلی نور الدّین، و صالحوه علی أن یعطوه نصف أعمال حارم، و رجع نور الدّین إلی حلب.

[زلازل سنه ۵۵۲ ه ۴۸۳]

و وقعت الزّلازل فی شهر رجب فی سنه اثنتین و خمسین و خمسمائه، بالشّام، فخربت حماه، و شیزر، و کفرطاب، و أفامیه، و معرّه النعمان،

و حمص، و حصن الشميميس(۱)، عند سلميه، و غير ذلک من بلاد الفرنج.

و تهدّمت أسوار هذه البلاد فجمع نور الدّين العساکر، و خاف على البلاد من الفرنج، و شرع فى عمارتها حتّى أمن عليها.

[هلاک شيزر]

و أمّا شيزر، فانقلبت القلعه على صاحبها و أهله، فهلكوا كلّهم، و كان قد ختن ولدا له و عمل وليمه، و أحضر أهله فى داره، و كان له فرس يحبّه و لا يكاد يفارقه، و إذا كان فى مجلس أقيم ذلک الفرس على بابه، فكان ذلک اليوم على الباب، فجاءت الزّلزله فقام النّاس ليخرجوا من الدّار فخرج واحد من الباب فرمحه ذلک الفرس فقتله، فامتنع النّاس من الخروج، فسقطت الدّار عليهم فهلكوا.

و بادر نور الدّين، و وصل إلى شيزر، و قد هلک تاج الدّوله بن منقذ و أولاده، و لم يسلم منهم إلّا الخاتون أخت شمس الملوک زوجه تاج الدّوله، و نبشت من تحت الرّدم سالمه، فتسلّم القلعه و عمّر أسوارها و دورها، و كان نور الدّين قد سأل أخت شمس الملوک عن المال و هدّدها، فذكرت له أنّ الدار سقطت عليها و عليهم، و نبشت و هى دونهم، و لا تعلم بشى ء، و إن كان لهم شى ء فهو تحت الرّدم.

و كان شرف الدّوله اسماعيل غائبا، فلمّا حضر و عاين قلعه شيزر، و رأى زوجه أخيه فى ذلک الذّلّ بعد العزّ، عمل قصيده أوّلها:

ليس الصّباح من المساء بأمثل فأقول للّيل الطّويل ألا انجلى

۱- بقايا هذا الحصن على مقربه من سلميه على الطريق الواصله بمدينه حماه.

قال فیها:

یا «تاج دوله هاشم» بل یا أبا التّیجان بل یا قصد کلّ مؤمّل

لو عاینت عیناک «قلعه شیزر»و السّتر دون نسائها لم یسبل

لرأیت حصنا هائل المرأی غدامتهلهلا مثل النّقا المتهیل

لا یهتدی فیه السّعاه لمسلک فکأنّما تسری بقاع مهول

ذکر فیها زوجه أخیه، فقال:

نزلت علی رغم الزّمان و لو حوت یمناک قائم سیفها لم تنزل

فتبدّلت عن کبرها بتواضع و تعوّضت عن عزّها بتذلّل(۱)

و أقامت الزّلازل تتردّد فی البلاد سبع سنین، و هلک فیها خلق کثیر.

و فی هذه السّنه أبطل الملک العادل نور الدّین، و هو بشیزر، مظالم و مکوسا ببلاده کلّها مقدارها مائه و خمسون ألف دینار.

ثم إنّ نور الدّین تلطّف الحال مع ضحّاک البقاعیّ، و راسله، و هو ببعلبکّ، و کان قد عصی فیها بعد فتح دمشق، و لم یر أن یحصره بها لقربه من الفرنج، فسلّمها إلی نور الدّین فی هذه السّنه(۲).

و جرت وقعه بین نور الدّین و بین الفرنج بین طبریّه و بانیاس،

۱- انظر بغیه الطلب ص ۱۶۴۰- ۱۶۴۲.

۲- انظر تاریخ ابن القلانسی ص ۵۰۹.

فكسرهم نور الدّين كسره عظيمه فى جمادى الأولى سنه اثنتين و خمسين و خمسمائه(۱).

[مرض نور الدين]

ثمّ عاد نور الدّين إلى حلب، فمرض بها فى سنه أربع و خمسين مرضا شديدا، بقلعتها، و أشفى على الموت، و كان بحلب أخوه الأصغر نصره الدّين أمير أميران محمّد بن زنكى؛ و أرجف بموت نور الدّين؛ فجمع أمير أميران النّاس، و استمال الحلبيّين، و ملك المدينه دون القلعه، و أذن للشّيعه أن يزيدوا فى الأذان: «حىّ على خير العمل محمّد و علىّ خير البشر»، على عادتهم من قبل، فمالوا إليه لذلك.

و ثارت فتنه بين السّنه و الشّيعه، و نهب الشّيعه مدرسه ابن عصرون و غيرها من أدر السّنه، و كان أسد الدّين شيركوه بحمص، فبلغه ذلك فسار إلى دمشق ليغلب عليها، و كان بها أخوه نجم الدّين أيّوب فأنكر عليه ذلك، و قال: «أهلكتنا و المصلحه أن تعود إلى حلب، فان كان نور الدّين حيّا خدمته فى هذا الوقت، و إن كان مات فأنا فى دمشق، و تفعل ما تريد».

فعاد مجدا إلى حلب، فوجد نور الدّين و قد ترجح إلى الصّلاح، فأجلسه فى طيّاره مشرفه إلى المدينه، بحيث يراه النّاس كلهم، و هو مصفرّ الوجه من المرض، و نادوا إلى الناس: «هذا سلطانكم». فقال بعضهم:

۱- انظر وليم الصورى ص ۸۹۰- ۸۹۲.

«ما هذا نور الدّين، بل هو فلان»- يعنون رجلا كان يشبهه و قد طلى وجهه بصفره، ليخدعوا الناس بذلك.

و لما تحقّق أمير أميران عافيه أخيه خرج من الدّار الّتى كان بها تحت القلعه، و بيده ترس يحميه من النّشّاب، و كان النّاس قد تفرّقوا عنه، فسار إلى حرّان، فملكها.

و سير نور الدّين إلى قاضى حلب، جدّى أبى الفضل هبه اللّه بن أبى جراده، و كان يلى بها القضاء و الخطابه و الإمامه، و قال له: «تمضى إلى الجامع، و تصلى بالنّاس، و يعاد الأذان إلى ما كان عليه».

فنزل جدّى، و جلس بشماليه الجامع تحت المناره، و استدعى المؤذّنين، و أمرهم بالأذان المشروع على رأى أبى حنيفه، فخافوا فقال لهم:

«ها أنا أسفل منكم و لى أسوه بكم».

فصعد المؤذّنون و شرعوا فى الأذان، فاجتمع تحت المناره من عوامّ الشّيعه و غوغائهم خلق كثير؛ فقام القاضى إليهم، و قال: «يا أصحابنا، وفّقكم اللّه، من كان على طهاره فليدخل و ليصلّ، و من كان محدثا فليجدّد وضوءه و يصلى، فان المولى نور الدّين- بحمد اللّه- فى عافيه، و قد تقدّم بما يفعل، فانصرفوا راشدين». فانصرفوا و قالوا: «ايش نقول لقاضينا»! و نزل المؤذّنون و صلى بالنّاس، و سكنت الفتن.

فلما عوفى نور الدّين قصد حرّان، فهرب نصره الدّين أمير أميران،

و ترک أولاده بالقعله بحرّان فتسلّمها، و أخرجهم منها، و سلّمها إلى زين الدين على كوچک، نائب أخيه، قطب الدّين.

ثمّ سار إلى الرقّه و بها أولاد أميرک الجاندار، و قد مات أبوهم، فشفع إليه بعض الأمراء فى إبقائها عليهم، فغضب، قال: «هلّا شفعتم فى أولاد أخى لمّا أخذت منهم حرّان، و كانت الشّفاعه فيهم من أحب الأشياء إلىّ»؛ و أخذها منهم.

و خرج مجد الدّين بن الدّايه من حلب إلى الغزاه، فى شهر رجب من سنه خمس و خمسين، فلقى جوسلين بن جوسلين، فكسره، و أخذه أسيرا، و دخل به إلى قلعه حلب.

ثمّ إنّ الفرنج أغاروا على بلد عيّن تاب، فأخذوا التّركمان، و نهبوا أغنامهم، و عادوا يريدون أنطاكيه، فخرج إليهم مجد الدّين، و لقيهم بالجومه(۱)، و كسرهم، و قتل منهم خلقا عظيما، و أسر البرنس الثّانى و خلقا معه، و دخل بهم إلى حلب فى مستهل ذى الحجه من سنه ست و خمسين و خمسمائه.

و فى سنه سبع، ولى نور الدّين كمال الدّين أبا الفضل محمّد بن الشّهرزورى قضاء ممالكه كلّها؛ و أمر القضاه ببلاده أن يكتبوا فى الكتب بالنّيابه عنه، و كان قد حلف له على ذلک و عاهده عليه، و كان ذلک بدمشق

۱- الجومه: من نواحى حلب. معجم البلدان.

فی السّنه المذکوره، فامتنع زکیّ الدّین قاضی دمشق، فعزل؛ و کتب إلی جدّی أبی الفضل بحلب، فامتنع أیضا.

و وصل نور الـدّین و معه مجـد الدّین بن الدّایه، و اسـتدعاه نور الدّین إلی القلعه، و قال: «کنّا قد عاهدنا کمال الدّین، و حلفنا له علی هذا الأمر، و ما أنت إلّا نائبی، و له اسم قضاء البلاد لا غیر» فامتنع و قال:

«لا أنوب عن مکانین». فولّی قضاء حلب محیی الـدّین أبا حامـد بن کمال الـدّین، و أبا المفاخر عبد الغفور بن لقمان الکردی؛ و ذلک بإشاره مجد الدّین لوحشه کانت بینه و بین جدّی.

[هزیمه نور الدین فی البقیعه]

ثمّ إنّ نور الدّین جمع العساکر بحلب، فی سنه سبع، و سار إلی حارم، و قاتلها، فجمع الفرنج جموعهم، و ساروا إلیه. فطلب منهم المصاف فلم یجیبوه، و تلطّفوا معه حتّی عاد إلی حلب.

ثمّ جمع العساکر فی سـنه ثمان و خمسـین و خمسـمائه، و دخل إلی بلاد الفرنج، و نزل فی البقیعه تحت حصن الأکراد محاصـرا له، و عازما علی أن یقصد طرابلس.

فـاجتمع الفرنـج، و خرج معهم الـدّوقس الرّومی، و کـان قـد خرج فی جمـع کـثیر من الرّوم، و اتّفق رأیهم علی کبسه المسـلمین نهارا، فإنّهم یکونون آمنین، فرکبوا لوقتهم و لم یتوقفوا، و ساروا مجدین إلی أن قربوا من یزک(۱)

۱- الیزک: الحرس المتقدم أو الطلائع.

المسلمين، فلم يكن لهم بهم طاقه، و أرسلوا إلى نور الدّين يعرّفونه الحال، فرهقهم الفرنج بالحمله عليهم فلم يثبت المسلمون و عادوا منهزمين إلى نور الدّين و الفرنج فى ظهورهم، فوصلوا جميعا إلى عسكر نور الدّين، حتّى خالطهم الفرنج، فقتلوا، و أسروا، قتلا عظيما و أسرا كبيرا.

و كان الدّوقس أشدّهم على المسلمين، فلم يبق أصحابه على أحد و قصدوا خيمه نور الدّين، و قد ركب فيها فرسه، فنجا بنفسه؛ و لسرعته ركب الفرس و الشّبحه فى رجله، فنزل انسان كردىّ، و فداه بنفسه، فقطع الشّبحه، و نجا نور الدّين، و قتل الكردىّ، فأحسن إلى مخلفيه، و وقف عليهم الوقوف(۱).

و وصل نور الدّين إلى بحيره قدس(۲)، و بينه و بين المعركه نحو أربعه فراسخ؛ و تلاحق به من سلم من العسكر، فقال له بعضهم: «المصلحه أن نسير، فانّ الفرنج ربّما طمعوا و جاؤوا إلينا، و نحن على هذه الحال»؛ فوبّخه و أسكته، و قال: «إذا كان معى ألف فارس التقيتهم، و و اللّه لا أستظلّ بسقف حتى آخذ بثأرى و ثأر الاسلام».

و أرسل إلى حلب و دمشق، و أحضر الأموال و الثّياب و الخيام و السّلاح و الخيل، فأعطى الناس عوضا عمّا أخذ منهم بقولهم، و أصبح عسكره كأن لم يهزم و لم ينكب، و كلّ من قتل أعطى أولاده أقطاعه.

۱- انظر وليم الصورى ص ۸۸۷- ۸۸۸.

۲- بحيره قدس هى بحيره قطينه حاليا قرب حمص.

و لمّا رأى أصحاب نور الدّين كثره خرجه قال له بعض صحابه السّوء:

«إنّ لك فى بلادك إدرارات و صلات و وقوفا كثيره على الفقهاء، و الفقراء، و القرّاء، و الصوفيّه و غيرهم؛ فلو استعنت بها فى هذا الوقت لكان أصلح»، فغضب من ذلك و قال: «و اللّه إنّنى لا أرجو النّصر إلّا بدعاء أولئك، فإنّما ترزقون و تنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنّى و أنا نائم على فراشى بسهام لا تخطى ء، و هؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال، كيف يحلّ لى أن أعطيه غيرهم!».

و قيل: إنّ برهان الدّين البلخى قال لنور الدّين: «أتريدون أن تنصرا و فى عسكركم الخمور و الطّبول و الزّمور، كلّا و اللّه». فلمّا سمع نور الدّين كلامه عاهد اللّه على التّوبه، و نزع عنه ثيابه تلك التى كان يلبسها، و التزم بلبس الخشن؛ و بطل جميع ما كان بقى فى بلاده من الأعشار و المكوس و الضّرائب؛ و منع من ارتكاب الفواحش، و كتب إلى البلاد إلى زهّادها و عبّادها يذكر لهم ما نال المسلمين من القتل و الأسر، و يستمدّ منهم الدّعاء، و ان يحثّوا المسلمين على الغزاه؛ و كاتب الملوك الإسلاميه يطلب منهم النجد و الاستعداد، و امتنع من النّوم على الوطى ء و عن جميع الشّهوات.

[الوزير شاور السعدى فى دمشق]

و راسله الفرنج فى طلب الصّلح فامتنع، فبينا هو فى الاستعداد للجهاد إذ ورد عليه فى شهر ربيع الأوّل، من سنه تسع و خمسين و خمسمائه، شاور وزير العاضد بمصر إلى دمشق، ملتجئا إليه، و مستجيرا به على ضرغام، و كان قد نازعه فى الوزاره و غلب عليها.

[حمله شیرکوه الأولی إلی مصر]

و طلب منه إرسال العسکر معه إلی مصر لیعود إلی منصبه، و یکون لنور الدّین ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساکر، و یکون نائبه مقیما بعساکره فی مصر، و یتصرّف بأمر نور الدّین و اختیاره، فبقی متردّدا بین أن یفعل ذلک و بین أن یجعل جلّ قصده إلی الفرنج، ثمّ قوی عزمه و سیّر أسد الدّین شیرکوه بن شادی، فی عسکر معه، فی جمادی الأولی من سنه تسع و خمسین، و تقدّم إلی أسد الدّین أن یعید شاور إلی منصبه.

و سار نور الدّین إلی طرف بلاد الفرنج ممّا یلی دمشق، بما بقی من العساکر لیمنع الفرنج من التّعرّض لأسد الدّین و شاور فی طریقهما، فاشتغل الفرنج بحفظ بلادهم من نور الدّین عن التّعرّض لهما، و وصل أسد الدّین و شاور إلی بلبیس، فخرج إلیهم ناصر الدّین أخو ضرغام بعسکر المصریّین، و لقیهم فانهزم و عاد إلی القاهره.

و وصل أسد الدّین إلی القاهره، فنزل علیها فی آخر جمادی الآخره، فخرج ضرغام فقتل، و قتل أخوه، و خلع علی شاور و أعید إلی الوزاره.

و أقام أسد الدّین بظاهر القاهره، فغدر شاور، و عاد عمّا کان قرّره مع نور الدّین، و أمر أسد الدّین بالعود إلی الشّام فامتنع، و طلب ما کان استقرّ فلم یجبه إلیه، فأرسل أسد الدّین نوّابه فتسلّموا بلبیس، و حکم علی البلاد الشرقیه.

فأرسل شاور إلی الفرنج، و استنجد بهم، و خوّفهم من نور الدّین إن ملک مصر، فسارعوا إلی تلبیته، و طمعوا فی ملک الدیار المصریّه، و ساروا

إلى بلبيس، و سار نور الدّين إلى طرف بلادهم ليمنعهم عن المسير، فلم يلتفتوا، و تركوا فى بلادهم من يحفظها.

و سار ملك القدس فى الباقين إلى بلبيس، و استعان بجمع كثير كانوا خرجوا إلى زياره القدس؛ و أقام أسد الدّين ببلبيس، و حصره الفرنج، و العسكر المصرىّ ثلاثه أشهر و هو يغاديهم القتال و يراوحهم، فلم يظفروا منه بطائل، مع أنّ سور بلبيس قصير، و هو من طين(۱).

فعند ذلك خرج نور الدّين لقصد بلاد الفرنج، و نزل إلى حلب و جمع العساكر و أرسل إلى أخيه قطب الدّين صاحب الموصل، و إلى فخر الدّين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا و إلى نجم الدّين ألبى صاحب ماردين و غيرهم من أصحاب الأطراف و استنجد بهم.

فسار قطب الدّين و مقدّم عسكره زين الدّين على كوچك، و سيّر صاحب ماردين عسكره؛ و أما صاحب الحصن فقال له خواصّه و ندماؤه:

«على أى شى ء عزمت»؟ فقال: «على القعود، فإنّ نور الدّين قد تحشّف من كثره الصّوم و الصّلاه، فهو يلقى نفسه و من معه فى المهالك».

فلمّا جاء الغد أمر العسكر أن يتجهّز للغزاه فسألوه عمّا صدفه عن رأيه، فقال: «إنّ نور الدّين إن لم أنجده خرجت بلادى عن يدى، فانه قد كاتب زهادها و المنقطعين عن الدّنيا يستمدّ منهم الدّعاء، و يطلب منهم أن

۱- انظر وليم الصورى ص ۸۹۴- ۹۲۲.

يحثّوا المسلمين على الغزاه، و قد قعد كلّ واحد منهم و معه أتباعه و أصحابه، و هم يقرؤون كتب نور الدّين، و يبكون، فأخاف أن يجتمعوا على لعنتى و الدعاء علىّ». ثم تجهّز و سار بنفسه.

و لمّا اجتمعت العساكر خرج نور الدّين إلى حارم، و حصرها، و نصب المجانيق عليها، و زحف إليها، فخرج البرنس بيمند، و القمص صاحب طرابلس، و ابن جوسلين و الدوك مقدّم كبير من الروم. و ابن لاون ملك الأرمن، و جمعوا جميع من بقى من الفرنج بالسّاحل، و قصدوا نور الدّين.

فرحل إلى أرتاح ليتمكّن منهم إن طلبوه (و يبتعدوا) عن البلاد إن لقوه؛ و سيّر أثقاله إلى تيزين(١)، فساروا فنزلوا على الصفيف(٢)، ثم عادو إلى حارم، فتبعهم نور الدّين على تعبئه الحرب، فلمّا تقاربوا اصطفّوا للقتال فحمل الفرنج على ميمنه المسلمين، و فيها عسكر حلب و صاحب الحصن، فانهزم المسلمون حتّى وصلوا إلى جدارهم؛ و نور الدّين واقف بازائهم على تلّ هناك يتضرّع إلى اللّه، و هو مكشوف الرّأس.

و بقى راجل الفرنج فوق عمّ، ممّا يلى حارم بالصّفيف، فعطف عليهم زين الدّين علىّ كوچك فى عسكر الموصل، و كان نور الدين قد جعله كمينا فى طرف العمق، و آجام القصب، فقتلهم عن آخرهم.

١- تيزين من نواحى حلب، كانت تعد من أعمال قنسرين. معجم البلدان.

٢- فى الروضتين نقلا عن العماد و الأصفهانى« نزلوا على عم» الروضتين ج ١ ص ١٣٣، هذا و يوجد الآن فى منطقه حارم قريه اسمها صفصافه.

و رجعت الخیّاله من الفرنج خوفا علی الرّاجل أن یتبعوا المسلمین، فیقع المسلمون علیهم، فوجدوا الأمر علی ما قدّروه، فرأوا الرّجاله منهم قتلی و أسری، و اتّبعهم نور الدین مع من انهزم من المسلمین، فأحاطوا بهم من جمیع الجهات، فاشتدّ الحرب، و کثر القتل فی الفرنج، فوقعت علیهم الغلبه.

و عدل المسلمون إلی الأسر، فأسروا صاحب أنطاکیه، و صاحب طرابلس، و الدّوک مقدّم الروم، و ابن جوسلین، و لم یسلم إلّا ملیح بن لاون، قیل إنّ الیاروقیّه أفرجوا له حتی هرب، لأنّه کان خالهم، و کان عدّه القتلی تزید علی عشره آلاف.

و سار إلی حارم فملکها فی شهر رمضان من السنه، و بث سرایاه فی أعمال أنطاکیه، فنهبوها و أسروا أهلها، و باع البرنس بمال عظیم و أسری من المسلمین(۱).

ثمّ سار فی هذه السّنه إلی دمشق، بعد أن أذن لعسکر الموصل و دیار بکر بالعود إلی بلادهم، ثمّ خرج إلی بانیاس، فحصرها و قاتلها، و کان معه أخوه نصره الدّین أمیر أمیران- و کان قد رضی عنه و سامحه- و هو علی حارم، بعد أن دخل إلی الفرنج، فأصابه سهم أذهب إحدی عینیه، فقال له: «لو کشف لک عن الأجر الّذی أعدّ لک لتمنّیت ذهاب الأخری»، و جدّ فی حصارها و فتحها، و ملأ القلعه بالذّخائر و الرّجال، و شاطر الفرنج

۱- انظر و قارن الروضتین ج ۱ ص ۱۳۳- ۱۳۴.

فی أعمال طبریه، و قرّروا له علی ما سوی ذلک مالا فی کل سنه.

و وصل خبر فتح حارم و بانیاس إلی الفرنج النّازلین علی بلبیس، فأرادوا العود إلی بلادهم، فراسلوا أسد الدّین فی الصّلح رجاء أن یلحقوا بانیاس، فاتّفق الحال علی أن یعود إلی الشّام، و یسلّم ما بیده من أعمال مصر إلی أهلها، و لم یکن عنده علم بما جری لنور الدّین بالشّام، و کانت الذّخائر قد قلّت عنده ببلبیس.

و خرج من الدّیار المصریه إلی الشّام، و جاء الفرنج لیدرکوا بانیاس، فوجدوا الأمر قد فات، و کشف أسد الدّین الدیار المصریه، و استصغر أمر من بها.

[حمله شیرکوه الثانیه]

و دخلت سنه إحدی و ستّین و خمسمائه، فسار نور الدّین إلی المنیطره(۱) جریده فی قله العسکر، علی غفله من الفرنج، و حصر حصنها، و أخذه عنوه، و قتل من به، و سبی و غنم غنیمه کثیره، و أیس الفرنج من استرجاعه بعد أن تجمّعوا له و تفرّقوا.

و تحدّث أسد الدّین مع نور الدّین، فی عوده إلی الدّیار المصریّه، فلمّا رأی جدّه سیّره إلیها فی ألفی فارس من خیار العسکر، فی سنه اثنتین و ستّین و خمسمائه.

فسار علی البرّ، و ترک بلاد الفرنج علی یمینه، فوصل الدیار المصریّه

۱- حصن بالشام قرب طرابلس. معجم البلدان.

و عبر النّيل إلى الجانب الغربى عند أطفيح(۱)، و حكم على البلاد الغربيّه، و نزل بالجيزه مقابل مصر، فأقام نيّفا و خمسين يوما.

فأرسل شاور و استنجد بالفرنج، فسار أسد الدّين إلى الصّعيد، و بلغ إلى موضع يعرف بالبابين(۲)؛ و سارت العساكر المصريّه و الفرنجيّه خلفه، فوصلوا إليه و هو على تعبئه و قد جعل أثقاله فى القلب ليتكثّر بها؛ و جعل ابن أخيه صلاح الدين فى القلب، و أوصاهم متى حملوا عليه أن يندفع بين أيديهم قليلا، فإذا عادوا فارجعوا فى أعقابهم.

و اختار من يثق بشجاعته، و وقف بهم فى الميمنه، فحمل الفرنج على القلب، فاندفع بين أيديهم غير مفرقين، فحمل أسد الدّين بمن معه على من بقى منهم، فهزمهم و وضع السّيف فيهم، و أكثر القتل و الأسر، و عاد الذين حملوا على القلب فوجدوا أصحابهم قد مضوا قتلا و أسرا فانهزموا.

و سار أسد الدّين إلى الاسكندريّه، ففتحها باتّفاق من أهلها، و استناب بها صلاح الدين، و عاد إلى الصّعيد، و جبى أمواله.

و تجمّع الفرنج و المصريّون، و حصروا صلاح الدّين بالاسكندريّه، فصبروا على الحصار إلى أن عاد أسد الدّين، فوقع الصّلح على أن بذلوا لأسد الدين خمسين ألف دينار، سوى ما أخذ من البلاد، و أن الفرنج

۱- بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر، على شاطى ء النيل فى شرقيه. معجم البلدان.

۲- على عشره أميال من المنيه. وليم الصورى ص ۹۱۱- ۹۱۳ مع وصف المعركه بتفاصيل مفيده جدا.

لا يقيمون فى البلاد، فاصطلحوا على ذلك، و عاد إلى الشّام، و تسلّم المصريّون الاسكندريه(۱).

و أمّا نور الدّين فإنّه جمع العساكر فى هذه السّنه، و دخل من حمص إلى بلاد الفرنج، فنازل عرقه، و نهب بلدها، و خرّب بلادهم، و فتح صافيتا و العريمه، و عاد إلى حمص، و خرج إلى بانياس، و خرج إلى هونين(۲)، فانهزم الفرنج عنه و أحرقوه، فوصل إليه نور الدين من الغد، فخرب سوره و عاد.

و كان حسّان صاحب منبج قد مات، و أقطع نور الدّين منبج ولده غازى بن حسّان، فعصى عليه فى هذه السّنه، فسيّر إليه عسكرا، و أخذوها منه فأقطعها أخاه قطب الدّين ينال بن حسّان، و هو الّذى ابتنى المدرسه الحنفيّه بمنبج.

و فى سنه ثلاث و ستّين و خمسمائه، نزل شهاب الدّين مالك بن علىّ بن مالك صاحب قلعه جعبر ليتصيّد، فأخذه بنو كلاب أسيرا و حملوه إلى نور الدّين فى رجب، فاعتقله و أحسن إليه، و رغّبه فى الأقطاع فلم يجبه، فعدل إلى الشدّه و العنف.

ثمّ سيّر إليها عسكرا فلم يقدر على فتحها، فعدل إلى اللّين مع صاحبها، إلى أن اتّفق الحال على أن عوّضه عنها بسروج و بزاعا و الملوحه(۳)،

۱- انظر وليم الصورى ص ۹۱۳- ۹۲۲.

۲- هونين حصن بجبل عامله فى جنوب لبنان الحالى. انظر معجم البلدان.

۳- الملوحه قريه كبيره من قرى حلب.

و سلّم إليه القلعه فى سنه أربع و ستّين، و قيل لمالك: «أيّما أحبّ إليك سروج أو القلعه؟» فقال: «هذه أكثر مالا، و أمّا العزّ ففارقناه بالقلعه».

و فى هذه السّنه أطلق نور الدّين فى بلاده بعض ما كان قد بقى من المظالم و المؤن.

[وزاره شيركوه للعاضد]

ثمّ إنّ الفرنج طمعوا فى الدّيار المصريّه فصعدوا إليها فى سنه أربع و ستّين و خمسمائه، و أخذوا بلبيس، و ساروا إلى القاهره فقاتلوها؛ و سيّر العاضد يستغيث إلى نور الدّين، و سيّر شعور نسائه فى الكتب، فوصله الرّسول و هو بحلب، و بذل له ثلث بلاد مصر، و أن يكون أسد الدّين مقيما عندهم.

و كتبوا إلى أسد الدّين بمثل ذلك، فوصل إلى نور الدين إلى حلب من حمص و قد عزم على الايفاد إليه، فأمره بالتجهّز إلى مصر، و أعطاه مائتى ألف دينار سوى الثّياب و السّلاح و الدّواب، و حكمه فى العسكر و الخزائن فاختار ألفى فارس، و أخذ المال و جمع ستّه آلاف فارس، و سار هو و نور الدّين إلى دمشق، فوصلها سلخ صفر، و رحل إلى رأس الماء(۱).

و أضاف إلى أسد الدّين جماعه من الأمراء منهم: عزّ الدّين جورديك، و غرس الدّين قلج، و شرف الدّين برغش، و عين الدّوله بن ياروق، و قطب الدّين ينال بن حسّان، و صلاح الدّين ابن أخيه.

۱- نبع السريا فى حوران الذى تشرب منه بلده الشيخ مسكين.

و سار أسد الدّين، فلمّا قارب مصر رحل عنها الفرنج إلى بلادهم، و وصل أسد الدّين إلى القاهره سابع جمادى الآخره، و دخل إليها و اجتمع بالعاضد، و خلع عليه و عاد إلى خيامه، و فى نفس شاور منه ما فيها، و لا يتجاسر على إظهاره.

و كان شاور يخرج فى الأحيان إلى أسد الدّين يجتمع به، فخرج فى بعض الأيّام على عادته فلم يجده فى الخيام، و كان قد مضى لزياره قبر الشّافعى- رضى اللّه عنه- فلقيه صلاح الدّين، و جورديک، فى جمع من العسكر و خدموه، و أعلموه أنّ أسد الدّين قد مضى للزّياره فقال: «نمضى إليه» فساروا جميعا، فساوره صلاح الدّين و جورديک، و ألقياه إلى الأرض، فهرب عنه أصحابه و أخذ أسيرا.

و أرسلوا إلى أسد الدّين فحضر فى الحال، و جاءه التّوقيع فى الحال بالوزاره على يد خادم خاص، و يقول: «لا بدّ من رأسه»، جريا على عادتهم فى وزرائهم أنّ الذى يقوى على الآخر يقتله، فقتل و أنفذ رأسه إلى العاضد(۱).

و أنفذ إلى أسد الدّين خلعه الوزاره، فسار و دخل القصر، و ترتّب وزيرا فى سابع عشر شهر ربيع الآخر، و دام آمرا ناهيا إلى أن عرض له خوانيق، فمات فى الثّانى و العشرين من جمادى الآخره(۲).

۱- انظر لمزيد من التفاصيل وليم الصورى ص ۹۲۸- ۹۳۶.

۲- توفى نتيجه نهمه و تخليطه بالطعام انظر ما ذكره ابن الأزرق الفارقى ص ۵۳۱۹ من الموسوعه الشاميه.

و فوّض الأمر بعده إلى ابن أخيه، و كان جماعه من الأمراء الذين كانوا مع أسد الدّين قد تطاولوا إلى الوزاره، منهم: عين الدّوله بن ياروق، و سيف الدّين المشطوب، و شهاب الدّين محمود الحارمىّ- خال السّلطان صلاح الدّين- و قطب الدّين ينال بن حسّان.

[وزاره صلاح الدين للعاضد]

فأرسل العاضد إلى صلاح الدّين، و أحضره عنده، و ولّاه الوزاره بعد عمّه، و خلع عليه، و لقّبه بالملك النّاصر، فاستتبّت أحواله، و بذل المال، و تاب عن شرب الخمر، و أخذ فى الجدّ و التشمير فى أموره كلّها، و كان الفقيه عيسى الهكّارى معه، فميّل الأمراء الذين كانوا قد طمعوا بالوزاره إلى الانقياد إليه، فأجابوا سوى عين الدّوله بن ياروق، فإنّه امتنع، و عاد إلى نور الدّين إلى الشّام.

فاستمرّ الملك الناصر بالدّيار المصريّه وزيرا، و هو نائب عن نور الدّين، و كان إذا كتب إليه كتابا يكتب: «الأمير الاسفهسلار، و كافّه الأمراء بالدّيار المصريّه يفعلون كذا». و تكتب العلامه على رأس الكتاب، و لا يذكر اسمه.

و سيّر الملك النّاصر، و طلب أباه نجم الدّين و أهله، فسيّرهم نور الدّين إليه مع عسكر، و اجتمع معهم من التّجّار خلق عظيم، و ذلك فى سنه خمس و ستّين.

و خاف نور الدّين عليهم من الفرنج، فسار فى عساكره إلى الكرك فحصره و نصب عليه المجانيق، فتجمّع الفرنج، و ساروا إليه و تقدّمهم ابن

الهنفری، و ابن الرقیق(۱)، فرحل نور الدّین نحوهما قبل أن تلحقهما بقیّه عساکر الفرنج فرجعا خوفا منه و اجتمعا ببقیّه الفرنج.

و سلک نور الدّین وسط بلادهم، فنهب و أحرق ما فی طریقه إلی أن وصل إلی بلاد الاسلام، فنزل علی عشترا(۲) علی عزم الغزاه، فأتاه خبر الزّلازل الحادثه بالشّام، فإنّها خربت حلب خرابا شنیعا، و خرج أهلها إلی ظاهرها.

[أخبار الزلازل]

و تواترت الزّلازل بها أیّاما متعدّده، و کانت فی ثانی عشر شوّال من السّنه یوم الاثنین طلوع الشمس، و هلک من النّاس ما یزید علی خمسه آلاف نفر ذکر و انثی، و کان قد احترق جامع حلب و ما یجاوره من الأسواق قبل ذلک فی سنه أربع و ستّین و خمسمائه، فاهتمّ نور الدّین فی عمارته و إعادته و الأسواق التی تلیه إلی ما کانت علیه، و قیل: إنّ الاسماعیلیّه أحرقوه.

و بلغه أیضا وفاه مجد الدّین ابن دایته، أخیه من الرضاعه بحلب، فی شهر رمضان سنه خمس و ستّین و خمسمائه، فتوجّه نور الدّین إلی حلب، فوجد أسوارها و أسواقها قد تهدّمت.

و نزل علی ظاهر حلب حتی أحکم عماره جمیع أسوارها، و بنی الفصیل الدائر علی البلد، و هو سور ثان.

۱- فی الروضتین ج ۱ ص ۱۸۳:« و ساروا الیه و ان ابن الهنفری و فیلیب بن الرقیق و هما فارسا الفرنج فی وقتهما فی المقدمه إلیه».

۲- علی مقربه من بلده نوی فی حوران سوریه.

و رمّم نوّابه ما خرب من الحصون و القلاع مثل بعلبک، و حمص و حماه، و بارين، و غيرها.

[توجه نور الدين إلى الموصل]

و خرج نور الدّين إلى تلّ باشر، فوصله الخبر بوفاه أخيه قطب الدّين بالموصل فى ذى الحجّه، و كان أوصى بالملك لابنه الأكبر عماد الدّين زنكى، و كان طوع عمّه نور الدّين لكثره مقامه عنده، و لأنّه زوج ابنته.

ثمّ إنّ فخر الدّين عبد المسيح و خاتون ابنه تمرتاش بن إيلغازى زوجه قطب الدّين، و هى والده سيف الدّين غازى بن قطب الدّين اتفقا على صرف قطب الدّين عن وصيّته لابنه عماد الدّين إلى سيف الدّين غازى.

فرحل عماد الدّين إلى عمّه نور الدّين مستنصرا به ليعينه على أخذ الملك له؛ فسار نور الدّين فى سنه ستّ و ستّين و خمسمائه، و عبر الفرات عند قلعه جعبر فى مستهلّ المحرّم، و قصد الرّقّه فحصرها و أخذها، ثم سار فى الخابور، فملكه جميعه، و ملك نصيبين، و أقام بها يجمع العساكر، و كانت أكثر عساكره فى الشّام فى مقابله الفرنج.

فلمّا اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها، و نصب عليها المجانيق، و فتحها فسلّمها إلى عماد الدّين زنكى ابن أخيه، و جاءته كتب الأمراء بالموصل يبذلون له الطّاعه، و يحثّونه على الوصول إليهم، فسار إلى الموصل.

و كان سيف الدّين غازى و عبد المسيح قد سيّرا عزّ الدّين مسعود بن قطب الدّين إلى أتابک شمس الدّين إيلدكز صاحب أذربيجان و أصبهان،

يستنجدانه على نور الدّين، فأرسل إيلدكز إليه رسولا ينهاه عن التعرّض للموصل فقال نور الدين: «قل لصاحبك أنا أصلح لأولاد أخى منك، فلا تـدخل بيننا، و عنـد الفراغ من إصـلاح بلادهم يكون لى معك الحديث على باب همذان، فانك قد ملكت هذه المملكه العظيمه، و أهملت الثّغور حتّى غلب الكرج عليها؛ و قد بليت أنا ولى مثل ربع بلادك بالفرنج، فأخذت معظم بلادهم، و أسرت ملوكهم».

و أقـام على الموصل فعزم من بها من الأمراء على مجاهره عبـد المسـيح بالعصـيان، و تسـليم البلـد إلى نور الـدّين، فعلم بـذلك، فأرسل إلى نور الدين فى تسـليم البلد على أن يقره بيد سـيف الدّين؛ و طلب الأمان لنفسه و على أن يمضى صحبته إلى الشّام، و يقطعه ما يرضيه فتسلّم البلد، و أبقى فيه سيف الدّين غازى.

و عاد إلى حلب فدخلها فى شعبان من هذه السّنه.

[الغاء الخطبه الفاطميه]

و كتب إلى الملك النّاصر صلاح الدّين يأمره بقطع الخطبه العاضديّه و إقامه الخطبه المستضيئيّه العبّاسيّه، فامتنع و اعتذر بالخوف من قيام أهل الدّيار المصـريه عليه، و كان يؤثر أن لا يقطع الخطبه للمصريّين فى ذلك الوقت، خوفا من نور الدّين أن يدخل إلى الدّيار المصريّه فيأخذها منه، و إذا كان العاضد معه امتنع و أهل مصر معه، فلم يقبل عذره نور الدّين، و ألحّ عليه.

و كان العاضد مريضا فخطب للمستضى ء فى الديار المصريّه، و توفىّ

العاضد، و لم يعلم بقطع الخطبه، و قيل: إنّه علم قبل موته؛ و كان ذلك فى سنه سبع و ستّين و خمسمائه.

و فى هذه السّنه تتبع نور الدّين رسوم المظالم و المؤن فى جميع البلاد الّتى بيده، فأزالها و عفى رسومها و محا آثار المنكرات و الفواحش، بعد ما كان أطلق من ذلك فى تواريخ متقدّمه، و كان مبلغ ما أطلقه أوّلا و ثانيا خمسمائه ألف و ستّه و ثمانين ألفا و أربعمائه و ستّين دينارا.

و كان رأى وزيره موفّق الدّين خالد بن القيسرانى فى المنام كأنّه يفصل ثياب نور الدين، ففسّر ذلك عليه، ففكّر فى ذلك و لم يردّ عليه جوابا، فخجل وزيره و بقى أيّاما و استدعاه، و قال: «تعال يا خالد، اغسل ثيابى»؛ و أمره فكتب توقيعا بازاله ما ذكرناه.

و سار الملك النّاصر من مصر غازيا، فنازل حصن الشّوبک و حصره، فطلبوا الأمان و استمهلوه عشره أيّام، فلمّا سمع نور الدّين بذلک سار عن دمشق، فدخل بلاد الفرنج من الجهه الأخرى، فقيل للملک الناصر: «إن دخل نور الدين من جانب و أنت من هذا الجانب ملک بلاد الفرنج، فلا يبقى لک معه بديار مصر مقام، و إن جاء و أنت ههنا فلا بدّ لک من الاجتماع به، و يبقى هو المتحكم فيک بما شاء؛ و المصلحه الرّجوع إلى مصر».

فرحل عن الشّوبک إلى مصر، و كتب إلى نور الدّين يعتذر باختلال أمور الدّيار المصريّه و أنّ شيعتها عزموا على الوثوب بها، فلم يقبل نور الدّين

عذره، و تغیّر علیه و عزم علی الدّخول إلی الدیار المصریّه(۱).

[بدایات الخلاف بین صلاح الدین و نور الدین]

فسمع الملک النّاصر، فجمع أباه نجم الدّین و خاله شهاب الدّین، و تقیّ الدّین عمر، و غیرهم من الأمراء، و أعلمهم ما بلغه من حرکه نور الدّین و استشارهم، فلم یجبه أحد، فقام تقیّ الدّین، و قال: «إذا جاءنا قاتلناه» و وافقه غیره من أهله، فشتمهم نجم الدّین أیّوب والد الملک النّاصر، و أقعد تقیّ الدّین، و قال للملک النّاصر: «أنا أبوک، و هذا شهاب الدّین خالک، و نحن أکثر محبّه لک من جمیع من تری؛ و و اللّه لو رأیت أنا و هذا خالک نور الدّین لم یمکننا إلّا أن نقبّل الأرض بین یدیه، و لو أمرنا أن نضرب عنقک بالسّیف لفعلنا، فإذا کنّا نحن هکذا، فما ظنّک بغیرنا، و کلّ من نراه عندک، فهو کذلک، و هذه البلاد لنور الدّین، و نحن ممالیکه و نوّابه فیها، فان أراد عزلک سمعنا و أطعنا، و الرّأی أن تکتب کتابا مع نجّاب و تقول له: بلغنی أنّک ترید الحرکه لأجل البلاد، و لا حاجه إلی ذلک بل یرسل المولی نجّابا یضع فی رقبتی مندیلا، و یأخذنی إلیک». و تفرّقوا.

فلمّا خلا نجم الدّین أیّوب بالملک النّاصر، قال له: «کیف فعلت مثل هذا؟ أما تعلم أنّ نور الدّین إذا سمع عزمنا علی منعه و محاربته جعلنا أهمّ الوجوه إلیه، و حینئذ لا نقوی به، و أمّا إذا بلغه طاعتنا له ترکنا و اشتغل بغیرنا؛ و الأقدار بید اللّه، و و اللّه لو أراد نور الدّین قصبه من قصب السّکّر

۱- انظر ولیم الصوری ص ۹۴۸- ۹۵۳.

لقاتلته عليها حتّى أمنعه أو أقتل». ففعل ما أشار به عليه والده، فترك نور الدّين قصده، و اشتغل بغيره.

و خرج نور الدّين بالعساكر، ففتح حصن عرقه، و صافيتا، و عريمه(۱)، و نهب و خرّب بلاد الفرنج ثم هادنهم.

ثمّ إن الفرنج ساروا إلى بلد حوران فى سنه ثمان و ستّين للغاره، فسار نور الدّين إليهم، فنزل عشترا، و سيّر عسكره إلى أعمال طبريّه، فغنموا غنائم عظيمه، و عادوا.

[علاقات نور الدين مع مليح الأرمنى]

و كان نور الدّين قد استخدم مليح بن لاون، ملك الأرمن، و أقطعه أقطاعا من بلاد الإسلام، و حضر معه حروبا متعدّده فأنجده فى هذه السّنه بطائفه من عسكره، فدخل مليح إلى أذنه و طرسوس و المصّيصه، و فتحها من يد ملك الرّوم، و أرسل إلى نور الدّين كثيرا من غنائمهم و ثلاثين أسيرا من أعيانهم(۲).

و قصد قلج أرسلان ذا النّون بن الدّانشمند صاحب ملطيه و سيواس(۳)، و أخذ بلاده، و أخرجه عنها طريدا، فاستجار بنور الدين، و وصل إليه فأكرمه، و سيّر إلى قلج أرسلان يشفع إليه فى إعاده بلاده إليه،

۱- قلعه قريبه من منطقه صافيتا.

۲- انظر وليم الصورى ص ۹۶۲- ۹۶۳.

۳- هى الآن مركز ولايه فى تركيه و تبعد عن أنقره مسافه ۲۲۵ كم.

فلم يفعل فسار نور الـدّين إليه فى هـذه السّنه فابتدأ بكيسوم(۱)، و بهسنى(۲)، و مرعش، و مرزبـان(۳)، و مـا يليها، و كان ملكه مرعش، فى أوائل ذى القعده، و الباقى بعدها.

و سيّر طائفه من عسكره إلى سيواس، فملكها؛ و راسله قلج أرسلان فى الصّلح، و أتاه من أخبار الفرنج ما أزعجه فصالحه، و أعطى سيواس ذا النّون، و جعل معه قطعه من عسكره، و شرط على قلج أرسلان إنجاده بعساكره إلى الغزاه.

و اتّفق نور الـدّين و صلاح الـدّين على أن يصل كلّ واحد منهما من جهته، و تواعدا على يوم معلوم على أن يتّفقا على قتال الفرنج، و أيهما سبق أقام للآخر منتظرا، إلى أن يقدم عليه، فسبق صلاح الدّين و وصل إلى الكرك و حصره.

و سار نور الدين فوصل الرّقيم(۴)- و بينه و بين الكرك مرحلتان- فخاف صلاح الدّين، و اتّفق رأيه و رأى أهله على العود إلى مصر لعلمهم بأنّهما متى اجتمعا كان نور الدّين قادرا على أخذ مصر منه.

[وفاه نجم الدين أيوب و نور الدين]

فعاد إلى مصر، و أرسل الفقيه عيسى إلى نور الدّين يعتذر عن رحيله

۱- انظر حولها الأعلاق الخطيره- قسم حلب- ج ۲ ص ۴۴۲- ۴۴۳.

۲- انظر حولها بغيه الطلب ص ۳۲۶.

۳- انظر حولها بغيه الطلب ص ۳۲۵.

۴- قال ياقوت فى معجمه:« و بقرب البلقاء من أطراف الشام موضع يقال له الرقيم، يزعم بعضهم أن به أهل الكهف» و المعنى بهذا منطقه البتراء بالأردن.

بأنّه كان استخلف أباه نجم الدّين أيّوب على مصر، و أنّه بلغه أنّه مريض، و يخاف أن يحدث به حادث الموت فتخرج البلاد عن أيـديهم، و لم يكن مريضـا، و أرسل مع الفقيه عيسـى من التّحف و الهـدايا ما يجلّ عن الوصف، فجاء إليه فأعلمه برساله صـلاح الدّين، فعظم ذلك عليه و لم يظهر التأثّر بذلك، و قال: «حفظ مصر أهمّ عندنا».

و اتّفق أنّ صـلاح الـدّين وصـل إلى مصـر فوجـد أبـاه قـد سـقط عن الفرس، و بقى أيّاما و مـات، و هو غـائب عنه، فى السّابع و العشرين من ذى الحجّه من سنه ثمان و ستّين و خمسمائه.(۱)

و خاف صـلاح الدّين من نور الدّين أن يدخل مصر فيأخذها منهم، فشرع فى تحصيل مملكه أخرى لتكون عدّه له بحيث أنّ نور الدّين إن غلبه إلى الديار المصريّه سار هو و أهله إليها و أقاموا بها.

فسيّر أخاه الأكبر تورانشاه بإذن نور الـدّين له فى ذلك، و سـيّره قاصـدا عبد النبى بن مهدىّ، و كان دعا إلى نفسه، و قطع خطبه بنى العبّاس، فمضى إليها، و فتح زبيد و عدن و معظم بلاد اليمن.

و صلاح الدّين على ما كان عليه من الطّاعه فى الظّاهر لنور الدّين إلى أن اتّفق أن مرض نور الدّين بعلّه الخوانيق بدمشق، و توفّى بها يوم الأربعاء حادى عشر شوّال من سنه تسع و ستّين و خمسمائه، و كان قد شرع فى التأهّب

۱- خير مصدر حول موضوع التوسع الأيوبى فى اليمن هو كتاب« السمط الغالى الثمن فى أخبار الملوك من الغز باليمن» لمحمد بن حاتم اليامى- ط، بيروت ۱۹۷۴.

للدخول إلى الديار المصريّه و ختن ولده الملك الصّالح اسماعيل بدمشق، فى خامس شوّال، و أخرج صدقات كثيره و كسوات للأيتام الّذين ختنهم معه.

و اتّسع ملكه بحيث خطب له بالحرمحين الشّريفين و بلاد اليمن الّتى افتتحها شمس الملوك، و انعمر بلد حلب فى زمانه لعدله و حسن سيرته حتّى لم تبق مزرعه فى جبل و لا واد إلّا فيها سكّان و لها مغلّ.

و صار على ظاهر حلب من العماره و المساكن أكثر من المدينه، مثل الحاضر السّليمانى، و خارج باب الأربعين، و غير ذلك من الأبواب جميعها.

و ارتفعت الأسعار مع كثره المغلّات لكثره العالم، حتّى كانت الأسعار فى السّنه الّتى مات فيها بعد ذلك الرّخص فى السّنه التى مات فيها والده:

الحنطه مكّوك و نصف بدينار، و الشّعير مكّوكان و نصف بدينار، و العدس مكّوك و مصع بدينار، و الجلبان كذلك، و القطن ستّه أرطال جوز بدينار.

و اللّه تعالى يرحمه

[أيام الصالح اسماعيل]

و قام الملك الصّالح بالملك بعده(۱)، و كان عمره إحدى عشره سنه، و حلف له الأمراء بدمشق. و خطب له الملك النّاصر صلاح الدّين بمصر، و أرسل إليه رسولا يعزّيه، و معه دنانير مصريه عليها اسمه، و يعلمه أنّه فى طاعته، و أنّ الخطبه أقيمت له بمصر.

و أمّا حلب فكان الوالى بقلعتها جمال الدّين شاذبخت- الخادم

۱- للصالح اسماعيل ترجمه مفيده فى بغيه الطلب ص ۱۸۲۲- ۱۸۲۶.

الهندىّ عتيق نور الدّين- و هو الّذى بنى المدرسه(۱) لأصحاب أبى حنيفه بحلب، و قبر بها، فوصله كتاب الطّير بوفاه نور الدّين؛ فأمر فى الحال بضرب الدّبادب(۲)، و الكوسات، و البوقات، و أحضر المقدّمين و الأعيان بحلب، و الفقهاء و الأمراء، و قال:

«قد وصل كتاب الطّائر، يخبر أنّ مولانا الملک العادل قد ختن ولده؛ و ولّاه العهد بعده، و مشى بين يديه».

فأظهروا السّرور بذلک، و حمدوا اللّه تعالى، فقال لهم: «تحلفون لولده الملک الصّالح، كما أمر الملک العادل بأنّ حلب له، و أنّ طاعتكم له و خدمتكم، كما كانت لأبيه». فحلف النّاس على اختلاف طبقاتهم و منازلهم، فى ذلک اليوم، و لم يترک أحدا منهم يزول من مكانه، ثم قام إلى مجلس آخر، و لبس ثياب الحداد، و خرج إليهم و قال: «يحسن اللّه عزاءكم فى الملک العادل، فإنّ اللّه قد نقله إلى جنّات النّعيم».

و توجّه المؤيّد بن العميد، و عثمان زردک، و همام الدّين إلى حلب، لإثبات ما فى الخزائن بحلب، و ختمها بخاتم الملک الصّالح.

و كان وزير الملک العادل نور الدّين: موفّق الدّين خالد بن محمد بن نصر بن القيسرانى، رسولا عنه بمصر. فاتّفق رأى الجماعه على أن ولّوا وزاره الملک الصّالح: شهاب الدّين أبا صالح عبد الرّحيم بن أبى طالب بن

۱- يعرف موقعها الآن باسم جامع الشيخ معروف. الآثار الإسلاميه ص ۷۲- ۷۳.

۲- أى الطبول. القاموس.

العجمی، و كان عدلا علی خزائن نور الدّين.

و كان شمس الدّين علیّ، ابن دايه نور الدّين،(۱) أخو مجد الدّين لأمّه، من أكبر الأمراء النّوريه، و أمر حلب راجع إليه و إلی إخوته فی أيام نور الدّين، و كان بحلب عند موت نور الدّين، و سابق الدّين عثمان و بدر الدّين حسن أخواه؛ فتولّی شمس الدّين علیّ تدبير حلب، و صعد إلی القلعه، و حصل بها مع شاذبخت، و الأمير بدر الدين حسن متولی الشّحنكيه بالمدينه.

و كان نور الدّين قد سيّر إلی الموصل و غيرها من البلاد يستدعی العساكر، بحجه الغزاه، و مقصوده الطّلوع إلی مصر، فسار سيف الدّين غازی بعسكر الموصل، و علی مقدّمته سعد الدّين كمشتكين الخادم، و كان قد جعله نور الدّين واليا من قبله بالموصل، فلما كانوا ببعض الطريق، وصلتهم الأخبار بموت نور الدّين هرب سعد الدين كمشتكين إلی حلب جريده.

و أمّا سيف الدّين فإنّه أخذ بلاد الجزيره جميعها، سوی قلعه جعبر؛ فأرسل شمس الدّين علیّ بن الدّايه يطلب الملك الصالح إلی حلب، ليمنع سيف الدّين ابن عمه من البلاد الجزريه، فلم يمكنه الأمراء الّذين معه

۱- فی بغيه الطلب ص ۱۸۲۳:« و كان شمس الدين علی بن محمد ابن دايه نور الدين بقلعه حلب مع شاذبخت، و كان قد حدث نفسه بأمور، و اختلفت كلمه الأمراء، و تجهز الملك الناصر صلاح الدين من مصر للخروج إلی الشام، و طلب أن يكون هو الذی يتولی أمر الملك الصالح و تدبير ملكه».

بدمشق من الانتقال إلى حلب خوفا أن يغلبهم عليه شمس الدّين علىّ.

و كان شمس الدّين محمّد بن عبد الملک بن المقدّم قد صار متوّلی تدبيره بدمشق، و کمال الدين بن الشهرزوری و جماعه من الأمراء معه، و كان قد أشار كمال الدين على الامراء بمشاوره الملک النّاصر فيما يفعلونه، لئلا يجعل ذلک حجّه عليهم؛ فخافوا منه و لم يفعلوا.

و خرج الفرنج، و حصروا قلعه بانياس فراسلهم ابن المقدم، و بذل لهم مالا، و خوّفهم بالإستنجاد بصلاح الدّين و سيف الدّين، فعادوا. و بلغ ذلک كلّه الملک النّاصر صلاح الدّين؛ فأرسل صلاح الدّين إلى الملک الصّالح، و عتب عليه حيث لم يعلمه بما تجدّد من سيف الدّين فی أخذ الجزيره ليحضر و يكفّه، و أنكر صلح الفرنج، و بذل المال لهم، و بذل من نفسه قصد الفرنج، و كفّهم عن التّطاول إلى شی ء من بلاد الملک الصالح.

و كتب إلى كمال الدّين و ابن المقدّم، و الأمراء، و قال: «لو أنّ نور الدّين يعلم أنّ فيكم من يقوم مقامی، أو يثق به مثلی لسلّم إليه مصر، و لو لم يعجّل عليه الموت لعهد الیّ بتربيه ولده، و أراكم قد تفردّتم بمولای و ابن مولای دونی، و سوف أصل إلى خدمته، و أكافی إنعام أبيه، و أجازی كلا منكم على فعله».

و كثر خوف شمس الدّين علىّ بن الدّايه من سيف الدّين غازی، و أن يعبر الفرات إلى حلب فيملكها، فأرسل سعد الدّين كمشتكين إلى دمشق، ليحضر الملک الصّالح، فلما قارب دمشق سيّر إليه شمس الدين بن المقدّم

عسكرا، فنهبوه؛ و عاد منهزما إلى حلب، فأخلف عليه شمس الدين علىّ بن الدّايه، عوضا عما أخذ منه.

ثم إنّ الأمراء بـدمشق، اتفقوا على إرسال الملك الصّالـح إلى ابن الـدّايه بحلب، لأنّها أمّ البلاد، فأنفذوا إليه يطلبون إرسال سـعد الـدّين ليأخـذ الملـك الصالـح، فوصل إليهم سـعد الـدّين كمشـتكين، و اتفقوا على أن يكون شـمس الـدّين علىّ أتابكا للملك الصالح، و حلف شمس الدين و جمال الدّين شاذبخت للأمراء على أقطاعهم، و نفذت النسخه مع سابق الدّين عثمان إلى دمشق.

[توجه الصالح إلى حلب]

و سار الملك الصّالح و أمّه مع سـعد الدّين كمشـتكين و الأمراء الّذين أقطاعهم بحلب، و لما وصـلوا ما بين حماه و حلب وصـل من جمال الدين شاذبخت من خوّف الأمراء من بنى الدّايه، فقبضوا «سابق الدين عثمان»، بقنّسـرين؛ و كتموا الحال؛ و وصلوا إلى باب حلب، فخرج بـدر الـدّين حسن، فقبضوه، و دخلوا من «باب الميدان» و قد عمل به الخوان، فلم يلتفتوا اليه، و بادروا بالملك الصّالح، و صعدوا به إلى القلعه.

و كان «بشـمس الـدّين علىّ» نقرس، فحمل فى محفّه، و حضـر بين يـدى الملك الصّالـح، فزنـدوا يديه، و قيّدوا أخويه، و جعلوا الجميع فى المطموره(۱)، بالمركز.

۱- كشف حديثا عن سجن كان تحت الأرض فى قلعه حلب و عثر به على ما يزيد عن عشرين من الهياكل العظيمه.

و كان شاذبخت قد احتاط، و استخدم جماعه من الأجناد، فصار فى مقدار خمسمائه راجل، و «شمس الدّين» فى مقدار مائه، و أمر اسباسلار(۱) باب القلعه أبا بكر بن مقبل: أن يمنع من يصعد إلى القلعه من أصحابه و أصحاب إخوته، ما خلا سابق الدّين و بدر الدّين، فكانا يصعدان، و مع كلّ واحد منهما غلام واحد؛ و وكّل بباب شمس الدّين ثلاثين رجلا كلّ ليله، فعتب على شاذبخت فقال له: «أنا أبعث الرجال إليك، ليقوموا فى الخدمه»، و كان يوكّل بالأجناد الّذين خالفوه حفظه يمنعون من يدخل منهم أو يخرج، و كان هذا حال القلعه، فى غيبه الملك الصّالح.

و أما حال المدينه فانّ السّنّه من أهل البلد مالوا إلى «المجديه»، لتعصّبهم للسّنّه على الشّيعه، و جمعهم بدر الدّين حسن شحنه حلب، و استحلفهم فى اللّيل، و كان فيهم بنو العجمى، و الشيخ أبو يعلى بن أمين الدّوله، و بنو قاضى بالس- على ما ذكر- و طلب القاضى أبا الفضل بن الخشّاب و بنى الطّرسوسى، فأبوا أن يحضروا.

و كان أهل حلب من الشّيعه، يتوالون أبا الفضل بن الخشّاب، و يقدّمونه عليهم، فوافقوه على حفظ البلد للملك الصّالح، و على مخالفه بنى الدّايه، فسيّر بدر الدين حسن إلى ابن الخشّاب، و قال له: «إنّ جماعه عندى قذفوك، و تحدّثوا بأنك تطعن فى الدّوله، و أنك تريد أن تملك حلب».

۱- الضابط المسؤول عن حراسه باب القلعه.

و کان بدر الدّین و أخواه أرادوا أن تقع الفتنه بحلب بین السّنه و الشّیعه، لیستقیم أمرهم، فثار الغوغاء من الشّیعه و نهبوا دار قطب الـدین بن العجمی بالقرب من الزّجاجین، و دار أبی یعلی بن أمین الدّوله، بالجرن الأصـفر(۱). و کـان فیها أموال الأیتام، و انتقل ابن العجمی بعد ذلک إلی البلاط، و ابن أمین الدوله إلی تحت القلعه بالقرب من «مسجد السّیده»(۲).

و قتل فی ذلک الیوم فی «مدرسه الزجّاجین» الشیخ أبو العباس المغربیّ، و کان مقرئا محدّثا.

و ثـارت الفتنـه بین الطـائفتین؛ و طلب الفقراء دور الأغنیـاء فنهبت دار أبی جعفر بن المنـذر بـالعقبه(۳)، فجمع بدر الدین حسـن جماعه من الأجناد و من أهل البلد و السـنّه و من العسـکر، و ألبسـهم السلاح، و صعد إلی شاذبخت، و قال له: «إنّ أبا الفضل بن الخشّاب یریـد أن یملک البلـد و قـد مال إلیه الشـیعه و بعض السّـنّه، فتعیننی بنقّابین و زرّاقین حتی أقبض علیه، و أعتقله، إلی أن یحضر الملک الصالح».

۱- انظر الأعلاق الخطیره- قسم حلب- ج ۱ ص ۱۸۸ حیث یستخلص أن الجرن الأصفر کان من أحیاء حلب.

۲- مسـجد السـیده علویه بنت و ثاب زوجه ثمال بن صالح و أم محمود بن نصـر مدفونه فیه. الأعلاق الخطیره- قسم حلب- ج ۱ ص ۱۸۱.

۳- انظر الآثار الإسلامیه ص ۵۴- ۵۵.

فأمر الأجناد بلبس السّلاح و الخروج معه، و صار بهم إلى «تلّ فيروز»(۱)- و هو موضع سوق الصّاغه الآن- و كان إذ ذاک تلا.

و أخذوا الفلايج و الأبواب، و سدّوا بها الدّروب، و زحفوا من الطّرق و الأسطحه، إلى دار ابن الخشّاب، و وقع قتال شديد، و قتل بين الفريقين جماعه كثيره، و انتهى إلى الدّار، فأحرقها و نهبها، و نهب أدر جماعه من المجاروين له.

و انهزم القاضى أبا الفضل، و اختفى فى دار فخرا و ابن كياعميد بالقرب من حمّام شراحيل(۲)، فأقام بها إلى أن وصل الملك الصّالح فى المحرّم، من سنه سبعين و خمسمائه، و صعد إلى القلعه، و قبض على بنى الدّايه- كما ذكرنا- و صار الأمر و التّدبير إلى سعد الدّين كمشتكين الخادم، و هو الّذى بنى الخانكاه(۳) المنسوبه إليه بحلب، فى جوارنا، و هى كانت دار «أبى الطّيّب المتنبى»، بحلب.

و كان شمس الدّين علىّ قد عزم على أنّ الملک الصّالح إذا قدم أخذ بمفرده، و صعد به إلى القلعه، و لا يمكّن أحدا من الأمراء من الصّعود، و يطردهم، و يستقلّ بالأمور.

فسيّر «شاذبخت» من أسرّ ذلک إلى الأمراء الذين كانوا فى صحبه

۱- انظر الأعلاق الخطيره- قسم حلب- ج ۱ ص ۳۴۶- ۳۴۷.

۲- لم يرد اسم هذه الدار أو الحمام فى الأعلاق الخطيره.

۳- انظرها فى الأعلاق الخطيره- قسم حلب- ج ۱ ص ۲۳۴.

«الملک الصّالح»، فاتّفق رأيهم فى قنّسرين على قبض أولاد الدّايه، و تحالفوا على أن قدّموا كمشتكين، فلمّا رحلوا من قنّسرين، بدأوا بسابق الدّين، و كان قد وجّهه إلى دمشق فى تقرير الأمور، فقبضوه، و حفظوا الطّرق لئلا يصل إلى حلب من يخبر أخويه، إلى أن صعدوا إلى القلعه- كما ذكرنا-

[مقتل أبو فضل بن الخشاب]

و أما أبو الفضل بن الخشّاب، فإنّ «الملک الصالح» أمنّه، و سيّر له خاتما، و ركب إلى القلعه، و معه خلق كثير من أهل حلب، و عوامّها، يمشون فى خدمته، و أكّد أمره، و قرّر على أن يقتل، فلما دخل إلى القلعه، و وصل قدّام الفرن بالقلعه، ضربه علىّ أخو عز الدين جورديک فرماه.

و جاء بعض أجناد القلعه فاحتزّ رأسه، و جعلوه على باب القلعه. ثم رفع على رمح إلى برج بالقلعه، يقال له «برج الزيت»؛ و تفرّق أصحابه من تحت القلعه، عند ذلک.

و استولى على دوله «الملک الصالح» أمير لالا المجاهد ياقوت، و هو الحاكم عليه، و هو الّذى ربّاه، و جمال الدين شاذبخت الهندى و هو والى القلعه و الحاكم بها، و سعد الدين كمشتكين مقدّم العساكر و متوّلى إقطاعهم، و شهاب الدين أبو صالح بن العجمى، وزير الملک الصالح؛ فخاف، و ولّوا رئاسه حلب الرئيس صفىّ الدين طارق بن الطريره، و عزلوا أبا محمد الحكم، و كان يتولّى الرئاسه فى أيام نور الدّين.

فخاف ابن المقدّم و الأمراء، الذين بدمشق، أن يستقرّ أمر كمشتكين بحلب، فيأخذ الملک الصالح، و يسير إلى دمشق، و يفعل كما فعل بأولاد

الدّايه، فكاتبوا سيف الدّين غازى صاحب الموصل، ليصل إليهم، و يسلّموا إليه دمشق، فخاف أن تكون مكيده منهم، فامتنع من ذلك، و راسل سعد الدّين كمشتكين و الملك الصالح، و صالحهما على الجزيره، و ابقائها فى يده.

فخاف الأمراء، بدمشق من اتفاق «سيف الدين» و «الملك الصّالح» عليهم، فكاتبوا «الملك الناصر صلاح الدّين يوسف بن أيوب»، و استدعوه من مصر ليملكوه عليهم؛ فسار من مصر فى سبعمائه فارس، و الفرنج فى طريقه، فلم يبال بهم، فخرج إليه صاحب بصرى- و كان ممّن كاتبه-.

[قدوم صلاح الدين إلى دمشق]

و لما وصل إلى دمشق خرج كلّ من كان بها من العسكر، و التقوه، و دخل البلد، و نزل فى دار أبيه المعروفه بدار «العقيقى»(۱)، و عصى عليه فى القلعه خادم اسمه «ريحان» فأعلمه أنه إنما جاء فى خدمه «الملك الصالح» فسلّم إليه القلعه، و صعد «الملك الناصر» إليها، و أخذ ما فيها من الأموال، فاستعان به، و تزوّج «خاتون بنت معين الدّين»، و كانت زوجه «نور الدّين»، و استخلف أخاه طغتكين سيف الإسلام.

و سار إلى حمص و حماه، و هما فى اقطاع «فخر الدّين مسعود بن الزعفرانى». و كان ظالما، فسار منها بعد موت «نور الدّين»، فملك «الملك الناصر» فى حادى عشر جمادى الأولى، من سنه سبعين، مدينه حمص.

۱- المكان الذى يقوم فيه الآن بناء المكتبه الظاهريه بدمشق.

و بقيت القلعه، و كان الولاه فى القلاع من جهه نور الدّين، فترك فى البلد من يحفظه، و يمنع من فى القلعه من النّزول.

و سار إلى حماه، فملك مدينتها مستهلّ جمادى الآخره، و كان بالقلعه عزّ الدّين جورديك، فأرسل إليه، و قال له: «إنّى فى طاعه الملك الصّالح، و الخطبه له فى البلاد التى فى يدى على حالها، و المقصود اتّفاق الكلمه على طاعه الملك الصّالح، و أن نستعيد البلاد الجزريه و نحفظ بلاده». فاستحلفه جورديك على ذلك، و سيّره إلى حلب فى اجتماع الكلمه، و فى اطلاق شمس الدّين علىّ و أخويه من السّجن، و كان إقطاعهم قد قبض من نوّابهم، و لم يبق فى أيديهم غير شيزر، «و قلعه جعبر».

و استخلف جورديك بقعله «حماه» أخاه ليحفظها، فلمّا وصل جورديك قبض عليه كمشتكين، و سجنه، فعلم أخوه بذلك، فسلّم قلعه حماه إلى الملك النّاصر.

[حصار صلاح الدين لحلب]

و سار الملك النّاصر إلى حلب، فوصلها فى ثالث جمادى الآخره من سنه سبعين، و حصرها. فركب الملك الصّالح، و هو صبىّ عمره اثنتا عشره سنه، و جمع أهل حلب، و قال لهم: «أنا يتيمكم، و قد عرفتم إحسان أبى إليكم، و قد جاء هذا الظّالم ينتزع ملكى»، و قال أقوالا كثيره، و بكى فأبكى الناس، و بذلوا أنفسهم و أموالهم له، و اتّفقوا على القتال دونه، و الذبّ عنه.

فجعل الحلبيّون يخرجون، و يقاتلون الملك النّاصر عند «جبل

جوشن»، فلا يقدر أن يتقرّب إلى البلد؛ و أرسل سعد الدّين كمشتكين إلى «سنان» مقدّم الاسماعيليّه، و بذل له أموالا كثيره ليقتل الملك الناصر، فقفزوا عليه، فحماه اللّه منهم، و قتلوا(۱).

و بقى محاصرا حلب إلى سلخ جمادى الآخره، و كان كمشتكين قد أرسل إلى سيف الدّين غازى يستنجده، و كان «ريمند»- صاحب طرابلس الّذى أسره نور الدّين- قد أطلقه كمشتكين بمائه ألف و خمسين ألفا صوريّه، فى هذه السّنه، و صار موضع «مرى» ملك الفرنج(۲)، فأرسل من بحلب إليه يطلبون منه أن يقصد بعض البلاد الّتى بيد الملك النّاصر، ليرحل عنهم، فسار إلى حمص و نازلها، فرحل الملك النّاصر عن حلب، مستهلّ شهر رجب. فلما نزل «الرّستن». رحل الفرنج عن حمص، و وصل الملك النّاصر إليها، و حصر قلعتها إلى أن تسلّمها.

و سار إلى بعلبك، فتسلّمها و قلعتها، فى رابع شهر رمضان، من سنه سبعين و خمسمائه.

و أما سيف الدّين غازى فإنّه جمع عساكره، و كاتب أخاه عماد الدّين زنكى صاحب سنجار، لينزل إليه بعساكره ليجتمعا على نصره الملك الصّالح، فامتنع، و كان الملك النّاصر قد كاتبه، و أطمعه فى ملك الموصل، لأنّه الكبير من أولاد أبيه، فمضى سيف الدّين إلى «سنجار»

۱- منذ ذلک الحين أقيم لصلاح برج خشبى كان لا يفارقه خوفا من الاغتيال.

۲- وصل إلى مرتبه الوصايه على بلدوين بن عمورى. وليم الصورى ص ۹۷۶- ۹۷۷.

محاصـرا لها، و سيّر عسـكرا كثيرا إلى حلب مع أخيه عزّ الدّين مسـعود، مع أكبر أمرائه «زلفندار»، فوصل عزّ الدّين إلى حلب، و اجتمعت عساكر حلب معه، و ساروا إلى حماه، فقاتلوها.

فأرسـل الملـك النّاصـر، و بـذل لهم تسـليم حمص و حماه، و أن يقرّ بيـده دمشق، و أن يكون فيها نائبا عن الملك الصّالـح، فلم يجيبوه إلى ذلك، و قالوا: «لا بدّ من تسليم جميع ما أخذه من الشّام، و عوده إلى مصر».

[معركه قرون حماه]

فسار الملك النّاصر إلى عزّ الدّين و زلفندار، فالتقوا تاسع عشر شهر رمضان، على قرون(۱) حماه. فانهزم عسكر الموصل، و ثبت عزّ الدّين بعد الهزيمه، فقال الملك الناصـر: «إما أن يكون هذا أشجع النّاس، أو أنه لا يعرف الحرب». و أمر أصحابه فحملوا عليه حتى أزالوه عن موقفه، و تمّت الهزيمه، و تبعهم الملك النّاصر، و غنموا غنائم كثيره، و أسر جماعه كثيره، فأطلقهم.

و نزل الملك النّاصـر على حلب، محاصـرا لها، و قطع حينئـذ خطبه الملك الصّالح، و أزال اسـمه عن السّـكّه فى بلاده، فلما طال الأمر عليهم راسـلوه فى الصّـلح، على أن يكون له ما بيـده من بلاد الشّام، و لهم ما بأيـديهم، و أخـذ المعرّه، و كفرطاب، و انتظم الحال بينهم على ذلك.

و رحل عن حلب، فى العشر الأول من شوّال، إلى حماه، فوصلته

۱- جبلا زين العابدين و كفراع شمالى حماه.

خلع الخليفه بها مع رسوله، و وصل خبر الكسره إلى سيف الدّين، و هو محاصر سنجار، فصالح «عماد الدّين» على ما بيده، و رحل إلى الموصل، و شرع فى جمع العساكر.

و سار الملك النّاصر من حماه إلى «بارين»، و فيها نائب عزّ الدّين بن الزّعفرانى، و لم يبق بيده غيرها، فحصرها إلى أن سلّمها واليها إليه بالأمان، فعاد إلى حماه، و أقطعها خاله شهاب الدّين محمود بن تكش الحارمىّ، و أقطع حمص ناصر الدّين محمد ابن عمه أسد الدّين، و عاد إلى دمشق.

و خرج سيف الدّين غازى صاحب الموصل، فى سنه إحدى و سبعين و خمسمائه. و سار إلى «نصيبين»، و استنجد صاحب «حصن كيفا» و صاحب «ماردين»، فاجتمع معه عسكر كثير بلغت عدّتهم سته آلاف فارس، و أقام بنصيبين حتى خرج الشّتاء، فضجرت العساكر و فنيت نفقاتهم(۱).

ثم سار إلى حلب، فعبر ب «البيره» و خيّم على جانب الفرات الشامى، و راسل كمشتكين و الملك الصالح، لتستقرّ قاعده يصل عليها إليهم، و وصل كمشتكين إليه، و جرت مراجعات كثيره، عزم فيها على العود مرارا، حتى استقرّ اجتماعه بالملك الصالح، و سمحوا به، فسار و وصل إلى حلب.

۱- انظر ما كتبه ابن الأزرق الفارقى. ۵۳۳۵- ۵۳۳۷ من الموسوعه الشاميه.

و خرج الملک الصّالح للقائه بنفسه، فالتقاه قریب «القلعه»، و اعتنقه، و ضمّه إلیه، و بکی، ثم أمره بالعود إلی القلعه فعاد، و سار هو، فنزل «بعین المبارکه»(۱)، و أقام بها مدّه و عسکر حلب تخرج إلی خدمته فی کلّ یوم، و صعد إلی قلعه حلب جریده، و أکل فیها شیئا، و نزل، و سار منها إلی «تلّ السّلطان»(۲)، و معه عسکر حلب، مضافا إلی العساکر الواصله معه.

[رجل یدعی النبوه]

و خرج رجل ادّعی أنّه المنتظر، و ادّعی النبوّه «بجبل لیلون»(۳)، و استغوی أهل تلک النّاحیه، و أظهر لهم زخارف، و محالا، و قال لهم: «إذا جاء العسکر إلیکم، فسوف أرمیهم بکفّ من تراب فأهلکهم». و أغاروا علی «ترکمان» «بجبل سمعان» و کان مقیما بأتباعه «بکفرند»، فخرج «طمان» من العسکر، و سعد الدّین کمشتکین بجماعه من العسکر، و وصلوا إلیهم، فجعل أتباعه یصیحون؛ «وعدک یا مولانا»! و السّیف یعمل فیهم، فألقی التراب، فزحف إلیه العسکر، و قتل الرجال و سبی النساء، و التجأ جماعه إلی المغایر، فاستخرجوهم و لم یبقوا إلّا علی من أسلم منهم، و دخّنوا علی جماعه فی المغایر، فماتوا، ثم عاد العسکر إلی «تلّ السّلطان»، بعد أن قتل و صلب(۴).

۱- من منتزهات حلب المشهوره. انظر تاریخ حلب لابن الشحنه- ط. طوکیو ۱۹۹۰ ص ۱۳۲، ۲۴۵، ۲۴۷.

۲- انظر تاریخ ابن الشحنه ص ۱۳۲.

۳- جبل لیلون جبل مطل علی حلب بینها و بین أنطاکیه. معجم البلدان.

۴- ذکر أبو شامه فی الروضتین ج ۱ ص ۲۵۱- ۲۵۲ نقلا عن ابن أبی طی ء أن هذا الرجل أصله من المغرب ظهر أولا فی قریه مشغره فی غوطه دمشق ثم هرب إلی بلد حلب، و کان ذلک سنه ۵۷۰ ه، و أعتقد أن کفرند تصحیف لکفر نجد، و کانت- کما قال یاقوت- قریه کبیره من أعمال حلب فی جبل السماق، و کما ذکرها ابن العدیم فی بغیه الطلب ص ۴۷۷، و کفر نجد الآن من قری منطقه أریحا فی محافظه ادلب و تبعد عن ادلب مسافه ۱۷ کم.

و كان الملك النّاصر بدمشق فى قلّ من العسكر، لأنّه كان قد سيّرها إلى مصر، و أنفذ إليها يستدعيها، فلو عاجله سيف الدّين لبلغ منه غرضا؛ لكنّه تأخّر، فوصل عسكر مصر إلى الملك النّاصر.

[معركه تل السلطان]

فسار من دمشق إلى ناحيه حلب، ليلقى سيف الدّين، فالتقاه «بتلّ السّلطان»، و كان «سيف الدّين» قد سبقه إلى تلّ السلطان، فوصل الملك النّاصر العصر، و قد تعب هو و أصحابه و عطشوا، فألقوا نفوسهم إلى الأرض ليس فيهم حركه.

فأشير على سيف الدّين بلقائهم فى تلك الحاله، فقال زلفندار: «ما بنا حاجه إلى القتال فى هذه السّاعه، و غدا بكره نأخذهم كلّهم»، فترك القتال إلى الغدّ، فلما أصبحوا اصطفّوا للقتال، فجعل «زلفندار» الأعلام فى وهده من الأرض، لا يراها إلّا من هو قريب منها فلمّا التقى الفريقان، ظنّ أكثر النّاس أنّ سيف الدّين قد انهزم، لأنّهم لم يروا الأعلام، فانهزموا بعد أن كان مظفّر الدّين بن زين الدّين- و هو فى الميمنه- قد كسر ميسره الملك النّاصر، و ولّوا الأدبار، و أسر منهم جماعه فأطلقهم الملك النّاصر، منهم:

فخر الدّين عبد المسيح، و أمسك عن تتبع العسكر، فلم يقتل غير رجل

واحد، و ذلک فی یوم الخمیس العاشر من شوّال، سنه إحدی و سبعین و خمسمائه.

و نزل الملک النّاصر و عسکره، فی بقیّه ذلک الیوم فی خیم القوم، و استولوا علی جمیع ما فیها، و فرّق الاصطبلات و الخزائن، و وهب خیمه سیف الـدّین عزّ الدّین فرّوخشاه، و وصل سیف الدّین إلی حلب، و ترک أخاه عزّ الدّین فی جماعه من العسکر، و عبر الفرات، و سار إلی الموصل.

[حصار صلاح الدین حلب]

و وصل الملک النّاصر إلی حلب، یوم الأحد ثالث عشر شوّال، فأقام علیها أربعه أیام، و رحل عنها، یوم الجمعه ثامن عشر شوّال، فنزل بزاعا(۱) فحصرها، و تسلّمها یوم الاثنین العشرین من شوّال و رحل فنزل منبج، فحصرها، فی التّاسع و العشرین من شوّال، و بها قطب الدّین ینال بن حسّان، و کان شدید العداوه للملک النّاصر، و کان قد حنق علیه لذلک، فملک المدینه، و نقبت القلعه، فحصروه بها، و نقبها النقّابون، و ملکها عنوه، و أخذ کلّ ما کان فیها، و أخذ صاحبها أسیرا، ثم أطلقه، فسار إلی الموصل، فأقطعه سیف الدّین «الرّقّه».

و رحل الملک النّاصر إلی «عزار» فنازلها ثالث ذی القعده، و حصرها و نصب علیها المنجنیقات.

و جلس یوما فی خیمه بعض أمرائه، و یقال له «جاولی» مقدّم الأسدیّه، فوثب علیه باطنیّ، فجرحه بسکّین فی رأسه، فردّ المغفر عنه،

۱- بزاعا بلده من أعمال حلب فی وادی بطنان بین منبج و حلب.

و أمسک الملک النّاصر یدی الباطنی بیدیه، إلّا أنه لا یقدر علی منعه من الضّرب بالکلیّه، بل یضرب ضربا ضعیفا، فبقی الباطنیّ یضربه بالسکّین فی رقبته، و کان علیه کزاغند(۱)، فکانت الضّربات تقع فی زیقه، و الزّرد یمنعها من الوصول. و جاء «سیف الدّین یازکج» فأمسک السکّین، فجرحه الباطنی، و لم یطلقها من یده إلی أن قتل، و جان باطنیّان آخران فقتلا.

و رکب الملک الناصر إلی خیمته، و لازم حصار عزاز، حتی تسلّمها بعد قتال شدید، فی بکره الأربعاء، ثانی عشر ذی الحجّه. و رحل عنها إلی «مرج دابق».

ثم سار فنزل حلب، یوم الجمعه، منتصف ذی الحجّه، و حصرها، و بها جماعه من العسکر، و منع أهل البلد الملک النّاصر من التقرّب إلی البلد، و کانوا یخرجون إلی خیم المعسکر فیقاتلوه، و إذا مسک واحد منهم شرحت قدماه، فیمتنع من المشی، و لا یکفّون عن القتال، و قام فی نصرته السّنه و الشّیعه من الحلبیّین، و أعطی الشیعه «الشرقیّه» فی المسجد الجامع، فکانوا یجتمعون بها للصّلاه.

و اتّفق أن الحلبیّین اجتمعوا تحت القلعه، شاکّین فی السّلاح، یستأذنون الملک الصالح فی الخروج إلی قتال العسکر، فدخل رسول من الملک النّاصر، یقال له «سعد الدّین أبو حامد العجمی الکاتب»، فصاح عوامّ الحلبیین: «ما نصالح یا رسول، رح، و دع عنک الفضول». و رجموه

۱- من أنواع الدروع السابغه.

بالحجاره، فخرج، و اتبعوه إلى قريب من الخيام.

ثم تردّدت الرسل بينهم فى الصّلح بين الملك الصّالح، و سيف الدّين صاحب الموصل، و صاحب الحصن، و صاحب ماردين، و بين الملك النّاصر، و تحالفوا، و استقرّت على أن يكونوا كلّهم عونا على النّاكث الغادر، و استقرّ الصلح، و رحل الملك النّاصر، فى السّادس عشر من محرّم، سنه اثنتين و سبعين و خمسمائه.

و لما تقرّر الصلح، أخرج الملك الصّالح إلى الملك الناصر أخته بنت نور الدّين، و كانت طفله صغيره، فأكرمها، و حمل لها شيئا كثيرا، و قال لها: «ما تريدين؟» قالت: «أريد قلعه عزاز»- و كانوا قد علّموها ذلك- فسلّمها إليهم.

[رحيل صلاح الدين إلى بلد الاسماعيليه]

و رحل إلى بلد «الإسماعيليّه»(۱)، و حصرهم، ثم صالحهم بوساطه خاله محمود بن تكش، و سار بعساكره إلى مصر، و كان فى شروط الصّلح أن يطلق عزّ الدّين جورديک، و شمس الدّين علىّ بن الدّايه، و أخواه سابق الدّين، و بدر الدّين، فسار أولاد الدّايه إلى الملك النّاصر، فأكرمهم، و أنعم عليهم، و أما جورديک، فأقام فى خدمه الملك الصّالح، و علم الجماعه براءته مما ظنّوا به.

و عصى غرس الدّين قلج فى «تلّ خالد»(۲) لأنه نسب إليه أمر أوجب

۱- مصياف غربى مدينه حماه.

۲- تل خالد من الحصون التى كان نور الدين قد انتزعها من جوسلين. انظر تاريخ ابن الشحنه ص ۱۷۷، ۲۱۴.

وحشته، فحصل فيها بماله، و حصّنها، فخرج إليه سعد الدّين كمشتكين بالعسكر، و معه «طمان»، فحصره مدّه، فسيّر، و استشفع بالملك النّاصر، فقبل الشفاعه و أمنّه، فخرج بماله و أهله، و حاشيته، و مضى إلى منبج، فنزل بها عند «الدويل»، و كان الملك النّاصر قد أقطعه إيّاها، و كان ذلك فى سنه اثنتين و سبعين و خمسمائه.

و فى هذه السّنه، أظهر أهل «جبل السمّاق» الفسق و الفجور، و تسمّوا بالصفاه؛ و اختلط النّساء و الرّجال فى مجالس الشّرب، و لا يمتنع أحدهم من أخته و لا بنته، و لبس النساء ثياب الرّجال، و أعلن بعضهم بأن «سنانا» ربّه. فسيّر الملك الصالح اليهم عسكر حلب، فهربوا من «الجبل» و تحصّنوا فى رؤوس الجبال، فأرسل «سنان»، و سأل فيهم، و أنكر حالتهم، و كانوا قد نسبوا ذلك إليه، و أنّهم فعلوا ذلك بأمره، فأشار سعد الدّين بقبول شفاعته فيهم، و عاد العسكر عنهم(۱).

و شرع «سنان» فى تتبع المقدّمين منهم، فأهلكهم، و كان فى «الباب» منهم جماعه فثار بهم «النبويه»(۲) من أهل ذلك البلد، و قاتلوهم من التّركمان، فانهزموا و اختبئوا فى المغاير، فنهبوا دورهم، و عرّوا نساءهم، و دخّنوا عليهم فى المغاير، و قتلوا من أمكنهم قتله.

ثم إنّ الاسماعيليّه قفزوا على الوزير شهاب الدّين أبى صالح بن

۱- لعل لهذا علاقه بالقيامه التى أعلنت من قبل فى قهستان بوساطه امام ألموت. انظر كتاب الدعوه الاسماعيليه الجديده- ط. بيروت ۱۹۷۰ ص ۸۷- ۹۰.

۲- أفضل المعلومات حول هذا الحدث لدى ابن الأزرق ص ۵۳۳۴- ۵۳۳۵ من الموسوعه الشاميه.

العجمی، یوم الجمعه رابع شهر ربیع الأول، من سنه ثلاث و سبعین و خمسمائه، و کان السّبب فی ذلک أنّ أبا صالح کان یواطی ء المجاهـد «اللّالا» و جمال الـدّین شاذبخت، علی سـعد الـدّین کمشـتکین، و یحاولون حطّه عن مرتبته. فعلم کمشـتکین ذلک، فکتـب کتابـا إلی «سـنان» مقـدّم الاسـماعیلیه «بـالحصون»، علی لسـان الملـک الصالـح، یلتمس منه قتـل أبی صالـح، و اللّالاـ و شاذبخت، و کان قد أحضـر الکتاب إلی الملک الصّالح. و هو خارج إلی الصـیّد، و طلب خطّه، و هو أبیض، لم یکتب فیه شی ء أصـلا، و قـال له: «المولی خارج، و یحتاج أن یکتب کتابا فی أمر کـذا و کـذا، فیکتب المولی علامته». فکتب ثقه بأنّ الأمر کما ذکر.

فکتب کمشـتکین إلی «سـنان» بالأمر الـذی أراده، و سـیّره إلیه، فلم یشکّ «سـنان» فی أنّ الأمر وقع من الملک الصّالـح، لیسـتقلّ بأموره و ملکه، فنـدب جماعه لقتل المـذکورین، فوثبوا علی شـهاب الـدّین أبی صالح، عندما خرج من باب الجامع الشّـرقی(۱)، بالقرب من داره، و قتل الاسماعیلیّان اللّذان و ثبا علیه.

ثمّ وثب بعـد ذلک بمـدّه ثلاث منهم علی «اللّالا»، بالقرب من «خانکاه القصـر»(۲)، و تعلّق بـذیل «بغلتاقه»(۳) لیضربه بالسکّین، فرفس اللّالا

۱- أی الجامع الأموی بحلب.

۲- علی مقربه من باب القلعه الصغیر من جانب خندقها. الأعلاق- قسم حلب- ج ۱ ص ۷۱.

۳- البغلطـاق رداء بلاـ أکمـام یلبس فوق الثیاب. انظر معجم مفصل فی أسـماء الألبسه عنـد العرب لرینهارت دوزی ط. أمستردام ۱۸۴۵ ص ۸۱- ۸۴.

الفرس، و خرج من البغلتاق»، فنجا، و أحاط النّاس بالجماعه الّذين قفزوا عليه، و فيهم اثنان كانا يتردّدان إلى «ركابدار»(۱) الّلالّا، فقتل، أحدهما و صلب، و صلب الركابدار أيضا، و كتب على صدره: «هذا جزاء من يؤوى الملحده».

و أما الآخر، فصعدوا به إلى القلعه، فضرب ضربا عنيفا، و ثقب كعبه، ليقرّر على السّبب الّذى أوجب وثوبهم، فقال للملك الصّالح:

«أنت تبعث كتبك إلى مولانا سنان بقتل من أمرنا بقتله، ثم تنكر فعل ذلك؟» فقال: «ما أمرت بشى ء». و كتب إلى «سنان» يعتب عليه فيما فعل بأبى صالح و الّلالا فقال: «أنا ما فعلت شيئا إلّا بأمرك و خطّك». و سيّر إليه كتابا فيه علامته بقتل الثّلاثه المذكورين، فعلم أن ذلك كان مكيده من كمشتكين.

و كان الاسماعيليّه قد اجتهدوا فى قتل شاذبخت، فلم يقدروا على الوثوب عليه، لشدّه احترازه فى القلعه، فعند ذلك وجد أعداء كمشتكين طريقا للطّعن عليه، و قالوا: «إنّما أراد قتل هؤلاء ليستقلّ بملكك، و يفعل فيه ما لا يقدر أن يفعله معهم، و أنّه قد استصغرك، و احتقر أمرك».

و كانت حارم لسعد الدّين كمشتكين، أقطعه إياها الملك الصّالح، حين أخذها من بدر الدّين حسن، فأنهى إلى الملك الصّالح أنّ سعد الدّين يريد أن يسلّمها إلى الفرنج، لأنّ أصله فرنجى، و أنّه قد قرّر معهم أن

۱- المسؤول عن حفظ مراكب اللالا.

يبيعها عليهم بمال وافر، و الدّليل على صدق ذلک أنّه أطلق من كان بالقلعه، من أسرى الفرنج، من أيّام نور الدّين، و أطلق البرنس «أرناط»، فقطع الطّريق بالكرك، و سيّر أمواله من حلب و غيّبها، و كتب إليه رجل من الفرنج يقال له؛ الفارس «بدران» بشى ء من ذلک، و بعث بعدّه كتب من سعد الدّين إلى الفرنج، تشهد بما أنهاه، و لعلّه وضع ذلک كله عليه، حتى نالوا غرضهم منه.

فقبض الملک الصّالح على سعد الدّين، فى التاسع من شهر ربيع الأول، من سنه ثلاث و سبعين، و كان قد جاء يطلب دستورا إلى حارم، و طلب تسليمها منه، فامتنع. فحمل إليها تحت «الحوطه» و جى ء به إلى تحت قلعتها، و عذّب، فاستدعى بعض من يثق إليه من المستحفظين بالقلعه، و أسرّ إليهما(۱) أنّهم لا يسلّمونها، و لو قطع، ثم قال لهما جهرا:

«بعلامه كذا و كذا، سلّموا»، فصعدا إلى القلعه، و أظهر من فيها العصيان و المقاتله، فعذّب عذابا شديدا، و علّق برجليه، و سقط بالخلّ، و الكلس. و الدّخان، و عصر، و أصحابه يشاهدونه، و لا يجيبون إلى التسليم.

و خرج الفرنج من «أنطاكيه»؛ يطلبون «حاوم»، فتقدّم الملک الصّالح بخنق كمشتكين، فخنق بوتر، و أصحابه يشاهدونه و لا يسلمون، و كسروا يديه و عنقه، و رموه إلى خندق «حارم»، فحين علم الفرنج ذلک ساروا إلى شيزر.

۱- لعل عدد من استدعاه ممن كان يثق به كان اثنين.

و دخل الملک الصالح إلی حلب، و خلف العسکر بأرض «عمّ»(۱) و «جاشر»، حول حارم؛ یمنعونها من الفرنج، و یباکرونها کلّ یوم لطلب التّسلیم، و مقدّم العسکر «طمان بن غازی»- و کان من أکبر الأمراء-.

و عاد الفرنج إلی حماه فحصروها، و لم یظفروا بطائل، و طمعوا فی حارم، لعصیان أصحاب کمشتکین بها، و ظنّوا أنّ الملک الصّالح صبی، و عسکره قلیل، و الملک النّاصر بمصر، فلا ینجدهم إلّا بعد أن یأخذوا «حارم»، فنزلوا علیها، و معهم کند کبیر من الفرنج، کان قد خرج من البحر إلی السّاحل، یقال له کندر «فلنط لمانی»(۲)، و معهم البرنس، و ابن لاون، و القومص صاحب طرابلس، فندم من «بحارم»، حیث لم یسلموها إلی الملک الصّالح.

و حصرها الفرنج، و ضایقوها بالمجانیق و السّلالم، فصاح من فیها:

«صلاح الدّین یا منصور»! فأحضروا خیمه، کانوا أخذوها من خیم الملک الناصر فی کسره «الرّمله» فی هذه السنه(۳) و أخبروهم بالکسره لیضعفوا عزیمتهم، و عسکر حلب بإزائهم من «عمّ» إلی تیزین(۴).

۱- عم قریه غناء بین حلب و أنطاکیه. معجم البلدان.

۲- فلنط لمانی هو کونت فلاندرز. انظر ولیم الصوری ص ۱۰۰۵- ۱۰۰۷.

۳- انظر ولیم الصوری ص ۱۰۰۲- ۱۰۰۵.

۴- تیزین قریه کبیره من نواحی حلب کانت تعد من أعمال قنسرین. معجم البلدان.

و دخلت سنه أربع و سبعين:

و الفرنـج مجـدّون على قتـال «حـارم»، و نقبوا فى تـلّ القلعه، من جهه القبله نقبـا، و من جهه الشّـمال آخر. فانهـدّ السّور على من تحته، و هو موضع البغله(۱)، التى جدّدها السّلطان الملك الظّاهر- قدّس اللّه روحه-.

و امتنع القتـال من تلـك النـاحيه، خوفا من وقوع شـى ء آخر. فأخرج المسـلمون رجلا من عنـدهم إلى «طمان»، يطلب الأمان من الملك الصّالح و النجده، فسيّر إلى الملك الصّالح، و أعلمه.

فانتخب الملك الصالح رجالا أجلادا من الحلبّيين، و أعطاهم مالا جزيلا، و قال لهم: «أريد منكم أن تدخلوا قلعه حارم»؛ فجاءوا، و الفرنـج محـدقون بهـا، فى اللّيل، فسـلكوا خيامهم مفرّقين، حتى جاوزوها، و صاحوا بالتكبير و التّهليل، و صـعدوا القلعه، و صار فيها شوكه من المقاتله، بعـد أن كان قتل من المسـلمين بها رجال عدّه. و المسـلمون- أعنى عسـكر حلب- إذ ذاك حول الفرنج جرايد، و أثقالهم «بدير سمعان»، و هم يتخطّفون من يمكنهم أخذه من الفرنج و يحفظون أطراف البلد.

و سار العسكر عند ذاك إلى «دير أطمه»(۲) و صادفوا الفرنج فى وطأه «أطمه»، فحملوا عليهم، فانهزموا و قتل من الفرنج، و أسـر جماعه؛ فدام حصار الفرنج أربعه أشهر. و أرسل الملك الصّالح إليهم، و قال: «إنّ

۱- جدار استنادى لدعم جدار قديم حتى لا ينهار.

۲- اطمه الآن من قرى منطقه حارم فى محافظه أدلب و تبعد عن ادلب مسافه ۸۹ کم.

الملك النّاصر واصل إلى الشّام، و ربّما يسلّم من بحارم إليه قلعتها، و يضحى فى جواركم، و بذل لهم مالا بمقدار ما أنفقوا مدّه حصارهم لها، و انتظم الصّلح، و رحلوا.

و خرج الملك الصّالح، فنزل على «حارم»، فسلّمها إليه أصحاب كمشتكين، و صفح عن جرمهم، و ولّى فيها «سرخك» جمدار(۱) أبيه نور الدّين، و دخل حلب و طالب نواب كمشتكين بماله، و اعتقل ابن التّنبى وزيره، فأحضر بعض المال، و عذّب حتّى أحضره، ثم هرب من الاعتقال.

و فى سنه خمس و سبعين و خمسمائه:

سعى جماعه بالقاضى محيى الدّين أبى حامد بن الشّهرزورى، قاضى حلب، و قدحوا فيه عند جمال الدّين شاذبخت، و أوهموه أنه يميل إلى الملك الصّالح، و وضعوا على لسانه أشعارا نسبوها إليه، فأوجب ذلك استيحاشه، و توجّه إلى الموصل. و عرض القضاء على عمّى «أبى غانم محمّد بن هبه اللّه بن أبى جراده» فامتنع، فقلّد والدى القضاء بحلب و أعمالها، و بقى على قضائها إلى أن مات الملك الصّالح، و فى دوله عزّ الدّين، و عماد الدّين، و مدّه من دوله السّلطان الملك النّاصر.

و قبض الملك الصّالح قريه للاسماعيليّه تعرف بحجيرا من ضياع نقره

۱- الجمدار المسؤول عن ثياب الحاكم.

بنی أسـد، فکتب «سـنان» إلی الملـک الصّالـح کتبـا عـدّه فی إطلاقها، فلم یطلقها، فأرسل جماعه من الرّجال معهم النفط و النار، فعمدوا إلی الدّکان التی فی رأس «الزجّاجین» من الشّرق فی القرنه، فألقوا فیها النار.

فنهض نـائب رئیس البلـد بمن معه فی المربّعه، و الجمـاعه المرتّبـون لحراسه الأـسواق، و أخـذوا السّـقّائین لیطفئوا الحریق، فـأتی الإسـماعیلیّه من أسـطحه الأـسواق، و ألقوا النـار و النفـط فی الأـسواق، فـاحترق سوق البزّ الکبیر، و سوق العطّارین، و سوق مجد الـدّین، المعـدّ للـبز، و سـوق الخلیع، و سوق الشراشـین- و هو الآـن یعرف بالکتّـابیین- و سوق السـرّاجین، و السّوق الـذی غربیّ الجامع، جمیعه، إلی أن انتهی الحریق إلی المدرسه الحلاویّه(۱).

و احترق للتجّار و السّوقیّه، من القماش شـی ء کثیر، و افتقر کثیر منهم بسـبب ذلک، و لم یظفروا من الاسـماعیلیّه بأحـد، و ذلک فی سنه خمس و سبعین و خمسمائه.

و مات سیف الدّین غازی، صاحب الموصل، و ولیها أخوه عزّ الدّین مسعود، و ذلک فی سنه ستّ و سبعین و خمسمائه.

و کـان الملـک الصّالـح فی هاتین السـنتین رخیّ البال، مسـتقرّا فی مملکته، سالکا فی الإحسان إلی أهل حلب طریق أبیه، عفیف الید و الفرج

۱- ذکر ابن شداد بعض أسواق حلب فی کتابه الأعلاق، کما ذکر بعضها ابن الشحنه، و اهتم بها طلس فی کتابه الآثار الإسلامیه، راجع الفهارس.

و اللّسان، فقدّر اللّه تعالى أن حضر أجله، و له نحو من تسع عشره سنه(۱)، فمرض بالقولنج و اشتدّ مرضه.

فدخل إليه طبيبه «ابن سكّره اليهودىّ»، و قال له سرّا: «يا مولانا شفاؤك فى الخمر، فان رأيت أن تأذن لى فى حمله فى كمّى، بحيث لا يطّلع الّلالا، و لا شاذبخت، و لا أحد من خلق اللّه على ذلك»، فقال:

«يا حكيم، كنت و اللّه أظنك عاقلا، و نبيّنا صلّى اللّه عليه و سلّم- يقول:

إنّ اللّه لم يجعل شفاء أمّتى فيما حرّم عليها(۲) و ما يؤمّننى أن أموت عقيب شربها- فألقى اللّه، و الخمر فى بطنى، و اللّه لو قال لى ملك من الملائكه: إنّ شفاءك فى الخمر لما استعملته».

حكى لى ذلك والدى عن ابن سكّره الطبيب.

[وفاه الصالح اسماعيل]

و لما أيس من نفسه أحضر الأمراء و المستحفظين، و أوصاهم بتسليم البلد إلى ابن عمّه عزّ الدّين مسعود بن مودود بن زنكى، و استحلفهم على ذلك، فقال له بعضهم: «إنّ عماد الدّين ابن عمّك أيضا، و هو زوج أختك، و كان والدك يحبّه و يؤثره، و هو تولّى تربيته، و ليس له غير سنجار، فلو أعطيته البلد لكان أصلح، و عزّ الدّين له من البلاد من الفرات إلى همذان، و لا حاجه له إلى بلدك»، فقال له» «إنّ هذا لم يغب عنّى، و لكن قد علمتم أنّ صلاح الدّين، قد تغلّب على البلاد الشّاميه، سوى

۱- فى بغيه الطلب ص ۱۸۲۶:« له نحو من ثمانيه عشر سنه».

۲- انظره فى موسوعه أطراف الحديث النبوى- اعداد محمد السعيد بسيونى- ط. بيروت ۱۹۸۹ ج ۳ ص ۱۸۲.

ما بیـدی، و متی سـلمت حلب إلی عماد الدّین یعجز عن حفظها، و إن ملکها صـلاح الدّین لم یبق لأهلنا معه مقام، و ان سـلّمتها إلی عزّ الـدّین أمکنه حفظها بکثره عساکره و بلاده». فاستحسـنوا هـذا القول منه، و عجبوا من حسن رأیه مع شدّه مرضه، و صـغر سنّه.

ثم مات یوم الجمعه خامس و عشرین شـهر رجب، من سـنه سـبع و سـبعین و خمسمائه، و دفن بقلعه حلب، إلی أن ابتنت والدته «الخانکاه»(۱) تجاه القلعـه، و نقـل إلیهـا فی أیـام، فسیّر الأـمراء. جوردیـک، و البصـیریّ، و بزغش، و جمـال الـدّین شـاذبخت، النّوریّون، مع جماعه الممالیک النّوریه، إلی «عزّ الدّین»، یستدعونه، و جدّدوا الأیمان فیما بینهم له.

و أما علم الدّین سـلیمان بن جندر، و حسام الدّین طمان بن غازی، و أهل الحاضر، فإنّهم راسلوا «عماد الدّین» صاحب سنجار، و کتموا أمرهم، و «شاذبخت» هو الوالی بالقلعه، و الحافظ لخزانتها، و المـدبّر للأمور مع «النّوریه»، فسـیّر إلی علم الدّین سـلیمان، و حسـام الـدّین طمـان، و طلب منهما الموافقه فی الیمین لعزّ الـدّین، فماطلا، و دافعا، فلما تأخّر وصول «عماد الـدّین» علیهما، وافقا علی الیمین لعزّ الدّین.

و لما وصل رسول الأمیر إلی عزّ الدّین، سار هو و مجد الدّین قایماز إلی الفرات، فنزل علی «البیره»، و وصل شـهاب الدّین- أخو عماد الدّین- مختفیا- و اجتمع بطمان و ابن جندر، و أعلمهما أن «عماد الدّین» فی بعض

۱- فی محله الفرافره تحت القلعه. انظر الآثار الإسلامیه ص ۳۲۱.

الطّريق، فأخبروه بأخذ اليمين عليهم، و أنّ تربّصه بالحركه أحوجهم إلى ذلك، فعاد إليه أخوه و عرّفه، فعاد إلى بلاده.

[أيام بقيه الأتابكه]

و أمّا «عزّ الـدّين»، فحين وصل إلى «البيره» أرسل إلى الأمراء الّذين بحلب، و استدعاهم إليه. فخرجوا و التقوه «بالبيره»، و ساروا معه إلى حلب، و دخلها فى العشرين من شعبان، و استقبله مقدّموها و رؤساؤها، و صعد إلى القلعه.

و كان «تقىّ الـدّين عمر»- ابن أخى الملك النّاصر- بمنبج، فعزم على أن يحول بين «عزّ الدّين» و حلب، حين وصل إلى «البيره» لأنّه وصل جريده، و تخلّف عنهم الغلمان و الحشد، ثم إنه تثاقل هو و أصحابه عن ذلك.

و لما وصل «عزّ الدّين» إلى حلب، سار تقىّ الدّين من منبج إلى حماه، و ثار أهل حماه، و نادوا بشعار «عزّ الدّين»، فأشار عسكر حلب على عزّ الدّين بقصدها، و قصد دمشق، و أطمعوه فيها و فى غيرها من الشّام، و أعلموه محبّه أهل الشّام لأهل بيته.

و كان «الملك النّاصر» بالدّيار المصريه، فلم يفعل، و قال: «بيننا يمين، و لا نغدر به»، و لما بلغ «الملك الناصر» أخذ عزّ الدّين حلب قال:

«خرجت حلب عن أيدينا، و لم يبق لنا فيها طمع».

و أقام عزّ الدّين بحلب، فسيّر إليه أخوه «عماد الدّين زنكى بن

مودود»، و قال: «کیف تختصّ أنت ببلاد عمی و ابنه و بأمواله، دونی، و هذا أمر لا صبر لی عنه». و طلب منه تسلیم حلب إلیه، و أن یأخذ منه «سنجار» عوضا عنها.

فامتنع «عزّ الدّین»، و لم یجبه إلی ما أراد، فأرسل إلیه و هدّده بأن یسلّم «سنجار» إلی «الملک النّاصر» فیضایق الموصل بها، فأشار علیه طائفه من الأمراء بأخذ «سنجار» منه و اعطائه حلب، و کان أشدّ الناس فی ذلک «مجاهد الدّین»، و هو الذی کان یتولّی تدبیره، و کان أمراء حلب لا یلتفتون إلی «مجاهد الدّین»، و لا یسلکون معه ما یسلکه عسکر الموصل، فلذلک میّل «عزّ الدّین» إلی ذلک.

و شرع «عزّ الدّین» فی المیل إلی الأمراء، الّذین حلفوا له أولا، و الإعراض عن الّذین مالوا إلی أخیه «عماد الدّین»، و أحسن إلی أهل حلب، و خلع علیهم، و أجراهم علی عادتهم فی أیّام عمّه «نور الدّین»، و ابنه «الملک الصّالح»، و أبقی قاضیها والدی، و خطیبها عمّی، و رئیسها «صفیّ الدّین طارق بن الطریره» علی ولایاتهم، و ولّی بقلعه حلب «شهاب الدّین اسحق بن أمیرک» الجاندار(۱)، صاحب الرّقّه، و أبقی «شاذبخت» فی القلعه ناظرا معه؛ و ولّی مدینه حلب و الدیوان مظفر الدّین بن زین الدّین.

و کان الصّلح قد انفسخ، بموت الملک الصّالح، بین الفرنج و المسلمین، و کانت «شیح الحدید»(۲) مناصفه بین المسلمین و الفرنج،

۱- الجاندار: حافظ السلاح.

۲- شیح الحدید قریه کبیره فی طرف العمق. بغیه الطلب ص ۴۷۴.

فأضافها عسكر حلب، قبل وصول عزّ الدّين إلى «الدّربساك»(۱)، و اختصّوا بها دون الفرنج، و حضر أهلها إلى طمان، فأعطاهم الأمان.

فلمّا وصل «عزّ الدّين»، سيّر العساكر إلى ناحيه «حارم»، و حاولوا نهب «العمق»، فانحاز أهله كلّهم إلى «شيح» لعلمهم بأنّ «طمانا» أمّنهم، فأراد عسكر الموصل أن ينهبوها، فقال لهم: «إنّ شيح لحلب، و إنّهم فی أمانی». فلم يلتفتوا إلى قوله، و سار و اليها ليلا، فسبقهم إلى «المخاض»، و وقف فی وجوههم يردّهم، فقتل منهم جماعه، ثم تكاثروا و عبروا، فسبقهم طمان إلى «شيح»، و أمرهم أن يجعلوا النساء فی المغاير و دربها.

فوصل عسكر الموصل، فرأوا ذلك، فعزموا على القتال، فصاح طمان: «إذا كنتم تخفرون ذمّتی، فأنا أرحل إلى الفرنج». و سار فی أصحابه إلى أن قرب من «يغرا»، فوصله من أخبره بأنّهم عادوا عنها، و لم ينالوا منها طائلا، و خافوا من ملامه عزّ الدّين، فعاد «طمان»، و نزل كلّ منهم فی خيامه «بحارم».

و كاتب المواصله «عزّ الدّين»، يطعنون على «طمان»، و أنّه وافق أهل «شيح» فی العصيان، و أراد اللّحاق بالفرنج، فأحضر «طمان» و المواصله، و تقابلوا بين يديه، فقال عزّ الدّين: «الحق مع حسام الدّين، و لا يجوز نقص العهد لواحد من المسلمين». و كان ذلك فی شهر رمضان من السّنه.

۱- حصن الدربساك قريب من بغراس. بغيه الطلب ص ۱۵۱.

و بقيت المواحشه بين أمراء حلب و المواصله؛ و الحلبيّون لا يرون التغاضى لمجاهد الدّين، و مجاهد الدّين يحاول أن يكونوا معه كأمراء الموصل، و الأمراء الحلبيّون يمنّون عليه. بأنّهم اختاروه لهذا الأمر، و يطلبون منه الزّياده، و يختلق المواصله عليهم الأكاذيب.

فهرب الأمير علم الدّين سليمان بن جندر، قاصدا «الملك النّاصر» إلى مصر، فقالوا لعزّ الدّين: «إنّ طمانا سيهرب بعده، فأمر عزّ الدّين، مظفر بن زين الدين، و بنى الغراف، و الجراحى و غيرهم أن يمدوا من «السّعدى» إلى «المباركه» فى طريقه، و أن يقف جماعه حول دار «طمان»- و كان يسكن خارج المدينه-.

فلما لم يجر من «طمان» شى ء من ذلك، جاءوا إليه نصف اللّيل، و طلبوه، فخرج إليهم، فوجد ابن زين الدّين و بنى الغراف، فسألهم عمّا يريدون، فقالوا: «إنّه أنهى إلى عزّ الدّين بأنّك تريد الهرب، و قد أمرنا بأن نعوقك» فقال: «و اللّه ما لهذا صحّه، و لو أردت المسير عن حلب لمضيت، لا على وجه الخفيه، و لا أخاف من أحد».

فجعلوا لهم طريقا آخر إلى نيل غرضهم، و أصبحوا، و عزّ الدّين منتظر ما يكون، فقالوا له: «كان قد عزم على الهرب، فلما علم أنّ الطريق قد أخذ عليه، و أن الدّار قد أحيط بها أخّر ذلك إلى وقت ينتهز فيه الفرصه، و المصلحه قبضه قبل هربه». فأمرهم بأن يقبضوه محترما، و يحضروه إليه.

فجاؤوه ليلا، من أعلى الدّار و أسفلها، و أزعجوه، و كان نائما،

فخرج إلى الباب، فوجد مظفّر الدّين بن زين الدّين مع بنى الغراف، فقالوا له: «إنّ المولى عزّ الدّين قد أمرنا بالقبض عليك». فقال لهم: «السمع و الطاعه، فشأنكم و ما أمرتم به»؛ فأركبوه، و حملوه، و الرجال محيطه به، و فتحوا باللّيل باب القلعه، و اعتقلوه بها غير مضيّق عليه.

و أحضره «عزّ الدّين»، و وانسه و قال: «لم أفعل ما فعلت إلّا لشدّه رغبتى فيك، و افتقارى إلى مثلك»؛ فعرّفه ما ينطوى عليه، و أنّ ما نقل عنه لم يخطر بباله. فقال: «إنّ وقيعه أعدائك فيك، لم تزدك عندى إلّا حظوه».

و بقى معتقلا فى القلعه أسبوعا، ثمّ خلع عليه، و أطلقه و زاد فى أقطاعه «الأخترين»(۱).

و أقام «عزّ الدّين» حتّى انقضت مدّه الشّتاء، ثم تزوّج أمّ الملك الصالح، فى خامس شوّال من السنه، ثم سيّرها إلى الموصل، و استولى على جميع الخزائن التى كانت لنور الدّين و ولده بقلعه حلب، و ما كان فيها من السّلاح، و الزرد، و القسىّ، و الخوذ، و البركسطونات(۲)، و النشّاب، و الآلات، و لم يترك فيها إلّا شيئا يسيرا من السّلاح العتيق، و سيّر ذلک كلّه إلى «الرّقّه».

و ترک فى قلعه حلب ولده نور الدّين محمودا طفلا صغيرا، وردّ أمره

۱- الأخترين مركز ناحيه تابعه لقضاء عزاز فى محافظه حلب، و تبعد عن حلب مسافه ۴۵ كم.

۲- البركسطونات: دروع الفرسان أو الحيوانات فى الحرب.

إلى الوالى بالقلعه: شهاب الدّين اسحق، و سلّم البلد و العسكر إلى مظفّر الدّين بن زين الدّين، و سار إلى الرقّه، سادس عشر شوّال، فأقام بها فصل الرّبيع.

و راسل أخاه «عماد الدّين»، فى المقايضه «بسنجار»، ليتوفّر على حفظ بلاده، و يضمّ بعضها إلى بعض، و لعلمه أنّه يحتاج إلى الإقامه بالشّام، لتعلّق أطماع «الملك النّاصر» بحلب، و قدم عليه أخوه. و استقرّت المقايضه على ذلك، و تحالفا على أن تكون حلب و أعمالها لعماد الدّين و «سنجار» و أعمالها لعزّ الدين، و أنّ كل واحد منهما ينجد صاحبه، و أن يكون «طمان» مع عماد الدّين، فسيّر «طمان»، و صعد إلى قلعه حلب، و كان معهم علامه من عزّ الدّين، فتسلّمها، و سيّر عزّ الدّين من تسلّم سنجار.

و فى حال طلوع «طمان»، و نقل الوالى متاعه، طمع «مظفّر الدّين بن زين الدين» بأن يملك القلعه، و وافقه جماعه من الحلبيين كانوا بقربه، فى الدّار المعروفه بشمس الدّين علىّ بن الدّايه و جماعه من الأجناد، و لبس هو زرديّه، تحت قبائه، و ألبس جماعه من أصحابه الزّرد تحت الثّياب، و مع كلّ واحد منهم سيف، و أرسل إلى شهاب الدّين، و قال له:

«إنّه وصلنى كتاب من أتابك عز الدّين، و أمرنى أن أطلع فى جماعه إليك»، فأمره بالصّعود.

و كان «جمال الدّين شاذبخت»، فى حوش القلعه الشرقى، الّذى

هدمه الملك العادل- و كان بين الجسرين اللّذين جدّدهما السلطان الملك الظاهر- رحمه اللّه- و عمل مكان ذلك الحوش بغله(۱)- فرأى الجند مجتمعين تحت القلعه، فسيّر «شاذبخت»، و أحضر بوّابا كان للقلعه، يقال له «علىّ بن منيعه» و كان جلدا يقظا، و أمره بالاحتراز.

فلما أراد أن يدخل من باب القلعه، تقدّم إليه، و قال له: «لا تدخل إلّا أنت وحدك». و كان فى ركابه جماعه فمنعوهم، فلم يتمّ له ما أراد.

و عاد ابن زين الدّين إلى داره، و قيل أنّ ابن مقبل الاسباسلار، قال له: «أنت تصعد إلى القلعه، فما هذا الزّرد عليك؟» فعاد، و جعل يعتذر عمّا شاع فى النّاس من فعله.

و كتب شهاب الدّين الوالى و جمال الدّين شاذبخت إلى عزّ الدّين كتابا بخطّ «حسين بن يلدك»، إمام «المقام». و أخذ تحته خطوط الأجناد، و النقيب، و الاسباسلار. فلم يمكن «عزّ الدّين» مكاشفته فى ذلك، لقرب «الملك النّاصر» من البلاد.

و بعث «مظفّر الدّين» إلى «عزّ الدين» يعتذر، و يقول: «إنّ الاسماعيليّه أوعدونى القتل، و ما أمكننى إلّا الاحتراز بالسّلاح، أنا، و من معى، و أنكر الحفظه بالقلعه ذلك علىّ، و لم يكن ذلك لأمر غير ما ذكرته».

فلم يقابله على ذلك.

۱- البغله دعامه تبنى للجدار الواهى و تحشى الأساس لتقيه من السقوط. موسوعه حلب المقارنه للأسدى ط. حلب- مطبعه جامعه حلب.

و أما «طمان»، فإنه قبض على الجماعه الّذين كانوا معه، و حبسهم فى القلعه، و اطّلع على ما كانوا أضمروه، و أطلقهم فى اليوم الثانى، و ستر هذا الأمر.

ثم وصل قطب الدّين ابن عماد الدّين إلى حلب، ثم ورد أبوه «عماد الدّين»، فوصل بأهله، و ماله، و أجناده، و زوجته بنت نور الدّين.

و وصل على البريّه من جهه «الأحصّ»(۱)، و التقاه الأكابر من الحلبيّين، و صعد إلى قلعه حلب، فى ثالث عشر المحرّم، من سنه ثمان و سبعين و خمسمائه، و قيل فى مستهلّه.

و ولّى القلعه «عبد الصّمد بن الحكّاك الموصلىّ»؛ و العسكر، و الخزائن، و النظر فى أحوال القلعه إلى مجاهد الدّين بزغش، و أنزل «شاذبخت» من القلعه، و القضاء، و الخطابه، و الرئاسه، على ما كان عليه، فى أيّام أخيه و ابن عمّه.

و ولّى الوزاره «بهاء الدّين أبا الفتح نصر بن محمّد بن القيسرانىّ»، أخا «موفّق الدّين خالد»- وزير نور الدّين- و استمرّ الشّيعه فى أيّامه، و أيّام أخيه، على قاعدتهم، الّتى أقرّهم عليها «الملك الصّالح»، من إقامه شعارهم بالشرقيّه، بالمسجد الجامع.

۱- كانت الأحص كوره كبيره من كور حلب قصبتها خناصره. معجم البلدان، هذا و نقل ابن العديم فى ترجمته لزنكى الثانى- بغيه الطلب ص ۳۸۵۷- ۳۸۶۴ وصف دخوله إلى حلب عن عمه و والده.

و أبقى «سرخك» فى حارم على ما كان عليه. و حكم «شاذبخت» فى عزاز و قلعتها- و هو وكيل عن ابنه نور الدّين التى أطلقها الملك النّاصر لها- و صالح الفرنج.

و جرى فى الاحسان إلى أهل حلب، على قاعده عمّه و ابن عمه و أخيه، و لما بلغ الملك النّاصر حديث حلب و أخذ عماد الدّين إياها، قال:

«أخذنا و اللّه حلب»، فقيل له: «كيف قلت فى عزّ الدّين لما أخذها:

خرجت حلب عن أيدينا، و قلت: حين أخذها عماد الدّين: أخذنا حلب؟» فقال: «لأنّ عزّ الدّين ملك صاحب رجال و مال، و عماد الدّين، لا مال و لا رجال»!

و خرج «الملك النّاصر»، من مصر فى خامس المحرّم من هذه السّنه، و خرج الناس يودّعونه، و يسيرون معه و يتأسّفون على فراقه، و كان معه معلّم لبعض أولاده فالتفت إلى بعض الحاضرين، و أنشد:

تمتّع من شميم عرار «نجد»فما بعد العشيّه من عرار

فانقبض السّلطان، و تطيّر، فقدّر أنّه لم يعد إلى مصر، إلى أن مات، مع طول مدّته، و اتّساع ملكه فى غيرها.

و سار على «أيله» و أغار على بلاد الفرنج فى طريقه، و وصل دمشق فى صفر، ثم خرج منها إلى ناحيه «الغور»، فأغار على ناحيه «طبريّه» و «بيسان»، و عاد إلى دمشق، ثم خرج إلى «بيروت»، و نازلها، و اجتمع الفرنج فرحّلوه عنها. فدخل إلى دمشق، و بلغه أنّ المواصله كاتبوا الفرنج

على قتاله، فجعل ذلک حجّه علیهم.

و سار حتّى نزل على حلب، فی ثامن عشر من جمادى الأولى، سنه ثمان و سبعین و خمسمائه. و نزل على «عین أشمونیث»(۱)، و امتد عسکره حولها شرقا، و أقام ثلاثه أیّام، فقال له عماد الدّین: «امض إلى سنجار، و خذها و ادفعها إلیّ، و أنا أعطیک حلب».

و کان «عماد الدین» قد ندم على مقایضه أخیه بحلب و سنجار، حیث وصل و وجد خزائنها صفرا من المال، و قلعتها خالیه من العدد و السّلاح و الآلات، و أنّه یجاور مثل «الملک الناصر» فیها.

فعند ذلک سار «الملک الناصر» إلى جسر «البیره»، و کان صاحبها «شهاب الدّین بن أرتق» قد صار فی طاعته، فعبر إلیه مظفّر الدّین بن زین الدّین إلى الناحیه الشّامیّه، و حرّان، إذ ذاک فی یده، کان أقطعه إیاها عزّ الدّین صاحب الموصل، و حصلت بینه و بینه و حشه من الوقت الّذی عزم فیه على أخذ قلعه حلب، فکانت رسله تتردّد إلى «الملک الناصر»، تطمعه فی البلاد، و تحثّه على الوصول.

و عاد ابن زین الدّین معه حتى عبر الفرات فی جسر «البیره»، و کان «عزّ الدّین» قد وصل بعساکر الموصل إلى «دارا»(۲)، لیمنع «الملک النّاصر» من

۱- تعرف أیضا باسم عین اشمول، ذکرها ابن الشحنه ص ۲۴۵ بین منتزهات حلب.

۲- دارا مدینه فی لحف جبل بین ماردین و نصیبین ذات بساتین و میاه جاریه. الأعلاق الخطیره- قسم الجزیره- ص ۷۹۲.

حلب، فلما عبر الفرات عاد إلى الموصل، و عبر «الملک النّاصر»، فأخذ «الرّها» من ابن الزعفرانى، و سلّمها إلى ابن زين الدّين، و أخذ الرّقّه من ابن حسّان، و دفعها إلى ابن الزّعفرانى، و کاتب ملوک الشّرق، فأطاعوه، و قصد «نصيبين»، فأخذها.

و سار إلى الموصل، و فيها عسکر قویّ، فقوتل قتالا شديدا، و لم يظفر منها بطائل، فرحل عنها إلى «سنجار»، فأنفذ «مجاهد الدّين» إليها عسکرا، فمنعه «الملک النّاصر» من الوصول، و حاصر «سنجار»، فسلّمها إليه أمير من الأکراد الزرزاريه، و کان فی برج من أبراجها، فسلّم إليه تلک النّاحيه، و صارت «الباشوره»(۱) معه، فضعفت نفس واليها «أمير أميران» أخی عزّ الدّين، فسلّمها بالأمان، فی ثانی شهر رمضان من السّنه و قرّر «الملک النّاصر» أمورها، و عاد إلى حرّان.

و لما قصد «الملک النّاصر» البلاد الشرقيّه، رأى عماد الدّين أن يخرّب المعاقل المطيفه ببلد حلب، فشنّ الغارات على شاطیء الفرات، و هدم حصن بالس، و حصر قليعه نادر(۲) ففتحها، ثم هدمها بعد ذلک، و أغار على قرى الشطّ، فأخربها و استاق مواشيها، و أحرق جسر «قلعه جعبر»(۳).

ثم وصل إلى «منبج» و قاتلها، و أغار على بلدها، و وصلت الغاره إلى

۱- باشوره کل قلعه مدخلها.

۲- على مقربه من بالس انظر الأعلاق الخطيره- قسم حلب- ج ۲ ص ۲۵.

۳- فی بغيه الطلب ص ۳۸۵۸:« فخرب عزاز و حصن بزاعا و حصن بالس و حصن کفرلاثا».

«قلعه نجم»(۱)، و عبر الفرات، فأغار على «سروج»(۲).

ثم عاد إلى حلب؛ ثم خرج و هدم «حصن الكرزين»(۳) و خرب حصن «بزاعا» و قلعه «عزاز»، فی جمادی الآخره، و خرب حصن «کفرلاثا»(۴) بعد أخذه من صاحبه بکمش، و کان قد استأمن إلى «الملک الناصر»، و ضاق الحال علیه، فشرع فی قطع جامکیه أجناد من القلعه، و قتّر على نفسه فی النفقات.

و أما «الملک النّاصر»، فرحل من «حرّان» فنزل «بحرزم»(۵) تحت قلعه ماردین. فلم یر له فیها طمعا، فسار إلى «آمد»، فی ذی الحجّه، و کان قد وعد «نور الدین محمد بن قرا أرسلان» بأخذها من ابن نیسان، و تسلیمها إلیه، و حلف له على ذلک، فتسلّمها فی العشر الأول، من المحرّم من سنه تسع و سبعین و خمسمائه، و کان فیها من المال شی ء عظیم، فسلّم ذلک کلّه مع البلد إلى نور الدّین، و قیل له فی أخذ الأموال و تسلیم البلد، فقال:

«ما کنت لأعطیه الأصل و أبخل بالفرع».

ثم إنّ الملک الناصر عبر إلى الشّام، فمرّ «بتلّ خالد» فحصرها،

۱- قلعه مطله على الفرات قرب جسر منبج. الأعلاق- قسم الجزیره- ص ۸۲۶.

۲- سروج بلده قریبه من حران من دیار مضر. معجم البلدان.

۳- فی منطقه منبج قریه اسمها« کرسان» فلعلها الموقع المقصود.

۴- کفرلاثه من قرى منطقه أریحا فی محافظه ادلب و تبعد عن ادلب مسافه ۲۰ کم.

۵- بلیده بین ماردین و دنیسر من أعمال الجزیره. معجم البلدان.

فسلّمها أهلها بالأمان فى المحّرم. ثم سار منها إلى عين تاب، و بها «ناصر الدّين محمد» أخو «الشّيخ اسماعيل الخزندار»، فدخل فى طاعته، فأبقاها عليه.

و لمّا علم «عماد الدّين» ذلك، و تحقّق قصده لحلب، أخذ رهائن الحلبيّن، و أصعد جماعه من أولادهم و أقاربهم، خوفا من تسليم البلد، و قسم الأبراج و الأبواب على جماعه من الأمراء، و كان الأمراء «الياروقيه» بها فى شوكتهم.

و جاء الملك النّاصر، و نزل على حلب فى السّادس و العشرين من محرّم سنه تسع و سبعين و خمسمائه. و امتدّ عسكره من «بابلّى» إلى النّهر ممتّدا إلى «باسلين»(۱)، و نزل هو على «الخناقيّه»(۲)، و قاتل عسكر حلب قتالا عظيما، فى ذلك اليوم، و أسر «حسام الدّين محمود بن الختلو»، بالقرب من «بانقوسا»(۳)، و هو الذى تولى شحنكيه حلب، فيما بعد.

و هجم تاج الملوك بورى بن أيّوب، أخو «الملك النّاصر»، على عسكر حلب، فضرب بنشّاب زنبورك(۴) فأصاب ركبته، فوقع فى الأكحل، فبقى

۱- بابلى و باسلين من منتزهات حلب. انظر الأعلاق- قسم حلب- ج ۱ ص ۳۶۷، ۳۷۱.

۲- من منتزهات حلب. ابن الشحنه ص ۲۴۶.

۳- عد ابن الشحنه ص ۲۳۷ بانقوسا بين حارات حلب خارج الأسوار.

۴- من أنواع النشاب المرمى بواسطه النوابض، و معروف أن الأسلحه تطورت كثيرا فى هذه الحقبه.

أيّاما، و مات بعد فتح حلب، و دفن بتربه «شهاب الدّين الحارميّ»، «بالمقام»(۱) ثم نقل إلى دمشق.

و جدّ الملك الناصر، بسبب أخيه على محاصره حلب أياما، فاجتمع(۲) إليه الأجناد من العسكر و الرّجال، و طلبوا منه قرارهم فمطلهم، فقالوا:

«قد ذهبت أخبازنا(۳)، و نحتاج لغلاء الأسعار إلى ما لا بدّ منه»، و شحّ بماله، فقال لهم: «أنتم تعلمون حالى، و قلّه مالى، و أننى تسلّمت حلب صفرا من الأموال، و ضياعها فى أقطاعكم». فقال له بعضهم: «من يريد حلب يحتاج إلى أن يخرج الأموال و لو باع حلى نسائه»؛ فأحضر أوانى من الذّهب و الفضّه، و غيرها؛ و باع ذلك، و أنفقه فيهم.

و كان الحلبيّون يخرجون على جارى عادتهم، و يقاتلون أشدّ قتال بغير جامكيّه(۴)، و لا قرار، نخوه على البلد، و محبّه لملكهم، فأفكر عماد الدّين، و رأى أنه لا قبل له بالملك النّاصر، و أنّ ماله ينفد، و لا يفيده شيئا، فخلا ليله بطمان، و قال له:

«ما عندک فى أمرنا؟ هذا الملک النّاصر، قد نزل محاصرا لنا، و هو ملک قوىّ، ذو مال، و الظّاهر أنّه يطيل الحصار، و تعلم أنّنى أخذت حلب

۱- مقام إبراهيم الخليل داخل القلعه.

۲- الضمير يعود هنا إلى زنكى الثانى، فقد طالبه الجند بالرواتب المقرره لهم مع التعويضات.

۳- الخبز الراتب.

۴- أى بدون نفقات و مرتبات.

خاليه من الخزائن، و الجند فيطالبوننى و ليس لى من المال ما يكفينى لمصابرته، و لا أدرى عاقبه هذا الأمر إلى ما ينتهى».

فأحسّ طمان عند ذلك بما قد حصل فى نفسه، فقال له: «أنا أذكر لك ما عندى، على شريطه الكتمان و الاحتياط بالمواثيق و الأيمان، على أن لا يطّلع أحد على ما يدور بيننا، فإنّ هؤلاء الأمراء إن اطّلعوا على شى ء ممّا نحن فيه أفسدوه، و انعكس الغرض»، فتحالفا على كتمان ذلك، فقال له طمان: «أرى من الرأى فى حلب أن تسلّمها إلى الملك النّاصر، بجاهها، و حرمتها، قبل أن تنتهك حرمتها، و يضعف أمرها، و تفنى الأموال، و تضجر الرجال، و يستغلّ بلدها فيتقوّى هو و عسكره به، و نحن لا نزداد إلّا ضعفا، و الآن فنحن عندنا قوه، و نأخذ منه ما نريد من الأموال و البلاد، و نستريح من الأجناد و إلحاحهم فى الطّلب، ثمّ قد أصبح ملكا عظيما، و هو صاحب مصر، و أكثر الشّام، و ملوك الشّرق قد أطاعوه و معظم الجزيره فى يده».

فقال له: «و اللّه هذا الّذى قلته كلّه رأيى، و هو الذى وقع لى، فاخرج إليه، و تحدّث معه على أن يعطينى: الخابور، و سنجار؛ و أىّ شى ء قدرت على أن تزداده فافعل، و اطلب الرّقّه لنفسك».

ثم إنّ طمان كتم ذلك الأمر، و باكر القتال، و أظهر أنّ بداره و اصطبله «بالحاضر» خشبا عظيما، و أنه يريد نقضها، كيلا يحرقها العسكر، فكان يبيت كلّ ليله فى داره، خارج المدينه. و يجتمع بالسّلطان

الملک النّاصر، خالیا، و یرتّب الأمور معه، و یجی ء إلی عماد الدّین و یقرّر الحال معه، و ینزل، و یصعد إلی القلعه من «برج المنشار»- و کان عند باب الجبل الآن متّصلا بالمنشار- إلی أن قرّر مع الملک النّاصر: أن یأخذ حلب و عملها، و لا یأخذ معها شیئا من أموالها، و ذخائرها، و جمیع ما فیها من الآلات و السّلاح، و أن یعطی عماد الدّین عوضا عنها: سنجار، و الخابور، و نصیبین، و سروج، و أن یکون لطمان الرّقّه(۱)؛ و یکون مع عماد الدّین.

و شرط علیه أن تکون الخطابه و القضاء للحنفیّه(۲) بحلب، فی بنی العدیم، علی ما هی علیه، کما کان فی دوله الملک الصّالح، و أن لا ینقل إلی الشافعیّه.

هذا کلّه یتقرّر، و القتال فی کلّ یوم بین العسکرین علی حاله. و لیس عند الطائفتین علم بما یجری، و یخرج من الحلبیّن فی کلّ یوم عشره آلاف مقاتل أو أکثر، یقاتلون أشدّ قتال.

و لم یعلم أحد من الأمراء و لا من أهل البلد، حتّی صعدت أعلام «الملک النّاصر» علی القلعه، بعد أن توثّق کلّ واحد من الملکین من صاحبه بالأیمان. فأسقط فی أیدی أهل حلب و الأمراء من «الیاروقیّه»، و غیرهم،

۱- فی بغیه الطلب ص ۳۸۵۸« و أن یعوضه عنها بسنجار و نصیبین و الخابور و الرقه و سروج و أن تکون بصری لطمان، و یکون فی خدمه زنکی».

۲- کان صلاح الدین شافعیا.

و خاف «الياروقيّه» على أخبازهم، و الحلبيّون على أنفسهم، لما تكرّر منهم من قتال «الملك النّاصر» على القلعه، بعد أن توثّق كلّ واحد، فى أيّام الملك الصّالح.

و صرّح العوامّ بسبّه، و حمل رجل من الحلبّين يقال له «سيف بن المؤذن» إجانه الغسّال، و صار بها إلى تحت الطّيّاره(۱) بالقلعه، و عماد الدّين جالس بها يشير إليه أن يغسل فيها كالمخانيث، و نادى إليه: «يا عماد الدّين، نحن كنّا نقاتل بلا جامكيّه و لا جرايه، فما حملك على أن فعلت ما فعلت؟».

و قيل: إنّ بعضهم رماه بالنشّاب فوقع فى وسط الطّيّاره، و عمل عوامّ حلب أشعارا عاميّه، كانوا يغنّون بها، و يدقّون على طبيلاتهم بها، منها:

أحباب قلبى لا تلومونى هذا «عماد الدّين» مجنون

و دقّ آخر على طبله، و قال مشيرا إلى «عماد الدّين»:

و بعت «بسنجار» قلعه حلب عدمتك من بايع مشترى

خريت على حلب خريهنسخت بها خريه «الأشعرى»(۲)

و صعد إليه «صفيّ الدّين»- رئيس البلد- و وبّخه على ما فعل، و هو

۱- امتداد مسقوف لقاعه مشرفه على الشارع يطل منه الحاكم فيرى ما يجرى بالخارج دون أن يرى و هو بالوقت نفسه متمتع بالحمايه.

۲- لعله أراد أبا موسى الأشعرى و ما راج بين الناس عن موقفه فى التحكيم.

فی قلعه حلب لم یخرج منها بعد، فقال له عماد الدّین: فما فات، فاستهزأ به(۱).

و أنفذ عسکر حلب و أهلها، إلی السلطان الملک النّاصر:

عزّ الدّین جوردیک، و زین الدّین بلک، فاستحلفوه للعسکر و لأهل البلد، فی سابع عشر صفر، من سنه تسع و سبعین و خمسمائه.

و خرجت العساکر و مقدّمو حلب إلیه إلی «المیدان الأخضر»(۲) و خلع علیهم، و طیّب قلوبهم.

و لما استقرّ أمر الصّلح، حضر الملک النّاصر صلاح الدّین عند أخیه تاج الملوک، «بالخناقیه» یعوده و قال له: «هذه حلب، قد أخذناها، و هی لک» فقال: «لو کان و أنا حیّ، و و اللّه، لقد أخذتها غالیه حیث تفقد مثلی». فبکی الملک النّاصر و الحاضرون.

و أقام «عماد الدّین» بالقلعه، یقضی أشغاله، و ینقل أقمشته، و خزائنه، و السلطان الملک النّاصر مقیم «بالمیدان الأخضر»، إلی یوم

۱- عباره بغیه الطلب ص ۳۸۶۰ أقوم و أوضح قوله:« و وبخه علی ذلک، فقال و هو بالقلعه: لم نخرج منها بعد، فما فات شی ء، فاستهزأ به».

۲- خارج أسوار المدینه. الأعلاق الخطیره- قسم حلب- ج ۱ ص ۶۶، ۳۹۶.

الخميس ثالث و عشرين من صفر، فنزل «عماد الدّين» من القلعه و رتّب فيها «طمان» مقيما بها، إلى أن يتسلّم نواب «عماد الدّين» ما اعتاض به عن حلب، و استنابه فى بيع جميع ما كان فى قلعه حلب، حتى باع الأغلاق و الخوابى، و اشترى الملك النّاصر منها شيئا كثيرا.

[عصر الدوله الأيوبيه]

اشاره

[عصر الدوله الأيوبيه](۱)

و نزل عماد الدّين، فى ذلك اليوم إلى السّلطان الملك النّاصر و عمل له السّلطان وليمه و احتفل و قدّم «لعماد الدّين» أشياء فاخره من الخيل و العدد، و المتاع الفاخر، و هم فى ذلك إذ جاءه بعض أصحابه و أسرّ إليه بموت أخيه «تاج الملوك»، فلم يظهر جزعا و لا هلعا، و كتم ذلك عن عماد الدّين، إلى أن انقضى المجلس، و أمرهم بتجهيزه.

فلما انقضى أمر الدّعوه و علم عماد الدّين بعد ذلك عزّاه عن أخيه، و سار السّلطان الملك النّاصر معه مشيّعا فى ذلك اليوم، فسار حتى نزل «مرج قراحصار»(۲) فنزل به، و السّلطان فى خيمته إلى أن وصل «عماد الدّين» رسل أصحابه يخبرونه بأنّهم تسلموا «سنجار»، و المواضع التى تقرّرت له معها،

۱- أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

۲- على نحو فرسخين من حلب فى جهه المشرق. بغيه الطلب ص ۳۸۶۲.

فرفعت أعلام الملک النّاصر، عند ذلک على القلعه، و صعد إليها فى يوم الاثنين السّابع و العشرين، من صفر، من سنه تسع و سبعين و خمسمائه.

و امتنع سرخک، والى «حارم»، من تسليمها إلى السّلطان الملک النّاصر، فبذل له ما يحب من الإقطاع، فاشتطّ فى الطّلب، و راسل الفرنج، ليست .. نجد بهم، فسمع بعض الأجناد، بقلعه حارم، ذلک، فخافوا أن يسلّمها إلى الفرنج، فوثبوا عليه، و حبسوه، و أرسلوا إلى السّلطان، يعلمونه بذلک، و يطلبون منه الأمان و الإنعام، فأجابهم إلى ذلک و تسلّمها.

و أقرّ عين تاب بيد صاحبها، و سلّم «تلّ خالد» إلى «بدر الدّين دلدرم» صاحب «تل باشر»، و كان من كبار الياروقيه، و أقطع «عزاز» الأمير علم الدين سليمان بن جندر. و ولّى الملک النّاصر قلعه حلب سيف الدّين يازكج الأسدى، و ولّى شحنكيه حلب حسام الدّين تميرک بن يونس، و ولّى ديوان حلب ناصح الدّين بن العميد الدمشقى، و أبقى الرئيس «صفىّ الدين طارق بن أبى غانم بن الطّريره»، فى منصبه على حاله، و زاد إقطاعه.

و كان الفقيه «عيسى» كثير التعصّب، فمازال به، و عزل عنها عمّى «أبو المعالى». و وليها «أبو البركات سعيد بن هاشم»، و فعل فى القضاء كذلک، فسيّر إلى القاضى محيى الدّين محمد بن زكىّ الدّين علىّ إلى دمشق،

بسفاره «القاضی الفاضل»، فأحضر إلی حلب و ولّی قضاءها، و عزل «والدی» عن القضاء، و امتدحه محیی الدّین بن الزّکیّ، بقصیده بائیّه، قال فیها:

و فتحکم «حلبا» بالسّیف فی صفرمبشّر بفتوح «القدس» فی رجب

فاتّفق من أحسن الإتفاقات، و أعجبها، فتح القدس فی شهر رجب من سنه ثلاث و ثمانین و خمسمائه.

و أقام محیی الدّین فی القضاء بحلب مدّه، ثم استناب القاضی زین الدّین أبا البیان نبأ بن البانیاسی فی قضاء حلب، و سار إلی بلده دمشق.

[أیام صلاح الدین]

ثم إنّ السّلطان «الملک الناصر» أقام بحلب، و رحل منها فی الثانی و العشرین من ربیع الآخر، من سنه تسع و خمسمائه. و جعل فیها ولده الملک «الظّاهر غازی»- و کان صبیا- و جعل تدبیر أمره إلی سیف الدّین یازکج.

و سار إلی دمشق، ثمّ خرج إلی الغزاه فی جمادی الآخره، و سار إلی «بیسان»، و قد هرب أهلها، فخرّبها، و نهبها؛ و خرّب حصنها. ثم سار إلی «عفربلا»، فخرّبها، و جرّد قطعه من العسکر، فخربوا «النّاصره» و «الفوله»(۱)، و ما حولهما من الضّیاع.

۱- الفوله قریه فی قضاء الناصره. معجم بلدان فلسطین لمحمد شراب ط. دمشق ۱۹۸۷. و انظر أیضا ولیم الصوری ص ۱۰۶۱- ۱۰۶۲.

و جاء الفرنج فنزلوا «عين الجالوت»، و دار المسلمون بهم، و بثّوا السّرايا فى ديارهم، للغاره و النّهب، و وقع جورديك، و جاولى الأسدى، و جماعه من النّوريه على عسكر «الكرك» و «الشّوبك»، سائرين فى نجده الفرنج، فقتلوا منهم مقتله عظيمه، و أسروا مائه نفر، و عادوا.

و جرى للمسلمين مع الفرنج وقعات، و لم يتجاسروا على الخروج للمصاف، و عاد السلطان «إلى الطّور»(۱) فى سابع عشر جمادى الآخره.

فنزل تحت «الجبل»، مترقبا رحيلهم، ليجد فرصه، فأصبحوا، و رحلوا راجعين على أعقابهم. و رحل نحوهم، و ناوشهم العسكر الإسلامىّ، فلم يخرجوا إليهم، و المسلمون حولهم، حتى نزلوا «الفوله» راجعين؛ و فرغت أزواد المسلمين، فعادوا إلى دمشق، و دخل السّلطان دمشق، فى رابع و عشرين جمادى الآخره.

ثم عزم على غزو «الكرك»، فخرج إليها فى رجب، و كتب إلى أخيه «الملك العادل»، و أمره أن يلتقيه إلى الكرك، و سار السّلطان إلى الكرك، و حاصرها، و نهب أعمالها، و هجم ربضها، فى رابع شعبان. و هدم سورها بالمنجنيقات، و أعجزه طمّ خندقها، و وصلت الفرنج لنجدتها فلما اجتمعوا «بالجليل»، رحل عنها، و نزل بازائها(۲).

۱- و يسمى أيضا جبل طابور، يقع شرقى الناصره. معجم بلدان فلسطين.

۲- انظر وليم الصورى ص ۱۰۶۵- ۱۰۶۷، ۱۰۶۹- ۱۰۷۱.

[ولایه العادل حلب]

و وصل أخوه «الملک العادل»، من مصر، و عقد لابن أخیه «تقیّ الدّین عمر»، علی ولایتها، فسار إلیها فی نصف شعبان.

و عاد السّلطان الملک الناصر إلی دمشق، و الملک العادل أخوه معه، فعقد له علی ولایه حلب، و سار إلیها فی ثانی شهر رمضان، فوصلها، و صعد قلعتها فی یوم الجمعه، ثانی و عشرین من شهر رمضان، و خرج السّلطان الملک الظّاهر منها و معه «یازکج»، فوصل إلی والده فی شوّال.

و یقال إنّ «الملک العادل» دفع إلی السّلطان، لأجل حلب، ثلاثمائه ألف دینار مصریّه، و قیل دون ذلک، و کان السّلطان محتاجا إلیها لأجل الغزاه، فلذلک سلّم إلیه حلب، و أخذها من ولده.

و لما دخلها «الملک العال»، ولّی بقلعتها صارم الدّین بزغش، و ولّی الدّیوان و الأقطاع و الجند، و استهداء الأموال، و شحنکیه البلد: «شجاع الدّین محمّد بن بزغش البصراوی»، و استکتب الصّنیعه ابن النحّال- و کان نصرانیا- فأسلم علی یدیه، و ولّی وقوف الجامع فخر الدّین أحمد بن عبد اللّه بن القصری، و أمره بتجدید المساجد الدّاثره بحلب، و القیام بمصالحها، و توفیر أوقافها علیها، و ان لا یتعرّض لوقف المسجد الجامع، بل

یوفّر وقفه علی مصالحه، و لا یرفع إلی «الزّردخاناه(۱)» إلا ما فضل عن ذلک کلّه، و جدّد فی أیامه مساجد متعدّده کانت قد تهدّمت.

و وقع فی أیامه وقعه بین الحنفیّه و الشافعیّه، و صار بینهم جراح، فصنع لهم الملک العادل دعوه فی المیدان الأخضر؛ و أصلح بین الفریقین، و خلع علی الأکابر من الفقهاء و المدرّسین، و هدم الحوش القبلیّ الشّرقیّ الذی کان للقلعه، و هو ما بین الجسرین تحت المرکز، و رأی أن یسفّحه، فسفّحه السّلطان الملک الظّاهر بعده، و کتب علیه اسمه بالسّواد إلی أن غاب فی أیام ابنه الملک العزیز فجدّد، و زالت الکتابه، و بقی بعضها.

و وصل رسول الخلیفه شیخ الشّیوخ «صدر الدّین عبد الرّحیم بن اسماعیل»، إلی السّلطان «الملک النّاصر»، فی الاصلاح بینه و بین عزّ الدّین- صاحب الموصل- و ورد معه من الموصل القاضی محیی الدّین أبو حامد بن الشّهرزوری، الّذی کان قاضی حلب ثم تولّی قضاء الموصل، و القاضی بهاء الدین أبو المحاسن بن شدّاد، الذی صار قاضی عسکر السلطان «الملک الناصر»، و ولی قضاء حلب فی أیام ابنه الملک الظّاهر، و لم یتفق الصلح. بینهما(۲).

۱- الزردخاناه: مستودع حفظ الأسلحه، و یبدو من النص أنه کان یحفظ به ما فضل من دخل الأوقاف.

۲- مکث ابن شداد لدی صلاح الدین و هو الذی ألف حوله کتاب المحاسن الیوسفیه.

و حضرنی حکایه جرت لشیخ الشیوخ مع «محیی الدّین»، فی هذه السّفره، و ذلک أن شیخ الشیوخ کان قد وصل إلی السّلطان «الملک النّاصر»، و هو محاصر للموصل، لیصلح بینه و بین عزّ الدّین، فی المحاصره الأولی، فلم یتّفق الصلح، و اتّهم أهل الموصل شیخ الشّیوخ بالمیل مع «الملک النّاصر»، فعمل محیی الدّین فیه أبیاتا منها:

بعثت رسولا أم بعثت محرّضاعلی القتل تستجلی القتال و تستحلی؟

و قال فیها مخاطبا للإمام النّاصر:

فلا تغترر منه بفضل تنمّس فما هکذا کان «الجنید» و لا «الشّبلی»(۱)

فبلغت الأبیات شیخ الشیوخ.

فلما اجتمعا فی هذه السفره و تباسطا، قال له شیخ الشیوخ: «کیف تلک الأبیات التی عملتها فیّ؟» فغالطه عنها، فأقسم علیه باللّه أن ینشده إیّاها، فذکرها له، حتی أنشده البیت الذی ذکرناه أوّلا، فقال: «و اللّه لقد ظلمتنی، و اننی و اللّه، اجتهدت فی الاصلاح فما اتّفق» فأنشده تمامها، حتی بلغ إلی قوله: «فما هکذا کان الجنید و لا الشّبلی» فقال: «و اللّه لقد صدقت، فما هکذا کان الجنید و لا الشّبلی، أدور علی أبواب الملوک من باب هذا إلی باب هذا».

ثمّ إنّ الرّسل ساروا عن غیر زبده، و توجّه الملک العادل من حلب فی ذی الحجّه، و عیّد عند أخیه بدمشق، ثم عاد إلی حلب.

۱- من أشهر أئمه الصوفیه.

و اهتمّ السّـلطان الملـك النّاصـر، فی سـنه ثمانین و خمسـمائه، لغزاه «الکرک»، فوصل إلیه «نور الـدّین بن قرا أرسـلان»، و اجتاز بحلـب، فـأکرمه «الملـک العـادل»، و أطلعـه إلی قلعتهـا فی صـفر، ثـم رحـل معه إلی دمشـق، فخرج السّـلطان، و التقـاه علی عین الجر(۱)، «بالبقاع»، ثم تقدّم إلی دمشق و تجرد و تأهب للغزاه، و خرج إلی «الکرک»، و استحضـر العساکر المصریه، فوصل تقیّ الدّین ابن أخیه، و معه بیت الملک العادل، و خزائنه، فسیرهم إلی حلب.

و نازل الکرک، و أحـدقت العساکر بها، و هجموا الربض، و بینه و بین القلعه خندق و هما جمیعا علی سـطح جبل، و سدّوا أکثر الخنـدق، و قـاربوا فتـح الحصن، و کـانت للبرنس «أرنـاط»، فکـاتب من فیهـا الفرنـج، فوصـلوا فی جمـوعهم إلی موضـع یعرف «بالواله»(۲)، فسیّر «الملک النّاصر» الأثقال، و رحل بعد أن هدم الحصن بالمنجنیقات.

و رحل عنها فی جمادی الآخره، و أمر بعض العسـکر فـدخلوا إلی بلاد الفرنـج، فهجموا نابلس، و نهبوها، و خربوها، و اسـتنقذوا منها أسری من المسلمین، و فعلوا فی «سبسطیه»(۳) و «جینین»(۴) مثل ذلک، و عادوا و دخلوا

۱- هی عنجر الحالیه فی لبنان علی مقربه من الحدود السوریه اللبنانیه الحالیه قبل بلده شتورا.

۲- لم یرد ذکر هـذا الموقع فی المعـاجم العـامه أو المتخصـصه بفلسـطین، و یسـتفاد من ولیم الصوری ص ۱۰۷۰، أنه کـان علی أطراف البحر المیت.

۳- سبسطیه قریه فی الشمال الغربی من مدینه نابلس علی بعد مسافه ۱۵ کم منها. معجم بلدان فلسطین.

۴- تمثل مدینه جینین(جنین) الرأس الجنوبی للمثلث المتکون من مرج بنی عامر. معجم بلدان فلسطین.

دمشق مع السلطان.

و وصل إليه «شيخ الشّيوخ» بالخلع، من الخليفه النّاصر، له و لأخيه «الملك العادل»، و لابن عمّه ناصر الدّين(۱)، فلبسوها، ثم خلع السّلطان، بعد أيّام خلعته الوارده من الخليفه على نور الدّين بن قرا أرسلان.

و ورد إليه رسول مظفّر الدّين بن زين الدّين، يخبره أن عسكر «الموصل»، و عسكر «قزل» نزلوا على «إربل»، و أنهم نهبوا و أخربوا، و أنّه انتصر عليهم، و يشير عليه بقصد الموصل، و يقوّى طمعه، و بذل له إذا سار إليها خمسين ألف دينار، فعند ذلك هادن الفرنج مدّه.

و رحل من دمشق فى ذى القعده من سنه ثمانين، فوصل حلب و أقام بها إلى أن خرجت السنه، و سار منها إلى «حرّان»، و التقاه مظفر الدين بالبيره، فى المحرم سنه إحدى و ثمانين، و عاد معه إلى «حرّان»، و طالبه بما بذل له من المال، فأنكر ذلك فأحضر رسوله العلم بن ماهان، فقابله على ذلك، فأنكر، فقبض عليه، و وكّل به.

ثم أخذ منه مدينتى حرّان و الرّها، و أقام فى الاعتقال إلى مستهل شهر ربيع الأول، ثم أطلقه خوفا من انحراف الناس عنه، لأنهم علموا أنه الذى ملّكه البلاد الجزريه، و أعاد عليه «حرّان»، و وعده باعاده الرها، إذا عاد من سفرته، فأعادهما عليه.

۱- ابن أسد الدين شيركوه، و كان إقطاعه حمص.

[حصار صلاح الدين للموصل]

و سار الملك النّاصر إلى الموصل، فوصل «بلد»(۱)، فنزلت إليه والده عزّ الدّين، و معها ابنه نور الدّين، و غيرها من نساء بنى أتابك، يطلبن منه المصالحه، و الموافقه، فردّهن خائبات، ظنا منه أن «عزّ الدّين» أرسلهنّ عجزا عن حفظ الموصل؛ و اعتذر بأعذار ندم عليها بعد ذلك.

و رحل، حتّى صار بينه و بين الموصل مقدار فرسخ فكان يجرى القتال بين العسكرين، و بذل أهل الموصل نفوسهم فى القتال لردّه النّساء، و ندم السّلطان على ردّهن، و افتتح «تل عفر»، فأعطاها عماد الدّين صاحب سنجار.

و أقام على حصار الموصل شهرين، ثمّ رحل عنها، و جاءه الخبر بموت شاه أرمن، و كاتبه جماعه من أهل خلاط، فترك الموصل طمعا فى خلاط فاصطلح أهل خلاط مع البهلوان صاحب «أذربيجان»، فنزل السّلطان على «ميّافارقين»، و كان صاحبها «قطب الدّين ايلغازى بن ألبى بن تمرتاش»، و ملك بعده حسام الدّين بولق أرسلان، و هو طفل، فطمع فى أخذها، و نازلها، فتسلّمها من واليها، و زوّج بعض بنيه ببنت الخاتون بنت قرا أرسلان، ثم عاد إلى الموصل عند إياسه من خلاط، فوصل إلى «كفر زمّار»(۲)، فى شعبان، من سنه إحدى و ثمانين، فأقام بها مدّه، و الرسل تتردّد بينه و بين عزّ الدّين.

۱- مدينه قديمه فوق الموصل على دجله بينهما سبعه فراسخ. الأعلاق- قسم الجزيره- ص ۷۶۸.

۲- كفر زمار: قريه من قرى الموصل: معجم البلدان.

فمرض السّلطان بكفر زمار، فسار عائدا إلى حرّان، و أتبعه عزّ الدين بالقاضى بهاء الدين بن شداد، و بهاء الدّين الرّبيب، رسولين إليه فى موافقته على الخطبه و السكّه، و أن يكون معه عسكر من جهته، و أن يسلم إليه «شهرزور»(۱)، و أعمالها، و ما وراء «الزّاب».

[مرض صلاح الدين بحران]

و اشتد مرض السّلطان بحرّان فى شوّال، و أيس منه، و أرجف بموته، و وصل إليه الملك العادل من حلب، و معه أطبّاؤها، و استدعى المقدّمين من الأمراء من البلاد، فوصلوا إليه. و عزم «الملك العادل» على استحلاف الناس لنفسه.

و سار ناصر الدين صاحب حمص طمعا فى ملك الشّام، و قيل انه اجتاز بحلب، ففرّق على أحداثها مالا، و سار إلى حمص، و جرى من تقىّ الدّين بمصر حركات من يريد أن يستبدّ بالملك.

و تماثل السّلطان، و بلغه ذلك كلّه، و أركب، فرآه الناس، و فرحوا، و ابتنى دارا ظاهر «حرّان» فجلس فيها حين عوفى، فسمّيت «دار العافيه». و لما عوفى ردّ على مظفّر الدّين «الرّها»، و أعطاه سنجقا، و أحضر رسولى الموصل، و حلف لهما على ما تقرّر فى يوم عرفه.

و بلغه موت ابن عمّه ناصر الدّين، صاحب حمص، و رحل عن حرّان إلى حلب، و صعد قلعتها يوم الأحد، رابع عشر محرم سنه اثنتين

۱- شهرزور: كوره واسعه فى الجبال بين اربل و همذان. معجم البلدان.

و خمسمائه. و أقام بها أربعه أيام، ثم رحل إلى دمشق، فلقيه «أسد الدّين شيركوه»، ابن صاحب حمص، فأعطاه حمص، و سار إلى دمشق.

و سيّر إلى «الملك العادل»، و طلبه إليه إلى دمشق، فخرج من حلب جريده، ليله السّبت الرّابع و العشرين، من شهر ربيع الأوّل من سنه اثنتين. فوصل إليه إلى دمشق، و جرت بينهما أحاديث و مراجعات استقرّت على أن الملك العادل يطلع إلى مصر، و معه الملك العزيز، و يكون أتابكه؛ و يسلّم حلب إلى الملك «الظّاهر غازى»، و ينزل الأفضل إلى دمشق من مصر، و ينزل تقىّ الدين أيضا منها.

و كان الّذى حمله على إخراج الملك العادل من حلب أنّ علم الدين سليمان بن جندر كان بينه و بين الملك النّاصر صحبه قديمه، قبل الملك، و معاشره، و انبساط، و كان الملك العادل و هو بحلب لا يوفيه ما يجب له، و يقدّم عليه غيره.

فلما عوفى الملك النّاصر سايره يوما «سليمان»، و جرى حديث مرضه، و كان قد أوصى لكلّ واحد من أولاده بشى ء من البلاد، فقال له «سليمان بن جندر»: «بأىّ رأى كنت تظنّ أن وصيّتك تمضى كأنّك كنت خارجا إلى الصيد، و تعود فلا يخالفونك، أما تستحى أن يكون الطّائر أهدى منك إلى المصلحه؟». قال: «و كيف ذلك؟»- و هو يضحك-. قال: «إذا أراد الطائر أن يعمل عشّا لفراخه، قصد أعالى الشّجره، ليحمى فراخه، و أنت سلّمت الحصون إلى أهلك، و جعلت أولادك على الأرض، هذه حلب،

و هى أمّ البلاد بيد أخيك؛ و حماه بيد تقىّ الدّين، و حمص بيد ابن أسد الدّين، و ابنك الأفضل مع تقىّ الدّين بمصر يخرجه متى شاء، و ابنك الآخر مع أخيك فى خيمته يفعل به ما أراد». فقال له: «صدقت، و اكتم هذا الأمر».

[ولايه الظاهر غازى لحلب]

ثم أخذ حلب من أخيه، و أعطاها ابنه «الملك الظاهر»، و أعطى الملك العادل بعد ذلك حرّان، و الرّها، و ميافارقين، ليخرجه من الشام، و يتوفّر الشام على أولاده. فكان ما كان، و أخرج «تقىّ الدّين» من مصر، فشقّ عليه ذلك و امتنع من القدوم، ثم خاف، فقدم عليه.

و سيّر الملك العادل «الصّينيعه» لا حضار أهله من حلب، و سار «الملك الظّاهر»- قدّس اللّه روحه- إلى حلب، و سيّر فى خدمته «شجاع الدين عيسى بن بلاشوا»(۱)، و ولّاه قلعه حلب، و أوصاه بتربيه الملك الظّاهر، و أخيه الملك الزّاهر، و حسام الدين بشاره- صاحب بانياس- و ولّاه المدينه، و جعل الديوان بينهما.

و جعل قرار «الملك الظاهر» فى السنه ثمانيه و أربعين ألف دينار بيضاء فى كلّ شهر أربعه آلاف دينار، و كلّ يوم قباء و كمه(۲)، و عليق دوابّه من

۱- فى مفرج الكروب ج ۲ ص ۱۷۹« عيسى بن بلاشق».

۲- كذا بالأصل و لعلها تصحيف« كمر» أى قباء و نطاق.

الأهراء، و خبزه من الأهراء، و استمرّت هذه الوظيفه، إلى سنه ستّ و ثمانين إلى رجب.

فورد كتاب الملك النّاصر إلى ولده الملك الظّاهر، يأمره بأن يأمر و ينهى، و أن يقطع الإقطاعات، و أنّ البلد بلده. و كان القاضى الزبدانى يكتب له، فلم يعجبه، فانصرف على حال غير محموده.

و على ذكر «علم الدين سليمان بن جندر»، تذكرت حكايه مستملحه عنه، فأثبتها:

أخبرنى الزكى أحمد بن مسعود الموصلى المقرى ء، قال: كنت أؤم بعلم الدّين سليمان بن جندر، فاتّفق أن خرجت معه إلى حارم، فى سنه سبع و سبعين و خمسمائه، و جلست معه تحت شجره هناک، فقال: كنت و مجد الدّين أبو بكر بن الدّايه و الملك النّاصر صلاح الدّين، تحت هذه الشجره، و نور الدّين إذ ذاک يحاصر حارم، و هى فى أيدى الفرنج، فقال مجد الدّين: كنت أتمنّى أن نور الدّين يفتح حارم، و يعطينى إيّاها، فقال صلاح الدّين: أتمنّى على اللّه مصر، ثم قالا لى: تمنّ أنت شيئا، فقلت:

إذا كان مجد الدّين صاحب حارم و صلاح الدّين صاحب مصر، ما أضيع بينهما، فقالا: لا بدّ من أن تتمنّى شيئا، فقلت: إذا كان و لا بدّ من ذلک فأريد «عمّ».

فقدّر اللّه أنّ نور الدّين كسر الفرنج، و فتح حارم، و أعطاها مجد الدّين، و أعطانى «عمّ». فقال صلاح الدّين: أخذت أنا مصر و اللّه، فانّنا

كنّا ثلاثه، و تمنّى «مجد الـدّين» حارم، و أخـذها، و تمنّى علم الدّين «عمّ» و أخذها. و قد بقيت أمنيتى. فقدّر اللّه تعالى: أن فتح أسد الدّين مصر، ثمّ آل الأمر إلى أن ملكها صلاح الدين. و هذا من أغرب الاتفاقات.

و زوّج السّـلطان الملك النّاصـر ولده «الملك الظّاهر»، فى هذه السّنه، بابنه أخيه «غازيه خاتون» بنت «الملك العادل». و دخل بها يوم الأربعاء سادس و عشرين من شهر رمضان.

ثم إنّ السّلطان عزم على قصد «الكرك» مرّه أخرى فبرز من دمشق، فى النّصف من محرّم سنه ثلاث و ثمانين و خمسمائه، و سيّر إلى حلب يسـتدعى عسـكرها، فاعتـاق عليه، لاشـتغاله بالفرنـج بأرض «أنطاكيه»، و بلاد «ابن لاون»، و ذلك أنه كان قـد مات، و أوصى لابن أخيه بالملك.

و كان الملك المظفّر تقىّ الدّين بحماه، فسيّر إليه السّـلطان، و أمره بالدّخول إلى بلاد العدوّ، فوصل إلى حلب فى سابع عشـرى محرّم، و نزل فى دار «عفيف الدّين بن زريق»(١)، و أقام بها إلى ثالث صـفر، و انتقل إلى دارى الآن، و كانت إذ ذاك فى ملك الأـمير طمـان، ثم خرج إلى «حـارم»، و أقـام بهـا إلى أن صـالحهم، فى العشـر الأـواخر من شـهر ربيع الأـوّل، ثم سـار حـتى لحق السّلطان، و أما السّلطان فانه سار إلى رأس الماء(٢)، و اجتمعت اليه العساكر

١- تحولت إلى مدرسه عرفت بالمدرسه الصلاحيه فى محله سويقه على. الآثار الاسلاميه ص ٢٢٨.

٢- سلف أن ذكرت أن رأس الماء يعرف الآن باسم نبع السريا و منه تشرب بلده الشيخ مسكين فى حوران.

الاسـلاميه من الموصل، و الشّـرق، و مصـر، و الشّام، «بعشترا»، بعـد أن أتته الأخبار أن البرنس «أرناط» يريد الخروج على الحاجّ، فأقام قريبا من «الكرك» مشـغلا خاطره، ليلزم مكانه إلى أن وصل الحاج، و تقـدّم إلى الكرك، و بثّ سـراياه، فنهبوا بلـدها و بلد «الشوبك»، و خربوه.

و أرسل إلى ولـده الملك الأفضل، فأخذ قطعه من العسـكر، فدخل إلى بلد عكا، فأخربوا و نهبوا، و خرج إليهم جمع من الداويه و الاسبتاريّه، فظفروا بهم، و قتل منهم جماعه، و أسر الباقون، و قتل مقدّم الاسبتار.

و عاد السّـلطان إلى العسـكر، و عرض العسـكر قلبا و جناحين، و ميمنه و ميسـره، و جاليشـيّه و ساقه، و عرّف كلّا منهم موضعه، و سـار على تعبئه، فنزل «بالأقحوانه»(۱) بـالقرب من طبريه، و كـان القمص صاحبها(۲) قـد انتمى إلى السّـلطان، لخلف جرى بينه و بين الفرنج. فأرسل الفرنج إليه البطرك و القسوس و الرّهبان، و تهدّدوه بفسخ نكاح زوجته، و تحريمه، فاعتذر، و تنصّل، و رجع عن السّلطان إليهم، ثم ساروا كلّهم بجموعهم إلى «صفّوريه»(۳).

فرحـل السّـلطان، يوم الخميس لسـبع بقين من ربيع الآـخر، و خلّف طـبريه ورآء ظهره، و صـعد جبلهـا، و تقـدّم إلى الفرنـج، فلم يخرجوا من

۱- بوادى الأردن قرب عقبه أفيق. معجم البلدان.

۲- كانت طبريه لزوجه القمص- الكونت- ريموند الثالث صاحب طرابلس.

۳- على بعد ۷ كم غرب مدينه الناصره. معجم بلدان فلسطين.

خيمهم، فنزل، و أمر العسكر بالنّزول، فلما جنّه اللّيل، جعل فى مقابله الفرنج من يمنعهم من القتال، و نزل إلى طبريّه جريده، و قاتلها، و أخذها فى ساعه من نهار، و نهبوا المدينه و أحرقوها.

فلما سمع الفرنج بذلك، تقدّموا إلى عساكر المسلمين، فعاد السّلطان إلى عسكره، و التقى الفريقان، و جرى بينهما قتال، و فرّق بينهما اللّيل، و طمع المسلمون فيهم، و باتوا يحرّض بعضهم بعضا.

فلما كان صباح السّبت لخمس بقين من الشهر، طلب كل من الفريقين موضعه، و علم المسلمون أنّ «الأردنّ» من ورآئهم، و بلاد القوم بين أيديهم، فحملت العساكر الاسلاميّه من الجوانب؛ و حمل القلب، و صاحوا صيحه واحده، فهرب القمص فى أوائل الأمر نحو «صور»، و تبعه جماعه من المسلمين، فنجا وحده، فلم يزل سقيما حتى مات فى رجب.

[معركه حطين]

و أحاط بالباقين من كلّ جانب، فانهزمت منهم طائفه، فتبعها المسلمون فلم ينج منهم أحد. و اعتصمت الطائفه الأخرى بتلّ حطّين- و حطّين: قريه عندها قبر شعيب عليه السّلام- فضائقهم المسلمون على التلّ، و أوقدوا النيران حولهم، فقتلهم العطش، و ضاق الأمر بهم حتّى استسلموا للأسر، فأسر مقدّموهم و هم: الملك كى(۱)، و البرنس أرناط صاحب الكرك و أخو الملك، و ابن الهنفرى، و أولاد الست(۲)، و صاحب

۱- صحف بالأصل إلى« جفرى».

۲- صاحبه طبريا.

جبیل، و مقـدّم الـداویّه، و مقـدّم الاسـبتار، و أمم لا یقع علیها الإحصاء، حتی کان الرّجل المسـلم یقتاد منهم عشـرین فرنجیا، فی حلقهم حبل.

و أسـروا من المصـافّ، و من بلاد الفرنـج أکثر من ثلاثین ألفا من الفرنـج، ما بین رجل، و امرأه، و صبیّ، و قتل من المقـدّمین و غیرهم خلق لا یحصی؛ و لم یجر علی الفرنج منذ خرجوا إلی السّاحل مثل هذه الوقعه.

و کان من جمله الغنیمه فی یوم المصاف صـلیب الصّلبوت، و هو قطعه خشب مغلّفه بالذّهب، مرصّعه بالجوهر، یزعمون أنّ ربّهم صلب علیها، و ضربت فی یدیه المسامیر، أحضروه معهم المصاف تبرّکا به، و رفعوه علی رمح عال.

فأمّـا مقـدّم الـداویّه و الاسـبتار، فاختـار السّـلطان قتلهم فقتلـوا، و أمـا الملـک «کی»، فـإنّه أکرمه، و جلس له فی دهلیز الخمیه، و استحضـره، و أحضـر معه «البرنس أرنـاط»، و نـاول الملـک «کی» شـربه من جلّاب بثلـج، فشـرب منها و کان علی أشـدّ حال من العطش، ثم نـاول الملک بعضـها «ابرنس أرناط»، فقال السّـلطان للتّرجمان: «قل للملک: أنت الّذی سـقیته، و إلّا ما سـقیته أنا». و أراد بذلک عاده العرب أنّ الأسیر إذا أکل أو شرب ممّن أسره أمن.

و کان السّلطان قد نذر مرّتین إن أظفره اللّه به أن یقتله: إحداهما لما أراد المسیر إلی مکّه و المدینه، و بعثره قبر النبی- صلّی اللّه علیه و سلّم-

و المرّه الأخری أنّ السّلطان کان قد هادنه، و تحالفا علی أمن القوافل

المتردّده من الشّام إلى مصر، فاجتاز به قافله عظیمه، غزیره الأموال، کثیره الرّجال، و معها جماعه من الأجناد، فغدر بهم الملعون، و اخذهم و أموالهم و قال لهم: «قولوا لمحمد یجی ء ینصرکم»، فبلغ ذلک السّلطان و سیّر إلیه، و هدّده، و لامه، و طلب منه ردّها فلم یجب، فنذر أن یقتله متی ظفر به.

فالتفت السّلطان إلی «ارناط»، و واقفه علی ما قال، و قال له: «ها أنا أنتصر لمحمد». ثم عرض علیه السلام، فلم یفعل. فسلّ السیف، و ضربه به، فحلّ کتفه، و تمّم علیه من حضر، و أخذ و رمی علی باب الخیمه.

فلما رآه الملک علی تلک الصّوره لم یشکّ فی أنّه یثنّی به، فاستحضره، و طیّب قلبه، و قال: «لم تجر عاده الملوک أنّهم یقتلون الملوک، و لکنّ هذا طغی، و تجاوز حدّه فجری ما جری».

ثم إنّ السّلطان أصبح یوم الأحد، الخامس و العشرین، فنزل علی «طبریه»، و تسلّم قلعتها بالأمان من صاحبتها ثم رحل منها یوم الثلاثاء إلی «عکّا»، فنزل علیها یوم الأربعاء سلخ الشّهر، و قاتلها یوم الخمیس مستهلّ جمادی الأولی، فأخذها، و استنقذ منها أربعه آلاف أسیر من المسلمین، و أخذ جمیع ما فیها، و تفرّق العسکر.

و فتح بعدها: قیساریه، و نابلس، و حیفا، و صفّوریه، و الناصره، و الشقیف، و الفوله، فأخذوها، و استولوا علی سکّانها، و أموالها.

و رحل السّلطان من عکّا إلی «تبنین»، و قاتلها، و فتحها یوم الأحد

ثامن عشر جمادی الأولی، ثم رحل منها إلی «صیدا» فتسلّمها یوم الأربعاء العشرین منه، ثم سار إلی «بیروت»، ففتحها فی التاسع و العشرین منه، ثم سلّمت «جبیل» إلی أصحابه و هو علی بیروت.

ثم سار إلی «عسقلان»، و نازلها یوم الأحد السادس عشر من جمادی الآخره، و تسلّمها یوم السبت سلخ جمادی الآخره، بعد أن تسلّم فی طریقه مواضع «کالرّمله» «و یبنا»(۱) و «الدّاروم». و أقام علی عسقلان، و تسلّم أصحابه غزه، و بیت جبرین، و النّطرون، و بیت لحم، و مسجد الخلیل علیه السّلام.

و سار إلی «بیت المقدس»، فنزل علیه الأحد الخامس عشر من شهر رجب من سنه ثلاث و ثمانین، فنزل بالجانب الغربی، و کان مشحونا بالمقاتله من الخیّاله و الرجّاله، و کان علیه من المقاتله ما یزید علی ستّین ألفا غیر النسآء و الصّبیان، ثم انتقل إلی الجانب الشمالی، یوم الجمعه العشرین من شهر رجب و نصب علیه المنجنیقات، و ضایقه بالزّحف، و القتال، و کثره الرّماه، حتی أخذ النّقب فی السّور، مما یلی «وادی جهنّم»، فی قرنه شمالیه.

و لمّا رأوا ذلک و علموا أن لا ناصر لهم، و أنّ جمیع البلاد التی افتتحها السّلطان صار من بقی من أهلها إلی «القدس»، خرج عند ذلک إلیه ابن

۱- کانت یبنا من اقطاعیات الفرنجه الهامه، و هی تبعد ۷ کم عن البحر و کانت قبل عام ۱۹۴۸ محطه قطار بین فلسطین و مصر، معجم بلدان فلسطین.

بارزان(۱)، ملقیا بیده، و متوسطا لأمر قومه، حتّی استقرّ مع السّلطان خروج الفرنج عنها بأموالهم و عیالهم، و أن یؤدّوا الأمانه، یؤدّوا عن کلّ رجل منهم عشره دنانیر، و عن کلّ امرأه خمسه دنانیر، و عن کلّ طفل لم یبلغ الحلم دینارین. و من عجز عن ذلک استرق، فبلغ الحاصل من ذلک عن من خرج منهم مائتین و ستّین ألف دینار صوریّه، و استرقّ بعد ذلک منهم نحو ستّه عشر ألفا.

و کان السّلطان قد رتّب فی کلّ باب أمیرا أمینا لأخذ ما استقرّ علیهم، فخانوا، و لم یؤدّوا الأمانه، فانه کان فیه، علی التّحقیق، العدّه التی ذکرناها، و أطلق «ابن بارزان» ثمانیه عشر ألف رجل من الفقراء، وزن عنهم ثلاثین ألف دینار.

[تحریر القدس]

و تسلّم القدس فی یوم الجمعه السابع و العشرین، من شهر رجب، و أقیمت صلاه الجمعه فیه، فی الجمعه التی تلی هذه، و هی رابع شعبان.

و خطب بالناس محیی الدّین بن زکیّ الدین- و هو یومئذ قاضی حلب- و أزیلت الصلّبان من قبّه الصخره، و محراب داود، و أزیل ما کان بالمسجد الأقصی من حوانیت الخمّارین، و هدمت کنائسهم و المعابد، و بنیت المحاریب و المساجد.

و أقام السّلطان علی «القدس»، ثم رحل عنه، فی الخامس و العشرین

۱- أنظر کتابی حطین- ط. دمشق ۱۹۸۴ ص ۱۶۷.

من شعبان، فنزل على صور بعد أن قدم عليه ولده «الملک الظّاهر»، من حلب فی ثامن عشر شهر رمضان، قبل وصوله إلیها.

و کان نزوله على «صور» فی ثانی عشرین من شهر رمضان، و ضایقها، و قاتلها، و استدعى أسطول مصر، فکانت منه غرّه فی بعض اللّیالی، و ظنّوا أنه لیس فی البحر من یخافونه، فما راعهم إلّا و مراکب الفرنج من «صور» قد کبستهم، و اخذوا منهم جماعه، و قتلوا جماعه، فانکسر نشاط السّلطان، و رحل عنها فی ثانی ذی القعده، و أعطى العساکر دستورا، و ساروا إلى بلادهم(۱).

و أقام هو بعکا، إلى أن دخلت سنه أربع و ثمانین و خمسمائه، و کان من «بهونین»(۲) قد أرسلوا إلى السّلطان، و هو «بصور»، فأمّنهم، و سیّر من تسلّمها، و سار السّلطان، فنزل على حصن «کوکب»(۳) فی أوائل المحرم من هذه السنه، و کان قد جعل حولها جماعه یحفظونها من دخول قوه، فأخذ الفرنج غرّتهم لیلا، و کبسوهم بعفربلا(۴) و قتلوا مقدّمهم «سیف الدّین» أخا «الجاولی»، فسار السلطان، و نزل علیها بمن کان قد بقی من خواصّه بعکا، و کان ولده «الملک الظّاهر» قد عاد عنه إلى حلب، و عاد أخوه «الملک

۱- انظر کتابی حطین ص ۱۷۰- ۱۷۱.

۲- هونین الآن فی جنوب لبنان.

۳- کوکب قلعه على الجبل المطل على مدینه طبریه حصینه رصینه. معجم البلدان.

۴- سلف أن نقلنا عن یاقوت أن عفربلا: بلد بغور الأردن قرب بیسان و طبریه.

العادل» إلی مصر، فحصره، ثم رأی أنه حصن منیع، فرحل عنه و جعل علیه قایماز النجمی محاصرا.

[تحریر الساحل الشامی]

و سار إلی دمشق، ثم سار من دمشق فی النّصف من ربیع الأول إلی حمص، فنزل علی بحیره «قدس»(۱)، و وصل إلیه «عماد الدّین زنکی» صاحب سنجار، و تلاحقت به العساکر، و اجتمعت عنده، فنزل علی تلّ قباله «حصن الأکراد»، فی مستهل ربیع الآخر، و سیّر إلی الملک الظاهر إلی حلب و إلی «الملک المظفر»، بأن یجتمعا و ینزلا «بتیزین» قباله «انطاکیه» لحفظ ذلک الجانب، فسارا حتی نزلا «تیزین» فی شهر ربیع الآخر و تواصلت إلیه العساکر فی هذه المنزله.

ثم رحل یوم الجمعه رابع جمادی الأولی، علی تعبئه لقاء العدو، و دخل إلی بلاد العدو، و أغار علی «صافیتا» و «العریمه» و غیر ذلک من ولایاتهم، و وصل إلی «انطرطوس»(۲) فی سادس جمادی الأولی فوقف قبالتها، و نظر إلیها، و سیّر من ردّ المیمنه، و أمرها بالنزول علی جانب البحر، و أمر المیسره بالنزول علی البحر، من الجانب الآخر، و نزل فی موضعه، و أحدقت العساکر بها من البحر إلی البحر، و زحف علیها، فما استتمّ نصب الخیم حتی صعد الناس السور، و أخذها بالسیف، و غنم العسکر جمیع ما بها، و خرب سور البلد.

۱- هی بحیره قطینه الحالیه.

۲- هی مدینه طرطوس الحالیه.

و سـار إلى حلب، فوصل إليه ولـده «الملك الظّاهر» فى أثناء الطريق، بالعساكر التى كانت «بتيزين». و وصل إلى «جبله» فى ثامن عشـر يوم الجمعه، فما اسـتّم نزول العسـكر حتى تسـلّم البلد، سلّمها إليه قاضيها و أهلها، و كانوا مسلمين تحت يد الفرنج، فعملوا عليها و سلّموها و بقيت القلعه ممتنعه، و قاتل القلعه، فسلّمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر.

و سـار عنها إلى «الّلاذقيه»، فنزل عليها يوم الخميس رابع عشـرى جمادى الأولى، و لها قلعتان، فقاتلها، و أخـذ البلـد، و غنموا منه غنيمه، و فرّق اللّيل بين الناس، و أصـبح المسـلمون يوم السبت، و اجتهدوا فى قتال القلعتين، و نقبوا فى السور مقدار ستّين ذراعا، فأيقن الفرنج بالعطب، فطلبوا الأمان، يوم الجمعه الخامس و العشرين من جمادى الأولى، و سلموها يوم السبت.

و رحل عن الّلاذقيّه، يوم الأحد، فنزل على صـهيون(١)، و نزل عليها يوم الثلاثاء تاسع عشـرى جمادى الأولى، و اسـتدار العسكر حولها، و اشـتدّ القتال عليها من جميع الجوانب، فضربها منجنيق ولده «الملك الظاهر»، حتى هدم قطعه من سورها تمكّن الصاعد الصعود منها، و زحف عليها السّلطان بكره الجمعه، ثانى جمادى الآخره، فما كان إلّا ساعه حتى ارتقى

١- غير اسمها، برغم صحته بالعربيه إلى قلعه صلاح الدين، فصهيون اسم مشتق من الصهوه، و صهوه الجبل أعلاه.

المسلمون على أسوار الربض، فهجموه، فانضم أهله إلى القلعه، فقاتلهم المسلمون فصاحوا: الأمان، و سلّموها على صلح القدس.

و أقام السلطان بها حتى تسلم عدّه قلاع، «كالعيد» و «قلعه الجماهريين» و «حصن بلاطنس». ثم رحل و نزل على بكاس(۱)؛ و هى قلعه حصينه، من أعمال حلب على جانب العاصى، و لها نهر يخرج من تحتها- يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخره على شاطى ء «العاصى»، و صعد السلطان جريده إلى القلعه، و هى على جبل مطل على العاصى، فأحدق بها من كل جانب، و قاتلها قتالا شديدا بالمنجنيقات و الزحف، و فتحها يوم الجمعه تاسع جمادى الآخره عنوه، و أسر من كان بقى فيها، و غنم جميع ما كان فيها. و كان لها قلعه تسمى «الشّغر» قريبا منها يعبر من إحداهما إلى الأخرى بجسر، فضربها بالمنجنيقات إلى أن طلبوا الأمان، ثم سلمها أهلها بعد ثلاثه أيام، يوم الجمعه سادس عشر الشهر، ثم عاد السلطان إلى الثقل، و سيّر ولده الملك الظّاهر إلى قلعه تسمى «سرمانيه» يوم السبت، فقاتلها قتالا شديدا، و تسلّمها يوم الجمعه ثالث عشرى الشّهر المذكور.

و اتفق له هذه الفتوحات المتتابعه كلها فى أيام الجمع، و كذلك القدس يوم الجمعه.

ثم سار السلطان جريده إلى «حصن برزيه» و هو الذى يضرب به المثل فى الحصانه، و يحيط به أوديه من سائر جوانبه، و علوها خمسمائه ذراع و نيف

۱- انظر النوادر السلطانيه لابن شداد- ط. القاهره ۱۹۰۳ ص ۶۰- ۶۱.

و سبعون ذراعا، فتأمله و قوّى عزمه على حصاره، و استدعى الثقل و بقيه العسكر، يوم السبت رابع عشرى جمادى الآخره. فنزل الثقل تحت الجبل.

و فى بكره الأحد صعد السّلطان جريده، مع المقاتله، و المنجنيقات، و آلات الحصار إلى الجبل، فأحدق بالقلعه، و ركب المنجنيقات عليها فقاتلها ليلا و نهارا، ثم قسم العسكر على ثلاثه أقسام؛ يوم الثلاثاء، و رتب كل قسم يقاتل شطرا من النهار، بحيث لا يفتر القتال عليها.

و حضرت نوبه السّلطان، فتسلّمها بنفسه، و ركب، و صاح فى النّاس، فحملوا حمله الرجل الواحد، و طلعوا إلى الأسوار، و هجموها عنوه، و نهبوا جميع ما فيها، و أسروا من كان فيها، و عاد السلطان إلى الثقل، و أحضر صاحبها و معه من أهله سبعه عشر نفرا، فرّق له السّلطان، و أطلقه مع جماعته، و أنفذهم إلى صاحب «انطاكيه»، استماله له، فإنهم كانوا من أهله(۱).

ثم سار السّلطان حتى نزل على «درب ساك»، يوم الجمعه ثامن شهر رجب من السنه، فقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيقات، و أخذ النقب تحت برج منها، فوقع، و حماه الفرنج بالرّجال، و وقفوا فيه يحمونه عن كلّ من يروم الصعود فيه، و جعلوا كلّما قتل منهم واحدا أقاموا غيره مقامه، عوضا عن السّور.

۱- من الواضح أن مصدر ابن العديم هو ابن شداد، لأنه كان من شيوخه- انظر النوادر السلطانيه ص ۶۱- ۶۲.

ثم طلبوا الأمان على أن ينزلوا بأنفسهم و ثيابهم لا غير، بعد مراجعتهم أنطاكيه، و تسلّمها السّلطان، يوم الجمعه الثانى و العشرين من شهر رجب، و أعطاها علم الدين سليمان بن جندر.

و سار عنها بكره السبت، ثالث عشرى الشّهر، و نزل فى مرج «بغراس»، و أحدق بعض العسكر «ببغراس»، و أقام(۱) يزكا على باب أنطاكيه بحيث لا يشذ عنه من يخرج منها، و قاتل البلد مقاتله شديده حتى طلبوا الأمان، و شرطوا استئذان أنطاكيه، و تسلّمها فى ثانى شعبان من السنه(۲).

و فى ذلک اليوم عاد إلى الخيم، و راسله أهل «أنطاكيه» فى طلب الصلح فصالحهم، لشدّه ضجر العسکر، و قلق عماد الدّين- صاحب سنجار- لطلب العود إلى بلاده، و استقرّ الصّلح بينه و بين صاحب أنطاكيه على أنطاكيه لا غير، دون غيرها من بلاد الفرنج، على أن يطلقوا جميع أسرى المسلمين الذين عندهم، و أن يكون ذلک إلى سبعه أشهر، فإن جاءهم من ينصرهم و إلّا سلّموا البلد إلى السّلطان.

و طلبه ولده «الملک الظاهر» أن يتوجه معه إلى حلب، فسار معه إليها، و دخلها فى حادى عشر شعبان، و أقام بقلعتها ثلاثه أيام فى ضيافه «الملک الظّاهر»، و أنعم «الملک الظاهر» على جماعه کثيره من عسکره،

۱- اليزک: الطلائع.

۲- انظر النوادر السلطانيه ص ۶۲- ۶۳.

فأشفق السّلطان عليه، و سار من حلب فى رابع عشر شعبان، فوصل دمشق قبل دخول شهر رمضان.

فسار فى أوائل شهر رمضان حتى نزل «صفد»، و نصب عليها المناجيق، و داومها بالقتال حتى تسلّمها بالأمان فى رابع عشر شوال، و كان أصحابه الذين جعلهم على حصار «الكرك» لازموا الحصار هذه المدّه العظيمه، و صابرهم من بها من الفرنج، حتى فنيت أزوادهم و ذخائرهم، و أكلوا دوابّهم، فراسلوا أخا السّلطان «الملك العادل»- و كان قريبا منهم، منازلا بعض القلاع- فطلبوا منه الأمان فأمّنهم و تسلّمها، و تسلّم أيضا «الشوبك»، و غيرها من القلاع التى تجاورها.

ثم سار السّلطان من «صفد» إلى «كوكب»(۱)، فنزل على سطح الجبل، و أحدق العسكر بالقلعه، و ضايقها بالقتال، حتى تمكّن النّقب من سورها، فطلب أهلها الأمان فتسلّمها فى النّصف من ذى القعده(۲).

و سار بعد ذلك بمدّه إلى «بيت المقدس» فدخله يوم الجمعه ثامن ذى الحجه، و سار إلى «عسقلان» مودعا أخاه «الملك العادل» و كان متوجها إلى مصر، فأخذ من أخيه عسقلان، و أعطاه «الكرك».

و توجّه لتفقد البلاد السّاحليه- و دخلت سنه خمس و ثمانين و خمسمائه- و هو بعكا. و توجّه إلى دمشق فدخلها مستهل صفر.

۱- تعرف أيضا باسم كوكب الهوا و هى قريه إلى الشمال من بيسان. معجم بلدان فلسطين.

۲- انظر المحاسن اليوسفيه ص ۶۳- ۶۵.

ثم توجه فی الثالث من شهر ربیع الأول، إلی «مرج فلوس»(۱) محاصرا «لشقیف أرنون»(۲) و رحل من «مرج فلوس» فأتی «مرج عیون»- و هو قریب من شقیف أرنون- فی سابع عشر ربیع الأول.

و ضاق علی الفرنج المجال، و قلّت أزوادهم. فنزل «أرناط» صاحب الشقیف إلیه- و کان عظیما فیهم ذا رأی و دهاء- فأظهر الطاعه و الموده للسّلطان، و وعده بتسلیم المکان و قال:

«أرید أن تمهلنی حتی أخلّص أولادی و أهلی من الفرنج، و أسلم الیک الحصن، و تعطینی موضعا أسکن فیه بدمشق، و أقطاعا یقوم بی و بأهلی، و تمکننی الآن من الاقامه بالشقیف، حتی أخلّص أولادی»، فأجابه السلطان إلی ذلک، و جعل یتردّد إلی خدمته.

و کانت الهدنه بین أنطاکیه و بینه قد قرب وقتها، و خاطره مشغول بذلک، و قد سیّر إلی تقی الدین أن یجمع من یقارب تلک الناحیه من العساکر، و یکون بازاء «أنطاکیه».

و بلغه أیضا أن الفرنج قد تجمعوا «بصور» فی جموع عظیمه، و کان الأمر قد استقرّ مع «ارناط» أن یسلّم الیه «الشقیف»، فی جمادی الآخره، و هو مقیم «بمرج عیون» ینتظر المیعاد، و «ارناط» فی هذه المدّه یشتری الأقوات من سوق المسلمین، و یقوی الشقیف، و السّلطان یحسن الظن به،

۱- فی المحاسن الیوسفیه ص ۶۵: مرج برغوث.

۲- ما تزال بقایاها فی جنوب لبنان.

و لا يسمع فيه قول من يعلمه بغدره و مكره.

فلما بقى من المدّه ثلاثه أيام و حضر عنده «أرناط» قال له فى معنى تسليم «الشّقيف»، فاعتذر بأولاده و أهله، و أنّ «المركيس» لم يمكنهم من المجى ء إليه، و طلب التأخير مدّه أخرى، فعلم السّلطان مكره، فأخذه و حبسه، فأجاب إلى التسليم، فسيّر مع جماعه من العسكر إلى تحت «الشقيف»، فأمرهم بالتّسليم، فامتنعوا، و طلب قسّيسا حدّثه بلسانه و عاد بما قال إليهم، فاشتدّوا فى المنع.

فعلم حينئذ أنّ ذلك كان تأكيدا مع القسّيس، فأعادوه إلى السّلطان؛ و سيّره إلى «بانياس»، و تقدّم إلى «الشّقيف» فحصره، و ضيّق عليه، و جعل عليه من يحفظه، إلى أن سلّمها من بها، بعد أن عذّب صاحبها، فى يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الأول من سنه ست و ثمانين(۱).

و أما بقيه الفرنج، فانّ ملكهم كان وعده السّلطان أنّه متى سلّم «عسقلان» أطلقه، فاتفق أنه أطلقه «بانطرطوس»، حين فتح تلك الناحيه، و اشترط عليه أن لا يشهر فى وجهه سيفا أبدا، فنكث، و اتفق مع «المركيس» صاحب «صور» و عسكرا مع جموع الفرنج على باب «صور».

و اتّفق بينهم و بين المسلمين حروب و غارات، كانت النكايه فيها سجالا بين الفريقين، بحيث تحاجز الفريقان فى آخر تلك الأيام، من جمادى الآخره من هذه السّنه.

۱- انظر المحاسن اليوسفيه ص ۶۵- ۶۶.

[معارک عکا]

و سار الفرنج إلى حصار «عكا»، فنزلوا عليها فى يوم الأربعاء ثامن شهر رجب. و سار السّلطان فنزل عليهم بظاهر «عكا»، و منعهم من الإحاطه بسورها، فكان نازلا على قطعه منها تلى الشّمال، و معه الباب الشمالى من «عكا» مفتوحا، و المسلمون يدخلون اليها و يخرجون، و الفرنج على الجانب الجنوبى، و قد أغلق فى وجوهم الباب المعروف بباب «عين البقر»، و كان الفرنج يقومون بمحاربه المسلمين، من جانب المدينه و من جانب العسكر.

و جرت بينهم و بين الفرنج وقعات متعدّده، من أعظمها وقعه اتفقت يوم الجمعه الثالث و العشرين من شعبان، خرج الفرنج و اصطفوا على تعبئه القتال، و الملك فى القلب و بين يديه الانجيل، فوقف المسلمون أيضا على تعبئه، و تحرّكت ميسره الفرنج على ميمنه المسلمين، و فيها الملك المظفّر، فتراجع عنهم، و أمدّه السلطان بأطلاب عدّه من القلب، فخفّ القلب، و عادت ميسره الفرنج فطمعت فيه، فحملوا على القلب، فانكسر، و انكسر معه معظم الميمنه، و بلغت هزيمتهم إلى «الأقحوانه»، و منهم من دخل دمشق.

و وصل الفرنج إلى خيم السّلطان، فقتلوا ذلك اليوم «أبا علىّ الحسين بن عبد اللّه بن رواحه». و كان قد مدح النبىّ صلى اللّه عليه و سلم و وقف بازآء قبره، و أنشد قصيدته، و قال: «يا رسول اللّه إنّ لكل شاعر جائزه و قرى، و إنى أطلب جائزتى الشّهاده، فاستجاب اللّه دعاءه».

و قتل ذلك اليوم مكبّس السلطان و طشت داره(۱)، و ثبتت ميسره المسلمين، و صاح «السّلطان» فيمن بقى من المسلمين: «يال الاسلام»، و عادت ميسره الفرنج إلى عسكره، فتكاثر الناس وراءهم، و حملوا عليهم، فانهزموا، و تبعهم المسلمون، فقتلوا منهم زهاء سبعه آلاف، و لم يقتل من المسلمين غير مائه و خمسين نفرا.

ثم إنّ الحرب اتّصلت بينهم ليلا و نهارا، و كثر القتل بينهم، و أقبل الشّتاء، فلقى المسلمون منه شدّه. و حضروا إلى السّلطان؛ و أشاروا عليه بالرّحيل عن «عكا» إلى «الخروبه»(۲) ليفسح ما بين العسكرين. و كان ذلك للضّجر من تلك المواقفه، و ملازمه القتال، حتى أوهم السّلطان [و قالوا له:](۳) «إنك قد ضيّقت على الفرنج مجال الهرب، و حلت بينهم و بين صور، و طرابلس، و لو أفرجت لهم عن الطّريق لما وقفوا بين يديك».

فرحل السّلطان إلى «الخروبه».

فأصبح الفرنج و قد انبسطوا على عكا، و أحاطوا بها من سائر جهاتها، و اتّصل ما بينهم و بين «صور»، و جاءت مراكبهم منها، فحصرت «عكّا» من جانب البحر، و ضعفت قلوب المسلمين بعكا، و عادوا يقتاتون من الحواصل المدخوره، بعد أن كان من المير المجلوبه.

و توفّر الفرنج على قتال أهل «عكا» بعد أن كانوا مشغولين بالعسكر،

۱- الطشت دار المسؤول عن غسيل أوانى السلطان و ثيابه و أحيانا حمامه و وضوئه.

۲- الخروبه حصن كان على مقربه من عكا. معجم بلدان فلسطين.

۳- زياده اقتضاها السياق.

و شرع الفرنج فی إداره خندق علی عساكرهم، كاستدارتهم بعكا، و جعلوه شكلا هلاليا: طرفاه متّصلان بالبحر، و أقاموا علیه سورا مما یلیهم، و شرّفوه بالجنویات و الطوارق(۱)، و التراس.

و اتصلت الأمداد إلیهم من البحر، بالأقوات و الرجال و الأسلحه، حتی كان ینقل إلیهم البقول الرّطبه، و الخضراوات من جزیره «قبرس» فتصبح عندهم فی الیوم الثانی.

و سیّر السّلطان إلی الخلیفه، و إلی ملوك الاسلام، یستنفر و یستصرخ، و اتّصلت الأخبار بوصول ملك الألمان إلی «القسطنطینیه»، فی ستمائه ألف رجل، منهم ثلاثمائه ألف مقاتل، و ثلاثمائه ألف سوقه، و أتباع و صنّاع.

و حكی أنّه كان فی عسكره خمسه و عشرون ألف عجله تنقل الأسلحه و العلوفات، فأسقط فی أیدی المسلمین، و استولی الیأس علیهم، و تعلّقت آمالهم أنه ربّما مانعه من فی طریقه من «الأوج»(۲) و من قلج أرسلان(۳)، فلم یتّفق شی ء من ذلك، بل سار، و قطع البلاد، حتی وصل إلی المصیصه.

و أرسل اللّه علیهم و بآء عظیما و حرّا عظیما، و مجاعه أحوجتهم إلی نحر

۱- من أنواع ستائر الحمایه و الدفاع و الترسه.

۲- الأوج سكان المناطق الثغریه المتقدمه.

۳- تبعا لابن شداد. المحاسن الیوسفیه ص ۸۷ كان قلج أرسلان علی وفاق ضمنی مع ملك الألمان.

دوابّهم، و ذبح البقر الذى يجرّ العجل، فكان يموت فى كل يوم ألوف من الرّجال، و يسابقون الموتان إلى ما معهم من الدوابّ الحامله للأثقال، حتى وصلوا إلى «أنطاكيه» و لم يبق منهم إلّا دون العشر.

و كان فى جمله من مات منهم ملكهم الذى غزا الشام، فى سنه أربع و أربعين، و حاصر دمشق، مات غريقا فى نهر «بطرسوس» يقال له «الفاتر»، نزل، و سبح فيه فغرق، و قيل بأنه سبح فيه و كان المآء باردا، فمرض و مات، و أخذ و سلق فى خلّ، و جمعت عظامه، ليدفن فى البيت المقدّس.

و أوصى بالملك لابنه مكانه، و اتفقت الكلمه عليه، فمرض «بالتينات»(۱)، و أقام بها، و سير «كندأكرا» على عسكره، و وصل إلى «أنطاكيه»، فمات ذلك «الكند» بها. و خرج البرنس إلى الملك، و استدعاه إلى أنطاكيه طمعا فى أنه يموت و يأخذ ماله؛ و كان قد فرّق عسكره ثلاث فرق لكثرته، فالفرقه الأولى: اجتازت تحت «بغراس» مع الكند المذكور، فوقع عليه عسكر حلب فأخذ منهم مائتى رجل، و وقع أيضا على جمع عظيم خرجوا للعلوفه، فقتلوا منهم جماعه كثيره، و أسروا زهاء خمسمائه نفر.

و لما وصل ملك الألمان إلى أنطاكيه أخذها من صاحبها، و أودع فيها خزائنه، و سار منها يوم الأربعاء خامس و عشرين من شهر رجب، سنه ستّ و ثمانين و خمسمائه، متوجها إلى عكا، و فشا فيهم الوبآء حتّى لم يسلم من كلّ

۱- التينات: حصن على شاطى ء البحر بين بياس و المصيصه. بغيه الطلب ص ۲۲۳.

عشره واحد، و لم يخرجوا من «أنطاكيه» حتى ملؤوها قبورا.

و وصل الملك إلى «طرابلس»، فى نحو ألفى فارس، لو صادفهم مائه من المسلمين لأخذوهم، و وصلوا إلى «عكّا» رجاله ضعفاء، لا ينفعون، و مات ابن ملك الألمان على «عكّا» فى ذى الحجه، من سنه ستّ(۱).

و وصل إلى المسلمين «بعكا» الأسطول المصرى فى خمسين شيتيا غنم فى طريقه إليها بطس و مراكب فرنجيه، أسر رجالها و غنم أموالها، و جرى له مصادمات مع مراكب الفرنج المحاصره لعكا، كانت الغلبه فيها للمسلمين، فدخلوا إلى عكّا، و تماسكت بما دخل فيها من الأقوات و السّلاح، و كان دخولها فى يوم الأثنين رابع عشر شعبان، من سنه ستّ و ثمانين.

و فى هذا الشهر، جهّز الفرنج بطسا متعدّده، لمحاصره «برج الذّبّان»- و هو على باب ميناء عكا- فجعلوا على صوارى البطس برجا، و ملؤوه حطبا و نفطا، على أنهم يسيرون بالبطس، فاذا قاربت «برج الذّبان» و لا صقته، أحرقوا البرج الّذى على الصّارى، و ألصقوه ببرج الذّبان، ليلقوه على سطحه، و يقتل من عليه من المقاتله و يأخذونه.

و جلعوا فى البطسه وقودا كثيرا، ليلقوه فى البرج إذا اشتعلت النار فيه. و عبؤوا بطسا ملؤوها حطبا، على أنهم يدفعونها لتدخل بين بطس المسلمين، ثم يلهبونها لتحرق بطس المسلمين.

۱- انظر المحاسن اليوسفيه ص ۸۷- ۹۴.

و جعلوا فی بطسه ثالثه مقاتله، تحت قبو، بحیث لا یصل إلیهم نشّاب، و یکونون تحت القبو، و یقدّمون البطسه إلی البرج، فأوقدوا النّار، و ضربوا النفط، فانعکس الهواء علیهم، فاحترقت البطسه، و هلک من فیها، و احترقت البطسه الثانیه، و أخذها المسلمون، و انقلبت الثّالثه الّتی فیها القبو بمن فیها(۱).

و فی هذه السنه، فی ربیع الأول، أحرق المسلمون ما کان صنعه الفرنج من آلات الحرب و الزحف إلیهم، و هی أبرجه عظیمه المقدار، یزحف بها علی عجل، و فیها المقاتله و الجروخ، و المجانیق، فعمد لها رجل دمشقی یعرف «بعلیّ بن النحاس»، فرماها من السّور، بقدور نفط متتابعه، و صار فیها ریح غریبه، کانت سببا لا حراق تلک الآلات و ما فیها و من فیها.

و اشتد حصار الفرنج علی عکّا، و ملّ من بها من الأجناد المقام، و وصل الیهم من مصر مراکب فیها غلّه، فاتلفوها بالاضاعه و بالتغریق، تبرما بالمقام.

و فی ربیع الأول، وصلت من بلاد الفرنج مراکب کثیره، فیها ألوف من مقاتله الفرنج من أکبرهم ملکان: یعرف أحدهما بملک «الفرنسیس» و الآخر بملک «انکتیر»، فاشتدّت و طأتهما علی عکا، و عظمت نکایتهما، فی سورها، و قلّ ما بها من المیره و السّلاح.

۱- انظر المحاسن الیوسفیه ص ۱۰۰- ۱۰۱.

فأمر السّلطان بأن أوسق مركب عظيم من «بيروت»، و استكثر فيه من السّلاح و الأقوات و المقاتله، و أظهر عليه زىّ الفرنج و شعارهم، و أخذ قوم من أسارى الفرنج الّذين فى قبضه المسلمين، فتركوا على ظاهر المركب، و أنزل معهم فى المركب جماعه من المسلمين ممّن يعرف لغه الفرنج، و تزيّوا بزىّ الفرنج، و حلقوا شعورهم، و أخذوا معهم خنازير، و رفعوا على قلع المركب صليبا. و أوهموا الفرنج أنهم واصلون إليهم نجده من بلادهم، و أقلعوا داخلين إلى مرسى «عكا»، مسلّمين على الفرنج بلغتهم، مبشّرين لهم بأنّ وراءهم من المدد، من تشتد به منتهم، و تعزّ به نصرتهم، فلم يرتب المحاصرون بذلك، و أفرجوا لهم عن المرسى(۱).

فدخلوا إلى «عكا»، و أوصلوا إلى المسلمين بها، ما كان معهم من الميره و السلاح و الرجال، و تمّت هذه الحيله، و كانت من الفرص التى لا ينبغى أن تعاود فركن المسلمون إليها، و طمعوا فى أخرى مثلها، فجهّزوا مركبا عظيما من «بيروت» أيضا، و أودعوه مثل ما كان قبله من الآلات و السلاح و الأقوات بما مبلغ قيمته خمسه آلاف دينار، و جعل فيه سبعمائه من مقاتله المسلمين.

و كان خبرهم قد وصل إلى الفرنج، فأخذوا عليهم الأرصاد، فمكثوا أياما يلججون فى البحر، و يقاربون عكّا، فلا يجدون فى الدّخول مطمعا، حتى صادفتهم مراكب «الانكتير» فى حال قدومه من بلاده، فى إحدى

۱- انظر المحاسن اليوسفيه ص ۹۷.

و عشرين مركبا فقاتلوا ذلك المركب الاسلامى يومين، و ثبت لهم مع قلّته، فغرّق المسلمون من مراكب الفرنج ثلاثه.

و لما رأوا أنهم قد يئسوا من النجاه، و أنّ الفرنج إن ظفروا بالمركب حصل لهم به قوه عظيمه، و حصلوا فى الأسر و الذلّه، عمد رجل حلبىّ حجّار من أهل «باب الأربعين»(۱)، يقال له «يعقوب» و كان مقدّم الجماعه إلى سفل المركب و أخذ قطّاعته، و خسف المركب، و دخل فيه الماء، و غرق، و لم يظفر الكفّار منه بشى ء، سوى رجلين تخطّفهما الفرنج من رأس المال، و احتملوهما فى مراكبهم، فأخبروا بهذه الكائنه.

و لما وصل هذا الخبر إلى «عكا» قطع قلوب من بها، و أسقط فى أيديهم، و هرب جماعه من الأمراء منها، فألقوا أنفسهم فى شخاتير صغار، فأضعف ذلك قلوب من بقى بها، و عظمت النكايه فى سور المدينه، و فشلوا، و كاتبوا السلطان، فأذن لهم فى مصالحه الفرنج عن أنفسهم بالبلد.

فصالحوا الفرنج على تسليم البلد، و جميع ما فيه من الآلات، و العدد و الأسلحه، و المراكب، و غير ذلك، و على مائتى ألف دينار و ألف و خمسمائه أسير، مجاهيل الأحوال، و مائه أسير معيّنين من جانبهم يختارونهم، و صليب الصلبوت، على أن يخرجوا سالمين بأنفسهم، و ذراريهم، و أموالهم، و قماشهم، و ضمنوا «للمركيس» عشره آلاف دينار، لأنّه كان

۱- انظر حوله بغيه الطلب ص ۵۵- ۵۶.

الواسطه، و لأصحابه أربعه آلاف.

و حلف الفرنج لهم على ذلک، و تسلّموا «عکا»، فی یوم الجمعه سابع عشر جمادی الآخره، سنه سبع و ثمانین و خمسمائه، و نکثوا ذلک العهد، و أسروا کلّ من کان بها من المسلمین، و فرّقوا بینهم، و استصفوا أموالهم، و سلبوهم ثیابهم و أسلحتهم، ثم قتلوا منهم ألفین و مائتین صبرا، على دم واحد، فی یوم واحد، حیث توهّموا فیهم أنهم فقراء، لیس لهم مفاد، و أسروا من رجوا منه أن یفتدی بمال، أو یکون من السّلطان على بال(۱).

و أقامو بعکّا نحو أربعین یوما، و «الملک النّاصر» على حصارهم، ثم خرجوا منها متوجهین إلى «عسقلان»، فسار فی عراضهم، لیمنعهم أن یخرجوا من ساحل البحر، فساروا من عکّا إلى «یافا»، و هی مسیره یوم واحد، فی شهر کامل، لمضایقه السلطان لهم، و جرى بینهم و بین المسلمین مناضله و مطارده، فلما أشفق السّلطان من أخذهم «عسقلان» سبق إلیها فهدمها، و أخرج أهلها منها، فی شهر رمضان من سنه سبع.

فأقام الفرنج «بیافا»، و انتقل السّلطان إلى «الرّمله»، و شرع الفرنج فی بنآء «یافا» و تحصینها، ثم ساروا عنها، فنزلوا بعسقلان، و شرعوا فی عمارتها، ثم ساروا إلى «الدّاروم»، فحصروها ثلاث مرات، أخذوها فی المره الثالثه بالأمان.

و عاد السّلطان، فی ثالث ذی الحجه، بالعساکر إلى البیت المقدّس،

۱- انظر کتابی حطین ص ۱۷۸- ۱۸۰.

و عمّره، و حصّنه، و وعّر طريقه، و عمّق خندقه، و جعل «الملک العادل»، بازآء الفرنج «بالرّمله».

[وفاه تقى الدين عمر]

و توفى الملک المظفّر تقىّ الدّين، على «منازكرد»، و هو محاصر لها، بعد أن جرى له مصاف مع بكتمر صاحب «خلاط»، و كسره تقىّ الدّين.

و دخلت سنه ثمان و ثمانين، و السّلطان بالبيت المقدّس، و الملک العادل فى الرّمله، و قد صار بيد الفرنج مما كان بيد المسلمين من الفتوح، ما بين عكا و «الدّاروم»، و لم يمكنهم مفارقه الساحل، خوفا من أن يحول المسلمون بينهم و بين مراكبهم، فتنقطع مادتهم.

و عصى فيها الملک المنصور بن تقىّ الدّين على السّلطان بميافارقين، و حينى(۱)، و حرّان، و الرّها، و سميساط، و الموزر، فسيّر إليه ابنه الملک الأفضل و أقطعه تلک البلاد الشرقيه، فسار إلى حلب و معه أخوه «الملک الظّافر»، و وصلا إلى حلب. فأرسل السّلطان أخاه «الملک العادل»، جريده، فى عشرين فارسا من مماليكه، و أمره أن يردّ «الملک الأفضل»، و يطيّب قلب «الملک المنصور»، و يعطيه ما يريد، فوصل «الملک العادل»، و اجتمع بالملک المنصور، و قرّر أمره.

ثم أن السلطان جرت له أحوال مع الفرنج، و وقعات، و مراسلات، يطول الكتاب بتعدادها، إلى أن انتظم الصلح بينه وبين الفرنج، فى حادى و عشرين من شعبان سنه ثمان و ثمانين، لمده ثلاث سنين

۱- بلده فى ديار بكر يقال لها حانى أيضا. الأعلاق الخطيره- قسم الجزيره- ص ۷۸۸.

و خمسه أشهر، على أن سلّموا إلى المسلمين «عسقلان»، و «غزه»، و «الدّاروم». و اقتصروا من البلاد السّاحليه على ما بين «صور» و «يافا» بعد أن فتح السلطان «يافا»، و بقى القلعه.

و اتفق ملوك الجزائر من الفرنج على تمليك الساحل رجلا منهم يعرف «بالكند هرى»، و زوّجوه بنت ملكهم القديم، التى قد استقرّ عندهم أن يجعلوها على كلّ من ملكوه(۱).

و سار السّلطان من القدس إلى بيروت فى شوّال، و وصل إلى خدمته صاحب أنطاكيه «الابرنس» و ولده «قومص طرابلس»؛ و خلع عليهما، و جدّد بينه و بينهما الهدنه و العقد.

و فى سادس عشرى ذى القعده، دخل إلى دمشق، بعد مدّه تقارب أربع سنين. و كان «الملك الظاهر» قد ودّعه من «القدس»، و رحل إلى حلب فى شهر رمضان، و أخبرنى القاضى بهاء الدّين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم: أنه ودّعه، ثم سيّر إليه، و استأذنه فى مراجعته فى أشياء فأدخله عليه- و كنت حاضرا- ثم قال للملك الظاهر:

«أوصيك بتقوى اللّه فإنّها رأس كلّ خير: و آمرك بما أمرك اللّه به، فانه سبب نجاتك، و أحذّرك من الدّماء و الدخول فيها و التقلّد لها، فإنّ الدم لا ينام، و أوصيك بحفظ قلوب الرعيّه، و النّظر فى أحوالهم، فأنت أمينى و أمين اللّه عليهم، و أوصيك بحفظ قلوب الأمراء، و أرباب الدّوله

۱- انظر كتابى حطين ص ۱۸۲- ۱۸۴.

و الأكـابر، فمـا بلغت مـا بلغت إلّا بمـداراه النّاس، و لا تحقـد على أحـد، فانّ الموت لا يبقى على أحـد، و احـذر ما بينک و بين النّاس، فانّه لا يغفر إلّا برضاهم؛ و ما بينک و بين اللّه يغفره اللّه بتوبتک إليه، فانّه كريم».

و فى شـهر ذى القعده، سلّم إلى «الملک المنصور» ما كان لأبيه بالشام، و هو «منبج، و حماه، و سلميه، و معرّه النعمان» و انقضت سنه ثمان و ثمانين.

و الهـدنه مع الفرنج مسـتمرّه، و «الملک النّاصـر» بدمشق، «و الملک الظّاهر» بحلب، و الملک العزيز بمصـر، و الملک الأفضل، و هو أكبر ولد السّلطان، معه بدمشق.

[وفاه صلاح الدين]

فمرض السّـلطان، فى اليوم الخـامس عشـر، من صـفر، بحمّى حـاده، و اختلـط ذهنه فى السّـابع، و حبس كلامـه، و انجـذبت مادّه المرض إلى دمـاغه، و تـوفى- رحمه اللّه- فى الثّـالث عشـر من مرضه، فى وقت الفجر، من يـوم الأربعـاء، السّـابع و العشـرين من صفر، من سنه تسع و ثمانين و خمسمائه.

و ليس فى خزانته من المال يوم وفاته سوى دينار واحد صورى، و سبعه و أربعين درهما نقره(۱)، و دعوته على المنابر من أقصى حضر موت فى الجنوب إلى أوائل بلاد «أرانيه»(۲) فى الشّـمال عرضا، و من طرابلس الغرب إلى باب همذان طولا. و نقودها من الدّراهم و الدنانير مضروبه باسمه، و عساكرها مطيعه لأمره، سائره تحت لوائه. و من جمله ملكه ديار مصر، و الشّام

۱- أى من الفضه.

۲- أرّان اقليم مشهور بين أذربيجان و أرمينيه. معجم البلدان.

جميعه، و الجزيره و ديار بكر، و اليمن.

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

و كان وزيره القاضى «عبد الرحيم بن على البيسانى»، صاحب البلاغه فى الكتابه.

و استقرّ ملك ابنه السلطان «الملك الظّاهر غازى بن الملك النّاصر يوسف بن أيّوب» لحلب، و البيره، و كفرطاب، و عزاز، و حارم، و شيرز، و بارين، و تلّ باشر. و استقلّ بملك حلب، و أنعم على رعيّته، و استمال قلوبهم بالاحسان، و عمل بوصيّه أبيه فى الأفعال الحسان، و شارك أهل حلب فى سرورهم و الحزن، و قلّد أعناقهم أطواق الانعام و المنن، و جالس الكبير منهم و الصّغير، و استمال الجليل و الحقير.

و كان- رحمه اللّه- مع طلاقه وجهه، من أعظم الملوك هيبه، و أشدّهم سطوه، و أسدّهم رأيا، و أكثرهم عطاء، و كانت الوفود فى كلّ عام تزدحم ببابه من الشّعراء، و القرّاء، و الفقراء، و غيرهم. و كان يوسعهم فضلا و إنعاما، و يوليهم مبرّه و إكراما.

و لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد «سيف الدّوله بن حمدان» ما اجتمع ببابه- رحمه اللّه- و زاد على «سيف الدوله» فى الحباء، و الفضل و العطاء.

و خرج صاحب الموصل «عزّ الدّين»، باتفاق «عماد الدّين» و صاحب

ماردين، لاستنقاذ حرّان و الرّها، من يد «الملک العادل»، فى شهر ربيع الآخر من هذه السنه؛ و نزل بدنيسر.

[الصراعات الأيوبيه]

و نزل «الملک العادل» بحرّان، و استنجد بعساكر «الملک الظّاهر» و «الملک الأفضل»، فسيّر الملک الظّاهر عسكره و مقدّمه الملک المنصور بن تقىّ الدّين، و نزل الملک العادل على سروج فافتتحها. و مرض عزّ الدّين، و عاد إلى الموصل عن غير لقاء.

ثم نزل الملک العادل على الرّقه، فأخذها، و أعطاها ابن أخيه «الملک الظافر». و سار بالعساكر إلى نصيبين، و أقطع الخابور و بلد القنا، ثم اصطلحوا فى شهر رمضان.

و كان الياروقيه و مقدّمهم «دلدرم» صاحب «تلّ باشر»، قد تكبّروا و تحامقوا على الملک الظّاهر، و قصّروا فى خدمته، فى حياه أبيه. و كانوا يعظّمون «بدر الدين دلدرم»، و يركبون كلّهم فى خدمته حتى كأنه السلطان، و كان بأيديهم من الأقطاع خير ضياع «جبل السّماق»، و غيرها؛ و ملک الملک الظاهر حلب، فسلكوا معه من الحماقه، ما كانوا يسلكون من قبل، فاعتقل مقدّمهم «دلدرم» فى قلعه حلب، و قيّده، و أخرج الباقين عن حلب، و قبض أقطاعهم، و طلب من «دلدرم» تسليم «تلّ باشر» فامتنع، و ذلک فى سنه تسعين و خمسمائه.

و اتّفق أن وقع خلف بين الأفضل و الملک العزيز، بسبب أميرين من النّاصريه، أحدهما ميمون القصرى، و الآخر سنقر الكبير، و كان بأيديهما

عدّه من القلاع، فاستشعرا من الملک الأفضل أن یقبضهما، فسارا إلی مصر، و کاشفا «الأفضل» بالعصیان.

و طلبا من العزیز الکون فی خدمته علی أن یذّب عما فی أیدیهما، فأقطع الملک الأفضل بلادهما، و أقطعهما الملک العزیز نابلس- و کانت مقطعه مع ابن المشطوب- فامتنع من تسلیمها إلیهما، و سار إلی الملک الأفضل فوقع الشرّ بینهما بسبب ذلک.

و نزل الملک العزیز إلی دمشق، فی جمادی الآخره، و أقطع بلدها، و قاتلها، فسیّر الملک الأفضل إلی عمّه، و أعلمه بذلک، فسار «الملک العادل» من بلاده شرقی الفرات جریده، و اجتمع بالملک الظاهر غازی بحلب، و أصعده إلی قلعه حلب، و أنزله فی الدار، التی فیها ابنه الملک العادل «غازیه خاتون»، زوجه السلطان الملک الظّاهر. و طلب من الملک الظّاهر موافقته علی المسیر إلی نصره الملک الأفضل، و اصلاح ما فی قلوب الملکین من المضاغنه، فوافقه علی ذلک. ثم قال له الملک العادل: «انا ضیفک، و لا بدّ للضّیف من قری، و أطلب أن تکون ضیافتی منک دلدرم».

فأجابه إلی ذلک و أطلقه.

و کان «العلم بن ماهان» فی خدمه السّلطان «الملک الظاهر»، فی محلّ الوزاره، فأشار علیه بقبض عمّه الملک العادل، فامتنع، و قال: «هذا عمّی، و محلّه محلّ الوالد». و نزل الملک «بدلدرم» من القلعه، فمضی فی یومه إلی «تلّ باشر».

و صعد الملک العادل و الملک الظّاهر، إلى نصره الملک الأفضل، بعد أن سلّم الملک الأفضل إلى الملک الظّاهر جبله، و اللاذقیه، و بلاطنس و أعمال ذلک کلّه، لینصره على أخیه. و اجتمع الملک العادل، و الملک الظّاهر بالملک الأفضل، و تأخّر الملک العزیز عن دمشق.

و جرت بین الملوک الثلاثه مراسلات أفضت إلى الاتّفاق و الصّلح، على أن تکون بلاد الملک الأفضل بحالها، و ما کان بید «میمون» و «سنقر»، على حاله، و یکونان فی خدمه «الملک العزیز». و وقعت الأیمان و العهود على ذلک، فی شعبان من سنه تسعین و خمسمائه.

و عاد «الملک العزیز» إلى مصر، و «الملک الظّاهر» إلى حلب، و الملک العادل إلى الشرق.

و فی سنه إحدى و تسعین اتّصل القاضی «بهاء الدّین أبو المحاسن، یوسف بن رافع بن تمیم» بخدمه «الملک الظاهر»، و قدم إلیه إلى حلب، و ولّاه قضاء حلب و وقوفها، و عزل عن قضائها «زین الدین أبا البیان نبأ» نائب «محیى الدّین بن الزکی»، و حلّ عنده بهاء الدّین فی رتبه الوزاره و المشوره.

ثم إنّ «الملک الأفضل» استشعر من أخیه «الملک العزیز» أن ینزل إلى دمشق، و یحاصرها، فی سنه إحدى و تسعین، کما فعل فی السّنه الخالیه، فسار إلى «قلعه جعبر»، و اجتمع بعمّه «الملک العادل. بها، و فاوضه فی

الوصول إليه إلى دمشق، لينصره على الملك العزيز إن وصل إلى دمشق، إمّا بصلح أو بغيره، فوافقه على ذلك.

و توجّه الملك العادل إلى دمشق، ثم عدل الملك الأفضل إلى حلب، إلى أخيه الملك الظاهر، و وصل إليه حلب، و فاوضه فى انجاده على الملك العزيز، فلم يجد عنده نيّه صادقه فى الحركه معه إلى دمشق، و اشترط عليه شرائط من جملتها أن صاحب «حماه» الملك المنصور محمّد بن تقى الدّين، و عزّ الدّين بن المقدّم صاحب «بارين»، و «بدر الدّين دلدرم بن ياروق»، صاحب «تل باشر»، كانوا كلّهم فى طاعته، و مضافين إليه، و بلادهم من جمله بلاد الملك الظّاهر، و أنهم كانوا من جمله أصحابه، فانحرفوا عنه، و انضافوا إلى عمه الملك العادل.

و كان الملك العادل قد شفع إليه فى دلدرم، و أطلقه لأجله، و ضمن له عنه الطاعه و القيام بما يجب، فانضاف إلى عمّه.

و طلب «الملك الظّاهر» أنّ الملك العادل يقوم له، بما جرى بينه و بينه من الشرط، و أن لا يعرض لأتباعه المذكورين.

و سار الملك الأفضل إلى دمشق، على أن يقرّر مع عمّه ما التمسه الملك الظّاهر. فلم يتّفق للملك الظّاهر شى ء مما التمسه. فعاد بالكليّه عنهما، و أرسل إلى الملك العزيز، يحضّه، و يحرضه على قصدهما لأن الملك الأفضل مال إلى الملك العادل، و ألقى أموره كلّها إليه.

و وصلت رسل الملک العزیز إلی الملک الظّاهر، بموافقته معه، و معاضدته. و حلف له الملک الظّاهر، فی شهر رجب من السّنه.

و نزل الملک العزیز، من مصر، فی شهر رمضان؛ و الأسدیه و الأکراد مخامرون علیه، و الملک العادل و الملک الأفضل، قد کاتباهم، فمالوا إلیهما لتقدمه الملک العزیز الناصریّه علیهم.

و خرج الملک الظّاهر، فنزل بقنسرین، و عیّد بها عید الفطر، و عیّد الملک العزیز «بالفوّار»، و عزم الملک العزیز علی الرحیل إلی دمشق، و النزول علیها، و رحل أبو الهیجاء السمین و المهرانیّه، و الأسدیه فی رابع شوال. و ساروا إلی دمشق.

و رحل الملک الظّاهر من «قنّسرین» إلی «قراحصار»، قاصدا حصار منبج- و هی فی ید الملک المنصور صاحب حماه- فلما وصل الملک الظّاهر إلی «بزاعا»، وصله الخبر بأنّ العسکر خامر علی الملک العزیز، و أنّه رجع عن دمشق؛ و سار الملک العادل و الأفضل خلفه إلی مصر، فعاد الملک الظّاهر إلی «قرا حصار» حتی انسلخ شوال، و دخل حلب.

و وصله الخبر بأن الملک العادل و الأفضل، سارا خلف الملک العزیز إلی مصر، و نزلا علی «بلبیس»، و دخل الملک العزیز إلی مصر، و استقرّ أمره بها، و علم الملک العادل بأنّه لا یتمشّی أمرهما مع الملک العزیز، فکتب إلی القاضی الفاضل، و طلب الاجتماع به، فألزمه الملک العزیز بالخروج إلیه، فاجتمع به، و أصلح حاله مع الملک العزیز، و شرط علیه أن یعفو عن

الأسديه. و قال للملک الأفضل: «أنا كان مقصودی الاصلاح بينكم، و أن لا يقع على دولتكم خلل، و قد حصل ذلک».

و تحالفوا، و عاد الملک الأفضل، و معه أبو الهيجاء السمين، و بقى الملک العادل مع الملک العزيز بمصر، و وافقه، فانحرف الملک الظّاهر عن الملک العزيز بذلک السبب، و مال إلى الملک الأفضل.

و كان الملک العادل قد احتوى على الملک العزيز، و أوقع فی نفسه أن السّلطنه تكون له فی بلاد الاسلام، و الخطبه و السكّه، و كان يبلغه عن الملک الأفضل كلمات توجب الحنق عليه، فاتّفق مع الملک العزيز على أن ينزلا جميعا إلى الشام، لتقرير هذه القاعده فی جميع بلاد الاسلام.

فسيّر الملک الظّاهر أخاه الملک الزّاهر داود، و القاضی بهاء الدين قاضی حلب، و سابق الدين عثمان، صاحب شيزر، فی سنه اثنتين و تسعين و خمسمائه إلى الملک العزيز، لتسكين الفتنه، و الرجوع إلى ما فيه صلاح النيّه و الموافقه بين الأهل.

فوصلوا و الملک العادل، و الملک العزيز، قد خرجا مبرزين إلى «البركه» فی ربيع الأول من السّنه، و أعادوا الرسل بغير زبده، فعرفوا الملک الأفضل فی اجتيازهم عليه، بما قد عزم الملک العزيز، و الملک العادل عليه، من إقامه الخطبه و السكّه للملک العزيز، و تعجّب من نقضهما الهدنه معه.

و لمّا وصلوا إلى حلب، راسل الملک الظّاهر أخاه الأفضل، فی تحديد الصلح بينهما، و تحالفا على المعاضده و المناصره. و وصل إلى الملک الظّاهر من

الأمراء: علم الـدين قيصـر الناصـرى، أمير جانـدار أبيه الملك الناصـر، فأقطعه اللاذقيه؛ و أخـذها من ابن السّـِلار. و سيّر العلم بن ماهان، ليعتبر ما فى قلعتها و يسلّمها إلى قيصر، و يجعل الأجناد فيها على حالهم، و يحلّفهم للسلطان الملك الظّاهر.

و كـان العلم بن ماهـان، إذ ذاك عنـد الملـك الظّـاهر فى محلّ الوزاره، فلما وصل إليها، و دخل قلعتها طمع باللّاذقيه، و حـدثته نفسه بالعصـيان، و اسـتحلف الأجنـاد لنفسه، و خـالفه بعضـهم، و امتنعوا، و كتبوا إلى «الملـك الظّـاهر»، و قبضوا على ابن ماهان. فسـارع الملـك الظّـاهر، و خرج إلى اللّاذقيّه، و صـعد إلى القلعه، و أحضـر ابن ماهـان و قطع يـده، و قلع عينه، و قتـل غلاما من خواصّه، و قطع لسان البدر بن ماهان قرابته و أذنيه، و سلخ العامل النصرانى الذى كان بها.

و احتوى على جميع مـا كـان لابـن ماهـان، و فرّقه، و دخل إلى حلب و هو معه، فأركبه حمارا مقلوبا، و على رأسه خفّ امرأه، و يـده معلّقه فى عنقه. و طيف به على تلـك الحـال، و لطم بالـدرّه، ثم صـعدوا به إلى القلعه، فالتقـاه «ابن منيفه» بوّابهـا، و قـال له: «أريد حقى منك». و أخذ نعله من رجله، و لطمه به لطما كثيرا، و حبس فى القلعه.

و تحدّث بعض النّاس أن الملك الظّاهر أراد أن يرجع عن إقطاع قيصـر اللّاذقيه، فكتب إلى ابن ماهان يأمره بالعصـيان، ثم التزم بما فعل، و لم يظهر صحه ذلك.

و لما دخل السلطان الملك الظّاهر من الّلاذقيه، سيّر عسكرا من عسكر حلب، نجده لأخيه الملك الأفضل، و وصل الملک العزيز و الملک العادل، فنزلا على دمشق، و حصراها، و تسلّمها الملک العزيز بمخامره أوجبت دخول الملک العادل من «باب توما»، و الملک العزيز من باب «الفرج».

و خرج الملک الأفضل من القلعه، و عوّض عن دمشق بصرخد، فسار إليها، و وصل «الملک الظافر» إلى أخيه «الملک الظاهر» إلى حلب، فأكرمه، و احتفل به، و ذلک فى شعبان من سنه اثنتين و تسعين و خمسمائه.

و شرع «الملک الظاهر» فى حفر الخنادق بحلب و تحصينها، و سيّر القاضى بهاء الدّين، و غرس الدّين قلج، إلى الملک العزيز، يطلب موافقته، و كان قد رحل إلى مصر، و أبقى الملک العادل بدمشق.

و خرج «الملک الظاهر» إلى «مرج دابق»، و أقام بها، و أظهر أن صاحب «مرعش» عاث فى بلد «رعبان»، و سيّر يقدمه عسكره إلى «عين تاب»، فخاف صاحبها حسام الدّين بن ناصر الدّين، و حفظ القلعه.

و نزل العسكر فى الربض مظهرين أن لا غرض لهم فى حصار القلعه، بل لشدّه البرد و الثلج. ثم أظهر أن صاحب مرعش سيّر إلى «الملک الظاهر»، و اعتذر، و انقاد إلى طاعته، و حلف له.

فرحل السّلطان إلى «الراوندان»، و أقام بها ثلاثه أيام، و رحل إلى «عزاز» ليلا، و هى فى أيدى نواب الأمير «سيف الدّين بن علم الدّين علىّ بن سليمان بن جندر»، و كان مريضا بحلب، فأراد السّلطان أن يصعد

إلى القلعه من شدّه المطر، فمنعه من فى القلعه أن يطلع إلّا باذن «سيف الدّين»، فسار إلى «دربساك» و بها «ركن الدين الياس» ابن عمّ «سيف الدين»، فقبض عليه.

و عاد إلى حلب مغضبا، و دخل إلى دار سيف الدّين بنفسه، و أخذه فى محفّه، و سيّره إلى «عزاز» ليسلمها، و وكّل به «حسام الدّين عثمان بن طمان»، فوصل معه إليها و سلّمها إلى نواب السّلطان «الملك الظاهر»، و عادوا به إلى حلب.

و لما جرى على سيف الدين ذلك، و كانت «دربساك» معه، و فيها ماله و نوّابه، و بها جماعه من أسرى الفرنج، فأعملوا الحيله، و كسروا القيود، و فتحوا خزانه السلاح، و لبسوا العدد، و قاموا فى القلعه، فاحتمى الوالى فى القلعه مع جماعه من الأجناد، و القتال عليهم. فعلم الملك الظاهر، بذلك، فخرج مجدّا فى السير حتى وصل «درب ساك»، فوجد الوالى قد انتصر على الأسرى، و قتلهم.

و عاد السلطان إلى «حارم»، ثم دخل إلى حلب، فأقام حتى تقضّت سنه اثنتين و تسعين. و وصله القاضى «و قلج» بجواب الملك العزيز، بانتظام الصلح بينه و بينه.

و رحل الملك العادل إلى بلاده الشرقيه، و وصل ابنه «الملك الكامل محمد» إلى حلب، زائرا ابن عمه الملك الظّاهر، و كان قد طلبه من أبيه ليزوره، فالتقاه الملك الظاهر، و أحسن ضيافته ثم سار إلى أبيه.

و عصى «سربک» «برعبان» على الملک الظّاهر، و قد كانت فى يده، عوّضه بها عن «حارم» و كان من مماليک أبيه الشجعان، فأظهر الملک الظّاهر أنّه يخرج إلى الغزاه، و خرج إلى «قنّسرين»، ثم عطف من غير أن يعلم أحد حتى وصل إلى «رعبان»، فنزل عليها، و أقام أياما لا يقاتلها، فى شهر رمضان، من سنه ثلاث و تسعين و خمسمائه.

و استغل بلدها، فلبس «سربک» سلاحه، و ركب، و حوله جماعه، قد لبسوا، و فتح باب القلعه، و نزل إلى السّلطان، و التمس منه العفو فعفا عنه. و ردّ «رعبان» إليه، و سار إلى حلب، فأقام بها إلى أول ذى الحجه من سنه ثلاث و تسعين.

و كان الملک العادل قد سار إلى حلب، فأقام بها إلى أول ذى الحجه من سنه ثلاث و تسعين.

و كان الملک العادل قد سار إلى «الغور» لحركه الفرنج، و استصحب معه نجده من الملک الظّاهر، فوصلت رسله إلى السّلطان الملک الظاهر، يخبره أن الفرنج قد عزموا على قصد جبله و اللّاذقيه فخرج الملک الظاهر إلى «الأثارب»، و سيّر الحجّارين و الزرّاقين، لهدم حصنى جبله و الّلاذقيه.

و سار «المبارز أقجا» لهدم «جبله»، فهدموا سورها و دورها، و أجلى أهلها منها.

و سار غرس الدين قلج، و ابن طمان، لهدم الّلاذقيه، فنقبوا القلعه، و علّقوها، و رفعوا ذخائرها، و هدموا المدينه، و ذهب أهلها،

و بقى العسكر منتظرا وصول العدوّ، ليلقوا النار فى الأخشاب المحشوّه فى الأنقاب، فلم يصل أحد منهم.

و جاء البرنس فى البحر تحت «المرقب»، و طلب غرس الدّين و ابن طمان فوصلا إليه، و كلّماه على جانب البحر، فأشار عليهما بأن لا تهدم الّلاذقيه، و أخبرهما أن الفرنج فتحوا «صيدا» و «بيروت»، و عادوا إلى «صور».

فسيّرا و أعلما السلطان و هو «بريحا»(۱)، فأمر ببناء ما استهدم منها، و سار إلى «حارم»، فوصلها فى محرّم سنه أربع و تسعين. و أقام بها مدّه، ثم رحل إلى الّلاذقيه، فعمّرها و عمّر ضياعها، و توجه إلى حلب.

و توفّى غرس الدّين قلج، فعصى أولاده بالقلاع التى كانت بيده، و هى: دركوش»، و «الشغر»، و «بكاس»، و «شقيف الروج»، و امتنعوا من تسليمها إلى الملك الظاهر، فخرج إليها، و نازلها، و أخذ عليها النقوب، و استنزلهم منها، و صفح عن جرمهم، و أجرى لهم المعيشه السنيّه، و تقدّم عنده منهم: سيف الدين علىّ بن قلج.

۱- أرجح أنه قصد هنا أريحا جبل السماق، لا أريحا فلسطين، و تتبع بلده أريحا الآن محافظه أدلب، و تبعد عنها مسافه ۱۳ كم و عن المعره ۲۰ كم، و ۶۰ كم عن جسر الشغور(الشغر).

و دخلت سنه خمس و تسعین

و مات الملک العزیز بمصر، و اختلف أمراؤها، فمال الأسدیّه إلی الملک الأفضل و الناصریّه إلی الملک العادل. و انقاد الناصریّه علی نیّات غیر موافقه، و استدعوا الملک الأفضل، فسار من «صرخد» إلی مصر و دخلها، و تلقّاه إخوته علی مرحلتین منها، و استوثقوا منه بالأیمان، علی أن یکون کافلا للملک المنصور «محمد بن الملک العزیز» و مربّیا له.

و خرج الجحاف، و جهارکس، إلی «میمون» إلی القدس، فقیّد «الملک الأفضل» أخاه «الملک المؤیّد» و جماعه من الأمراء کاتبوا «الملک العادل»، و أرسل الملک الظّاهر وزیره نظام الدین أبا المؤید محمد بن الحسین، إلی أخیه الملک الأفضل، مهنئا له بولایه مصر، فأقام عنده مدّه، و الرسل تتردّد إلیه من «الملک الظّاهر» فی الاتفاق علی الملک.

و کان الملک العادل، إذ ذاک محاصرا «ماردین»، و قد أشرف علی أخذها، فسار الملک الأفضل إلی دمشق، و خرج الملک الظاهر إلی

«حارم»، لغدر وقع من الفرنج بناحيه «العمق»، و أغاروا على التركمان، فى تلك الناحيه. و سيّر بعض العسكر إلى «خناصره» ليقطع الطريق على الملك العادل إن توجّه إلى دمشق.

و صالح الملك الظّاهر الفرنج و رحل إلى «مرج قراحصار» فى سلخ رجب من سنه خمس و تسعين.

و سار الملك العادل حتى بلغ إلى «تدمر»، و سار فى البريه إلى دمشق، و نزل الملك الأفضل على دمشق، فى نصف شعبان من السنه، و نزل بعض عسكره فى «الميدان»، و هجم بعض العسكر المدينه بمخامره من أهلها، و نادوا بشعار الملك الأفضل.

و كان مجد الدّين- أخو الفقيه عيسى- هو الّذى دخل منها حتى بلغ السّوق، و شربوا الفقاع، فخرج الملك العادل، من القلعه، و أخرجهم من البلد.

و خامر بعض العسكر على «الملك الأفضل»، و دخلوا فى اللّيل إلى دمشق، فاختلّ الأمر عند ذلك، و تأخر الملك الأفضل إلى «جسر الخشب».

و سار الملك الظّاهر إلى حماه، فالتقى سيف الدين طغرل الظّاهرى قطعه من عسكر حماه سائره إلى منبج فظفر بها «طغرل» و أسر رجالها، و أحضرهم إلى الملك الظاهر، فأطلقهم بعدّتهم و دوابّهم.

و لمّا وصل الملك الظاهر إلى «حماه»، منعه عسكرها من العبور على الجسر فعبر قهرا، و نزل عليها، و قاتلها، فهادنه الملك المنصور صاحبها، و أخرج اليه تقدمه سنيه، و سيّر عسكره فى خدمته، فأقطعه الملك الظاهر «بارين» و كانت فى يد ابن المقدّم، فخرج صاحب «حماه» إليها محاصرا لها.

و سيّر الملك الظاهر إلى «الموصل» رسولا- يأمر صاحبها بانجاد «ماردين»؛ و ترحيل الملك الكامل و الملك العادل عنها، و وصل الملك الظّاهر إلى دمشق، و اجتمع بالملك الأفضل فى منزلته، و خيموا بأرض «داريّا»، ثم إنّهم زحفوا على المدينه، و قاتلوها.

و بلغ الملك الظاهر أنّ «جهاركس» و «سامه» و «سراسنقر» و غيرهم، قد عزموا على الدخول إلى دمشق، نجده للملك العادل، فسيّر الملك الظاهر عسكرا مقدّمه «سيف الدّين بن علم الدّين»، ليمنعوهم من الدخول، فاختلفوا فى الطريق، و دخل المذكورون إلى الملك العادل، فاشتدّ بهم أزره، و لم يكن ينصح فى القتال، وقت الحصار غير العسكر الحلبيّ، فأما المصرى فأكثره منافق.

و وصل المواصله إلى «ماردين»؛ و رحّلوا الملك الكامل عنها، و نهبوا ما كان لعسكره بها، فضربت البشائر خارج دمشق فى العسكر.

و سيّر الملك «الظّاهر» عسكرا، مقدّمه «سيف الدّين» المذكور إلى الشرق، ليجتمعوا مع المواصله، و يحصروا بلاد الملك العادل بالشّرق، و أقطع سيف الدّين «سروج»، و كان الأمر قد استقرّ مع المواصله، أن يردّ

إليهم سروج و الرقّه. فلما علموا بأنّ السلطان أقطع سيف الدين «سروج» انحرفوا عنه، و عادوا، و خرج عسكر الرّها، فوقعوا على سيف الدين فانهزم عن سروج.

و فتح الملك المنصور صاحب حماه «بارين» فى ذى القعده من ابن المقدّم، و عوّضه عنها بمنبج، بعد ذلك، على ما سنذكره فيما بعد.

و وصلت رسل الشّرق إلى الملك الظّاهر- و هو على دمشق- و اتفقوا على أن يكون لصاحب الموصل حرّان، و الرّها، و الرّقه، و سروج، و أن يكونوا يدا واحده على من خالفهم، و تحالفوا على ذلك، فى ذى الحجّه من سنه خمس و تسعين و خمسمائه.

و دخلت سنه ست و تسعين

و الحصار على دمشق على حاله، و أكثر الأجناد يحملون الأزواد فى اللّيل، و يبيعونه على أهل البلد، فأخرج الملك العادل خزائنه جميعها، ثم اقترض من التّجار جمله كبيره، و أمر بعمل الرّوايا و القرب، للصعود إلى مصر، و استدعى ابنه الملك الكامل من البلاد الشرقيّه، فجمع و حشد.

و سيّر الملك الظاهر إلى سيف الدّين بن علم الدّين، و إلى الملك المنصور صاحب حماه، فاجتمعوا على «سلميه» ليمنعوا الملك الكامل من العبور، فعبر فى جيش عظيم، لم يكن لهما به طاقه، فانحازوا إلى «حماه»، و ساق سيف الدين بن علم الدين، و أعلم السلطان الملك الظّاهر بذلك.

و وصل الملك الكامل إلى دمشق، فرحل الملك الظّاهر، و الملك الأفضل، إلى «مرج الصّفر»، ثم إلى «رأس المآء».

و رحل الملك الظّاهر، و أخفى نفسه جريده إلى ناحيه «صرخد» و معه الملك المجاهد صاحب حمص، و سار إلى طرف «السّماوه»، و خرجوا إلى

«تدمر». و سار الملك الظّاهر إلى حلب، و وصل بعده بغال الثقل، دون الجمال على البريّه، حتى وصلوا إلى «القريتين»، و لحقهم الملك الكامل «بالقريتين»، و هو مسرع إلى الشرق، و وقع عسكر حلب على قطعه من أصحابه، فظفروا بهم.

فلما وصل الملك الكامل، و قد دخل ثقل السّلطان إلى «القريتين»، سيّر إلى مقدّم عسكر حلب «علم الدين قيصر الناصرىّ»، و استدعاه و قال له: «ما بيننا و بينكم إلّا الخير، و ما جئنا لنتبعكم، فردّوا علينا ما أخذتم لنا». ففعل ذلك، و سار الملك الكامل إلى الشرق، و وصلت البغال إلى حلب، فى تاسع عشر شهر ربيع الأوّل.

و أما الملك الأفضل، فانّه توجّه من «رأس المآء» إلى مصر، و توجّه ثقل الملك الظاهر و خزانته معه إلى مصر. و خرج الملك العادل من دمشق، و سار خلفه إلى مصر، فدخلها، و هرب الملك الأفضل إلى «صرخد».

و استولى الملك العادل على الديار المصريه، فى صوره الكافل، و المربّى، للملك المنصور محمد بن العزيز، و سيّر خزانه «الملك الظّاهر»، و بقيه ثقله جميعه إليه؛ و خفر أصحابه حتى وصلوا إلى حلب، فى نصف جمادى الأولى، و السّلطان «بتلّ السلطان»، فدخل إلى حلب.

و وصلته رسل الملك العادل تطلب منه الموافقه، فلم يجبهم إلى ذلك، و خرج إلى «بكاس» و «حارم» فمرض. و دخل حلب، و اشتدّ مرضه، و طلب إليه إلى القلعه الزهاد الّذين كانوا بحلب، مثل أبى الحسن

الفاسى، و عمّى أبى غانم، و عبد الرحمن ابن الأستاذ، و سألهم الدّعاء، و تبرک بهم، و أزال مظالم کثیره. ثم أبلّ من مرضه ذلک، فى ذى الحجه من سنه ستّ و تسعین.

و انفصل عنه صاحب حمص و صاحب حماه، و صارا مع عمّه الملک العادل، و عوّض صاحب حماه عزّ الدّین بن المقدّم بمنبج عن «بارین»، باشاره الملک العادل. و مات ابن المقدّم بأفامیه، و صار فیها أخ له صغیر.

و استقلّ الملک العادل بملک مصر، و قطع الخطبه و السکّه للملک المنصور بن العزیز، و اختلف جندها، فمنهم من مال إلى تملیک الملک العادل، و أقام فى خدمته، و منهم من کان یرید ابن العزیز، فانفصل منهم جهارکس، و الجحاف، و غیرهما، فانهم انفصلوا عن مصر، و اتفقوا مع الملک الأفضل.

فوصل الملک الأفضل إلى أخیه السلطان الملک الظاهر إلى حلب، فى عاشر جمادى الأولى من سنه سبع و تسعین و خمسمائه، و وصل معه الجحاف، و أخبراه أن جهارکس «بالغور»، مع العسکر، و اتفقوا على محاصره دمشق.

و سیّر الملک الظاهر إلى الموصل بطلب نجده تصله، و برز مع أخیه الأفضل، و قصدا منبج، ففتحها الملک الظّاهر، و قبض على ابن المقدّم و حبسه، و أقطعها الجحاف، بعد أن خرب حصنها. و کان ابن فاخر سعد الدّین مسعود بقلعه نجم، نائبا عن ابن المقدّم، و أخته معه، فسلّمها إلى «الملک الظّاهر»، و عوضه «بمائز»- قریه من بلد عزاز- و سلّمها الملک الظّاهر إلى الأفضل.

و سار إلى أفاميه، و معه ابن المقدم، فعاقبه تحتها ليسلّموا اليه، فلم يسلّموا، فسيّره، و حبسه بحلب، و أقام بكفرطاب، و استولى على بلدها، و نزل بمعره النعمان، و نهب بلدها، و أخذ ما فيها لبيت المال، و سار إلى حماه، فنزل عليها، فى شعبان، و قاتلها إلى أن صالحه الملك المنصور صاحبها، و وزن له ثلاثين ألف دينار، و وافقه.

و سار إلى حمص، فصالح الملك المجاهد صاحبها، و وافقه، و سار إلى دمشق فنازلها، و استدعى «جهاركس» و «قراجا» من الغور، فدافعا عن الوصول، فسار السلطان الملك الظاهر اليهما بنفسه، و لا طفهما حتى رحلا معه، بعد أن أعطى الملك الأفضل قراجا «صرخد»، و أخرج أمه و عياله منها، و نزلوا على دمشق، و عزموا على قتالها، ففند جهاركس عن ذلك، و كان قد صار فى الباقين مع الملك العادل، و قال: «المصلحه أننا نلقى الملك العادل، فاذا كسرناه تمّ لنا ما نريد».

و كان الملك العادل قد نزل من مصر إلى «الكرك»، ثم توجّه إلى نابلس، فلما رأى جهاركس جدّ الملك الظّاهر على حصار دمشق هرب من العسكر إلى الملك العادل إلى نابلس، و هرب قراجا إلى صرخد، و عصى بها، و تركا خيامهما على حالها و بركهما فأنهب السلطان الملك الظاهر ذلك جميعه، ثم زحف بالعساكر على دمشق، و قاتلوها قتالا شديدا، و أحرقوا «العقيبه»، و نهبوا الخانات.

و راسل الملك العادل صاحب الموصل، فاتفق معه، و رجع عن الملك

الظاهر، بعد أن وصل إلى «رأس عين»(۱).

و سار الملک «الفائز بن العادل» من البلاد الشرقیه، طالبا تشعیث بلاد السلطان الملک الظاهر، و شغل خاطره عن حصار دمشق، فسیّر الملک الظاهر «المبارز أقجا»- و کان من أکبر أمراء حلب- و معه بعض العسکر، فنزل على «بالس» و نهبها، و سار إلى «منبج» فنزلها، فوصل الملک «الفائز» إلیها، فانهزم بمن کان معه من العسکر إلى «بزاعا»، و دخلها الفائز، و بنى قلعتها و حصّنها، و سار منها طالبا عسکر حلب إلى «بزاعا»، فاندفعوا بین یدیه إلى حلب، و أقام على بزاعا أیاما، و جفل بلد حلب خوفا منه، و هرب فلّاحوه.

و رحل إلى أبیه إلى نابلس، فسیّر الملک العادل نجده تدخل إلى دمشق، فبلغ حدیثها الملک الظاهر، و قد أحدقت العساکر بدمشق، فکمن لهم کمینا، فوقعوا علیهم، و قتلوا منهم جمعا کثیرا، و انهزم بعضهم، و لم یدخل إلى المدینه إلّا القلیل. و نکث صاحب حماه، و خرج إلى ناحیه «الروج»، و أغار علیه، و نهب رستاق «شیرز».

و سار عسکر حلب إلى منبج، فلم یجد فیها مطمعا، و استدعاهم الملک الظاهر، فمضوا إلیه إلى دمشق، و طال الحصار، و ضجر العسکر، و هرب شقیر، و الجحاف، بعد استیلاء الفائز على منبج، و کانت خبز الجحاف.

۱- رأس العین بلده فی الجزیره السوریه تتبع محافظه الحسکه و تبعد عن الحسکه/ ۸۴/ کم، و هی إلى الشمال الغربی منها.

و وقع الخلف بين الملك الأفضل و الملك الظاهر على دمشق، فالملك الظاهر يريدها لنفسه، لأنه أخرج الخزائن، و بذل الأموال، و حصرها بعسكره، و الملك الأفضل يريدها لنفسه لأنها بلده، و أنه أخرج «صرخد» من يده بسببها. و حصل بينهما منافره أوجبت رحيل الملك الظاهر، و معه ميمون القصرى، و سراسنقر، و أيبک فطيس، و البکی الفارس، و القبيسى.

و رحل الملك الأفضل فنزل حمص، عند صاحبها الملك المجاهد، و زوّج ابنه «الملک المنصور إبراهيم» بابنه الملك الأفضل.

و سار الملك الظاهر إلى حماه، فأغار عليها، و شعّث بلدها، و صانع صاحبها الملك المنصور، على مال أخذه منه، و سار إلى منبج، و عزم على أن يهجمها بالسيف، و يقتل جميع من بها، لأنهم قاموا مع الملك «الفائز»، فشفع إليه الأمراء فى أن يسلّموها طائعين، و يعفو عنهم، فتسلّمها، و أقطعها ابن المشطوب، فى المحرّم من سنه ثمان و تسعين و خمسمائه.

ثم دخل إلى حلب، و أقطع ميمون القصرى عزاز، و شيح، و بلد الحوّار، و أقطع أيبک فطيس أقطاعا أرضاه، و عاد عنه سراسنقر، و تسلّم السلطان أفاميّه من ابن المقدّم، و عوضه عنها «بالراوندان».

و توفى وزير السّلطان الملك الظاهر «جمال الدين أبو غالب عبد الواحد بن الحصين البغدادى» فى شعبان سنه سبع و تسعين، و كان فى خدمه أبيه الملك الناصر، فانتقل بعد موته إلى حلب، و وزر له، و صار وزيره

بعده نظام الدين أبو المؤيد محمد بن الحسين.

و وصل الملك العادل إلى دمشق، فتوجّه إليه الملك المجاهد صاحب حمص، و معه الملك الأفضل، و ترقّق اليه، فأعطى الملك الأفضل «شبختان» و «جملين» و «الموزر» و «قلعه السنّ» و «سميساط». و سار إليها الملك الأفضل، و نزل الملك العادل إلى حماه، و راسل الملك الظّاهر، حتى استقرّ الصلح بينه و بينه، على أن خطب له الملك الظاهر بحلب، و ضرب السكّه باسمه مع اسمه، فى شهر جمادى الآخره، من سنه ثمان و تسعين و خمسمائه.

و صعد الرسول شمس الدين بن التنبى إلى المنبر، وقت اقامه الدعوه له، يوم الجمعه، و نثر ذهبا كثيرا على الناس. و بلغ الملك الظاهر، عن ابن المشطوب، أنّه كان قد عزم على المخامره، فسيّر إلى «منبج» العسكر، و أخذها منه، و عفا عنه، و هدم قلعتها و سورها، فمضى ابن المشطوب إلى الشرق.

و جمع الملك الظّاهر العرب فى دابق، لأخذ العداد منهم، و خاف ابن المقدّم منه، فهرب إلى «الراوندان»، ليعصى بها، فسار الملك الظاهر خلفه، و لم يمهله، فلم يبت فى قلعتها غير ليله واحده. و مضى إلى «بدر الدين دلدرم»، بتل باشر، منهزما من السلطان. فوصل السلطان اليها، و نزل عليها محاصرا لها، فسلّمها من كان بها إليه، و حاز جميع ما كان فيها من الذخائر و الأموال، و رتّب أمورها.

و سار منها إلى منبـج، و سيّر نجده للملك الكامل ابن عمه العادل، و كان نازلا على «ماردين»، لأن صاحبها صار مع ركن الدين بن قلج أرسـلان، و نزل السلطان فى «بدّايا»، و اتفق الأمر بينه و بين [صاحب] «ماردين» و ابن الملك على الصلح، فعاد إلى حلب بعد أن توجه إلى «البيره».

و خرج من البحر جمع كبير من الفرنج، فى سنه تسع و تسعين و خمسمائه. و وصلت طائفه منهم إلى جهه «انطاكيه»، مجتازه على اللاذقيه فى البر، و كان مقطع اللاذقيه إذ ذاك، سيف الدّين بن علم الدين، و عبروا فى أرض الّلاذقيّه، على كره من المسلمين، و فى عزمهم إن رأوا لهم طمعا فى الّلاذقيه يأخذوها.

فخرج سـيف الـدّين بعسـكره، و التقوا، و نصـره اللّه عليهم، و أسـر ملوكهم و مقـدّميهم- و كان ملكهم أعور- و قتل منهم جمعا كثيرا، و وصل الأسرى، و الملك، و الرؤوس، و الخيل، و السلاح، إلى حلب و كانت غنيمه عظيمه.

و عصـى الملـك الأفضـل على عمّه الملـك العـادل، فى البلاد التى كان أعطاه إيّاها، فسيّر، و اسـتعاد منه شـبختان، و جملين، و الموزر، و سـروج، و السنّ، و سار الملك الظاهر إلى «قلعه نجم»، فأخذها من الملك الأفضل خوفا أن يستولى عليها عمّه، و كان «الملك الظّاهر» قد سلّمها إلى الأفضل، فوصلت أمّ الملك الأفضل إلى حلب، تسأل الملك الظاهر،

سؤال عمه فیه، و فی ردّ البلاد علیه، فسیّر معها إلی دمشق «سیف الدّین بن علم الدّین» فی ذلک، فلم یجب إلی ترک شی ء من البلاد علیه، سوی «سمیساط». و شرط علیه أن لا تکون له حرکه بعد ذلک.

و دخلت سنه ستمائه

و وصلت الأخبار بحركه الفرنج إلى «جبله» و «الّلاذقيه»، فسيّر السّلطان إليها العساكر، و أمرهم بخراب «جبله» و «الّلاذقيه»، فلم يكن للفرنج حركه، و خربت قلعه «اللاذقيه» و «العتيقه»- و كانت من جهه الشمال- و ذلك بعد أن أخذت اللاذقيه من ابن جندر- سيف الدين بن علم الدين.

و ولد للسّلطان «الملك الظّاهر» ولده، الملك «الصّالح أحمد» فى صفر، و سر به سرورا عظيما، و زيّن البلد و القلعه، و لبس العسكر فى أجمل هيئه و زىّ. و لبس السلطان، و لعب العسكر معه فى ميدان «باب الصغير».

و فى محرّم سنه إحدى و ستّمائه، هجم ملك الأرمن «ابن لاون»- و هو من ولد «بردس الفقاس»، الذى كان فى زمن سيف الدّوله [صاحب] أنطاكيه- فسيّر الملك الظاهر عسكرا من حلب، لنجده البرنس صاحبها، فلما وصلوا إلى «العاصى»، ضعف أمر ابن «لاون» عندهم، و قاموا عليه،

و أخرجوه منهـا، و قتلوا جمـاعه كبيره من أصـحابه، فعاد عسـكر حلب إليها، ففسـخ «ابن لاون» الهـدنه، و أغار فى بلـد العمق، و استاق مواشيها، و شرع فى عماره حصن داثر فى الجبل، بالقرب من «دربساك»، ليضيّق به عليها.

و أرسـل إلى السـلطان، و سـأله أن يخلى بينه و بين «أنطاكيه». و أن يعيـد جميع ما أخـذه من «العمق»، فأجابه إلى ذلك، و هادنه على هـذا الأمر. و نزل على «أنطاكيه»، و خرّب رسـتاقها، و وقع فيها غلاء عظيم، فكان الملك الظّاهر يمدّ أهل «أنطاكيه» بالغلال، حتى قويت.

و دخلت سنه اثنتين و ستمائه

فجرّد «ابن لاون» فى جمادى الأولى، فى اللّيل، عسكرا فى ليله الميلاد، و جاء على غفله إلى ربض «دربساك»، فلم ينكروا وقود النار فى ليله الميلاد، فقاتلهم أهل الربض و من به من الأجناد، فى بيوت الربض، فلم يظفروا منهم بطائل، و طلع الفجر، فانتشروا فى أرض «العمق»، و نهبوا من كان فيه من التركمان، و داموا إلى ضحوه ذلك النّهار، و رجعوا.

و ابتدرت عساكر تلك الناحيه من المسلمين فلم يدركوهم، و دخل الأرمن إلى «جبل اللكّام»، فجاءهم فى اللّيل ثلج عظيم، و هلك معهم من الخيل و المواشى، فكانوا يسلخون الشاء و يلبسون جلودها، لشدّه البرد، فسيّر الملك الظاهر عسكرا من عسكر حلب يقدمه «ميمون القصرى»، و معه «أيبك فطيس»، فنزلوا على «حارم»، و قطعه من العسكر مع ابن طمان «بدربساك»، و سيف الدين بن علم الدّين نازل بعسكره على «تيزين»- و كانت جاريه فى أقطاعه- و فى أكثر الأيّام تجرى وقعات بين العسكر المقيم «بدربساك»، و بين عسكر ابن لاون «ببغراس».

و خرج السّلطان إلى «مرج دابق»، فى شعبان من هذه السّنه، للدّخول إلى بلد «لاون»، و جمع العساكر، و سيّر إليه عمّه «الملك العادل»، و غيره من ملوك الإسلام النجد، فأقام «بدابق» إلى أن انسلخ شهر الصيّام.

فسار «ابن لاون» من «التينات»، و جاء على غير طريق اليزك فى الليل، فأصبح فى «العمق» غائرا على غرّه من العسكر، و كبس العسكر الذى كان مع ميمون، حتى حصلوا معهم فى الخيام، و قابلوهم على غير أهبه فقاتلهم المسلمون، فقتل منهم جماعه، و لم يلبث إلّا قليلا، و عاد، و ساق سيف الدين من «تيزين»، فوجده قد رجع.

و بلغ الخبر إلى السّلطان، و هو «بدابق»، فسار بالجيوش التى معه فنزل «بالعمق»، و اجتمع من العساكر و التركمان ما لا يحدّ كثره، فسيّر «ابن لاون» يبذل الطاعه، و أن يهدم الحصن الذى بناه بقرب «دربساك».

فأعرض عنه، و ردّ فلّاحى «العمق»، و عمر ضياعه، و كمل استغلال ذلك البلد، و الرّسل تتردّد فى إصلاح الحال، إلى أن استقرّت القاعده: على أن يهدم «ابن لاون» الحصن الذى بناه، و يردّ جميع ما أخذ فى الغاره، و يردّ جميع أسارى المسلمين الذين فى يده، و أن لا يعرض «لأنطاكيه». و قرّر الصّلح إلى ثمانى سنين، و خرب الحصن، ورد ما استقرّ الأمر عليه.

و دخل السّلطان حلب، فى سنه ثلاث و ستمائه، و أمّر جماعه من مماليكه و أصحابه. و عاث الفرنج على بلد «حماه»، فى سنه خمس و ستمائه،

فسيّر الملك الظاهر من حلب، نجده من عسكره.

و نزل الملك العادل على «قدس»، و غارت خيله على طرابلس، و خربوا حصونها، و شتّى «بحماه» إلى أن انقضى فصل الربيع، و عاد إلى دمشق، و عاد ابنه «الأشرف»، إلى بلاده، من خدمه أبيه، فعبر فى حلب، فالتقاه الملك «الظّاهر»، و احتفل به و أنزله فى داره بقلعه حلب، و قدّم له تحفا جليله من السّلاح، و الخيل، و الذّهب، و الجوهر، و المماليك، و الجوارى، و الثياب، بما قيمته ألف دينار، و ودّعه بعد سبعه أيام، إلى قراحصار، و عاد إلى حلب.

و قصد كيخسرو بن قلج أرسلان بلاد «ابن لاون»، و طلب نجده من السّلطان الملك الظّاهر، فأرسل إليه عسكرا مقدّمه سيف الدّين بن علم الدين، و فى صحبته أيبك فطيس، فاجتمعوا بمرعش، و نزلوا على برتوس(۱) فى سنه خمس و ستمائه، فافتتحوها، و افتتحوا حصونا عده من بلد ابن لاون.

فراسل «ابن لاون» الملك العادل، و التجأ إليه، فأرسل الملك العادل إلى كيخسرو و إلى الملك الظاهر، فابتدر كيخسرو، و صالح «ابن لاون» على أن يردّ حصن «بغراس» إلى «الداويّه»، و أن لا يعرض لأنطاكيه، و أن يردّ ماله الذى تركه عنده، فى حياه أخيه ركن الدّين. و كان قد خاف من أخيه، فقدم حلب، و أقام عند الملك الظّاهر مدّه، و خاف الملك الظّاهر من

۱- كذا بالأصل، و فى مفرج الكروب« غرقوس» فلعلها تصحيف« عربسوس» أى« أفسوس».

أخيه ركن الـدّين، أن يتغيّر قلبه عليه بسـببه، و أنّه ربّما يطلبه منه، فلا يمكنه تسـليمه إليه، فأعرض عنه. فدخل إلى «ابن لاون»، ثم خـاف منه، فانهزم، و ترک عنـده مالا وافرا، فاحتوى عليه فردّه عليه، عنـد هـذه الهـدنه. و دفع إليه جميع الأسـرى من المسـلمين، الذين كانوا فى بلاده، و أن لا يعرض لبلاد السّلطان الملك الظاهر. و وصلت نجده حلب إلى حلب.

و خرج العادل من دمشق، فى سـنه ستّ و سـتمائه، و طلب من الملک الظّاهر نجده، تكون معه إلى الشـرق، ليمضـى إلى خلاط، لدفع «الكرج» عنها، فسيّر إليه نجده، و عبر «الفرات». فلما وصل إلى «رأس عين»؛ رحل «الكرج» عن خلاط، و وصل إليه صاحب «آمد»، فسار فى العسكر إلى «سنجار»، و أقطع بلد الخابور، و نصيبين.

و نزل على «سـنجار» محاصـرا لها، و شـفع إليه مظفّر الدّين بن زين الدّين، فى صاحب سنجار، فلم يقبل شفاعته. و قال: «لا يجوز لى فى الشّرع، تمكين هؤلاء من أخذ أموال بيت المال فى الفساد، و ترک خدمه الأجناد، و فى مصلحه الجهاد»، و ضايق سنجار، و قاتلها فى شهر جمادى الآخره.

و قام نور الدّين بن عزّ الدّين- صاحب الموصل- فى نصـره ابن عمه صاحبها، و اتّفق مع «مظفّر الدّين»، و تحالفا، و أفسدا جماعه من عسكر «الملک العادل» و راسلا «الملک الظاهر»، على أن يجعلاه السّلطان، و يخطبوا له، و يضربوا السكّه باسمه.

و جعل «الملک الظّاهر» یداری الجهتین، و الرسل تتواتر إلیه من البلدان، و هو فی الظاهر فی طاعه عمّه، و عسکره معه، و فی الباطن فی النّظر فی حفظ سنجار، و مداخله المواصله، و هو یظهر لعمّه أنه متمّسک بیمینه له، إلی أن أرسل أخاه «الملک المؤیّد»، و وزیره «نظام الدّین الکاتب» إلی عمّه، معلما له أن رسول الموصل، و مظفّر الدّین، وصلا یطلبان منه الشفاعه إلیه، فی إطلاق سنجار، و تقریر الأمر علی حاله یراها.

و توسّط الحال عند قدومه، علی أن شفع فیهم الملک الظّاهر، و أطلق لهم «سنجار»، و استنزلهم عن «الخابور» و «نصیبین». و عاد «الملک المؤیّد»، من حضره عمّه بالبرّ الوافر، فلما وصل «رأس عین»، دخل إلیها فی لیله بارده کثیره الثلج، فنزل فی دار فیها منزل مجصّص، فستر بابه، و سدّ ما فیه من المنافس، و أوقد فیه نار فی منقل، و عنده ثلاثه من أصحابه، فاختنق، و واحد من أصحابه، و حمل إلی «حلب» میتا فی شعبان، من سنه ست و ستمائه. و جری علی الملک الظّاهر منه ما لا یوصف من الحزن و الأسف.

و وصل الملک العادل إلی «حرّان»، و خافه صاحب الموصل و الجزیره، فراسل الملک الظّاهر، و طلب منه أن یخلی بینه و بین ملوک الشرق، و أن یحتکم فی ما یطلبه منه، و راسله صاحب الموصل، و صاحب إربل، و صاحب الجزیره، یعتضدون به و هو لا یؤیسهم، فخرج السلطان إلی «حیلان» بعسکره، ثم رحل إلی «السّموقه» و راسل عمّه فی مهادنتهم، و تطییب قلوبهم، و هو مخیم علی «السموقه»- علی نهر قویق- و طلب منه أن تکون کلمه المسلمین کلّهم متفقه.

و كـذلك تدخّل فى الصّـلح ملك الرّوم، و أن يقصدوا الفرنج بجملتهم، فانّ الفرنج فى نيه التحرك، و خامر جماعه من عسـكر الملك العادل، و وصل ابن كهـدان إلى السّـلطان الملك الظّاهر، فأكرمه، فتخاذل عسـكر الملك العادل، فاتفق الحال بينهم على الصلح، و دخول ملوك الإسلام فيه.

و تمّت المصاهره بين «الملك العادل» و «الملك الظّاهر»، على ابنته الخاتون الجليله «ضـيفه خاتون»- بنت الملك العادل- و شرع السّـلطان فى عمـل «قنـاه حلب» و فرّقهـا على الآمراء، و الخواص. و حرّر عيونها، و كلس طريقها جميعه، حتى كثر الماء بحلب. و قسم الماء فى جميع محال حلب.

و ابتنى القساطل فى المحالّ. و وقف عليها وقفا لإصلاحها، و ذلك فى سنه سبع و ستمائه.

و توفّى وزير السّـلطان الملك الظاهر «نظام الدّين محمد بن الحسـين» بحلب، بعله الدوسـنطاريا، فى صـفر سـنه سـبع و ستمائه. و كـان- رحمه اللّه- وزيرا صالحا، مشـفقا، ناصـحا، واسـطه خير عنـد السّـلطان، لا يشـير عليه إلّا بما فيه مصـلحه رعيته، و الإحسان إليهم. و قام بعده بكتابه الإنشاء و الأسـرار «شـرف الدين أبو منصور بن الحصـين»، و «شـمس الدين بن أبى يعلى» كان مسـتوفى الدواوين. فلما مات أبو منصور بن الحصين استقلّ بالوزاره، و أضيف إليه ديوان الإنشاء مع الإستيفاء.

و عمر السلطان باب قلعه حلب، و الدركاه، و أوسع خندقها و عمل

«البغله» من الحجاره الهرقليّه، و عمق الخندق، إلى أن نبع الماء فى سنه ثمان و ستمائه.

و خرجت من مصر، فى هذه السنه، الملكه الخاتون، «ضيفه خاتون» بنت الملك العادل إلى حلب، مع «شمس الدّين بن التنبى». و التقاها الملك الظاهر بالقاضى بهاء الدين من دمشق، ثم بالعساكر الحلبيه بعد ذلك «بتلّ السّلطان»، و احتفل فى اللقاء، و بالغ فى العطاء، و وصلت إلى حلب فى النصف من المحرّم، من سنه تسع و ستمائه.

و ملّك ابن التنبى قريه من قرى حلب، من ضياع «الأرتيق»(۱) يقال لها تلع، و أعطاه عطاء وافرا، و حظيت عنده حظوه، لم يسمع بمثلها.

و وقعت النّار فى مقام إبراهيم- عليه السّلام- و هو الذى فيه المنبر، ليله الميلاد، و كان فيه من الخيم و الآلات و السلاح ما لا يوصف، فاحترق الجميع، و لم يسلم غير الجرن الذى فيه رأس يحيى بن زكريا- عليه السلام- و احترقت السقوف و الأبواب، فجدّده السلطان الملك الظّاهر، فى أقرب مده أحسن مما كان.

و توفى شرف الدين عبد اللّه بن الحصين كاتب السلطان، و استقلّ شمس الدين عبد الباقى بن أبى يعلى بالوزاره، فى سنه تسع و ستمائه.

و شرع الملك الظاهر فى هدم «باب اليهود» و حفر خندقه و توسعته،

۱- الأرتيق: من كور حلب قرب عزاز. بغيه الطلب لابن العديم- ص ۴۳۷.

و بناه بناء حسـنا، و غيّره عن صورته التى كان عليها، و بنى عليه برجين عظيمين، و سمّاه «باب النصر». و أتم بناءه، فى سنه عشر و ستمائه.

و ولد للسّلطان الملك الظّاهر ولده الملك العزيز، من ابنه عمه الخاتون «ضـيفه خاتون»، فى يوم الخميس خامس ذى الحجه من سنه عشر و ستمائه، فضربت البشائر، و زيّنت مدينه حلب و عقدت القباب، و فى اليوم السابع عشر، من ميلاده، ختن السّلطان أخاه الملک الصالـح، و احتفل بختانه، و نصب الزّورق، من قلعه حلب إلى المـدينه، و نزل فيه الرجال، و عملوا من الآلات و التماثيل التى ركبوها، حاله النزول أنواعا، و طهّر أولاد الأكابر من أهل المدينه، و شرّفهم، و خلع عليهم.

و دخلت سنه إحدى عشره و ستمائه

فجـدّد السـلطان الملك الظّاهر «باشوره» حلب، من «باب الجنان» إلى «برج الثعابين»، و بنى لها سورا قويا ظاهرا عن السّور العتيق، و جـدّد فيه أبرجه كالقلاع، و عزم على أن يفتتح بالقرب من «برج الثعابين» بابا للمدينه، و يسـميه «باب الفراديس»، و كان يباشـر الإشراف على العماره بنفسه.

و أمر فى هذه السـنه بتجديد ربض الظاهريه، خارج «باب قنّسرين»، فيما بينه و بين النهر، فنسب إليه، لذلک، و خربت «الياروقيه»، و انتقل معظم أهلها إليه.

و وثب الإسـماعيليه على ابن الابـرنس، «بكنيسه انطرسوس»، فقتلوه، فجمع البرنس جموع الفرنـج، و نزل على حصونهم، و قتل و سبى، و حصـر «حصن الخوابى» فكتبوا إلى السّـلطان، يسـتغيثون به، و يسـتنجدونه، فاسـتخدم السلطان مائتى راجل، و سيّر جماعه من عسكر حلب، يحفظونه، ليدخلوا إلى «حصن الخوابى»، و يمنعوا الفرنج من الإستيلاء عليه.

و جرّد عسكرا من حلب، مع سيف الدّين بن علم الدّين، ليشتغل الفرنج من جهه «الّلاذقيه» ليتمكن الرجاله من الدخول إلى الحصن، فلما سمع الفرنج بذلك، كمنوا كمينا للرجاله و الخياله، الذين يحفظونهم، فأسروا الرجاله، و قتلوهم، و قبضوا ثلاثين من الخياله، و ذلك فى حادى عشر شهر رجب.

فعند ذلك خرج الملك المعظّم بن العادل، من دمشق، بعسكره، و دخل غائرا فى بلد «طرابلس»، فلم يترك فى بلدها قريه إلّا نهبها، و خربها، و استاق الغنائم و الأسرى، فرحلوا عن «الخوابى»؛ و أطلقوا الأسرى الذين أسروهم من أصحاب السلطان الملك الظاهر، و راسلوه، معتذرين، متلطّفين، و افترقوا عن غير زبده حصلت لهم.

و تمت الباشوره، و الباب، و الأبرجه، فى سنه اثنتى عشر و ستمائه.

و لم يتم فتح الباب، و سدّه طغرل الأتابک، لما مات الملك الظّاهر، إلى أن فتحه السلطان الملك النّاصر- أعزّ اللّه نصره- على ما نذكره، فى سنه اثنتين و أربعين و ستمائه.

و دخلت سنه ثلاث عشره و ستمائه

اشاره

و وقعت المراسله بين السلطان الملك الظاهر، و بين السلطان «كيكاوس بن كيخسرو»؛ و اتفقا على أن يمضى السّلطان إلى خدمته، و يتفق معه خوفا من عمّه، فأجابه «كيكاوس» إلى ذلك، و خرج بنفسه إلى أطراف البلاد.

و ندم السلطان على ما كان منه، و رأى أنّ حفظ بيته أولى، و أنّ اتفاقه مع عمّه أجمل، فسيّر القاضى بهاء الدّين- قاضى حلب- إلى عمّه إلى مصر برساله، تتضمن الموافقه: أنّه قد جعل ابنه الملك العزيز محمدا، ابن ابنه الملك العادل، ولىّ عهده، و طلب من الملك العادل أن يحلف له على ذلك، فسار إلى مصر، فرتّب السّلطان خيل البريد، تطالع بما يتجدّد من أخبار عمّه، لينظر فى أمره، فإن وقع منه ما يستشعر منه، خرج بنفسه إلى «كيكاوس»، و هو مع هذا كلّه فى همّه تجهيز الجيوش، و الإستعداد للخروج إلى «كيكاوس»، و الإجتماع معه على قصد بلد ابن «لاون» أولا، و كان «ابن لاون» قد ملك أنطاكيه، و ضاق ذرع السّلطان بمجاورته، لعلمه بانتمائه إلى عمّه.

فوصلت الأخبار من «القاضی» من مصر، أنّ الملک العادل أجاب الملک الظاهر إلی کل ما اقترحه، و سارع إلی تحصیل أغراضه، و لم یتوقّف فی أمر من الأمور.

و جعل کیکاوس یحث السّلطان علی الخروج، و یذکر أنه ینتظره، و نشب السلطان به، و ضاق صدره، و بقی مفکرا فی أنّ عمه قد وافقه، و لا یری الرّجوع عنه إلی ملک الروم، فیفسد ما بینه و بین عمّه، و یغضّ من قدره بالخروج إلیه و الإجتماع به إذا خرج، و أنه إن رجع عن ذلک فسد ما بینه و بین ملک الروم، و العسکر قد برز، و هو مهتمّ فی ذلک الأمر.

و طلب الإعتذار إلی ملک الروم بوجه یجمل، فلشدّه فکره، و ضیق صدره، هجم علیه مرض حادّ فی جمادی الآخره فی سنه ثلاث عشره و ستمائه.

و اعترته أمراض شتّی و ماشیرا(۱). و اشتدّ به الحال، و جمع مقدّمی البلد و أمراءه، و استحلفهم لابنه الملک العزیز محمد، ثم من بعده لابنه الملک الصالح أحمد، ثم من بعده لابن أخیه، و زوج ابنته: الملک المنصور محمّد بن الملک العزیز. و جعل الأمیر سیف الدّین بن علم الدّین مقدّم العسکر؛ و شهاب الدین طغرل الخادم والی القلعه، و متولّی الخزانه، و تربیه أولاده، و النظر فی مصالح الدّار و النساء.

و أنزل «بدر الدین ایدمر» والی قلعه حلب منها، و أقطعه زیاده علی ما کان فی یده من الأقطاع «قلعه نجم»، بذخائرها و عددها، و «زردنا»،

۱- مرض تظهر آثاره علی الوجه و الجلد.

مع تسع ضياع أخر من أمّهات الضياع. و حلف إخوه السلطان على ذلك.

و استشعر السلطان من أخيه الملك الظافر «خضر»- و كان مقيما «بالياروقيه»- فأقطعه «كفرسود»، و تقدّم إليه بالتوجّه إليها، فسار إليها، فسبقه الملك «الزّاهر»، فاستولى عليها، و على «البيره» و «حروص» و «المرزبان» و «نهر الجوز» و «الكرزين» و «العمق».

[وفاه الظاهر غازى]

و مات السّلطان الملك الظاهر- رحمه اللّه- بقلعه حلب، فى الخامس و العشرين، من جمادى الآخره من سنه ثلاث عشره و ستمائه، و كتم خبر موته ذلك اليوم، حتى دفن فى الحجره، إلى جنب الدّار الكبيره، التى أنشأها بقلعه حلب.

ثم أركب فى اليوم الثانى من موته ولداه: الملك العزيز، و الملك الصالح، و أنزلا بالثياب السّود إلى أسفل جسر القلعه، و صعد أكابر البلد إليهما.

و أصيب أهل حلب بمصيبه فتّت فى أعضادهم، و كان له- رحمه اللّه- فى كل دار بها مأتم و عزاء، و فى كل قليه(1) نكبه و بلاء:

و النّاس مأتمهم عليه واحدفى كلّ دار أنّه و زفير

و وصل «القاضى بهاء الدّين» من الرّساله، فى اليوم الثالث، و الوزير ابن أبى يعلى، قد استولى على التّدبير، و حكم على الصغير و الكبير، فصعد

١- تصغير قله، و هى أعلى مكان فى القلعه، أو أنها تصحيف« قبيله».

القلعه، و اجتمع «بشهاب الدّين طغرل»، و صرفه عن إضافه الأمور إلى الوزير.

و قرّر أن الأمراء يجتمعون، و يتشاورون فيما يدبّرونه، و أن لا يخرج الأمر عن رأى «شـهاب الدّين» أيضا، فاجتمعوا «بدار العدل»، و اتّفقت آراؤهم على أن يكون «الملـك المنصور بن العزيز» أتابـك العسـكر، و أمر الإقطاع إليه، و أمر المناصب الـدينيّه يكون راجعا إلى «شهاب الدين طغرل»؛ و حلّفوه على ذلك، و ركب، و الأمراء كلّهم فى خدمته.

[ولايه الملك العزيز]

و نزل الملـك العزيز، و الملـك الصالـح، و جلسا فى دار العـدل، و الملـك العزيز فى منصب أبيه، و أخوه إلى جانبه، و الملك المنصور، إلى جانبهما ثم اضطّربت الحال، و لم يرض إخوه «الملك الظّاهر»، بولايه المنصور.

و وصـل فى أثناء ذلك رسول الملك الرومى كيكاوس- و كان مخيّما بالقرب من البلاد ينتظر وصول السّـلطان «الملك الظّاهر» إليه- فسيّر رسولا معزّيا، و مشـيرا بالموافقه معه، و أن يكون «الملك الأفضل» أتابک العسكر، فانّه عمّ الملك العزيز، و هو أولى بتربيته و حفظ ملكه.

و مـال الأـمراء المصـريون مثل: «مبارز الـدّين يوسف بن خطلـخ»، و «مبارز الـدين سـنقر الحلبى»، و «ابن أبى ذكرى الكردى»، و غيرهم، إلى هـذا الرأى، و قـالوا: «أنّ هـذا ملـك كبير، و لاـ ينتظم حفظ الملك إلّا به، و إذا صار أمر حلب راجعا إليه كان قادرا على أخذ ثأره من عمّه، و أخذ الملك به».

و رأى القاضى «بهاء الدين»، و سيف الدّين بن علم الدّين و سيف الدين بن قلج، و غيرهما، غير ذلك، و قالوا: «إنّ هذا إذا فعل، كـان الملك العزيز على خطر من الجانبين، لأنّ الملك العادل ملك عظيم، و صاحب الـديار المصـريه، فاذا قبلنا ذلك خرج من أيـدينا، فـان كانت الغلبه له انتزع الملك من أيـدينا. «و إن كانت عليه فلا نأمن أنّ الملك الأفضل، يتغلّب على ابن أخيه و ينتزع الملك منه، و يستقلّ به، كما فعل الملك العادل بابن العزيز، و الملك العادل قد حلف للملك الظاهر، و لابنه الملك العزيز من بعـده، و هو ابن ابنته، و ابنته بقلعه حلب، و نحن نطالبه بالوفاء بالعهـد، و هو يـذبّ عن حلب كما يـذبّ عن غيرها من ممالكه، و أمور الخزائن و هى راجعه إلى شـهاب الـدّين طغرل، و هو متولّى القلعه، و الرأى أن يقع الإتّفاق عليه، فانّ المال عنـده بالقلعه، و هو فيها ينتصف ممّن خالفه، و قد وقع إعتماد الملك الظّاهر عليه».

فاتفق رأيهم كلهم عليه، و عملت نسـخه يمين، حلف بها جماعه الأمراء و المقـدّمين من أهل البلد، على الموالاه و الطاعه للمك العزيز، ثم من بعده لأخيه الملك الصّالح، و على الموالاه لأتابكه «شهاب الدّين طغرل»، و انقاد الجميع له طائعين و مكرهين.

و أبعد الوزير ابن أبى يعلى، و صرف، و اسـتقرّ الأمر على ذلك، فى أواخر شعبان، من السّنه، و سار ابن أبى يعلى عن حلب، فى شهر رمضان من السّنه، و استقلّ طغرل بترتيب البلاد و القلاع و تفريق الأموال و الأقطاع،

و لا يخرج فى ذلک كلّه، عن رأى القاضى بهاء الدين، و سيف الدّين بن علم الدّين، و سيف الدّين بن قلج.

و أقطع علم الدين قيصر «دربساک»، و ابن أمير التركمان «اللّاذقيه»، و سيّر علم الدّين إلى الملک الزّاهر، أولا يعاتبه على إستيلائه على البلاد، فاعتلقه، و قال: «أنا أحقّ بذلک، فإنّنى كنت ولىّ العهد لأخى، و قد حلف لى الناس». و طمع بملک حلب، ثم انقاد إلى الطّاعه و الخطبه، و شرط أن تبقى البلاد، التى استولى عليها بيده، فأجيب إلى بذلک.

و لما استقرّ أمر الأتابكيه لشهاب الدّين طغرل، كره ذلک جماعه من المماليک الظّاهريه، فعمد «عزّ الدين أيبک الجمدار» الظاهرى، و استضاف إليه جماعه من المماليک الظّاهريه، و الأجناد. و كاتب «الأسد أقطغان»،- و كان والى حارم- و اتفق معه على أن يأتى إليه، إلى «حارم» بالجماعه الذين وافقهم، و يفتح له القلعه، فإذا حصلوا بها انضم إليهم جماعه غيرهم، و كان لهم شأن حينئذ.

و كان العسكر المقيم «بحارم» قد أصعد إلى القلعه، و رتّب بها، و فيهم «المبارز أيوب بن المبارز أقجا»، فأحسّوا باختلال أمر «الأسد» الوالى»، و أنكروا عليه أشياء، فاستيقظوا لأنفسهم، و اتّفقوا على حفظ القلعه، و الإحتياط عليها.

و سار أيبک الجمدار إلى حارم، و وقف تحت القلعه، و رام الصّعود إليها، فمنعه الأجناد و الأمراء، الذين فى القلعه من ذلک، و لم يمكّنوا الوالى

من التحرّک فیها بحرکه، و احتاطوا علیه.

فسار أیبک إلی «دربساک»، و طمع أن یتمّ له فیها حیله أیضا، فلم یستتبّ له ذلک، و عصی «ألطنبغا» بقلعه بهسنی، و انضاف إلی ملک الرّوم «کیکاوس». و انتظم الأمر بعد ذلک، و سکنت الفتنه، فی أواخر شوّال من السّنه.

و نزل «الملک العادل» من مصر إلی الشّام، و أرسل إلی «أتابک» بما یطیّب نفسه، و سیّر خلعه للملک العزیز، و سنجقا، و حلف له علی ما أوجب السکون و الثقه.

و اتّفق خروج الفرنج من البحر، و تجمّعوا فی أرض عکّار، و أغاروا علی «الغور»، و اندفع «الملک العادل» بین أیدیهم، إلی «عجلون»، ثم إلی «حوران»، ثم نازل الفرنج «الطّور»، و زحفوا علیه، فکانت النّصره للمسلمین، و قتل منهم جمع کثیر، و انهزموا عنها، و هدمها الملک العادل.

و سار الفرنج إلی «دمیاط»، و نزلوا علیها، و بینها و بینهم «النّیل»، و الملک «الکامل» فی مقابلتهم، و استدعی الملک «العادل» ابنه «الملک الأشرف»، فسار فی عسکره إلی «حمص»، و دخل بلاد الفرنج، لیشغلهم عن محاصره «دمیاط» فدخل إلی «صافیتا»، فخربوا ربضها، و نهبوا رستاقها، و هدموا ما حولها من الحصون، و دخلوا إلی ربض «حصن الأکراد»، فنهبوه، و حاصروا القلعه، حتی أشرفت علی الأخذ، و الملک العادل مقیم فی «عالقین».

و دخلت سنه خمس عشره و ستمائه

اشاره

و تحرّك ملك الرّوم «كيكاوس»، و معه «الملك الأفضل»، طالبا أن يملك حلب، و يطمع «الأفضل» أن يأخذها له، ليرغب الأمراء فى تمليكه عليهم؛ و كاتب جماعه من الأمراء، و كتب لهم التواقيع، و من جمله من كاتبه «علم الدّين قيصر». و كتب له توقيعا «بأبلستان». و اغتنما شغل قلب «الملك العادل» بالفرنج، و وافقهما الملك الصّالح- صاحب آمد- و كان «كيكاوس»، يريد الملك لنفسه، و يجعل «الأفضل» ذريعه للتوصّل إليه، و كاتبه أمراء حلب الّذين كانوا يميلون إلى «الأفضل». فجمع العساكر.

و احتشد، و استصحب المناجيق، و سار فى شهر ربيع الأوّل، فنزل رعبان و حصرها، و فتحها.

فسيّر «الأتابك شهاب الدّين» «زين الدّين ابن الأستاذ» رسولا إلى «الملك العادل»، يستصرخه على «الرّومى»، و «الأفضل». فكتب إلى ولده «الملك الأشرف»، يأمره بالرّحيل إلى إنجاد حلب بالعساكر، و سيّر إليه خزانه، و جعل «الملك المجاهد»- صاحب حمص- فى مقابله الفرنج.

و سار «الملک الأشرف»، حتی نزل حلب «بالمیدان الأخضر» و خرج الأمراء إلی خدمته و استحلفهم، و خلع علیهم، و أتاه «مانع» أمیر العرب بجموعه المتوافره، و عاث العرب فی بلد حلب، «و الملک الأشرف» یداریهم لحاجته إلیهم.

و سار علم الدّین قیصر إلی ملک الرّوم من «دربساک»، و جاهر بالعصیان، و نزل «نجم الدین ألطنبعا» إلیه من «بهسنی». و تسلّم الرومیّ «المرزبان»، و سار إلی «تلّ باشر» و هی فی ید ولد «بدر الدین دلدرم»، فنازلها، و حصرها، و فتحها. و لم یعط الملک الأفضل شیئا من البلاد التی افتتحها. فتحقّق «الملک الأفضل» فساد نیته، و سار إلی منبج، ففتحها بتسلیم أهلها، و کان قد صار فی جملته رجل یقال له «الصّارم المنبجی»، و له اتباع بمنبج فتولّی له أمر «منبج» و شرع فی ترمیم سورها، و إصلاحه.

و سار «الملک الأشرف» نحوه من حلب إلی «وادی بزاعا» علی عزم لقائه، و جماعه من الأمراء المخامرین فی صحبته، فنزل فی وادی بزاعا، و سیّر «الرّومی» ألف فارس، هم نخبه عسکره، و مقدّمهم «سوباشی سیواس»، فوصلوا إلی «تلّ قبّاسین» فوقع علیهم العرب، و احتووا علیهم، و علی سوادهم. و رکب «الملک الأشرف»، فوصل إلیهم، و قد استباحوهم قتلا و أسرا، و سیّروا الأسری إلی حلب، و دخلوا بهم و البشائر تضرب بین یدیهم، و أودعوا السّجن.

و لما سمع «کیکاوس» ذلک، سار عن منبج هاربا، و رحل «الملک

الأشـرف» من منزلته، و اتبعه يتخطّف أطراف عسـكره، حتى وصل إلى «تل باشـر»، فنزل عليها، و حاصرها حتى افتتحها، و سلّمها إلى نوّاب الملك العزيز، و قال: «هذه كانت، أولا، للملك الظّاهر- رحمه اللّه- و كان يؤثر ارتجاعها إليه، و أنا أردّها إلى ولده». و ذلك فى جمادى الأولى، من سـنه خمس عشـره و سـتمائه. ثم أنه ملّكها للأتابك شـهاب الدين طغرل، فى سـنه ثمان عشره و ستمائه، بجميع قراها.

ثم سـار «الملـك الأشـرف» إلى «رعبـان» و «تـلّ خالـد» فافتتحهمـا و افتتـح «برج الرّصـاص»، و أعطى الجميع «الملك العزيز»، و أقطعت «رعبان» لسيف الدين بن قلج. و عاد منكفئا إلى حلب، و نزل على «بانقوسا».

[وفاه الملك العادل]

و كـان الخبر قـد ورد بموت «الملـک العادل»- رحمه اللّه- و كان مرض على «عالقين»، فرحل إلى دمشق، فمات فى الطريق، فى جمادى الآخره من سـنه خمس عشـره. فكتب الأتابک شـهاب الـدّين بـذلک إلى الأمراء، و «الملک الأشـرف» قـد قارب «مدينه حلب»، فأعلموه بذلک، فجلس فى خيمته للعزاء، و خرج أكابر البلد و الأمراء إلى خدمته، و أنشده الشعراء مراثى الملک العادل، و تكلّم الوعّاظ بين يديه.

و لما انفصل العزاء، سيّر «الأتابک شـهاب الدّين» إلى «الملک الأشـرف»، و تحدّث معه فى أن يكون هو السّـلطان موضع أبيه، و أن يخطب له فى البلاد، و تضرب السكّه باسمه، و أن تكون العساكر الحلبيّه فى خدمته. فقال: «لا و اللّه لا أغيّر قاعده قرّرها أبى، بل يكون السّلطان أخى

«الملک الکامل»، و یکون قائما مقام أبی»، فاتّفق الحال بین «أتابک» و بینه، برأی القاضی «بهاء الـدّین»، و سیف الدّین بن علم الـدّین، و سیف الـدّین بن قلج، علی أن خطب بحلب و أعمالها «للملک الکامل»، و بعده للملک الأشرف، ثم للملک العزیز، و ضرب اسم «الملک الکامل»، و الملک العزیز، علی السکّه. و جعل أمر الأجناد و الأقطاع فی عسکر حلب إلی «الملک الأشرف»، و أخلیت له دار «الملک الظافر» «بالیاروقیه»، فنزل فیها، و رتب له برسم المعونه، من أعمال حلب «سرمین» و «بزاعا» و «الجبّول»، و وصلت إلیه رسل البلاد، من جمیع الجهات، و مالوا إلیه، و صاروا أتباعا له، و أمر و نهی ببلد حلب، فی الأجناد و الأقطاع لا غیر، و تردّد أکابر الحلبیّین إلی خدمته، و خلع علیهم، و انقضی فضل الشتاء.

و دخلت سنه ست عشره و ستمائه

فأقطع الأقطاع لأجناد حلب، و رتّب أمور أمرائها، و لا يفعل شيئا من ذلك إلّا بمراجعه «الأتابک شهاب الدّين»، و بدا من الأمراء المصريين تحرّك فی أمره، و كرهوا أمره و نهيه فی حلب، و خافوا من استيلائه عليها، و انتقامه منهم لميلهم إلى «الملك الأفضل». و بلغه عنهم أشياء عزموا عليها، و هو ثابت لذلک كله.

و وصلته رسل أخيه «الملک الكامل»، يطلب منه النجده إلى «دمياط». و كان «ابن المشطوب» قد أراد الوثوب عليه و تمليك «الفائز» أخيه، فأخرجه من الديار المصريّه، بعد أن رحل من منزلته، التی كان بها فی قباله الفرنج، و عبور الفرنج إليها، و نهب الخيم و منازله «دمياط»، و قطعهم الماده عنها، فاتفق رأی «الملک الأشرف» على تسيير الأمراء، الذين كانوا يضمرون له الغدر، فسيّرهم نجده إلى أخيه، و هم المبارزان: «ابن خطلخ» و «سنقر» الحلبيّان، و ابن كهدان، و غيرهم، و خاف ابن خطلخ منه، فاستحلفه على أن لا يؤذيه، فحلف له، و سيّرهم إلى أخيه «الملک الكامل»، فأقاموا عنده بالكليه.

[وفاه نور الدين الثانى صاحب الموصل]

و توفّى نور الـدّين- صاحب الموصل- فى هـذه السـنه. و ترك ابنا صـغيرا قام «بـدر الـدين لؤلؤ»، مملوك جدّه بتربيته. و خطب للكامل و الأشرف.

و قـام زنكى بن عز الـدين، فأخـذ «العمـاديه»- و هى قلعه حصـينه فيهـا أموال الموصـل- بمواطـأه من أجنادهـا، و عزم على أخذ الموصـل، و قال: «أنا أولى بكفاله ابن أخى». و ساعـده «مظفّر الـدّين» صاحب «إربل» على ذلك، فسيّر لؤلؤ رسولا إلى «الملك الأشرف» إلى حلب، يطلب إنجاده، فسيّر إليه عزّ الدّين أيبك الأشرفى.

و كان عماد الـدّين بن سـيف الـدّين على المشـطوب، لما نفى من الديار المصـريّه، قد وصل إلى «حماه»، و أقام عند صاحبها، و كاتب «الملك الأفضل»، و جمع جموعا كثيره من الأكراد، و أرباب الفساد، و ساعـده الملك المنصور- صاحب حماه- بالمال و الرجـال على ذلـك و عزم على أن يمضـى، بمن جمعه من العسـاكر إلى الأفضـل، و أن يقـوم معه، و يساعـده صـاحب حمـاه، و سلطان الرّوم. ثم سار ابن المشطوب، بغته، و خاض بلد حلب، و كان الزمن زمن الربيع، و خيول الأجناد متفرّقه فى الربيع، فوصل إلى «قنّسرين» و نفذ منها إلى «تلّ أعرن»(1)، و بلغ «الساجور»، و استاق فى طريقه ما وجد من الخيل، و غيره.

۱- كـان يعرف أيضـا بـاسم تـل عرن، و هو ما يزال يحمل الاسم نفسه، و هو قريه فى جبل الأحص تتبع منطقه السـفيره- محافظه حلب، و تبعد القريه ۵ كم عن السفيره، يتوسطها تل كبير، هو تل عرن. المعجم الجغرافى للقطر العربى السورى.

و بلغ خبره إلى الملك الأشرف، فأركب من كان بحضرته من العساكر، خلفه، و كان فيهم ابن عماد الدّين صاحب «قرقيسيا»، فلحقوه على «السّاجور»، و فى صحبته «نجم الدّين بن أبى عصرون»، فقبضوا عليه و أتوا به إلى «الملك الأشرف»، فعفا عنه، و «عن ابن أبى عصرون»، و أقطع ابن المشطوب «رأس عين» و أقام عنده مخيّما «بالياروقيّه»، إلى أن دخل شعبان، من السنه المذكوره. و سار «الملك الأشرف»، إلى بلاده الشرقيّه، لا صلاح أمر الموصل، و كان صاحب إربل و زنكى، قد كسرا «لؤلؤ» و «أيبك الأشرفى»، على الموصل. فنزل الملك الأشرف على حرّان، و فى صحبته عسكر حلب.

[وفاه كيكاوس ملك السلاجقه الروم]

و مات «كيكاوس»، ملك الروم، و ملك بعده أخوه كيقباذ، فراسل الملك الأشرف، و اتفق معه. و خربت القدس فى أوائل هذه السنه.

و خرج إلى الفرنج المنازلين «دمياط» نجده من البحر، و وقع الوباء فى أهل «دمياط»، و ضعفوا عن حفظها، فهجمها الفرنج على غفله من أهلها، فى عاشر شهر رمضان، و الملك الكامل، مرابط حولها بالعساكر، و ابتنى مدينه سماها «المنصوره»، أقام فيها فى مقابله الفرنج.

و دخلت سنه سبع عشره و ستمائه

و الملك الأشرف فى «حرّان»، و «ابن المشطوب» فى اقطاعه «رأس عين»، و قد داخل صاحب «ماردين»؛ و قرّر الأمر معه على العصيان على «الملك الأشرف»، و جمع جماعه من الأكراد، فنمى الخبر إلى الملك الأشرف، و خاف «ابن المشطوب»، فسار إلى سنجار، فاعترضه والى «نصيبين»، من جهه الملك الأشرف، و قاتله فهزمه، و استباح عسكره، و سار إلى سنجار، فأجاره قطب الدّين صاحبها. و أرسل «الملك الأشرف» اليه، فى طلبه، فلم يجبه إلى ذلك، فسار الملك الأشرف نحوه، فترك «سنجار»، و مضى إلى «تلعفر»، فعصى بها، فوصل إليه «ابن صبره» و عسكر الموصل. و وصل «الملك الأشرف» إلى «سنجار»، و فتحها، و عوّض صاحبها «بالرّقه» عنها، و فتح لؤلؤ «تلعفر»، و سلّمها إلى «الملك الأشرف»، و استجار «ابن المشطوب» بلؤلؤ، فأجاره على حكم الملك الأشرف، فيه، و سلّمه إلى الملك الأشرف، فقيّده، و سجنه بسنجار.

و سار الملك الأشرف إلى الموصل، و معه عسكر حلب، فأقام مخيّما

على ظاهرها، حتى أصلح أمرها مع صاحب «إربل»، و هادنه.

و وصل الملك «الفائز»، من الديار المصريّه، مستصرخا، و طالبا للنجد، و وصل إلى حلب، و أنزل «بالميدان الأخضر»، و سار إلى الموصل، إلى أخيه «الملك الأشرف»، فأقام عنده، بظاهر الموصل، شهرا و مات.

و انفصل الملك الأشرف عن الموصل، بعد إصلاح أمورها، و شتّى «بسنجار»، و قبض على «حسام الدين بن خشترين»- و كان أميرا من أمراء حلب- لغدر بلغه عنه، و قيّده، و سيّره، و ابن المشطوب إلى قلعه «حرّان»، فحبسهما فيها إلى أن ماتا. و قبض على ابن عماد الدّين- صاحب «قرقيسيا»- و أخذها، «و عانه» و البلاد التى كانت معه من يده، و قدم حرّان، فوصل إليه أخوه «الملك المعظّم» فى محرّم سنه ثمان عشره من دمشق، فوافقه على الصعود إلى الديار المصريّه، لا زاحه الفرنج عنها، فجهّز العساكر، و استدعى عسكر حلب، و عبر الفرات، و التقى بعسكر حلب.

و سار إلى دمياط، مع أخيه «الملك المعظّم»، و خرج الفرنج عن «دمياط»، و نزلوا فى مقابله المسلمين، فأرسلوا الماء عليهم، فمنعهم من العود إلى «دمياط»، و لم يبق لهم طريق اليها؛ و زحف المسلمون عليهم، و استداروا حولهم، فطلبوا الأمان و تسليم «دمياط» فتسلّمها المسلمون فى العشرين من شهر رجب سنه ثمان عشره و ستمائه.

و كان الملك المنصور- صاحب حماه- قد توفّى فى ذى القعده، سنه

سبع عشره و ستمائه. و كان ابنه الكبير «الملک المظفر»، فی نجده خاله بدمياط، فاستولى ابنه الملک الناصر، على حماه، و سيّر إلى الأتابک شهاب الدين، يطلب الاعتضاد به، و السفاره بينه و بين خاله «الملک الأشرف»، على أن ينتمی إليه، و يخطب له، على أن يمنع عنه من يقصده، و روسل فی ذلک، فأجاب، و حلف له على ذلک.

و نزل «الملک الأشرف» من الدّيار المصريه، و وصل إلى بلاده، و سيّر كتابا إلى الأتابک شهاب الدّين، يتضمّن أنّه: «لما وقع الاتفاق فی الابتداء، و عرض علیّ «الجبول» و «بزاعا» و «سرمين»، أجبت إلى ذلک، ليعلم المخالف و العدوّ، أن البلاد قد صارت واحده، و الكلمه متّفقه، و الآن فقد تحقّق الناس كلّهم ذلک، و أوثر الآن التقدّم إلى نوّاب المولى «الملک العزيز» فی قبضها، و اجرائها على العاده، و صرفها فی مصالح بلاده فأجبت إلى ذلک». و رفع «الملک الأشرف» أيدی نوابه عنها.

و دخلت سنه تسع عشره و ستمائه

توجّه «الملک الصّالح» ابن «الملک الظّاهر» إلى «الشّغر» و «بکاس»، و أضیف الیه «الروج» و «معره مصرین». و رتّب جماعه من الحجّاب و الممالیک فی خدمته، و ذلک فی جمادی الأولی.

و فی ذی الحجه- من سنه تسع عشره و ستمائه- خرج الملک [الناصر] صاحب حماه إلى الصیّد، فبلغ ذلک «الملک المعظّم عیسی»، صاحب دمشق، فخرج مجدّا من دمشق، لیسبق صاحبها إلیها فیملکها، فانتهى الخبر إلى «الناصر»، فسبق الیها. و وصل الملک المعظّم إلى حماه، فوجد الملک الناصر قد وصلها، و فاته ما أراد، فسار إلى «معرّه النّعمان»، و احتوى على مغّلاتها، و سیّر أتابک شهاب الدّین إلیه، تقدمه مع مظفّر الدین بن جردیک، إلى المعرّه، فقبلها، و اعتذر بأنّه إنما جاء لکتاب وصله من «الملک الکامل»، یأمره أن یقبض على خادم هرب منه، و أنّه خرج خلفه لیدرکه، فلما قرب من «حماه»، بدا من صاحبها من الامتهان، و عدم النزل و الاقامه ما لا یلیق. و تجنّى علیه ذنوبا لا أصل لها، و الملک الکامل، و الملک الأشرف، حینئذ بمصر.

و دخلت سنه عشرين و ستمائه

فرحل «الملک المعظم» إلى «سلميه»، بعد أن رتّب «بالمعرّه» واليا، و رتّب «لسلميه» واليا من قبله، و عزم على حصار «حماه»، و استعدّ صاحبها للحصار، و وكّل الملک المعظّم العرب، لقطع الميره عن حماه، و منع من يقصدها من الأجناد للانجاد، و حوّل طريق القافله على سلميه.

و أرجف الناس بأن حسام الدين ابن أمير تركمان، قد وافق الملک المعظّم، و أنه قد صاهر صاحب «صهيون»، و كان سيف الدين بن قلج، هو الذى أشار بترتيبه فى اللاذقيه و ضمنه، فسار إليه، فلم يمتنع من تسليمها و لم يكن لما ذكر عنه صحّه؛ فترک سيف الدين بن قلج بها أخاه عماد الدين، و استصحب حسام الدين، معه إلى حلب. فأقام إلى أن زال الاستشعار من جهه «الملک المعظم»، و ردّت إليه.

و وصل حسام الدّين الحاجب على- نائب الملک الأشرف فى بلاده إلى حلب- و اجتمع بأتابک شهاب الدّين، و أعلمه أنّ الملک الأشرف، كتب إليه أن يرحل إلى «الملک المعظّم»، و يرحّله عن بلاد «الناصر»، و يعلم

«أتابک» أن هذا الّذى وقع، لم يكن بعلم «الملک الکامل»، و لا- «الملک الأشرف»، و انّهما لا- يوافقانه على ذلک، و سار الحاجب إليه فى هذا المعنى.

و وصل «الناصح أبو المعالى الفارسى»- أحد أمراء حلب- برساله «الملک الکامل» من مصر، و کان قد صعد إليها إلى خدمته «الملک الأشرف»، و کان هو الحاجب بين يديه إذ ذاک، و الأمور کلّها راجعه اليه، فقال له الناصح: «الملک الکامل يأمر المولى بالرّحيل، و ترک الخلاف»، فأجاب إلى ذلک، و قرّر الصلح بين صاحب حماه و بينه، و رحل إلى دمشق، و عاد الناصح إلى مصر.

و نقل السلطان الملک الظّاهر، من الحجره التى دفن بها بالقلعه، إلى القبه، بالمدرسه التى ابتناها له أتابک، و دفنه بها فى أول شعبان من سنه عشرين و ستمائه.

و نزل الملک الأشرف من مصر، و وصل إلى حلب فى شوال من سنه عشرين، و التقاه «الملک العزيز»، و نزل فى خيمته، قبلّى «المقام» و شرقيّه، بالقرب من «قرنبيا»، و کان قد صحبه خلعه للملک العزيز من «الملک الکامل»، و سنجق، و خرج «الملک العزيز»، و أهل البلد، فى خدمته، بعد ذلک، و دخل الناس إلى الخيمه، فى خدمه السلطان الملک العزيز، و مدّ «الملک الأشرف» السّماط، فى ذلک اليوم للناس، فلما أکلوا، و خرج الناس من الخيمه، أحضر «الخلع الکامليه»، و أفاضها على الملک العزيز.

و وقف قائما فى خدمته. ثم أحضر المرکوب فأرکبه. و حمل الغاشيه بين

يديه، حتى خرج من الخيمه، و ركب إلى القلعه.

و أقام «الملك الأشرف»، مقدار عشره أيام، و اتفق رأيه مع الأمراء على اخراب قلعه «الّلاذقيه»، فسار العسكر إليها، و خرّبوها فى هذه السّنه.

و توجّه الملك الأشرف إلى حرّان، و عصى الملك المظفّر «شهاب الدين غازى» أخوه، عليه «باخلاط»، و كان أخوه «الملك المعظّم»، هو الذى حمله على ذلك، و حسّنه له، لأجل ما سبق من «الملك الأشرف»، فى نصره صاحب حماه. فاستدعى «الملك الأشرف» عسكرا من حلب، فسار إليه عسكر قوىّ فيهم: سيف الدّين بن قلج، و علم الدين قيصر، و حسام الدين بلدق، فى سنه إحدى و عشرين و ستمائه، و سار إلى «اخلاط»، و اتّفق «مظفّر الدين»- صاحب إربل- و الملك المعظّم صاحب دمشق، على أن يخرج هذا إلى جهه «الموصل»، و هذا إلى جهه «حمص»، ليشغلا «الملك الأشرف» عن اخلاط، فسيّر «الملك الأشرف»، و طلب طائفه من عسكر حلب ليقيم بسنجار، خوفا من أن يغتالها صاحب «إربل». و خرج «الملك المعظّم»، و أغار على بلد حمص، وبارين، و وصل إلى «بحيره قدس»، و عاد.

و وصل الملك الأشرف إلى «اخلاط»، فخرج أخوه، و قاتله، فهزمه إلى «اخلاط»، و فتحها أهلها للملك الأشرف. و احتمى الملك «المظفّر» بالقلعه، حتى عفا عنه أخوه الملك الأشرف، و خرج إليه، و أبقى عليه

«ميّافارقين»، و عاد عسكر حلب و الملك الأشرف، فى رمضان، و شتّى الملك الأشرف بسنجار.

و انهـدم فى هـذه السّـنه من سور قلعه حلب الأبراج التى تلى «باب الجبل»، من حـدّ المركز، و هى عشـره أبراج، و تساقطعت مع أبـدانها، فى سـلخ ذى القعده. و وافق ذلك شدّه البرد فى الأربعينيات، فاهتم «أتابک شـهاب الدّين» بعمارتها، و تحصـيل آلاتها، من غير أن يستعين فيها بمعاونه أحد، و لازمها بنفسه، حتى أتّمها فى سنه اثنتين و عشرين و ستمائه.

و مات الملك الأفضل، «بسميساط»، فى هذه السنه فى صفر، و حمل إلى حلب، فدفن فى التربه، التى دفن فيها أمّه قبليّ «المقام».

و دخلت سنه ثلاث و عشرين و ستمائه

اشاره

و وصل «محيى الدّين أبو المظفر ابن الجوزى»، إلى حلب بخلعه من «الامام الظّاهر»، إلى «الملك العزيز»، و كان قد تولّى الخلافه، في سنه اثنتين و عشرين، بعد موت أبيه «الإمام النّاصر»، فألبسها السلطان «الملك العزيز»، و ركب بها، و كانت خلعه ستّيه، واسعه الكمّ، سودآء، بعمامه سوداء، و هى مذهبّه، و الثوب بالزركش. و كان قد أحضر إلى «الملك الأشرف» خلعه، ألبسه أياها، و سار بخلعه أخرى إلى «الملك المعظّم»، و خلعه أخرى، إلى «الملك الكامل».

و كاتب «الملك المعظّم» خوارزمشاه، و أطمعه فى بلاد أخيه «الملك الأشرف»، و نزل الملك المعظّم من دمشق، و نازل حمص، و كان سيّر جماعه من الأعراب، فنهبوا قراها؛ و وصل «مانع»، فى جموع العرب لانجاد حمص، من جهه الملك الأشرف، فانتهبوا قرى «المعرّه» و «حماه»، و قسموا البيادر، و لم يؤدوا عدادا(1)، فى هذه السنه، لأحد.

1- ضريبه على رؤوس المواشى عرفتها بلاد الشام حتى وقت قريب.

و لما وصل «الملک المعظّم» إلى حمص، اندفع «مانع» و عرب حلب، و الجزيره، إلى قنّسرين، ثم نزلوا قراحصار، ثم تركوا أظعانهم، بمرج دابق، و ساروا جريده إلى نحو حمص، فتواقع «مانع» و عرب دمشق، وقعات، و جرّد عسكر من حلب إلى حمص، فوصلوا إليها، قبل أن ينازلها الملک المعظّم، فحين وصلوها اتّفق وصول عسكر دمشق، فاقتتلوا، ثم دخلوا إلى مدينه حمص.

و كان «الملک الأشرف» على «الرّقه» فجاءه الخبر بحركه «كيقباذ»، و خروجه إلى بلاد صاحب «آمد»، و أخذه «حصن منصور»، و «الكختا»(١)، فسيّر «الملک الأشرف» نجده إلى آمد، فالتقاهم جيش «الرّومى»، و هزمهم، فعاد الملک الأشرف إلى «حرّان»، و خرج من بقى من عسكر حلب إلى حاضر «قنسرين» لانجاد صاحب حمص.

و وقع الفناء فى عسكر «الملک المعظّم»، و ماتت دوابّهم، و كثر المرض فى رجالهم، فرحل عن حمص، فى شهر رمضان من السّنه. و سار «الملک الأشرف»، عند ذلک بنفسه إلى دمشق، و اجتمع بأخيه «الملک المعظّم» قطعا لمادّه شرّه، و زيّنت دمشق لقدوم الملک الأشرف، و عقدت بها القباب، و أظهر الملک المعظّم السّرور بقدومه، و حكّمه فى ماله؛ و باطنه ليس كظاهره، و رسله تتردّد إلى «خوارزمشاه» فى الباطن، و جاءته خلعه من «خوارزمشاه» فلبسها.

١- حصن على أربعين ميلا من ملطيه، فى الجنوب الشرقى منها.

و كانا لما انقضى شهر رمضان، قد خرجا عن دمشق، إلى «المرج»، و ورد عليهما رسولا حلب: القاضى زين الدّين ابن الاستاذ نائب القاضى بهاء الدّين، و مظفّر الدّين بن جورديک، يطلبان تجديد الأيمان «للملک العزيز»، و «أتابک». فوجد «الملک الأشرف»، و قد أصبح مع «الملک المعظّم»، بمنزله التبع له، و يطلب مداراته بكلّ طريق، و هو لا يتجاسر أن ينفرد بهما فى حديث، دون الملک المعظّم، و «الملک المعظّم» يشترط شروطا كثيره، و المراجعات بينهما و بين أتابک إلى حلب مستمره مده شهرين. إلى أن وردت الأخبار بنزول «خوارزمشاه» على «اخلاط»، و محاصرتها، و فيها «الحاجب علىّ»- نائب الملک الأشرف- فهجم بعض عسكره اخلاط، و قام من بها من أهلها و جندها، و أخرجوهم منها، كرها. فوافق الملک الأشرف أخاه، على ما طلبه منه، و استدعى رسولى حلب، و حلفا لهما، و رحل خوارزمشاه عن «خلاط».

و شتّى الملک المعظّم، و الملک الأشرف «بالغور»، و اضحى «الملک الأشرف» كالأسير فى يدى أخيه «الملک المعظّم»، لا يتجاسر على أن يخالفه فى أمر من الأمور، و هو يتلوّن معه، و كلّما أجابه «الملک الأشرف» إلى قضيه، رجع عنها إلى غيرها، و أقام عنده، إلى أن دخلت سنه أربع و عشرين و ستمائه.

و انقطعت مراسله الملک الأشرف إلى حلب، لكثره عيون أخيه عليه، و كونه لا يأمن من جهته من أمر يكرهه، لانه أصبح فى قبضته، و اتّفق وصولى من الحجّ، فى صفر من هذه السنه، فاستدعانى «الملک الأشرف»،

و حمّلنی رساله إلی أتابک شهاب الدّین، مضمونها ما قد وقع فیه مع أخیه.

«و أنه یتلوّن معه، تلوّن الحرباء، و لا- یثبت علی أمر من الأمور، و إنّ آخر ما قد وقع بینی و بینه، أنه التمس منی أن یحلف له أتابک علی مساعدته و معاضدته، و أن لا یوافق الملک الکامل علیه، و أنّه متی قصده الملک الکامل، کان عونا له علی الملک الکامل». فلما أبلغت «أتابک» ما قال، امتنع من الموافقه علی ذلک، و قال: «أنا حلّفنی الملک الأشرف للملک الکامل، و فی جمله یمینه: أننی لا- أهادن أحدا من الملوک علی قضیّه إلّا بأمره، فاذا أراد هذا منی فلیأتنی بأمر من الملک الکامل، حتی أساعده علی ذلک».

و حین رأی «الملک الأشرف» و قوعه فی أنشوطه أخیه، و أن لا مخلص له إلّا بما یریده، ساعده علی کلّ ما طلبه منه، و استحلفه علی الملک الکامل، و صاحبی حماه و حمص، فاطمأن الملک المعظّم إلی ذلک، و مکّن الملک الأشرف من الرحیل، فسار إلی «الرّقه»، فی جمادی الآخره من السنه، فرجع «الملک الأشرف» عن جمیع ما قرّره مع أخیه، و تأوّل فی أیمانه التی حلفها، بأنه کان مکرها علیها، و أنه علم أنه لا ینجیه من یدی أخیه إلّا موافقته فیما طلب، و ندم «الملک المعظّم» علی تمکینه من الانفصال عنه، و سیّر العربان إلی بلد حمص و حماه، فعاثوا فیهما، و نهبوا.

و خرج عسکر الأنبرور- ملک الفرنج- إلی عکا، فی جموع عظیمه، فطمع صاحب حماه، و صاحب حمص فی «الملک المعظّم» حینئذ، و أرسلا إلیه یطلبان العوض عما أخذه من بلادهما، فلاطف حینئذ أخاه «الملک

الأشرف»، و أرسل إليه يطلب موافقته، فعنّفه على أفعاله التى عامله بها، و قرّعه على ما اعتمد فى حقّه و حقّ أهله. و مرض «الملك المعظّم» بدمشق و مات سلخ ذى القعده. و ملك دمشق بعده «الملك الناصر» ولده.

و فى هذه السّنه، سلّمت عين تاب، و الراوندان، و الزّوب، إلى «الملك الصالح» ابن الملك الظاهر، و أخذ منه «الشغر» و «بكاس»، و ما كان فى يده معها.

و دخل الحاجب، فى هذه السنه، و جمع من قدر عليه من العساكر، إلى بلد أذربيجان، و افتتح «خوى»، و «سلماس»، و أخذ زوجه أزبك و كانت فى خوى- و هى التى سلّمت خوى إليه، و كانت قد تزوجت بخوارزمشاه.

و خرج الملك الكامل من مصر حين سمع بموت أخيه. و سيّر الملك الناصر، إلى عمّه الملك الأشرف، يعتضد به، و يستمسك بذيله، مع ابن موسك. فوصل إليه إلى سنجار، و طلبه ليأتى إلى دمشق، فسار إليه إلى دمشق، و نزل «الملك الكامل»، فخيّم بتلّ العجول فى مقابله الفرنج، و سيّر الملك الأشرف إليه، «سيف الدّين بن قلج» يطلب منه ابقاء دمشق على ابن أخيه، و يقول له: «إننا كلنا فى طاعتك، و لم نخرج عن موافقتك». فخاطبه بما أطمع الملك الأشرف فى دمشق.

و أما الملك العزيز، فانّه فى هذه السنه، جلس فى «دار العدل» فى منصب أبيه، و رفعت إليه الشكاوى، فأجاب عنها، و أمر و نهى، و كان

يحضر عنده الفقهاء، فى ليالى الجمع ليلا، و يتكلمون فى المسأله بين يديه، و حضر عيد الفطر، فخلع على كافه الأمراء، و مقدّمى البلد، و أرباب المناصب، و عمل عيدا عظيما، احتفل فيه، و لم يعمل بحلب عيد، منذ مات «الملك الظّاهر»، قبل هذه السّنه.

و وصل «الأنبرور» إلى عكا، و خيّم الملك الكامل «بالعوجا». و توجّه الملك الأشرف، إليه من دمشق، فجدّد الأيمان فيما بينهما، و سارت النجده من حلب، فى آخر المحرم سنه ستّ و عشرين و ستمائه، فنزلت فى «الغور».

[تسليم الكامل القدس للفرنجه]

و صالح «الملك الكامل» الفرنج على أن أعطاهم مدينه «القدس» سوى الصخره و المسجد الأقصى- و ليس لهم فى ظاهرها حكم، و أعطاهم «بيت لحم»، و ضياعا فى طريقهم إلى القدس، من عكا.

و عاد الملك الأشرف، و اجتمع بعسكر حلب، و بالملك الناصر ابن الملك المعظم، فقال له: «إنّنى قد اجتهدت فى أمرك بالملك الكامل، فلم يرجع عن قصد دمشق، و كان آخر ما انتهى اليه أن قال: يعطى الملك الناصر البلاد الشرقيه، و تأخذ أنت دمشق»، فعلم الملك الناصر، أنّهما قد توافقا على أخذ دمشق، و كان أيبك المعظّمى معه، فأشار عليه بالرحيل إلى دمشق، فقوّض خيامه، و سار، و لم يمكن الملك الأشرف منعه، و مضى إلى دمشق، و شرع فى تحصينها، فسار الملك الأشرف بجيوش حلب، و نزل على دمشق، و قطع عنها الماء، فخرج عسكر دمشق، و قاتلوا أشدّ القتال، حتّى أعادوا الماء اليها، و وصل الملك الكامل، فى جمادى الأولى، بالعساكر المصريّه، و خيّموا جميعا على دمشق.

و سار القاضى بهاء الدين، و فى صحبته أكابر حلب و عدولها إلى دمشق، لعقد المصاهره بين «الملك العزيز» و «الملك الكامل». و وصل إلى ظاهر دمشق من ناحيه «ضمير»، و خرج الملك الكامل من المخيّم، و التقاه، و أنزله فى المخيم، بالقرب من «مشهد القدم». و أحضره إلى خيمته، و قدّم ما كان وصل على يده، للملك الكامل. ثم نقله بعد ذلك إلى جوسق الملك العزيز «بالمزّه»، و كان يتردّد إليه «الملك الكامل»، فى بعض الأوقات، إلى أن اتّفق الأمر، على أن حمل الذّهب الواصل، لتقدمه المهر، و الجوارى، و الخدم، و الدراهم، و المتاع، و عقد العقد بحضور الملك الأشرف، فى «مسجد خاتون»، و تولّى عقد النكاح «عماد الدّين ابن شيخ الشيوخ» عن الملك الكامل. لابنته «فاطمه خاتون»، على صداق، مبلغه خمسون ألف دينار. و قبل القاضى «بهاء الدّين» العقد عن الملك العزيز، و ذلك فى سحره يوم الأحد سادس عشر شهر رجب، و خلع «الملك الكامل» على القاضى، و على جميع أصحابه، و على الحاجى بشر أمير لالا الملك العزيز، بعد أن فتحت دمشق. و عاد القاضى و من كان فى صحبته إلى حلب.

و استقرّ أن يأخذ الملك الكامل من الملك الأشرف، عوضا عن دمشق: حرّان، و الرّها، و الرّقه، و سروج، و رأس عين، و سار الملك الأشرف إلى بعلبك، فحصرها إلى أن أخذها من صاحبها.

و سار العسكر إلى حماه، بأمر الملك الكامل، فحصرها ليسلّمها

صاحبها إلى الملک «المظفّر ابن الملک المنصور»، فنزل إليه صاحبها الملک الناصر- و کان نازلا بمجمع المروج- فحبسه عنده إلى أن سلّمها إلى أخيه، و أعطاه «بارين». و سار الملک الکامل إلى الرقه.

[ظهور الخوارزميه]

اشاره

و نزل خوارزمشاه على «أخلاط»، و وافقه ابن زين الدين، فى الباطن، و صاحب آمد فى الظاهر، و خطب له، و ضاق الأمر بأهل «أخلاط»، فطلبوا الأمان فلم يجبهم إلى ذلک، و افتتحها فى ثامن و عشرين من جمادى الأولى، من سنه سبع و عشرين و ستمائه، و وضع السيف فى أهلها، و سبى النّساء و الصبيان.

و فى ثامن جمادى الأولى، ولد للسلطان «الملک العزيز»، مولود من جاريه، و سمّاه باسم أبيه، و لقّبه بلقبه «الملک الظاهر غازى»، و زيّن المدينه، و عقد القباب، و لبس العسکر فى أتمّ زينه و هيئه، و عمل الزّورق من القلعه إلى المدينه؛ و نزل الناس فيه، و انقطعت بکره برجل منهم، فوقع فى سفح القلعه، فمات، فبطل الملک العزيز الزروق.

و ولد له أيضا فى هذه السنه، ولد آخر لقّبه «بالملک العادل». و ولد له أيضا فى هذه السنه، «السلطان الملک الناصر» و هو الذى أوصى له بالملک، بعد أن مات الولدان المتقدمان.

و اتفق الملک الکامل، و الملک الأشرف، و ملک الرّوم کيقباذ، على خوارزمشاه. و طلب الملک الأشرف نجده من حلب، فسيّر الملک العزيز و أتابک، عسکرا يقدمه «عزّ الدين بن مجلى»، فدخل الملک الأشرف،

و اجتمع بملك الروم؛ و سار إلى ناحيه «أرزنكان»، و اصطفّت العساكر للقتال، فكسر الخوارزمى فى التاسع و العشرين من شهر رمضان، و هبّت ريح عاصفه فى وجه عساكره، و انهزموا، و صادفوا شقيفا، فى طريقهم، فوقع فيه أكثر الخوارزميه فهلكوا، و صار «الملك الأشرف» إلى «اخلاط» فاستعادها، و هادن الخوارزمى.

و دخلت سنه ثمان و عشرين و ستمائه

و كـان للفرنـج حركه، و خرج عسـكر حلب مع بـدر الـدين بن الوالى، و أغـاروا على نـاحيه «المرقب»، و نهبوا حصن بانيـاس، و خربـوه، و سيّروا أسـرى حلـب، ثـم تواقع المسـلمون و الفرنـج وقعـه أخرى، قتـل من الفريقين فيهـا جمـاعه، و كـان الربـح فيها للمسلمين، و سيّرت العساكر من حلب فى النصف من شهر ربيع الآخر.

و احتبس الغيث فى حلب، و ارتفعت الأسعار فيها، و خرج الناس، و استسقوا على «بانقوسا» فجاء مطر يسير، بعد ذلك، و انحطّت الأسعار قليلا.

و استقرّت الهدنه بين عسكر حلب و الداويّه، و الاسبتار، فى العشرين من شعبان من السنه.

و اسـتقلّ السـلطان الملك العزيز بملكه، فى هـذه السـنه، و تسـلّم خزائنه من «أتابك شـهاب الـدّين»، و رتّب الولاه فى القلاع، و استحلف الأجناد لنفسه؛ و خرج بنفسه، و دار القلاع و الحصون، و ركب أتابك شهاب

الـدّين، فى نصف شـهر رمضان، من هـذه السـنه، و نزل من القلعه، و ركب النّاس فى خـدمته، و لم ينزل منها، منـذ توفى الملك الظّاهر، إلّا هـذه المره، ثم عـاد إلى القلعه، و كـان يركب منها فى الأحايين، إلى أن دخل السّلطان «الملك العزيز» بابنه الملك الكامل، و بقى «أتابک» مدّه فى القلعه، ثم نزل منها، و سكن فى داره، التى كانت تعرف بصاحب عين تاب، تجاه باب القلعه.

و استوزر الملك العزيز، فى هـذه السّنه، خطيب القلعه و ابن خطيبها «زين الـدين عبـد المحسن بن محمد بن حرب»، و مال إليه بجملته.

و سيّر الملك العزيز القاضـى بهاء الدّين، فى هذه السّنه فى شوّال، إلى مصر، لإحضار زوجته بنت الملك الكامل، فأقام بمصر مده، إلى أن قدم فى صحبتها والدها «الملك الكامل»، إلى دمشق، و سيّرها من دمشق صحبته، و أصحبها من جماعته: فخر الدين البانياسـى، و الشـريف قاضـى العسكر، و خرج وزيره، و أعيان دولته، فالتقوها من حماه، و أكابر أهل حلب أيضا، و التقتها والده السلطان عمّتها من «جباب التركمان»، و التقاها بقيه العساكر، «بتلّ السلطان»، و التقاها أخو السّلطان «الملك الصالح»، فى عسكره، و تجمّله، و عادت العساكر فى تجمّلها، و اصـطفت أطلابا طلبا بعـد طلب، فى «الوضـيحى». و خرج السّلطان إلى «الوضـيحى»، و دخل مع زوجته، ليلا، إلى القلعه المنصوره، فى شهر رمضان، من سنه تسع و عشرين و ستمائه.

و كانت العامه بحلب، قد ثاروا على محتسبها «مجد الدّين بن العجمى»، لأن السعر كان مرتفعا، و قد بلغ الرّطل من الخبز إلى عشره قراطيس، ثم انحطّ السعر كان فى تقاديم الغلّه، إلى أن بيع الرطل بخمسه و نصف، فركب نائب المحتسب و سعّره فى البلد بسته قراطيس، فهاجت العامّه عليه، و قصدوا دكّه المحتسب، و همّوا بقتل نائبه، و خربوا الدكّه، و مضوا إلى دار المحتسب، لينهبوها، فنزل والى البلد، و الأمير «علم الدّين قيصر»، و سكنوا الفتنه، بعد أن صعد جماعه إلى السلطان، و استغاثوا على المحتسب، فظفروا بأخيه نائب الحشر «الكمال بن العجمى»، فرجموه بالحجاره، فانهزم، و اختفى فى بعض دروب حلب، ثم هرب إلى المسجد الجامع، فهمّوا به مرّه ثانيه، فى الجامع، فحماه مقدّم الأحداث، و كان ذلك، فى يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان، من سنه تسع و عشرين و ستمائه.

و داوم «الملك العزيز» الخروج إلى الصيّد، ورمى البندق بنواحى «العمق» و غيرها، و حسّن له جماعه من أصحابه، أن يسير إلى قلعه «تلّ باشر»، و يستولى عليها، و ينزعها من نواب أتابكه «شهاب الدين طغرل»، و أن يبقى عليه رستاقها، و أن لا يكون شى ء من القلاع إلّا بيده، فنمى الخبر إلى «أتابک»، فسيّر إلى الوالى، و أمره أن لا يعارضه فى القلعه، و أن يسلّمها إليه، و كان له بها خزانه، فاستدعاها، و خرج السّلطان إلى «عزاز»، و كانت فى يد والده أخت «الملک الصّالح»، و أولادها بنى «ألطنبغا»، عوّضهم بها «أتابک» عن «بهسنى»، بعد قتل الرّومى كيكاوس الطنبغا، فصعد إلى قلعتها، و ولّى بها واليا من قبله، و أبقى عليهم ما كان

فى أيـديهم من بلـدها. ثم سار السّـلطان من «عزاز»، إلى «تلّ باشـر»، و صـعد إلى القلعه، و ولّى فيها واليا من جهته، و انتزعها من أيـدى نواب أتابكه. و بلغه أخـذ الخزانه، من «تلّ باشـر»، فسيّر من اعترض أصـحاب «أتابك» فى الطّريق، فأخـذ الخزانه منهم، و كان يظنّ أنّ بها مالا طائلا، فلم يجد الأمر كما ذكر، فأعادها على أتابك، فامتنع من أخذها، و قال:

«أنا ما ادّخرت المال إلّا لك» ثم دخل السّلطان إلى حلب، و كان ذلك كلّه، فى شهر رمضان، من سنه تسع و عشرين و ستمائه.

ثم إن السّـلطان «الملك العزيز»، خرج فى خرجـاته، لرمى البنـدق إلى «حـارم»، و توجّه منها إلى «دركوش» ثم إلى «أفاميه»، فى سنه ثلاثين و سـتمائه، فلم يحتفل به صاحب «شيزر» «شهاب الدّين يوسف بن مسعود بن سابق الدّين»، و أنفذ إليه إقامه يسيره- و هى شـى ء من الشّعير على حمير، سـخّرها من بلـد شـيزر- فشقّ عليه ذلك. فلما دخل حلب اسـتدعى «سـيف الدّين علىّ بن قلج الظّاهرى»، و سـيّره إلى الملك الكامل، ليسـتأذنه فى حصار «شـيزر»، و أخـذها، و كانت مضافه إلى حلب، و إنّما خاف أن يلقى صاحبها نفسه على «الملك الكامل»، فيشـفع إليه فى أمره، فلا يتمّ له ما يريد، فصـعد «سـيف الدّين» إلى دمشق، و قرّر مع الملك الكامل، الأمر على ما يختاره «الملك العزيز»؛ و سيّر إلى السّلطان الملك العزيز، و أعلمه بذلك، فأخرج العسكر، «و الزّردخاناه»، و نزل العسكر على «شيزر»، و احتاط الديوان، على ما فى رستاق «شيزر» من المغلّات.

و وصل «سيف الدّين بن قلج» من دمشق، و خرج السّلطان بنفسه، فنصب عليها المناجيق، من جهه الجبل، و ترک المنجنيق المغربى، قباله بابها، و سيّر إلى صاحبها، و قال له: «و اللّه لئن قتل واحد من أصحابى، لأشنقنّک بدله». فتقدّم إلى الجرخيّه بالقلعه، أن لا يرمى أحد بسهم، و تبلّد، و أسقط فى يده.

و أرسل «الملک الکامل» إلى السلطان نجابين، و معهما خمسه آلاف دينار مصريّه، ليستخدم بها رجاله، يستعين بهم على حصار «شيزر».

و قدم إليه إلى شيزر «الملک المظفر محمود»- صاحب حماه- و أرسل إليه صاحب شيزر، يبذل له تسليمها، على أن يبقى عليه أمواله، التى بها، و يحلف له على أملاکه، بحلب، فأجابه إلى ذلک، و نزل من شيزر إلى خدمه السّلطان، و سلّمها إليه، و وفى له السلطان بما اشترطه، و صعد السّلطان إلى القلعه، و أقام أياما بشيزر، ثم دخل إلى مدينه حلب.

و مرض أتابک «شهاب الدّين طغرل بن عبد اللّه» فى أواخر هذه السنه، و دام مرضه، إلى أن مات، ليله الاثنين الحاديه عشره، من محرّم سنه إحدى و ثلاثين و ستمائه.

و حضر السّلطان الملک العزيز محمد بن الملک الظّاهر، جنازته، صبيحه الليله المذکوره. و مشى خلف جنازته، من داره إلى أن صلّى عليه خارج «باب الأربعين»، و دفن بتربته، التى أنشأها «بتلّ قيقان»، و وقفها مدرسه على أصحاب الإمام أبى حنيفه- رضى اللّه عنه- و بکى السّلطان عليه

بکاء عظیما، و حضر عزاءه، یومین بعد موته، بالمدرسه التی أنشأها «أتابک»، و جعل فیها تربه للسّلطان الملک الظّاهر- رحمهم اللّه-

و فی هذه السّنه:

و هی سنه إحدی و ثلاثین نزل الملک الکامل، من مصر، و اتّفق مع أخیه الملک الأشرف، علی قصد بلاد السلطان «کیقباذ بن کیخسرو»، للوحشه التی تجدّدت بینهم، بسبب إستیلاء کیقباذ علی بلاد «أخلاط»، و انتزاعها من أیدی نواب «الملک الأشرف»، و سارا من دمشق، و خرج معهما الملک المجاهد، صاحب حمص، و الملک المظفّر، صاحب حماه، و وصل معهم الملک الناصر، صاحب الکرک، و وصلوا إلی «منبج» باذن السلطان «الملک العزیز».

و سیّر الملک العزیز، إلیه إلی «منبج»، الإقامه العظیمه، و الزردخاناه، و عسکره، و مقدّمه عمّه «الملک المعظّم»، و ساروا من ناحیه «تل باشر»، فنزل إلیه «الملک الزّاهر داود بن الملک النّاصر».

و قدم إلیه صاحب «سمیساط» «الملک المفضل موسی»، و صاحب «عین تاب» «الملک الصالح بن الملک الظّاهر»، و الملک المظفّر شهاب الدّین بن الملک العادل، و الملک الحافظ أخوه، و غیرهم، من الملوک، حتی اجتمع فی عسکره سته عشر أمیرا.

و سیّر ملک الروم إلی «الملک العزیز»، و قال له: «أنا راض منک بأن

تمـدّه بالأجنـاد و الأـموال، على أن لاـ تنزل إليه أبـدا». و أعفـاه الملك الكامل، من مثل ذلك، و رضـى كلّ واحـد من الملكين بفعله.

و سار الملك الكامل فى جيوشه، فى أوائل سنه اثنتين و ثلاثين و ستمائه، إلى أن نزل على «نهر الأزرق»، فى طرف بلاد الروم، و جاء عسـكر الروم حتّى نزل قبليّ زّلى- بينها و بين الدّربنـد- و السّـلطان معهم، و صـعد الرجاله إلى فم «الدّربند»، بالقرب من نور كغال، و بنوا عليه سورا، و قاتلوا منه، و منعوا من يطلع إليه، و قلّت الأقوات على العسكر الشّامى.

فرجع «الملـك الكامـل»، و خرج إلى طرف بلـد «بهسـنى»، و نزل على بحيره أنزنيت، و وصـل إليه صاحب خرتبرت، و دخل فى طاعته، و أشار عليه بالدّخول من جهته، فسار إلى ناحيه «خرتبرت».

و وقعت طائفه من عسـكر الروم، على طائفه من عسـكر الملك الكامل، و فيهم الملك المظفّر- صاحب حماه- و شـمس الـدين صواب، فكسـر العسـكر الكـامليّ، و اعتصم من نجـا منهم «بخرتبرت»، فحاصـرهم ملك الرّوم إلى أن نزلوا بالأمان، و أطلقهم، و استولى «كيقباذ» على «خرتبرت»، و عفا عن صاحبها، و عوّضه عنها بأقطاع فى بلاده.

و مرض «الملك الزّاهر» فى العسـكر، فحمل مريضا إلى «البيره»، و قوى مرضه، و طمع بعض أولاده بملكها، و شـرع فى تحصينها و تقويتها، و بلغ «الملك الزّاهر» ذلك، فسيّر إلى السّـلطان «الملك العزيز»، و اسـتدعاه إليه، و أصـعده إلى القلعه، و أوصـى إليه بالقلاع التى فى يده، و الخزائن

و عيّن لأولاده شيئا من ماله، و توفّى «بالبيره»، و السّلطان بها عنده، فى أوائل صفر، من سنه اثنتين و ثلاثين و ستمائه.

و أقام السّلطان بها يرتّب أحوالها، و أقام فيها واليا من قبله، فاتّفق وفاه القاضى بهاء الدّين بحلب، فى يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر، من سنه اثنتين و ثلاثين و ستمائه.

و طلب «الكمال ابن العجمى» قضاء حلب، و كاتب السلطان فى ذلك، فلم يجبه إلى ذلك. و سار السلطان من «البيره» إلى «حارم»، فخرج ابن العجمى إليه، إلى «حارم»، فمنعه الدّخول اليه، و بذل له فى قضاء حلب ستّين ألف درهم، و أن يحمل فى كل سنه، للسّلطان، من فواضل أوقاف الصدقه، و من كتابه الشروط، خمسين ألف درهم، فلم يصغ السّلطان إلى شى ء من ذلك، و كتب إلى القاضى زين الدّين، كتابا يأمره بأن يحكم بين النّاس، على جارى عادته، إلى أن يدخل الى المدينه، فلما دخل السلطان اجتهد «ابن العجمى» فى قبول ما بذله، و بذل شيئا كثيرا غير ذلك، لخواصّ السّلطان، و حسنوا للسّلطان قبول ما بذله، و إجابته الى ما سأله، فجرى على مذهب أبيه و جدّه فى الاحسان، و لم يبع منصب النبيّ صلى اللّه عليه و سلم- بالأثمان و نظر فى مصلحه الرعيّه، و أرضى اللّه و نبيّه، و قلّد القضاء بمدينه حلب و أعمالها، فى يوم الجمعه، الرابع عشر، من شهر ربيع الأول من سنه اثنتين و ثلاثين و ستمائه، القاضى زين الدّين أبا محمد عبد اللّه بن عبد الرحمن، بن علوان- المعروف بابن الأستاذ- و كان نائب القاضى بهاء الدّين فى الحكم.

و أما الملک الکامل، فانه عاد فی تلک الجیوش العظیمه، و لم یحظ بطائل، و دخل فصل الشتاء، و حال بین الفریقین، و عاد کلّ إلی بلاده، و لما خرج فصل الشتاء، خرج «علاء الدین کیقباذ» الی الجزیره، و الرّها، و الرقه، و سبی عسکره أهل البلاد کما یسبی الکفّار، و ذلک فی ذی الحجه، من سنه اثنتین و ثلاثین و ستمائه، و سار «الملک الکامل» نحوها، فاندفع ملک الرّوم، فعاد «الملک الکامل»، و استولی علی البلاد، و خرّب قلعه الرّها و بلدها، و سیّر إلیه السلطان العسکر الی الشّرق، و الزّردخاناه، و ذلک فی الجمادیین، سنه ثلاث و ثلاثین و ستمائه.

[وفاه العزیز بن غازی]

و دام «الملک العزیز»، فی ملکه بحلب، و سمت همّته إلی معالی الأمور، و مال إلی رعیته، و أحسن إلیهم الی أن دخلت سنه أربع و ثلاثین و ستمائه، فغضب علی وزیره «زین الدّین بن حرب»، و ألزمه داره بقلعه حلب، و ولّی الدیوان مکانه، الوزیر «جمال الدّین الأکرم أبا الحسن علیّ بن یوسف القفطیّ الشیبانی».

[ولایه الناصر بن العزیز]

و خرج فی أواخر شهر صفر إلی «النقره»، ثم توجّه منها الی «حارم»، و حضر فی الملقه(۱)، لرمی البندق، و احتاج الی أن اغتسل بماء بارد، فحمّ، و دخل إلی حلب، فالتقاه النّاس، و هو موعوک، و دامت به الحمّی، الی أن قوی مرضه، و استحلف الناس لولده الملک «النّاصر صلاح الدّین یوسف بن الملک العزیز». و سیّرنی إلی أخیه «الملک الصالح» إلی عین

۱- کذا بالأصل، و لعله أراد« الملقی» أو أنها تصحیف« الحلقه».

تاب، يستحلفه له، و لابنه «الملک الناصر»، و عدت، و قد مات، فى شهر ربيع الأوّل، من سنه أربع و ثلاثين و ستمائه.

و تولّى تدبير دولته الأميران: شمس الدين لؤلؤ الأمينى، و عزّ الدين عمر بن محلّى و وزير الدوله القاضى «جمال الدين الأكرم» و «جمال الدّوله اقبال الخاتونى»، يحضر بينهم فى المشوره.

و اذا اتّفق رأيهم على شى ء، دخل جمال الدّوله إقبال الخاتونى، إلى جدّه السّلطان «الملک النّاصر»، والده «الملک العزيز»، و عرّفها ما اتّفق رأى الجماعه عليه، فتأذن لهم فى فعله، و العلامات على التواقيع، و المكاتبات إلى الستر العالى الخاتونى، والده الملک العزيز. فاتّفق رأيهم، على أن سيّروا القاضى زين الدّين- قاضى حلب- و الأمير بدر الدّين بدر بن أبى الهيجاء، إلى مصر، رسولين إلى «الملک الكامل»، ليحلّفاه «للملک النّاصر»، و يتوثّقا من جهته، و استصحبا معهما كزاغند السّلطان الملک العزيز، و زرديته، و خوذته، و مركوبه.

فلما وصلا إليه، أظهر الألم و الحزن لموته، و قصّر فى إكرامهما و عطائهما، و حلف للملک الناصر، على الوجه الذى اقترح عليه، و خاطب الرسولين بما يشيران به، عنه، من تقدمه «الملک الصالح بن الملک الظّاهر»، على العسكر، و أن تكون تربيه «الملک الناصر» إليه، فلم ير الجماعه ذلک.

و اتّفق بعد ذلک بمدّه، أن سيّر الملک الكامل خلعه للملک الناصر،

بغير مركوب، و سيّر عدّه خلع لأمراء الدّوله، و سيّر مع رسول مفرد خلعه «للملک الصالح»، على أن يجى ء اليه إلى «عين تاب»، فاستشعر أرباب الدّوله التّدبير من ذلک، و حصل عند جدّه السّلطان وحشه من ذلک.

و اتفق رأيهم، على أن لبس السّلطان خلعته، و لم يخلع على أحد من الأمراء شى ء، مما سيّره لهم، و ردّوا الرسول الوارد إلى الملک الصالح بخلعته، و لم يمكنوه من الوصول إليه، و استوحشوا من جهه «الملک الكامل».

و كان «الملک الأشرف»، قد تتابعت من أخيه، «الملک الكامل» أفعال أوجبت ضيق صدره، و كان يغضّ على نفسه، و يحتملها، فمنها أنه أخذ بلاده الشرقيّه، حين أعطاه دمشق، و أخذ من مضافات دمشق، مواضع متعدّده.

و اتفق أن «كيقباذ» ملک الرّوم، أخذ «خلاط»، فضاق ما فى يد «الملک الأشرف» جدّا، و كان ينزل إليه فى كلّ سنه إلى دمشق، فى عبوره إلى الشّرق، فيقيم بدمشق مدّه، فيحتاج «الملک الأشرف»، فى ضيافته إلى جمله.

و قبض على أملاكه التى كانت له بحرّان، و الرقّه، و سروج، و الرّها، و رأس عين، و على جميع تمليكاته التى ملكها بتلک الناحيه، و فتح آمد، و هو فى صحبته، فلم يطلق له من بلادها شيئا، و خذله فى انتزاع «خلاط» من يد «الرّوميّ»، فاتفق هو، و الملک المجاهد- صاحب حمص- و الملک المظفّر- صاحب حماه- و عزموا على الخروج عليه، و عيّن لكلّ واحد منهم

شی ء من بلاده، و أرسل إلی الملكه «الخاتون» و الأمراء بحلب، و طلبوا موافقتهم علی ذلک، و خوّفوهم من جهته، و ذكروا ما تمتدّ أطماعه إليه فوافقوهم.

و تحالفوا عليه، و سيّروا رسلا من جهتهم إلی ملک الروم «كيقباذ»؛ يطلبون منه مثل ذلک. فوصلوا إليه و مات «كيقباذ»، قبل اجتماعهم به فذكروا رسالتهم لابنه «كيخسرو»، فحلف لهم علی ذلک.

و اتفقوا كلّهم علی أن يرسلوا رسلا من جهتهم، إلی «الملک الكامل»، الی مصر، و معهم رسول من حلب، و قالوا له: «إنّنا قد اتفقنا كلنا، و نطلب منک أنّک لا تعود تخرج من مصر، و لا تنزل إلی الشام»، فقال لهم: «مبارک، أنتم قد اتفقتم، فما تطلبون من يمين، احلفوا أنتم أيضا لی: أن لا تقصدوا بلادی، و لا تتعرّضوا لشی ء مما فی يدی و أنا أوافقكم علی ما تطلبون». و نزل رسوله، و مرض «الملک الأشرف»، و اشتغل بمرضه، و طال الی أن مات- علی ما نذكره-.

و مما تجدّد فی حلب، فی سنه أربع و ثلاثين و ستمائه: أنّ «شهاب الدّين» «صاحب شيزر»، و «كمال الدين عمر بن العجمی»، اتفقا، علی أن سيّرا من جهتهما رجلا، يقال له «العزّ بن الأطغانی» إلی دمشق إلی «الملک الأشرف»، و حدّثاه فی أن يقصد حلب، و أنهما يساعدانه بأموالهما، و أوهمه صاحب «شيزر» أنّ معظم الأمراء بحلب، يوافقونه علی ذلک، و أوهمه ابن العجمی أنّ أقاربه، و جماعه كبيره من الحلبيّين، يتابعونه، و يشايعونه،

و يوافقونه، على ذلك، و اشترط على «الملك الأشرف»، أن يولّيه قضاء حلب.

فمضى رسولهما إلى «الملك الأشرف»، و اجتمع ببعض خواصّه، و ذكر له الأمر الذى جاء فيه، فلم يحضره اليه، و أجابهما بأنّه: «لا تتصوّر أن يبدو منى غدر، و لا قبيح فى حقّ أحد من ذريّه الملك الظاهر»، و أخبرنى «فلك الدّين بن المسيرى» أنّه هو الّذى كان المتكلّم بين «الملك الأشرف»، و بين رسولهما.

و نمى هذا الخبر إلى الملكه، و الأمراء، فسيّروا من يوقف الرسول و اتّفق وصوله إلى حلب فقبض فى «باب العراق»، و أصعد إلى القلعه، و سئل عن ذلك، فأخبرهم بالحديث على فصّه، فحبس الرّسول، و حلقت لحيته، و سيّر الى «دربساك»، و حبس بها، و أصعد «ابن العجمى»، و صاحب شيزر، و اعتقلا بالقلعه، و أخذت أموال صاحب شيزر جميعها، و لم يتعرّض لأموال ابن العجمى، تطييبا لقلوب أهله. و داما فى الاعتقال، من جمادى، من سنه أربع و ثلاثين الى أن مات الملك الكامل، فى سنه خمس و ثلاثين و ستمائه، و أطلقا.

و ما حدث أيضا، فى سنه أربع و ثلاثين، أنّ أميرا من التركمان، يقال له «قنغر» جمع إليه جمعا من التركمان، بعد موت «الملك العزيز»، و عاث فى أطراف بلاد حلب، من ناحيه «قورس»، و غيرها، و نهب ضياعا متعدّده، و كان يغاز(۱)، و يدخل الى بلد الروم، فخرج اليه عسكر من حلب، فكسر

۱- كذا بالأصل و لعله أراد« يغزو» أو« يغير».

ذلك العسكر، و نهبه.

و تخوف أمراء حلب، أن يكون ذلك بأمر «ملك الرّوم»، فسيّروا رسولا- إلى ملك الروم، فى معناه، فأنكر ذلك، و أمر بردّ ما أخذه، من بلد حلب، فردّ بعضه، و انكف عن العيث و الفساد.

و بذل «ملك الروم» من نفسه الموافقه، و النصره «للملك النّاصر»، و كفّ من يقصد بلاده بأذى، فسيّر له تقدمه سنيّه، من حلب، على يد «شرف الدين بن أمير جاندار»، فأكرم الرّسول إكراما كثيرا، و سيّر اليه رسول فى الباطن، و هو أوحد الدّين- قاضى خلاط- فاستحلفه على الموالاه «للملك الناصر»، و الذبّ عن بلاده، و دفع من يقصدها.

و اتفق أيضا، فى هذه السنه، تحرّك الداويّه، من «بغراس»، و أغاروا فى بلد «العمق»، و استاقوا أغناما للتركمان، و مواشى لغيرهم كثيره.

فخرج «الملك المعظم بن الملك الناصر» يقدم عسكر حلب، و نزلوا على «بغراس» و حصروها مدّه، حتى ثغروا مواضع من سورها، و نفد ما فيها من الذخائر، و أشرفت على الأخذ، فسيّر البرنس- صاحب أنطاكيه- و شفع فيهم، بعد أن كان مغاضبا لهم، فرأوا المصلحه، فى إجابته إلى ذلك، و عقدوا الهدنه مع الداويّه، على «بغراس»، و رحلوا عنها، و لو أقاموا عليها يومين آخرين، لما استطاع من فيها الصبر على المدافعه.

و سار العسكر عن «بغراس»، بعد أن أخربوها، و بلدها، خرابا شنيعا، و نزل العسكر الاسلامى بالقرب من «دربساك»، فجمع «الداويّه»

جموعهم، و استنجدوا بصاحب «جبيل» و غيره، من الفرنج، و جمعوا راجلا- كثيرا، و ساروا من جهه حجر «شغلان» إلى «دربساك»، ظنا منهم أن يكبسوا الربض، على غرّه من أهله، و أن ينالوا منه غرضا، فاستعدّ لهم من بالربض من الأجناد، و نزل جماعه من أجناد القلعه، و قاتلوهم فى الربض، قتالا شديدا، و حموه منهم، و اشتغلوا بقتالهم، إلى أن وصل الخبر إلى عسكر حلب، فركبوا، و وصلوا إليهم، و قد تعب الفرنج، و كلّت خيولهم، فوقعوا عليهم، فانهزم الفرنج هزيمه شنيعه، و قتل منهم خلق عظيم، و استولى المسلمون على فارسهم و راجلهم، و كان فيهم جماعه من المقدّمين و اختبأ منهم جماعه من الخيّاله، و غيرهم، خلف الأشجار فى الجبل، فأخذوا، و لم ينج منهم إلّا القليل، و دخلوا بالرؤوس و الأسرى إلى حلب، و كان يوما مشهودا و حبسوا فى القلعه، ثم أنزلوا الى الخندق.

و استولى المسلمون على فارسهم و راجلهم، و كان فيهم جماعه من المقدّمين و اختبأ منهم جماعه من الخيّاله، و غيرهم، خلف الأشجار فى الجبل، فأخذوا، و كان يوما مشهودا و حبسوا فى القلعه، ثم أنزلوا إلى الخندق.

و فتّت هذه الوقعه فى أعضاد «الداويّه»، بالساحل، و لم ينتعشوا بعدها، و كانوا قد استطالوا على المسلمين و الفرنج.

و مات فى هذه السّنه «علاء الدين كيقباذ»- ملك الروم- «بقيصريه»، فى أوائل شوّال، من سنه أربع و ثلاثين و ستمائه، و سيّرت رسولا إلى ابنه «غياث الدين كيخسرو»، القائم فى الملك بعده، بالتّعزيه، و تجديد الأيمان عليه، على القاعده التى كانت مع أبيه، فحلّفته على ذلك، فى ذى القعده.

و کـان قـد قبض علی «قیرخـان»- مقـدّم الخوارزمیه- فهرب من بقی منهم، من بلاـد الروم، و نهبوا فی طریقهم ما قـدروا علیه، و عبروا الفرات، و استمالهم الملک الصالح بن الملک الکامل، و أقطعهم مواضع فی الجزیره.

و توفّی «الملـک الأشـرف» بـدمشق، لأـربع خلون من المحرم من سـنه خمس و ثلاـثین و سـتمائه. و أوصـی بهـا لأـخیه «الملک الصالح اسماعیل»، و جدّد الأیمان مع الجماعه، الذین کانوا وافقوا أخاه «الملک الأشرف».

فخرج «الملـک الکامـل» من مصـر، و قصـد دمشق، و سـیّر من حلب نجـده إلی دمشق و کـذلک سـیّر «الملک المجاهـد» ولـده «المنصور» إلیها، و نزل «الملک الکامل» علی دمشق، و حصرها مدّه، فرجع «الملک المظفّر»- صاحب حماه- عن موافقه الجماعه و داخـل الملـک الکامـل، و أطلعه علی جمیع الأـحوال، و وقع بینه و بین صـاحب حمص اختلاـف، و طلب من صـاحب حمص «سلمیه»، لتجری الموافقه علی ما کان علیه.

فسیّرت من حلب، و معی الأمیر «علاء الـدّین طیبغا الظّاهری»، لیوفّق بین صاحب حمص و صاحب حماه، فأبی کلّ واحـد منهما، أن یجیب صـاحبه إلی مـا یریـد. و کـان مطلوب صـاحب حماه أن یعطیه صاحب حمص «سـلمیه» و القلعه الّتی جـدّدها «الملک المجاهد» المعروفه «بشمیمیس»(۱). فقال «الملک المجاهـد»: «هـذه ثمینه لی، و قد حلف لی علی کلّ ما بیدی»، و أبی أن یجیبه إلی ذلک.

۱- ما تزال تحمل الاسم نفسه قرب سلمیه، یراها علی یمینه الخارج من سلمیه إلی حماه.

فعدنا إلى «حماه»، و ذكرنا لصاحبها مقاله «الملک المجاهد»، و أنّ فى ما يحاوله نقضا للعهد، فقال: «هو قد نقض عهدى، و أنفذ و استفسد جماعه من عسكرى»، و عدّد له ذنوبا لا أصل لها، و قال: «لا بدّ من قصده، و إذا نزل الملک الكامل على حمص، نزلت معه عليها و فعلت ما يصل إليه جهدى.

و لكن حلب، أبذل نفسى و مالى دون الوصول إلى قريه منها، و لا ـ أرجع عن اليمين الّتى حلفت بها للسّتر العالى، و الملک الناصر».

فقلت: «فالمولى يعلم ما جرى بيننا و بين صاحب حمص، من الأيمان، و ما نقض منها عهدا، و إذا قصده قاصد إلى حمص يتعيّن إنجاده و نصرته، و إذا وصل عسكر من حلب لنجدته، فكيف يفعل المولى»؟ فتلجلج، و قال:

«أنا أقاتله، و من قاتلنى قاتلته».

فكتبنا بذلک إلى حلب، فجاء الأمر بالتوجّه إلى حلب، فسرنا فى الحال من غير توديع، حتى وصلنا العبادى ليله الاثنين، مستهلّ جمادى الأولى، من سنه خمس و ثلاثين و ستّمائه، فلحقنا «المهماندار»(۱) بالخلع و التّسفير، فلم نقبل منه شيئا، و وصلنا إلى حلب يوم الثلاثاء، فتحقّق أنّه قد داخل «الملک الكامل»، و أنه يطالعه بالمتجدّدات جميعها.

و أما دمشق، فإنّ «الملک الكامل»، لازم حصارها، حتى صالحه «الملک الصّالح»، على أن أبقى له بعلبک، و بصرى، و أخذ منه دمشق، فى تاسع

۱- أى مايماثل مدير المراسم.

عشر جمادى الأولى، من السّنه، و لم يتعرّض لنجده حلب، و حمص، بسوء.

و خرجوا من دمشق إلى مستقرّهم.

و وصل «النّاصح»، و عسكر حلب، إلى حلب، و استدعى «الملك المعظّم»، و أقارب السلطان و الأمراء، و حلفوا للسّلطان «الملك الناصر» و «للخاتون الملكه»، على طبقاتهم. ثمّ حلف بعد ذلك أكابر البلد، و رؤساؤها. ثم حلف الأجناد و العامه، و استعدّ الناس للحصار بالذّخائر، و الأقوات، و الحطب، و ما يجرى مجراه، و نقلت أحجار المناجيق إلى أبواب البلد، و استخدم جماعه من الخوارزميّه، و غيرهم.

و وصل «قنغر التركمانى» فاستخدم بحلب، و قدّم على التركمان. و قفز جماعه من العسكر الكاملى إلى حلب، فاستخدموا، و تتابعت الرسل إلى «ملك الرّوم»، لطلب نجده، تصل إلى حلب، من جهته، فسيّر نجده من أجود عساكره، و عرض عليهم أن يسيّر غيرها، فاكتفوا بمن سيّره.

و سيّر ملك الروم رسولا إلى «الملك الكامل»، يخاطبه فى الامتناع عن قصد حلب، فأمر بالتبريز من دمشق، لقصد حلب، و أخرج الخيم و الأعلام، فمرض، و مات بدمشق، فى قلعتها، فى حادى و عشرين، شهر رجب، من سنه خمس و ثلاثين و ستمائه، و وصل خبر موته، فعمل له العزاء بحلب، و حضره السّلطان «الملك النّاصر»، يومين، و أمر العسكر، فى الحال، بالخروج إلى معرّه النعمان، فخرج، و نازل معرّه النّعمان، مع «الملك المعظّم»، و وصل رسول «الملك المظفّر»- صاحب حماه- يتلطّف الحال، فلم

یلتفت إلیه، و لم یستحضر. و سیّرت المجانیق، و نصبت علی قلعه المعرّه.

و وصل فی أثناء ذلک، رسول من السّلطان «غیاث الدّین کیخسرو»، یطلب الوصله إلی «الخاتون الملکه»، بأن تزوّجه بنت السلطان «الملک العزیز»، أخت السّلطان «الملک الناصر»، و أن یزوّج السّلطان الملک الناصر، أخت السلطان «غیاث الدین»، و استقرّ الأمر علی ذلک، و اجتمع النّاس فی دار السّلطان، بالقلعه، و عقد عقد السّلطان «غیاث الدّین» علی الستّ «غازیه خاتون». و تولّیت عقد النکاح، علی مذهب الإمام أبی حنیفه- رضی اللّه عنه- لصغر الزّوجه، علی خمسین ألف دینار، و قبل النّکاح، عن السّلطان «غیاث الدّین» الرسول الواصل من جهته، «عزّ الدّین»- قاضی دوقات(۱)- حینئذ- و نثر الذّهب، عند الفراغ من العقد.

و وصل، عند ذلک، الخبر بفتح «معرّه النّعمان»، فی تلک السّاعه، علی جناح طائر- و ضربت البشائر للأمرین، و ذلک فی تاسع شعبان(۲) من سنه خمس و ثلاثین و ستّمائه.

سار العسکر فنازل «حماه»، و ابتنی صاحبها سورا من اللّبن، علی حاضرها، من جهه القبله، و نهب عسکر حلب بلد «حماه» و رستاقها.

و وصل رسول من الملک «الصالح بن الملک الکامل»، یشفع فی صاحب حماه، فلم یجب إلی سؤاله فیه، و اعتذر إلیه بما بدا منه، و طلب

۱- هی توقات عند یاقوت، بلده بین قونیه و سیواس.

۲- قراءه ترجیحیه، بسبب طمس مطلع السطر.

الرّسول، عن صاحبه، الموافقه و المعاضـده، و أن يسـفروا فى الصّـلح، بينه و بين «ملك الرّوم»، فأجيب جوابا، لم يحصل منه على طائل.

و وردت الرّسـل من مصـر، من الملك العادل، و الملك الكامل، يطلبون منه الموافقه، بينه و بين صاحب حلب، و أن يجروا منه، على عاده أبيه، فى الصّلح، و إقامه الدعوه له بحلب، فلم يجب إلى شى ء من ذلك، و رجعت الرّسل بغير طائل.

و فى هذه السنه، قبض على «قنغر التركمانى»، و حبس بقلعه حلب، و نهبت خيمه و دوابّه.

و سيّرت من حلب، فى الرّابع من شوّال، سـنه خمس و ثلاـثين و سـتمائه، إلى «بلاـد الرّوم»، لعقـد الوصـله بين السّـلطان «الملك النّاصر»، و السّلطان «غياث الدين كيسخرو»، على أخت السّلطان كيخسرو، و هى ابنه خاله الملك العزيز، والد الملك الناصر.

و سـمع السـلطان كيخسـرو بوصولى، و كان فى عزم «كيخسـرو» التوجّه إلى ناحيه «قونيه»، فتعوّق بسـببى، و سيّر بولقا إلى «أقجا» دربنـد، قبـل وصولى «ابلسـتان» يسـتحثّنى على الوصول، و يعرّفنى تعويقه بسـببى، ثم سـير بولقا آخر، فوصل إلى تحت «سـمندو» يستحثّنى على الوصول.

فأسرعت السّير، حتى وصلت إلى «قيصريّه»، و السّلطان فى «الكيقباذيه»، فاستدعانى إليه، و لم أنزل «بقيصريّه»، و اجتمعت به، عند وصولى، يوم الثلاثاء، سادس عشر شوّال، من سنه خمس و ثلاثين و ستمائه،

و وقعت الإجابه إلى عقد العقد. و وكّل السلطان «كمال الدّين كامیار»، على عقد العقد معى، على أخته «ملكه خاتون بنت كیقباذ». و دخلنا فى تلک السّاعه إلى «قیصریّه»، و أحضر قاضى البلده، و الشّهود، و عقدت العقد مع «كامیار»، على خمسين ألف دينار سلطانيّه، مثل صداق «كيخسرو»، الذى كتب عليه لأخت السّلطان «الملک الناصر».

و أظهر فى ذلک اليوم من التجمّل، و آلات الذهب، و الفضه، ما لا يمكن وصفه. و نثرت الدنانير الواصله، صحبتى، و كانت ألف دينار، و نثر فى دار السلطان من الذّهب، و الدّراهم، و الثياب، و السكّر، شى ء كثير.

و ضربت البشائر فى دار السّلطان، و أظهر من السرّور و الفرح، ما لا يوصف.

و سيّرت، فى الحال، بعض أصحابى إلى حلب، مبشّرا بذلک كلّه، فضربت البشائر بحلب، و أفيضت الخلع على المبشّر، و عدت إلى حلب، فدخلتها يوم الخميس، تاسع ذى القعده، و التقانى السلطان «الملک الناصر»- أعزّ اللّه نصره- يوم وصولى.

هذا كلّه، و العسكر الحلبىّ محاصر «حماه». و كان قبل هذا العقد، سيّر السلطان «كيخسرو» الأمير «قمر الدّين» الخادم- و يعرف بملک الأرمن- رسولا- إلى حلب، و على يده توقيع من السّلطان «الملک الناصر»، بالرّها، و سروج. و اتّفق الأمر معه، على أن خطب له الملک «المظفّر شهاب الدّين غازى»- ابن الملک العادل- و أقطعه حرّان، و أقطع «الملک المنصور»- صاحب ماردين- سنجار، و نصيبين، و «الملک المجاهد»- صاحب

حمص- عانه، و غربا من بلد الخابور، و كانت هذه البلاد فى يد «الملک الصالح بن الملک الكامل». و اتّفق الأمر، على أن يأخذ السلطان «كيخسرو» آمد، و سميساط، و أعمالها.

و كان «الخوارزميّه»، قد خرجوا على «الملک الصالح»، و استولوا على البلاد، و هرب «الملک الصّالح» منهم. فأنعم على الرّسول الواصل إلى حلب، و أعطى عطاء وافرا، و قبل التوقيع منه.

و لم تر الملكه «الخاتون» مضايقه ابن أخيها فى البلاد، و لم تتعرّض لشى ء منها. و بلغه ذلک فسيّر إليها، و عرض عليها تلک البلاد، و غيرها، و قال:

«البلاد كلّها بحكمک، و إن شئت إرسال نائب يتسلّم هذه البلاد، و غيرها، فأرسليه لأسلّم إليه ما تأمرين بتسليمه». فشكرته، و طيّبت قلبه.

و اتّفق بعد ذلک مع «الخوارزميّه»، و أقطعهم: حرّان، و الرّها، و غيرهما، بعد أن كانوا اتفقوا مع «الملک المنصور»- صاحب ماردين- و قصدوا بلاد «الملک الصالح أيوب»، و أغاروا عليها، و نزلوا على حرّان، و أجفل أهلها.

و خاف «الملک الصالح»، فاختفى، ثم ظهر «بسنجار»، و حصره «بدر الدّين لؤلؤ»- صاحب الموصل- و كان قد ترک ولده الملک «المغيث» «بقلعه حرّان»، فخاف من الخوارزميّه، و سار مختفيا نحو «قلعه جعبر»، فطلبوه، و نهبوه و من معه، و أفلت فى شرذمه من أصحابه، و وصل إلى

«منبج» مستجيرا بعمّته. فسيّر إليه من حلب، و ردّ عن الوصول إليها بوجه لطيف، و قيل له: «نخاف أن يطلبك منّا سلطان الرّوم، و لاـ يمكننا منعك منه»، فعاد إلى حرّان، و وصله كتاب أبيه يأمره بموافقه «الخوارزميه» و الوصول إليه بهم لدفع «لؤلؤ»، ففعل ذلك؛ و سار «بالخوارزميّه»، طالبين عسكر الموصل، فانهزموا و أفرجوا عن سنجار، و أدركهم الخوارزميه فقتلوا منهم و نهبوا أثقالهم، و قوى «الملك الصالح» بهم.

و وصل عسكر «الروم» إلى آمد، و نازلها، و أخذ بعض قلاعها، و توجّه عسكر «الخوارزميّه»، إلى جهتهم، فرحلوا عن آمد. و لم ينالوا منها زبده.

و وصل رسول «السلطان كيخسرو» عز الدّين- قاضى دوقات- إلى حلب فى هذه السنه، و تحدّث فى إقامه الدّعوه «للسلطان كيخسرو»، و ضرب السكّه باسمه. و كان الأمراء و العسكر محاصرين «حماه»، فتوقّفت الملكه فى ذلك، و أشير عليها بموافقته على ما طلب، فأجابت و خطب له فى يوم الجمعه «.........»(۱) من سنه خمس و ثلاثين و ستمائه، على منبر حلب.

و حضر فى ذلك اليوم، الأمير «جمال الدّوله إقبال»، و صعد الرّسول إلى المنبر، و نثر الدّنانير عند إقامه الدعوه، و نثر «جمال الدوله» دنانير و دراهم، و خلع على الدعاء، و أظهر من السرور، و الاحتفال فى ذلك

۱- فراغ بالأصل.

اليوم، شی ء عظيم، فی مقابله ما أظهر «بقيصريه» من الاحتفال يوم عقد الملک الناصر.

و طال الحصار على «حماه»، و لم تكن «الملكه الخاتون» تؤثر أخذها من ابن أختها، و انما أرادت التّضييق عليه، لينزل عن طلب «معرّه النعمان».

و ضجر العسكر، فاستدعى إلى حلب المحروسه، فوصل إليها فی «.....»(۱) من سنه ست و ثلاثين و ستمائه.

و كان الملک «الجواد يونس بن مودود بن الملک العادل»، بعد موت «الملک الكامل»، قد استولى على «دمشق»، و على الخزائن، التی كانت فی صحبه «الملک الكامل»؛ و يظهر الطاعه «للملک العادل» و أرسل إلى حلب، رسولا- يطلب منهم معاضدته، و انتماءه، فلم يصغوا إلى قوله، و امتنعوا أن يدخلوا بينه و بين الملک العادل.

و خاف من «الملک العادل»، فراسل الملک «الصالح أيّوب بن الملک الكامل»، و اتّفقا على أن تسلّم إلى «الملک الصالح» دمشق، و يعوّضه عنها «بالرّقه» و «سنجار» و «عانه»، فسار «الملک الصالح»، من الشّرق، و «الخوارزميّه» فی صحبته، فی جمادى الأولى.

و تقدّم الملک الصالح إلى دمشق، و تسلّمها من «الملک الجواد»، فی جمادى الآخره من سنه ستّ و ثلاثين، و أرسل إلى عمّته إلى حلب، يعرفها بذلک، و يبذل من نفسه الموافقه على ما تريده، و يطلب المساعده له،

۱- فراغ بالأصل.

و المعاضده على أخذ مصر، فأجابته بأنّها: «لا تدخل بينه و بين أخيه، و أنكما ولد أخى»، و لم تجبه إلى ما اقترح.

و سار «الملك الجواد» إلى «الرّقه»، فأخرجه «الخوارزميه» منها، و سار إلى «سنجار»، فأقام بها مدّه، و خرج إلى «عانه»، فسار بدر الدين لؤلؤ إلى سنجار، بعمله كانت له فيها، فاستولى عليها، فى شهر ربيع الأوّل، من سنه سبع و ثلاثين.

و أما الملك الصالح، فإنّه صعد إلى «نابلس»، و أقام بها، و كاتب الأمراء المصريّين، و عثر الملك العادل على قضيّتهم، فقبض الذين كاتبوه، و لم يتّفق للملك الصّالح ما أراد.

و ساق عمّه «الملك الصالح اسماعيل»، من بعلبك، «و الملك المجاهد»- صاحب حمص- منها، و دخلا «دمشق»، و ملكها «الملك الصالح»، و حصر القلعه يوما أو يومين، و فتحها، و ذلك فى شهر ربيع الأوّل، من سنه سبع و ثلاثين و ستمائه. و قبض على «الملك المغيث» ابن الملك الصّالح، و سجنه «بقلعه دمشق».

و سمع الملك الصّالح بن الكامل بذلك، فتوجّه نحو دمشق، حتى وصل إلى «العقبه»، فلم يجد معه من عسكره من ينصحه، فعاد إلى «نابلس»، فسيّر «الملك الناصر»- صاحب الكرك- و قبض عليه، و حمله مقيّدا إلى «الكرك» و سجنه بها.

و تجدّدت الوحشه بين «الملك الناصر»، و بين «الملك الصالح»،

عمّه، بسبب استیلائه علی دمشق. و اتفق الملک العادل و عمّه الملک الصّالح، فاستوحش «الملک الناصر» من الملک العادل لذلک، حتی آل الأمر به إلی أن أخرج الملک الصّالح بن الکامل من سجن «الکرک»، و خرج معه، و کاتب الأمراء بمصر، فقبضوا علی «الملک العادل» «ببلبیس»، فی لیله الجمعه، الثامنه من ذی القعده، من سنه سبع و ثلاثین و ستمائه، و وصل الملک الصّالح أیوب، فدخل «القاهره»، بکره الأحد الرابع و العشرین من الشهر المذکور.

و کنت إذ ذاک بالقاهره، رسولا إلی «الملک العادل»، أهنئه بکسر عسکره الافرنج علی «غزّه»، و أطلب أن یسیّر عمّاته بنات «الملک العادل»، معی إلی أختهن «الملکه» إلی حلب، فاستحضرنی «الملک الصّالح أیّوب»، یوم الثلاثاء حادی عشر ذی الحجّه، و قال لی: «تقبّل الأرض بین یدی السّتر العالی، و تعرّفها أننی مملوکها، و انّها عندی فی محلّ «الملک الکامل»، و أنا أعرض نفسی لخدمتها، و امتثال أمرها فیما تأمر به»، و حمّلنی مثل هذا القول إلی «السّلطان الملک الناصر».

و نزلت من مصر، فاجتمعت بالملک الصّالح اسماعیل بن الملک العادل، فی رابع محرّم سنه ثمان و ثلاثین، و حمّلنی رساله إلی «الملکه الخاتون»، یطلب منها معاضدته، و مساعدته، علی «الملک الصّالح» صاحب مصر- إن قصده، فلم تجبه إلی ذلک فی ذلک الوقت.

و کان «الخوارزمیّه»، فی سنه سبع و ثلاثین، قد وضعوا أیدیهم علی

«أوشين»- من بلد البيره- و طمعوا فى أطراف بلد «البيره»، و استولوا على قلعه «حرّان»، حين كان «الملك الصالح» محبوسا «بالكرك»، و امتدّت أطماعهم إلى البلاد المجاوره لهم، و كثير تثقيلهم على الملك «الحافظ أرسلان بن الملك العادل»، بناحيه «قلعه جعبر»، و هو يداريهم، و يبذل لهم الأموال؛ و أطماعهم تشتدّ.

و اتّفق أنه فلج، و خاف من ولده، فأرسل إلى أخته «الملكه» بحلب يطلب منها أن تقايضه «بقلعه جعبر» و «بالس». إلى شى ء تعمل له، بمقدار «قلعه جعبر» و «بالس». فاتّفق الأمر على أن تعوّضه «بعزاز»، و مواضع تعمل بمقدار ذلك. و سيّر من حلب من تسلّم «قلعه جعبر»، فى صفر من سنه ثمان و ثلاثين و ستمائه.

و وصل «الملك الحافظ» إلى حلب، فى هذا الشّهر، و صعد فى المحفّه إلى القلعه، و اجتمع بأخته «الملكه»، و أنزل فى الدار المعروفه «بصاحب عين تاب»- تحت القلعه- و سلمت إلى نوّابه «قلعه عزاز».

فخرج الخوارزميه، عند ذلك، و أغاروا على بلد «قلعه جعبر»، و وصلوا إلى «بالس»، فأغاروا عليها، و نهبوها، و لم يسلم منها إلّا من كان خرج عنها إلى حلب و إلى منبج.

و فى هذا الشّهر، توفّى القاضى «جمال الدّين أبو عبد اللّه، محمد بن عبد الرّحمن بن علوان»- قاضى حلب- و ولّى قضاءها بعده نائبه ابن أخيه «كمال الدين أبو العبّاس، أحمد بن القاضى زين الدّين أبى محمد».

[الحروب مع الخوارزميه]

و خرج عسكر حلب إلى جهه «الخوارزميه»، و مقدّمهم «الملك المعظّم تورانشاه» بن الملك الناصر، فنزلوا «بالنّقره»، و رحلوا منها إلى «منبج»، و أقاموا بها مدّه. و تجمّع «الخوارزميه» فى حرّان، و الحلبيّون غير محتفلين بأمرهم، و عسكر حلب بعضه فى نجده «ملك الرّوم» فى مقابله «التتار»، و بعضهم فى «قلعه جعبر»، و بعضهم مفرّقون فى القلاع، مثل «شيزر»، «و حارم»، و غيرهما.

و سار الخوارزميّه، بجملتهم، فى جمع عظيم، و معهم «الملك الجواد بن مودود بن الملك الحافظ»، و «الملك الصالح» بن الملك المجاهد صاحب حمص- و كان جمعهم يزيد على اثنى عشر ألفا، و انضم اليهم الأمير «على بن حديثه» فى جموعه من العرب، و كان استوحش من أهل حلب، لتقريبهم الأحلاف.

و عبروا بجملتهم من «جسر الرّقه»، و ساروا، حتى وصلوا نهر «بوجبار»، و سمع بهم من بمنبج، من عسكر حلب، فرحلوا من منبج، و نزلوا فى وادى «بزاعا»، و أصبح كلّ واحد من الفريقين، يطلب صاحبه، و عسكر حلب لا يزيدون عن ألف و خمسمائه فارس.

و تعبّأ كلّ فريق لقتال صاحبه. و أقبل الخوارزميه- و مقدّمهم «بركه خان»- و معه «صاروخان» و «بردى خان» و «كشلو خان» و غيرهم، من أمرائهم، و الملك الجواد، و ابن الملك الحافظ، و ابن صاحب حمص، و عسكر «ماردين» نجده معهم و عبروا «نهر الذّهب». و التقى الفريقان، على

«البیره»- قریه بالوادی- فی یوم الخمیس رابع عشـر، من شهر ربیع الآخر، من سنه ثمان و ثلاثین و ستمائه، فصدمهم عسکر حلب علی قلّته، صدمه، تزحزحوا لها، و تکاثر الخوارزمیه علیهم.

و جـاء «علیّ بن حـدیثه»، و خرج من بین البسـاتین، و جـاء من وراء عسـکر حلب، و وقع فی الغلمان، و «الرکابـداریه»، و أحاطوا بهم، من جمیع الجهـات، و انهزمـوا و هم مطبقـون علیهم، و جعلوا طریقهم علی «رصـیف الملکه»، الـذی یأخـذ من «بزاعـا» إلی حلب، حتی خرجوا فیما بین «ربانا» و «تلفیتا». و الخوارزمیّه فی آثارهم یقتلون، و یأسـرون، و نزلوا من جهه «اعرابیه»، و «فرفارین» و هم فی آثارهم، فقبضوا علی «الملک المعظّم»، بعـد أن ثبت فی المعرکه، و جرح جراحات مثخنه، و علی أخیه «نصـره الدین»، و قبضوا علی عـامه الأـمراء، و لـم یسـلم من العسـکر إلّـا القلیـل. و قتـل فی المعرکه «الملـک الصالـح» ابن الملک الأفضل، و ابن الملک الزّاهر، و جماعه کثیره. و اسـتولوا علی ثقل العسـکر، و نهب الأحلاف من العرب أکثر ثقل العسـکر، و کانوا أشدّ ضـررا علی العسکر، فی انتهاب أموالهم من أعدائهم.

و نزل «الخوارزمیّه» حول «حیلاـن»، و امتـدّوا علی النهر، إلی «فـافین»، و قطعوا علی جمـاعه من العسـکر أموالاـ أخـذوها منهم، و ابتـاعوا بها أنفسـهم، و شـربوا تلک اللیله، و قتلوا جماعه من الأسـری صبرا، فخاف الباقون، و قطعوا أموالا علی أنفسـهم، و زنوها فمنهم من خلص، و منهم من أخذوا منه المال، و غدروا به، و لم یطلقوه.

و اختبط «بلـد حلب»، و تقدّم إلى مقدّمى البلده بحفظ الأسوار، و الأبواب، و جفل أهل «الحاضـر»، و من كان خارج المدينه إلى المـدينه، بما قـدروا على نقله من أمتعتهم، و بقى فى البلـد الأميران: «شـمس الدّين لؤلؤ»، و «عزّ الدّين بن مجلّى»، فى جماعه، لا تبلغ مائتى فارس يركبون، و يخرجون إلى ظاهر المدينه، يتعرّفون أخبارهم.

و بثّوا سـراياهم، فى أعمـال حلب يشـنّون الغـاره فيهـا، فبلغت خيلهم إلى بلـد «عزاز»، و «تـلّ باشـر»، و «برج الرّصـاص»، و «جبل سمعان»، و «بلد الحوّار»، و «طرف العمق»، و جاؤوا أهل هذه النوحى على غفله، فلم يستطيعوا أن يهربوا بين أيديهم، و من أجفل منهم لحقـوه، فأخـذوا من المواشـى، و الأمتعه، و الحرم، و الصبيـان، مـا لا يحـدّ و لا يوصـف، و ارتكبوا من الفـاحشه مع حرم المسلمين، ما لم يفعله أحد من الكفّار، إلّا ما سمع عن القرامطه.

ثم رحلوا إلى «بزاعا»، و «الباب»، فعذّبوا أهل الموضـعين، و استقروهم على أموالهم التى أخفوها، و استصفوها منهم. و قتلوا منهم جمـاعه، و نهبوا ما كان فيها من المتاع و المواشـى؛ و كان بعضـهم، قـد هرب إلى حلب، وقت الوقعه، بما خفّ معه من الحرم، و المتاع، فسلم.

ثم رحلوا إلى «منبج»، و قد اسـتعصم أهلها بالسّور و درّبوا المواضع التى لا سور لها، فهجموها بالسّيف، فى يوم الخميس الحادى و العشرين، من شهر ربيع الآخر، من سنه ثمان و ثلاثين، و قتلوا من أهلها خلقا كثيرا،

و خرّبوا دورها، و نبشوها، فعثروا فيها على أموال عظيمه، و سبوا أولادهم و نساءهم، و جاهروا اللّه تعالى بالمعاصى فى حرمهم، و التجأ لّمه من النّساء إلى «المسجد الجامع»، فدخلوا عليهنّ، و فحشوا ببعضهن فى المسجد الجامع، و كان الواحد منهم يأخذ المرأه، و على صدرها ولدها الرّضيع، فيأخذه منها، و يضرب به الأرض، و يأخذها، و يمضى.

و وصل الخبر بكسره عسكر حلب إلى حمص إلى «الملك المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد»، و قد عزم على الدخول إلى بلد «الفرنج» للغاره، و عنده من عسكره و عسكر دمشق مقدار ألف فارس، فساق بمن معه من العسكر. و وصل إلى حلب فى يوم السّبت الثالث و العشرين، من شهر ربيع الآخر.

و خرج السّلطان و أهل البلد، و التقوه إلى «السّعدى»، و نزل «الهزّازه»، ثم أخليت له فى ذلك اليوم دار «علم الدّين قيصر الظّاهرى».

بمصلّى العيد العتيق- خارج «باب الرّابيه»- فأقام بها، و استقرّ الأمر معه على أن يستقدم العساكر، و تجمع، و وقع التوثّق منه، و له، بالأيمان و العهود.

و سيّرت رسولا إلى الملك «الصالح إسماعيل بن الملك العادل» لتحليفه، فسرت، و وصلت إلى دمشق، و حلّفته فى جمادى الآخره من السّنه، و طلبت منه نجده من عسكره، زياده على من كان منهم بحلب، فسيّر نجده أخرى، و أطلق الأسرى «الداويّه»، الذين كانوا بحلب استكفاء لشرّهم.

و حين سمع «الخوارزميّه» تجمّع العساكر بحلب، عادوا من أقطاعاتهم، و تجمّعوا «بحرّان»، و عزموا على العبور إلى جهه حلب، و معاجلتهم قبل أن يكثر جمعهم، و ظنّوا أنهم يبادرون إلى صلحهم.

و كان «عليّ بن حديثه»، قد انفصل عن «الخوارزميه» و ظاهر ابن غنام، قد خدم بحلب، و أمّر فى سائر العرب، و زوّجته «الملكه الخاتون» بعض جواريها، و أقطعته أقطاعا ترضيه.

فسار «الخوارزميه»، من «حرّان»، فى يوم الاثنين سادس عشر شهر رجب، من سنه ثمان و ثلاثين و ستمائه، و تتابعوا فى الرّحيل، و وصلوا إلى «الرّقه»، و عبروا «الفرات»، و بلغ خبرهم إلى حلب، فبرز «الملك المنصور» خيمته، و ضربها شرقىّ حلب، على أرض «النّيرب» و «جبرين»، و خرجت العساكر، بخيمها حوله.

و وصل «الخوارزميّه» إلى «الفايا» ثم إلى «دير حافر» ثم إلى «الجبّول»، و امتدوا فى أرض «النّقره». و أقام «الملك المنصور»، و العسكر معه، فى الخيم، و يزك الخوارزميّه فى «تلّ عرن»، و يزك الملك المنصور على «بوشلا»، و العربان يناوشون «الخوارزميّه».

و عاث الخوارزميّه فى البلد، و أحرقوا الأبواب الّتى فى القرى، و أخذوا ما قدروا عليه، و كان الفساد فى هذه المرّه، أقلّ من المرّه الأولى.

و كان البلد قد أجفل، فلم ينتهبوا إلّا ما عجز أهله عن حمله، و تأخّر لقاء العسكر الخوارزميّه، لأنّهم لم يتكملوا العدّه، و رحل الخوارزميّه، فنزلوا

بقرب «الصافيه»، و مضوا إلى «سرمين»، و نهبوها، و دخلوا «دار الدّعوه»، و كان قد اجتمع فيها أمتعه كثيره للناس، ظنّا منهم أنّهم لاـ يجسرون على قربانها، خوفا من «الاسماعيليه»، فدخلوها قهرا، و نهبوا جميع ما كان فيها، و رحلوا إلى «معرّه النعمان» و نزل العسكر مع «الملك المنصور» على «تلّ السّلطان» ثم رحلوا إلى «الحيار».

و رحل «الخوارزميّه» إلى «كفرطاب»، و جفل البلد بين أيديهم، و أحرقوا «كفرطاب»، و ساروا إلى «شيزر»، و تحيّز أهلها إلى المدينه التى تحت القلعه، فهجموا الربض، و احتمت المدينه التى تحت القلعه يوما، ثم هجموها فى اليوم الثانى، و نهبوا ما أمكنهم نهبه.

و أرسل عليهم أهل القلعه الجروخ، و الحجاره، فقتلوا منهم جماعه وافره، و بلغهم إستعداد عسكر حلب، للقائهم، و أنّهم قد وقفوا بينهم و بين بلادهم، للقائهم، فطلبوا ناحيه «حماه»، و جاوزوها إلى جهه القبله.

فسارت العساكر الحلبيّه، لقصدهم، فقصدوا ناحيه «سلميه»، ثم توجّهوا إلى ناحيه «الرّصافه»، و بلغ خبرهم عسكر حلب، فركبوا، و طلبوا مقاطعتهم، و وقع جمع من العرب بهم، بقرب «الرّصافه»، و قد تعبت خيولهم، و ضعفت لقوه السير، و قلّه الزاد و العلف، فألقوا أثقالهم كلّها، و الغنائم التى كانت معهم من البلاد، و أرسلوا خلقا ممّن كانوا أسروه من بلد حلب، و شيزر، و كفرطاب؛ و ساروا طالبى «الرّقّه» مجدّين فى السّير، و اشتغل العرب، و من كان معهم من الجند، بنهب ما ألقوه، و وصل

«الخوارزميّه» إلى الفرات، مقابل «الرّقّه»- غربى البليل و شماليّه- بكره الاثنين خامس شعبان.

و أما الملك المنصور و عسكر حلب، فإنّهم وصلوا إلى «صفّين»، و ساقوا سوقا قويا، ليسبقوا الخوارزميّه إلى الماء، و يحولوا بينهم و بين العبور إلى «الرقه»، فوصلوا بعد وصول الخوارزميه بساعه، فوجدوا الخوارزميه قد احتموا فى «بستان البليل»، و أخذوا منها الأبواب، و جعلوها ستائر عليهم، و حفروا خندقا عليهم، فقاتلوهم إلى بعد العشاء، و أخذوا من الأغنام، التى لهم، شيئا كثيرا، و لم يكن عندهم علوفه لدوابّهم، و لا زاد لأنفسهم، فعادوا فى اللّيل إلى منزلتهم «بصفّين»، و نام جماعه من الرجاله فى «البليل»، فوقع عليه «الخوارزميّه» فقتلوهم، و عبر الخوارزميّه إلى «الرّقه»، و قد هلكت دوابّهم إلّا القليل، و أكثرهم رجّاله؛ و سروا إلى «حرّان»، و أحضروا لهم دوابّ ركبوها، و توجهوا إلى «حرّان».

و أراد «الملك المنصور» العبور من جسر «قلعه جعبر»، فلم يمكنه لقلّه العلوفه، فسار بالعساكر إلى «البيره»، و عبر من عبرها بالعسكر و الجموع.

و سار حتى نزل ما بين «سروج» و «الرّها».

و وصل الخوارزميّه ليكبسوا اليزك، فعلموا بهم، و تاهوا فى اللّيل، و ركب العسكر، فعادوا و العسكر فى آثارهم، إلى «سروج»، و لم ينالوا زبده، و وصلوا إلى «حرّان»، و جمعوا جمعا كثيرا، حتى أخذوا عوامّ «حرّان»، و ألزموهم بالخروج معهم، ليكثروا بهم السواد، و وصلوا إلى

قرب «الرّها» إلى جبل يقال له «جلهمان» و اجتمعوا عليه، و رتّبوا عسكرهم، و كثّروا سوادهم بالجمال، و عملوا رايات من القصب، على الجمال، ليلقوا الرّعب فى قلوب العسكر، بتكثير السواد.

و ركب العسكر من منزلته، بعد أن وصل رسول، من عسكر «الرّوم»، يخبر بوصوله فى النجده، بعد حطّ الخيم للرّحيل، فلم يتوقّفوا.

[البطش بالخوارزميه]

و ساروا، إلى أن وصلوا إلى «الخوارزميّه»، يوم الأربعاء الحادى و العشرين، من شهر رمضان، سنه ثمان و ثلاثين و ستمائه، و التقوا، و كسر «الخوارزميّه»، و استبيح عسكرهم، و هربوا، و العساكر فى آثارهم، إلى أن حال اللّيل بينهم و بينهم فعاد العسكر، و وصل الخوارزميّه إلى «حرّان» و أخذوا نساءهم و هربوا، و رتبوا فى قلعه «حرّان» واليا من جهه «بركه خان»، و ساروا، و وصل «الملك المنصور» و العساكر إليها، فوكّل بالقلعه من يحصرها، و ساروا خلف الخوارزميه إلى «الخابور»، و الخوارزميّه منهزمون، و ألقوا أثقالهم، و بعض أولادهم، و نزلوا فى طريقهم على «الفرات»، فجاءهم السّيل فى الليل، فأغرق منهم جمعا كثيرا، و دخلوا إلى بلد «عانه» و احتموا فيه لأنه بلد الخليفه.

و زيّنت مدينه حلب أياما لهذه البشرى. و ضربت البشائر، و وصلت أعلامهم و أسراؤهم، إلى حلب. و اعتصمت القلعه «بحرّان» أياما، ثم سلّمت إلى الحلبيّين، و أخرج من كان بها من الأمراء، من أمراء حلب و أقارب السّلطان، و بادر «بدر الدّين لؤلؤ» إلى «نصيبين»، و إلى «دارا» فاستولى عليهما، و استخلص من «دارا» عمّ السلطان الملك «المعظّم

تورانشاه»، و استدعاه إلى الموصل، و قدّم له مراكب، و ثيابا، و تحفا، كثيره، و سيّره إلى العسكر، و استولى العسكر الحلبيّ، على «حرّان»، و «سروج»، و «الرها»، و «رأس عين»، و «جملين»، و «الموزر»، و «الرقه»، و أعمال ذلك، و استولى «الملك المنصور» على بلد «الخابور» و «قرقيسيا».

و استولى نوّاب «صاحب الرّوم» على «السويداء»، بعد إستيلاء عسكر حلب عليها، لكونها من أعمال «آمد». و وصل نجده ملك الرّوم، بعد الكسره، فسيّرت إليهم الخلع، و النفقات، و ساروا إلى «آمد»، و التقوا بعساكر الرّوم، و حاصروها إلى أن اتّفقوا مع صاحبها ولد «الملك الصالح» على أن أبقوا بيده «حصن كيفا» و أعماله، و سلم إليهم «آمد». و أقام «الخوارزميه» ببلاد الخليفه، إلى أن دخلت سنه تسع و ثلاثين و ستمائه.

و خرجوا إلى ناحيه «الموصل»، و اتفقوا مع صاحبها، إلى أن أظهر إليهم المسالمه، و سلّم إليهم «نصيبين»، و اتفقوا مع الملك «المظفّر شهاب الدّين غازى» بن الملك العادل- صاحب ميافارقين- و سيّر إلى حلب، و أعلمهم بذلك، و طلب موافقته، و اليمين له، على أنه إن قصده «سلطان الرّوم» دافعوا عنه، و كان قد استشعر من جهته، فلم يوافقه الحلبيّون على ذلك، و وصل إليه «الخوارزميّه» و اتفقوا على قصد «آمد»، فبرزت العساكر من حلب، و مقدّمها الملك «المعظّم توارنشاه»، و خرجت إلى «حرّان»، فى صفر، من سنه تسع و ثلاثين، و ساروا بأجمعهم إلى آمد، و دفعوا الخوارزميه عنها، و رحلوا عنها إلى «ميّافارقين»، فأغاروا على رستاقها، و نهبوا بلدها، و اعتصم الخوارزميه بحاضرها، خارج البلد.

و وصلت العساكر و أقامت قريبا من «ميافارقين»، و جرت لهم معهم وقعات، إلى أن تهادنوا، على أن يقطع ملك «الرّوم» الخوارزميه، ما كان أقطاعا لهم فى بلاده، و أنهم يكونون مقيمين فى أطراف بلاده، و على أن الملكه «الخاتون» بحلب، تعطى أخاها الملك المظفّر، ما تختاره، من غير اشتراط عليها، و على أن يكونوا و «شهاب الدّين غازى» سلما، لمن هو داخل فى هدنتهم- و كان صاحب ماردين قد حلف للملك الناصر- و رجع العسكر الحلبى، فلم ينتظم من الأمر الّذى قرّروه شى ء، و وصل رسل الملك «المظفّر»، و رسل «الخوارزميّه». و عادوا من غير اتّفاق. و أطلق أسرى «الخوارزميه» من حلب.

و خرج «الملك المظفّر» و الخوارزميه، و وصلوا إلى بلد «الموصل».

و عاد صاحب «ماردين» إلى موافقتهم، و نزلوا على «الموصل»، و نهبوا رستاقها، و استاقوا مواشيها، ثم توجّهوا إلى ناحيه «الخابور».

و اتّفق الأمر على أن ورد «الملك المنصور»- صاحب حمص- إلى حلب. و خرج السّلطان «الملك النّاصر»، و أكابر المدينه، و التقوه إلى «الوضيحى». و وصل إلى ظاهر حلب، فى «......»(۱) و نزل بدار «علم الدّين قيصر»، و جمع العساكر، و توجّه إلى بلاد «الجزيره».

و وصل «الملك المظفّر» و «الخوارزميّه»- بعد أن عبر «الملك المنصور» الفرات- إلى «رأس عين»، و اعتصم أهلها، مع العسكر الّذى كان بها،

۱- فراغ بالأصل.

و كـان معهم جمـاعه، من الرّمـاه، و الجرخيه، من الفرنـج، فـأمّنوا أهلهـا، و دخلوهـا، و أخـذوا من كـان بها من العسـكر. و رحل «الملـك المنصور» و العسـكر من «الفرات» إلى «حرّان»، فعاد الملك المظفّر و الخوارزميّه إلى «ميّافارقين»، و أطلقوا من كان بها، فى صـحبتهم، من العسـكر الّذين أخذوهم من «رأس عين»، ثم توّجه «الملك المنصور» و العسـكر إلى آمد، و اجتمعوا بمن كان بها من عسكر الرّوم، و أقاموا ينتظرون وصول عساكر «الرّوم»، مع الدهليز، لمنازله «ميافارقين».

و توفّى «الملك الحافظ أرسـلان شاه»، ابن الملك العادل، بقلعه «عزاز»، و نقل تابوته إلى مدينه حلب. و خرج السّـلطان «الملك الناصـر»، و أعيـان البلـده، و صـلّوا عليه، و دفن فى «الفردوس»، فى المكـان الـذى أنشـأته أخته «الملكه الخـاتون»، و تسـلّم نواب «الملك النّاصر» قلعه «عزاز» من نوّابه من غير ممانعه، و ذلك كلّه، فى ذى الحجه، من سنه تسع و ثلاثين و ستمائه.

[ظهور التتار]

و اتفـق أن خرج «التتـار» إلى «أرزن الرّوم»، و اشـتغل «الرّوم» بهـم، و أغـاروا إلى بلـد «خرتـبرت» و خـاف «الملـك المنصـور» و العسـكر، مـن إقـامتهم فى تلـك البلاـد، و أنّهـم لاـ يـأمنون مـن كبسه من جهه «التتـار»، فعـادوا إلى «رأس عين»، فخرج «الملك المظفّر» و «الخـوارزميّه»، إلى «دنيسـر»، فخرج «الملـك المنصور» إلى «الجرجب»، و سـاروا إلى جهتهم. فوصـلهم الخـبر أنهم قد نزلوا «الخابور»، فساروا إلى جهتهم، و نزلوا «المجـدل»، و كان قـد انضاف إلى «الخوارزميّه» جمع عظيم، من «التركمان»، يقدمهم أمير يقال له

«ابن دودى»، حتّى بلغ من أمره أنّه قال للملك المظفّر: «أنا أكسرهم بالجوابنه الّذين معى». و كان عدّتهم سبعين ألف «جوبان» غير الخياله من التركمان.

و رحل «الملك المظفّر»، حتّى نزل قريبا من «المجدل»، فعلم به «الملك المنصور»، فأشار الأمير «شمس الدّين لؤلؤ الأمينى» بمبادرتهم، و الرحيل إليهم فى تلك السّاعه، فرحلوا، و وافوهم، و قد نزلوا، فى يوم الخميس، الثالث و العشرين، من صفر، من سنه أربعين و ستمائه، فركبوا، و التقى الصفّان، فما هو إلّا أن التقوا، و ولى «الملك المظفّر» منهزما، «و الخوارزميه»، و حالت الخيم بينهم و بينهم فسلّموا، و قتل منهم جماعه، و وقع العسكر فى الخيم، و الخركاهات، و بها الأقمشه و النّساء، فنهبوا جميع ما فى العسكر، و أخذوا النساء و جميع ما كان معهنّ من الأموال، و الحلىّ، و الذّهب، و لم يفلت من النساء أحد.

و نزل «الملك المنصور»، فى خيمه «الملك المظفّر» و استولى على خزانته، و على جميع ما كان فى وطاقه، و غنم العسكر من الخيل، و البغال، و الجمال، و الآلات، و الأغنام، ما لا يحصى، و بلغت الأغنام المنهوبه إلى «الموصل» و «حلب» و «حماه» و «حمص»، بحيث بيع الرأس من الغنم فى العسكر، بأبخس الأثمان، و ضربت البشائر بحلب، و زيّنت أياما سبعه، و توجّه «الملك المنصور»، و العساكر إلى حلب، و خرج السلطان «الملك الناصر» إلى «قلعه جعبر». و توجّه إلى «منبج» للقائهم، و اجتمع بهم،

فوصلوا إلى حلب، يوم الأربعاء مستهلّ جمادى الأولى، من سنه أربعين و ستمائه.

و طلع «للخاتون الملكه» قرحه فى مراق البطن، و ازداد و رمها، و حدث لها حمّى بسببها، و سار «الملك المنصور» ليله الجمعه ثالث الشهر.

و توجّه فى صحبته نجده من حلب، لتقصد بلاد الفرنج بناحيه «طرابلس»، و قوى مرض «الملكه الخاتون»، إلى أن توفّيت إلى رحمه اللّه تعالى، ليله الجمعه الحاديه عشره، من جمادى الأولى، من سنه أربعين و ستمائه. و دفنت فى الحجره بالقلعه، تجاه الصفّه، التى دفن فيها ولدها الملك العزيز- رحمها اللّه- و كان مولدها بقلعه حلب، حين كانت فى ولايه أبيها «الملك العادل»، إما فى سنه إحدى أو اثنتين و ثمانين و خمسمائه، و بلغنى أنّه كان عنده ضيف، فلمّا أخبر بولادتها، سمّاها «ضيفه» لذلك.

و أمر السّلطان «الملك الناصر» فى ملكه، و نهى باشاره وزيره «جمال الدّين الأكرم» و الأمير «جمال الدوله إقبال الخاتونى»، و علّم السلطان فى التواقيع، و أشهد عليه بتمليك الأمير «جمال الدّوله» نصف الملوحه، و الحصّه الجاريه، فى ملك بيت المال «بالناعوره». و أقرّ على نفسه بالبلوغ، و ملّك الوزير الحصّه التى بأيدى نوّاب بيت المال «تقيل» و رحاها، و جعل يجلس فى «دار العدل»، فى كلّ يوم اثنين و خميس، بعد الركوب، و ترفع إليه المظالم، و خلع على امرائه و كبراء البلد، و أقطع الأمير «جمال الدّوله» «عزاز» و قلعتها و ما كان فى يد «الملك الحافظ» بن الملك العادل، و جميع ما كان من

الحواصل، فى الأماكن المذكوره، و ذلك فى الحادى و العشرين، من جمادى الأولى من سنه أربعين و ستمائه.

و عاثت «الخوارزميّه» و «التركمان» على بلاد «الجزيره»، فخرج عسكر حلب، و مقدّمهم الأمير «جمال الدّوله» فى جمادى الآخره، و ساروا، و اجتمعوا فى «رأس عين». فتجمّع الخوارزميه، و انضووا إلى صاحب «ماردين»، و احتموا بالجبل، فوصل عسكر حلب، و نزلوا مقابلتهم، تحت الجبل، و خندقوا حولهم، و جرت لهم معهم وقعات، و تضرّر عسكر حلب، بالمقام، لقله العلوفه، إلى أن ورد «نائب المملكه بالرّوم» و هو «الأمير شمس الدّين الأصبهانى» إلى «شهاب الدّين غازى»- و إلى صاحب ماردين- و الخوارزميه، و أصلح بينهم على أن يعطى صاحب «ماردين» «رأس عين». و أرضى «ملك الروم» الخوارزميه «بخرتبرت»، و شى ء من البلاد، و الملك المظفّر غازى «بخلاط»، و توجّهت العساكر،- و «النائب الاصبهانى»، فى جملتها- و خرج السّلطان «الملك الناصر»، و تلقّاهم إلى «منبج»، و دخل «النّائب» إلى حلب، يوم السبت التاسع عشر من شوّال.

و دخل السّلطان و العسكر، يوم الثلاثاء الثانى و العشرين من شوّال، و ورد مع «النّائب» أموال عظيمه، لتستخدم بها العساكر من حلب نجده، و مقدّمها «الناصح الفارسى»، فى ذى الحجه، من سنه أربعين و ستمائه، فالتقاهم السّلطان «غياث الدّين»، «بسيواس» أحسن لقاء، و أعطاهم عطاء سنيّا، و فوّض تدبير العسكر إلى «الناصح أبى المعالى الفارسى»، و فرح أهل «بلاد الرّوم»، و قويت قلوبهم بنجده حلب.

و سار «السّلطان» من «سيواس» إلى «أقشهر»(۱)، و وصله الخبر بوصول «التتار»، فسيّر بعض أمرائه، و عسكر حلب، ليكشفوهم. فوصلوا إليهم، و نشب القتال بينهم، و وقعت بينهم حملات، فانهزم «التتار»، بين أيديهم، ثم تكاثروا، و حملوا عليهم، فانكسر عسكر «الروم» و ثبت الحلبيون»، و جرى بينهم كرّات، و خرج عليهم كمينان، من اليمين و اليسار فأحدقوا بهم، فلم يسلم منهم إلّا من حمل، و خرج من بينهم، و ذلك، في يوم الخميس، الثالث عشر من المحرّم، سنه إحدى و أربعين و ستمائه.

و انهزم ملك «الرّوم» في الليل، ليله الجمعه، و أجفل أهل بلاد الرّوم، إلى حلب و أعمالها، و عاث «التّركمان» في أطراف الرّوم، و نهبوا من خرج إلى الشّام(۲).

۱- على مقربه من قونيه.

۲- جاء في نهايه هذه الصفحه من مخطوطه باريس يقول كاتبها: كتبت هذه النسخه من خط مؤلفها المولى الصاحب كمال الدين أبي حفص عمر بن أحمد بن عبد اللّه بن أبي جراده الحلبي، رحمه اللّه تعالى، و هذا آخر ما وجدته بخطه. و ذلك لإحدى عشره ليله خلت من ربيع الآخر سنه ست و سبعين و ستمائه، أحسن اللّه ختامها، و الحمد للّه، و صلاته على نبيه محمد و سلم.

الفهارس العامه

اشاره

الآیات القرآنیه الکریمه

الشعر

الشطر الأول/ القافيه/ رقم الصفحه

ص: ۷۱۷

أعلام الجماعات

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف السین

حرف الشین

حرف الطاء

حرف العین

حرف الغین

ص: ٧٢٣

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الياء

اليمانيه: ٧١.

أعلام الأفراد

حرف الألف

ص: ۷۲۹

حرف الباء

ص: ۷۳۱

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

أبو الجيش بن طولون ٩١- ٩٢- ١٨٣

حرف الحاء

الحارث بن سعيد (أبو فراس) ١٠٨- ١١٩- ١٢٧- ١٤٨

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

ريمند الفرنجی ۴۵۷- ۴۶۳

حرف الزاى

حرف السين

سالم بن علی بن تغلب ۲۲۹

ص: ۷۴۳

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

العادل بن أيوب (الملك) ٥٤٥- ٥٦١- ٥٦٢- ٥٦٣- ٥٦٤- ٥٦٥- ٥٦٦- ٥٦٨- ٥٦٩- ٥٧٠- ٥٧٢- ٥٧٩- ٥٨٥- ٥٩٧-

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

ابن لاون مليح بن لاون

لجه التركى ۴۶۵

لؤلؤ الأمينى ۶۷۷- ۶۹۷- ۷۰۶

لؤلؤ (بدر الدين) ۶۴۹- ۶۵۰- ۶۵۱- ۶۸۹- ۶۸۰- ۶۹۲- ۷۰۲

لؤلؤ السيفى ۱۶۷- ۱۷۱- ۱۷۲- ۱۷۳- ۱۷۴- ۱۷۵- ۱۷۶-

حرف الميم

المجاهد (الملك) صاحب حمص ٦١٦- ٦١٩- ٦٢١- ٦٢٢- ٦٤٤- ٦٧٣- ٦٧٨- ٦٨٤- ٦٨٨- ٦٩٢

مجد الدين بن الدايه أبو بكر بن الدايه

مجد الدين بن العجمى ٦٧٠

مجد الدين أخو الفقيه عيسى ٦١٣

محمد بن عيسى النامی ۱۶۰

محمـد بن غـازی (الملك العزيز) ۶۱۸- ۶۳۴- ۶۳۷- ۶۳۸- ۶۳۹- ۶۴۰- ۶۴۳- ۶۴۶- ۶۴۷- ۶۵۶- ۶۶۵- ۶۶۹- ۶۷۰- ۶۷۱- ۶۷۲- ۶۷۶- ۶۷۷- ۶۸۶- ۶۸۷- ۷۰۷

محمود بن زائده ۲۳۹- ۲۴۹

محمـود بن زنکی ۴۷۲ - ۴۷۳ - ۴۷۴ - ۴۷۵ - ۴۷۷ - ۴۷۸ - ۴۷۹ - ۴۸۰ - ۴۸۳ - ۴۸۴ - ۴۸۵ - ۴۸۶ - ۴۸۷ - ۴۸۸ - ۴۸۹ - ۴۹۰ - ۴۹۱ - ۴۹۲ - ۴۹۳ - ۴۹۴ - ۴۹۵ - ۴۹۶ - ۴۹۸ - ۴۹۹ - ۵۰۱ - ۵۰۲ - ۵۰۳ - ۵۰۵ - ۵۰۶ - ۵۰۷ - ۵۰۸ - ۵۰۹ - ۵۱۱ - ۵۱۲ - ۵۱۳ - ۵۱۸ - ۵۱۹ - ۵۲۰ - ۵۳۲ - ۵۴۰ - ۵۴۳ - ۵۴۶ - ۵۷۱

المظفر (الملک) بن المنصور ۶۵۳- ۶۶۶- ۶۷۲- ۶۷۳- ۶۷۴- ۶۷۸- ۶۸۳- ۶۸۵- ۷۰۴

مظفر الدين جرديک ۶۵۴- ۶۶۱

مظفر الدين بن زين الدين ۵۲۵- ۵۴۰- ۵۴۲- ۵۴۳- ۵۴۴- ۵۴۵- ۵۴۷-

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

أعلام الأماكن

حرف الألف

حرف الباء

البليل ٧٠١

بهنسى ٥٠٨- ٦٤٣- ٦٤٥- ٦٧٤- ٦٧٠

بوشلا ١٨٢- ١٨٣- ٦٩٩

ص: ٧٨٣

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

ص: ۷۸۶

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العین

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

قطربل ۱۰۱

القعقاعیه ۵۹

قلعه آشب ۴۶۶

قلعه نادر ۳۸۲- ۳۸۳- ۵۴۹

قلعه نجم ۱۰۶- ۵۵۰- ۶۱۸- ۶۲۳- ۶۳۸

قلعه هاب ۳۰۷- ۳۶۱

حرف الكاف

حرف اللام

حرف المیم

ماردین ۳۸۴- ۳۸۵- ۳۸۸- ۳۹۴- ۳۹۷- ۴۰۱- ۴۰۹- ۴۰۷- ۴۱۷- ۴۱۹- ۴۲۱- ۴۹۳- ۵۲۳- ۵۲۸- ۵۵۰- ۶۰۱- ۶۱۲- ۶۱۴-
۶۲۳- ۶۵۱- ۶۹۵- ۷۰۴- ۷۰۸

ص: ۸۰۷

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

ص: ٨١١

المحتوى العام

رحيل صلاح الدين إلى بلد الاسماعيليه ٥٢٨

ص: ۸۲۱

صلح الرمله ۵۹۷

ص: ٨٢٢

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

المقدمة:

تأسّس مركز القائمیة للدراسات الکمبیوتریة في أصفهان بإشراف آیة الله الحاج السید حسن فقیه الإمامي عام ۱۴۲۶ الهجری في المجالات الدینیة والثقافیة والعلمیة معتمداً علی النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائیین والمثقفین في الجامعات والحوزات العلمیة.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراکز القائمة بتوفیر المصادر في العلوم الإسلامیة وتبعثرها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول علی مصادرها أحیاناً، تهدف مؤسسة القائمیة للدراسات الکمبیوتریة في أصفهان إلی التوفیر الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلی الباحثین في العلوم الإسلامیة وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الکترونیة من الکتب والمقالات العلمیة والدراسات المفیدة وهي منظمة في برامج إلکترونیة وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثین والمثقفین والراغبین فیها.

وتحاول المؤسسة تقدیم الخدمة معتمدة علی النظرة العلمیة البحتة البعیدة من التعصبات الشخصیة والاجتماعیة والسیاسیة والقومیة وعلی أساس خطة تنوي تنظیم الأعمال والمنشورات الصادرة من جمیع مراکز الشیعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامیة وتعالیم القرآن وآل بیت النبيّ علیهم السلام

تحفیز الناس خصوصا الشباب علی دراسة أدقّ في المسائل الدینیة

تنزیل البرامج المفیدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثین والمحققین في الحوازت العلمیة والجامعات

توسیع عام لفکرة المطالعة

تهمید الأرضیة لتحریض المنشورات والکتّاب علی تقدیم آثارهم لتنظیمها في ملفات الکترونیة

السیاسات:

مراعاة القوانین والعمل حسب المعاییر القانونیة

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراکز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتینیة وتکرار المحاولات السابقة

العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات

من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات فی مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمية الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ((sms

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسة وتطبيقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

١.JAVA

٢.ANDROID

٣.EPUB

۴.CHM

۵.PDF

۶.HTML

٧.CHM

٨.GHB

إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

١.ANDROID

٢.IOS

٣.WINDOWS PHONE

۴.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فى تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزى

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونى : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزى ٠٣١٣۴۴٩٠١٢۵

هاتف المكتب فى طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ ـ ٠٢١

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.


مركز
القائمية
اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹